لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

الدكتور توفيق برّو

القضيّة العربيّة في الحرب العالميّة الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

القضية العربية

في الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٨٩

الدكتور توفيق برّو

أستاذ التاريخ في جامعة حلب

القضيّة العربيّة
في الحرب العالميّة الأولى
١٩١٤ - ١٩١٨

هذا الكتاب هو أطروحة تقدم بها الأستاذ توفيق برو للحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ العربي الحديث من جامعة عين شمس بالقاهرة.

وقد نوقشت هذه الأطروحة من قبل لجنة مؤلفة من الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، والدكتور محمد أنيس والدكتور عبد الحميد البطريق وذلك يوم الأحد في ١٩ | ٩ | ١٩٦٥ على مدرج المرحوم محمد شفيق غربال في كلية الآداب بجامعة عين شمس ــ القاهرة. وقد نالت درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى.

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

القضية العربية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ــ١٩١٨/توفيق برّو. ط. ١. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩. ــ ٤٨٢ ص. : خرائط؛ ٢٤ سم.

١ ــ ٩٠٩ر٩٥٦ ب ر و ق ٢ ــ ٠٨١ر٩٥٦ ب ر و ق ٣ ــ العنوان ٤ ــ برّو
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٩/٦/٨٠٧

رقم الإصدار ٤٣٥

المقدمة

هذا الكتاب الذي أتقدم به للقراء بعنوان « القضية العربية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ »، كنت قد تقدمت به، في ١٩ أيلول ١٩٦٥، بوصفه رسالة جامعية للحصول على درجة دكتوراة الدولة في تاريخ العرب الحديث، من جامعة عين شمس بالقاهرة، بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، وكيل الجامعة آنذاك، وعنوان الرسالة في الأصل « العرب والترك في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ ». وهي في الواقع تتمة لرسالة سابقة عنوانها « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـــ ١٩١٤ »، قدمتها في نيسان ١٩٦٠، للحصول على درجة الماجستير من معهد البحوث والدراسات العربية، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، بإشراف المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال، مدير المعهد في ذلك الحين.

وإذا جاز لي أن أفصح عن بعض خوالجي في مقدمتي هذه، فهي أن أعرب عن الشعور بالسعادة التي غمرتني، حينما فوجئت بأن القاعة، التي خصصت لمناقشة رسالتي للدكتوراة، كانت تحمل اسم « قاعة محمد شفيق غربال »، وهو أستاذي الذي أدين له بالفضل العظيم، والذي حدب علينا، نحن الطلاب الستة السوريين(*) في المعهد المذكور آنذاك، حدب الأب على أبنائه، ولم يكن يعاملنا كطلاب بل كأصدقاء. إن إطلاق اسم ذلك المؤرخ العَلَم، في عصرنا الحديث، على تلك القاعة هو، لاشك، لفتة كريمة، تنم عن حب ووفاء لذكرى ذلك المؤرخ الجليل، قامت بها جامعة عين شمس لتخليد ذكراه

(*) كان زملائي الخمسة من أعضاء البعثة السورية إلى المعهد المذكور هم: في قسم آداب اللغة العربية الدكاترة: صبري الأشتر وعبد الكريم الأشتر وعمر الدقاق، وفي قسم التاريخ الدكتوران أحمد طربين ومحمد خير فارس.

العطرة الخالدة، بعد أن اختاره الله إلى جواره. كما هي بادرة مشكورة منها أن أتاحت لي شرف المثول فيها أمام لجنة المناقشة.

لقد شجعني، على معالجة الموضوعين المنوه عنهما، حرص كريم من أساتذتي الأفاضل في معهد البحوث والدراسات العربية، وفي جامعة عين شمس ـــ نظراً للصعوبة الكامنة في طبيعة المادة، لاسيما الوقوف على مصادرها الأصلية، ومعرفتي باللغة التركية ـــ على اختياري للقيام بواجب البحث فيهما بحثاً علمياً جاداً، ذلك أن تلك الفترة التاريخية لاتزال ـــ من حيث الاعتبار العلمي المحض ـــ ثغرة تاريخية من الواجب تغطيتها ببحث شامل وعميق. صحيح أن الموضوعين، قبل شروعي بمعالجتهما، قد جرى البحث بعض جوانبهما على وجه ما، من قبل أساتذة وكتاب عديدين، إنما لم يكن ذلك ـــ في أغلب الحالات ـــ بالطريقة العلمية المنهجية الأكاديمية، بحيث يتناول الباحث جميع جوانبها بالشمول والتفصيل، ذلك الذي بذلت الجهد في إيفائه ما يستحق من الاهتمام.

ولا يفوتني أن أنوّه بأن عشرين سنة قد مضت على اعتماد هذه الرسالة، وهي لم تزل حبيسة دروج مكتبي، وآن لها أن ترى النور، لاسيما أنها تتمة لأحداث فترة سابقة من عهود الحكم العثماني للوطن العربي، أحداث لا تخفى أهميتها، من حيث كونها تنم عن يقظة الشعور العربي القومي، وانتفاضته الجبارة ضد البطش والطغيان، حتى كادت أساليب الحكام الترك القمعية أن تطمس مقومات الكيان العربي، وتمحو لغته وتقاليده وأمجاده، فترة شهدت نهاياتها أول انبعاث للحكم العربي الصرف في العصر الحديث، بعد أن طالت كبوة الجواد العربي، وأضحت عهود العرب الزاهرة في حالة سُبات لم ينهضوا منها، إلا حين هبت عليهم رياح يقظة، حركت منهم الهمم لنفض نير الطغيان العثماني، الذي ران على كاهلهم خمسة قرون، كادوا خلالها أن يفقدوا مقومات قوميتهم، وتصبح أمجادهم السابقة وحضارتهم الرائعة السالفة طيَّ النسيان.

وقد عانى العرب منذ بدايات فترة يقظتهم القومية ألواناً من الاستبداد التركي العثماني، ثم الاتحادي، ومن الاستهتار بمطالبهم الحقة، بأن يكون لهم في مجال الحكم إسهام يتناسب مع نسبتهم العددية بين سكان السلطنة، ومع طموحهم القومي، ما دفعهم إلى التفكير بما ينقذهم من الجور العثماني، إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، وزجت السلطنة نفسها في أتونها، نتيجة لنزوة جامحة، من حكامهم المتغطرسين، في ولوجها إلى جانب الدولة الألمانية، الأمر الذي أتاح لهذه الحرب الطاحنة أن تجرف الشعبين التركي

والعربي في غمار كارثة أحرقت الأخضر واليابس. وأن تُفني من الشعبين ملايين النفوس البشرية، دون أن يجني منها الاتحاديون، الذين قادوا الدولة إلى الهلاك، إلا الدمار والخراب والخزي والعار.

والواقع أن دخول الدولة العثمانية في الحرب قد تمخض عن تحول هام وخطير في نضال العرب، الذي تميز، في الفترة الأولى من العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤، بمرحلتين. كان نضالهم، في المرحلة الأولى ١٩٠٨ — ١٩١٢، لا يعدو أن يكون المطالبة بإصلاح داخلي، يضمن حقوق العرب في إدارة شؤون السلطنة، من حيث أن يكون لهم إسهام في الحكم، ولو على غير قدم المساواة مع الترك، هذا الذي كان من حقهم أن ينالوه، على اعتبار أنهم يشكلون نصف السكان، بل بنسبة معقولة تنفي عنهم المهانة والاستهتار بحقوقهم القومية، التي بدؤوا يشعرون بتجاهل الاتحاديين لها، وبسعيهم إلى محوها في سياسة مرسومة لتتريك عناصر الدولة غير التركية.

غير أن ازدياد استبداد الترك الاتحاديين، واستخدامهم الأساليب القسرية والقمعية، واتباعهم سياسة طغيان دموية، قد حملهم على المقاومة بصلابة، جعلت أفكارهم تتطور، من خطة التعايش مع الترك على أساس تحقيق مطالبهم الإصلاحية، إلى النضال — خلال المرحلة الثانية ١٩١٢ — ١٩١٤ — في سبيل تحقيق لا مركزية الحكم في ولاياتهم. ودام الأمر كذلك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، فكان لا بد من توتر العلاقات، بين العرب والترك، توتراً جرّ في النهاية إلى الانفصال بين الأمتين، في أعقاب دخول الاتحاديين في الحرب إلى جانب حليفتهم ألمانيا.

وهكذا فإن ما يميز فترة العلاقات العربية — التركية خلال الحرب هو التوتر الشديد، الذي بلغ حد الإنفصال. صحيح أن الفترة السابقة (١٩٠٨ — ١٩١٤) قد سجلت توتراً شديداً، ونقاشاً حاداً، واحتكاكاً عنيفاً بين القوميتين الناشئتين، إنما لم يتعد ذلك مطالبة العرب بحقوقهم القومية، وبالحكم اللامركزي في ولاياتهم، ضمن الرابطة العثمانية. باختصار لم تخرج المسألة عن حد النظريات والأماني، وإذا تعدت ذلك فإلى نطاق التشاور والتفكير بصورة سرية. إنما بمجرد نشوب الحرب، ودخول السلطنة التركية فيها، دخلت القضية العربية في نطاق السياسة العالمية، بما رافقها من مفاوضات وعهود ومواثيق عقدت بين العرب والحلفاء، ومن مساهمة العرب فعلاً في الحرب. لقد استجاب العرب، في الفترة السابقة، لداعي الواجب في الحفاظ على وحدة الدولة

العثمانية، وعدم تفكك أوصالها. أما فترة الحرب فكانت صفحة جديدة في العلاقات بين الأمتين، تغلبت فيها فكرة الانفصال على الوحدة، ولم تعد أغلبية العاملين على الإصلاح العربي ترى في اللامركزية النظام الكفيل بإيصال العرب إلى حقوقهم، ما دام الأتراك لم تُخلص منهم النية في تنفيذ اتفاقات باريس، التي جرت عام ١٩١٣ بين العنصرين، وظلوا متمسكين بسياسة التتريك بالقوة. إلا أن فكرة الانفصال هذه لم تنشأ فجأة وبدون سبب، بل كان ثمة عوامل جديدة أثرت في الموقف، هذه العوامل التي ـــ وإن بدا عليها، نوعاً ما، طابع الأسباب المباشرة، بعد نشوب الحرب ـــ إلا أنها كانت عوامل قوية وحاسمة، لم يستطع العاملون في نطاق الجامعة الإسلامية ـــ العثمانية، الداعون إلى بقاء العلاقات بين الأمتين على سلامتها، صوناً لمصلحتهما المشتركة، وحفظاً لكيانهما من أن يضمحل أمام أطماع الدول الأجنبية، أن يقفوا في وجه تيارها. وإذ كانت الأحداث التي مرت خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٨ ـــ ١٩١٤، بما حفلت به من توتر واصطدام عنيفين لم يخل من مهاترات أحياناً ـــ وقد بحثتها مفصلاً في رسالتي السابقة «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني» ـــ تشكل بحد ذاتها السبب العميق لضغينة الترك على العرب، ولاشمئزاز العرب من الحكم التركي، وبالتالي العامل الأساسي للانفصال، الذي حصل بعد عام ١٩١٤ بين الأمتين، فقد لخصتها في مطلع رسالتي هذه، ضمن فصل تمهيدي قصير، واعتبرتها من جملة العوامل التي أثرت في الانفصال.

حلب ـــ الأول من شوال ١٤٠٩
الموافق السادس من أيار ١٩٨٩

نبذة عن نقد المصادر

لقد جرى تقسيم البحث إلى بابين كرست أولهما للعوامل الداخلية، والثاني للعوامل الخارجية التي كان لها أثر في الانفصال. ذلك أن الانفصال لم يحدث نتيجة لعوامل داخلية فقط، بل كان للدول الأوروبية الاستعمارية نصيب كبير في ذلك، إلى أن انتهى الأمر بالثورة العربية، وحرب التحرير. وقد قسمت كلاً من البابين إلى خمسة فصول، خصصتها للعوامل الكثيرة التي أثرت في احتدام الصراع بين الأمتين، حتى تم الانفصال بينهما.

ومن أهم الصعوبات التي اعترضتني في معالجة الموضوع أن بعض مصادر البحث، سواء منها العربية أو الأجنبية، لم تكن تُعنَى كثيراً بتحقيق صحة الحوادث، إذ يؤثر فيها الحقد أو الأهواء. كما أن المذكرات، على كثرة ما عثرت عليه منها، لم تكتب معظمها في أثناء الفترة، بل بعدها بزمن طويل. وهذا ما يجعل كتابها يتأثرون بالنتائج والأوضاع الجديدة، فتأتي أحكامهم مغايرة للواقع، أو متأثرة بكتابات الآخرين وذكرياتهم، التي اطلعوا عليها قبل تدوين مذكراتهم، ناهيك عن فعل النسيان، وتشويهه الذكريات. ولعل أدق المذكرات ما جاء عن الترك أنفسهم من الذين نشروها مباشرة بعد انتهاء الحرب، وكان أكثرهم صادقاً في معظم ما سرده منها. مثال ذلك مذكرات جمال باشا (الصغير)، ومذكرات عزيز بك التركي(*)، ومذكرات علي إحسان سابيس، التي سآتي على ذكرها. وقد كلفني البحث عن المصادر التركية بصورة خاصة الذهاب مرتين إلى الاستانة وأنقرة وآدنة في صيفين متعاقبين حصلت منها على ما يقارب عشرين مجلداً، بالإضافة إلى وثائق مقررات مجلس المبعوثان التركي من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ في ١٢ مجلداً، منشورة باسم «دستور — ترتيب ثاني» بالتركية القديمة، وكلها قد أفادتني إفادة كبيرة في توخي الحقائق.

(*) تركي كان مديراً لدائرة استخبارات جمال باشا بدمشق.

وقد درجت في كتابة بحثي على طريقة الاستناد إلى المصادر التي ألفها كتّاب كل منطقة في الحوادث التي دارت فيها، وإلى كتابات ومذكرات من كانت لهم علاقة أو اهتمام خاص بتلك الحوادث، ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ففيما يتعلق:

بالباب الأول: الفصل الأول (دخول تركيا في الحرب)، استندت في الدرجة الأولى على مؤلفات الترك بصورة عامة، وعلى مذكرات العسكريين منهم بصورة خاصة. فمن المذكرات ما كتبه العقيد علي إحسان سابيس، من أعضاء هيئة أركان حرب أنور باشا، بعنوان «مذكراتي عن الحرب Harb Hatiralerim». وقد عثرت منها على الجزئين الأول والثاني فقط. وقد التزم الكاتب فيها الصدق في سرد الحوادث، واتفق في كثير منها مع مذكرات اثنين آخرين من الترك هما غالب فاردار في كتابه «الدائرون في فلك الاتحاد والترقي Ittihat ve Terakki Içinde Dönenler»، وحسام الدين أرتورك في كتابه «ما وراء الستار في عهدين Iki Devrin Perde Arkasi». وكان الأول منهما ضابطاً في معية أمير اللواء مصطفى كمال باشا في حروب «أنا فارطه» في جبهة الدردنيل، ورجلاً من رجال الاستخبارات اللامعين في منظمة التشكيلات الخاصة السرية، التي سيرد ذكرها مفصلاً في البحث، ثم أصبح بعد الحرب من مدرسي التاريخ في المدارس التركية. والثاني كان عقيداً في الجيش التركي، ورئيس إحدى فرق منظمة التشكيلات الخاصة، التي لعبت دوراً كبيراً في اجتذاب الأنصار، ودس الدسائس وتحريك المؤامرات على الأعداء في مختلف أطراف العالم التي وصل أعضاؤها إليها. وقد أملى كلا الاثنين مذكراتهما على كاتب واحد هو (سامي نافذ طانسو). وكانت كتابات الثلاثة، وإن اختلفت في إبداء بعض الآراء، إلا أنها، في أكثر الأحيان، متفقة في سرد الحوادث. وإلى جانب هذه المذكرات كان اعتمادي كبيراً في هذا الفصل، وفي أغلب فصول الرسالة، على المؤرخ التركي الكبير البروفسور يوسف حكمت بايور في كتابه «تاريخ الانقلاب التركي Turk Inkilabi Tarihi»، ويقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، خصصها للحرب العالمية الأولى، من سلسلة طويلة من المؤلفات، تبلغ أكثر من ١٢ مجلداً، بحث فيها أحداث النهضة التركية الحديثة منذ ١٩٠٨ إلى العهد الجمهوري بتفاصيلها الدقيقة. ولم يغفل الأحداث التي جرت في رقعة البلاد العربية من الإفاضة والتفصيل. وتغلب على بحوثه الروح العلمية الجامعية، مع إيراد الشواهد والنصوص الأصلية، مدرجة بكاملها أحياناً. وقد استند على مصادر من شتى اللغات وكثيرة جداً. كما أن هناك مجموعة من المؤلفات لكاتب واحد هو أحمد بدوي كوران، من أعضاء جمعية الحرية والائتلاف المعارضة للاتحاديين، أولها «الحركات الإنقلابية في الإمبراطورية العثمانية والجمهورية التركية Osmanli Imparatorlugunde Ve Türkiye Cümhüriyetinde Inkilap Hareketleri»، والثاني «تاريخنا الثوري ورجال تركيا الفتاة Inkilab Tarihimiz ve Jön Türkler»، والثالث «تاريخنا الثوري وجمعية الاتحاد والترقي Inkilap Tarihimiz ve Ittihat ve Terakki». غير أنها تنطوي على بعض التحامل على الاتحاديين، من حيث الحكم على نتائج أعمالهم. لكن مؤلفها

لا يخرج عن الحقائق، وخاصة فيما سرده عن العرب. وقد استخدمت هذه المصادر في أغلب فصول البحث، كلما تأكد لي أن ما جاءت به جدير بالثقة. يضاف إلى هذه المصادر مذكرات جمال باشا (الكبير) باللغة العربية، والأصل التركي لها بالحروف اللاتينية Cemal Pashatiraleri. ومما لا غنى عن بيانه هنا أن الترجمة العربية لها، بقلم علي أحمد شكري، ليست أمينة وفيها كثير من النقص، وإهمال ترجمة مقاطع بل صحائف، عدا عن اختصار بعضها ومسخ معانيها، وعن كثير من التحوير في المعاني وفي الأسماء. ويظهر أنه عرّبها عن ترجمة لها بالإفرنسية أو الإنكليزية، يترجم مثلاً جامع أمية Omayade بكلمة (أوميادة) وتأتي في الطباعة (اورميادة)، وأسعد شقير (أسعد شكير)، وعبد الرحمن (عابدين رحمن)، وممتاز بك (مرينتاس بك)، ومحمد كرد علي (مهومد كيريد علي)، وعبد الكريم الخليل (عبد القادر الخليل)، ونخلة مطران (ناهل مطران)، وعبد الحميد الزهراوي (عبد الحميد لهرافي)، وصور (تيرا)، وحماة وحمص (هارما وهورنس)، وعبد القادر الخطيب (عبد القادر الخليل)، ومثل هذا شيء كثير. ولو أني لم أحصل على النسخة التركية منها لوقعت في زلات كثيرة. على أن الأسوأ من ذلك تلك المقدمة التي صدّر بها ترجمته، واعتبر أقوال جمال باشا شيئاً مسلماً بصحته، والتي هاجم فيها الإصلاحيين وثورة الشريف، واعتبر مظالم جمال باشا في سورية وجرائمه شيئاً مقبولاً، بل اعتبر أن جمالاً قد تساهل مع القوميين العرب «أكثر مما كان ينبغي في كثير من المواقف، التي كانت تقضي باستعمال الحزم والشدة، وأنه استعمل الرأفة مع من باعوا أنفسهم وضمائرهم للعدو...» (صفحة ب). إنني قرأت مؤلفات الأتراك، والحق أقول إنني لم أرَ في أشدها قسوة على العرب جزءاً ضئيلاً مما لمسته من تحامل المترجم على الحسين وأنجاله، وعلى الإصلاحيين العرب عامة، بل إن أكثرهم قد اعتبروا أن أكبر خطأ ارتكبه جمال باشا شنقه أحرار العرب، وأخذه أهل سورية بالشدة.

وهناك من المؤلفات التركية التي استعنت بها في هذا الفصل، وفي فصول البحث الأخرى، كتاب قيّم من تأليف المؤرخ التركي الشهير اسماعيل حامي دانيشمند، صاحب الحوليات التي تناولت التاريخ التركي بالتفصيل، منذ نشأة العثمانيين حتى الآن واسمه «حولية التاريخ العثماني الموضحة Izahli Osmanli Tarihi Kronologisi». وقد عالج الأمور فيها بروح الحياد المطلق وبالإنصاف. وكان لي مفيداً ومعيناً، وخاصة في توخي دقة التواريخ التي أعطاها عناية خاصة وزائدة. ومنها مذكرات لطفي سيماوي، رئيس ديوان السلطان محمد رشاد، وقد سماها «مشاهداتي في بلاط السلطان محمد رشاد وخلفه» (سلطان محمد رشاد خانك وخلفنك سراينده كورد كلرم)، وهي مذكرات قيمة جداً، ودقيقة، وأمينة في سرد الحوادث وتقييم الأشخاص، لأن صاحبها متصل، بحكم منصبه، بها وبهم اتصالاً وثيقاً، وهو حيادي حياداً مطلقاً. وهناك من الكتب التي اعتمدت عليها في مختلف الفصول أيضاً كتاب ونستن تشرشل La Crise Mondiale

1915 - 1914 ، وكتاب بالإنكليزية لكاتب تركي أحمد أمين «Turkey And The War» ، وكتاب Hurewitz: Diplomacy In The Near And The Middle East, Documentary Records ويتضمن وثائق المعاهدات الانكليزية ـــ العربية المعقودة مع الحسين ، ومع بقية الأمارات العربية ، مع إيضاحات لمناسبات عقدها .

الفصل الثاني (حملة قناة السويس) : اعتمدت فيه ، بالإضافة إلى معظم ما سبق من مصادر ، على كتاب « كيف غزونا مصر » المُعرَّب عن التركية ، لمؤلفه العقيد التركي علي فؤاد بك ، وكان من أعضاء هيئة أركان حرب الغزوة ، وعلى مذكرات أحمد شفيق باشا ، رئيس ديوان الخديوي عباس حلمي بمصر ، المسماة « مذاكرتي في نصف قرن » وفيها معلومات وافية عن علاقة الخديوي عباس حلمي ، وابن عمه الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، ومحمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري ، بالحملة ، وما اكتنفها من أسرار وغايات شخصية ، ونيات ماكرة لاستيلاء الترك على مصر ، وإعادتها إلى حظيرة الدولة ، وإلغاء استقلالها . كما اعتمدت على مؤلَّفين للمؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي ، وقد قدما لي معلومات قيمة عما يتعلق بمصر في تلك الفترة ، وعلى مجلة الحرب العظمى ، وعلى إعادة لإخراجها ، هي نفسها ، بحلة جديدة مزيدة ومنقحة ولكن باسم جديد « مجلة الحرب العالمية الأولى » بإشراف صاحبها عمر أبو النصر ، وفيها مقالات قيمة مترجمة عن أساطين الرجال العسكريين الأوروبيين ، الذين اشتركوا في الحرب ، وعن كبار السياسيين العالميين ، بالإضافة إلى النقل الأمين عن كتب مؤلفين أوروبيين مشهورين .

الفصل الثالث (إجراءات الحرب العسكرية والانهيار الاقتصادي) : اعتمدت فيه بالدرجة الأولى على المجموعة التركية « دستور ، ترتيب ثاني » المتقدم ذكرها ، وقد أعطتني معلومات أكيدة ، باعتبار أنها وثيقة أصلية عن إجراءات الحرب الاقتصادية والعسكرية ، وعن التكاليف الحربية وقوانين الجندية ، وغير ذلك مما يندر العثور عليه في مؤلفات أخرى . كما اعتمدت على مذكرات نشرتها مجلة الحرب العظمى ، لآنسة أميركية قضت أيام الحرب في بيروت ولبنان ، وشاهدت عياناً المآسي التي دارت فيهما ، وعلى مذكرات فائز الغصين عن الثورة العربية ، وعلى كتابه « المظالم في سورية ولبنان » . والغصين من رجال الجمعيات العربية ، ومن الذين عملوا مع الشريف حسين ونجله الأمير فيصل في الثورة العربية ، بعد أن هرب من المنفى الذي أرسله إليه جمال باشا في ديار بكر ، وله اطلاع وثيق على أعمال جمال باشا في سورية ، وما تكبده من ملاحقته له ، وما قام به هو من أعمال بتكليف من جمعية « الفتاة » التي كان منتسباً إليها ، مما ورد في الفصل الرابع . كما كان لي من كتاب الخوري أنطون يمين المسمى « لبنان في الحرب » (جزءان) ، وكتاب لطف الله نصر البكاسيني ، المسمى « نبذة من وقائع الحرب الكونية » ، خير معين على الإفاضة في وصف الضائقة الاقتصادية التي حلت بلبنان ، وفتك المجاعة بالسكان ، وقد اتخذت من المؤلفات الثلاثة الأخيرة محكاً بعضها لبعض باعتبار أنها قد طرقت مواضيع متشابهة .

الفصل الرابع (نضال العرب الأحرار وإرهاب الطاغية أحمد جمال): استعنت بمصادر كثيرة وقيمة في معالجته، وأكثرها مما اختص ببحث هذه الناحية، أو كان أصحابها ذوي اتصال بالحوادث، مثل كتاب يوسف ابراهيم يزبك «مؤتمر الشهداء»، وقد كتب بقلم مجموعة من أعضاء الأحزاب العربية لم تذكر أسماؤهم، وجاء بمعلومات منقولة عن شهود عيان، وصوّر الحوادث التي عاشها معظمهم في تلك الفترة، وبعضهم عاشها في سجن عاليه، مثل فائز الخوري (أخو السياسي السوري فارس الخوري)، فكتب مذكرات عن مشاهداته فيه، ونشرها في جريدة «البرق» البيروتية. واعتمدت على كتاب أسعد داغر المعاصر للحوادث «مذكراتي على هامش القضية العربية»، وعلى مذكرات الدكتور أحمد قدري الذي أصابه رشاش التنكيل والاضطهاد، وعلى كتاب جورج أنطونيوس الشهير «يقظة العرب»، وهو معروف بكونه أول مؤلف بحث القضية العربية الحديثة بشيء من الشمول، ولكنه لم يتغلغل إلى التفاصيل الواسعة، كما كان لي من كتاب محمد عزة دروزة المعاصر للحوادث «حول الحركة العربية الحديثة»، وكتاب أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى» مساعداً لتصفية المعلومات المستقاة من المصادر الأخرى وتمحيصها. كما كان كتاب «Y.H. Bayur المسمّى Türk Inkilabi Tarihi» حافلاً بالمعلومات القيمة في الموضوع. وأما مذكرات عزيز بك ـــ العقيد التركي الذي كان في خدمة استخبارات أحمد جمال باشا بدمشق، وقد ترجمت إلى العربية بعنوان سورية ولبنان في الحرب العالمية، ونشرت في دمشق عام ١٩٣٣، بعد أن كانت قد نشرت تباعاً في جريدة الأحرار في بيروت، فأحدث نشرها ضجة عظيمة لما كشفته من أسرار بعض الشخصيات العربية التي تعاونت مع أحمد جمال باشا في إدارته لسورية، فأثارت اعتراضات رد عليها مترجمها فؤاد الميداني، ودحضها بالبراهين المقنعة، وقد جاء في هذه المذكرات كثير مما يدين أحمد جمال باشا وأعوانه من أنصار الرابطة الإسلامية العثمانية ـــ فإنها ساعدتني في تسليط الأنوار على أسرار تلك الفترة، إنما كان عليّ أن أتحفظ بالنسبة لبعض ما ألصقه ببعض الزعماء السوريين تخفيفاً لمسؤولية أحمد جمال باشا، بصفته رئيسه ومواطنه. وأما مذكرات أحمد جمال باشا والكتاب الذي نشره، بصفته قائداً للجيش الرابع، لتبرير فتكه بالشهداء، وسماه «إيضاحات عن المسائل السياسية التي بحثت في ديوان حرب عاليه»، فقد استندت عليها كثيراً، وخاصة في إيراد الشواهد على مسؤولية جمال، منقولة من اعترافاته، وفي إظهار التناقض الذي لمسته في مختلف أقسامها. كما استعنت بكتاب محمد كرد علي «خطط الشام»، وهو ممن عاصروا الحوادث وأعانوا الطاغية على ترسيخ نفوذه، إذ ساهم في جريدة الشرق الناطقة بلسان الحكومة، وكتب مقالاتها التي تمجد أعمال الطاغية، وتكيل له ألوان المديح، ثم جاء بعد زوال سلطانه يفضح في كتابه: «خطط الشام» أعماله الهمجية، فكتاباته ـــ لهذا السبب ـــ تكون ناطقة بالواقع لأنه ليس من المعقول أن يختلق له من الأعمال ما لم يقم به، بينما يعتبر هو بنظر الناس من مؤيدي سلطانه ما دام أنه يمتدح أعماله ويشيد بها.

الفصل الخامس (علاقة الشريف حسين بالترك): استعنت في كتابته بكتب ذات صلة بموضوع الفصل مثل كتاب G. Stitt المسمى «The Prince of Arabia, The Emir Ali Haidar»، وهو في الواقع عرض لمذكرات الشريف علي حيدر، التي تركها لزوجته الانكليزية المس دن (الأميرة فاطمة)، فعهدت بها إلى المؤلف كي يتولى عرضها ونشرها، وتوسيع البحث، إلى جانب ذلك، في بعض جوانب القضية العربية، فقد أفادني في إعطاء لمحة صادقة عن تاريخ شرفاء مكة، وما كان بين مختلف فروعهم من منافسات تفسر كثيراً من الأحداث التي جرت في أثناء الحرب، وعن طموح الحسين وحركاته. كما أفادني كتاب حسين بن محمد نصيف «ماضي الحجاز وحاضره» في معرفة كثير من الأمور عن الحجاز وشرفائه والحسين ونزواته وحركاته، والمؤلف ثقة في هذا الموضوع، لأن والده محمد نصيف كان من علماء جدة، ومن أصحاب المناصب الدينية فيها؛ وكان يقتني مكتبة ضخمة حافلة بالمراجع الوثيقة، وبينه وبين الحسين صلة ود وثيقة، ينزل في داره كلما مر بجدة، في طريقه من مكة إلى غيرها من المناطق أو في عودته إليها، والمؤلف نفسه من مشاهير علماء المملكة العربية السعودية. كما أن مذكرات الملك عبد الله كانت لي نافعة في هذا المجال، إذا حذفنا منها الادعاء والتبجح. أما مسز ستورث أرسكين، في كتابها «فيصل ملك العراق»، فقد أعطتني معلومات مدققة ممحصة، وهي في أكثرها مستقاة من منبعها الأصلي، أي من حديث طويل أجرته مع الملك فيصل في العراق. كما كان لي عودة إلى كتاب «Y.H. Bayur» القيّم، وإلى مذكرات أحمد شفيق باشا، المؤرخ الثقة، فيما يتعلق بشخوص فيصل إلى الآستانة، ومفاوضاته مع أنور باشا. وكان الحاج أحمد شفيق باشا واسطة في بعض الاتصالات. وهناك بعض الكتب التي بحثت في هذه الفترة بصورة منهجية، لكنها مجملة مركزة مثل كتاب الدكاترة بديع شريف، أحمد عزة عبد الكريم، شفيق غربال... «دراسات في النهضة العربية...»، فقد أعانتني في التركيز والتنسيق وببعض معلوماتها القيمة.

الباب الثاني: الفصل الأول (المفاوضات الانكليزية ـــ العربية): هناك كتب كثيرة استندت إليها في كتابة هذا الفصل، مثل كتاب الأستاذ ساطع الحصري «يوم ميسلون». كما كان لي من كتب الأوروبيين مثل كتاب «Les Origines Orientales De La Guerre Mondiale»، وكتاب «Partage Du Proche Orient» وكلاهما من تأليف J. Pichon، وكتاب Sir Arnold Wilson المسمى «Loyalties Mésopotamia»، منابع ثرة للمعلومات، ولاقتباس الشواهد عن مطامع الغرب في الشرق. أما كتاب Benoist Mechin المسمى «Ibn Séoud, La Fondation d'un Royaume»، وكتاب Armstrong المسمى «Le Maitre D'Arabie Ibn Séoud ....» فكانا خير معين لي في كشف مواقف ابن سعود من القضية العربية، والدوافع التي كانت تحركه، وتحرك الانكليز تجاهه وتجاه القضية العربية. كما كان كتاب «الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب»، الذي نشرته جريدة الأيام في دمشق، وكتاب «Hurewitz» المار الذكر، من المصادر التي أخذت منها

نصوص المعاهدات الصحيحة الدقيقة. أما مذكرات سليمان فيضي «في غمرة النضال» وكتاب عبد الله فيلبي المعرب «تاريخ نجد» فقد أعطياني ما كنت بحاجة إليه من أحوال العراق وإمارة نجد، كما نورني أيضاً كتاب حافظ وهبة «جزيرة العرب»، عن الحجاز، وكل من هؤلاء أعلم بالمنطقة التي له صلة وثيقة بها.

الفصل الثاني: (اتفاقات الحلفاء لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ـــ وتصريح بلفور): ههنا استعملت مصادر كثيرة ومتنوعة توفرت لي، منها كتابا J. Pichon الماري الذكر، وكتاب P. Lyautey المسمى «Le Drame Oriental et Le Rôle De La France» وكتاب E. Jung المسمى «La Révolte Arabe» وكتاب الكاتب الانكليزي Aldington المسمى «Lawrence L'Imposteur» ومقدمة P. Renouvin على كتاب «Lapradelle» ورفاقه عن الوثائق الروسية السرية فيما يختص بالآستانة والمضائق، وكتاب R. Poincare المسمى «Au Service De La France» (الجزء السابع)، وكتاب G. Gautherot المسمى «La France En Syrie Et En Cilicie» وكتاب Le Comte De Gontaut-Biron المسمى «Comment La France S'est Installée En Syrie» وكتاب Lloyd George المسمى «Mémoires De Guerre»، وكذلك المقال المعرب المنشور في مجلة الرائد العربي بقلم «مالكولم» السياسي الأرمني المتعامل مع الصهاينة في لندن، كل هذه الكتب وإن كان مؤلفوها، أو معظمهم، ذوي مصلحة في الموضوع، إلا أن كتاباتهم لم تحاول أن تخفي الحقائق أو تقنّعها، بل كشفت عن النيات الاستعمارية بوضوح، وسردت الحوادث معراة عن كل ما يستر عيوبها، فاستطعت، بشيء من الحذر والوعي، أن أصل إلى بسط قضية تقسيم الشرق، وكشف المؤامرة التي نسجت خيوط تصريح بلفور لليهود. كما أن بعض الكتب العربية مثل كتاب قاسم حسن «العرب والمشكلة اليهودية» وكتاب الدكتور أحمد طربين «القضية الفلسطينية» وكتاب نجيب صدقة «قضية فلسطين»، بما انتهجته من خطة علمية، قد أنارت لي معالم الطريق. أما كتاب الكاتب التركي جواد رفعت آتيلخان Cevat Rifat Atilhan المسمى «كيف يستولي اليهود على العالم Yehüdiler Nasil Dünyayi Istila Ediorlar»، بما قدمه لي من أفكار قيمة قد أغنى لي الموضوع بمعلومات جديدة.

الفصل الثالث: (الثورة العربية): علاوة على المصادر التي ذكرت في الفصول السابقة، مثل مذكرات المحامي فائز الغصين عن الثورة العربية، ومذكرات الملك عبد الله، ومذكرات الدكتور أحمد قدري، وكتاب ساطع الحصري «نشوء الفكرة القومية» وكتاب أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى»، وكتاب حافظ وهبة «جزيرة العرب»، وكتاب أنطونيوس «يقظة العرب»، كان اعتمادي كبيراً على الكتب التالية: «ثورة العرب» لأسعد داغر، وقد كتب في أثناء الحوادث، وفيه وثائق مدرجة حرفياً كمنشور الشريف حسين، وأقوال بعض الصحف الأوروبية عن الثورة، وبعض الكتب المتبادلة بين الإصلاحيين العرب، مما يقدم للباحث معلومات أصلية اقتبس منها كثير من الكتاب فيما بعد. وهناك كتاب لمن سمى

نفسه مؤرخ الثورة العربية، ولم يذكر اسمه صريحاً، وعنوانه «الملك فيصل الأول»، وقد كرس قسماً كبيراً منه للثورة العربية، وأورد معلومات فيها كثير من الدقة والتجرد والموضوعية والنقد للقائمين على الثورة، ولمختلف الأطراف من غربية وتركية. وكتاب باسم «تاريخ الكويت السياسي» لحسين خلف الشيخ خزعل، وهو كتاب قيّم تناول أحداث نجد وموقف ابن سعود من الثورة العربية بصورة مفصلة، وموقف الانكليز من أمير نجد، وأورد نصوصاً ووثائق أصلية، اقتبس منها بعض الكتاب مثل أمين الريحاني في كتبه: «تاريخ نجد الحديث» و«ملوك العرب» وغيرهما. أما الكتب الأفرنجية التي استندت عليها في هذا الفصل، فكان أحسنها تدقيقاً وروحاً انتقادية وعلمية كتاب «Lawrence L'Imposteur» من تأليف الكاتب الانكليزي A. Aldington والمترجم إلى الفرنسية، لولا إمعانه في الحط من شأن الجيش العربي وقلة فائدته. وقد تناول العقيد لورنس بالنقد والتجريح والاستهانة بمجهوده في الثورة، ووصفه بالادعاء والتبجح، حتى إنه أعطى كتابه عنواناً مهيناً للورنس «لورنس الدجال»، إنما تناول حوادث الثورة العربية مصفاة تصفية يستطيع الباحث الركون إليها تماماً، إذا هو عرف كيف يقارن تحامله على من ذكرت بما جاءت به مصادر أخرى أكثر إنصافاً. أما كتاب العقيد Bremond رئيس البعثة الفرنسية لدى الثورة المسمى «Le Hedjaz Dans La Guerre Mondiale» فيشكل عنصر توازن مع كتاب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة» الذي قرأته مترجماً إلى الفرنسية وإلى العربية، مع مختصره المترجم إلى العربية باسم «الثورة في الصحراء». والطريف أن لورنس وبريمون لم يستطيعا كتمان الروح الاستعمارية التي كانت كل من دولتيهما تظهرانها في سبيل السيطرة على الشرق العربي، والتي يستطيع القارىء أن يستشفها من محاربة أحدهما للآخر: بريمون يشهر بلورنس لأنه يحارب نفوذ فرنسا في سبيل إعلاء نفوذ انكلترا، كما يسعى لدى الشريف حسين كي يجعل لدولته فرنسا نفوذها في سورية تحت إشراف الحسين، ولورنس يفضح نيّات فرنسا الاستعمارية بأعمال ممثلها بريمون، كما يفضح نيّات دولته (انكلترا) تجاه العرب، ويعترف بأنه ينفذ مآربها في استخدام العرب لمصلحة انكلترا، مما أظهرته بوضوح في ثنايا بحثي، ولا لزوم هنا لاعادته.

أما Graves في كتابه «Lawrence Et Les Arabes»، و Armitage في كتابه «Lawrence D'Arabie»، فقد أفاداني في استدراك ما فاتني ملاحظته في كتابَيّ لورنس، فكانا كمصدرين ثانويين. وقد عدت إلى كتاب G. Stitt عن الشريف علي حيدر، ولم أشك قط بصدق الشريف عن تكليفه بإمارة مكة خلفاً للشريف الثائر، وكيف كان موقف جمال باشا وفخري باشا منه، والصعوبات التي لاقاها في المدينة وكيف فشل في مهمته.

الفصل الرابع والفصل الخامس: (المراحل النهائية للعلاقات العربية ـــ التركية، حرب العراق، تحرير سورية): حوادث هذا الفصل هامة ومصادره قيمة وكثيرة، فمن مصادره عن حرب العراق كتاب

قيّم للزعيم الركن العراقي شكري محمود نديم بعنوان «حرب العراق ١٩١٤ ـــ ١٩١٨»، وهو دراسة علمية دقيقة، واسعة وعميقة. وكتاب بالتركية القديمة للرائد محمد أمين بعنوان «بغداد وحادثة فقدانها» (بغداد وحادثة ضياعي)، وهو كتاب انتقادي لكيفية السوق والتعبئة التي قام بها الترك. وصاحبه ذو اطلاع، لأنه كان يشغل رئيس شعبة الاستخبارات في هيئة أركان حرب الجيش السادس بالعراق. ومذكرات لويد جورج السابقة الذكر، وكتب Driault والجنرال Duffour والكولونيل Lamouche والكابتن الانكليزي ED. Mousley، الذي كان من الضباط الذين حوصروا في كوت العمارة، وله كتاب «Le Siège De Kut-Al-Amara» مترجماً عن الانكليزية، وكلها تعطينا معلومات دقيقة عن كيفية احتلال الانكليز للعراق، والغاية من دخولهم ونيّاتهم الاستعمارية فيه. وذلك بالإضافة إلى كتب أخرى أهمها: مذكرات أو خواطر «طونزند»، الجنرال الذي حوصر مع فرقته في كوت العمارة. أما الكتب التي بحثت أمور العراق السياسية والإدارية في تلك الفترة فأهمها كتاب فيليب آيرلاند «العراق ـــ دراسة في تطوره السياسي»، وكتاب ج. ف. دي لودر «القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق»، وكتاب فرنان وليه «مشكلات الشرق الأوسط»، وكلها كتب مترجمة عن الانكليزية، وقد درست مسائل العراق بروح موضوعية غالباً، ولم يكتفِ المترجمون العراقيون ـــ الذين اختاروها لهذا السبب ـــ بترجمتها، بل علقوا في آخرها على ما رأوه مناقضاً للحقائق، وأشبعوه تصحيحاً وتعليقاً وشرحاً، مما زاد في قيمة الاستفادة منها.

أما الكتب العربية التي بحثت في موضوع العراق فهي أيضاً قيّمة، ومنها مذكرات العقيد العراقي تحسين العسكري، الذي خدم في العراق، ثم في سورية في أثناء الحرب، ومذكراته وإن كانت تتصف بالحديث عن ذاته، وعن رفاقه الضباط المنتسبين إلى جمعية العهد، وأعمالهم بما يشبه التبجح، إلا أن فيها بعض المعلومات الجديدة. وبما أنها مصدر وحيد في هذا الباب، فقد قيدت ما أخذت منها بشيء من التحفظ. أما محمد مهدي البصير في كتابه «تاريخ القضية العراقية»، وفريق المزهر الفرعون في كتابه «الحقائق الناصعة في الثورة العراقية»، ومحمد طاهر العمري في كتابه «تاريخ مقدرات العراق السياسية»، وجعفر الشيخ باقر آل محبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها»، فإنها وإن اختلفت في كيفية عرض الحوادث وفي تفاصيلها، لكنها متفقة، من الوجهة العامة لسير الحوادث، مما جعلني أكتفي بالمجرى العام، وأهمل التفاصيل، خاصة فيما يتعلق بثورات النجف وكربلاء والحلة، علماً بأن جميع هؤلاء المؤرخين من أبناء العراق.

غير أن ثمة مصادر تركية منها كتاب المشير الألماني ليمان فون ساندرس «خمس سنوات في تركيا» المترجم من الألمانية إلى التركية باسم «توركياده بش سنه»، ومذكرات جمال باشا (الصغير)، خليفة أحمد جمال باشا في قيادة جيوش سورية وبلاد العرب الغربية، والمسماة «كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد

العرب» والمعربة بقلم فؤاد الميداني، ومذكرات «حسين حسني أمير» المكتوبة بالتركية القديمة والمسماة «يلديرم» (جيش الصاعقة)، فهي من الكتب التي صورت الحالة في العراق وسورية في أواخر العهد العثماني أحسن وأصدق تصوير، وأعطت تفصيلات وافية عن كيفية تردي الحالة بسبب الخلافات التركية ـ الألمانية حول القيادة، وعن تصرفات أنور باشا الخرقة، وكيف جرى عزل أحمد باشا عن قيادة الجيش الرابع، وكيف غادر سورية باكياً، ثم كيف عزل فالكنهاين، وبينت مسؤولية الرجال الحاكمين العثمانيين عن تردي الحالة في سورية، وكيف فشلت جميع التدابير العسكرية والإدارية في إنقاذ الوضع. وإذا قارن القارىء بين هذه المصادر يشاهد أنها تتفق حول السير العام للحوادث، وهو ما التزمته في بحثي. ويعطينا كتاب أنور الرفاعي، المسمى «جهاد نصف قرن للأمير سعيد الجزائري»، وصفاً صادقاً مستنداً على وثائق تاريخية منشورة فيه بالزنكوغراف عن مفاوضات جمال باشا الصغير مع الأمير فيصل حول الصلح المنفرد.

خلاصة القول، كان اعتمادي على مصادر نصفها تقريباً عربي تأليفاً، والنصف الباقي إما أفرنجي، أو تركي، أو مترجم عنهما، بالإضافة إلى عدد من المجلات العربية والتركية والأفرنجية. وقد حرصت، في نهج دراستي للموضوع، على إبراز النواحي الجديدة، غير المطروقة سابقاً، إذ بحثتها بصورة مفصلة، مع الاتجاه إلى تركيز المعلومات التي طرقها غيري وتكثيفها، وإظهارها بشكلها العام أحياناً، لأعطي المجال للتبسط والتطويل في النواحي الجديدة.

البـــاب الأول

العـوامل الداخليــة لانفصــال العـرب عن التـرك

تمهيـــــــــــد : العلاقات العربية التركية قبل الحرب وأثرها في الانفصال .

الـــفصل الأول : دخول تركيا في الحرب وأثره في الانفصال .

الفصل الثـــاني : حملة قناة السويس الأولى وأثرها في الانفصال .

الفصل الثالث : إجراءات الحرب العسكرية والانهيار الاقتصادي . وأثرها في الانفصال .

الفصل الرابـــع : نضال العرب الأحرار ، وإرهاب الطاغية أحمد جمال وأثرهما في الانفصال .

الفصل الخامس : علاقة الشريف حسين بالترك وأثرها في الانفصال .

تمهيـــد

العلاقات العربية ـــ التركية قبل الحرب(*) وأثرها في الانفصال

استقبل العرب إعلان عودة الدستور في السلطنة العثمانية ، إثر ثورة ١٩٠٨ العسكرية ، بفرح لا يقل عن فرح الترك وبهجتهم بعودته ، ذلك أن الترك لم يكونوا أكثر تعشقاً للحرية من العرب ، كما لم يكن العرب أقل تعرضاً لمظالم الطاغية عبد الحميد من إخوانهم الترك .

كان العرب يرون في عودة الدستور منطلقاً لحرياتهم العامة المكبوتة ، وفُرْجَة لما يجيش في صدورهم من غم ، وتحقيقاً لحلم كان يراود مخيلتهم في انقشاع كابوس الاستبداد الحميدي ، الذي جثم على صدورهم . كانوا يظنون أن الدستور سيتيح لعناصر الدولة المختلفة فرصة لممارسة حقوقها السياسية المهضومة ، وسيوفر لها مساواتها مع العنصر التركي الحاكم ، ويجيز لكل قومية من القوميات العثمانية الاحتفاظ بطابعها المميز ، ولغتها وتقاليدها ، وإحياء أمجادها السابقة ، وتنمية الشعور القومي فيها ، ضمن رابطة جامعة ، هي الرابطة العثمانية ، التي يجب أن يرفرف علمها على جميع سكان السلطنة ، وأن تنضوي القوميات المختلفة تحت جناحيها ، في نظام ديمقراطي حر ، وفي جو من الإخاء والمساواة الذي يهيىء لجميع العناصر والأديان العيش الهنيء الرغد ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية الرافهة(١) . لكن هزة الفرح لم تلبث أن تلاشت أمام حقيقة الواقع ، ذلك أن الدستور الجديد لم يكن سوى نسخة كالأصل عن ذلك الدستور القديم الذي سنه مدحت باشا الملقب بـ

(*) في كتابي « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـــ ١٩١٤ » الذي تقدمت به عام ١٩٦٠ للحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث من معهد الدراسات العربية العالية تفاصيل مسهبة عن علاقة العرب بالترك منذ ثورة ١٩٠٨ الدستورية العثمانية إلى مطلع الحرب العامة الأولى ، أرى إيجازها هنا واجباً كتمهيد لبحثي عن علاقة العرب بالترك خلال الحرب المذكورة ، لما لها من أثر في انفصال الأمة العربية عن الدولة العثمانية .

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ص ٣١٤ .

«أبي الدستور»، قبل ذلك بنيف وثلاثين عاماً، وكان الهدف منه إدماج العناصر والأجناس المختلفة في الدولة في قومية واحدة، هي القومية «العثمانية» يسودها الجنس التركي، ولم يراع حكام تركيا الفتاة، الطارئون على الحكم، تطور الوعي القومي ونموه بين هذه العناصر[٢]. وحتى فكرة العدالة والمساواة، بين الطوائف والفئات العرقية المختلفة، لم تكن في الدستور الجديد سوى حروف ميتة، إذ جاء التطبيق العملي للنصوص مخالفاً لروحها، وطغت الروح العنصرية على الثوار، الذين قوّضوا الاستبداد الحميدي، ليقيموا بدلاً منه استبداداً من نوع جديد، غايته إعلاء مصلحة العنصر التركي على حساب العناصر الأخرى[٣]، لا سيما العناصر ذات الشأن العددي الهام التي كانوا يخشون بأسها، كالعرب والألبان والأرمن، والسير مع هذه العناصر في سياسة صهر وتتريك مرسومة.

غير أن أحرار هذه العناصر قد تكاتفوا وكونوا معارضة ترمي إلى تقويض دعائم سياسة الترك المركزية، والمناداة بالحكم اللامركزي الصحيح. وقد كشفت براجمهم، التي توخوا منها أن تكوّن أساساً للجمعيات والأحزاب التي ألّفوها، زيف ما تبجح به ساسة تركيا الفتاة، أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، من ميل إلى تطبيق الحكم اللامركزي، بما أطلقوا عليه اسم «توسيع المأذونية». كما تجلى نضال العناصر غير التركية، ضد جمعية الاتحاد والترقي، في الصحف والندوات النيابية، وشتى المجالات، وفي كل مناسبة تعرض. وقد ساعد أحرار هذه العناصر، على إحراز بعض الانتصارات الهامة على خصومهم، ما انزلق به هؤلاء من أخطاء زعزعت أركان حكمهم: منها تقاعسهم في حماية بعض أجزاء الدولة، التي فصمت عن السلطنة في عهدهم، كالبوسنة والهرسك، وبلغاريا وطرابلس الغرب، وتهاونهم في المحافظة على مصالح الولايات غير التركية، أمام مطامع الدول الأوروبية ومصالحها وامتيازاتها، ثم ما ارتكبوه من جرائم اغتيال، راح ضحيتها عدد من الصحفيين الأتراك الأحرار، ونفر من العرب[٤]، وما ترتب على تدخل ضباطهم في السياسة، من تشويش في الإدارات، وامتعاض في نفوس شخصيات عسكرية، لها وزنها وأهميتها في الجيش وفي القيادة الرئيسية لجمعية الاتحاد والترقي بآن واحد[٥]، وما انطوت عليه نفوسهم من حقد وكبرياء واستخفاف بخصومهم السياسيين.

---

(٢) حسين فوزي النجار ــ السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ص٣٠٦.

(٣) المصدر السابق ص٣٠٧.

(٤) اغتيال زكريا طبارة في بيروت.

(٥) منهم الميرآلاي صادق بك المرخص المسؤول للجمعية وهو ألباني وعم للضابط نيازي بك رفيق أنور في النضال.

كما أثّر في تقويض نفوذهم ما لجؤوا إليه من مناورات سياسية مقنعة لكنها مفضوحة، ذلك أن جمعية الاتحاد والترقي لم تكن تحكم إلا من وراء الستار، تفرض الحقائب الوزارية وليس بين الوزراء إلا قليل من أعضاء الجمعية، والمجالس التمثيلية وفيها الغالبية العظمى منهم، ثم تملي ما تتخذه لجنتها المركزية من قرارات على الأجهزة التي صنعتها، لتخدم مصالحها، فتستخدم هذه الأجهزة في تنفيذ مآربها غير المشروعة في التسلط وترسيخ الحكم لنفسها. ثم تلجأ بعدئذ إلى تحطيم الدمى التي رفعتها إلى سدة الحكم، كلما تعرضت أعمال هذه إلى السخط والاستنكار العام، الذي يكون مبعثهما في الواقع سوء سياسة الاتحاديين أنفسهم.

لكن المعارضة كانت ماهرة في كشف هذه السياسة، واطلاع جماهير الشعب على محاذيرها ومساوئها، نشيطة في محاربتها وفي العمل على تقويض أركانها، فنتج عن ذلك زيادة النقمة على الحزب الذي يوجه دفة الحكم ـــ لا سيما في الأوساط المثقفة ـــ وسقوط مكانته في عيون الناس.

ولم يتورع الاتحاديون عن سلوك سياسة المناورات والمداورات حتى في قاعة البرلمان، والاحتيال على الدستور للوصول إلى تعديلات دستورية تخدم أغراضهم الحزبية، حتى إذا لمسوا أكثرية نيابية ضدهم لجؤوا إلى حل البرلمان[٦]. ولم يكن السلطان محمد الخامس (محمد رشاد)، الذي وضعوا بيده صلاحية الحل، إلا ألعوبة في أيديهم، يسيرونه حسب مشيئتهم[٧]. وعند إجراء الانتخابات الجديدة، يستخدمون أقصى ما في وسعهم من الجهود، كي يخرجوا النواب الجدد من حزبهم، بحيث لا ينجح من خصومهم إلا عدد ضئيل لا يتجاوز خمسي الفائزين، فيكسبون بذلك مجلساً مطواعاً.

هذه الأساليب السياسية المكروهة، وما ارتكبه الاتحاديون من أخطاء جسيمة كان من شأنها أن تنفر منهم ذوي الأفكار النيرة، حتى من أعضاء جمعيتهم، فتكاثرت الاستقالات منها، وتفاقمت الانقسامات في صفوف أعضائها، وانضم قسم كبير من المنشقين إلى الأحزاب المعارضة. وهكذا حتى سرت النقمة إلى صفوف الجيش، وتحركت مشاعر كبار ضباطه النبيلة، وتجاوبت عواطفهم الوطنية مع أهداف الأحزاب المعارضة، ومع نقمتها على الحزب الذي يدير دفة الحكم، فقامت فئة من الضباط، في مناستير بألبانيا، أطلقت على نفسها اسم «فريق ضباط الإنقاذ»[٨] (خلاصكاران

---

(٦) العرب والترك، ص٣٧٠ ـــ ٣٧٥.

(٧) Ali Ihsan Sabis, Harb Hatiralerim, p. 47

(٨) العرب والترك، ص٣٨٣.

ضابطان غروبي)، ساندتها حركة شعبية ألبانية[9]، وأيدتها وتضامنت معها حاميات إزمير ودمشق وحلب، وتمكنت هذه الحركة العسكرية من إسقاط جمعية الاتحاد والترقي من موقع الصدارة في إدارة الدفة، وقامت على أنقاضها حكومة تعتمد على تأييد الحزب المعارض «حزب الحرية والائتلاف» دامت ستة أشهر[10].

وإذا كان العرب لم يساهموا، في السنة الأولى من عودة الدستور، مساهمة فعالة ذات قيمة في نضال العناصر غير التركية ضد استبداد الاتحاديين وسياستهم في صهر عناصر الدولة وأجناسها في البوتقة التركية ــ بحيث تمكنت المعارضة المؤلفة من أحرار الأجناس غير التركية في السلطنة، متآزرة مع الرجعية العثمانية، من إزاحة الاتحاديين موقتاً عن الحكم عندما قامت الثورة المضادة في ١٣ نيسان ١٩٠٩ (وهي الانتفاضة الأولى ضد حكمهم)، واستلمت الحكم وزارة تمثل تكتلاً دعي باسم «جمعية الاتحاد العثماني»[11] دامت على أريكة السلطة نصف شهر تقريباً، حتى جاءت قطعات سلانيك، مناصرة للاتحاديين بقيادة محمود شوكت باشا وقوضتها ــ أقول إذا كان العرب لم يأخذوا قسطهم في هذه الحركة، فإنهم قد لعبوا دوراً هاماً في تقويض سلطة الاتحاديين في المرة الثانية، فلقد كان نوابهم وزعماؤهم العمود الفقري للأحزاب المعارضة: «حزب الأحرار المعتدلين»، «حزب الأهالي»، و«حزب الحرية والائتلاف»[12]، التي كان لكل منها فروع في معظم المدن العربية كدمشق وبغداد وحمص ونابلس وطرابلس الشام واللاذقية وانطاكية وعالية والأوردو وكسب.. الخ، وكان كتّابهم يتولون رئاسة تحرير معظم الجرائد المعارضة[13] التابعة لهذه الأحزاب وإدارة سياستها، وعددها يزيد عن عشر، ومنها جرائد لها وزنها كـ«تأسيسات» و«تنظيمات» و«تشكيلات» و«تقديرات» و«تأمينات» و«إصلاحات» و«إفهام».. الخ، وكلها في الآستانة، وتصدر بالتركية، عدا الجرائد العربية الحرة التي كان يصدرها الأحرار العرب في كل من بيروت ودمشق وبغداد وغيرها من البلاد العربية، وكان كتابها يشنون هجوماً عاصفاً على الاتحاديين، حتى بلغت الحملات الصحفية، بين العرب والترك، حداً لم يخل من المهاترات، لجأ الترك فيها إلى أسلوب

(٩) المصدر السابق، ص٣٨٤.
(١٠) المصدر السابق، ص٣٨٥.
(١١) المصدر السابق، ص١٢٨.
(١٢) العرب والترك، ص٣٠٢.
(١٣) المصدر السابق، ص٣٠٤.

السب وشتم الأعراض والإهانات الوضيعة لزعماء العرب ، وكان رد العرب عليهم رداً رصيناً وشديداً وحازماً في آن واحد[14].

كما قارع نواب العرب زملاءهم من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في ندوة البرلمان ، واصطدموا اصطدامات عنيفة مع ممثليهم من الوزراء . وكان أشهر من اصطدموا بهم طلعت بك وزير الداخلية ، والنائب الجريء حسين جاهد ، رئيس تحرير ومدير جريدة « طنين » الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي ، وأبرز أعضاء الجمعية وأسلطهم لساناً[15] . وأما أنشط نواب العرب ، وأثبتهم جناناً ، وأسلسهم بياناً ، وأكثرهم اهتماماً وتعلقاً بالدفاع عن قضايا أمتهم فهم : شفيق المؤيد العظم ، وشكري العسلي ، ورضا الصلح ، وسليم سلام وغيرهم ... وهم من الزعماء الذين تجرؤوا على الجهر بشعارات العروبة في مجلس النواب ، مما يعد مخالفة للدستور العثماني الذي كان يحرم تأليف أحزاب بأسماء قومية ، أو الجهر بشعارات قومية في ندوة المجلس . فلم يتورع شفيق المؤيد العظم من طرح شعار « الخلافة العربية » في سياق الحديث العابر ، مما أثار ضجة استنكار لدى زملائه الأتراك . وقد اصطدم مرة اصطداماً عنيفاً مع طلعت بك وزير الداخلية وأهانه وطرحه أرضاً . وأما النائب شكري العسلي فلم يتورع عن طرح موضوع المطالب العربية على ندوة البرلمان ، مجنداً نفسه للمطالبة بحقوق العرب « بلسان الأمة العربية وبالنيابة عنها »[16] ، مما أثار ضجيجاً عظيماً في القاعة ، واحتجاجاً شديداً داخل المجلس وخارجه من قبل الترك ، على ما أتاه من إثارة مسألة اعتبروها من قبيل النعرة الجنسية .

كان للعرب ، قبل الثورة المضادة عام ١٩٠٩ ، عدا الجمعيات التي أسسوها مع الأحرار الترك ، جمعية عربية واحدة أسست بعد إعلان الدستور هي « جمعية الاخاء العربي ــ العثماني » اتهم الاتحاديون أعضاءها بالتآمر على هذه الثورة فألغوها ، فتألف بعدها « المنتدى الأدبي » وظاهره أدبي ــ اجتماعي ، وباطنه لم يخل من التوجيهات السياسية . وقد ألّف العرب ، عدا ذلك ، وبعد القضاء على الثورة المضادة ، جمعيات سرية وعلنية عديدة أشهرها « الجمعية العربية الفتاة » السرية ، وجمعية علنية هي « الجمعية الإصلاحية » في بيروت ، ولها شبيه في البصرة ودمشق ، ألفها العرب بعد سقوط جمعية الاتحاد والترقي لثاني مرة من مواقع الحكم ، وذلك لتنظيم اللوائح الإصلاحية اللامركزية

(١٤) راجع عن الحملات الصحفية : العرب والترك ، ص١٦٢ .

(١٥) راجع عن نشاط العرب في مجلس المبعوثان : العرب والترك ، ص٢٦٩ ــ ٢٨٤ .

(١٦) العرب والترك ، ص٢٨٥ .

في كل من الأقطار العربية . كما تألف في آخر عهد حكومة الائتلافيين «الحزب اللامركزي العثماني» في القاهرة ، مع فروع له في كل من بلدان هذه الأقطار ، وذلك تجاوباً مع رغبة الحكومة الائتلافية في منح العرب الحكم اللامركزي ، ووجوب تأليف هذه الأحزاب لمعاونتها في تحقيق هذه الغاية . غير أن الاتحاديين لما قاموا بانقلابهم المعروف باسم «انقلاب الباب العالي» في الآستانة (٢٣ يناير، كانون الثاني ١٩١٣)[١٧] ضد حكومة خصومهم الائتلافيين ، ساروا في سياسة العنف والشدة ، وحرَّموا قيام الأحزاب المعارضة من تركية وغير تركية ، كما حرَّموا على العناصر غير التركية تشكيل أي حزب أو جمعية مهما كان لونها ، وأعلنوا الأحكام العرفية في مختلف المناطق ، وخاصة منها الآستانة ، وسيطر العسكريون منهم على السلطة ، واضطلعت الجمعية بأعباء الحكم مباشرة ، وأعلنت نفسها حزباً علنياً ، بعد أن بقيت حتى ذلك الوقت ، مبدئياً على الأقل ، جمعية سرية تعمل بالخفاء ، ولو أن أمرها معروف ، وسيطرتها على الحكم مكشوفة .

أما في سياستهم العربية فقد حرم الاتحاديون العرب من الأمل الذي علقوه على الائتلافيين في الحصول على الحكم اللامركزي ، وبقوا مصرين على تطبيق الإصلاح بحسب المفهوم الاتحادي «توسيع المأذونية» للولايات ، أي أن يبقى للعنصر التركي الحاكم حق السيادة في الأقطار العربية ، وإعطاء حرية التصرف للوالي في الأمور الإدارية والعمرانية الداخلة ضمن ولايته ـــ مع منحه صلاحيات واسعة ـــ دون الرجوع إلى أوامر الآستانة إلا في الأمور الهامة الخطيرة ، والاستعانة بمجالس محلية معينة تعييناً ، لا يدخل العنصر الانتخابي فيها إلا بقدر ضئيل ومشوه ، بحيث يكون الوالي مسيطراً عليها تمام السيطرة ، بدلاً من أن تكون مسيطرة عليه . وقد تجلى هذا الإصلاح الاتحادي بقانون الولايات الذي أصدروه بعد ذلك (حزيران ١٩١٣)[١٨] ، فأُسقط في يد أحرار العرب وزعمائهم ، وخاب أملهم في الإصلاح الذي يرغبونه ، ولكن ما العمل وكابوس الإرهاب مسلط على أعناقهم لا يستطيعون حراكاً ؟

لقد أعملوا الفكر في إيجاد الحل الناجع فانبثقت عن نفر من أعضاء الجمعية العربية الفتاة في باريس ، بالاتفاق مع حزب اللامركزية في مصر ، فكرة الدعوة إلى مؤتمر يعقد في باريس ، بعيداً عن السيطرة الاتحادية واضطهادها للأحرار . وهكذا تم عقد المؤتمر في قاعة الجمعية الجغرافية في

---

(١٧) العرب والترك ، ص٤٦١ .

(١٨) العرب والترك ، ص٤٧٩ .

١٨ حزيران ١٩١٣[١٩]. وقد ترأسه عبد الحميد الزهراوي، وكان من أبرز أعضائه وخطبائه، بالإضافة إلى الرئيس، الشيخ أحمد طبارة، وعبد الغني العريسي، واسكندر عمون، وندرة مطران. وتجلت في خطب الخطباء مطالب العرب في الحكم اللامركزي، كما كان من أبرز المسائل ما أثاره عبد الغني العريسي من إثبات ما للعرب من حق جماعة، بما لهم من وحدة اللغة والعنصر والتاريخ والعادات ووحدة المطمح السياسي، فأثبت بذلك أن، للعرب «حق جماعة، حق شعب، حق أمة»[٢٠]، وما أثاره عبد الحميد الزهراوي من موضوع اللامركزية وإلحاحه على أن المؤتمرين «لم يجيئوا إلى أوروبا ليطلبوا منها أن تزيد في أراضيها، لأنهم أعقل من أن يحمّلوا أنفسهم هذه المهمة الفضولية، وأوروبا أعقل من أن تحتاج في أعمالها إلى أمثالهم، وأن الذين لا سياسة لهم سيعلمون أن أوروبا ليست هي الغول، وإنما الغول هو سوء الإدارة وفساد السياسة»[٢١]. كما أن الزهراوي كان، قبل انعقاد المؤتمر بأسبوع، قد قال في تصريح صحفي إلى مراسل جريدة «الطان» الفرنسية في باريس بأنه يأمل أن تقوم في الآستانة حكومة رشيدة يكون للعرب فيها مشاركة في أمورها، رغبة منهم في إيجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعهم العربي، بدون حائل يقف في طريقه .... وأضاف قائلاً «أما إذا هي ظلت بعيدة عن ذلك فإني أصرح لك ... بأن خطتنا معها تتغير حينئذ تمام التغير»[٢٢]. ولا يخفي ما في هذه الخطب والأقوال من تحد للاتحاديين ومجابهتهم بالعواطف القومية العربية.

لقد نجح المؤتمر نجاحاً باهراً بالرغم من نشاط وسائل الإعلام التركية في محاولة منها لإحباطه، وانتهت جلساته في ٢٣ يونيو، حزيران ١٩١٣ بقرارات تبين مطالب العرب، فما كان بوسع الاتحاديين إلا الرضوخ، وإرسال مندوب عنهم للتفاوض مع العرب، وجرى الاتفاق بين الطرفين على تنفيذ قسم من المطالب التي من شأنها أن تحقق للعرب آمالهم المشروعة في نوع ضيق من الحكم اللامركزي[٢٣]، وإن لم يكن كل ما حلموا به، إنما قنعوا باليسير، مسايرة ودليلاً على حسن نيتهم نحو الدولة، ولكن بشرط أن يتحقق هذا اليسير فعلاً.

---

(١٩) المصدر السابق، ص٥٠٣.

(٢٠) اللجنة العليا لحزب اللامركزية (جمع محي الدين الخطيب) ــ المؤتمر العربي الأول، من خطبة العريسي، ص٤٢ ــ ٥٠.

(٢١) المصدر السابق، من خطبة الزهراوي، ص٢٨ ــ ٣٩.

(٢٢) المصدر السابق، تصريح الزهراوي لمراسل الطان، ص١٤ ــ ٢١.

(٢٣) العرب والترك، ص٥٣٤.

غير أن الاتحاديين لم يكونوا مخلصين في اتفاقهم هذا، إذ ما إن انتهت المفاوضات بين الجانبين، ووقع ممثلاهما على نصوصه، وهدأت العاصفة التي أثارها العرب في مؤتمرهم، حتى بدأت المماطلة من جانب الاتحاديين. صحيح أنهم عينوا، حسب الاتفاق، بعض الشخصيات العربية في مجلس الأعيان، غير أن واحداً فقط ممن عينوهم كان من حزب الإصلاح العربي الصحيح، وهو عبد الحميد الزهراوي، وأما الباقون فقد اختاروا أكثرهم من عملاء الاتحاديين، مدّعي الإصلاح، بل أنصار الإصلاح المزيف على الطريقة الاتحادية، مع بعض الحياديين، ولم يكن عدد الذين عينوهم بعدد ما نص عليه الاتفاق بل أقل بكثير. كما عينوا بعض المتصرفين والولاة، ولم يبلغ عدد هؤلاء قط العدد الذي اتفق الطرفان عليه. أما عدد المناصب الوزارية التي نص الاتفاق أن يُخصَّ العرب بها فلم تلق أي اهتمام من الحكومة. هذا إلى أنَّ الاتحاديين، حينما أصدروا الإرادة السلطانية بنصوص الاتفاق المتعلقة بتفاصيل المطالب اللامركزية، عمدوا إلى تشويهها، بحيث جاءت ممسوخة تختلف اختلافاً بيناً عن النص الأصلي الذي وقع عليه ممثلا الجانبين. وهذا ما سبب انشقاقاً في الحركة العربية، قصد الاتحاديون إليه قصداً بمناوراتهم هذه، إذ انقسم زعماء هذه الحركة إلى فئتين، أولاهما التي تزعمها عبد الحميد الزهراوي وعبد الكريم الخليل، والثانية تزعمها المقدم عزيز علي المصري وحقي العظم ممثلين للشبيبة العربية الطليعية وفئة الضباط. وقد أخذت هذه الأخيرة على الفئة الأولى كونها قد رضيت بالأمر الواقع، ومالت إلى التراخي والتهاون في قضية المطالب الإصلاحية، وآثر ممثلها الزهراوي مصلحته الخاصة في قبوله المنصب الكبير الذي عينه فيه الاتحاديون، وقد ألصقوا به تهمة خرق مقررات المؤتمر الذي وضع شرطاً لقبول المناصب الحكومية هو تنفيذ الحكومة لهذه المقررات كاملة.

وقد استدعت الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل إلى مقر المنتدى الأدبي في الآستانة حيث كان في انتظاره ما ينوف على ألف شخص من أعيان العرب وأدبائهم وشبانهم، واستوضحته عما جرى بالإصلاح ومن قبول الزهراوي لمنصبه، وبعد أخذ ورد أعلن عبد الكريم أنه لا يستطيع أن يبوح بشيء من أسرار السياسة أمام هذا الجمع الغفير، فقر الرأي على أن تؤلف لجنة تجتمع به سراً. وقد جرى ذلك في ٧ يناير، كانون ثاني ١٩١٤، واستمرت الجلسة اثنتي عشرة ساعة استطاع عبد الكريم خلالها إقناع اللجنة بوجهة نظر الفئة التي يمثلها، إذ إن في وجود الزهراوي في عضوية الأعيان خدمة لقضية العرب ومطالبهم الإصلاحية، وإن من أهم الأسباب لقبوله المنصب «عظم أطماع الأجانب في البلاد العربية، ورغبتهم في انتهاز فرصة الخلاف بين العرب والترك

لتحقيق مآربهم »[٢٤] ، وكان كل عربي يعرف ما تدعي به فرنسا لنفسها من مصالح في سورية منذ زمن طويل ، ولم ينسَ أحد آنئذ ما نوّه به رئيس وزرائها « بوانكاره » في جلسة مجلس الشيوخ الفرنسي (١٩١٢) مذكراً بهذه المصالح ، ومحذراً انكلترا من تجاهلها .

عندئذ سكتت الشبيبة العربية على مضض ، وأصدرت بياناً أذيع في الصحف باعتماد عبد الكريم لملاحقة مطالب العرب ، وشكلت لجنة من أربع شخصيات لمؤازرته . كما أرسل عبد الحميد الزهراوي ، إلى صديقه الشيخ رشيد رضا في القاهرة ، رسالة شرح له فيها الأوضاع التي يعانيها العرب في الفترة الأخيرة ، وحللها تحليلاً صحيحاً . وكان الظاهر أن هذه الأوضاع هي التي ألجأته إلى هذا الاتجاه في النضال العربي : اتجاه غير متطرّف في طلب الإصلاح ، وغير متهادن إلى حد التفريط بمصالح العرب ، بل سلوك سبيل الاعتدال ، سبيل « خذ وطالب » . وقد دفعه إلى هذا السلوك دوافع ثلاثة : أولاً ـــ تألّب الدول الأجنبية على السلطنة . ثانياً ـــ ما أصبح عليه الترك من رغبة في تقوية جهازهم الداخلي ، ومن اتخاذهم خطة الحزم والشدة ، لخلو الجو من عناصر المعارضة التي قضوا عليها قضاء مبرماً ، ولم يبقَ للعرب ـــ بالرغم من ازدياد شأنهم العددي نسبة للأتراك ، وغلبة مسحة العروبة على نضالهم نتيجة تطور فكري سريع ـــ من يعتمدون على معاونته ، من بقية العناصر ، لمجابهة الحكومة بعد انفصال ألبانيا ، بما تضمه من أجناس مختلفة عن الدولة ، فبقوا وحيدين في ساحة النضال . ثالثاً ـــ أنه لمس بعض الميل من الترك إلى التساهل لإنالة العرب بعض حقوقهم .

وفي هذه الفترة من النضال العربي ألف العرب حزبهم السرّي المعروف باسم « جمعية العهد » بزعامة المقدم عزيز علي المصري ، قبيل اعتقاله ظلماً بأمر من أنور بك ، والحكم عليه بالإعدام ، ثم العفو عنه ونفيه إلى مصر .

والواقع أن الترك ، بعد أن صدمتهم الحرب البلقانية تلك الصدمة القوية التي فصلت ألبانيا والولايات الأوروبية عن دولتهم ، استفاقوا من غفلتهم ، واستلمت الشبيبة العسكرية ، ممثلة بالمقدم أنور بك ، وأحمد جمال بك (المعروف) ، مقاليد الحكم ، وأخذت حكومتهم ، بعد انقلاب الباب العالي ، تسير في سبيل القوة وتجديد شباب الدولة ، معتمدة على الخبرة الفنية الأوروبية ، خاصة منها في مجال تقوية الجيش الذي اعتمدت فيه على بعثة من الضباط الألمان القديرين . كما عمدت إلى حل

---

(٢٤) العرب والترك ، ص٥٥٢ ـــ ٥٥٣ .

مشاكلها مع الدول الأوروبية، بمنحها الامتيازات الاقتصادية في أراضي الدولة العثمانية، لتلتفت إلى إصلاح أمورها الداخلية، وتنظيم جيشها حرة طليقة من كل تدخل أجنبي.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها أدركت، نتيجة خبرة السنوات الخمس الأخيرة، عدم استطاعتها الاعتماد على العناصر الأخرى غير التركية التي اعتبرتها خائنة لأهداف «العثمانية»، لذلك وبالرغم من أن معظم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي لم يكن يعتنق العقيدة الطورانية، ولا يعتقد بها اعتقاداً أصيلاً، إلا أن الزعماء البارزين منهم رأوا أن في مسايرة هذا التيار القومي الطوراني خلاصاً وإنقاذاً للعنصر التركي من الهلاك الذي ينتظره. هذا علاوة على أن أجهزة الإعلام التركية الحرة كانت تسير بقوة أقوى من السيل الجارف، في سبيل ترسيخ العقيدة الطورانية في أذهان الجماهير التركية. كما كان بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين شخصيات هامة، تعتنق العقيدة الطورانية وتتحمس لها تحمساً عظيماً، منهم «ضياء كوك آلب»، و«أحمد آغا أوغلي»، وغيرهما من الذين كانوا يدفعون بالاتحاديين في تيار العنصرية، وتجاهل مطالب العرب وحقوقهم القومية، فلم يرَ الاتحاديون بداً من الانجراف مع هذا التيار.

غير أن عجلة التطور القومي عند العرب لم تقف جامدة إزاء هذه التطورات العنيفة في الأفكار القومية التركية، بل قابلها من طرفهم نشوء أفكار قومية ذات تيار عنيف أيضاً، ورافق ذلك ظهور كتّاب ومفكرين، ارتفعت كتاباتهم إلى مستوى التفكير الفلسفي، مثل عمر فاخوري، وعبد الحميد الزهراوي، ومصطفى الغلاييني، وعبد الغني العريسي وغيرهم. لقد أدرك هؤلاء أن المستقبل للشعوب القومية المتمسكة بقوميتها، ونادى عمر فاخوري بجعل القومية العربية ديانة للعرب جديدة، وبخَلْقِ إله للأمة العربية هو القومية العربية. وكان في نظر الزهراوي أن الأمة هي الجماعات التي فيها روح القومية، فإذا طارت هذه الروح تصبح الجماعات أشباحاً. ونادى الغلاييني بالتعصب للقومية واللغة والدين والمذهب الاجتماعي والسياسي، وأوضح عبد الغني العريسي في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر العربي الأول مقومات القومية العربية.

إن خيبة أمل العرب في صدق دعوة الاتحاديين للرابطة العثمانية، بل مما شاتهم للقومية التركية كان هو العامل الحاسم في ميل أفكار أحرارهم نحو النضال والتفاني في سبيل تعزيز قوميتهم، حفظاً لها من الانصهار والتلاشي. وحتى الأفكار الانفصالية قد راودتهم في آخر الأمر، عندما أدركوا أن لا سبيل إلى التعايش السلمي مع إخوانهم الترك، الذين استبدت بهم النعرة التركية، وملكتهم العصبية

الشديدة لها. ولكن هذه الأفكار الانفصالية بقيت مستترة في نفوسهم، ولم يمنعهم من إظهارها، واتخاذها سياسة مرسومة واجبة الاتباع ــ مع توفر الروح المعنوية لديهم ــ إلا النقص الذي كانوا يعانونه في الوسائل المادية لدعم الاستقلال الناجز، فيما إذا فكروا في بلوغه. فكانت، والحالة هذه، أهدافهم مقتصرة على الحكم اللامركزي الواسع، كخطوة أولى نحو الاستقلال الناجز، في المستقبل، عندما تتوفر لهم الوسائل الضرورية لدعمه. واستمروا على هذا الحال حتى الحرب العالمية الأولى.

أمام هذا التطور المتناقض في موقف الجانبين، وتطور الأحداث في السلطنة العثمانية، تطوراً هو في مصلحة الأتراك القوميين، لم يكن أمام العرب إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يرضخوا للأمر الواقع، ويقبلوا مرغمين بما يمنحهم الاتحاديون من إصلاحات طفيفة، ويلعقوا جراحهم القومية صاغرين، أو أن يرفعوا لواء الثورة، وينفضوا النير التركي المستحكم في أعناقهم، ويحطموه.

إن هذه الحقيقة لم تغب حتى عن فكر عبد الحميد الزهراوي، برغم انسياقه في تيار الاعتدال. يتضح ذلك من الكتاب الذي وجهه إلى الشيخ رشيد رضا، وبيّن له فيه خيبة أمله بالشبيبة العربية التي لا خبرة لها «أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة....» و«ضباط لا تجربة لهم في العمل السياسي»، وعبر عن استهانته بالسوريين والعراقيين «لأنهم حضر لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا... فقد أَلِفَتْ نفوسهم الذل»، بل علق الأمل على أهل الجزيرة العربية قائلاً: «ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة، لكانت روحي أوزاعاً على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت»(٢٥).

هكذا استسلم العرب في بادىء الأمر ــ وحتى يكشف الزمن عن تطورات عالمية وداخلية جديدة ــ استسلموا للتيار، راضين بالقليل الذي لم يُعْطَ لهم سوى جزء ضئيل منه، وما أُعطي لهم منه أُعطي بمماطلة وعلى مهل. حتى إذا نشبت الحرب العالمية الأولى، وقرر الاتحاديون خوض غمارها إلى جانب دول الوسط، حسر هؤلاء القناع عن وجوههم فبان الغدر الذي كانوا يضمرونه للعرب، كعنصر من العناصر التي ناوأت حكمهم وأهدافهم العنصرية، وضربوا باتفاق باريس عرض

(٢٥) أحمد عزة الأعظمي: القضية العربية، ج٤، ص١٩ــ ٣٠، والمنار، مجلد ١٩، ج٣، ص٧١٥ــ ٧١٨.

الحائط، فطواه النسيان والإهمال(*)، وما هي إلا فترة تريث وإمهال حتى بدأوا سياسة البطش والتقتيل والتنكيل بأحرار العرب.

خلاصة القول إن نضال العرب في الفترة الدستورية التي مرت بها الدولة العثمانية من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ قد تطورَ في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: من سنة ١٩٠٨ إلى ١٩١٢ وفيها لم يطالب العرب بسوى الحرية والمساواة، مع إخوانهم الترك، في الحقوق والواجبات التي يتطلبها كونهم مواطنين تجمعهم الرابطة العثمانية، لهم ما لإخوانهم وعليهم ما عليهم، وبعدم اعتبارهم كَمّاً مهملاً لا شأن لهم بأمور هذه الدولة، التي اعتبر الترك أنفسهم فيها العنصر الحاكم صاحب الحق الأوحد في إدارة شؤونها، بدعوى حق الفتح والتسلط.

المرحلة الثانية: من سنة ١٩١٢ إلى ١٩١٤، وهي التي شعر العرب فيها أنه يستحيل عليهم التفاهم مع إخوانهم الترك، الذين يضمرون تتريك العناصر الأخرى وصهرها في بوتقتهم باسم الرابطة العثمانية، فمالوا إلى المطالبة بلامركزية الحكم في ولاياتهم العربية، ضمن الجامعة العثمانية، دون أن يفكروا بالانفصال، وذلك كي يفوتوا على الترك فرصة إحباط ما عقدوا العزم عليه. وقد تبلورت عند كل من الجانبين فلسفة معينة للأمور ملخصها: لدى الترك أولاً: أنهم تمسكوا بنظرتهم إلى العرب وبقية القوميات ــ نظرياً فقط وفي نطاق الجدل ــ بأنهم عثمانيون لهم ما للعثمانيين وعليهم ما عليهم، وليس لهم أن يطلبوا مطالب خاصة، فالدولة دولتهم، ولا امتيازات خاصة لأحد فيها على غيره، وعليهم أن يظهروا الإخلاص دون فرض مطالب معينة، وإلا عُدَّ ذلك منهم خيانة، متجاهلين كونهم قد استأثروا بجميع الامتيازات دون غيرهم. ولدى العرب ثانياً: أنهم أخذوا ينظرون إلى أنفسهم بأنهم أصبحوا ــ بعد أن لمسوا معاداة الترك لهم، وبعد أن تنبه فيهم الشعور القومي ــ أمة قائمة بذاتها، ويجب على الترك الاعتراف بكيانها، وإعطاؤها حقها في إدارة شؤونها الداخلية في الولايات التي يقطنها أبناؤها(٢٦). وكان العرب لا يكتمون على إخوانهم الترك أن ادعاءهم بالرابطة العثمانية والمساواة في الحقوق والواجبات ليس إلا وهماً من الأوهام، باعتبار أنهم حرموا العناصر الأخرى من كل حق من حقوقهم، ومالوا إلى صهرهم في البوتقة التركية. وباعتبار أن الترك بدؤوا، في أوائل

(*) ثارت بعد تراخي الاتحاديين في تنفيذ مقررات مؤتمر باريس ضجة صحافية بين العرب والترك لم تلبث أن تلاشت إثر نشوب الحرب العالمية (راجع العرب والترك، ص٦٠٩).

(٢٦) تحسين العسكري ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى وعن الثورة العراقية، ص١٤٠.

هذا الدور ، سياسة ترمي إلى القمع والشدة ، وحرموا على العناصر غير التركية إقامة منظمات قومية علنية ، فقد بدأ العرب بالاتجاه إلى العناية بالتنظيمات السرية ، التي كانت مظهراً من مظاهر سرعة تطور الفكرة العربية ورسوخها ، إذ قامت على نمط الجمعيات السرية القومية الأوروبية بل التركية قبل الدستور[٢٧] ، للحفاظ على قوميتهم من الاندثار والانصهار في غيرها . فانبثق عن هذا الاتجاه قيام أقوى منظمتين سريتين عربيتين ، أولاهما « الجمعية العربية الفتاة » والثانية « جمعية العهد » ، اللتان سيكون لهما شأن عظيم في المرحلة الثالثة التي ستكون مدار ما سيأتي من هذه الرسالة ، باعتبار أن رسالتي السابقة « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني قبل الحرب » قد تضمنت البحث في المرحلتين المذكورتين آنفاً .

المرحلة الثالثة : وتمتد من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، وهي مرحلة السعي للانفصال التام عن الدولة العثمانية . وستبدأ الفكرة في أولها غامضة ، ثم تتبلور رويداً رويداً بازدياد العوامل المؤثرة ، إلى أن تترجم إلى عمل حاسم كما سنرى .

---

(٢٧) أمين سعيد ـــ الدولة العربية المتحدة ، ص٢٦ .

الفصـــل الأول

دخول تركيا في الحرب وأثره في الانفصال

نشبت الحرب العالمية الأولى في أول آب ١٩١٤ ، إثر اغتيال ولي عهد النمسا ـــ المجر وزوجته في ٢٨ / ٦ / ١٩١٤ ، في مدينة سيراجيفو عاصمة الصرب ، من قبل بعض القوميين الصرب الطامحين في تكوين « الدولة الصربية الكبرى » ، لاعتقادهم أنه يقف دون تحقيق أهدافهم .

لقد اجتاح أوروبا ، إثر هذه الحادثة ، غليان شديد استمر حتى أول آب بين الدول العظمى ، ولم تكنْ الحادثة بحد ذاتها إلا السبب المباشر للحرب . إذ سبقتها فترات اضطراب في العلاقات الدولية ، وأزمات استمرت من العام ١٩٠٤ إلى العام ١٩١٤ ، فكونت ، بما رافقها من ضغائن وأحقاد بين الدول ، الأسباب البعيدة للحرب ، فضلاً عن كونها قد أججت نيران العواطف القومية في البلقان . وقد نشأ عن هذه الأزمات سباق إلى التسلح بين الدول ، وكانت ألمانيا منذ نمو نهضتها الصناعية في أواخر القرن التاسع عشر قد سبقت باقي الدول بتعزيز قوتها البحرية ، لتنافس بها إنكلترا ، وتنتزع لها « مكاناً تحت الشمس »[1] .

لقد أدى نظام المحالفات السرية ، وانقسام الدول إلى معسكرين متعاديين ، ونمو الروح العسكرية في مختلف الدول[2] ، وتضارب مصالحها الاقتصادية ، فضلاً عن الأسباب العاطفية الناشئة عن يقظة الشعور القومي ، إلى شحن الضغائن والأحقاد . فنشأ عن ذلك مشاكل قومية عديدة بين الدول المعنية . فما إن وقعت حادثة سيراجيفو حتى كانت أوروبا قد وجدت فعلاً في حالة حرب . وقد لعب دعاة الاستعمار ، وأبواق الحرب من الاستعماريين ، دورهم في إثارة الأحقاد ،

---

(١) بييررينوفان : تاريخ القرن العشرين ، تعريب د . نور الدين حاطوم ، ص٢٨ .

(٢) مجلة العرب العظمى ، ج١ ، ص٦ من مقال بقلم الأستاذ سيدني برادشو (جامعة هارفارد) .

وأخذت صحفهم المأجورة تهتك ستر الحياء، مندفعة في هذيانها المحموم، داعية إلى امتشاق الحسام[٣].

لقد استغلت النمسا ــ المجر هذه الحادثة لسحق عدوتها دولة الصرب، فتشددت في مطالبها، وانبرت معظم الدول المعنية إلى دعم هذه الدولة أو تلك من الدول المتخاصمة، ولم تمض بضعة أسابيع حتى عمت التعبئة العسكرية معظم الدول الأوروبية. وما حل أول آب حتى خطت فرنسا خطوتها في إعلان تعبئتها العامة، فجارتها ألمانيا في ذلك بعد ساعة فقط. وفي مساء اليوم نفسه أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا، ثم على فرنسا بعد يومين[٤]. ولم يكن من انكلترا إلا أن تضامنت مع فرنسا وفاء منها لعهد سابق قطعته لها، فأعلنت هي بدورها الحرب على ألمانيا. وهكذا ظلت دائرة الحرب في اتساع مستمر حتى شملت معظم دول أوروبا التي انقسمت إلى معسكرين: الأول معسكر ألمانيا والنمسا ــ المجر، ومن انضم إليهما (دول الوسط)، والثاني معسكر فرنسا وانكلترا وروسيا وحلفاؤها (الحلفاء).

دخول تركيا في الحرب

أما الدولة العثمانية التي لم يكن لها في الأمر أية مصلحة ــ اللهم إلا ذلك الحقد الدفين الذي نشأ عن هزيمتها في حربي طرابلس الغرب (١٩١١) والبلقان (١٩١٢ ــ ١٩١٣)، فجعلها تحرّق الأرّم على الأخذ بالثأر[٥]، واسترداد ما خسرته في هاتين الحربين من أراضيها التي اغتصبها منها خصومها[*] ــ فقد قررت التعبئة العامة فور نشوب الحرب (٣ آب ١٩١٤) مدعية أن ليس لها من قصد في ذلك سوى دعم حيادها الذي أعلنته في الوقت نفسه[٦].

لم تكن خطوة الدولة العثمانية هذه إلا تمهيداً لخطا تالية، لم تر الحكومة القائمة حينذاك أن

---

(٣) أ. د. موريل، حقيقة الحرب العالمية، ترجمة علي أحمد شكري، ص٨٨.

(٤) فريد ريك ستيڤه، حقيقة الحرب العظمى، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي، ص١٧٤.

(٥) H.ERTURK, Iki Devrin Perde Arkasi, p. 121. Halide Edib, Conflict of East and West, p.112.

(*) احتلت اليونان ١١ جزيرة في بحر ايجه، وعند مفاوضات الصلح كانت الدول الأوروبية تريد إلحاق هذه الجزائر باليونان، وقبل أن تنتهي هذه المفاوضات قامت الحرب العامة. كما تقاسمت دول البلقان الظافرة: بلغاريا واليونان والصرب والجبل الأسود أراضيها الأوروبية التي غنمتها منها (شكيب أرسلان ــ تعليق على تاريخ ابن خلدون، ص٣٨٣).

(٦) Y.H BAYUR! Turk Inkilabi Tarihi, V. Part, I, pp. 62/63

من السهل عليها أن تتخذ قراراً حاسماً فيها، لتباين وجهات النظر بين أركانها الذين كانوا على اختلاف في النزعات والميول[٧]. وقد بدأ الصراع بينهم حول المنهج الذي يجب السير عليه. وكان لضغط الحكومة الألمانية من جهة، وتطور الأحداث الخارجية والداخلية من جهة ثانية، وإجراءات المسؤولين الترك الدكتاتورية من جهة ثالثة، القول الفصل في موقف تركيا الحاسم من الصراع القائم بين المعسكرين المتحاربين.

لقد سبق اندلاع الحرب تطورات داخلية هامة لها علاقة وثيقة بموقف تركيا من دخولها، فقد شجر الخلاف ما بين الحكومة العثمانية والعناصر غير التركية في السلطنة، وبالرغم من أن الدولة تمكنت أخيراً من إخضاع هذه العناصر، غير أنها بقيت على خشية وحذر منها، وبخاصة من العرب والأرمن. لذلك أخذت تترقب الفرصة للإجهاز على أمانيهما القومية. وهل من فرصة أجدى من حرب تقوم، ويدخلها الأتراك في الجانب الذي يعتقدون بحتمية ظفره لضرب هذين الشعبين المشاكسين لها؟

ثم هناك طرابلس الغرب المغتصبة، والممتلكات الأوروبية المفصولة، وتونس ومصر اللتان كانت الدولة العثمانية لا تزال تحلم باستردادهما. وهناك أيضاً الفكرة الطورانية التي لقيت رواجاً في الأوساط المتطرفة من جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة، ومن أهدافها توسيع رقعة المملكة العثمانية المرتكزة على أساس قومي تركي، حتى تشمل كل البقاع التي يسكنها الجنس التركي الطوراني. هذه أهداف بعيدة المدى ولا شك، لكنها لم تعدم من نادى بها، وجعلها هدفاً من دخول الحرب.

كانت دفة الحكم في الدولة العثمانية، قبل نشوب الحرب، تميل نحو تمركزه في أيدي فئة قليلة، وتتجه نحو الدكتاتورية الفردية، أو بالأصح ما سمي بالثلاثي الدكتاتوري Triumvirat منذ انقلاب الباب العالي (١٩١٣/١/٢٣)[٨]، الذي تلاه ضغط لم يخل من العنف قامت به زمرة من المغامرين على رأسهم الضابط الجريء «يعقوب جميل»، واقتحمت المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي، وفرضت أنور بك وزيراً للحربية، ولم يكن قد تجاوز الثانية والثلاثين من العمر، ورُقي إلى رتبة فريق فاكتسب لقب «باشا»[٩]، ثم جرى ترقية منافسه جمال بك للرتبة نفسها مع اللقب

---

(٧) A.I. SABIS, Harb Hatiralerim, T.I, pp.40-41, T.II, p.24.

(٨) راجع كتابي «العرب والترك»، ص٤٦١.

(٩) H. ERTURK, Ibid. pp.131-133؛ هنري مورغنتو، أسرار الحرب الكبرى في تركيا ص٣٢.

نفسه، بحركة منه كان ملؤها التحدي(*) لمناظرة أنور، ومبعثها الحسد والغيرة منه. وأسندت وزارة الأشغال العامة ثم وزارة البحرية إليه(١٠). وأما ثالث هذا الثلاثي «طلعت بك»، وزير الداخلية، فقد أصبح أقوى زعيم مدني في جمعية الاتحاد والترقي، عندئذ صار هؤلاء الثلاثة أقوى سلطة في الدولة.

عدا ذلك فقد أصبح النفوذ الألماني متغلغلاً في تركيا، بعد أن ساعدتها ألمانيا في قروضها الخارجية، وفي إنشاء خطوطها الحديدية، وفي تدريب جيشها(١١). فمنذ صدارة الفريق محمود شوكت باشا طلبت تركيا بعثة ألمانية لتدريب الجيش التركي، فأرسلت ألمانيا / ٤٢ / ضابطاً على رأسهم الجنرال «ليمان فون ساندرس»، الذي عهد إليه بالمفتشية العامة للجيش العثماني برتبة مشير(١٢). ولجأ أنور، بعد استلامه وزارة الحربية، إلى حركة تطهير تخلص بها من أكثر من ثلاثمئة ضابط كبير لم يكونوا على وفاق معه في خططه الجريئة، واتجاهه نحو ألمانيا(١٣). واستعاض عنهم بآخرين من الشبان المخلصين له، والمتحمسين لأفكارهم القومية، وللميل نحو ألمانيا، وسلّمهم المناصب العليا في الجيش(١٤)، فأصبح بذلك الحاكم المطلق على الجيش، وبالتالي على مقدرات السلطنة العثمانية، أو كما قال علي فؤاد رئيس هيئة أركان حرب جمال باشا «كانت السلطنة العثمانية في قبضة الاتحاديين، وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام للحزب، وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثة، وكان الثلاثة في قبضة أنور، يسوقهم سوقاً عنيفاً. أما مقام السلطنة والقوى التشريعية، وجمعية الاتحاد والترقي، والحكومة الرسمية، والرأي العام فلم تكن سوى أشباح ماثلة، وخيالات مصورة»(١٥). فلما أعلنت تركيا تعبئتها العامة، وقد رافقها استعداد للحرب قام على قدم وساق، ارتابت انكلترا من هذه الخطوة، وهي عالمة بتغلغل النفوذ الألماني في الأوساط التركية، فبادرت إلى حجز البارجتين الحربيتين «سلطان عثمان» و «رشادية»، اللتين كانت تركيا قد أوصت

(*) اتفقت كثير من المصادر في رواية أن جمال باشا لما علم بترفيع أنور إلى رتبة فريق أول بادر هو فوراً إلى وضع شارة هذه الرتبة، وبعث ببرقية تهنئة إلى منافسه أنور، ووقع البرقية مضيفاً إلى اسمه رتبة الفريق، فأقر فيها (Vardar, Galip: Ittihat Veterakki Icinde dönenler, Sah. 225).

(١٠) A.B. KÜRAN, Osmanli Imparaterlugunde Ve Turkiye Cümhüriyetinde Inkilab Hareketleri, p.652, A.I.Sabis, Ibid, I, p.90.

(١١) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج٥، ص٢.

(١٢) Correspondence D'Orient, 1-2-4914, p.122, Auleneau, La Turquie et la Guerre, p.297.

(١٣) Corresp. d'Orient, 16-1-1914, pp.53-54, A.Emin, Turkey and the War, p.57.

(١٤) ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ص١٢٢.

(١٥) علي فؤاد، كيف غزونا مصر، ص٣١.

عليهما في المصانع الإنكليزية . وكان ثمنهما مما تبرع به الشعب العثماني بكل سخاء[١٦] ، وأصرت على الحجز ، بالرغم من تأكيدات الصدر الأعظم أن الغرض من التعبئة العامة هو الاستعداد للمفاجآت . وحجتها في ذلك أن قوانينها العسكرية لا تسمح بأن تسلم ، في زمن الحرب ، البوارج الموصى عليها وقت السلم ، وأنه يجب انتظار نهاية الحرب كي تسلمها لها[١٧] . وقد أوضح المستر ونستن تشرتشل ، وزير البحرية الانكليزية حينذاك ، هذه المشكلة بقوله «إننا لم نستطع الاستغناء عنهما ، إذ كان من شأنهما أن يزيدا في بوارجنا الحربية ويعززا أسطولنا . ثم إننا لم نكن نريد أن نجازف بإعطائهما إلى تركيا ، خوفاً من وقوعهما في أيد آثمة يحتمل أن تستعملهما ضدنا . فلو سلمناهما لتركيا ، وهما بارجتان ممتازتان ، لشكلتا مع غوبن وبرسلاو قوة وجب أن نضع في مقابلها أربع بوارج لمراقبتها »[١٨] .

لا جدال في أن هذه الحركة من إنكلترا قد أغضبت الترك ، وزادت من ضغينتهم على دول الحلفاء[١٩] . ولم تكن دولتهم ، حتى الآن ، قد رأت من الحلفاء ما يشجعها على الميل إليهم ، بل خبرت من أطماعهم في أراضيها ما ينفّرها منهم . وهي وإن لم تكن قد قررت بوضوح الجانب الذي يجب أن تنضم إليه في هذا الصراع الدولي ، فإنها كانت على استعداد للميل نحو الجانب الذي يؤمن لها رغباتها ، بل التحالف مع أية دولة تبرهن عن نية صادقة مخلصة لها ، وتمنحها شروطاً ملائمة ، وتكفل لها الحماية من جارتها روسيا ، التي لم تُخفِ طمعها في أراضيها منذ عهد بطرس الأكبر . وإذا كانت تركيا قد عقدت ، قبل الحرب ، اتفاقات اقتصادية مع الحلفاء وأعطت ، بعض دولهم بموجبها ، بعض الامتيازات ، بغية الاستمتاع بفترة من الاستقرار ، تتمكن خلالها من بناء كيانها الوطني والاقتصادي والعسكري ، بعد انكسارها في حرب البلقان ، والحصول على قرض من فرنسا وُوفق عليه مبدئياً[٢٠] ، ورغبة منها في كسب رضى فرنسا وانكلترا ، والاستظهار بهما ضد عدوان محتمل من روسيا ، إلا أن صدمتها كانت قوية وعنيفة عندما رأتهما تتحالفان مع هذه العدوة اللدود في الحرب القائمة ، وهي عارفة أن روسيا لم تدخل الحرب إلا لتحقق أطماعها القديمة في المضائق

(١٦) ماري ملز باتريك ، المصدر السابق ، ص١٢٤ .

(١٧) أحمد عزة الأعظمي ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣٨ .

(١٨) Winston Churshill, La Crise Mondiale 1911-1915, p.188.

(١٩) مجلة الحرب العظمى ، ج٤ ، ص٤ ، من مقال بقلم ونستن تشرتشل بعنوان السياسة التركية وأثرها في البلقان .

(٢٠) A. MANDELSTAM, La Sort de L'Emp. Ottoman, p.70.

والآستانة، هذا علاوة على فشل القرض من فرنسا[٢١]. عندئذ شعرت بالخيبة المرة، فولت وجهها نحو ألمانيا التي كانت دعايتها تنتشر في الأوساط التركية، وبصورة خاصة في صفوف الجيش الذي تدرب عدد كبير من ضباطه في ألمانيا نفسها، أو في تركيا، طبقاً للأساليب العسكرية الألمانية، على يد ضباط من الألمان، مضى عليهم وقت طويل وهم يتعهدون الجيش العثماني بعنـايتهم[٢٢]. وكان الوضع الداخلي في تركيا يتطور ويتحول رويداً رويداً من ميل بدا للنواظر، منذ أول ثورة ١٩٠٨، بأنه نحو دول الغرب، إلى ميل أخذ في الانحراف، وظل كذلك إلى أن سلك الاتجاه المعاكس، حتى إذا ظهرت بوادر الحرب العالمية أصبح يتراءى لرجال الاتحاد والترقي أن ألمانيا هي الصديقة الوفية، وهي التي ترغب في رؤية تركيا عزيزة الجانب، كما قال جمال باشا في مذكراته، مضيفاً إلى ذلك قوله إن الترك كانوا حيال فريقين من الدول أراد أحدهما إبقاءهم تحت نيره، وأراد الآخر التقرب منهم لإبرام معاهدة على أساس المساواة في التعهدات والحقوق[٢٣].

إن هذه الخطوط ليست إلا الصورة العامة للوضع، وهي ولا شك لا تغني عن مزيد من الإيضاح:

كانت المفاوضات جارية بين ألمانيا وتركيا في الآستانة، قبل نشوب الحرب، لكنها كانت اقتصادية الصفة، فلما تردت الحالة الدولية بعد منتصف تموز ١٩١٤، إثر حادثة سيراجيفو، انقلبت من اقتصادية إلى عسكرية بدافع الخوف من روسيا، وإحباطاً لنياتها العدوانية، لاعتقاد الترك بأنها كانت تتحفز للقضاء على وجود تركيا[٢٤]. ففي ٢٢ تموز ـــ وبعد الحصول من السلطان على إرادة سنية تخول الصدر الأعظم عقد معاهدة دفاعية مع ألمانيا[٢٥] ـــ توصل أنور باشا، وهو الذي كان يعتقد اعتقاداً جازماً بحتمية ظفر الألمان على خصومهم في الحرب المحتملة الوقوع، ويحلم بمساعدتهم ودعمهم له في استرداد البلاد التي سلخت عن تركيا[٢٦]، إلى التفاهم مع البارون «فون

(٢١) P. LOTI, La Mort de Notre Chère France en Orient, pp.133-134 A.I. Sabis, Ipid, I, p.34.

(٢٢) مذكرات جمال باشا، ص١٧١.

(٢٣) مذكرات جمال باشا، ص١٨٣، ١٩٣ ـــ ١٩٥، مورغنتو، المصدر السابق ص١٧.

(٢٤) A. EMIN, Turkey and the War, pp. 68-69; Hurewitz, Diplomacy in the Near and the Middle East, II, doc. I, p.I.

(٢٥) A.B. KURAN, Ibid., p.651.

(٢٦) Auleneau, Ibid, p.297.

فانجنهايم »، سفير ألمانيا في الآستانة، على عقد معاهدة دفاعية سرية بين الدولتين ضد روسيا، وقعت فعلاً في ٢ آب ١٩١٤، وهي تتألف من ثماني مواد أهمها الأربع الأولى(٢٧):

مادة ١ = تتعهد الدولتان بالوقوف على الحياد تجاه الخلاف الناشب حالياً بين النمسا ــ المجر وصربيا.

مادة ٢ = في حالة تدخل روسيا في الحرب تدخلاً عسكرياً، تضطر معه ألمانيا أن تفي بتعهداتها التي قطعتها للنمسا، ويكون على تركيا أن تلتزم هي أيضاً بهذه التعهدات وتفي بها.

مادة ٣ = في حالة نشوب الحرب تُبقي ألمانيا بعثتها العسكرية في تركيا، وتؤمن هذه للبعثة الألمانية إمكانية اضطلاعها الفعلي بالقيادة العليا للجيش.

مادة ٤ = تتعهد ألمانيا بالمحافظة على أراضي الدولة العثمانية ضد أي اعتداء يقع عليها من قبل روسيا.

لم تكن هذه المعاهدة سوى غل وضعه الألمان في عنق المسؤولين الأتراك، ويلاحظ عليها:

١ ــ أنها عقدت بصورة سرية، وقد أخفى أنور أمرها حتى عن هيئة أركان حربه، ولم يوقع عليها سوى « فانجنهايم » عن الجانب الألماني، والصدر الأعظم سعيد حليم باشا، وأنور وطلعت وخليل منتشه، رئيس مجلس المبعوثان عن الجانب التركي، ولم يعلم بخبرها جمال وجاويد من الوزراء إلا بعد أن تم توقيعها، وأصبحت أمراً واقعاً(٢٨).

٢ ــ لم تجر بشأنها استشارة أي ممثل سياسي تركي في أية دولة من دول أوروبا ذات العلاقة، حتى ولا سفير تركيا في برلين(٢٩)، ولا أي وزير من الوزراء الذين يحتمل أن يعترضوا على عقدها. واقتضى الأمر أن يُلزَموا بالاعتراف بها كأمر واقع، وذلك خوفاً من إفشاء سرها، لعلم المسؤولين أن معظم السفراء وكبار الموظفين متزوجون من أجنبيات، وكثيراً ما كانت الأسرار السياسية تتسرب إلى الحلفاء(٣٠). وقد وصف أحد الساسة الأجانب هذه المعاهدة بقوله « إنها السر الوحيد الذي كُتم في الباب العالي »(٣١).

---

(٢٧) A.B. KURAN, Ibid. p.651; Hurewitz, Ibid. II, N°1, 2-8-914.
Général Duffour, Hist. de la Guerre Mondiale, p.412, T.I
Kazim Karabekir: Cihan Harbine Neden Girdik, Nasil Girdik nasil Idare Ettik, Kitap 10, Istanbul 1938, p.69-70.

(٢٨) A.B. KURAN, Ibid. p.652, AIl. Sabis, Ibid. I, pp.78-79.
G. Vardar, Ittihad ve Terakki Icinde Dönenler, p.272.

(٢٩) A.B. KURAN, Ibid. p.645; Bayur, Ibid. V.III, T.I, p.63.

(٣٠) A.I. SABIS, Ibid, I, p. 81.

(٣١) علي فؤاد، المصدر السابق، ص١٣.

٣ ـــ إن الحكومة قد لجأت إلى وقف الدورة الاستثنائية لمجلس المبعوثان في اليوم الذي وُقعت فيه وصَرَفَتْ نوابه، في حين أن الظروف الطارئة كانت تحتم دوام اجتماعه، ولم تأبه للمعارضة التي قامت ضدها في مجلسي الأعيان والمبعوثان عند أول انعقاد لهما(٣٢).

٤ ـــ إن أنور باشا والسفير الألماني هما اللذان وضعا مسودتها، وفرضت على المجتمعين دون إعطاء أية أهمية لمطالعاتهم، ووجهة نظرهم. ولم تهيأ لدراستها الفرصة الوافية، فجاءت مليئة بالنواقص فكان من شأنها أن تعطي للألمان من إمكانية السيطرة على الأتراك ما جعل هؤلاء كالدمى في أيديهم(٣٣).

٥ ـــ إن المعاهدة، كما يتضح من نصوصها، كانت مهيأة قبل اندلاع الحرب، وجاء توقيعها في اليوم الثاني من إعلانها على روسيا من قبل ألمانيا(*).

قال جمال باشا في مذكراته «بعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في أول آب وجدنا أنفسنا ملزمين، بحكم المعاهدة التي لم يجف مدادها بعد، على خوض المعركة في الحال، لأن المحالفة حتمت اشتراكنا بها مهما كانت أسباب الحرب»(٣٤).

لقد أعلنت تركيا الحياد بناء على المادة الأولى من المعاهدة، ولم يكن عملها هذا سوى وسيلة لكسب الوقت الضروري لإنهاء استعداداتها الحربية. فقد كان عليها أن تتم تعبئتها العامة، وأن تجمع وحدات جيشها في آسيا الصغرى، وأن تجعل الدردنيل والبوسفور في مأمن من الاعتداء. وبانتظار هذه النتيجة كان من مصلحة الباب العالي أن يستمر اتصاله مع ممثلي الحلفاء، أو كما قال جمال باشا «الدخول معهم في مفاوضات كي نبدد شكوكهم حول محالفتنا لألمانيا»(٣٥). وهكذا جرى اتصال مع السفير الإنكليزي في الآستانة السير «لويس ماليت»، دار خلاله البحث حول حياد الدولة العثمانية، وشروط هذه لاتخاذ هذا الموقف، فوضعت الوزارة التركية شروطها للإنضمام إلى الحلفاء، وكانت كما يلي: «إلغاء الامتيازات الأجنبية، إعادة الجزائر الإحدى عشرة التي اغتصبتها اليونان من تركيا، حل المسألة المصرية، تأكيد من روسيا بأن لا تتدخل في شؤون تركيا الداخلية،

---

(٣٢) A.B. KURAN, Ibid, p.645; Bayur, Ibid. I, p. 63.

(٣٣) A.I. SABIS, Ibid, Ibid. I, p. 90.

(*) جاء في تصريح للصدر الأعظم بأن سفير ألمانيا حاول خداع الأتراك حينما كتم عليهم خبر إعلان ألمانيا الحرب على روسيا مساء اليوم السابق لتوقيع المعاهدة (Bayur, Ibid, I, p.148).

(٣٤) مذكرات جمال باشا، ص١٩٨ ـــ ١٩٩.

(٣٥) P. RENOUVIN, La Crise Européénne et La Grande Guerre, p.228.

ومساعدة إنكلترا وفرنسا الفعلية لتركيا فيما إذا هاجمتها روسيا»[٣٦]. فكان جواب إنكلترا بإمكان البحث في إدخال تغييرات معينة على الامتيازات المالية فقط، إذا وافق حلفاء إنكلترا على ذلك، مع إرجاء مسألتي الجزائر ومصر إلى ما بعد انتهاء الحرب. وأما عن اعتداء روسيا فإن هذه لا تفكر مطلقاً في مهاجمة تركيا، فضلاً عن أن فرنسا وإنكلترا هما من الدول التي ضمنت سلامة تركيا. وفي مقابل ذلك طلب إلى تركيا عدم إغلاق المضائق في وجه السفن الروسية لأي سبب كان، مع إعطائها التأكيدات اللازمة بهذا الشأن، وإعادة البعثة الإصلاحية العسكرية والبحارة الألمان إلى بلادهم[٣٧]. فلم يكن من الأتراك إلا الرفض.

كان ذلك أمراً طبيعياً، إذ الحقيقة أن تفاوضهم على أساس الحياد لم يكن إلا تمويهاً، لأنهم كانوا يميلون إلى دخول الحرب، ويرون أن دخولها هو الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق أمام المطامع الروسية، ولكن في أي جانب يدخلون؟ فإن هذا سؤال يتطلب الإحاطة ببعض جوانبه. فنحن إذا وثقنا بقول جمال باشا في مذكراته ــ برغم ما جاء في المعاهدة مع ألمانيا من انحياز إليها ــ يتضح لنا ترددهم بين المعسكرين «وباختصار لم يبق أمامنا ــ كما يقول جمال ــ سوى طريقين: إما أن نتحالف مع فرنسا وانكلترا، فنعلن الحرب على دولتي الوسط، وبهذه الوسيلة نتقي مهاجمة روسيا لنا، وإما أن ننضم إلى دولتي الوسط، ونساعد على تحطيم روسيا»[٣٨]. لكن الدلائل تجمع على شدة ميلهم لدخول الحرب بجانب المعسكر الألماني، إذ عللوا أنفسهم بأن يروا عدوتهم روسيا محطمة مدحورة أمام حليفتهم القوية، بدلاً من أن تخرج مع حلفائها ظافرة في الحرب، فتقتحم المضائق والآستانة، وتحتلهما فيما لو التزموا جانب الحياد، وتركوا المضائق مفتوحة أمام سفنها الحربية[٣٩].

باختصار كان الترك يخشون، إذا التزموا الحياد، أن يتفق الفريقان ويعقد الصلح فجأة في أثناء الحرب على حساب تركيا ومن وراء ظهرها. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان لا بد للحياد من قوة تصونه وتجعل الآخرين يحترمونه، ولا بد للدولة المحايدة من أن تطمئن إلى أن الفريق المنتصر لا يتحكم فيها بعد التغلب على عدوه. لذلك كان عليهم أن يتساءلوا عما يستطيعون أن يفعلوه أمام بريطانيا وفرنسا وروسيا منتصرات، أو أمام ألمانيا منتصرة، فلا بد لهم إذاً إلا أن يختاروا بين أمرين: إما

---

(٣٦) مذكرات جمال باشا، ص٢١٣.

(٣٧) Cemal Pacha, Hatiralar, p.139

(٣٨) مذكرات جمال باشا، ص٢١٧.

(٣٩) مذكرات جمال باشا، ص٢١٦ ــ ٢١٧ Halide Edib, Ibid. pp. 112-113

الحياد، وهذه محاذيره، أو المغامرة بدخول الحرب. علماً بأن انكلترا وحليفاتها كانت ترفض التحالف مع تركيا أو غيرها من الدول الإسلامية، أو قبول مساعدتها في الحرب الدائرة، حتى لا تفوت عليها فرصة اقتسام أراضيها التي كان لها طمع فيها[٤٠].

لم يكتفِ الأتراك بالاتصال مع الانكليز، في محاولتهم المساومة، بل جرى اتصال آخر بين أنور باشا والملحق العسكري الروسي في الآستانة، الجنرال ليونتييف في ٥ آب، أكد الأول خلالها للملحق الروسي أن الغاية من التعبئة العامة، التي قامت بها دولته، ليست موجهة ضد روسيا، وأنها مستعدة لسحب قسم من جيوشها من حدود قفقاسيا الروسية، وأن تركيا ليست، في الوقت الحاضر، مرتبطة بأية دولة من الدول[٤١]، وأنه إذا أرادت روسيا مصالحة دول البلقان بعضها مع بعض، ومع تركيا على أساس التعويض المتقابل، فإن الجيش التركي على استعداد لمساندة دول البلقان ضد الدولة النمساوية. ولما سأله الملحق العسكري: ما عسى أن تكون ماهية هذه التعويضات أجاب أنور: «أن يكون لتركيا جزائر بحر إيجه مع تراقيا الغربية، ولليونان أبيروس، وللبلغار مكدونيا، أو قسم منها، وللصرب البوسنه والهرسك». ولما أظهر الجنرال ليونتييف شكه في قابلية تطبيق هذا الحل، أجاب أنور بإمكانية تطبيقه في نظر الأتراك، وأنه من شأنه أن يحوز رضى الحكومة التركية.

وفي مقابلة ثانية عندما جلب الملحق العسكري نظر أنور باشا إلى بقاء الضباط الألمان في أوساط الجيش التركي، وبيّن له دهشته من هذا الأمر، أجاب إنه لم يحتفظ بهؤلاء الألمان بإرادته، غير أنه لم ير لزوماً لإعادتهم إلى بلدهم، قبل انجلاء الموقف السياسي، وأن إقصاءهم في وقت تقرر فيه قيام التعبئة العامة ليس في مصلحة الجيش التركي. غير أنه إذا تراءى لأحد أن ألمانيا تريد إبقاء هؤلاء الضباط في تركيا لاستمالة الدولة العثمانية إلى صفّها، فإنها سوف لا تصل إلى غايتها هذه، لأن تركيا لا تتصرف إلا بما يؤمن لها منفعتها الخاصة. فإذا ما تسنى لها أن تصل إلى تفاهم مع روسيا، بحيث تصبح الدولتان يداً واحدة، عندئذ تستطيع تركيا أن تقول لهؤلاء الضباط، «إنكم أعداؤنا فاخرجوا من أراضينا»[٤٢].

وتتوالى الاتصالات بين الملحق الروسي وأنور باشا، ويبقى الأخير مصراً على شروطه السابقة

---

(٤٠) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، من تعليق الأمير شكيب أرسلان، ج١، ص٣٢٩؛ محمد شفيق غربال، العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية، ص٩٤.

(٤١) P.RENOUIN, Ibid. p.229

(٤٢) (نقلا عن الوثائق الدبلوماسية السرية الروسية) BAYUR, Ibid. I, pp.133-134

لقاء عقد معاهدة صداقة وتحالف بين الدولتين لمدة ٥ ــ ١٠ سنوات ، فيرسل سفير روسيا برقيات متتالية إلى حكومته ، مؤكداً أن أنور هو المسؤول الوحيد عن مقدرات تركيا ، لأنه هو المسيطر على الجيش ، وهو لا يخشى معاداة ألمانيا باعتبار أنها ليست متاخمة لأراضي دولته ، وأن تركيا لم تعقد حتى الآن أية معاهدة مع ألمانيا[٤٣] ، وأن الفرصة هي الآن أكثر مواتاة من أي وقت آخر للاتفاق مع تركيا على الأسس التي تطلبها . لكن الجواب الذي تلقاه السفير الروسي De Giers من وزير خارجيته Sazonof بتاريخ ١٠ آب كان مخيباً للآمال . إذ يوصي سفيره بوجوب مداورة وزير الحربية التركي لمجرد اكتساب الوقت ، وأن يبقي على حسن الصلات معه في حين يحرص على إفهامه أنه إذا قامت حكومته بأعمال لا تحوز رضى الروس فإنها بذلك قد تجلب الدمار لآسيا الصغرى . كما جاء في البرقية الجوابية أن روسيا مرتبطة مع إنكلترا وفرنسا ، وأنها وإياهما تملك مقدرات هذه المنطقة ، بينما الأتراك لا يستطيعون أن ينالوا الروس بأي أذى[٤٤] . والواقع أن روسيا لم تكن تريد التفاهم مع الأتراك ، لأنها كانت تخشى وقوف تركيا على الحياد ، أو الانضمام إلى الحلفاء ، وفي هذه الحالة ستضطر إلى عدم التدخل في شؤونها ، تحت ضغط انكلترا وفرنسا ، مما يضطرها إلى صرف النظر عن امتلاك الآستانة والمضائق[٤٥] . فلقد جاء في تقرير سري قدمه وزير خارجية روسيا إلى القيصر قوله « إن الاستيلاء على المضائق منوط بإمكان نشوب حرب ملائمة . إن العمل على خلق هذه الحرب هو الغاية التي تسعى وزارة الخارجية إلى تحقيقها » . كما جاء في تصريح للمسيو De Giers سفير روسيا في الآستانة في أثناء اجتماع للدبلوماسيين الروس قوله « ينبغي أن تدخل تركيا الحرب ضدنا . هذا أمر ضروري بالنسبة إلينا »[٤٦] .

أما الدول الأخرى فقد كانت سياستها تقضي بمسايرة المطامع الروسية ، فإذا عدنا إلى أحداث ما قبل توقيع المعاهدة ، عرفنا أن جمال باشا حينما فاتح الفرنسيين بأمر التقارب بين تركيا الفتاة وفرنسا وعدها وعداً ملائماً بقوله : « إذا ضمنت فرنسا سلامة تركيا وأمانها من مطامع الروس فستكون تركيا قريبة منها » أجابته وزارة الخارجية الفرنسية بأن فرنسا لا تدخل في عهد كهذا ، ما لم تصارح حليفتها روسيا به وتجدها راضية عنه[٤٧] .

---

(٤٣) BAYUR, Ibid. p,137

(٤٤) Ibid. p. 138.

(٤٥) مجلة الحرب العظمى ، ج٤ ، ص٣١ .

(٤٦) JACQUES KAYSER, l'Europe et La Turquie Nouvelle, pp. 17-19.

(٤٧) علي فؤاد ، المصدر السابق ، ص١٢ ــ ١٣ .

في هذه الأثناء بالذات (١١ آب) اجتاز الطرادان الألمانيان « غوبن » و « برسلاو » المضائق فأدّى ذلك إلى تطور الأحداث تطوراً إلى اشتراك تركيا في الحرب . وقد لعب أنور في الأحداث دوراً جعل منه المحرك الأول للتطورات الجديدة . وانتصر الاتجاه المنادي بالحرب في تركيا على الاتجاهات الأخرى ، وكان ثمة ثلاثة اتجاهات بصورة عامة :

الأول : ويضم أنور وطلعت وخليل بك ، والجماعات التي تؤمن بأفكار أنور ووجهة نظره بأن الحرب سيكسبها الألمان بسرعة ، ما في ذلك شك ، وهؤلاء ميالون إلى ألمانيا .

الثاني : ويضم جاويد بك وزير المالية ، وسليمان البستاني وزير التجارة والزراعة ، وثلاثة من هيئة أركان حرب أنور باشا ، وهم كاظم قره بكير ، وحافظ حقي ، وعلي إحسان سابيس ، وغيرهم . وكانت هذه الفئة ترى أنه إذا لم يتبلور وضع المتحاربين تبلوراً واضحاً ، وما لم تتم الدولة استعداداتها الحربية ، وتتدارك النقص الهائل في تسليحها وتجهيزاتها العسكرية ، فينبغي الإحجام عن دخول الحرب ، وأنه من الضروري أن يركز وضع الدولة المالي قبل كل شيء . وكان البرنس سعيد حليم متردداً بين الاتجاه الأول والثاني ، ولكنه كان أكثر ميلاً إلى الثاني ، وكذلك جمال باشا في بادىء الأمر ، لكنه مال بعدئذ إلى الاتجاه الأول ، قبل بضعة أسابيع من دخول تركيا الحرب .

الثالث : ويضم القائلين بوجوب المحافظة على الحياد المطلق ، وعدم الدخول بوجه من الوجوه في الحرب ، وكان على رأس هذه الفئة الوزيران جوروك صولي محمود باشا وزير الأشغال العامة ، وأوسكان أفندي وزير البرق والبريد(٤٨) .

كان السلطان محمد الخامس نصيراً للحياد ، وممانعاً لدخول الحرب ، لكنه كان كالدمية في أيدي أنور والمتطرفين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، التي رفعته إلى سدة السلطنة . كما كان ولي العهد البرنس يوسف عز الدين (ابن السلطان عبد العزيز) ، من رأي السلطان . وكان أنور والاتحاديون يخشون بأسه ، لذلك بدؤوا يعملون على خلعه من ولاية العهد ، ويحيكون الدسائس حوله ، حتى أدى الأمر به إلى الانتحار بعد عام واحد تقريباً من بداية الحرب .

أما الصدر الأعظم سعيد حليم باشا فقد كان ، علاوة على رغبته في الحياد ، من الميالين إلى إنكلترا . وكان كثير الدفاع عن الحياد والسلم في مجلس الوزراء ، ويعطي حول المعاهدة التركية ــ الألمانية تفسيرات ، منها أن الجانب التركي ليس ملزماً بالتقيد بنصوصها ، لأنها

---

(٤٨) A.I. SABIS, Ibid. I. pp. 40, 41, 46, 79, II, pp. 23-24; G. VARDAR, Ibid. p. 2.

ـ حسب قناعته ـ قد عقدت لتحديد مواقف لاحقة، قد تحصل في المستقبل، وأن السفير «فانجنهايم» قد خدع الجانب التركي بأن كتم عنه خبر إعلان ألمانيا الحرب على روسيا، في مساء اليوم السابق لعقد المعاهدة، لذلك فإن باستطاعة الأتراك أن يتنصلوا من تنفيذ موادها(٤٩).

وهناك من الوزراء من كان يؤيد فرنسا، كجاويد بك وزير المالية، وجمال باشا الذي كان قد ألف جمعية الصداقة التركية ـ الفرنسية، وأصبح رئيساً لها، وذهب قبيل الحرب إلى فرنسا للاتفاق معها على قرض تقدمه للدولة العثمانية، والبحث في مسألة جزائر بحر إيجة وضرورة إعادتها إلى تركيا، لكنه عاد عن تأييده لفرنسا والحلفاء، بعد عودته إلى الآستانة وفشله في مهمته(٥٠). كما كان ثمة وزراء متقلبون مترددون بين الميل لألمانيا أو لدول الحلفاء، والميل للحرب أو الحياد، وبصورة عامة كان نصف أعضاء الحكومة تقريباً من المخالفين لرأي أنور في دخول الحرب مع ألمانيا مخالفة تامة وحاسمة(٥١). وكان له معارضون في هيئة أركان حربه نفسها (كاظم قره بكير ورفاقه)، لكنه تمكن في النهاية من السيطرة على معارضيه سواء بالعنف أو الإقناع أو الإبعاد إلى قطعات الحدود، وكان المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي سنداً له، ولقي من مستشاره الضابط الكبير محمود كامل باشا الداهية عوناً كبيراً على ذلك(٥٢).

دخول الطرادين «غوبن» و «برسلاو»

على أن دخول الطرادين «غوبن» و «برسلاو» المياه التركية، بأمر لاسلكي من الأميرالية الألمانية، بعد الاتفاق على ذلك مع السلطات التركية إنقاذاً لهما من المطاردة(٥٣)، قد ساعد أنور على الانتصار ضد أنصار السلم مساعدة كبيرة.

كان الطرادان «غوبن» و «برسلاو» من أسرع قطع الأسطول الألماني. ولم يكن يجاريهما في هذه السرعة سوى ثلاث قطع من الأسطول الإنكليزي. ولذا فإن اقتحامهما لمياه البحر الأبيض المتوسط قد أحدث ذعراً شديداً في أوساط الأميرالية الإنكليزية، الأمر الذي حدا بالمستر تشرتشل

(٤٩) BAYUR, Ibid. p. 148, V. I.

(٥٠) Ibid. I, pp. 196-197.

(٥١) Ibid. I, pp. 194-195.

(٥٢) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 48.

(٥٣) مجلة الحرب العظمى، ج٢، ص٣٩.

إلى إعطاء إيعاز سريع إلى أميرالية أسطوله في البحر المتوسط بوجوب مطاردتهما حتى قبل نشوب الحرب، وذلك خوفاً من أن يعمدا ــ فور نشوبها الذي كان يبدو وشيكاً ــ إلى تدمير القطعات البحرية الفرنسية، أو إلى إغراق القطعات الناقلة للجنود واحدة بعد أخرى(٥٤). وقد استمرت المطاردة أكثر من أسبوعين أُرغم الطرادان بعدهما إلى الهرب واللجوء إلى المضائق التركية.

لقد فرح أنور بدخول الطرادين فرحاً شديداً، نم عنه دخوله مجلس الوزراء الذي كان في حالة الانعقاد، وإمارات البشر والاغتباط بادية على محياه، وإعلانه الخبر لزملائه بقوله «أبشركم لقد رزقنا ولدين»(٥٥). وقد ثبت أنه هو الذي وافق على دخولهما، عندما طُلب منه السماح بذلك، فسمح به فوراً دون الرجوع إلى رأي السلطان، أو الصدر الأعظم، أو مجلس الوزراء(٥٦)، متجاهلاً ما جاء في معاهدة لندن (١٨٧١) من اعتراف تركيا بوجوب حظر مرور السفن الحربية الأجنبية في الدردنيل في أثناء الحرب، لأنه كما قال «ليس من اللياقة رفض طلب دولة لنا اتفاق معها»(٥٧).

ويظهر أنه قد وقع تحت ضغط شديد من الجنرال الألماني «فون كريس» الذي لم يترك له حتى مجال عرض الأمر على الصدر الأعظم(٥٨).

كان دخول البارجتين الألمانيتين، إلى المياه التركية، وقبول تركيا لهما بمثابة التعويض عن البارجتين الموصى عليهما في مصانع انكلترا، أو هكذا اعتبره الأتراك(٥٩). أما موقف الحلفاء من هذه البادرة فقد كان شديد السخط والاستنكار، إذ بادر سفيرا إنكلترا وفرنسا إلى تقديم احتجاجهما إلى الصدر الأعظم، ذلك أنه كان من واجب الدولة العثمانية، وفقاً للقوانين الدولية، باعتبارها قد أعلنت الحياد، أولاً: إما أن تحول دون دخول الطرادين المياه التركية، أو إذا لم تستطع ذلك أن توعز إليهما بمغادرة المياه التركية خلال / ٢٤ / ساعة. ثانياً: أو أن تنزع سلاحهما وتحتجزهما في أحد الموانئ(٦٠). لكنها لم تلجأ إلى الحل الأول، لأنها كانت قد أصبحت حليفة لألمانيا منذ

(٥٤) WINSTON CHURCHILL, Ibid. pp. 202-205; WIllY SPERCO, Moustapha Kémal Ataturk, p.25.

(٥٥) A.B. KURAN, Ibid. p. 641.

(٥٦) ISMAIL HAMI DANISMAND, Izahli Osmanli Tarihi, p. 415.

(٥٧) مجلة الحرب العظمى، ج٤، ص١٧، مجلة الحرب العالمية الأولى، ج٥، ص٢.

(٥٨) DAGOBERT VON MIKUCH, Moustapha Kémal, p. 130-131.

(٥٩) JACQUES KAYSER, Ibid. p. 20.

(٦٠) المقتطف والمقطم، تاريخ الحرب العظمي، ج٥، ص٤٠٥، لطفي سيماوي، سلطان محمد رشاد خانك وخلفنك سرايندە كورد كلرم، ص١٠٥.

١٩١٤/٨/٢ ، فإذا ما فعلت ذلك وقع الطرادان فريسة للأسطول الإنكليزي . أما بشأن الحل الثاني ، فقد اتصلت بالسفير الألماني وحاولت إقناعه بنزع سلاحهما ظاهرياً . ولما لم يقبل جرى الاتفاق على حل وسط هو أن تعلن تركيا شراءهما بموافقة ألمانيا الصورية ، بشرط أن يعين أمير البحر الألماني سوشون في خدمة الحكومة العثمانية ، وأن يمنح لقب قائد عام للأسطول الشاهاني ، وهكذا كان[٦١] . وأطلق على أحدهما اسم « ياووز » وعلى الثاني « ميديللي » وحُمل الأميرال ونوتيته على ارتداء البزة العسكرية العثمانية والطربوش ، مع وجوب رفع العلم العثماني عليهما[٦٢] فلم يُرفع إلا على أحدهما لمدة وجيزة .

على أثر ذلك أبلغ الصدرُ الأعظم السفيرَ الإنكليزي في الآستانة أن هذا الإجراء قد اتخذ بناء على حجز الحكومة الإنكليزية للدارعتين التركيتين ، وأنه لا غنى لتركيا عما يعوض عنهما لتساوم بهما اليونان في مسألة الجزائر المختلف عليها معها ، وتكون وإياها على مستوى واحد في القوة البحرية ، وأن حكومته لا تريد بشرائهما محاربة روسيا . لكنه في الوقت نفسه أبدى رغبته في بقاء البعثة الإنكليزية في الأسطول العثماني ، فكان جواب إنكلترا أن بقاء الوفد المذكور مرهون بإعادة نوتية الطرادين الألمانيين إلى بلدهم[٦٣] . ولكن بدلاً من أن تعمد الدولة العثمانية إلى إعادتهم عملت ، بوسائل التضييق والحيل البارعة ، إلى التخلص من الأميرال « لمبوس » رئيس البعثة البحرية الإنكليزية وسائر أعضاء البعثة[٦٤] .

مع ذلك ثابر الصدر الأعظم ، الميال للإنكليز ، على تطمين دول الائتلاف بعزم حكومته على التزام الحياد ، مبيناً أنها مضطرة إلى إبقاء بعض الفنيين الألمان في الطرادين لعدم قدرة العثمانيين على إدارة شؤونهما ، في حين كان الجيش قد عبئ ، وقام الاستعداد للحرب على قدم وساق . ومن جهة أخرى تجمعت أساطيل الحلفاء أمام مدخل المضائق وضرب عليها الحصار الشديد[٦٥] . وفي الوقت نفسه كانت المفاوضات لا تزال جارية مع الصدر الأعظم على أساس التعهدات التي تقدمها دول الحلفاء إلى الدولة العثمانية ، والتي كان الأتراك يطلبون أن تقدم من كل دولة على حدة أولاً ، ومن

---

(٦١) مذكرات جمال باشا ، ص٢٠٤ ــ ٢٠٧ .

(٦٢) A.I. SABIS, Ibid. pp. 161-162 Kazim Kara Bekir Ibid. II, p. 312.; كارل بروكلمن ، تاريخ الشعوب الإسلامية ج١ ص٨٦ .

(٦٣) المقتطف والمقطم ، تاريخ الحرب العظمى ، ج٥ ، ص٤٠٥ ؛ ماري ملزباتريك ، المصدر السابق ص١٢٥ .

(٦٤) مذكرات جمال باشا ، ص٢١٠ .

(٦٥) P. RENOUVIN, Ibid. p. 228.; المقتطف والمقطم تاريخ الحرب العظمى ج٥ ، ص٤٠٦ .

الدول المذكورة مجتمعة ثانياً، ولم يرضوا أن تكون مقتصرة على حفظ كيان الدولة وسلامة أراضيها فحسب، فيما إذا لزمت تركيا الحياد، هذا الذي لم تشأ دول الحلفاء أن تتعداه إلى غيره، بل كانت غاية الأتراك أن تجاب جميع مطالبهم التي مر ذكرها على لسان جمال وأنور[٦٦].

رياح الحـرب

وكلما مرت الأيام كان أمل السلم يتبدد، وشبح الحرب يقترب. وقد ساعد على رواج فكرة الحرب إلى جانب ألمانيا تَحَمُّس أنور لها حماسة عجيبة، تلك الحماسة التي لم تخل من رغبة في كسب الشهرة. وكان مغروراً بنفسه، تزوج من إحدى أميرات البيت المالك، واعتبر صهراً للسلطان، فعاش في أبهة ورفاهية في قصر يطل على البوسفور، وأصبح يحلم بمشاريع عظيمة: أن يوحد المسلمين جميعاً تحت زعامة السلطان «الخليفة»، وأن يجمع كل الشعوب الناطقة باللغة التركية حول تركيا الأم. كما اعتقد أنه رسول هذه الأمة لإحياء أمجاد الإمبراطورية العثمانية، وأن العناية الإلهية تكلؤه[٦٧]. والمعروف عنه أنه كان عظيم الجرأة، وكثيراً ما كان يتشبه بنابوليون الذي كانت صورتـه وصورة فريـدريك الكـبير معلقـتين في مكـان بارز بمنزلـه[٦٨]. وكان رفاقـه يلقبونـه باسم «نابوليون الصغير» (نابوليونلك)، كما كان الضباط الصغار ينظرون إليه نظرة ملؤها التقدير والاحترام، أو كما لو كان هو المنقذ الموعود للوطن، لما يعتقدونه من شديد إخلاصه لبلاده وشجاعته ووطنيته العالية[٦٩].

كان أنور هو الرجل الذي يستطيع، أكثر من غيره، أن يفرض إرادته على جميع زملائه[٧٠]، بعد أن يسيطر على الموقف بإقصاء معارضيه من كبار الضباط الذين نادوا بعدم كفاية استعداد الدولة للحرب، وبإرساله الدعاة وبعض نواب مجلس المبعوثان إلى الولايات للتبشير بفكرة الحرب ـــ مزوداً إياهم بمقادير كبيرة من الذهب الألماني ـــ وإعلامه عن كل معارضة تلاقيها هذه الفكرة

(٦٦) BAYUR, Ibid. p. 199.

(٦٧) هـ. أرمسترونغ، توركيا ناصل دوغدي، ص٢٢.

(٦٨) هـ. س أرمسترونغ الذئب الأغبر مصطفى كمال ص٥٠؛ علي فؤاد، المصدر السابق، ص٢٦؛ هـ. مورغنتو المصدر السابق، ص١٨.

(٦٩) SEIGNOBOS, Turcs et Turquie, pp. 41-44.

(٧٠) A. EMIN, Ibid. PP. 68-69.

ليعمل على قمعها[٧١]، علاوة على أن أكثرية ضباط الجيش، وبخاصة منهم أولئك الشبان الذين تسلموا القيادات العليا، كانوا متحرقين للانتقام والثأر لهزيمة البلقان، ويترقبون الفرصة كي يغسلوا هذا العار. كما كان أنور، حينما يتحدث عن الانتقام من البلغاريين والصربيين واليونان والجبل الأسود، تملكه ثورة من الحماسة فتحمرّ عيناه وتبدوان كأن الشرر يتطاير منهما، ويقول إنه على استعداد لاقتحام جميع الصعاب في هذا السبيل[٧٢].

عدا ذلك كانت الميول التوسعية قوية بين المهاجرين من مكدونيا التي احتلها البلقانيون، فقد كانت نسبة كبيرة من زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ومن الضباط قد عاشوا سابقاً في هذه المنطقة، كما كان كثيرون منهم يملكون أراضي وممتلكات في أجزاء تركيا السليبة، التي يودون عودتها إلى الوطن الأم، وعلى هذا لم تخل فكرة الدخول في الحرب من دافع شخصي مستتر في اللاشعور[٧٣].

لم تقتصر الميول التوسعية على الأراضي السليبة، فقد أدت سيطرة القوميين على وسائل النشر والإعلام، وترويج فكرة الوطن الطوراني الكبير، وتقديسها إلى الانسياق مع الأوهام في جمع العنصر الطوراني، أينما كانت أراضيه، في مملكة واحدة، تضم هذه الأراضي بعضها إلى بعض بقوة السلاح والحرب. كان هؤلاء القوميون ــ ومعظمهم من المهاجرين الروس ــ يبشرون بأن الوطن الطوراني يمتد إلى ما وراء جبال التائي (Altaii) وقفقاسيا والفولغا والقرم وأوزبكستان وتركستان... الخ، بحيث يجب أن يشكل إمبراطورية طورانية واسعة الأرجاء يبزغ عليها فجر يوم جديد من القوة والمنعة والعظمة والشباب[٧٤]، وأنه لا ينتهي قط، ولا في حال من الأحوال، عند الحدود الحالية للسلطنة العثمانية[٧٥]، وأن الجنس الطوراني إنما هو الجنس الذي سيسود العالم قاطبة سيادة كاملة دون منازع، وأن ذلك لن يكون إلا بانهيار الامبراطورية الروسية. ولا بد للوصول إلى هذه الغاية من الاستعانة بأعدائها في هذه الحرب[٧٦].

كان زعيم هؤلاء «ضيا كوك آلب» من أشد الناس تحمساً لهذه الأفكار، فلقد صفق وهلل

---

(٧١) A.I. SABIS, Ibid. I, pp. 143-145.

(٧٢) H. ERTURK, Ibid. p. 121; HALIDE, Ibid. p. 112.

(٧٣) A. EMIN, Ibid. p. 64. ، هـ. أرمسترونغ: توركيا ناصل دوغدي، ص٢٢.

(٧٤) DAGOBERT VON MIKUCH, Ibid. p. 132.

(٧٥) H. ERTURK, IBID. p. 255.

(٧٦) لوثروب ستودارد، المصدر السابق، ج٤، ص١١٥ ــ ١١٦.

للحرب العالمية بكل صدق وإخلاص . كانت الحرب بالنسبة إليه أن يسيطر جو من الحماسة ملائم تمام الملاءمة لنشر الأفكار القومية بحيث يتحقق فيه حلم الجامعة التركية الطورانية(٧٧) . وقد تغاضى عن شرور الحرب والمفاسد والأخطار التي ارتكبها الزعماء الذين قاموا بإعلانها ، ولم يكن زميله أحمد آغا أوغلي (آغايف) أقل منه حماسة في هذا المجال .

تمتع « كوك آلب » ، خلال الحرب ، بنفوذ عظيم ، إذ أفسح له الزعماء المسؤولون مجالاً ليصبح « الدكتاتور الفكري Intellectual Dictator » لتلك الفترة . وكانوا يقبلون نظرياته التي كانت تأخذ شكل عقائد فلسفية . وكان يساعد على رواج أفكاره أنه كان زعيماً قومياً ، ورجلاً بارزاً من رجال جمعية الاتحاد والترقي ، ومن ذوي التأثير العظيم فيهم(٧٨) .

كما بذلت المساعي لإعداد الأفكار العامة للحرب ، وجندت الصحافة للقيام بالدعاية ، وترويج فكرة الاشتراك فيها ، وأدخل في روع الجمهور أن انتصار ألمانيا في الحرب الدائرة لا ريب فيه ، وأنها تستطيع أن تسحق الجيش الفرنسي في ستة أسابيع فقط ، وأن الأتراك لا يستطيعون اجتناب خطر تهديد روسيا الدائم لهم إلا بالتزام جانب أعدائها . وأمست الصحف التركية في العاصمة ألسنة ألمانية بلا استثناء ، فضخمت كل نصر حقيقي أو خيالي نسب إلى ألمانيا والنمسا ، وهونت من شأن كل خذلان نالهما ، وجعلت المؤسسة التلغرافية العثمانية الشبيهة بالرسمية ، وهي من دوائر وزارة الداخلية ، وقفاً لمروجي القضية الألمانية ، وفرضت الرقابة الشديدة على الصحف ، ومنعت كل الأخبار والنشرات المضادة لهذه الأفكار(٧٩) . وكان لهذه التدابير أثرها في شحن عواطف الجماهير التركية ، وغرس محبة ألمانيا والميل إليها في قلوبهم ، بحيث أخذ العامة يطلقون على الامبراطور الألماني لقب « الحاج غليوم » (Hadji Welhelm) . ودرجت الحكومة التركية ، من جهتها ، على إرضاء كل مطالب الألمان ، فنصبت أمام السفارة الألمانية محطة إرسال لاسلكي ، كي يستطيع السفير الاتصال مع برلين إتصالاً مستمراً . وبدأ الألمان يفرضون سيطرتهم وإرادتهم على الأتراك . ففي ٢٧ أيلول ١٩١٤ أعطى الجنرال الألماني « ويبر باشا Weber » ــ وكان يتولى قيادة معاقل الدردنيل إثر دخول الطرادين الألمانيين المياه التركية ــ أمراً بإغلاق المضائق ، فنفّذ الأمر في خلال نصف ساعة فقط(٨٠) .

---

(٧٧) BAYUR, Ibid. I, p. 65.

(٧٨) A. EMIN, Ibid. pp. 195-196.

(٧٩) A.I. SABIS, I, pp. 143-144 ، المقتطف والمقطم ، « تاريخ الحرب العظمى » ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨ .

(٨٠) JACQUES KAYSER, Ibid. p. 20.

ولم يسمح حتى للبواخر الأميركية وغيرها من الدول المحايدة في اختراق المضائق وتفريغ بضائعها في موانىء بحر مرمرة، بل كانت تُحوّل إلى مرفأ إزمير لتفرغ شحناتها فيه. والسبب الذي دعا إلى ذلك أن مركب طوربيد عثماني قد خرج إلى بحر إيجه، فأوقفته السفن الحربية الإنكليزية، التي كانت ترابط عند مدخل الدردنيل، مترقبة ما يحتمل أن يقوم به الطرادان الألمانيان من أعمال عدائية للإنكليز خارج المياه التركية. ولما فتشته وجدت فيه عدداً من بحارة الألمان، فأمرته بالعودة من حيث أتى. عندئذ أمر الجنرال الألماني بإغلاق المضائق دون الرجوع إلى موافقة السلطات التركية. ولم يكد يصدر الأمر حتى أطفئت المنائر وأنزلت الألغام والشباك إلى البحر، وأصبح الدردنيل في حالة حرب فعلياً. وبإقفال تركيا المضائق ودخولها الحرب كانت سبباً في إطالة مدة الحرب(٨١).

ومما روّجه دعاة فكرة الحرب أن وضع تركيا الجغرافي هو الذي يفرض عليها الاشتراك في الحرب بشكل محتم، ويجعل من غير الممكن بقاءها على الحياد. وهي حتى لو التزمته لا بد لها أن تصبح مجبرة على التهاون فيه، منصاعة لهذا الجانب أو ذاك، بحكم سيطرتها على المضائق التي تشكل ممراً له أهميته الخاصة، وأنه بحكم تفوق دول الحلفاء بالقوى البحرية، ومن بينها جارة تركيا وعدوتها اللدود روسيا، فإن هذه الدولة سترغم الدولة العثمانية على الاستسلام لعملية اختراق المضائق، وخرق الحياد من قبل أساطيلها، وسيرى الأتراك بأم أعينهم دوارعها تخترق البوسفور ناقلة الجنود والمهمات، مارة من تحت شرفات القصر السلطاني. حتى إذا انتهت الحرب بظفر هذه الدول لا يمكن للأمر أن ينتهي ببساطة لا بل إنها سترغم الدولة على إبقائه مفتوحاً من جانبيه كممر حر أمام الدول في حالة السلم، بل سيضطر الباب العالي إلى التسليم بتدويله(٨٢). ويناقش بعض الأتراك هذه المسألة حديثاً بقولهم إن وجود المضائق في الرقعة التركية كان من شأنه أن يجر الكوارث على رأسها، لأنه لم يكن من المعقول ألّا يخرق أحد، من أطراف النزاع الدائر، الحياد الذي أعلنته. فمن يا ترى سيكون البادىء؟ أهي روسيا من جهة قفقاسيا؟ أم ألمانيا من ناحية البلقان؟ أم إنكلترا وفرنسا من جهة المضائق؟ «مما لا شك فيه أن أية دولة من هذه الدول ستحاول أن تكون السباقة إلى هذا العمل»(٨٣)، كما قال الكاتب التركي فاردار.

كما كان من الدوافع الهامة لدخول تركيا الحرب، إلى جانب ألمانيا، سخط الأتراك على انكلترا

---

(٨١) GENERAL DUFFOUR, Ibid. p. 412, T.I; هنري مورغنتو، المصدر السابق، ص٦٦.

(٨٢) مجلة تورك يوردي، عدد (١) ٥/٣/١٩١٥ السنة الرابعة، من مقال بقلم رئيس التحرير يوسف آقجورة.

(٨٣) G. VARDAR, Ibid. pp. 256-257.

الطامعة في الجزيرة العربية والعراق ، وعلى فرنسا الطامعة في سورية ، وروسيا الطامعة في الآستانة والمضائق ، وخوفهم من نيّات هذه الدول العدوانية[٨٤] . ولو أنهم كانوا واثقين من نزاهتها ومن عدم تآمرها في السر ، ومن وراء ظهر الباب العالي ، على اقتسام الممتلكات الآسيوية للدولة العثمانية لربما بقوا على الحياد[٨٥] .

وكان من الأسباب التي أدت إلى توتر العلاقات بسرعة ، بين تركيا والحلفاء ، الإجراءات الحاسمة التي اتخذتها حكومة الاتحاديين بإلغائها الامتيازات الأجنبية ، اعتباراً من أول تشرين أول (١٩١٤) بمذكرة من الباب العالي مؤرخة في ٩ أيلول . ذلك أن هذه المسألة كانت مما يعلق عليها الاتحاديون أهمية كبيرة ، فقد بين طلعت وأنور ، في حديث لهما مع وزير المالية الألماني « ماتياس ارزبيرجر Matthias Erzberger » أن إلغاء الامتيازات أمر عظيم الأهمية بالنسبة لتركيا ، وأنه قد آن أوان اعتراف ألمانيا بهذا الإلغاء ، وأنها إذا ما أقدمت على هذه الخطوة نالت كل ما تريد من تركيا : استثمار مناجم ، امتيازات خاصة لم يسبق لها مثيل في شتى النواحي الاقتصادية ، لأن تركيا قد دخلت الحرب لتحقيق هذا المطلب الحيوي[٨٦] . حتى إذا تحقق يصبح في استطاعة تركيا أن تسير في الإصلاح إلى نهايته تحت حماية ألمانيا . والجدير بالذكر أن ألمانيا ، حليفة تركيا ، قد احتجت على هذا الإلغاء بالشدة نفسها التي احتجت بها دول الحلفاء ، وفعلت مثل ذلك النمسا ــ المجر ، وأرسلتا مذكرة إلى الباب العالي قالتا فيها إن نظام الامتيازات ليس من أنظمة الدولة الخاصة المستقلة ، إنما نشأ عن معاهدات دولية لا يجوز إلغاؤها من طرف واحد . لكنهما لم تلبثا أن أظهرتا رضاهما عن عمل الدولة العثمانية ، بعد أن أعلنت هذه الحرب إلى جانبهما ضد الحلفاء[٨٧] . وفي نهاية أيلول ألغت الدولة العثمانية مكاتب البريد الأجنبية وأغلقتها ، وزادت في نسبة الرسوم الجمركية على البضائع الأجنبية[٨٨] ، إذ رأت في نشوب الحرب فرصة تتيح لها أن تتحلل من القيود التي كانت مفروضة عليها ، وتعاني منها بسبب التدخل الأجنبي . وفي الوقت نفسه كانت دائرة الدردنيل والبوسفور والآستانة تتحول بسرعة إلى منطقة ألمانية ، فقد جيء بأكثر من ستمئة من ملاحي الألمان وضباطهم ، مع كثير من الاخصائيين الفنيين ، وأقيموا على قلاع الدردنيل وحصونه . ثم اطّرد قدوم

---

(٨٤) دوقتور رضا نور ، تورك تاريخي ، ص١٨٩ ــ ١٩٠ .

(٨٥) أحمد عزة الأعظمي ، المصدر السابق ، ج٥ ص٣٧ .

(٨٦) M. ERZBERGER, SOUVENIR DE GUERRE, p. 83.

(٨٧) HUREWITZ, Ibid. p. 2, D. 2, Vol. II.

(٨٨) MOHAMED FERID BEY, ETUDE SUR LA CRISE OTTOMANE, p. 64.

الألمان حتى بلغ عدد من وجد منهم في الآستانة فقط ، في أواسط شهر أيلول ، أكثر من أربعة آلاف رجل ، وأصبح أميرال الطراد « غوبن » والضباط الألمان ، وعلى رأسهم الماريشال « فون ساندرس » هم المستأثرين بالأمر ، يستطيعون إكراه الترك على عمل ما يريدون في الوقت الذي يريدون ، وحادثة البحر الأسود أبرز شاهد على ذلك[٨٩] .

حادثة البحر الأسود

وقعت هذه الحادثة يوم الأربعاء المصادف في ٢٩ تشرين أول ١٩١٤ ، في البحر الأسود ، إذ هاجم الأسطول العثماني بقيادة الأميرال الألماني « سوشون » موانىء أوديسا وسيبا ستيبول وغيرها الروسية وأصلاها بمدافعه[٩٠] . ثم هاجم قطعات الأسطول الروسي التي خرجت لمقابلته وأغرق بعضها . وكانت هذه الحادثة ـــ بعد المعاهدة التركية ـــ الألمانية ، ودخول الطرادين « غوبن » و « برسلاو » ـــ ثالثة الحوادث التي سببت دخول تركيا الحرب[٩١] . وبينما نقل علي إحسان سابيس ، عن خليل بك منتشه ، قوله « إنه لا يوجد دليل على أن أنور قد أعطى الأمر باعتداء البحر الأسود »[٩٢] ، ودوّن العقيد حسام الدين أرتورك ، في مذكراته المنشورة باسم « الأسرار الخافية لأحداث عهدين » (Iki Devrin Perde Arkasi) ، رأيه بقوله : « أراني مضطراً إلى القول بأن ما جاء في كتب التاريخ أن أنور باشا هو الذي أمر بحادثة البحر الأسود ليزج بدولته في الحرب عمداً ، هو كذب واختلاق[٩٣] ، نرى أن أغلب المصادر التركية متفقة في القول إن الذي أمر بالحادثة هو أنور باشا بالذات . أما كيف حدث ذلك فهذه خلاصته :

اقتنع الألمان بالحياد الموقت الذي أعلنته تركيا حتى يحين الأوان ، ويكونوا بحاجة إلى قوتها الحربية . ولما كانت المصاعب تتزايد أمامهم في هجومهم على فرنسا ، وإذ شعروا بأن ما صرح به زعماؤهم العسكريون من استطاعتهم القضاء على الجيش الفرنسي في ستة أسابيع ، لم يكن إلا وهماً ، بعد اندحارهم في معركة المارن ، بدؤوا يمارسون الضغط على الحكومة العثمانية كي تفي بالتزاماتها التي

---

(٨٩) محمد طاهر العمري،تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ج١ ص١٦٨ ؛ المقتطف والمقطم:تاريخ الحرب العظمى ، ص٤٠٧ ـــ ٤١٠ .

(٩٠) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الأولى ، ص١٤٩ .

(٩١) I.H. DANISMAND, Ibid. p. 415.

(٩٢) A.I. SABIS, Ibid. p. 45, Vol. II.

(٩٣) H. ERTURK, Ibid. p. 122. .

قطعتها في المعاهدة التركية ـ الألمانية . ولم تخل تصرفات الألمان من التلويح ببعض الإغراءات ، حينما لمسوا من المسؤولين الترك بعض التردد ـ إثر بلوغهم خبر الهزائم المتلاحقة التي منيت بها جيوش حليفتهم ـ متذرعين بالمصاعب المالية(٩٤) . فدعت السفارة الألمانية في ١١/١٠/١٩١٤ ، الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ، وطلعت ، وخليل منتشه ، وأنور ، وجمال إلى وليمة غداء ، لم يدع إليها إلا الوزراء الموالون لألمانيا . وما إن انتهى تناول الطعام حتى بادر السفير الألماني « فانجنهايم » مدعويه ، والبسمة تعلو شفتيه ، بقوله إن ألمانيا قد وافقت على إقراض تركيا المال الذي طلبته . وختم كلامه بالإيماء إلى أنه لم يعد من مانع يمنع تركيا من دخول الحرب(٩٥) . كما كان الألمان يلوحون للأتراك بما تستطيع الدولة العثمانية أن تبلغه من الاتساع ، نتيجة دخولها الحرب بجانب ألمانيا ، وانتهائها بظفرهما : حيث تمتد حدودها من شمال القفقاس مارة بجوار نهر الفولغا ، وتضم القرم والتركستان ، وتحتوي فضلاً عن ذلك مصر حتماً(٩٦) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لما علم سفير ألمانيا في الآستانة بأن ثمة اتصالاً يجري بين السفارة الروسية وأنور للبحث في الأحوال الناجمة عن دخول « غوبن » و« برسلاو » المياه العثمانية ، وأنه من المحتمل أن يحصل اتفاق وتقارب بين الجانبين ، بحيث تسحب تركيا جيوشها من حدود روسيا ، وتحولها إلى جهة الغرب ، وفي هذه الحالة قد يحمل الضباط الألمان على مغادرة تركيا على ظهر الدارعتين الألمانيتين ، وتعلن الدولة العثمانية الحياد ، اتصل بإمبراطوره وأبلغه ذلك لاسلكياً ، واتفقا على القيام بعمل يضع الحكومة العثمانية أمام الأمر الواقع(٩٧) .

عدا ذلك فإن جميع التصرفات التي قام بها الأميرال « سوشون » كانت تدل على رغبته في استفزاز الحلفاء . فبالرغم من أن الطرادين الألمانيين اعتبرا عثمانيين ، أصر الأميرال الألماني على إبقاء العلم الألماني مرفوعاً عليهما . وكان يضغط على السلطات التركية بلزوم إعطائه الأمر بالانطلاق إلى البحر الأسود ، متذرعاً بحجة لزوم تعويد البحارة العثمانيين على ركوب البحر ، لأنهم يعانون من دوار البحر ، وهم بحاجة إلى تمرين متواصل عليه في عرض البحار الواسعة(٩٨) .

---

(٩٤) P. RENOUVIN, Ibid. p. 229؛ جان بيشون ، المصدر السابق ، ص١٤٩ .

(٩٥) A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 32-33.

(٩٦) BAYUR, Ibid. II, pp. 198.

(٩٧) H. ERTURK, Ibid. p. 121.

(٩٨) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 176, II, pp. 27, 32; BAYUR, II, 200.

كان الأميرال «سوشون» وزملاؤه الألمان مطمئنين إلى مساندة أنور باشا لهم. وفي أوائل تشرين الأول اجتذبوا جمال باشا إليهم. وكان هذان الوزيران مستعدين لإجابة رغائبهم، بل كانا يناوئان كل صوت يرتفع في انتقاد وضع الألمان وتسلطهم على الأسطول، وينكلان بكل من يقول بوجوب إزالة السيطرة الألمانية عنه، والاستعاضة عنها بسيطرة تركية، مع علمهما بأن الألمان يستطيعون بهذه السيطرة أن يزجوا تركيا في مصاعب لا حصر لها[٩٩]. غير أن بقية أعضاء مجلس الوزراء، المعارضين في دخول الحرب، قد نشطوا في الآونة الأخيرة لتجنيب دولتهم ويلاتها وشرورها. واستمرت الاتصالات بين الحكومة العثمانية وسفراء الجانبين المتحاربين، كما كانت جلسات مجلس الوزراء تنعقد بشكل متوال، وتظهر فيها النزعات والميول المتضاربة. والصدر الأعظم متردد بين الاتجاهين الرئيسيين: الدخول فوراً أو عدمه. ولما ازدادت مصاعب الألمان العسكرية في الغرب، بعد هزيمة «المارن» أمام الجيش الفرنسي، وتحولهم من الهجوم إلى الدفاع — بينما كانت الجيوش الروسية تتوغل مظفرة في بروسيا الشرقية، بعد أن أوقعت بالألمان هزيمة شنعاء في معركة فارسوفيا، فكان دخول تركيا الحرب في هذه الظروف الحرجة مما يقدم العون الكبير لحليفتها، بحكم سيطرتها على المضائق، واستطاعتها أن تقطع الاتصال بين روسيا وحليفاتها، كما تقطع عليها سبيل تصديرها الحبوب واستيراد الأسلحة والذخائر التي لا تكفي مصانعها لتزويدها بها[١٠٠]، كل هذا ولم تزل تركيا مترددة في دخول الحرب — لم يرَ المشير ليمان فون ساندرس بداً من اتخاذ موقف حاسم بالنسبة للضغط على الأتراك، فاتصل في ٢٠ / ١٠ بمدير شعبة الاستخبارات في هيئة أركان الحرب العثمانية كاظم قره بكير، وبحث معه سياسة المماطلة والتمويه التي تتبعها تركيا، ومزج حديثه بالتهديد بأنه ما لم يستخدم الطرادان «غوبن» و «برسلاو» في أغراض الحرب الدائرة، فإنه سيصطحب معه ضباط الجيش والأسطول الألمان الموجودين في تركيا ويغادرها. فإذا ما حلت الهزيمة بالجيش النمساوي — المجري، عندئذ سوف لا يبقى أي عائق أمام الروس لاحتلال الآستانة والمضائق.

ثم دخل «ليمان فون ساندرس» بعد ذلك وفي اليوم نفسه على أنور، وتكلم معه بأسلوب جاف وخشن. وكرر قصة الخطر الروسي على تركيا في حالة انهزام النمساويين أمام الجيش الروسي، الذي بدأ يوالي ضغطه بنجاح على الجيش النمساوي — المجري، فأحدث في نفسه التأثير المرغوب بحيث رجع أنور عن أفكاره السابقة بوجوب تأجيل دخول الحرب حتى الربيع القادم، وأصبح منذ

---

(٩٩) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 163.

(١٠٠) M. FERID BEY, ETUDE SUR LA CRISE, OTTOMANE ACTUELLE, pp. 70,72.

هذا التاريخ مقتنعاً بدخولها فوراً[١٠١] . لكنه كتم ذلك عن هيئة أركان حربه ، وتظاهر بالتردد ، وطلب من ثلاثة أعضاء من هذه الهيئة وهم : علي إحسان سابيس ، وكاظم قره بكير ، وحافظ حقي أن يقدم كل منهم تقريراً حول الموضوع . وكان هؤلاء من معارضي دخول الحرب فوراً قبل الاستعداد الكافي لها ، ففعلوا ذلك . وجاء في تقرير علي إحسان سابيس « إن تركيا خرجت حديثاً من حرب البلقان مكسورة مهيضة الجناح ، ولم يمض الوقت الكافي لتضميد جراحها ، وتلافي النقص في الرجال والمعدات والتنظيم ، لذلك فقد أنهكتها التعبئة العامة التي أعلنتها . إن الجيش غير قادر على السير للحرب ، خاصة إذا جرى ذلك في الشتاء القريب ، فهو يشكو النقص الشامل في اللباس والمعدات والتجهيزات ، ولا بد أن تقضي عليه أمراض الدوزانتريا والتيفوس والكوليرا وغيرها من الأمراض إذا دخل الحرب فوراً . وبصورة خاصة إذا لم يؤمن الاتصال مع ألمانيا بالسكة الحديدية فإنه ليس بالإمكان الاستمرار في حرب طويلة . على أنه يمكن تلافي هذه الصعوبات حتى الربيع القادم . لذلك فإن دخول تركيا الحرب لن يأتي بفائدة ما على الدولة ، بل فيه ضرر عظيم على حياتها العامة وعلى قوة جيشها »[١٠٢] .

لكن أنور لم يحجم عن قناعته الأخيرة ، وبدأ يخطط مع الألمان الخطط للدخول في الحرب فوراً . واشترك مع الجنرال الألماني برونزارت باشا ، رئيس هيئة أركان حرب أنور باشا ، في تنظيم تقرير أرسله فوراً إلى القيادة العليا للجيش الألماني هذا نصه :

« إن القوات العثمانية ستقوم بإجراء الحركات التالية :

١ ـــ سيقوم الأسطول العثماني ، قبل قيام حالة الحرب ، بالهجوم على الأسطول الروسي في البحر الأسود لتأمين التفوق البحري عليه . وقد ترك تحديد موعد القيام بهذه الحركة للأميرال سوشون .

٢ ـــ بعد إعلان الحرب سيقوم حضرة السلطان بإعلان الجهاد « الحرب المقدسة » على الأعداء .

٣ ـــ ستقوم القوات التركية الموجودة على الحدود الروسية بحركات غايتها تجميد القوات الروسية .

٤ ـــ سيقوم الفيلق الثامن ، وإذا لزم الأمر الفيلق ١٢ ، بالهجوم على مصر ، علماً بأن هذه الحركة لا يمكن القيام بها قبل مضي ستة أسابيع .

٧ ـــ لقد تم تحضير هجوم لاحتلال أوديسا من جهة البحر قوامه ٣ ـــ ٤ فيالق . وهذه الحركة

---

(١٠١) A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 32-33; YH. BAYUR, Ibid. I, pp. 212-229.

(١٠٢) A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 34.

متوقفة على تأمين التفوق البحري، وعلى قيام صداقة رومانية ــ بلغارية، مع إعلان الدولتين حيادهما(١٠٣).

وقد وردت الموافقة على ما جاء في هذا التقرير من المقر العام الألماني بعد يومين من إرساله ومما يلاحظ عليه:

١ ــ أنه قد وضع بيد الأميرال سوشون مقدرات السلطنة العثمانية في دخول الحرب (المادة ١).

٢ ــ أنه ربط الدولة بتعهد هي عاجزة عن إيفائه، حيث لا يوجد لديها من الوسائط البحرية ما يكفي لنقل فرقتين عسكريتين فقط، ناهيك عن نقل ٣ ــ ٤ فيالق(*) (المادة ٧).

٣ ــ إن الهدف من مهاجمة الأسطول الروسي في البحر الأسود، كما يقول «بايور» ليس التفوق عليه، ذلك الذي يستحيل تأمينه نظراً لقوة الأسطول الروسي، بل غايته خلق حالة الأمر الواقع، من حيث دخول الحرب، وقطع السبيل على الصدر الأعظم والوزراء المترددين أو المخالفين لدخول الحرب، والقضاء على كل أمل لهم في التزام الحياد(١٠٤).

وفي ٢٢/١٠، بعد يومين من حصول هذا الاتفاق، أعطى أنور أمراً شفهياً إلى الأميرال سوشون بالهجوم على الأسطول الروسي لتأمين التفوق عليه، دون الرجوع إلى هيئة أركان حربه؛ ودون علمها وخبرها. غير أن الألمان لم يقتنعوا بهذا الأمر الشفهي، وطلبوا أمراً خطياً(١٠٥).

على أن أنور باشا قد اصطحب زميله طلعت، في مساء اليوم نفسه، وذهبا إلى منزل خليل بك رئيس مجلس المبعوثان، وبدأ الثلاثة يتداولون في الموقف. وقد بدأ طلعت الكلام «قائلاً إن سفيري حليفتينا ألمانيا والنمسا يضغطان علينا لدخول الحرب، ومن جهة ثانية يضغط علينا سفراء الحلفاء، دون أن يعطونا الضمانات التي نطلبها، لإخراج الضباط الألمان من تركيا، وفي حيرتنا بين الطرفين فقدنا ثقة حلفائنا بنا، وفوق ذلك نجر على أنفسنا تزايد خصومة الآخرين لنا يوماً بعد يوم، فيجب علينا أن نتخذ قراراً قاطعاً بهذا الشأن» فأجابه خليل بك «إننا إذا دخلنا الحرب نكون كمن تحاشى خطراً متوقعاً للوقوع في خطر محتم ودمار أكيد. فإذا خطونا هذه الخطوة فمن يضمن لنا أن بلغاريا، التي تفاوض الآن كلا الجانبين، لا تهاجمنا من الغرب، فيما إذا انضمت إلى أعدائنا فتقع

---

(١٠٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 215-216; A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 36-37.

(*) يؤلف الفيلق من عدة فرق، والجيش من عدة فيالق، ويكون للدولة الكبيرة عادة عدة جيوش.

(١٠٤) Y.H. BAUYR, Ibid. I, pp. 216-217; A.I. SABIS, Ibid. II, p. 37.

(١٠٥) Y.H. BAYUR, Ibid. p. 229.

بين نارين ؟ إنني لا أرى من المنطق أن يضغط سفيرا ألمانيا والنمسا علينا ، أفلا يكفيهما الخدمة الكبيرة التي باستطاعتنا أن نزجيها إلى دولتيهما بضبط مدخل المضائق ضبطاً محكماً ؟ » . عندئذ وجه طلعت كلامه إلى أنور قائلاً « إن كلام خليل بك في منتهى الصواب . لماذا لا نعرض الأمر على الصدر الأعظم ، ونرسل خليل بك إلى برلين وفيينا ليعرض هذا الرأي على حليفتينا ؟ ولماذا لا نرسل حافظ حقي معه ليوضح موقفنا العسكري ، فنتخلص بذلك من إزعاج سفيريهما ، ونحافظ على صداقتهما » .

فاقتنع أنور بهذا الكلام ، وعرضوا الأمر على الصدر الأعظم ، واجتمع مجلس الوزراء في ٢٥/١٠ وقرر إرسال خليل بك وحافظ حقي إلى برلين وفيينا (ذهبا برفقة برونزارت باشا)[١٠٦] . وفي الوقت نفسه ، استجابة لطلب الأميرال سوشون بوجوب تعويد البحارة العثمانيين على دوار البحر ، وبناء على إيضاح من أنور بأن سوشون محق في طلبه ، وأنه لا يجوز الاستمرار في الحؤول دون خروج « غوبن » و « برسلاو » إلى البحر الأسود ، اتخذ قراراً ينص على تخويل وكيل[*] القائد العام (أنور) الاضطلاع بمسؤولية الشؤون المتعلقة بالأسطول ، ولكن بشرط الحذر والتوقي من إتيان أي عمل من شأنه أن يزج الدولة في أتون الحرب[١٠٧] . غير أن أنور تجاهل هذا القرار وخالفه مخالفة صريحة عندما أصدر في اليوم نفسه الذي اتخذ فيه (٢٥/١٠) ، أمراً خطياً موجهاً إلى الأميرال سوشون بناء على طلب السفير الألماني هذا نصه « يقتضي على الأسطول أن يقوم بكامل وحداته بمناورة في البحر الأسود ، وحالما ترون الوقت مساعداً هاجموا الأسطول الروسي . وقبل المباشرة بالعدوان افتحوا الرسالة السرية التي سلمتها إليكم في صباح هذا اليوم ، واعملوا على عرقلة نقل المهمات إلى صربيا من قبل الروس عبر البحر الأسود ونهر الطونة » وأما الرسالة السرية فهذا نصها « يجب على الأسطول العثماني أن يحرز السيطرة على البحر الأسود بالقوة . ابحثوا عن الأسطول الروسي ، وأينما وجدتموه هاجموه دون أن تعلنوا الحرب عليه » .

الواقع أن الأميرال سوشون لم يكتف بالأمر الشفهي الذي أعطي إليه يوم ٢٢/١٠ من قبل أنور ، وأعلم سفيره به فلم يقبل السفير أن يحصل الهجوم على الأسطول الروسي بأمر شفهي ، خوفاً

---

(١٠٦) Y.H. BAYUR, Ibid. pp. 229-230 ، لطفي سيماوي ، المصدر السابق ، ص١٠٦ ــ ١٠٧ .

(*) يعتبر السلطان هو القائد الأعلى قانوناً ، لكن السلطان محمد رشاد لم يكن بمستوى هذه المهمة مما جعل أنور باشا هو القائد الأعلى فعلاً (COL. LAMOUCHE, HIST. DELATURQUIE, p. 362) .

(١٠٧) CEMAL PACHA, HATIRALAR, p. 149. مذكرات جمال باشا ، ص٢٢٧ .

من أن تقع مسؤولية زج الدولة العثمانية في الحرب على عاتق الألمان، ويتخذ الأتراك في حالة انكسارهم وتعرضهم للمصائب، من ذلك سبباً للإنحاء باللائمة على حليفتهم ألمانيا. وقد ينفضون عنها في النهاية. لذلك بعث السفير الألماني في الآستانة إلى القيادة الألمانية العليا ببرقية شيفرة مؤرخة في ١٠/٢٣ يشرح فيها الوضع، ويرتئي وجوب الحصول على أمر كتابي موقع من أنور باشا وكيل القائد العام التركي، كي تقع مسؤولية هذا الهجوم على عاتق الأتراك أنفسهم. وقد وافقت القيادة الألمانية العليا على ذلك، وجرى الاتصال مع أنور فأصدر الأمر الكتابي المذكور[١٠٨].

وما إن تلقى الأميرال سوشون هذا الأمر الكتابي حتى بادر إلى تنفيذه فوراً، فأغارت ثلاث نسافات عثمانية على مينائي أوديسا وسيباستيبول، وأغرقت سفينة روسية لحراسة الميناء، وعطلت باخرة فرنسية وثلاث بواخر روسية، وضربت المدينة بقنابلها، كما ضربت ثغر تيودوسيا[١٠٩]. فما كان من هذا الحادث إلا أن خلق بين تركيا والحلفاء جواً من التوتر. واجتمع سفراء فرنسا وانكلترا وروسيا وتنفيذاً لأوامر تلقوها من حكوماتهم جعلوا الباب العالي بين خيارين: إما قطع العلاقات السياسية معه، وإما عزل الموظفين الألمان في البحرية العثمانية والجيش. علماً بأن انكلترا قد وجهت إنذاراً نهائياً لتركيا طلبت منها فيه الاعتذار عن ضرب المرافىء الروسية، وتجريد الطرادين الألمانيين من ضباطهما وبحارتهما الألمان، وإخراج البعثة الألمانية من تركيا في مدى ١٢ ساعة[١١٠]. وإن السفير الروسي قد حصل على جواز بسفره فور تلقيه خبر وقوع الحادث، وذلك بناء على أمر تلقاه من دولته للعودة إلى بلاده، وتضامن معه سفيرا إنكلترا وفرنسا، بناء على اتفاق سابق، وطلبا مقابلة الصدر الأعظم للحصول على جواز بسفرهما. وقد استقبلهما الصدر الأعظم، كما استقبل السفير الروسي، وأظهر الصدر الأعظم استياءه من الحادث الأخير، وأقنع مخاطبيه بأنه لم يكن على علم سابق به، ولا كانت له يد فيه. وأفصح عن اعتقاده بإمكان إصلاح الأمور. فأجابه السفراء بأن هذه الأزمة لا بد أن تخلق حالة حرب بين الحلفاء وتركيا، ما لم يحصلوا على ترضية كافية بعزل الضباط الألمان من الخدمة، منعاً لحدوث أزمات جديدة، كمهاجمة مصر أو روسيا، فطمأنهم الصدر الأعظم بأنه يستطيع، حتى في هذه الساعة الأخيرة، أن يحل ما أبرمه حزب الحرب، ويمحو ما أثبته، وأن مجلس الوزراء سيعقد في منزله مساء ذلك اليوم، وسيطلب من

---

(١٠٨) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 230-233.

(١٠٩) المقتطف والمقطم — تاريخ الحرب العظمى، ج٥، ص٤١١.

(١١٠) مجلة الحرب العظمى، ج٤، ص٦، من مقال بقلم المستر ونستن تشرتشل.

زملائه أن يؤيدوه في عزمه على منع وقوع حرب مع الحلفاء، دون أن يشير إلى إمكان عزل الضباط الألمان[111].

في الواقع عقد مجلس الوزراء ورجحت كفة أنصار الحياد، واستطاع سليمان البستاني، وزير التجارة والزراعة، الحصول على أغلبية الأصوات على اقتراح قدمه، يقضي بوضع مذكرة ترفع إلى الحلفاء تؤيد الصدر الأعظم في دفاعه عن السلم، وفي موقفه من وجوب التزام الحياد في الصراع الدائر[112]. لكنه اتضح أن الوزراء الذين صوتوا للسلم كانوا عاجزين عن عمل شيء آخر غير إعطاء أصواتهم في مجلس الوزراء. وقد تناقشوا في مسألة إقصاء ضباط البحر الألمان، لكنهم لم يصلوا إلى قرار بهذا الشأن. وانبرى أنور وجمال في وجه الصدر الأعظم حينما عرض اقتراحاً يقول بتسوية القضية على أساس إرسال مذكرة إلى سفراء الدول بأن تسحب تركيا أسطولها إلى المضائق، كما تسحب روسيا أسطولها إلى مرافئها، وأن لا تترك قيادة الأسطول العثماني بيد قواد وضباط من الألمان، وانبرى أنور وخاطب الصدر الأعظم هازئاً «هل لديكم قواد يستطيعون قيادة هذه السفن؟» وعقب جمال على قوله «أقول بأسف إنه لا يوجد لدينا قواد وضباط يصلحون لقيادة سفن صغيرة فكيف لقيادة هذه السفن الكبيرة؟ إن الحلفاء يطلبون منا إرسال قواد وبحارة الطرادين غوبن و برسلاو إلى ألمانيا، ولكن هل هناك ما يمنع، فيما لو فعلنا ذلك، أن يقوم ضباط هذين الطرادين فيحولون قذائف مدافعهم إلى العاصمة.. ؟»[113]. إن هذه الإجابة وإن لم تقنع الوزراء غير أن أحداً منهم لم يجرؤ أن يقترح إقصاء ضباط الجيش البري الألمان. ذلك أن الحزب المنادي بالحرب قد قرر السير قدماً في إتمام خطته. وبادر أنور باشا إلى نشر بلاغ رسمي على الشعب قال فيه إن روسيا هي التي بدأت بالعدوان في البحر الأسود، وإن الأسطول العثماني كان في موقف الدفاع. وقد صدق قسم عظيم من الجمهور هذا القول[114]، وتمكن أنور باشا من استمالة الصدر الأعظم الذي هدد بالاستقالة(*) فأحبط بذلك محاولات الوزراء الميالين للسلم لتحقيق غايتهم. وإذ شعرت

---

(١١١) المقتطف والمقطم، المصدر السابق، ج٥ ص٤١١ ــ ٤١٢.

(١١٢) أحمد رؤوف بك، كيف دخلت تركيا الحرب، ص١٦ ــ ١٩.

(١١٣) المصدر السابق، ص١٣ ــ ١٤.

(١١٤) المقتطف والمقطم، المصدر السابق، ج٥، ص٤١٢.

(*) عندما تأكد الصدر الأعظم من كذب سوشون بأن الروس هم البادئون بالعدوان، كتب استقالته ليعرضها على هيئة جمعية الاتحاد والترقي، فلما سمع أنور وطلعت وجمال بذلك أخذ كل منهم يسعى للوصول إلى هذا المنصب، بالإستناد إلى أنصاره. ولما رأت الجمعية ذلك أدركت أن الأمر سيؤدي إلى اختلاف عظيم بين الزعماء، فقرروا

روسيا بفشل كل محاولة لإصلاح الموقف أعلنت الحرب على الدولة العثمانية فور انتهاء مدة الإنذار الإنكليزي[115]، فبادرت الدولة العثمانية، وبناء على ضغط أنور، إلى إعلانها بدورها (في ١٩١٤/١١/٢). وصدر المرسوم الشاهاني بذلك، فاضطر أعضاء الوزارة المخالفون وهم أربعة: سليمان البستاني، وجاويد بك، وجورروك صولي محمود باشا، واوسكان أفندي إلى الاستقالة[116]. وكان أنور هو الذي يبت في قبولها عندما كان أصحابها يجابهونه بها في مجلس الوزراء، فيجيب كلاً منهم بقوله: قُبلت[117]. ولم يبق من الوزراء سوى التافهين الذين يميلون مع مصالحهم الشخصية، ويؤيدون كل متسلط[118]، وهؤلاء لم يكونوا أصلاً على شيء من الأمر، لا هم ولا الذين استقالوا، بل كانت الحوادث تجرفهم، ولم يكن باستطاعتهم ولو مجتمعين أن يسيطروا عليها، بل كان نفوذ أنور يطغى على إرادتهم ويشل حركتهم[119]، ويستطيع أن يرغمهم على القبول بكل إجراء يتخذه لاستناده على الجيش والأسطول[120].

وهكذا حقق أنور باشا أمنية ألمانيا في تخفيف الضغط عن قواتها في الجبهتين الغربية والشرقية، باضطرار الحلفاء لإبقاء قسم كبير من قواتهم في القوقاز ومصر[121]. واستصدر من السلطان ومن شيخ الإسلام إرادة سنية وفتوى بالجهاد، وهو ما كانت تتوق إليه حليفته ألمانيا.

الجهاد وأثره في العالم العربي والإسلامي

علقت ألمانيا من الأهمية على قوة تركيا الروحية أكثر مما علقته على قوتها الحربية، نظراً لما تملكه من إمكان التأثير على نفوس المسلمين في جميع أرجاء العالم[122] بفضل المركز الذي يحتله سلطانها

عمل المستحيل لحمل الصدر الأعظم على سحبها، والبقاء في منصبه (مجلة الحرب العظمي ج٥ ص١٤ بقلم أحمد رؤوف بك).

(١١٥) مجلة الحرب العظمي ج٤ ص٦ من مقال تشرتشل.

(١١٦) محمد كرد علي خطط الشام ج٣ ص١٣٣ ــ ١٣٤.

(١١٧) أحمد رؤوف بك المصدر السابق ص١٨ ــ ١٩.

(١١٨) لطفي سيماوي المصدر السابق ص١٠٧.

(١١٩) JACQUES KAYSER, Ibid. p. 22.

(١٢٠) W. CHURCHILL, Ibid. p. 436.

(١٢١) مذكرات جمال باشا ص٢٢٣.

(١٢٢) HALIDE EDIB, CONFLICT OF EAST AND WEST, p. 113.

بصفته خليفة وسلطاناً في آن واحد، واعتقاداً من الإمبراطور الألماني أن الجهاد سيكون قبساً يشعل العالم الإسلامي بأجمعه في تركيا والهند ومصر وبلاد العرب، الأمر الذي يساعده على محق الإنكليز وطردهم من أرض الإسلام(١٢٣).

ففي تصريح للبارون فون فانجنهايم جاء قوله «إن تركيا بالذات لا تهمنا بمقدار ما تهمنا أمة الإسلام. فإذا استطعنا أن نثير هذه الأمة ضد الإنكليز والروس أمكننا أن نرغم هاتين الدولتين على الاستسلام(١٢٤). ولم يكن إعلان السلطان الجهادَ، بصفته خليفة للمسلمين، إلا بناء على طلب الألمان(١٢٥). ففي خلال شهر تشرين الثاني صدرت، على مراحل متعددة، سلسلة من البيانات والفتاوي تحض المسلمين على محاربة أعداء الدين الإسلامي، وقعها شيخ الإسلام بصفته صاحب أرفع منصب ديني في الدولة العثمانية، وعدد من العلماء من ذوي المناصب الدينية الكبرى. وقد أذن السلطان بنشرها «إننا نأمر بأن يوزع هذا البيان على جميع الأقطار الإسلامية»، جاء فيها «إن الجهاد بالمال والبدن فرض عين على جميع المسلمين في العالم، فعليهم أن يتحدوا لمقاومة دول الأحلاف بريطانيا وفرنسا وروسيا، وعلى من يستطيع حمل السلاح من رعايا هذه الدول من المسلمين أن يحاربها ويحارب حلفاءها دفاعاً عن الإسلام والأماكن المقدسة. ومن يمتنع عن ذلك يجلب غضب الله عليه ويستحق العقاب. وأن يمتنعوا — حتى ولو تعرضوا لعقوبة الإعدام — عن مساعدتها ومساعدة حلفائها في هجومها على الدولة العثمانية، والدول الحامية لها، وهي ألمانيا والنمسا والمجر، ومن لم يمتنع عن ذلك يعتبر من القتلة ويستحق الجحيم». وقد قرئت هذه الفتوى على ملاء الناس في جامع محمد الفاتح، من قبل أمين الفتوى الشريف علي حيدر، ونشرت في الصحف في اليوم التالي(١٢٦). وقد تبع هذه البيانات الرسمية والفتاوي سيل من نشرات الدعاية، وزعت على شكل كتيبات وكراريس، كان مؤلفوها من الألمان والأتراك والعرب، اشترك في تحرير النسخ العربية منها الشيخ عبد العزيز جاويش، ومحمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري(١٢٧). وقد كتبت بمختلف لغات العالم الإسلامي، ووزعت بالملايين في الداخل والخارج: مصر، السودان، الهند، إيران،

---

(١٢٣) ماري ملزباتريك، المصدر السابق، ص١٣٥ ;T.T.T. CEMIYETI, TARIH, III, p. 309

(١٢٤) J.P ICHON, LEPATAGE PROCHE ORIENT? p.5.

(١٢٥) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 317.

(١٢٦) I. H. DANISMEND, Ibid. p. 419; أنطونيوس، يقظة العرب، ص٢٢٢ (ج) (راجع النص الكامل في كتاب أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن قسم ٢ ج٢ ص٤١٦ ـــ ٤١٧.

(١٢٧) جلال يحيى الثورة العربية ص١٣٤ T.T.T. CEMIYETI, Tarih, III, p. 309.

أفغانستان، تركستان، وغيرها. منها ما كان يحض الجنود المسلمين على الفرار من جيوش الحلفاء، ومنها ما يدعو إلى القتل والاغتيال، وكانت كلها مجمعة على أن الإسلام في خطر، بسبب أطماع الحلفاء، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عنه، إنما هو فرض على كل مسلم(١٢٨).

كان خيال الاتحاديين من السعة بحيث يجمح بهم إلى تصور الأوهام وكأنها حقائق قريبة المنال. فقد حلموا بالسيطرة على أفكار الشعوب الإسلامية في كل مكان، وبالتالي بزعزعة الدول المعادية لهم، والتي تستعمر هذه الشعوب. كانوا لا يترددون في أن يقولوا: سنضرب انكلترا ضربة قاضية، سنقيم العالم الإسلامي ونقعده على رأسها، سنوفد البعوث والرسل للعمل بإصرار وعناد وبذر بذور الثورة بين مسلمي أفغانستان وبلوجستان وإيران وإفريقية... وسنخلق المشاكل والصعاب أمام الإنكليز والفرنسيين في آسيا وإفريقية، وسرعان ما سينضوي العالم الإسلامي تحت لواء الخليفة العثماني، وستلعب الاضطرابات التي سنثيرها أمام أعدائنا في كل مكان دورها العظيم في تقصير مدة الحرب واندحار الأعداء. وأما روسيا فما من قوة تنقذها من هذا المصير، حيث إن القبائل في شرقي تركستان وغربيها، وفي قفقاسيا والقرم ومختلف أنحاء روسيا ستكون رهن إشارتنا(١٢٩).

من أجل ذلك قدح أنور وطلعت زناد الفكر فانبثق عنه مشروع «التشكيلات الخاصة» التي سلما أزمة أمرها إلى صديقهما المقدم سليمان عسكري، الذي سبقت له خدمات وحروب موفقة في بغداد، وبنغازي، والبلقان قبل الحرب، ووضعوا في معيته عدداً من الضباط الشجعان القديرين، يقدر عددهم بأكثر من مئتي ضابط من أمهر الضباط(١٣٠). وكان من أعضاء هذه التشكيلات محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني المصري، والشيخ صالح التونسي، والشيخ عبد العزيز جاويش، وعلي باش حنبا (تونس)، وغيرهم من العرب والأتراك، ومعظمهم من زعماء جمعية الاتحاد والترقي، أمثال الدكتور بهاء الدين شاكر، والدكتور فؤاد ثابت، من أعضاء اللجنة المركزية للجمعية، والأميرآلاي حسام الدين أرتورك H. Erturk(١٣١)، وغيرهم. وقد خصصت لها الاعتمادات الكبيرة، بحيث تكون كافية لتوسيع ملاكاتها وربط شرازم كثيرة العدد من العصابات المسلحة تأتمر بأمرها. ومن وظائف هذه التشكيلات خدمة الدولة في الداخل والخارج، وإسداء

---

(١٢٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٢٣.

(١٢٩) G. VARDAR, Ibid. p. 274.

(١٣٠) محمد لطفي جمعه، المصدر السابق، ص٢٢٢.

(١٣١) H. ERTURK, Ibid. p. 111 الدكتور محمود فؤاد شكري السنوسية دين ودولة ص١٦٢.

العون اللازم للجيش المحارب، سواء بالعمل الفعّال داخل أراضي الأعداء، أو بتزويده بالمعلومات التي تفيده في عملياته الحربية، وتكون من حيث نشاطها وبرنامج أعمالها مرتبطة بوزارة الحربية(١٣٢). وأما هدفها فهو العمل على توحيد العالم الإسلامي، وجمعه تحت لواء واحد، من جهة، وبهذا تحقق غاية الجامعة الإسلامية، والعمل على تحقيق الوطن الطوراني الكبير، وتكون بذلك قد حققت غاية الجامعة التركية الطورانية من جهة أخرى. وقد استلهم أنور هذه الفكرة من إمري أفندي (Emri) زعيم دعاة الجامعة الإسلامية في جمعية الاتحاد والترقي من جهة، ومن ضيا كوك آلب زعيم الطورانيين في الجمعية من جهة ثانية(١٣٣)، ذلك أن الأتراك قد عادوا إثر اشتراكهم في الحرب، إلى اتجاه الجامعة الإسلامية جنباً لجنب مع الجامعة التركية الطورانية، إذ اعتقدوا أن ليس من تناقض بين الاتجاهين(١٣٤).

كانت البعوث الموفدة للدعاية إلى مختلف أقطار العالم العربية والإسلامية تابعة لهذه الهيئة. وقد كلفت بالدعوة للجهاد وتأييد ما دعت إليه المنشورات العثمانية سالفة الذكر، لتزيد من حرارتها. وكان الرسل من جميع الفئات: من الوعاظ المتجولين والضباط والعلماء والفقهاء والمحرضين المحترفين والمستشرقين الألمان، يرحلون إلى جميع الجهات التي يستطيعون الوصول إليها(١٣٥). وقد قاموا بالمهام الملقاة على عاتقهم خير قيام، ووفقوا في إحداث بعض القلاقل في مختلف الجهات، إنما لم يحققوا الهدف الذي علقه الاتحاديون على دعوة الجهاد.

لقد أرسلت إلى الأناضول الشرقية بعثة برئاسة رئيس العصابة المشهور «قره كال» لتعمل إلى جانب الجيش النظامي بقيادة أنور باشا، الذي سار بنفسه على رأس /٩٠/ ألف مقاتل إلى جبهة القفقاس بقصد محاربة الروس. وأرسل أخاه المقدم نوري، الذي منحه رتبة باشا فخرية، وبمعيته عدد من الضباط المعتمد عليهم، إلى شمالي إفريقية وزعهم هذا في مصر والحبشة والسودان. وأعطيت الأوامر إلى البعثة المرسلة إلى مصر والسودان بنسف السدود وخزانات المياه. كما أرسلت بعوث إلى تونس والجزائر ومراكش. وترأس البعثة المرسلة إلى العراق «سليمان عسكري» نفسه، وهناك بدأ يعمل بمساعدة الأشخاص المحليين الذين له معرفة سابقة بهم. ومن العراق توجهت بعثة ألمانية

(١٣٢) G. VARDAR, Ibid. pp. 274-275.

(١٣٣) H. ERTURK, Ibid. p. 110.

(١٣٤) محمد جميل بيهم، قوافل العروبة ومواكبها ج٢ ص٢٥ ــ ٢٦.

(١٣٥) أنطونيوس، المصدر السابق ص٢٢٣ (ج).

بقيادة «فون كلاين Von Klein» نحو شط العرب، لتخريب المنشآت البترولية وأنابيب الزيت البريطانية على ضفاف نهر قارون، في الوقت الذي أُرسلت فيه حملة عسكرية تركية بقيادة الماريشال «فون درغولتز» إلى الحدود الإيرانية ليطرد من إيران عساكر الروس والإنكليز، ويفرض بعدئذ تحالفاً على إيران وأفغانستان تمهيداً لشن هجوم على الهند. ومن أجل هذا الغرض أُرسلت بعثة عسكرية ألمانية يقودها الملازم «نيدرماير Niedermayer» والمستشار «فون هينتنغ Von Henting» و «زوغماير» عبر إيران إلى أفغانستان، مهمتها تسليح الأهالي، واستمالة حكومة الأفغان، وزجها في حرب ضد الإنكليز والروس(١٣٦).

وأما سورية فقد أُرسلت إليها بعثة برئاسة المقدم الخيال «ايزميتلي ممتاز» التحق به الشيخ عبد العزيز جاويش وغيره من السوريين الموالين للترك، بحيث وجد في دمشق، في الفترة الأولى من إعلان الحرب، أكثر من /٦٠٠/ رسول، منهم من خُصص للعمل في سورية، ومنهم من مر بها مروراً ليتجه إلى بقية الأقطار. وقد توصلت بعثة سورية إلى إيجاد شبكة من العملاء بين القبائل العربية لعبت دوراً هاماً في مساعدة إدارة الحركات العسكرية التي توجهت إلى قناة السويس. وفي الحجاز تمكنت البعثة المرسلة إليها برئاسة المدعو «قوشجي باشي زاده أشرف» من تكوين تشكيل ممتاز من عرب الحجاز اشتركوا في عمليات السويس العسكرية. كما أُرسلت بعثة إلى الوهابيين برئاسة المقدم الخيال «جوروملي عزيز بك» الذي استوثق من صداقة شيوخ العرب، وعاد إلى الآستانة وبعض هؤلاء بمعيته، وأخذ معه، بأمر أنور باشا، أولاد بعض شيوخ القبائل السورية بداعي تعليمهم في مدارس الآستانة، ولكن في الحقيقة للاحتفاظ بهم كرهائن. وكان هنالك أيضاً بعثة تهيأت لتذهب إلى الحبشة، بطريق الحجاز واليمن لتأمين الاتصال مع إفريقية الشرقية الألمانية(١٣٧). وأما البعثة التي أرسلت إلى ليبيا برئاسة يوسف شتوان بك وجعفر العسكري ووجد فيها نوري باشا اخوانور(١٣٨) فسأتي على ذكرها في محله.

على الرغم من ذلك كله لا بد من التساؤل: هل نجحت الدعوة إلى الجهاد النجاح المرتجى؟ وما الأثر الذي تركه دخول الأتراك في الحرب الدائرة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي والعربي؟

من الوجهة العامة فشلت الدعوة إلى الجهاد فشلاً تاماً، ذلك أن الاتحاديين لم يتركوا للخلافة

(١٣٦) J. PICHON, Ibid. pp. 6-7. فيليب آيرلاند، العراق ــ دراسة في تطوره ص ٧.

(١٣٧) J. PICHON, Ibid. p. 7.

(١٣٨) H. ERTUEK, Ibid. pp. 112-113.

الإسلامية ــ التي أعلن الجهاد باسمها ــ أي معنى ، لذلك أخفقت دعوتهم[١٣٩] ، ولم تهب الشعوب الإسلامية في مختلف الأقطار التابعة لدول الحلفاء هبة واحدة ، ولم تطح بحكامها الإنكليز والفرنسيين ، وتنفض نيرهم عن عاتقها ، ولا بادرت جنود هذه الدول من المسلمين إلى الفرار والالتحاق بجيوش دولة الخلافة[١٤٠] ، لا بل نرى أن مئات الآلاف من الجنود الهنود المسلمين قد حاربوا الدولة العثمانية ، سواء بملء اختيارهم أو رغماً عنهم ، إلى جانب مستعمريهم الإنكليز ، على حدود الدولة في أراضيها (العراق) هذا من جهة ومن جهة أخرى قامت جماعات أخرى من المسلمين المحكومين من الدولة العثمانية (العرب) بالثورة على الدولة نفسها[١٤١] . أما الأسباب التي دعت إلى ذلك فهي كما يلي :

١ ــ لم تكن الشعوب التي وجهت إليها الدعوة ، لتحطيم نير الاستعباد من أعناقها ، بالشعوب القوية القادرة على ذلك ، بل كانت ضعيفة مقهورة بفعل الاستعمار المنستمر الذي تمادى في إضعافها ، وبحكم الأنظمة العسكرية والأحكام العرفية التي كانت ترزح تحتها[١٤٢] .

٢ ــ لم يكن السلطان العثماني الذي أصدر أمر الجهاد بالخليفة المعترف به في نظر بعض الشعوب وزعمائها كالمغرب والحجاز وغيرها .

٣ ــ إن بعض الشعوب الإسلامية التي اعتمدت عليها سلطات الآستانة ، كالهند مثلاً ، كانت نسبتها إلى السكان غير المسلمين أقل منهم ، وكان المستعمرون قد اجتذبوا رؤساءها وأغروهم بالمناصب وشتى المغريات الأخرى ، بل كانت بالنسبة للاحتلال الإنكليزي السند الذي يرتكز عليه هذا الاحتلال يوازن بها قوة الهندوس التي كانت تطالبه باستقلالها[١٤٣] .

٤ ــ إن الدول العدوة للسلطنة كانت واقفة وقوفاً تاماً على دقائق الدين الإسلامي والآيات الكريمة ذات العلاقة بالموضوع ، فكانت تبذل الجهد الكبير بواسطة صنائعها لإقناع المسلمين بعكس ما تتمناه الدولة العثمانية منهم(*) .

---

(١٣٩) جميل بيهم : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ص١٣٧ .

(١٤٠) COLONEL LAMOUCHE, Ibid. p. 362.

(١٤١) T.T.T. CMIYETI, TARIH, III, p. 309.

(١٤٢) محمد لطفي جمعه ، المصدر السابق ، ص٢٣٢ .

(١٤٣) P. RENOUVIN, Ibid. p. 143.

(*) مثلا : «الفتنة أشد من القتل» «لا تفسدوا في الأرض» «أطيعوا اللّه ورسوله وأولي الأمر منكم» .

٥ ـــ إن السلطان الخليفة الذي وجه الدعوة للجهاد ضد من سماهم « الكفّار » الذين يحاربون دولته هو رئيس دولة تعمل يداً بيد وتحارب مع دولة من دول « الكفّار » أنفسهم[١٤٤].

٦ ـــ طلب السلطان من شعوب عاجزة مستضعفة القيام ضد حاكميها، وهو لم يزودهم سلفاً بإمكانات هذا القيام، فلم يكن إعلان الجهاد إذاً إلا أمراً مرتجلاً غير مدروس[١٤٥].

٧ ـــ لم ينطق أحد من قادة المسلمين في سائر الأقطار الإسلامية بكلمة نداء منه للثورة، بل بالعكس قام عدد من هؤلاء الزعماء يستهجنون دخول تركيا الحرب، ويعدونه سياسة غير رشيدة. وقاموا بتهدئة النفوس الثائرة، لأنهم أيقنوا أن هذه الآونة ليست بالسانحة التي تغتنم لتقويض سيطرة الغرب، بسبب عدم التأهب للأمر، بل أدركوا أن تركيا باتت ضعيفة طيّعة بين أيدي الألمان، تنزل على أمرهم طائعة منقادة، وأن المسيطرين على الحكم فيها هم طغمة من الجَحَدَةِ الملحدين، غالبهم ليسوا مسلمين، أو ليسوا مسلمين إلا إسماً، لذلك لم يكن من رأي عقلاء المسلمين الانقياد إلى ما رسمته ألمانيا من الخطط للسيطرة على العالم، لأن في ذلك استبدال عبودية بأخرى. إذاً كان جل ما يبتغون هو أن تلتزم تركيا جانب الحياد، وتترك الغرب وشأنه يحارب بعضه بعضاً، إلى أن يحل به الضعف وعندئذ يسهل القضاء على سيطرته واستعماره[١٤٦].

٨ ـــ إن الانكليز والفرنسيين قد نشطوا في الدعاية بأنهم لا يحاربون السلطان كخليفة، بل كسلطان، وأنهم إنما يحاربون مستشاريه الألمان. وقد وعدوا بأن لا يمسوا الأضرحة الإسلامية بسوء[١٤٧]، كما نشطوا في استصدار بيانات وفتاوٍ مضادةٍ من علماء الإسلام في البلاد التابعة لسيطرتهم[١٤٨].

ولكن ليس معنى ذلك أن دعوة السلطان قد ذهبت صرخة في واد، ولم يستجب لها أحد أبداً، بل كان لها بعض الصدى، وإن اختلف سلباً وإيجاباً، أو شدة وضعفاً من بلد إلى آخر، وهذه لمحة عن مردودها:

---

(١٤٤) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 325-330.

(١٤٥) I. H. DANISMAND, Ibid. pp. 119-120.

(١٤٦) لوثروب ستودارد، المصدر السابق، ج١، ص٣١٦ ـــ ٣١٧.

(١٤٧) J. PICHON, Ibid. p. 7.

(١٤٨) T.T.T. CMIYETI, TARIH, III, p. 309.

١ ـــ في تركيا نفسها

كانت الدعوة إلى الجهاد موجهة في الدرجة الأولى إلى الشعوب الإسلامية غير التركية ، إذ لم يكن واضحاً أن المسلمين الأتراك ، ومعظمهم من فلاحي الأناضول المتدينين ، في حاجة إلى استمالة نظراً لما يُفرض أن يكونوا عليه من الطاعة والولاء لحكومتهم التركية(١٤٩) . ومع ذلك فقد وجب أن ترسل راية الرسول ، التي استقدمت من المدينة إلى المناطق المختلفة في تركيا ، وأن يعمد إلى التبشير للجهاد بين الفلاحين السذج . وقد استجاب بعض البسطاء إلى هذه الدعوة ، غير أنه سرعان ما ظهر أن القلق قد بدأ يدب في نفوس الأوساط المسيحية في المنطقة ، إذ أخذ هؤلاء يتساءلون « لماذا يجب أن نقاتل ؟ ألأن هذه الحرب هي حرب مقدسة ضد عقائدنا ؟ »(١٥٠) .

غير أنه إذا كان قد ظهر بعض الفتور في المناطق الداخلية للأناضول ، إلا أن الأمر قد اختلف في المدن ، حيث السكان على اتصال أوثق بالأفكار والدوافع التي تحرك الشعور الوطني ، يضاف إلى ذلك النشاط الذي كانت جمعية الاتحاد والترقي تبذله لتعبئة الشعور القومي ، وإثارة كوامن الحقد على الخصوم . فما إن أعلن أن فتوى الجهاد ستذاع على الناس في الآستانة ، في جامع محمد الفاتح الذي يرمز إلى ذكرى أكبر انتصار أحرزه الترك العثمانيون على المسيحيين عام ١٤٥٣م ، حتى نظمت المظاهرات الضخمة ، وسارت في مختلف شوارع العاصمة ، لتلتقي في الجامع المذكور ، حيث تليت نصوص الفتوى وأقيمت الصلوات ، وتعالى التكبير ، وكان الفرح بالغاً حد الروعة . ثم تجول هذا الموكب العظيم عبر الشوارع الرئيسية في المدينة ، ومر أمام القصر السلطاني ومقر الوزارة . وبعد الهتاف بعبارات الإجلال والتعظيم للسلطان والصدر الأعظم ، طاف بسفارتي ألمانيا والنمسا إظهاراً للتضامن والصداقة(١٥١) . كان شعب الآستانة هائجاً مائجاً ، ويبدو كأنه يحن إلى الحرب والقتال . فقد استمرت المظاهرات في شوارع الآستانة ، بعد إعلان فتوى الجهاد في الجرائد ، أياماً عديدة تهزج للحرب في حماسة عظيمة(١٥٢) . وفي هذا يقول علي إحسان سابيس « لما رأيت هذه المشاهد خطر لي حالاً ما كنت أشاهده عشية حرب البلقان من مظاهرات صاخبة تجوب شوارع العاصمة منادية : (كريد لنا ، هي روحنا ... إلى الحرب .. إلى الحرب) ، والسيوف في

---

(١٤٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٢٣ .

(١٥٠) G. STITT, A PRINCE OF ARABIA, THE EMIR ALI HAIDAR, p. 148.

(١٥١) GEORGES SAMNÉ, LA SYRIE, p. 323.

(١٥٢) علي فؤاد ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

أيدي الرجال يلوحون بها يميناً وشمالاً »(١٥٣) . ولم يقتصر الأمر على الآستانة ، بل دقت طبول الحرب في كل مدينة من مدن السلطنة العثمانية ، ونادى المنادي في الأسواق : « إلى الحرب ، إلى الذود عن الوطن ، إلى الدفاع عن الدولة » . وصارت المهرجانات العظيمة تقام في كل مدينة من المدن العثمانية(١٥٤) . وكانت قطعات الجيش وبخاصة ضباطها أكثر السكان حماسة وتهليلاً للحرب . وقد أفصحوا عن شعورهم وسرورهم بنبأ إعلانها بشكل مثير ، إذ أخذوا فور تلقيهم الخبر بالتهليل والهتاف والعناق بعضهم لبعض ، وصاروا يخلعون السدارات عن رؤوسهم ويطلقونها في الهواء جزلاً(١٥٥) .

أما القوميون الترك فقد اعتبروها حرباً عقائدية ، باعتبار أن مناطق القفقاس الروسية تضم كثيراً من الأتراك ، الذين انتزعت روسيا استقلالهم وحرمتهم من حريتهم ، وأن حرباً تنتصر فيها تركيا لكفيلة بتحررهم(١٥٦) . وراح الشعراء الطورانيون يتسابقون إلى نظم القصائد ، التي تحض على الحرب والتوسع من مثال قولهم « ستصبح ديار العدو خراباً ، وستتسع تركيا وتصبح لطوران مآبا » (دوشمان او لكه سي ويران أوله جق ، توركيا بويويوب طوران أوله جق)(١٥٧) .

ومع ذلك فقد كان المتعضون من دخولها كثيرين ، فعلاوة على الفئات التي عارضت في اشتراك تركيا في الحرب ، كما رأينا ، بادرت مختلف الشخصيات التي لها وزن لدى الرأي العام التركي إلى إظهار شعورها . ولقد عبر السياسي والأديب التركي المعروف سليمان نظيف عن رأيه بكلمته المشهورة ذات المغزى العميق « إن أنور باشا ــ بدخوله الحرب ــ قد قتل أنور بك » (أنور باشا أنور بكي اولديردي) ، كناية عن أنه قد مسح بذلك ماضيه الذي كلله بغار الجهاد في بنغازي وأدرنه(١٥٨) . وفي رأي هذا الأديب أن دخول تركيا الحرب ، في ظرف غير ملائم كالظرف الذي زجها فيها ثلاثة أو أربعة مسؤولين ، كان من الخطأ بحيث لا تبرره أية حجة تذرع بها هؤلاء(١٥٩) . ومن رأي رجل الدولة لطفي سيماوي أن دخول تركيا الحرب كان جنوناً بقدر ما هو جناية(١٦٠) .

---

(١٥٣) A.I. SABIS, Ibid, II, p. 56.

(١٥٤) الخوري أنطون يمين ، لبنان في الحرب ، ج١ ، ص١٠ .

(١٥٥) G. VARDAR, Ibid. p. 255. ; مذكرات جمال باشا ، ص٢٣٢ ــ ٢٣٣ .

(١٥٦) مجلة تورك يوردي ، السنة الرابعة ، عدد ١ تاريخ ١٩١٥/٣/٥ ، ص٢٥١٩ .

(١٥٧) A.B. KURAN, INKILAB TARIHIMIZ VE Ittihat Ve Terakki p. 303; عن جريدة طنين هذه العبارات جاءت في المصدر التركي بالحرف اللاتيني ، فأوردتها بالحرف العربي .

(١٥٨) G. VARDAR, Ibid. p. 212 . صفوت عرفي ، ضياكوك آلب ومفكوره ، ص٢٩ .

(١٥٩) PIERRE LOTI, Ibid. p. 132.

(١٦٠) لطفي سيماوي ، المصدر السابق ص١٠٧ .

هذه الآراء قيلت بعد انتهاء الحرب ، غير أن المعارضين لاشتراك تركيا فيها لم يكتموا شعورهم حينذاك . فالعقيد حافظ حقي العضو في هيئة الأركان العامة وقف من أنور باشا موقفاً شديداً وخاطبه بعنف مؤنباً ، ودخل في خصام مرّ مع برونزارت باشا الرئيس الألماني لهيئة الأركان العامة ، ومع جميع ضباط الهيئة الألمان ، يؤازره في ذلك رفاقه فيها ، مما اضطر أنور باشا ــ بناء على تقرير من برونزارت باشا ــ لتفريقهم إلى جبهات القتال . وحرم حافظ حقي من حقوقه في الترقية ، وكانت نهايته الاستشهاد في ساحة القتال في حدود القوقاز[١٦١] . كما لم يكن العقيد مصطفى كمال (رئيس الجمهورية التركية فيما بعد) من القائلين بدخول الحرب ، بل كان يرى أن الحكمة تقضي بأن تقف تركيا على الحياد ، حتى ترى أية كفة ترجح فتساومها على مؤازرتها لها[١٦٢] . ولم يكتم شعوره هذا بل أفصح عنه ودخل في جدل مع طلعت باشا حول هذه القضية ، ودلل على الخطأ الذي ارتكبه هو وزمرته في إقدامهم على هذا الأمر[١٦٣] . وهكذا فعل السلطان المخلوع عبد الحميد . إذ استدعى أنور باشا إلى قصر « بكلربكي » ، الذي خصص لإقامته في الآستانة ، بعد جلبه من سلانيك ، وجلس إليه معاتباً متودداً تارة ، وناصحاً مؤنباً تارة أخرى ، ضارباً له الأمثلة ومنها كيف صوت مجلس ١٨٧٧ على دخول الحرب ضد روسيا ، وما جره من الوبال على الدولة العثمانية[١٦٤] . وقد مر معنا أن السلطان محمد رشاد (الخامس) المتربع على العرش لم يكن راضياً عن دخول الحرب . وأما حسين جاهد ، الذي كان قبل الحرب صاحب ومدير جريدة (طنين) الشهيرة ، فقد أخذ الانفعال منه مأخذاً ، مرةً في منزل جاويد بك وزير المالية المستقيل ، بحيث راح يعارض دخول دولته الحرب بقوله « إن ارتماءنا في هذا السعير الذي أضرمته دول أوروبا لمما يدعو إلى الحيرة والألم . فهل كان باستطاعتنا أن نتصور فرصة أجدى لنا وأعظم من هذه الفرصة التي تقتتل فيها دول أوروبا . إننا ــ بدخولنا الحرب ــ قد أضعنا هذه الفرصة ، التي كان من شأنها أن توطد كياننا وتحفظ مستقبلنا »[١٦٥] .

أما المعارضون من حزب الحرية والائتلاف ، المبعدون عن أراضي السلطنة ، فقد كان اعتراضهم على انحياز تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا معللاً تعليلاً منطقياً في قولهم إنه كان على حكام الترك أن يعملوا على مداراة المعسكرين المتحاربين ، غير مستعجلين الدخول في الحرب ، بل الانتظار

(١٦١) A.I. SABIS, Ibid. II, pp. 56-86-134.

(١٦٢) هـ . آرمسترونغ ، الذئب الأغبر مصطفى كمال ، ص٥٣ .

(١٦٣) G. VARDAR, Ibid. p. 273.

(١٦٤) G. VARDAR, Ibid. p. 265; H. ERTURK, Ibid. p. 160.

(١٦٥) A.B. KURAN, INKILAB TARIHIMIZ VE ITTIHAT VE TERAKKI, pp. 302-303.

وترقب الفرص حتى سنوحها ، فلربما لا يكون ثمة من داع واضطرار لدخولها ، ذلك أن تركيا تستطيع أن تجني منفعة كبيرة من عدم زج نفسها في الحرب ، إذ تستفيد استفادة اقتصادية عظيمة بحيث تزدهر تجارتها ، وتربح أرباحاً طائلة من بيع المواد الغذائية إلى المتحاربين فتتدفق عليها الثروات من كل جانب تدفقاً هائلاً ، وتتجنب خسارة ملايين القتلى من أبنائها ، وتكسب اعتبار الطرفين ، وتكون كلمتها مسموعة في العالم ، إذ في حين تخرج جيوش المعسكرين المتحاربين من الحرب منهوكة القوى ، تظل هي محتفظة بجيش قوي متماسك كالطود الشامخ(١٦٦) . هذا علاوة على أنه ليس لألمانيا والنمسا حدود مع تركيا . ولم يكن ثمة خوف من تجاوزهما على حدودها ، وأن الخطر كان من شأنه أن يأتي بالعكس ، من قبل الحلفاء لأن موقع تركيا الجغرافي يساعد على هجوم هذه الدول عليها . وقد نشط أعضاء هذا الحزب ، وكانوا يقيمون خارج أراضي الدولة ، فاجتمع فريق منهم كالبرنس صباح الدين وجماعته ، وعقدوا جلسة في باريس وناقشوا هذه المسألة ، وانتهوا إلى قرار بأن دخول بلادهم الحرب فيه دمار للسلطنة ومحو لاستقلالها ، وأنه جريمة وخيانة للوطن . وأبرق البرنس بذلك إلى السلطان وطلعت بك ، قبل اشتراك الدولة في الحرب ، للوقوف في وجه أكلة الجمر ، طلاب الحرب ، وبعد إعلانها ، محتجاً على هذا العمل الفظيع ، وطالباً وقفها حالاً . وحذا حذوه رفعت باشا سفير الدولة في باريس ، فأبرق إلى طلعت بك وزير الداخلية ، قبل الدخول فيها ، يستصرخ وجدانه العمل لتجنيب السلطنة العثمانية شرورها ، ومحذراً إياه من فاجعة أخرى كفاجعة « غرناطة » . كما بادر المقدم « غاليبولي كمال بك » ، مؤسس « جمعية الإنقاذ » ، إلى تقديم مذكرة بواسطة الملحق العسكري التركي في روما « ديار بكرلي كاظم بك » إلى رفيق دراستهما أنور باشا منذراً إياه بالنتيجة التي سيسفر عنها اشتراك الدولة بالحرب(١٦٧) .

٢ ــ في سورية وبقية البلاد العربية

إن الأثر الذي تركه دخول تركيا الحرب ، في سورية والبلاد العربية ، كان مختلفاً بين قطر

(١٦٦) دوقتور رضا نور ، المصدر السابق ، ص١٩٠ .

(١٦٧) A.B. KURAN, OSMANLI IMPARATORLUGUNDE VE T. C INKILAB HAREKETLERI, 638-648.

A.B. KURAN, INKILAB TARIHIMIZ VE JON TUKLER, p. 345.

A.B. KURAN, INKILAB TARIHIMIZ VE ITTIHAT VE TERAKKI, pp. 297-300.

وآخر، إذ كان ثَـمَّ شتات في الرأي العربي: كان في الشام غيره في مصر، وفي اليمن غيره في الحجاز ونجد[١٦٨].

آ ـــ في ســـورية

لم يكد الجهاد يعلن في سورية حتى نظمت المظاهرات يومي ١٣ ، ١٩١٤/١١/١٤، وسارت في شوارع دمشق، تخفق فوقها الأعلام، وصار المتظاهرون يرددون الأناشيد الحربية[١٦٩]. هذا من حيث الشعور العام، أما من حيث النشاط الذي كان يبذله القوميون في هذه البلاد في سبيل الإصلاح والحكم اللامركزي، فقد طرأت على الموقف فترة جمود، تشوبها سحابة من الترقب والحذر، وقد اختلف موقف السوريين قبل اشتراك دولتهم في الحرب عنه بعد اشتراكها فيها. ويبدو أن لفيفاً من زعمائهم قد تداولوا الأمر فيما بينهم، كما تداول بعضهم الأمر مع المسؤولين الترك، وتمكن عبد الكريم الخليل، ومن ورائه بالطبع عبد الحميد الزهراوي، من الحصول على وعد منهم بأن تجيبه الحكومة إلى «كل المطالب العادلة باسم الأمة العربية، أو باسم الأحرار من أبنائها»[١٧٠]. وإذ كانت مقاصد الدولة العثمانية غير واضحة في الفترة التي التزمت فيها الحياد، من أول آب إلى آخر تشرين الأول، أرادوا استغلال هذا الموقف للحصول على ضمانات لتحقيق مطالبهم القومية، ملتزمين في ذلك جانب الحيطة والحذر الشديديـن[١٧١]، غير مسقـطين من حسابهم ما للـدول الأجنبية من مطامع شريرة في بلادهم. لذلك وبانتظار انجلاء موقف الدولة العثمانية من حيث إجابتها لمطالبهم، وموقف الدول الأوروبية من حيث أطماعها في بلادهم، والموقف العام من حيث اشتراك الدولة العثمانية في الحرب أم عدمه، اتخذ فريق من الزعماء العرب خطة التأييد التام للدولة في الأزمة الدولية القائمة، وشد أزرها حتى لا تقع في براثن الطامعين، لأنهم لم يفكروا يوماً في أن يستبدلوا بالحكم التركي حكماً أجنبياً يكون شراً وأدهى[١٧٢]. ولم يكن طلبهم للإصلاح فيما سبق إلا رغبة

---

(١٦٨) أمين سعيد، «الدولة العربية المتحدة»، ص١٢ .

(١٦٩) مجلة الحرب العظمى، ج١٦ ص١٥.

(١٧٠) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ص٥ (عن كتاب أرسله عبد الكريم من الآستانة في ١٩١٤/٨/٦ إلى صديق له في سورية).

(١٧١) جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ص ١٩٢ .

(١٧٢) ج. كيرك، المصدر السابق ص١٩٢ ؛ مذكرات أحمد قدري ص٣٨ .

منهم في أن يكون لهم دور ومساهمة في الدفاع عن كيانها ضد كل دولة أجنبية لها طمع في أراضيها. فأوقفوا نشاطهم المعادي للأتراك، وتوقفت جرائدهم عن الخوض في المطالب العربية، ولبّى شبانهم نداء التعبئة العامة، ولم يتأخر عن ذلك حتى الزعماء والمرموقون في جمعية «العربية الفتاة». ومن الأدلة على ذلك أن السيد محمد المحمصاني من أركان هذه الجمعية كان يوم إعلان النفير العام يقوم في مصر بمهمة لها فتعجل العودة إلى بيروت، ملبياً واجبه في الالتحاق بخدمة وطنه في ميادين القتال، كغيره من شبان الجمعية وسائر شبان العرب القوميين[١٧٣]، قائلاً لأحد أصدقائه الذين نصحوه بالبقاء «إن الوطن في حاجة إلى كل فرد من أبنائه في هذا الأوان العصيب، فمن الخيانة أن لا نقوم بالواجب علينا نحوه»[١٧٤]. كما يتضح إخلاص زعماء العرب للدولة من الرسائل التي تبادلها بعضهم بهذا الشأن، ومنها رسالة كتبها عبد الكريم الخليل في ٨/٦، أي بعد إعلان التعبئة العامة بأربعة أيام، إلى أحد أصدقائه في دمشق، وذلك قبيل شخوصه إليها، موفداً من الاتحاديين ليضمن لهم ولاء العرب، وإقبال شبانهم على التجنيد، يقول فيها إن التدابير التي اتخذتها الدولة درءاً لخطر الحرب العظمى تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام. وأوصى بوجوب شد أزر الحكومة وإزالة النفور بين العناصر العثمانية، والعمل يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها، لمنع اعتداء الدول الغربية، والخروج من هذه الأزمة أرفع شأناً وأعلى مقاماً[١٧٥]. ومنها رسائل بعث بها الشيخ رشيد رضا، السوري الأصل، وصاحب مجلة «المنار» القاهرية إلى من يثق بهم في سورية يحثهم فيها على الولاء للحكومة، وكتب في جريدة «الأهرام» في ١٩١٤/٩/٢٦ رسالة نشر خلاصتها في «المنار» شكر فيها السوريين على إخلاصهم وطاعتهم للدولة، وتوقفهم عن طلب الإصلاح تقديراً لأحوالها الحاضرة[١٧٦]. كما بعث أحمد مختار بيهم في ١٩١٤/١٠/٢٦ برسالة إلى صديق له في مصر قال فيها «لقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية، لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك، ولسوف يرى إخواننا الترك، لا سيما الاتحاديون، من أعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظيم إخلاصنا للعرش العثماني، وتفانينا في خدمة الوطن المشترك، ونحن الآن على أحسن ما يرام مع

---

(١٧٣) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص١٠٦.

(١٧٤) أسعد داغر، ثورة العرب ص١٢٩.

(١٧٥) بديع شريف، أحمد عزت عبد الكريم دراسات في النهضة العربية، ص١٠١.

(١٧٦) المنار، مجلة ١٧، ج١٢، ١٩١٤/١١/١٨، ص٩٥٥.

حزب الحكومة الذي أظهر وطنية عظيمة في هذه الأزمة الشديدة ، وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد »[١٧٧] .

قد تكون بعض هذه التصرفات فردية ، أو تعبيراً عن رأي جماعات من غير المنتمين إلى جمعيتي « العربية الفتاة » و« العهد » ، لكنها متوافقة من حيث النتيجة ، مع مسلك الجمعيتين المذكورتين قبل دخول تركيا في الحرب . ولم يكن موقف أعضاء الجمعية اللامركزية العثمانية الموجودين في القاهرة أو غيرهم من رجال الجمعيات الأخرى مختلفاً ، فبعضهم كالسيد أسعد داغر تملكته الحماسة عند وقوفه على إعلان إنكلترا حمايتها على مصر ، وصمم على الشخوص إلى تركيا ليكشف لمواطنيه ما اكتشفه من حقيقة نيّات الإنكليز ، وما تأكد من وجوب عدم الاعتماد عليهم في تحقيق الآمال التي كان العرب يسعون إليها وما يزالون ، لأنه توهم أن إخوانه في الآستانة وسورية والعراق قد يخدعون برسل الحلفاء ووعودهم ، فيقدمون على أعمال لا تقتصر نتيجتها على إضاعة البلاد ، بل تكون خيانة مفضوحة . وفاتح « عزيز علي المصري » بعزمه هذا فشجعه عليه ، وأبدى استعداده لمساعدته . لكن الصعوبات قامت دون ما عزم عليه واضطرته إلى البقاء في مصر[١٧٨] . وغني عن القول إن الموالين للحكومة التركية موالاة مطلقة قد وقفوا إلى جانبها بكل جوارحهم ، وبدون قيد ولا شرط .

كان هذا قبل اشتراك تركيا في الحرب ، أما بعد اشتراكها فقد تبلور الموقف في سورية على ثلاثة آراء متميزة :

١ ــ رأي يقول بتأييد الترك في نضالهم مع الحلفاء ، والإخلاص لهم ، ومساعدتهم بكل الوسائل ليخرجوا من المعترك فائزين ، على أن ينظر بعد ختام الحرب ، وبعد خروج الدول ظافرة ، في تسوية ما هنالك من خلاف بين العنصرين العربي والتركي . وكان من هؤلاء الأمير شكيب أرسلان ، وعبد الرحمن باشا اليوسف ، ومحمد باشا العظم ، ومن لف لفهم من السوريين ، ومعروف الرصافي ، ومحمد صدقي الزهاوي من شعراء العراق[١٧٩] .

٢ ــ رأي يقول باغتنام الفرصة السانحة ــ فرصة وقوع الحرب ــ للتخلص من الترك ،

---

(١٧٧) أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج١ ، ص٥٨ ، بديع شريف ، أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق ، ص١٠٣ .

(١٧٨) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٧٧ .

(١٧٩) بدوي طبانة ، معروف الرصافي ، حياته وبيئته وشعره ، ص١٢ .

وطرح نيرهم الثقيل، وبلوغ الاستقلال التام ــ مع شيء من التحفظ بسبب أطماع الدول الأجنبية ــ وكان هؤلاء يحلمون بتكوين الدولة العربية الكبرى إما موحدة ، أو على شكل اتحاد فدرالي أو كونفدرالي يضم جميع البلاد العربية في آسيا وحتى في إفريقية ، وأغلبهم متثقفون ثقافة عالية ويرتفعون بالنضال العربي إلى مستوى المثالية ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الإصلاحيين » ، وقد ضحى زعماؤهم بأرواحهم شهداء في سبيل مثلهم العليا وجلهم من أعضاء جمعيتي العهد والعربية الفتاة .

٣ ــ رأي القائلين بالانضمام إلى الحلفاء وشد أزرهم ومساعدتهم على الترك ، وتسهيل السبيل أمامهم للاستيلاء على بلاد الشام ، وبسط حكمهم عليها ، ومن هؤلاء فريق من النصارى الذين تثقفوا بالثقافة الأجنبية اللاتينية ، وأغلبيتهم الساحقة من لبنان ، فصاروا يكرهون كل ما هو عربي ويتمنون الانضواء تحت علم دولة أوروبية . وقد قضى بعض هؤلاء أيضاً على أعواد المشانق[١٨٠] .

وإذا كانت الكثرة المطلقة في ابتداء الحرب لأصحاب الرأي الأول بدليل إقبال العرب ، في الشام والعراق ، على الانضواء تحت رايات الجيش العثماني المحارب ، إذ انخرط في الجيش من الشام ٢٧ قرعة ، كادت معها حركة العمل تقف وقوفاً مروعاً[١٨١] ، فإن الأمر فيما بعد لم يلبث أن اختلف بعد المشانق التي نصبها جمال باشا للأحرار ، فانتهى الأمر بانتصار الفريق الثاني . وعليه وخلافاً لرأي مندوب التايمس الحربي[١٨٢] أستطيع أن أقول إن دعوة الجهاد قد لاقت في سورية نجاحاً لا بأس به في بداية الأمر ، بمساعي الشيخ عبد العزيز جاويش ، والأمير شكيب أرسلان وغيرهما من الدعاة الذين ملأوا البلاد ، ليبقى بعضهم فيها ، وليغادرها الآخرون إلى جهات أخرى ، فهرع المتطوعون إلى مكاتب النفير العام ، واشتركوا في الحرب ، وراح منهم عشرات آلاف الضحايا طعاماً لها في مختلف الميادين ، وإن كان المثقفون السوريون ، وهذا ما اتفق به مع رأي مندوب التايمس ، قد وقفوا منها موقفاً فيه بعض الجمود ، لا موقف المتفرج كما يقول . وأما العلماء فقد يكون بعضهم ، لا كلهم ، كما يقول ، قد أخذوا يتساءلون : أي جهاد ، هذا الذي نرى فيه دولة إسلامية تناصر دولاً مسيحية على دول مسيحية أخرى ؟

---

(١٨٠) أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ، ص١٢ ؛ NADRA MOUTRAN, LA Syrie de Demain, p. 33

(١٨١) محمد كرد علي ، المصدر السابق ص١٣٢ ــ ١٣٤ .

(١٨٢) THE Tire's HISTORY OF THE WAR, p.332 (نقلاً عن مجلة الحرب العظمى ج٥ ص١٥) .

ب ـــ في العـــراق

في الواقع كانت دعوة الجهاد في العراق أكثر نجاحاً منها في سورية بسبب خطر الإنكليز الداهم[١٨٣] . فقد استجاب علماء الدين في النجف وكربلاء إلى طلب الدولة تأييد الدعوة للجهاد ، فأصدروا فتوى مؤيدة لفتوى شيخ الإسلام في الآستانة[١٨٤] . وقد حررت نسخة من فتوى الشيعة في العراق باللغة الفارسية لترسل إلى المملكة الإيرانية التي منعت دخولها ، إنما عملت القطعات العسكرية التركية على تهريبها إلى الأراضي الإيرانية لإثارة الشيعة القاطنين فيها . وقد جاء في نصها أنه « بالنظر لأن دول الكفار قد اجتمعت كلمتها على مهاجمة ديار الإسلام ، وتقتيل أهلها وسلب أموالها ، وإعلاء كلمة الكفر ، وتسفيه كلمة الدين الإسلامي ، فقد اتفقت كلمة علماء السنة والإمامية والإسماعيلية والزيدية والوهابية والخوارج على الافتاء بأن الواجب يقضي على كل مسلم أن يبذل كل ما في وسعه من قدرة على دفع هجـوم الكفار والمشركين وقتالهم وكسر شوكتهم »[١٨٥] . هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان إعلان تركيا الحرب على الحلفاء إيذاناً بزوال الخلافات الداخلية العنصرية بين العرب والترك في العراق ، ولو موقتاً ، وبتوحيد صفوف الأمة للدفاع عن الوطن المشترك . وشرع الإصلاحيون العرب ، بناء على برقية من أنور باشا ، يحثون الشعب على التطوع في الجيش ، ويظهرون منتهى الرغبة في التعاون التام مع الحكومة . واندفعوا في العمل بهمة ونشاط ، فأسسوا جمعية الهلال الأحمر في البصرة ، وبدؤوا بجمع التبرعات السخية لها ، في حين تجمعت بواخر الإنكليز المشحونة بالجنود أمام البحرين ، تنتظر الإشارة للهجوم . وسارعت الدولة بإرسال بعض قواتها إلى البصرة للدفاع عنها . وفي هذه الفترة اتصل الإنكليز بطالب النقيب (وكان الأتراك يخشون بأسه ويتآمرون على قتله) ، فلم تنجح مفاوضاتهم معه لتصلبه في مطالبه القومية ، وقد اضطر إلى إخلاء الميدان عندما اقترب خطرهم من البصرة[١٨٦] . وظل العرب ، بعد احتلال الإنكليـز لهذه المدينة ، على ولاء للترك يحاربون وإياهم العدو المشترك ، إلى أن ظهرت نيّات الترك السيئة نحوهم فمالوا إلى تأييد ثورة الحسين والسعي لاستقلال بلادهم .

---

(١٨٣) محمد كرد علي ، المصدر السابق ، ص١٣٣ ـــ ١٣٤ .

(١٨٤) مجلة « إسلام مجموعة سي » العدد ٢ (١٣٣٣ هـــ ١٩١٤ م) ص٤٤٥ ، أنطونيوس ، المصدر السابق ص٢٢٧ .

(١٨٥) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 325.

(١٨٦) سليمان فيضي ، « في غمرة النضال » ، ص١٨٨ .

ج ــ في لبنــان

لعل الجهاد كان أقل نجاحاً في لبنان منه في غيره من الأقطار العربية، باستثناء الحجاز والعسير، ولم يستجب له سوى قلة من أهالي بيروت المسلمين[١٨٧]. بل ما إن «بلغ الآذان البيروتية صوت النفير العام الآمر بحشد الجنود ــ حسبما بيّن الخوري أنطون يمين ــ حتى امتلأت القلوب حزناً ورعباً، فتفرق شبانهم أيدي سبأ، منهم من اختبأ في بيت نسيبه، ومنهم من لجأ إلى دار صديقه، ومنهم من فر إلى جبل لبنان حيث قطن صومعة منفردة، أو عاش في دير من أديار الرهبان، ومنهم من ساقه الحظ إلى الوقوع في أيدي رجال الأمن..»[١٨٨]. وهذا الوصف الحي للحالة هناك في تلك الفترة ــ تقدمه آنسة أمريكية قضت مدة الحرب في لبنان وبيروت ــ شاهد على ذلك: «... وفي صباح الاثنين وبينما نحن في طريقنا إلى بيروت.. إذ بنا نصادف جماهير من الشعب هاربة من المدينة، وكان الذعر والخوف والوجل يغمر كل شخص، حتى ذهب أكثرهم يلح علينا بأن نعود أدراجنا إلى الجبال. وعبثاً حاولنا معرفة سبب هذه البلبلة العظيمة..، ولما بلغنا المدينة واتصلنا بمصادر الأخبار الموثوق بها، علمنا سبب الذعر. ذلك أن الحكومة التركية قد بادرت إلى دعوة الأهالي إلى حمل السلاح. والمخاوف من الخدمة العسكرية هي التي حملت اللبنانيين على الفرار كتلة واحدة من بيروت»[١٨٩]. وفي مرجع آخر بقلم لطف الله البكاسيني نلاحظ تتمة للموقف بقوله «وربما بلغ الأمر ببعض شبان ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان أنهم قد صمموا على الهرب خارج بلادهم، والانخراط في سلك الجندية الفرنسية، كرهاً بدولتهم العثمانية، ولكن العقلاء أقنعوهم بأن يخلدوا إلى السكينة، دفعاً لوخيم العواقب على أهلهم»[١٩٠].

د ــ في مصــــر

أما مصر، فبالرغم من بعدها عن مركز الخلافة، وعدم ارتباطها رسمياً بالسلطنة العثمانية إلا برباط إسمي واه، فإنها تعطينا صورة مناقضة تماماً لما كان عليه الأمر في لبنان. ذلك أن الحركة الوطنية في مصر كانت قد بلغت أشدها في سني ما قبل الحرب. وإذا كانت عواطف المصريين قد اتجهت

---

(١٨٧) مجلة الحرب العظمي، ج٥، ص١٥.

(١٨٨) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١٠.

(١٨٩) مجلة الحرب العظمى ج١٦، ص٨.

(١٩٠) لطفي اللهنصر البكاسيني، نبذة من وقائع الحرب الكونية ص٤٨٩.

بكليتها إلى الإخلاص للعثمانيين، فلم يكن ذلك لأن الإسلام كان يجمع بين تركيا، دولة الخلافة، وبين مصر فحسب، بل أيضاً لشدة كره المصريين للاحتلال الإنكليزي والدولة المحتلة، وهذا ما جعلهم يلتمسون الخلاص والفرج فيمن يعادي إنكلترا، ويسير على هواهم في كراهيتها. وإذ كانت تركيا، في تلك الفترة، قد ربطت مصيرها بمصير ألمانيا، وانحازت إلى معسكرها، فقد ازداد لذلك حب الألمان في قلوب المصريين، ما داموا يجتمعون معهم على كراهية الإنكليز(١٩١). وفي هذا كفاية لكي تلاقي دعوة الجهاد آذاناً صاغية لدى المصريين المتعطشين للثورة على مغتصبي استقلالهم وحريتهم. كانت الأواصر التي تشد المصريين إلى الجامعة الإسلامية قوية بالرغم من كل العوامل التي كانت تعمل على إضعافها. ولم يكن الإنكليز يجهلون ذلك. فما إن تراءت غيوم الحرب، ولاحت نذرها في الجو حتى بدؤوا يتوجسون خيفة من المصريين، ذلك أن عوامل الثورة باتت تغلي في مصر غليان المرجل على النار، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة، تجاوباً مع دعوة الجهاد، فبادروا إلى الإجراءات والاحتياطات المانعة(١٩٢)، ففرضت السلطات المحتلة الرقابة على البرقيات والرسائل، وسنت قانوناً بمنع التجمهر لأكثر من خمسة أشخاص، والعقاب عليه عقاباً يصل إلى سنتي سجن، لمن يقاوم رجال الشرطة في تفريق التجمهر، ولو لم يكن له قصد جنائي، متى رأى رجال السلطة أن ذلك يجعل السلامة العامة في خطر. ثم أعلنت الأحكام العرفية واتبعت ذلك بفرض الرقابة على الصحف، وبكثير من البلاغات المليئة بالتحذير والتهديد، لمن يحاول الإخلال بالأمن العام(١٩٣)، علاوة على حشد الجيوش الجرارة في القطر المصري، وقد استقدمت على عجل من مختلف أنحاء الإمبراطورية البريطانية، نظراً لأهمية موقع مصر بالنسبة للحرب الدائرة.

كل ذلك كان مقدمة لإعلان الحماية على مصر، ذلك الذي تم في ١٩١٤/١٢/١٨، وقد خلع الخديوي عباس حلمي الثاني، وتوج البرنس حسين كامل سلطاناً على مصر مكانه، فقوبل هذا الانقلاب باستياء بالغ من قبل سكان مصر إلى درجة أنهم عندما كان يدعو الخطيب يوم الجمعة للسلطان الجديد، لا يؤمنون على الدعاء، وصارت حياته في خطر من المؤامرات، وتعددت محاولات اغتياله، ولبس الطلاب أربطة عنق سوداء إعلاناً للحداد العام، وأصبح رجال الحزب الوطني الذين كانوا ضد الخديوي السابق عباس حلمي، أصبحوا في صفه، حينما علموا أنه مضطهد من

(١٩١) حسين فوزي النجار، المصدر السابق ص٣٤٣.

(١٩٢) دكتور م. محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج٢، ص١ — ٢؛ لوثروب ستودارد، المصدر السابق ج١، ص٣١٦.

(١٩٣) عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩، ص١١ — ١٢.

الإنكليز[١٩٤]. غير أن إجراءات الإنكليز العسكرية والأحكام العرفية، وبعض الإجراءات الاقتصادية، التي لجأت إليها إنكلترا مثل إقفال الأسواق الأجنبية في وجه القطن المصري في أول الحرب لإشغال الناس عن السياسة، وصرفهم إلى التفكير في مصالحهم الاقتصادية، قد أرغمت المصريين على السكوت والصبر طيلة الحرب[١٩٥].

هـ ــ في السودان وليبيا وتونس

أما في السودان فقد كانت الحالة هادئة على الإجمال، إذ كان التأثير التركي فيه ضعيفاً. وقد أبدى سكانه شيئاً من اللامبالاة لدى إعلان الحرب بين تركيا والحلفاء. لكن المصريين الوطنيين الذين كانوا يستنكرون وجود الإنكليز في السودان، ويعتبرون أن وجودهم فيه إن هو إلا تجاوز على حقوق مصر[١٩٦]، أخذوا في إثارة النفوس وإضرام الشعور الإسلامي والوطني، والتقت جهودهم هذه مع جهود الرسل والبعوث العثمانية المرسلة سراً إلى السودان، فقامت من جراء ذلك ثورة في دارفور، سرعان ما قمعها الإنكليز، وسيطروا على الموقف بعد أن راح سلطانها «علي بن دينار» شهيد قيامها. وقامت مثل هذه الثورة في الصومال، إلا أنها انتهت أيضاً إلى الفشل[١٩٧].

وأما في ليبيا فقد اتخذ السيد أحمد الشريف السنوسي والليبيون موقفاً إيجابياً من دعوة الجهاد، وسرعان ما أثمرت دعاية العثمانيين وإفصاحهم عن رغبتهم في مساعدة الليبيين، مما أثر تأثيراً حسناً على الموقف في برقة، وأحيا آمال السنوسيين في القدرة على مواصلة الكفاح ضد إيطاليا[١٩٨]، ذلك أنهم أيقنوا من مساعدة تركيا لهم، من جديد، بعد أن أعلنت الحرب على دول الحلفاء، ومن ضمنها إيطاليا، فأصبح كل ما بين هذه وتركيا من المعاهدات والاتفاقات بحكم الملغى[١٩٩]. فاشتد ساعد المجاهدين وأحرزوا انتصارات باهرة على الطليان، وردوهم على أعقابهم نحو السواحل، فزاد ارتباكهم وصاروا يتوجسون من سوء العاقبة، ومما ينتظرهم من كوارث. وقد لاقى الجيش الإيطالي في هذه

---

(١٩٤) الحاج أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن ج٣ ص٢٨.

(١٩٥) مجلة الحرب العالمية الأولى ج١١ ص٣٢.

(١٩٦) مجلة الحرب العظمى ج١٢ ص١١ من مقال بقلم الجنرال مكماهون.

(١٩٧) أمين سعيد الدولة العربية المتحدة ص١٦؛ لوثروب ستودارد المصدر السابق ج١ ص٣١٦ من تعليق للأمير شكيب أرسلان.

(١٩٨) الدكتور محمد فؤاد شكري، المصدر السابق ص١٦١.

(١٩٩) الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال، ص١٩٢.

الفترة في الداخل صعوبات جمة لم يقو على مقاومتها فخارت قواه، واقتطعت أطرافه، وكان عند ابتداء الحرب العامة قد امتلك الفزان، فلم ير نفسه إلا وقد انهارت عزيمته في تلك الصحراء فابتلعته، وأصبح أثراً بعد عين(٢٠٠). هذا وقد اعتبر السيد أحمد الشريف السنوسي نفسه ممثلاً للخليفة العثماني في بلاد الشمال الإفريقي، فأخذ في توجيه الرسائل ــ وقد وقعت مجموعة منها في يد الجنرال ماكسويل بالمصادفة في آب ١٩١٥ ــ إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، وإلى الصحفيين في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وفي الهند يدعوهم فيها إلى الجهاد(٢٠١)، وكان ذلك مقدمة لاقتحامه الحدود المصرية لقتال الانكليز كما سنرى في ما يلي من فصول هذا البحث.

وفي تونس قامت ثورة أضرمها الشيخ «سعيد ديان»، زعيم جنوب تونس، دعيت باسم «ثورة الحامة». وكان قد مهد لها بعض الشخصيات التونسية التي كانت تعمل مع الاتحاديين أمثال: علي ياسين حمبا، والشيخ صالح الشريف التونسي، والشيخ إسماعيل الصفايحي، ولقيت تشجيعاً من الأتراك والألمان. لكن المساعدات التي وُعد بها التونسيون لم تصلهم فأخفقت بعد أربعة أو خمسة أيام من نشوبها، وتمكنت فرنسا من قمعها، بعد أن دفعت ثمن ذلك مئة قتيل فرنسي، وأسفرت عن استشهاد قائد الثورة ونجله وخادمه وعدد من رجاله بيد أنها أرغمت فرنسا على أن تحشد في تونس جيشاً كبيراً خشية من نشوب ثورات أخرى عليهم(٢٠٢).

و ــ في الجزيرة العربية

أما موقف أمارات الجزيرة العربية من دعوة الترك إلى الجهاد فقد كان في أول الحرب أقرب إلى عدم الاستقرار. ويمكن القول إن دعوة الجهاد لم تلاق نجاحاً في جزيرة العرب. فبالرغم من بعض المساعدات التي قدمها فريق من أمراء العرب إلى الترك في أول الحرب، كإرسال بعض المتطوعين، مع عدد كبير من الجمال، لاستخدامها في نقل التجهيزات الحربية، إلا أن موقف كثيرين منهم لم يكن بالموقف الذي ينم عن العطف العميق على الدولة العثمانية(٢٠٣). والواقع أن موقف كل من أمرائها كان مختلفاً عن الآخر، فبينما التزم ابن سعود أمير نجد جانب الحياد المشبع بالعطف نحو

---

(٢٠٠) المصدر السابق، ص١٤٠.

(٢٠١) ج. أنطونيوس، المصدر السابق ص٢١٨ نقلا عن التاريخ الرسمي للحرب.

(٢٠٢) أمين سعيد الدولة العربية المتحدة ص٧٨ ــ ٧٩.

(٢٠٣) RICHARD ALDINGTON, LAWRENCE L'IMPOSTEUR, p.109.

إنكلترا ــ وكان قد قدم عدداً كبيراً من الجمال إلى جمال باشا بمناسبة حملة السويس ــ فإن حياد ابن الرشيد ، أمير حائل ، كان مقروناً بالعطف على الدولة العثمانية ، إذ أرسل إليها المتطوعين ، ووجه أحد الأمراء التابعين له إلى مدائن صالح ، بعد إعلان الشريف حسين ثورته ، ورابط فيها على حدود الحجاز جنباً لجنب مع الترك . وأما مبارك الصباح أمير الكويت فقد كان صريحاً في انضمامه إلى الإنكليز ، بالرغم من أن بعض عناصر السكان ــ التي استاءت من عزمه على مد صديقه الشيخ خزعل خان أمير المحمرة بالمحاربين لقمع الثورة التي قامت عليه في بلاده لمساعدته الإنكليز ضد الدولة العليّة ــ قد عصت أوامره وكادت تثور عليه لولا أن بادر إلى مداراتها بحكمته(٢٠٤) . وكذلك كان موقف السيد محمد علي بن أحمد الإدريسي أمير العسير ــ فمال إلى أعدائها ، وكان يسيطر على جزء من ساحل تهامة ، فأرسل قواته كي تهاجم المراكز التركية في بلاده ، واستولى على بعضها ، واستسلم له الجيش التركي الذي كان فيها(٢٠٥) .

لكن الإمام يحيى حميد الدين في اليمن التزم جانب الحياد ، مقروناً بالعطف على الدولة العثمانية ، ونفذ بدقة نصوص الإتفاق الذي جرى بينه وبين الترك سنة ١٩١١(٢٠٦) . ولم يعر أذناً صاغية إلى جميع المحاولات التي بذلها الإنكليز لإقناعه في تغيير موقفه ، ومهاجمة الجيش التركي ــ وكان شبه محصور هناك ــ واستخلاص بلاده منهم ، ووعدهم إياه بأن يعقدوا معاهدة معه ، لكنه لم يكتف بالإعراض ، بل أسدى إلى الجيش التركي في بلاده مساعدات مالية ومعنوية مكنته من مهاجمة الانكليز في الجنوب فاحتل « لحج » ودق أبواب عدن(٢٠٧) .

وأما الحجاز فإنه يعطينا صورة خاصة عن موقفه من الجهاد ، ذلك أن الشريف حسين ــ الذي كان قبل اشتراك الترك في الحرب قد وجه إلى السلطان رسالة استحلف جلالته فيها أن لا تشترك بلاده في الحرب ، بسبب ما اعتراها من ضعف وهزال في حرب البلقان ، وما هي بحاجة إليه من الأسلحة والمعدات ، وما ستتعرض له ولاياتها في الجزيرة العربية ، كالبصرة واليمن والحجاز من

---

(٢٠٤) عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت ج٢ ص١١٧ ــ ١١٩ .

(٢٠٥) مجلة الحرب العالمية الأولى مجلد ٣ ص٢٧ ، ٢٢ ــ ٤٢ ، مجلة الحرب العظمى ج١٦ ص٤ .

(٢٠٦) راجع كتابي العرب والترك ... ص٢٣٩ ــ ٢٤١ .

(٢٠٧) JACOB HAROLD, KINGS OF ARABIA, pp. 158-159 ; أمين سعيد الدولة العربية المتحدة ص١٣ ــ ١٤ .

هجمات الدول المعادية المحيطة بها من كل جانب ، وهي ليست على شيء من التنظيم والتسليح اللذين تستطيع معهما أن ترد أي هجوم يقع عليها من جانب جيوش منظمة . وختم رسالته بقوله إنه يعتقد « في كل من يرى الحرب إلى جانب الألمان عدم التمييز أو الخيانة الكبرى »(٢٠٨) ــ قد تهرّب من تأييد دعوة الجهاد ، حينما طلب منه ذلك بصفته صاحب أعلى سلطة دينية في بلاد العرب ، ولجأ إلى المراوغة والتخلص من هذا التكليف بأسلوب لم يخل من الدهاء ، قال فيه إنه سيؤيد الدعوة بكل قلبه ويباركها في صمت ، ويسأل الله أن يكللها بالنجاح ، لكنه يخشى انتقام الأعداء فيما لو بادر إلى تأييدها علناً ، لأن الأسطول البريطاني مسيطر على البحر الأحمر ، وثغور الحجاز كلها تحت رحمته ، وهو يخشى أن ينتقم منه بحصارها وربما قذفها بالقنابل ، وبذلك ينقطع عنه وصول المؤن بحراً ، فتتعرض بلاده للمجاعة وبالتالي إلى ثورة القبائل عليه ، وهو واثق أن السلطان « بحكمته البالغة التي لا حد لها ، سيقدر حقيقة الأمر » . ولم يتزحزح عن هذا الموقف ، فاضطر الأتراك إلى الإذعان لادعائه . لكنه مع ذلك أمر بأن تستخرج راية الرسول من مقرها في المدينة بموكب رائع ــ وقد اقترح ذلك هو بنفسه على رجال الحكومة فوافقوه عليه ــ وأن ترسل في احتفال مهيب إلى دمشق ، ليتبرك بها الجيش المتحفز لغزوة مصر ، تلك الغزوة التي كان الترك يخططون لها . وقد اتخذ من التدابير ما يكفل حشد كتائب من المجاهدين لتشترك في هذه الغزوة ، وأرسل أبناءه للإشراف على حشد المتطوعين ، كدليل على اهتمامه بالأمر(٢٠٩) ، وذلك بالرغم من أن القوانين العثمانية قد استثنت الحجازيين من الخدمة العسكرية حرمة لهم ولأرضهم المقدسة . وقد سار قسم من هذه الكتائب إلى الشام بقيادة مفتي المدينة المنورة ، تتقدمها راية الرسول ، واستقبلت بحفاوة زائدة حين وصولها إلى دمشق(٢١٠) . بيد أن الأتراك قد استصدروا فتوى جهاد من الشيخ خيري بن عوني العرقوبي ، وكان من أسرة الحسين نفسها ، لكنه كان منافساً له(٢١١) .

وفي الوقت نفسه كان الشريف حسين يراسل أمراء العرب ورؤساءهم ، ليسبر غورهم ويعرف موقفهم من الترك ، استعداداً لما يزمع تخطيطه للمستقبل(٢١٢) كما سنرى في الفصول التالية .

---

(٢٠٨) مذكرات الملك عبد الله ، ص٩٨ ؛ فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ص١٥٦ .

(٢٠٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ص٢٢٤ ــ ٢٢٥ .

(٢١٠) أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ص١٣ .

(٢١١) COLONEL BREMOND, LE HEDJAZ DANS LA GUERRE MONDIALE, p. 23.

(٢١٢) أنطونيوس ، المصدر السابق ص٢٢٥ .

ز ـ في العالم الإسلامي غير العربي

لم يكن أثر إعلان الجهاد في الهند ـ وهي المملكة التي يقطنها أكبر عدد من المسلمين ـ كما توقعته سلطات الآستانة ، إذ لم يتمكن مسلموها ، بالرغم من الاضطرابات التي قاموا بها ، من إضرام ثورة عارمة على غاصبي حقوقهم ، تكفل طردهم من بلادهم . ذلك أن إنكلترا قد حشدت جيشاً كبيراً من /٢٥٠/ ألف جندي بريطاني ، لقمع كل حركة من هذا النوع[٢١٣] . هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الشعب الإسلامي في الهند يختلف عن الشعب المصري الذي كان حاقداً على الإنكليز ، ومتمسكاً بعثمانيته ، التي عقد عليها آماله الوطنية في التحرر ، بينما كان المسلمون في الهند ـ فيما سبق الحرب العالمية ـ عنصر توازن بيد الإنكليز ضد الهندوس المطالبين بالاستقلال . ومع ذلك لم يكتم المسلمون في الهند استياءهم من دعم الانكليز لشريف مكة في ثورته على الآستانة ، وهذا ما دفعهم إلى قبول التحالف مع الهندوس عام ١٩١٦ والسير معهم بعدئذ جنباً لجنب في طلب الاستقلال[٢١٤] .

غير أن هذا الاستياء لم يترجم قط ، إلى ثورة عارمة ، لا في الهند ولا في غيرها من البلاد الإسلامية ، وحتى التي ذكرته منها في البلاد العربية لم تكن سوى ثورات محدودة الأثر . وحتى مسلمو روسيا ، الذين كان اعتماد الأتراك عليهم عظيماً ، لم ينظروا إلى الجهاد النظرة المرتجاة ، بل أفصح بعض أسراهم المحاربين في صفوف الجيش الروسي (وهم من أتراك قازان) ، الذين وقعوا في أيدي الأتراك عن رأيهم حول الجهاد بقولهم « إن الحرب الدائرة ليست حرباً دينية ، بل دنيوية ، وليس للخليفة شأن في ذلك كي يعلن الجهاد ، ذلك أنه ليس للإسلام في هذه الآونة دولة واحدة تجمع شتات شعوبهم يقوم على رأسها أمير للمؤمنين »[٢١٥] .

ومع ذلك أخذ الحلفاء حذرهم من دعوة الجهاد ، وأخذتهم الخشية والاضطراب مما يحتمل أن ينتج عنها من مصاعب في بلاد المسلمين ، التي تحكمها ، ففرضت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر ، واتخذت تدابير مشددة في الهند ، ودفعت صنائعها من شيوخ العرب في أطراف الخليج العربي لبذل جهودهم ونفوذهم لدى بني جنسهم من العرب ، كي يلتزموا طرف بريطانيا في هذه

---

(٢١٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ج٦ ص١٠ ـ ١١ .

(٢١٤) بيرونوفن ، المصدر السابق ص١٤٣ .

(٢١٥) Y.H. BAYUR, Ibid. II, p. 331.

الحرب . كما أن فرنسا لم تتوان عن اتخاذ التدابير الكفيلة بتأمين الهدوء في ممتلكاتها التي يقطنها العرب المسلمون في شمالي إفريقية ، فحظرت على الصحف أن تتعرض للترك المسلمين بكلمة سوء ، مخافة الإساءة إلى مسلمي مراكش وتونس والجزائر(٢١٦) وبثت الأرصاد لاعتقال دعاة الدولة العثمانية ، وأعلنت الأحكام العرفية فسارت الأمور سيرها الطبيعي ، حتى أن القطعات التي أرسلتها فرنسا إلى الحجاز كي تشترك في ثورة الحسين كان ضباطها وأفرادها من مسلمي شمالي إفريقية . وهكذا لم تحقق دعوة الجهاد الغاية التي أُحدثت من أجلها ، ولم يستفد حلفاء تركيا من دخولها الحرب الاستفادة المرجوة ، اللهم إلا إغلاق الدردنيل والبوسفور أمام كل ملاحة متجهة نحو روسيا ، وإعاقة إنكلترا وفرنسا في إمدادهما روسيا بالعتاد والأسلحة الموجهة إليها(٢١٧) .

خلاصة القول لا بد من إلقاء سؤال : هل كان لدخول تركيا في الحرب أثر في تحول العرب عن الترك ؟ والجواب على ذلك رهن بما سيعقب هذه الخطوة من إجراءات ، وما سينتج عنها من أحوال تؤثر على طمأنينة السكان العرب ، وعلى أحوالهم الاقتصادية ، وعلى مستقبلهم سلباً أم إيجاباً ، هذه الأحوال التي أصبحت بمنتهى السوء كما سيأتي معنا . فكان من الطبيعي إذاً أن ينفجر غضب المتنورين من أحرار العرب ، لا المتطرفين الذين صنفتهم في الفئتين الثانية والثالثة فحسب ، أي المطالبين باغتنام فرصة الحرب للثورة في سبيل الاستقلال ، والمطالبين بالانضمام للحلفاء ، بل أيضاً غضب فريق كبير من السكان المؤيدين للاتجاه الأول ، الذي يقول بالإخلاص للدولة ومساعدتها حتى خروجها ظافرة من الحرب ، بحيث انفضت أغلبية جماهير الشعب عن حكومتها ، وعن الذين يؤيدونها من الفئة الأولى فيما سبق من التصنيف ، وتمنت زوال الحكم التركي بأسرع وقت ، فأخذت سهام النقد تتجه إلى المسؤولين عن زج الأمة في هذا المصير ، مما دفع الأحرار إلى العمل للخلاص من هذا الوضع المتردي . ولم يكن ثمة وسيلة سوى الثورة فعملوا لها ، وراح كثير منهم وقوداً على مذبح الحرية والتضحية .

---

(٢١٦) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 270.; مجلة الحرب العظمى ج١١ ص١٧ .

(٢١٧) بيبرونوفن ، المصدر السابق ص ٤٧ .

الفصـــل الثانـــي

حملة قناة السويس وأثرها في الانفصال

وصل جمال باشا إلى دمشق في ١٩١٤/١٢/٦ حاملاً معه مرسوم تعيينه قائداً أعلى للجيش الرابع فيها، وواليًا عاماً على مناطق كيليكيا وسورية وفلسطين والحجاز، مع احتفاظه بوزارة البحرية. وقد أسندت إليه مهمة القيام بهجوم على قناة السويس، وكان لولب هذا الهجوم ومرتبه ومهيئه الضابط الألماني «فون كريس» رئيس هيئة أركان حرب الفيلق الثامن[1]، إذ كانت هذه الغزوة من بنات فكره، وقد أوحي إليه بها من المعسكر الألماني[2].

ومع أن الألمان هم أصحاب فكرة هذا الهجوم إلا أنه قد وافق هوى في نفس جمال باشا، الذي كانت تراوده أحلام الجلوس على عرش مصر، بعد الاستيلاء عليها. بل في الواقع كان ثـمّ ثلاثة أطراف كل طرف منها له أحلامه الخاصة بالنسبة لحملة مصر: أولاً ــ جمال باشا، ثانياً ــ خديوي مصر عباس حلمي الثاني المبعد عنها، ثالثاً ــ الألمان حلفاء تركيا. كما كان هناك طرف رابع هو الصدر الأعظم البرنس سعيد حليم باشا.

أولاً: بالنسبة لجمال باشا: لقد أثر عنه، قبيل دخول تركيا الحرب، قوله للمسيو بومبار سفير فرنسا في الآستانة، إن مصر بالنسبة إليه كالألزاس واللورين بالنسبة لفرنسا. وقد جاء في مذكرات جاويد بك، وزير المالية السابق، إنه قال له، عشية سفره إلى دمشق لاستلام مهامه

---

(١) Y.H. BAYUR, Ibid. p. 414? V.1.

(٢) علي فؤاد، المصدر السابق، ص٤٥.

الجديدة، بأنه لم يقبل أن يذهب الخديوي عباس حلمي(*) برفقته في هذه الحملة لأنه ليس لهذا الشخص أي شأن بمصر، وأنه ليس من الصواب ترك هذه العائلة، بعد انتهاء الحرب، متسنمة عرشها الذي اغتصبته بالمؤامرات والدسائس. ثم تساءل: لماذا لا يكون هو حاكماً عليها، بعد أن يتم فتحها على يديه؟ وأضاف إن رفاقه الاتحاديين القانعين بهذا الاتجاه سيقررون ذلك في حينه[٣].

قال الكاتب التركي صفوت عرفي في كتابه «ضيا كوك آلب والعقائدية» إنه لم يكن القصد من فتح مصر إعطاؤها استقلالها، بل ضرب الإنكليز ضربة قاصمة، تزهق منهم الروح، وفي الوقت نفسه إسناد حكمها إلى جمال باشا، وأن كل الترتيبات قد رمت إلى هذا الهدف[٤]. والواقع أن طموح جمال قد لقي ترحيباً من أنور الذي كان يريد التخلص من منافس قوي له في قاعدة السلطنة، فقدم له هذه الترضية على أنها لقمة سائغة، وعلى أن فتح مصر عمل عالمي يخلد اسم صاحبه، ويجعله من رجال التاريخ، وهو يعتقد أنه في حال فشل الحملة يكون قد أورده موارد التهلكة، ويكون في الوقت نفسه قد تخلص من معارضته لمشروعاته وتصرفاته، التي كان مضطراً في غالب الأحيان أن يقوم بها في السر، ويحجب حقيقتها عن منافسه القوي هذا الذي يضاهيه ذكاء ونفوذاً[٥]. ولم يكن طلعت بك أقل تبرماً منه، فقد تآمر مع أنور على إبعاده عن الآستانة، مصرحاً أمام أحد أصدقائه المخلصين، قائلاً «جانم[٦]، على الأقل إذا لم تتحقق حملة السويس فإن جمال إما أن يهلك، أو تحل بجيشه الكارثة بسبب نواقصه، وعندئذ يصوب مسدسه على رأسه وينتحر فنتخلص منه»[٧]. أما جمال باشا فقد كان سادراً في خيالاته وأحلامه التي كانت تراوده في الوصول إلى حاكمية مصر، والتي كان يتحدث عنها في كل مناسبة. وقد شغلت ذهنه لمدة طويلة، حتى أصبح يتحدث عنها والأسى يملأ قلبه. قال مرة للبطريرك الماروني في لبنان «لو لم تكن قوة الإنكليز متفوقة خمس عشرة مرة على قوتنا لكنت اليوم سلطاناً على مصر»[٨].

(*) اغتنمت السلطة الإنكليزية في مصر غياب الخديوي عباس حلمي، الذي كان في زيارة للآستانة، فخلعته عن خديوية مصر، فاستمرت اقامته في الآستانة أثناء الحرب منذ اعلانها.

(٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 412.

(٤) صفوت عرفي، المصدر السابق، ص٩٣.

(٥) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 90.

(٦) كلمة تركية تقال كفاتحة لحديث وتعني «روحي».

(٧) A.B. KURAN, INKILAB TARIHIMIZ VE JÖN TÜRKLER, p.351.

(٨) G. GAUTHEROT, LA FRANCE EN SYRIE ET EN CIL ICIE,. p. 39; Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 417.

ثانياً : ومن جهة عباس حلمي الثاني، خديوي مصر الذي قصد الآستانة في الصيف قبيل الحرب العالمية، فقد كان الخصام قد اشتد بينه وبين اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في مصر، الذي فكر في خلعه، واستدعاء البرنس سعيد حليم باشا الصدر الأعظم نفسه(*) من الآستانة لتولي الخديوية مكانه، لولا أن رفض البرنس ذلك. حتى إن الخديوي نفسه فكر في التنازل عن العرش لولي عهده، نجله الأمير عبد المنعم(٩)، إذا ضمن له الإنكليز إمارة سورية، لكن وساطته لدى الإنكليز في هذا الشأن لم تثمر. وفي هذه الأثناء اندلعت الحرب العالمية، وكان لا يزال في الآستانة، حيث حاول شاب مصري يدعى محمود مظهر من شبين الكوم اغتياله(١٠)، وأصابه بجروح من مسدس أطلق النار منه عليه، وقد اشتبه الخديوي بأن المتجاسر مدفوع من قبل ابن عمه الصدر الأعظم(١١).

حاول الخديوي، بعد نشوب الحرب العالمية، العودة إلى مصر، لكن الأتراك والألمان أخذوا يدسون من يقول له إن الأوامر صدرت للأسطول البريطاني المرابط تجاه الدردنيل للقبض عليه وإرساله إلى مالطة(١٢). كما أبلغته بعدئذ السلطة الإنكليزية في مصر ــ التي بيتت النية على خلعه ــ رفضها ذلك وأنها ستمنعه من دخولها فيما إذا أقدم على العودة(١٣)، متهمة إياه بالميول العثمانية، وتحريض الأتراك على احتلال مصر، مبينة لوكيله خشيتها من نفوذه ودسائس بعض حاشيته، مع تلميحها إلى موقفه من مسألة العقبة (طابا)(١٤). وقد أخذ الإنكليز في غيابه يضغطون على الحكومة المصرية لقطع علاقتها مع ألمانيا، واتخاذ التدابير الحربية ضدها، فاتخذ مجلس الوزراء المصري قراراً بمنع التعامل معها، وحظر التصدير إليها، ومنع السفن المصرية من دخول موانيها.. ومن جملة قراراتها

(*) هو ابن الأمير حليم باشا بن محمد علي، وكان والده حليم باشا يسكن الآستانة وقد نشأ أولاده فيها، وانضم كبيرهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس حليم إلى جمعية الاتحاد والترقي (الأمير شكيب أرسلان ــ المصدر السابق، ص٣٩٨).

(٩) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ج٢، قسم ٢، ص٣٢٦ ــ ٣٢٨، ٣٤٦.

(١٠) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ج١ ص ١٢١.

(١١) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص ٣٤٦.

(١٢) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ج١، ص١٢٢.

(١٣) عبد الرحمن الرافعي، المصدر السابق ص١٥، أحمد شفيق باشا، المصدر السابق ص٣٣٢.

(١٤) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق ص٣٣٤، ٣٥٢؛ من أجل قضية طابا راجع كتابي العرب والترك ص٤٢.

فرض الرقابة على البرقيات والرسائل والصحف ، ثم إعلان الأحكام العرفية ، ومنع تصدير كميات القمح التي كانت ترسلها سنوياً إلى الحجاز(١٥) .

وقد حاول الخديوي في أثناء وجوده في الآستانة أن يثني وكيله ورئيس وزرائه حسين رشدي باشا عن السير وفق رغائب الإنكليز ، فأرسل إليه رسولاً كي يقنعه بوجوب الاتفاق مع الأتراك ضد الإنكليز ، وأن يتخذ في وجه المحتلين خطة حازمة ، بدلاً من قبول كل ما يطلبونه منه ، فلم يوفق في ذلك لشدة ضغط الإنكليز على حسين رشدي باشا(١٦) .

تمادت إنكلترا في إجراءاتها فأعلنت في ١٩١٤/١٢/١٨ حمايتها على مصر ، وزوال ارتباطها الاسمي بتركيا ، ولم يكن هذا الإجراء في الحقيقة سوى حلول الحماية السافرة محل الحماية المقنعة(١٧) . وفي اليوم التالي (١٩ / ١٢) أعلنت خلع الخديوي عباس حلمي ، ونصبت مكانه الأمير حسين كامل بلقب « سلطان مصر » ، وبررت عملها هذا في التبليغ الذي وجهته إلى السلطان الجديد قائلة إن « لدى حكومة جلالة الملك أدلة وافرة على أن سمو الخديوي قد انضم انضماماً قطعياً إلى أعداء جلالته منذ أول نشوب الحرب مع ألمانيا »(١٨) . وختمت بلاغها بهذه الجملة المعبرة عن نيّاتها المبيتة « وبذلك تكون الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديوي السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالته »(*) .

في الواقع لم يخف الخديوي عباس حلمي عداءه للإنكليز ، بل كانت حركاته بالآستانة تنمّ عن العداء كل العداء لهم ، بعد أن بلغه ممانعتهم عودته إلى مصر . فقد جرى الصلح ، بعد جفاء ، بينه وبين محمد فريد بك ، رئيس الحزب الوطني المصري ، على أساس الرغبة في إعلان الخديوي

---

(١٥) عبد الرحمن الرافعي المصدر السابق ص١٠ ــ ١١ ؛ أحمد شفيق باشا المصدر السابق ص٣٦٠ .
(١٦) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ص٣٥٧ .
(١٧) عبد الرحمن الرافعي ، المصدر السابق ص١٤ ــ ١٥ .
(١٨) المصدر السابق ، ص١٥ ــ ١٦ .
(*) لم يقف الشعب المصري موقف اللامبالاة تجاه هذه التغييرات ، فقد تلقته الصحف بفتور واحتجبت بعضها عن الظهور ، واستطاعت النشرات التي تهدد السلطان أن تجد طريقها إلى داخل القصر ، وأعلن طلاب الحقوق إضرابهم عن الحضور يوم زيارته لكليتهم ، وجرت محاولات لاغتياله ١٩١٥/٤/٨ ، ٧/٩ ولاغتيال أحد وزرائه ١٩١٥/١٢/٥ . هذا عدا عن سخط الشعب المكبوت بالأحكام العرفية بحيث أخذ متنورو الشعب يتساءلون لماذا لم تعلن إنكلترا استقلال مصر بعد فك ارتباطها بالآستانة إذا لم يكن إعلان الحماية مما تسعى إليه في هدر حقوق مصر في استقلالها الداخلي التام (الرافعي المصدر السابق ص٢٣ ــ ٢٦ ، م . محمد حسين المصدر السابق ص٣) .

الدستور للشعب المصري، وأصبحا هما[19] والشيخ عبد العزيز جاويش واسماعيل لبيب بك، وغيرهم من أركان الحزب الذين وجدوا في الآستانة في تلك الفترة، يعملون لمصلحة مصر، وصاروا يتصلون بأركان الحكومة التركية ويتداولون معهم في سلوك الطريق الموصلة إلى تحرير بلادهم، كتنظيم قوائم الفدائيين، وتحريض طلبة مصر ضد الاحتلال الإنكليزي[20]. إلا أن الخلاف بين وجهتي النظر المصرية والتركية سرعان ما ظهر إلى الوجود حينما لمس المصريون سوء نية الأتراك، ورغبتهم في تحرير مصر، لا لتركها للمصريين، بل لجعلها ولاية مثل باقي ولايات الدولة العثمانية. كما لمسوا من الصدر الأعظم سعيد حليم باشا سعيه ليكون خديوياً عليها، وهو الذي رفض هذا المنصب عن يد الإنكليز. فقد أخذ هذا الأمير ــ الذي كان يحلم بالخديوية حتى صار مهووساً بها، كما جاء في حديث نقل عن أنور باشا[21] ــ ينتقد محمد فريد بك على وضعه في عروة سترته، هو وإخوانه، شارة مكتوب عليها «مصر للمصريين»[22]، وقال عن الحزب الوطني بأنه دجال لا برنامج له يسير عليه. وكان يجمع في غرفته الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور أحمد فؤاد، وفؤاد سليم بك من المصريين المنشقين على جماعتهم، ويسعى لتأليف حزب جديد باسم «حزب مصر العثمانية»، بينما لا يرضى الجانب المصري عن خديويه الشرعي، وعن حزبه الوطني بديلاً[23]، ويظهر أن أنور وطلعت قد وعداه بالخديوية إرضاء لما لمسوه فيه من حب الظهور والفخفخة والعظمة، فأصبح آلة في أيديهم[24].

كان الخديوي، كما يظهر من مذكرات رئيس ديوانه الحاج أحمد شفيق باشا، في هذه الفترة، كمن يعيش في دوامة تكتنفها الإشاعات والدسائس، يحيكها الصدر الأعظم، بينما يسعى جمال في السر كي يُعيَّن قائداً للحملة، ويزيدها تعقيداً موقف المراوغة الذي وقفه منه كل من طلعت وأنور يطمئنانه عن وقوفهما بجانبه، بينما هما يرسمان الخطة لعزله عن كل شأن من شؤون الحملة التي كان يجري إعدادها لاسترداد مصر، فلا يطلعانه على شيء من أمورها، ويوعزان لمصلحة المراقبة على المطبوعات والجرائد بشطب كل ما يظهر في برقيات الأنباء عن «حقوق مصر» و «خديوية عباس

(١٩) عبد الرحمن الرافعي، بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، ص١٧٨.
(٢٠) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص٣٦٢ ــ ٣٦٣.
(٢١) المصدر السابق، ص٤٢٣.
(٢٢) عبد الرحمن الرافعي، بطل الكفاح الشهيد محمد فريد، ص١٧٩.
(٢٣) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص٣٦١ ــ ٣٦٦.
(٢٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٣.

على مصر »[٢٥] ولقد كشفت مذكرات جاويد بك ، وزير المالية المستقيل ، عن موقف بعض المسؤولين الأتراك من هذه القضية ، ذلك أن جاويد بك قد بحث مع طلعت في شكوى الخديوي من مسألة الحملة فأجابه هذا بقوله : « ما العمل إننا لا نزال مضطرين لتحمّل هذا الشخص ومداراته » . ولما تكلم في الموضوع نفسه مع خليل بك منتشة رئيس المجلس اتضح له أن هذا مقتنع بالاحتفاظ بمصر في حالة فتحها ، وبإبقاء الجيش التركي فيها ، وعدم خروجه منها[٢٦] . إن هذه المناورات لم تكن خافية على الخديوي وعلى الزعيم الوطني المصري محمد فريد ، اللذين تبينا أن الأفكار التي كانت تراود ذهن الأمير سعيد حليم لم تكن أفكاره هو فقط ، بل شاركه فيها معظم زعماء الترك ، وخاصة طلعت وجمال وخليل ، وكان هؤلاء يكتمون نياتهم ويخادعون المصريين ، حتى يتم لهم فتح مصر ، وعندئذ يتصرفون فيها كما يريدون ، لذلك لم يرضوا أن يقيدوا أنفسهم بأي عهد نحو المصريين ، ولم يرضوا بأن يرافق الخديوي الحملة وأن يشرف عليها ، بل عهدوا بذلك إلى جمال باشا . وهذا ما زاد الزعيم محمد فريد صبراً وصلابة وتمسكاً بمبدأ « مصر للمصريين » لا للترك ولا للإنكليز[٢٧] ، بينما ضاق صدر الخديوي بهذا الجو الذي يعبق برائحة الخديعة ، ووقف حائراً بين تصريح أنور له بأنه سيجعله ملكاً على مصر ، حراً في إدارتها بعد تحريرها هي وإيران وأفغانستان من الاحتلال الإنكليزي والروسي ، بحيث تربط بين هذه الأقطار والدولة العثمانية رابطة أخوية إسلامية ، في حين يعمد إلى مماطلته وتأخير التحاقه بالحملة ــ بعد أن سارت إلى دمشق ــ يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع[٢٨] ، وبين مناوأة الصدر الأعظم له ، وعدم كفه عن توجيه اللوم عليه : إذ كيف يقول بتعيين محمد فريد بك رئيساً لمجلس مصر النيابي بعد تحريرها ، ولماذا يدعي فريد بك بأن مصر للمصريين ، ويقول بوجوب خروج الجيش التركي منها بعد تحريرها بأربع وعشرين ساعة[٢٩] ، لا سيما وأنه قد لمس من الصدر الأعظم قناعته بأن لا لزوم لأن يتوجه (الخديوي) مع الحملة ، بداعي أن الجيش الزاحف على مصر عربي ، فإذا كان المفهوم عند الخديوي وعند محمد فريد بك ، أن مصر للعرب فإنه يخشى حينئذ أن يحصل اتفاق بين الجند الشامي والخديوي والمصريين ، ولذلك لا يصح أن يكون الخديوي مصاحباً للحملة[٣٠] .

(٢٥) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ، ص ٣٧٠ ــ ٣٧٥ .

(٢٦) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 413.

(٢٧) عبد الرحمن الرافعي ، بطل الكفاح محمد فريد بك ، ص١٧٩ ــ ١٨٠ .

(٢٨) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ، ص٣٦٤ ــ ٣٦٦ .

(٢٩) عبد الرحمن الرافعي ، بطل الكفاح ... ، ص١٧٩ .

(٣٠) أحمد شفيق باشا ، المصدر السابق ، ص٣٨٨ .

لقد وقف حائراً بين هذه التصرفات وبين ما اعتقد من إسهام بعض المصريين مثل الشيخ عبد العزيز جاويش والدكتور أحمد فؤاد في الدس عليه، والاشتراك مع وكيل الصدر الأعظم في نشر الإشاعات عن اختلاف المصريين في آرائهم، وما قصدهم من ذلك إلا تشويش الأذهان، وتمهيد الجو لجعل مصر ولاية عثمانية[31]. فما يدري أي دور سيسنده العثمانيون إليه في الحملة، هل سيكون قائدها، وهو لا يريد أن يتحمل هذه المسؤولية العسكرية، أم يكون بمثابة العجلة الخامسة، وهذا ما يكرهه، أم سيكون بين بين، يؤخذ رأيه وتوجيهاته، ويستعان به في دخول مصر، ثم يعاد إلى منصبه، وتحفظ لمصر حقوقها السياسية، فلا يبقى فيها الجيش التركي، الذي حررها، إلا فترة محدودة تنتهي بظهور نتيجة مؤتمر الصلح[32].

ولم يفتأ ــ بالرغم مما لمسه من سوء النية ــ يتمسك بخيوط واهية من الأمل، ويتساءل: هل يبادله الأتراك إخلاصاً بإخلاص وصفاء بصفاء؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا عينوا جمال باشا قائداً عاماً للحملة، دون أن يأخذوا رأيه، ولماذا لم يتنازل جمال باشا بعد أن صدرت الإرادة السنية بقيادته لها، على الحضور لمقابلته، قبيل مغادرته الآستانة إلى دمشق؟ ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل سمحوا بأن يرافقه الشيخ عبد العزيز جاويش، وفؤاد سليم بك، والدكتور أحمد فؤاد وغيرهم، وهم يعلمون أن هذا الأخير عدوه اللدود، وقد اشترك في مؤامرة اغتياله، فلم يتخذوا ضده أي إجراء أو تحقيق. لذلك أخذت الوساوس من نفسه مأخذها، إذ أيقن أنهم متى دخلوا مصر سعوا في جعلها عثمانية بحيث يصبح المصريون عبيداً، كما هو شأنهم في عهد الاحتلال الإنكليزي. كما أبدى خوفه الشديد من أن يعينوا الدكتور أحمد فؤاد على رأس دائرة الأمن في مصر، وأدرك أن ما أقدموا عليه حركة مقصودة من تدبير الحكومة العثمانية[33]، وأنها بمثابة نقض لما جرى الاتفاق عليه بينه وبين أنور والسفير الألماني في السفارة الألمانية، حينما عرض هذا الأخير فكرة توجيه حملة لاحتلال مصر على نفقة الحكومة الألمانية، فوافق أنور عليها، وتم التفاهم بين الثلاثة على السير بالاتفاق والصراحة بين الجوانب الثلاثة[34]. وهذا هو الذي كان دفعه هو وجماعة الحزب الوطني إلى تحضير منشور يوجهه إلى شعب مصر يلقى عليهم بالطائرات. وقد طبع المنشور وأمر الخديوي بوضع نسخه في صندوق وأرسلها، مع ياوره توفيق فهمي بك، إلى دمشق حيث ينتظر جمال باشا الذاهب إليها على رأس

---

(٣١) المصدر السابق، ص٣٦٧ ــ ٣٦٨.

(٣٢) المصدر السابق، ص٣٦٧.

(٣٣) المصدر السابق، ص٣٩٠ ــ ٣٩٢.

(٣٤) المصدر السابق، ص٣٧٣.

الحملة . كما تحركت التجريدة التي ألّفها الخديوي ــ بعد يأسه من إشراكه في الحملة النظامية ، وهو يريد أن لا يكون في معزل عن الهجوم على القناة ــ نحو الجنوب في ١٩١٤/١١/١٥ ، وكانت مؤلفة من عدد من الضباط المصريين والسودانيين ، يرافقها إسماعيل لبيب بك ، وياوره توفيق فهمي بك ، والشيخ محمد عثمان ، وما يقارب الخمسين من صف الضباط والجنود ، وبضعة عشر حصاناً ، وأربعة بغال وعدد من الخيام ... وصلت فعلاً إلى بيلان بين الاسكندرونة وأنطاكية . وما كان أشد كدره وغيظه عندما علم أن أمراً من جمال باشا قد صدر ، إلى مندوبيه وأعضاء البعثة ، بأن يعودوا إلى الآستانة ولم يسمح لهم بالبقاء ــ ولو لمدة وجيزة ــ انتظاراً لأمر يعطى إليهم من مرجعهم الخديوي بالعودة[٣٥] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل علم أن أمراً تلغرافياً قد سلم إلى ياوره توفيق فهمي بك بوجوب حرق وإتلاف نسخ المنشور الموجودة بحوزته ، وكان الخديوي قد أرسلها مع التجريدة[*] ، لأن ما جاء فيها بالنسبة للسلطان حسين ــ أي بتنصيبه سلطاناً على مصر ــ غير محقق ، ولأن للأتراك بعض ملاحظات على نصه[٣٦] . وهذا ما جعله يتفجر غيظاً ، ويزداد وساوساً ويأساً من إخلاص العثمانيين له ولقضية مصر . وقد ندم على كونه قد وضع يده بيدهم ، ووصف حالته بأنه لم يقع مرة على « بوزه » مثل هذه الوقعة . وفكر في توجيه رسائل إلى المسؤولين في مصر يحذرهم فيها من جمال باشا في حالة دخوله مصر . ثم إنه خشي على حياته فيما إذا بقي في الآستانة ، فغادرها إلى فيينا خائباً يائساً[٣٧] قلقاً من عدم صدور إرادة شاهانية بتحديد مهمة حملة القناة ، ومن عدم التصريح برجوعه إلى عرشه ، ويحفظ امتيازات مصر ، كما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي[٣٨] .

غير أن الإرادة الشاهانية قد صدرت بعد مغادرته الآستانة ، ونصت فقط على تحديد مهمة الحملة بإرجاع مصر إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي ، والاحتفاظ بالامتيازات التي خولتها

---

(٣٥) المصدر السابق، ص٤٠٧ ــ ٤٠٨ .

(*) جاء في المنشور تنديد بالاحتلال الإنكليزي لمصر وأعماله ومساوئه وعسفه ، وتنكر إنكلترا لوعودها في الجلاء ، ومنعها عودته إلى عرشه خلافاً لفرمانات الذات الشاهانية ذات السيادة العليا على مصر ، وبين أنه وطد العزم على تحرير مصر والإشتراك في الحملة السائرة لاستردادها ، وإن باستطاعة المصريين أن يمهدوا السبيل إلى ظفرها باتحادهم ومساعدتهم إياها . ومناهم بأن يوم الخلاص قد دنا ، وأنه واثق من النصر ، وأنه يعلن منذ الآن الحكم الدستوري المؤيد لحقوق الشعب السياسية (المصدر السابق، ص٣٨١ ، من نص المنشور) .

(٣٦) المصدر السابق، ص٣٨٢ ــ ٣٨٣ ــ من جملة ما اعترض عليه الأتراك النقطة التي يمنح فيها الخديوي الحكم الدستوري للشعب المصري .

(٣٧) المصدر السابق، ص٤١٢ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ .

(٣٨) المصدر السابق، ٤٤١ .

لها الفرمانات الشاهانية . لكنها لم تشر إلى إرجاع الخديوي إلى عرشه ، ولم تصدر إلا بعد مراجعات كثيفة ومستمرة من قبل المصريين لسفير ألمانيا في الآستانة ، وللصدر الأعظم الذي كان يتضايق من المراجعة ويقول « مالي أراكم تستعجلون هذا الطلب يا مصريون ؟ فمنذ شهرين وأنتم تلحون علينا » . ولما أجابوه بأن ذلك في صالح الحملة قال « بل في صالحكم أنتم » ، ثم وعدهم بإصدارها[39] . وفي الوقت نفسه أصدر السلطان العثماني تصريحاً موجهاً إلى المصريين في ١٢ شباط ١٩١٥ قال فيه « أحمد الخالق القدير الذي أتاح لي الفرصة السعيدة بأن أرسل أحد جيوشي السلطانية لتخليص بلدكم الجميل ، وأنا على يقين بأن عساكري سوف توفق بإذن الله في تحريركم من ربقة العدو ، ومن تدخله في شؤونكم ، وأن تعيد إليكم استقلالكم وحريتكم »[40] . غير أن جميع الدلائل كانت تشير إلى أن كل ما كان يصدر عن السلطات العثمانية ، بشأن مصر ، لم يكن إلا لتغطية نيّاتهم في استعمارها بعد أن يحتلوها ، وأن تصريحهم بأن الهدف من تحريرها هو إعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي لم يكن إلا وهماً وتضليلاً ، وأن إلحاق مصر بالدولة إلحاقاً تاماً بعد تحريرها قد قُرّر في الاجتماع الألماني التركي الذي عقد لتقرير قيام الحملة[41] . ومع ذلك جازت تمويهات الأتراك على زعماء الحزب الوطني الموالين للعثمانيين ، وعلى رأسهم أحمد فريد بك ، الذي ظل على ولائه للرابطة العثمانية ، ورجا الخير على يد الحملة ، موقناً بأن المصريين سيهبون إلى دعمها ، ولكن بعد اجتيازها القناة وبعد توزيع الأسلحة عليهم ، وأن الدعاية التي تقول بأن الترك سيلحقون مصر إلحاقاً تاماً بعد تحريرها ليست إلا من دسائس الإنكليز ، وأن مصر والسودان ستشكلان ، بعد تحريرهما الدغامة الأولى للاتحاد الكونفدرالي الإسلامي الذي دعا إليه محمد فريد في رحلاته إلى شمال إفريقية (١٩٠١ ، ١٩٠٢) والذي يفكر فيه أنور باشا[42] .

ثالثاً : موقف الألمان : أما موقف الألمان فإنهم بالطبع لم ينظروا إلى مصلحة الأتراك ولا إلى مصلحة المصريين . وإذا كانوا قد أظهروا بعض الميل إلى إسناد قيادة الحملة إلى الخديوي عباس حلمي ، وإبراز العنصر المصري فيها ، فلم يكن ذلك إلا رغبة منهم في تسهيل انضمام الشعب المصري إلى جانب الحملة ، والمبادرة إلى دعمها ومساعدتها داخل مصر بالذات . وإذا كانوا قد

---

(٣٩) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٣ ، ٢٨ .

(٤٠) M.F. BEY, Ibid. p. 79.

(٤١) ALI IHSAN SABIS, Ibid. I, p. 179.

(٤٢) M. FERID BEY, Ibid. pp. 78-80.

أفصحوا عن رغبتهم في إبقائها، بعد التحرر، كما كانت عليه قبل الاحتلال الإنكليزي[٤٣]، فإن ذلك من مصلحتهم أكثر مما إذا تولى حكمها الأتراك مباشرة، وقد امتدت أحلام قادتهم في بادىء الأمر حتى إلى إدخال مصر في حوزتهم[٤٤].

الواقع أن الناحية الحربية هي التي كانت تهم الألمان أكثر من أي شيء غيرها، ذلك أن الحملة:

١ ــ تخفف الضغط عن الجبهة الغربية بإرغام الإنكليز على تجميد قسم كبير من جيوشهم في مصر، بدلاً من إرسالها إلى تلك الجبهة[٤٥].

٢ ــ بما أن قناة السويس هي الممر الذي تنقل إنكلترا مهماتها وجيوشها عبره من مستعمراتها في مصر وأوقيانوسيا فإن احتلال مصر، في حال نجاح الحملة، يحرمها من هذا المعبر وبالتالي من مساعدة هذه الجيوش. «أما إذا تعذر فتحها، فلا يكون متعذراً إعاقة هذه الجيوش وإبقاؤها أياماً طوالاً في قناة السويس، وإقصاؤها عن الساحة الغربية التي فيها يكون تقرير المصير»[٤٦] فضلاً عن كونها تحول بين الإنكليز وبترولهم الذي هم بحاجة إليه من شواطىء الخليج العربي[٤٧].

٣ ــ إن من شأن هذه الحملة أن تشغل الإنكليز بالدفاع عن مصر، وتحول بينهم وبين التفكير في أية محاولة للهجوم على المضائق وقلاعها.

على هذا الأساس وضعت ألمانيا خطتها الحربية بحيث إن العمليات الحربية التي أوكلت إلى الجيش العثماني تتلخص في أن يركز أقدامه في الخليج العربي، وأن يسيطر على باب المندب، بواسطة قواته الموجودة في اليمن، وأن يحتل قناة السويس، وفي الوقت نفسه كانت المهمة التي أوكلت إلى الأسطول الألماني السريع هي أن يجوب المحيط الهادي لعرقلة ملاحة الإنكليز وقوافلهم بين هذا المحيط وأوستراليا، وبين أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح[٤٨]. قال: الفيلد ماريشال هندنبورغ رئيس أركان حرب الجيوش الألمانية في مذكراته «كان على تركيا أن تحافظ على أراضيها وتبقي القوات التي

(٤٣) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ج٢، ق٢، ص٣٩٠، ٣٩٦، ٤٢٦، ٤٣٥.

(٤٤) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 415.

(٤٥) عبد الله بن الحسين، مذكراتي ...، ص١٠٠.

(٤٦) علي فؤاد، المصدر السابق، ص٤٥.

(٤٧) J. PICHON, Ibid. p. 4.

(٤٨) IBID. pp. 3-4.

تصادمها بعيدة عنا ، فإذا فازت بهاتين النتيجتين تكون قد أتمت المهمة التي تخصها في نطاق أعمالنا الحربية الهامة »[٤٩] .

لقد تقرر مبدأ القيام بحملة قناة السويس، منذ ١٦ آب ١٩١٤ ، في اجتماع عقد بين الجانبين الألماني والتركي في مكتب أنور باشا بالمقر العام للجيش في الآستانة ، حضره عن الجانب الألماني السفير فون فانجنهايم والمشير ليمان فون ساندرس، وبرونزارت باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش العثماني ، والأميرال سوشون قائد الأسطول ، والكولونيل فون كريس ، وكان حينذاك يتولى منصب الرئيس الألماني لشعبة الحركات العسكرية في هيئة الأركان العامة المشتركة ، والملحق العسكري والملحق البحري الألمانيان ، ولم يحضره عن الجانب التركي سوى العقيد حافظ حقي إلى جانب أنور باشا . وقد عرض بعض الضباط الألمان اقتراح القيام بحملة على قناة السويس، فنال هذا الاقتراح أرجحية الأصوات على أساس الأهداف المذكورة آنفاً ، مضافاً إليها أنه في حال نجاح الحملة ستلحق مصر إلحاقاً تاماً بالسلطنة العثمانية[٥٠] .

وإذا قلت إن الناحية الحربية هي التي كانت تهم الألمان بالدرجة الأولى ، فليس معنى ذلك أنهم لم ينظروا إلى النواحي الأخرى ، فقد كان للمسألة وجوهها السياسية والاقتصادية في نظرهم . فمن الناحية الأولى كان هدفهم من حملة السويس إيقاع الترك مع الإنكليز ، والحيلولة دون التفكير بإمكان عقد صلح منفرد بينهما . هذا ما جاء في ص ٤١ من مذكرات فون كريس نفسه في كتابه « مع الترك جنباً لجنب شطر قناة السويس »[٥١] قال « لم يفتني أن أدرك قبل أي أحد آخر أن الحركة التي أخذنا على عاتقنا القيام بها للاستيلاء على قناة السويس سوف لا تنجح إذا أقدمنا عليها في العام ١٩١٤ ، ولكننا لم نسقط من حسابنا ما كانت عليه الميول السياسية لقسم كبير من العسكريين والمدنيين الأتراك المعارضين لسياسة أنور وطلعت ، وقدّرنا الأمور على أساس احتمال وقوع انقلاب على هذين السياسيين ، اللذين عقدا معنا معاهدة التحالف ، وكانت خشيتنا عظيمة من أن تعمد الوزارة الجديدة ، في حال حدوث ما قدرناه ، إلى إلغاء هذه المعاهدة والتنصل من الالتزامات التي ربط الأتراك أنفسهم بها نحونا . لذلك اقتضت مصلحتنا أن نثير الحرب ، بأسرع ما يمكن بين

---

(٤٩) مذكرات هندنبرغ ، ج٢ ، ص٢٤٠ .

(٥٠) A.B. KURAN, Osmanli Imparatorlugunde Ve Turkiye Cumhuriyetinde Inkilab hareketleri, p.655; A.I. SABIS Ibid. I, p. 179.

(٥١) راجع كتاب Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 415.

الأتراك والإنكليز ، ونتيح الفرصة لسفك الدماء بينهما . وقد علقنا أهمية كبرى على إخلاص الترك لتلك المعاهدة في كلا حالتي إحرازهم شرف النصر على الإنكليز أو الشعور بحس الانتقام فيما إذا خسروا المعركة معهم » .

هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الاقتصادية فإن الألمان حلموا بحيازة أسهم قناة السويس، وهو ما دوّنه جاويد بك في مذكراته نقلاً عن أقوال أحد الماليين الألمان « فون ويتز Von Weitz » قال « ففي خلال محادثتنا عن المسألة المصرية جلبت انتباهي عبارة فاه بها قائلاً إننا بعد الاستيلاء على مصر سنرغم حاملي سندات قناة السويس أن يبيعوها لنا ، عن طريق القوة »(٥٢) .

على أن للسفير الأميركي « مورجانتو » ، الذي كان في الآستانة حينئذ ، رأياً حول موقف الألمان من الحملة لا بد من التنويه به هنا . قال بأن ألمانيا قد فكرت بالصلح في أواخر ١٩١٤ وأوائل ١٩١٥ ، بعد إخفاق هجومها في معركة المارن ، وإدراكها أن الحرب ستطول ، بينما هي قد استعدت لحرب قصيرة خاطفة ، وأن سفيرها في الآستانة قد اقترح مبدأً لعقد الصلح ، هو أن يجتمع ساسة الدول المتحاربة لإنهاء النزاع على أساس « خذ ـــ هات » وعلى أن تعقد الهدنة أولاً ، ثم تنعقد جلسات المفاوضين لئلا تعرقل العروض المسبقة فكرة الجلوس للتفاوض ، وقد قدمها إلى سفير أميركا كي تتوسط دولته بين المتحاربين ، فأرسلها هذا إلى حكومته ، فرفضت تحمل مسؤولية التوسط في الصلح على أساسها .

وقد أضاف السفير الأميركي على هذا قوله إن الذي دفع السفير الألماني للتعجيل في عقد الصلح هو ذهاب الحملة التركية إلى مصر . فقد قلق الألمان من احتمال نجاح الحملة ، لأنه في هذه الحالة قد يقف نجاحها سداً منيعاً في سبيل سياستهم الشرقية ، لأن ألمانيا كانت تريد الحصول على وعد من إنكلترا بالاعتراف بنفوذ ألمانيا في العراق ، مقابل اعترافها بنفوذ إنكلترا في مصر(٥٣) . وإن دل هذا على شيء فهو إنما يدل على عدم جد ألمانيا في إرسال الحملة ، واتخاذها وسيلة للمساومة ، ولكن ليس معناه قلق الألمان من احتمال نجاح الحملة ، كما قال السفير . وعلى رأيي أن ألمانيا تكون في منتهى الاغتباط لو نجحت ، لأن الأهداف المبتغاة من نجاحها عظيمة الشأن بالنسبة إليها .

---

(٥٢) Opcit. p.413.

(٥٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ج١٢ ، ص٣٢ بقلم سفير أمريكا في الآستانة .

رابعاً : أما الطامع الرابع في خديوية مصر ، وهو الصدر الأعظم البرنس سعيد حليم باشا ، فقد تحدثت عنه بما فيه الكفاية ، خلال حديثي عن الخديوي عباس حلمي والمسألة المصرية .

سـير الحملـة

غادرت الحملة محطة الآستانة في ١٩١٤/١٢/٤ باحتفال مهيب حضره الوزراء وكبار الرجال في الدولة وحشد كبير من الجماهير . وألقى جمال باشا خطاباً حماسياً ــ جواباً على كلمة أحد الخطباء بأن الأمة تنتظر منه أعمالاً عظيمة ــ قال فيه « إنني أقدّر تماماً خطورة المهمة الملقاة على عاتقي ، وجسامة المصاعب التي تنتظرني ، فإن لم أدرك الغاية المرتجاة ، وسقطت ومن معي جثثاً هامدة على صفحة القناة ، فإن على من يقفون وراءنا من أبناء هذا الوطن المخلصين أن يجعلوا من أجسامنا جسوراً يعبرون عليها لتحرير مصر ــ وديعة الإسلام ــ من أيدي غاصبيها »[٥٤] . ثم تابعت سيرها إلى دمشق ، وكانت تستقبل في كل محطة تقف فيها بمظاهر الحفاوة والابتهاج . وكان المستقبلون من مختلف الطبقات : من العلماء والوجهاء ، وعامة الأمة وطلاب المدارس ، وبأيديهم الرايات ، ورجال الإدارات الملكية والعسكرية ، تُلقي الخطب بين يدي جمال وترفع الأصوات بالدعاء وتنشد أناشيد الانتقام للروملي ، يشترك في إنشادها بنات يتمتهن حروب البلقان ، بصوت شجي يستدر العبرات ويرمض الخواطر[٥٥] .

ولعل ما لقيته الحملة من مظاهر الحفاوة في حلب وحماه وحمص ودمشق قد فاق كل مكان آخر ، إذ زيّنت دمشق بأبهى حللها ، وتراكض الألوف إلى موقف القطار ، وذُبحت الأضاحي ، وألقيت القصائد الحماسية[٥٦] . وقد توالت هذه المظاهرات في كل مناسبة ، ولكن كثيراً منها كان مصطنعاً ، بحيث يُشرى المصفقون والهتافون بالمال ، يجتمعون حول الجامع الكبير عندما يؤمه جمال للصلاة ، فينادي الهتافون عبارات لقنها لهم المداهنون[٥٧] . وأصبحت شائعة مألوفة على الأسماع « إن الله جميل يحب الجمال » ، « يا الله النصر ، يا الله النصر جمال باشا افتح مصر » ، « يا والي الشام

---

(٥٤) CEMAL PASA, Hatiralar p.155; I.H. DANIŞMEND, Ibid. p.421.

(٥٥) علي فؤاد ، المصدر السابق ، ص٤٩ .

(٥٦) المصدر السابق ، ص٥٢ .

(٥٧) I.H. DANIŞMEND, Ibid. pp. 421-422.

يا والي ، نحن علينا العرض غالي »(*) . وهو نداء يستثير حمية جمال لإنقاذ المصريين من جور الإنكليز وغيرها من العبارات التي تحث جمالاً على فتح مصر ، سمعها في دمشق ، كما سمعها في كل مدينة تركية أو عربية كان يمر بها قطاره .

في الواقع إن الخيال والحماسة قد تغلبا على كل شيء في حملة مصر ، ولم يُنعم أحد النظر في الناحية التعبوية وسوق الجيش . لم يفكر أحد في صعوبة الزحف في الصحراء ، وما سيعترض الجيش في طريقه عبرها من مهالك ، فقد ملك الزهو والفخر مشاعر جميع المسؤولين والعسكريين ، ولم يحلم أحد بغير الفتح الذي سلب لب الأمة ، واستهوى فؤادها بمناظر « الأهرام » الخلابة . كان جميع المسؤولين في هذا الأمر سواء ، إلا واحداً راح مركزه ضحية اعتراضه ، أو بالأحرى ضحية فكره النير وتجربته وذكائه الوقاد الذين برهن عنهما قبل الآن في معارك البلقان ، ووصم رأيه بالسخف ومقدرته بالعجز ، ذلك هو الفريق زكي باشا الحلبي العربي ، الذي كان قائداً للجيش الرابع ووالياً عاماً على دمشق وكيليكيا وفلسطين .. ، وكان اعتراضه مبنياً على حسابات دقيقة مدروسة وبراهين ساطعة(٥٨) . لقد بين الحاجة الماسة إلى سكة حديد لمسافة ٥٠٠ كم ، بين نابلس وقناة السويس ، ولم تكن موجودة في منطقة صحراوية جرداء قاحلة ، وبيّن صعوبة نقل الأرزاق والمؤن والمعدات على ظهور الجمال طيلة هذه المسافة ، وغير ذلك من الصعوبات الفنية ، فلم يؤبه إلى براهينه الساطعة وحُرّم على النابهين البحث في مجال الحقائق والممكنات ، وتقرر القيام بالغزو كيفما اتفق(٥٩) . وصدر مرسوم بتعيين زكي باشا الحلبي ممثلاً للقيادة العامة التركية في مقر القيادة العليا الألمانية ، ومرافقاً للإمبراطور الألماني ، وجيء بالمقابل بالجنرال فون درغولتز مرافقاً للسلطان العثماني ، لكنه سرعان ما ولي عملاً عسكرياً في العراق بعد مجيئه(٦٠) .

وإذا وجب علي الإيجاز في النواحي العسكرية الصرف ، لضيق المجال ، فلا بد لي مع ذلك من أن ألقي نظرة خاطفة على الصعوبات الفنية ، هذه الصعوبات التي سرعان ما اعترضت القائمين على الحملة منذ أيامها الأولى ، وأهمها فقدان الفحم الحجري الذي كان قبل الحرب يرد إلى الاسكندرونة عن طريق البحر ، فامتنع استيراده بسبب الحصار البحري الذي ضربه الأعداء على الشواطىء

(*) يروي ذلك المؤرخ التركي « إسماعيل حامي دانيشمند » في كتابه « حولية التاريخ التركي » كشاهد عيان مكث عشرة أيام في دمشق في هذه الفترة .

(٥٨) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 183 ; علي فؤاد ، المصدر السابق ، ص٤٦ .

(٥٩) علي فؤاد ، المصدر السابق ، ص٤٧ .

(٦٠) A.I. SABIS, Ibid. II, p. 111.

العثمانية. فقد وجب على المسؤولين أن يستعملوا الحطب والخشب في تسيير القطر، علماً بأنه لم يخطر لأحد أن يختزن من الفحم ما يكفي لتسيير عجلة الحرب قبل وقوعها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ففيما عدا فقدان الخطوط الحديدية التي توصل القوات حتى القناة، فإنه لم يكن ثمة طرق برية صالحة ولا سيارات نقل (كميونات) إلا القليل. صحيح كان بالإمكان ــ ولكن بصعوبة بالغة ــ جلب ما يكفي من هذه الوسائط من ألمانيا، ولكن الصعوبة كل الصعوبة كانت تتمثل في نقل الوقود السائل اللازم لها من ألمانيا إلى القناة، ولم يكن مستطاعاً، بحال من الأحوال، جلب ما يكفيها من هذه المادة. في هذه الحالة كان من المتعذر جداً تأمين القوت والأرزاق وماء الشرب والمعدات والذخائر الحربية، وسائر المهمات التي كان الجيش الزاحف بحاجة إليها، والتي كان من الواجب أن يأخذها معه حال حركته[٦١]، وهناك ناحية هامة لم يعرها المهاجمون أهمية هي أنه بوجود قناة السويس بين القارتين الآسيوية والافريقية، أصبح من المحتم على القوة المهاجمة لا أن تفكر في القوة البرية المدافعة فحسب، بل أيضاً بالسفن الحربية الانكليزية التي ستصادفها في القناة، والتي تستطيع بمدافعها الضخمة أن تنثر عقد الحملة وتردها على أعقابها. وكان من المفروض على القوة المهاجمة، والحالة هذه، أن تنقل مدافعها الضخمة معها إلى ضفة القناة، ليكون باستطاعتها إغراق السفن البحرية المذكورة، أو إجبارها على الانسحاب أمامها. لكن عدم وجود السكك الحديدية حال دون نقل هذه المدافع[٦٢].

أمام هذه الصعوبات قضت الضرورة بأن ينقص عدد أفراد الحملة إلى أقل ما يستطاع بحيث وجب عليها أن تبدو ضعيفة هزيلة. إن من يطلع على أخبار الاستعدادات الحربية الضخمة التي قام بها الانكليز بالمقابل، بعد سنتين في صحراء سيناء، عند بدء عملياتهم الحربية في هذه الجبهة، يرى الفرق واضحاً جلياً بين الحالتين[٦٣].

الفيلق الثامن ــ بقيادة جمال باشا (الصغير) ورئيس أركان حربه الجنرال الألماني فون كريس ــ هو الذي شكل العمود الفقري لهذه الغزوة، وكانت معظم مرتباته من العرب، وقد تراءى للمسؤولين أن لا يثقوا بهؤلاء، فأرسلوا معظمهم إلى الأناضول واستبدلوا بهم عناصر من

---

(٦١) A.I. SABIS, Ibid. I, pp. 192-193.

(٦٢) مجلة الحرب العظمى، ج٥، ص١١.

(٦٣) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 193.

الترك[٦٤]، فتألفت القوة الزاحفة من فرق الفيلق الثلاث (٢٣، ٢٥، ٢٧)، وفيها ١٠ كتائب و٣ سرايا مدافع رشاشة و٧ بطاريات مدفعية فيها مدافع صحراء، ومدافع جبلية، وبطارية مدافع سريعة الطلقات، ولواء هجانة، وكتيبة استحكام وغيرها، وعدد أفرادها ٤٣٦ ضابطاً، و ١٣٩٢٥ جندياً، و ١٧٥٣ حصاناً، و ٤٥٢ سائقاً و ٣٠٥٧ بعيراً بعث بها أمراء العرب، ومنهم ابن سعود وابن الرشيد وغيرهما من أمراء العرب، بالإضافة إلى الفرقة العاشرة وغيرها من الوحدات التي إذا أضفنا عدد أفرادها إلى ما سبق بلغ ٢٥ ألفاً. وقد أُبقي في سورية وفلسطين بقية مرتبات الفيلق الثامن بالإضافة إلى الفيلق ١٢ الذي استقدم من الموصل، ولم يكن لدى الحملة لا طيارات ولا برق أو لاسلكي، ولا غيرها من العدد الفنية الحديثة[٦٥].

والجدير بالذكر أن جمال باشا لم ينس أن يحتل متصرفية جبل لبنان، وأن يوجه إلى ولاية بيروت قوة عسكرية إضافية، حماية لظهره من هجوم مفاجىء يأتيه من العدو بحراً، وزعها على طول الساحل اللبناني، بقصد المراقبة لحركات الأعداء، وفي مختلف النواحي منذ ١٩١٤/١١/٢٢، بعد أن طلب من حكومة الجبل موافقتها، وحصل عليها. وفي الوقت نفسه أعلمت حكومة الآستانة وزارة خارجية الدولة الإيطالية، التي لم تزل حينذاك وحدها الواقفة على الحياد من بين الدول الموقعة على نظام جبل لبنان والضامنة لاستقلاله الذاتي، مؤكدة أن هذا التدبير ليس إلا تدبيراً مؤقتاً[٦٦]. وبعد ذلك أذاع على أهالي جبل لبنان، وولاية بيروت بلاغاً حثهم فيه على الالتفاف حول العرش العثماني، لحماية الوطن المهدد[٦٧]، داعياً إياهم إلى مؤازرة الجند لدى أي هجوم يقع من الأعداء على المنطقة، مطمئناً خواطرهم إلى بقاء أنظمة لبنان السابقة على ما كانت عليه، وإلى أنه، بالرغم من وجود الأحكام العرفية، فإن الأمور التي لا تشملها هذه الأحكام، مثل الإعفاء من الخدمة العسكرية، ودفع بعض الضرائب، ستبقى مرعية الإجراء، محذراً كل من يحاول منهم الإخلال بالأمن من سوء العاقبة[٦٨]. لكن جمال باشا لم يكن صادقاً في قوله هذا، لأن الدولة العثمانية قد أقدمت — بهذا العمل فعلاً — على إلغاء امتيازات لبنان واستقلاله الذاتي، لأنها عمدت، من ذلك الوقت، إلى تعيين متصرفي الجبل دون استشارة أي دولة من الدول الضامنة لاستقلاله، لكونها في حالة حرب

---

(٦٤) مجلة الحرب العظمى، ج٥، ص١٢، من مقال بقلم المحرر السياسي والحربي لجريدة التايمس.

(٦٥) علي فؤاد، المصدر السابق، ص٥٤.

(٦٦) S. KANAAN, Le Liban, pp. 4-5.؛ خير الله خير الله: معضلة الشرق، ص ٧٠.

(٦٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٣٠.

(٦٨) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١١، ١٦ــ١٧.

معها[٦٩]، ولم تعمد إلى تبرير عملها هذا إلا في العام ١٩١٧، حيث أعلنت رفضها لمعاهدتي باريس وبرلين، وعللت إلغاءها استقلال الجبل بقولها «إن استقلال جبل لبنان النوعي الذي ضمنته الدول العظمى إنما كان قد أُعطي بضغط الحكومة الفرنسية»[٧٠].

وهكذا سارت الحملة بعد أن سبقتها تجريدات من العربان المتطوعين غير النظاميين بدأت تعمل قبل عدة أسابيع من مسير الحملة[٧١]، وكانت مؤلفة من كتيبتين الأولى بقيادة المقدم الخيال «ايزميتلي ممتاز» مرافق أنور باشا سابقاً، وقوامها ألفان من العربان، والثانية بقيادة «ازميرلي أشرف بك قوشجي زاده» وفيها عربان بالعدد نفسه، استولت الأولى على العريش وتحصنت فيها، واستولت الثانية على قلعة النخل ووسط صحراء سيناء[٧٢].

الإنكليز والحملة

من البديهي أن قناة السويس كانت تشكل أهمية كبرى لإنكلترا من الناحية الاستراتيجية، لذلك ما إن وقعت الحرب بينها وبين ألمانيا حتى عمدت إلى تعزيز جيشها في مصر، ولم يكن عدد أفراد حاميتها فيها قبل الحرب ليزيد عن خمسة آلاف جندي. فانصرفت بمساعدة فرنسا إلى تحصين القناة لمنع الاعتداء عليها، وأخذت السفن الحربية المشتركة تقوم بحمايتها من جميع أطرافها. كما رأت انكلترا أن تسحب حاميتها الموجودة في شبه جزيرة سيناء خشية من احتكاكها مع الأتراك، ذلك أن معلومات سرية كانت قد وصلت إلى الانكليز، عن طريق بعض عيونهم المبثوثة في صفوف العرب السوريين[٧٣]، بأن الأتراك يجهزون جيشاً كبيراً لغزو مصر من جهة فلسطين، كما بلغ السلطات الانكليزية في (٢٣ أيلول) أن بعض البدو قد اخترقوا الحدود في جهة رفح، فأخذت في إرسال القوات اللازمة إلى ضفة القناة حتى لا تفاجأ وتؤخذ على حين غرة[٧٤].

---

(٦٩) S. KANAAN, Lbid. pp. 4-5.

(٧٠) K.T. KHAIRALLAH, Les regions Arabes Libérés, p. 68.

(٧١) G. GAUZEROT. Ibid. p. 26.

(٧٢) H. ERTURK, Ibid. pp. 112-113 ; مذكرات جمال باشا، ص٢٥٣؛ أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص٤٠٧.

(٧٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 208.

(٧٤) مجلة الحرب العظمى، ج١٢، ص٨ــ١٣ من مقال بقلم السير مكماهون.

في محاولة من الألمان لتذليل صعوبات النقل بدىء بمد بعض الخطوط الحديدية وإنشاء طرق للسيارات باتجاه القناة بدءاً من بئر السبع[٧٥]، وبذلت المساعي الجدية لتأمين الماء، وتمديد أنابيب تؤدي بها إلى أحواض اختيرت لها أمكنة مناسبة. كما كان من المتفق عليه بين القيادة التركية ـــ الألمانية والبعثة المرسلة إلى ليبيا لإثارة السيد أحمد الشريف السنوسي، وكانت برئاسة سليمان باشا الباروني، وجعفر العسكري، ونوري بك أخي أنور بك، بأن يحصل هجوم جمال باشا على القناة في الوقت نفسه مع الهجوم المقرر قيامه من ليبيا بقيادة أحمد الشريف السنوسي من غرب مصر، بحيث يوضع الانكليز بين فكي كلابة[٧٦]. غير أن جمالاً، المغرور بنفسه، لم ينتظر مبادرة أحمد الشريف ليقوم هو بهجومه، لاعتقاده بأنه يستطيع لوحده أن ينال هذا الفخر، الذي لم يشأ أن يشاركه فيه أحد، فبدأ الزحف من دمشق في أول كانون الثاني ١٩١٥، وبرغم الصعوبات الكثيرة التي لاقتها الحملة في طريقها عبر صحراء التيه وصلت في مساء ١٩١٥/٢/٢ إلى ضفاف القناة والوقت ظلام[٧٧]. وقد ساعدها على السير في هذه الصحراء أن الأمطار كانت قد هطلت فيها، قبل مسيرها بمدة، فجعلت أرضها صلبة، ومكنتها من متابعة السير والاطمئنان إلى وجود الآبار والحصول على الماء اللازم[٧٨].

بدأ الهجوم في الصباح الباكر من ١٩١٥/٢/٣، في أثناء هبوب عاصفة هوجاء تسير بسرعة ٥٠ ميلاً في الساعة، وفي جو غائم، وساعد الحظ سريتين من السرايا العثمانية باجتياز القناة[٧٩]، على جسرين عوامين من الجسور التي جلبت مع الحملة. فتعالى تهليلها وتكبيرها على الضفة الأخرى، لكنه لم يلبث أن خفَتَ بعد وقوع أفرادها في الأسر، بينما غرقت بقية السرايا المهاجمة مع الجسور العائمة التي أقلتها بفعل المدفعية المعادية[٨٠].

كان الاعتقاد الذي سيطر على لب جمال أنه متى ظهر شبح الجند العثماني عبر قناة السويس

---

(٧٥) LAMMENS, Ibid. p. 222.

(٧٦) محب الدين الخطيب، جعفر العسكري، ص٨.

(٧٧) G. GAUZEROT, Ibid. p. 26; A. I. SABIS, Ibid. II, p. 165.

(٧٨) مجلة الحرب العظمى، ج٥، ص١١. الطاهر الزاوي: ص١٩٤ ـــ ١٩٥.

(٧٩) A.I. SABIS, Ibid. II, p. 165؛ محمد كرد علي، المصدر السابق، ج٣، ص١٣٦.

(٨٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٢، ص٢٠، عن المصادر الإنكليزية.

ستندلع ثورة الشعب المصري في طول البلاد وعرضها[٨١]، فيصبح الانكليز بين عدوين أحدهما داخلي والثاني خارجي، وأن الثورة الداخلية هي التي ستساعد الأتراك على طرد الانكليز، والاستيلاء على مصر[٨٢]. وهذا هو الأمل الذي تعلق بأهدابه بديلاً للاستعداد الكافي الذي أخفق في تحقيقه، فبرهن بذلك عن قصر نظر شنيع، لأن المصريين لم يثوروا، ولم يتجاوبوا مع هجومه. وهكذا لم يحاول الأتراك معاودة الكرة حتى أصلتهم المدافع الانكليزية، من الضفة الثانية، نيراناً حامية زرعت الرعب في صفوفهم. واشتركت طائراتهم ودوارعهم متعاونة تعاوناً وثيقاً في المعركة، فارتد الأتراك على أعقابهم بغير انتظام. ثم أعقب ذلك نسف بقية الجسور التركية الملقاة على الضفة الشرقية، وتدميرها من قبل مدفعية السفن الإنكليزية والفرنسية، خوفاً من عودة الأتراك إلى استعمالها، فيما إذا فكروا في معاودة الهجوم[٨٣]. كانت القناة نفسها، بعرضها الكبير، حصناً قوياً يمنع كل قوة مهاجمة من النجاح في عبورها[٨٤]، فكان للترك، والحالة هذه، أن يفكروا في الموقف. عندئذ بادر جمال باشا إلى عقد اجتماع ضم الكولونيل فون فرنكنبرغ، رئيس أركان الجيش، والكولونيل فون كريس رئيس هيئة أركان الفيلق، وعلي فؤاد الرئيس الثاني لهيئة أركان الفيلق. وقد أبدى الكولونيل فرنكنبرغ رأيه بوجوب الخروج حالاً من خط القتال، لإنقاذ البقية الباقية من الجيش والانسحاب بانتظام. ولما سأل جمال باشا الكولونيل فون كريس رأيه قال إنه لا ينتظر نجاحاً أبداً، «ولكن الحمية والمرؤة تقضيان بأن يحمل الجيش كله على القناة ولو ذهب عن آخره، وذلك خير لنا من النكوص على أعقابنا». وأعلن عن رغبته في متابعة القتال، فقال جمال بأنه إذا لم يكن هناك أمل في النجاح فإنه يرفض أن تراق دماء الجند والضباط في سبيل الشرف المحض والمرؤة. وصحت عزيمته على الخروج من المعركة وأمر بالانسحاب[٨٥]، في مساء اليوم نفسه (١٩١٥/٢/٣) يجرر أذيال الخيبة! بعد أن عجز جيشه عن الصمود والبقاء على ضفة القناة أكثر من يوم واحد، علماً بأنه لم يساعدهم على التقدم نحوها إلا لجوء الإنكليز إلى سحب جميع قواتهم من الضفة الشرقية وتركيزها في الضفة الغربية[٨٦]. وقد بلغت خسارة الترك ما يقارب ٢٠٠ جندي وضابط من القتلى، و ٦٠٠ من الجرحى، وهرب وأسر

---

(٨١) COLONEL LAMOUCHE, Ibid. p. 362.

(٨٢) مجلة الحرب العظمى، ج٥، ص١١، مذكرات جمال باشا، ص٢٦٦.

(٨٣) COMTE DE GONTAUT- BIRON, Comment La France s'est installée en Syrie, p. 36; LAMMENS, Ibid. II, p. 223.

(٨٤) مجلة الحرب العظمى، ج٥، ص١١.

(٨٥) علي فؤاد، المصدر السابق، ص١٤٧ ــ ١٥٨.

(٨٦) A.I. SABIS, Ibid. II, p. 165.

ما يقارب ألف رجل. ولو تابعهم الانكليز إلى الضفة الشرقية لأنزلوا بهم كارثة مفجعة[٨٧]. وعندما وصل جمال إلى فلسطين أصدر بلاغاً رسمياً جاء فيه «إن القوات العثمانية انتصرت انتصاراً عظيماً على القوات الإنكليزية» تغطية لفشله الذريع[٨٨].

عاد جمال من حملة السويس غاضباً مضطرباً حاقداً لا يلوي على شيء: غاضباً لأن الأحلام التي زينت له عرش مصر وكأنه بين يديه قد خابت، علاوة على عار الهزيمة والفشل، ومضطرباً لأن أعداءه في الآستانة أخذوا يوجهون إليه سهام النقد المرّ، ويذيعون بين الناس أخبار فشله مصحوبة بالتهكم اللاذع، قائلين كيف يجرؤ جمال على العودة من القناة، وهو الذي طالما صرح وتبجح، وأعلن على رؤوس الأشهاد بأنه عقد النية على أن لا يعود إلى الآستانة إلا وقد فتح مصر وطرد الانكليز منها[٨٩]. بل لماذا عاد حياً وهو الذي قال في خطابه، عند مغادرته الآستانة، أنه إذا لم تتحقق غايته فسيجعل من جثته جسراً يعبر عليه من بقي وراءه من أبناء وطنه المخلصين ليحرروا مصر. ألم تكن مهمته طرد الإنكليز أو الموت، فلماذا لم يمت، لماذا عاد حياً؟[٩٠] إن من يطالع مذكراته يلمس أثر هذا الاضطراب في رده على خصومه، ذلك الرد الذي طفح بالمغالطات الغريبة، إذ يقول إن الحملة قد حققت غايتها في كونها مجرد مظاهرة حربية ترمي إلى إرغام الإنكليز على تجميد ٢٠٠ ألف جندي في مصر، بحيث اضطروا إلى تأخير حملة الدردنيل، وحرموا جبهتهم الغربية من هذه القوى الضخمة[٩١]. ومع ذلك نراه ينفث سموم حقده على الشريف حسين ـــ لأنه حجب عنه معونة قوة من المتطوعين العرب بقيت في المدينة بقيادة نجله الأمير علي، بعد أن وعد بأن تسير للالتحاق بالحملة مع فرقة الحجاز بقيادة وهيب باشا ـــ وقد كال له الشتائم، ووصمه بالخيانة التي لا تغتفر بحق العالم الإسلامي، وحمّله مسؤولية فشل الحملة[٩٢]. وهكذا وقع في تناقض غريب، إذ كيف تحقق الحملة غايتها من كونها مجرد مظاهرة حربية كما يقول، ثم تفشل بسبب إحجام قوة من المتطوعين لا قيمة لها تذكر من الوجهة الحربية، إذا قيست بالجيش النظامي ومعداته الحربية الحديثة. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يكتم جمال ضغينته على العرب، لأنهم لم يقدموا لحملته الجمال

---

(٨٧) LAMMENS, Ibid. II, 223.

(٨٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٢، ص٢٠، عن المصادر الإنكليزية.

(٨٩) محمد كرد علي، المصدر السابق، ج٣، ص١٣٦.

(٩٠) I.H. DANIŞMEND, Ibid. p. 421، مذكرات جمال باشا، ص٢٣٧.

(٩١) CAMAL PAŞA, Ibid. p. 171-175؛ مذكرات جمال باشا، ص٢٦٧ ـــ ٢٧٥.

(٩٢) مذكرات جمال باشا، ص٢٣٨، النسخة التركية، ص١٥٦.

اللازمة للنقل، أو قدموا منها مقداراً لا يفي بالمطلوب، وأخذ يتساءل كيف لا يمكن الحصول على ١٢ أو ١٥ ألف جمل في بلاد كسورية والحجاز، في حين أن مئات الآلاف، بل الملايين من الجمال موجودة فيها ؟[٩٣] ثم يبالغ في مغالطاته، ويردد أن خيانة الحسين هذه، عدا عن كونها قد منعت تحقيق ذلك المشروع الجليل، فإنها قد أوجدت الشقاق بين الأختين الإسلاميتين : الأمة العربية والأمة التركية[٩٤].

مع ذلك إذا أمعنا النظر في مذكرات جمال باشا نشاهد أنه نفسه لم يكن مقتنعاً بنجاح حملته إذ يقول «ومع أنني لم أكن واثقاً من النجاح النهائي ــ لعلمي بمناعة الاستحكامات الإنكليزية في القناة ــ فإنني أخذت على عاتقي أن أبث في نفوس أفراد الحملة الإيمان اليقين بإمكان ظفرها، فصرت أحادث من أصادفه من وحداتها في كل مناسبة وفي كل مساء عن النصر المرتقب وأنه سيكون نصراً مبيناً»[٩٥].

الواقع أن جمال باشا الذي كان يضمر، ورفاقه الاتحاديون، الحقد على العرب منذ زمن سابق، قد جعل من فشل حملته منطلقاً للتنكيل بأحرار العرب، والانتقام منهم، بدليل أن صفحة الخصام قد فُتحت على المكشوف أولاً بين الاتحاديين والشريف حسين، وثانياً بينهم وبين أحرار العرب من جهة أخرى، بالرغم مما بذله الجنود العرب في حملة السويس من الشجاعة والتضحية والإخلاص بشهادته هو نفسه، إذ يقول «لقد ساد بين رجال الحملة ــ لا فرق بين الأتراك والعرب ــ أعمق الشعور بالعطف الأخوي، ولم يكن منهم من يضن بحياته فداء لإخوانه ودفاعاً عن القضية المشتركة... فالحملة على القناة كانت إذن برهاناً ساطعاً على أن أغلبية العرب قد ضربوا المثل الأعلى من الارتباط قلباً وروحاً بمقام الخلافة الإسلامية»[٩٦]، وبشهادة المصادر الأميركية إذ تقول، «إن المسلمين السوريين أظهروا في معركة القناة من البسالة أكثر مما أظهره الترك»[٩٧].

وهكذا فإن جمال باشا، بعد فشله في حملة القناة، قد انقلب شخصاً آخر، وأخذ في سياسة التنكيل بالعرب، كما سيتبين معنا في الفصل الرابع من هذا البحث.

---

(٩٣) Camal Paşa, Hatiralar, p. 167؛ النسخة العربية ٢٦٠.

(٩٤) Camal Paşa, Ibid. p. 156؛ النسخة العربية ص٢٣٩.

(٩٥) Camal Paşa, Ibid. p. 170.

(٩٦) Camal Paşa, Ibid. p. 169؛ النسخة العربية، ص٢٦٤.

(٩٧) مجلة الحرب العظمى، ج١٣، ص١٥، نقلاً عن المصادر الأمريكية.

الفصـــل الثالـــث

إجراءات الحرب العسكرية والانهيار الاقتصادي وأثرها في الانفصال

قانـون التكاليـف الحربيـة

لم تكد تركيا تشترك في الحرب حتى بادرت إلى اتخاذ التدابير التي يقتضيها الموقف. وأول ما فعلته في هذا الشأن تطبيق قانون التكاليف الحربية، ذلك القانون الذي كانت قد سنته قبل ثلاثة أشهر ونصف (١٤ تموز ١٩١٤). وقد جاء فيه أن السلطات العسكرية هي التي تتولى الإشراف على جمع ضريبة «التكاليف الحربية»، وتحدد مناطقها، بناء على اللزوم، اعتباراً من تاريخ إعلان التعبئة العامة، بحيث يتم في كل منطقة تشكيل لجنة باسم «لجنة التكاليف الحربية» من أكبر موظف إداري فيها رئيساً، وأكبر موظف مالي، وأكبر آمر عسكري (أو إذا لم يوجد فمن أكبر آمر للدرك) أعضاءً، إلى جانب عضو منتخب من كل من المجلس الإداري ومصلحة البلدية. وتكون مهمة هذه اللجنة الاستيلاء على الأرزاق والمؤن والحيوانات وسائر الأشياء الضرورية لسير عجلة الحرب، بعد أن يترك للسكان ما يكفي حاجتهم منها. وتعطى لأصحابها وثائق موقعة من أعضاء اللجنة، وعلى تلك الوثائق لائحة بأنواع المواد المستلمة وكمياتها وأثمانها[1]، إذ يقوم أعلى رئيس إداري في المنطقة بتشكيل لجنة أخرى مؤلفة من أعضاء مجلس الإدارة والبلدية وغرفة التجارة فيها، مهمتها وضع تعرفة الحاجيات والأشياء الخاضعة لأحكام ضريبة «التكاليف الحربية»، بحسب الأسعار

---

(١) دستور، ترتيب ثاني، مجلد٦، رقم ٤٦٦ (١٤ تموز ١٩١٤) ص١٠١١؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١١، ص٨.

الدارجة، وتنظيم قوائم جديدة بها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وإيداعها الجهة الإدارية المختصة. وبناء على هذه القوائم تثبت في الوثائق المعطاة للأهالي قيمة الأشياء المستولى عليها منهم، بحيث يدرج بمجموع المبالغ التي تتضمنها هذه المحاضر، في كافة أرجاء المملكة خلال سني الحرب بكاملها، في ميزانية أول سنة مالية تلي السنة التي تنتهي فيها الحرب لتدفع إلى مستحقيها حينذاك(٢).

في الواقع كانت اللجنة تذيل هذه المحاضر بعبارة تفيد بأن القيمة ستدفع بعد ستة شهور من نهاية الحرب(٣). ولم يستثن من هذا القانون إلا العثمانيون الذين اضطروا إلى ترك مناطقهم بسبب الاحتلال الأجنبي، والتجأوا إلى الولايات العثمانية الأخرى، إذ صدر قانون نص على أن يُدفع للأشخاص المذكورين كامل المبلغ المدون في محاضر الضبط التي يحملونها، إذا لم يتجاوز عشرة آلاف قرشاً ذهبياً (مئة ليرة ذهبية). أما إذا تجاوز ذلك فيدفع لهم، علاوة عليه، نصف ما يتجاوزه فقط، وذلك من مخصصات التعبئة العامة(٤). وقد صدر هذا القانون بعد سنة ونصف من دخول الدولة الحرب. وفي العام السابق لعام انتهاء الحرب أصدرت الدولة قانوناً يقضي بأن تُعطى صغار الحيوانات (مواليد الخيول، البغال، الحمير ...) الموجودة لدى القطعات العسكرية، والتي لا يمكن بيعها بالمزاد العلني، لطالبيها من الفلاحين مجاناً بدون ثمن، بعد حصول القناعة بأنهم سيُعْنَون جيداً بتربيتها(٥). ولم تفكر الحكومة بإزالة الغبن عن أصحاب العلاقة إلا في آخر سنة من سني الحرب، إذ سنت القانون الذي يقضي بتخويل لجان «التكاليف الحربية» دفع ثمن المستولى عليه فوراً ونقداً، بشرط الحصول على كتاب من السلطة العسكرية يبين الحاجة الماسة للأشياء المستولى عليها، على أن تخضع معاملة الاستيلاء لتصديق مجلس الوزراء(٦). والملاحظ أن هذه القيود الأخيرة، التي لم يخطر على بال الدولة أن تضعها في بادىء الأمر، لم تفكر بها إلا أخيراً، وهي لو وضعتها منذ ابتداء الحرب لخففت نوعاً ما من وطأة هذه التكاليف.

كانت «التكاليف الحربية» شديدة الوطأة على السكان، لا لأنها شملت كل مادة وكل شيء فحسب، بل لأن أسلوب تطبيقها جاء عَسُوفاً صارماً منفراً بعيداً عن روح الإنصاف، إذ أسرفت

---

(٢) دستور، ترتيب ثاني، المجلد نفسه والصفحة نفسها.
(٣) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص٥.
(٤) دستور، ترتيب ثاني، مجلد ٩ رقم ١٠٨، /١٩١٦/٢/٦/ ص١٦٨.
(٥) المصدر السابق، مجلد ١٠، رقم ١٢، /١٩١٧/١٢/٤/، ص١٥.
(٦) المصدر السابق، مجلد ١٠، رقم ١٣٥، /١٩١٨/٤/٨/، ص٤٤٩.

اللجان المكلفة بتنفيذها إسرافاً لا مبرر له، واحتجزت كثيراً من البضائع التجارية التي لا علاقة لها بالجيش، ولا فائدة له منها[7]. صحيح أن القوانين، لا سيما في أيام الحرب، جديرة بأن تُراعى وتُحترم، سيراً مع المصلحة العامة ومع سلامة الوطن، لكنها لا تكون كذلك إلا في حالتين: أولاً: أن تطبق بعدل وبدون عسف، وثانياً: أن تتقبلها نفوس السكان بخالص الرضى، ولا يكون الرضى متوفراً ما لم يشعر السكان بشعور الدولة، وهذا لا يكون إلا إذا كان ثمة مصلحة مشتركة. بيد أن هاتين الحالتين لم تكونا متوفرتين في البلاد العربية الخاضعة لحكم العثمانيين آنذاك. فالعسف والجور كانا موجودين، ذلك أنه بالرغم من تحديد الحكومة الأصول التي يجب أن تتبع في تطبيق «التكاليف الحربية»، كتعيين نوع الحيوانات الواجب الاستيلاء عليها، وأثمانها، واستثناء الحوامل منها، وعدم أخذ سوى ما يفيض عن حاجة السكان منها، فقد ارتكبت شتى أنواع المخالفات، ولم يؤبه لهذا التحديد[8]. ثانياً أن سكان الأقطار العربية قد تلقوها بكره ونفور، لعدم وجود المصلحة القومية المشتركة بينهم وبين حكومتهم، أو بالأحرى إن كان ثمة شيء من رابطة بينهم وبينها، وأعني رابطة الدين ورابطة الخطر المشترك والانتماء إلى «الجامعة العثمانية»، غير أنها أولاً لم تكن عامة، ثانياً قد عجّل العسف في انفصام آخر عروة من عراها منذ استيلاء الاتحاديين على الحكم، فلم تكن هذه الروابط إذاً بالدرجة التي تستسهل التضحيات الجسيمة في ظروف محلية قاسية وعصيبة، تنذر بمستقبل قاتم مجهول.

حقاً كانت هذه التكاليف مرهقة، فلقد استوفيت ضريبة الأملاك مع ضميمة بلغت ٥٠٪، وضريبة الأرض والعشر مع ٢٥٪، وفرض على كل شخص إعطاء ربع ما عنده من غنم وبقر وجمال وسمن وزيت حُصلت قهراً. وإذا كانت هذه النسب قد فرضت رسمياً، فإن ما أُخذ عسفاً بما يشبه السلب كان أكثر من ذلك بكثير، وكان كفيلاً بإثارة النفوس المخلصة لدولة الخلافة. فلقد بدأ رجال الأمن يغيرون على قطعان الماشية السارحة في الحقول، ويأخذونها بأجمعها باسم «التكاليف الحربية» ولم يستثنوا جمال البدو القريبين من المدن، فإذا ما خطر لأصحابها أن يراجعوا الحكومة مطالبين بردها كان نصيبهم أن يُزج بهم في السجن، ولا يطلق سراحهم إلا بعد أن يتبرعوا بنصفها، أما النصف الثاني فيعطى لهم به وثائق كالتي ذكرتها آنفاً[9]. وبهذه الطريقة اجتمع لدى الحكومة ما

---

(٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١١، ص٨.

(٨) فائز الغصين، المصدر السابق، ص٢٤.

(٩) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص١٢.

يزيد عن / ١٥٠ / ألفاً من الحيوانات، كما قال أنور باشا يوماً، بحيث لم يترك من الحيوانات في المزارع والحقول ما يكفي لأعمال الفلاحة، فضلاً عن فقدان الرجال بسبب سوقهم للجندية، فانحطت الزراعة، وتأخرت وقل القوت لفقدان الحبوب[١٠].

لقد شملت ضريبة التكاليف الحربية كل شيء مما يقتنيه الإنسان، أو يستهلكه، أو يملكه حتى عربات الجر ومبيعات المحلات التجارية. فكثيراً ما كان الضباط يدخلون إلى هذه المحلات، وقد يكسرون أبوابها إذا لم يكن أصحابها حاضرين، حتى إذا لم يجدوا شيئاً يأخذونه باسم هذه التكاليف أخذوا ما وقع عليه بصرهم من كلسات حريرية ومشدات للسيدات وغيرها. وقد بلغ الاستهتار بهم أن فرضوا مرة على تاجر ملابس عدداً من الحرامات، ولما ماطل في تقديمها داهموا مخزنه وأخذوا ما لديه منها ومن غيرها، وبعد أيام رأى التاجر بضاعته في مخزن آخر معروضة للبيع[١١]. ومن جملة ما فرض على السكان تقديم صفائح البترول المعدنية الفارغة، وأكياس الخيش الفارغة والمضربيات(*) والقمصان لكساء الجند، ومن خلت يده منها أُجبر على دفع بدل نقدي عنها. وكان التحقق من وجودها أو عدمه يجري بدخول المنازل والتفتيش عنها، حتى إذا رأى الجند ما يصلح لحاجة الجيش من أدوات البيوت وأثاثها، مثل الفرش واللحف والأواني النحاسية وغيرها، أخذوه عنوة بدعوى توفير الراحة لضباط الجيش[١٢]. وكثيراً ما يتعرض المرء لوشاية بوجود كميات من المواد المار ذكرها، أو من الحبوب أو اللوازم المختلفة عنده، فيأتي الجند إلى منزله ويضيقون عليه للإقرار بما عنده، أو يدخلون المنزل ويفتشون ويعبثون بأثاثه، فإذا لم يجدوا شيئاً مما أتوا من أجله، استعملوا الضرب والتعذيب لأخذ الإقرار بمحل وجودها. وقد يمتد التفتيش عن المادة المبحوث عنها إلى جميع أنحاء القرية، مع جلب المختار والوجهاء فيضربون ويعذبون، وأخيراً يغرّمون ثمن المواد التي كانت موضوع الوشاية، في حالة عدم العثور على شيء منها[١٣]. أما التاجر الذي تلمس السلطة منه محاولة للتهرب من تقديم ما طلب منه، فجزاؤه مصادرة جميع ما يملكه من الشيء المطلوب، فقد صودر من أحد التجار / ١٩ / ألفاً من الأكياس الفارغة على هذه الطريقة دون أن يدفع له شيء من

---

(١٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٦.

(١١) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص٢١؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، ح١٤، ص٧.

(*) المضربية لباس من قماش يحشى قطنا ويخاط معه، ويلبس فوق القميص شتاء.

(١٢) أنطون يمين، المصدر السابق ج١، ص٩٢ — ٩٣؛ فائز الغصين المظالم...، ص١٥ — ١٦.

(١٣) الأب كيريللوس قاضي، أربعون عاماً في حوران وجبل الدروز، ص٥٢.

ثمنها[14]، علاوة على إحالته للمجلس العرفي. كما كانت السلطات العسكرية تعمد إلى قطع الأشجار الحرجية والمثمرة، لا فرق، لاستعمالها وقوداً للقطر بدلاً من الفحم الحجري الذي فقد من البلاد، كما وضعت يدها على كثير من المساكن والفنادق والخانات والمدارس والأديرة والمساجد، لجعلها ثكنات عسكرية، أو لإنزال المجندين فيها، في أثناء سوقهم إلى الجبهات، وذلك بدون أجرة أحياناً[15].

لم يقتصر الأمر على تطبيق قانون «التكاليف الحربية» والنسب التي حددتها السلطات المحلية، بل تعدى ذلك إلى ما يمكن أن يقال عنه «جمع الإعانات». وكانت هذه متنوعة، فمنها إعانات النقود والحبوب بأنواعها، والدبس والزيت والزيتون والسمن والغنم والجمال والخيول والبغال والحمير والدخان والتبن والحطب، وحتى البسط والسجاد والصوف والجلود وكل شيء. وهذا كله علاوة على ما يؤخذ من هذه الأشياء باسم «التكاليف الحربية»، وعلى ما يُجبى من ضرائب كانت موجودة قبل الحرب مع ضمائمها المستحدثة. أما كيف كانت تؤخذ، فهذا ما يحدثنا عنه المحامي فائز الغصين إذ يقول «بدلاً من جلب وجوه القرى والقبائل والمدن، والسؤال منهم عن مقدرة الناس المالية والمقدار الذي يستطيعون أن يتبرعوا به للحكومة، كانت هذه تفرض على كل قرية مقداراً من هذه المواد، وترسل رجال الأمن لتحصيلها بالقوة من الأغنياء والفقراء على السواء. وقد يذهب نصفها إلى جيوب جباتها، وكل من يتوانى عن دفع الإعانة، تنتقم منه الحكومة شر انتقام»[16]. وأما عن جمع الحيوانات فإنه ينقل عن قائمقام حوران قوله له «إن الحكومة شرعت تعمل بطريقة الغزو وعهدت بهذه المهمة إليّ» ولما سأله فائز: وكيف ذلك؟ أجاب بأن مهمته أن يأخذ جميع أفراد الدرك معه، ويذهب، بعد منتصف كل ليلة، ليحاصر القرية التي يقصدها ...، حتى إذا طلعت الشمس، يدخل هو وبعض الأفراد إلى القرية، ويخرج جميع الخيل والبغال التي فيها، ويختار أحسنها، ويعطي ببعضها وثائق، ليُدفع ثمنها بعد انتهاء الحرب، وبعضها الآخر يؤخذ بمثابة إعانة[17].

على أن الحكومة لم تكتف بكل ذلك، بل فرضت على النساء في القرى العمل لمصلحة الجيش، كتنظيف القمح وسائر الحبوب وطحنها. يذهبن برفقة الجند مجتمعات، وإذا ما ثارت الحمية في نفوس رجالهن، واعترضوا على هذا العمل، عمدت الحكومة إلى ضربهم وتعذيبهم، مما أثار

(١٤) فائز الغصين، المظالم...، ص١٣.

(١٥) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص٤٥ دكتور يوسف مزهر، تاريخ لبنان ص٥٨٨.

(١٦) فائز الغصين، المظالم...، ص١١ (مجلة الحرب العالمية الأولى ج٦، ص٢٢ تؤيد هذا القول).

(١٧) فائز الغصين، المظالم...، ص٦ ـ ٧.

أهل حوران في القطر السوري ، فصمموا على أن يعارضوا هذا العمل بالقوة إذا استمر . ولما علمت الحكومة بعزمهم اعتقلت كثيرين من زعماء هذه الحركة ، وزجتهم في السجن ، وعذبتهم ، وأقامت أفراد الدرك في دورهم يعبثون بالمفارش والأثاث والمؤن ، يخلطون الزيت بالسمن ، والقمح بالشعير ، والذرة والحمص والعدس ، ويذرونها على الأرض ، ويذبحون ما تصل إليه أيديهم من غنم ودجاج وغيرها ، ويأتون أفعالاً منفرة غايتها إلقاء الرعب في قلوب الناس[١٨] .

الدعوة إلى الخدمة العسكرية

كان قانون الخدمة العسكرية قد صدر في ١٩١٤/٤/٢٩ ، مؤلفاً من ١٥٣ مادة ، نصت الأولى والثانية منه على خضوع كل فرد من التابعية العثمانية لواجب الخدمة العسكرية الإلزامية ، على أن يكون قد أتم العشرين من عمره ، ولم يتجاوز الخامسة والأربعين ، ونصت المادة ٤٩ على إلغاء أصول إعفاء المكلفين ، بسبب عدم وجود معيل آخر لأبويهم ، وعلى الحكومة في هذه الحالة أن تدفع نفقة إعاشة لا تقل عن ثلاثين قرشاً ذهبياً شهرياً لكل فرد من أفراد عائلة المكلف الباقين بدون معيل بعد تجنيده . كما نصت المادة ١١٨ على إمكان دفع بدل نقدي مقداره خمسون ليرة عثمانية ذهباً مقابل الخدمة العسكرية الفعلية ، لكن المادة ١٢٢ حظرت قبول البدل النقدي اعتباراً من إعلان التعبئة العامة حتى عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية[١٩] . ولم يستثن القانون العثمانيين غير المسلمين من الخدمة العسكرية ولكنه استثنى أهل الحجاز واليمن ، ومتصرفية جبل لبنان ، والعشائر العربية[٢٠] . غير أن الدولة قد درجت على عدم استخدام المسيحيين في الجيش بصورة عامة بعد الهزائم التي منيت بها في حروب البلقان (١٩١٢ ــ ١٩١٣) . وقد أتاح إعفاء أهالي جبل لبنان من الخدمة العسكرية الفرصة أمام كثير من السوريين للحصول على بطاقات هوية لبنانية ، عندما أخذت السلطات المختصة في تنظيمها وتوزيعها على السكان اللبنانيين ، فتخلصوا بذلك من هذه الخدمة[٢١] .

وبناء على هذا القانون بادرت الحكومة ، إثر إعلان التعبئة العامة ، إلى دعوة كل فرد مشمول

---

(١٨) المصدر السابق ، ص١٣ .

(١٩) دستور ، ترتيب ثاني ، مجلد ٦ ، رقم ٢٩٦ (١٩١٤/٤/٢٩) ص٦٦٢ .

(٢٠) G. STITT, Ibid. I, p. 146 ; فائز الغصين ، المظالم ، ص٧ .

(٢١) المقتطف ــ تاريخ الحرب العظمى ج٥ ، ص٤١٤ ؛ أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٤٠ ــ ١٤١ .

بأحكامه إلى حمل السلاح، غير أن تنفيذ القانون جاء، في كثير من الأحيان، مخالفاً لأحكامه. فقد راح موظفو شعب التجنيد يتشددون في تطبيقها، ويستبدون في الناس، ويجندون كل من وجدوه قادراً على حمل البندقية، سواء كان أصغر أم أكبر من السن المحددة للتجنيد، صالحاً للخدمة العسكرية أم غير صالح[٢٢]. ومما ساعد على هذه الإجراءات كون قسم كبير من السكان غير مسجلين في سجلات النفوس، الأمر الذي جعل تقدير الأعمار وقفاً على أهواء الموظفين[٢٣]. كما بدرت منهم مخالفات حول قبول البدل النقدي، يتقاضونه من المكلف ويصرفونه إلى منزله، حتى إذا مضت أسابيع استدعوه ثانية وقالوا له «نأسف إنه قد وردتنا من قائد الفيلق أوامر برفض البدل العسكري». لكنهم لا يعيدون إليه ما دفع. كما كانوا يتقاضون الرشوات المغرية من أصحاب النفوذ، لقاء غضهم الطرف عن تجنيد ذويهم. وقد يتجدد طلب هذه الرشوة، ويتجدد دفعها، كلما خطر للمأمور المختص فكرة الابتزاز، فيقوم بتهديد أصحاب العلاقة بتجنيدهم، وبذلك يكنز الموظفون أموالاً طائلة عن هذه السبيل[٢٤]. أما عن كيفية سوق المجندين العرب إلى القطعات المعينين إليها فحدث ولا حرج. فقد كان نصيبهم قاطرات الحيوانات يشحنون فيها بعضهم فوق بعض، بينما الأتراك منهم يُنقلون في قاطرات الركاب[٢٥]. هذا عدا عن إجبار المجندين العرب، أحياناً، على حمل الأمتعة والتجهيزات الثقيلة إلى مسافات طويلة، بدلاً من نقلها على الحيوانات[٢٦]. وقد بلغ عدد الجنود الذين جمعتهم الدولة من القرعة العسكرية نحو مليون ونيف. وكان راتب الجندي التركي لا يزيد عن ربع ريال في الشهر[٢٧]. أما ما يخصص لأفراد عائلة المكلف الذي ترك والدين وأهلاً لا معيل لهم فلم تدفع لمستحقيها أكثر من شهرين أو ثلاثة، ثم عجزت الحكومة عن الدفع[٢٨]. وقد أصدرت الحكومة، فضلاً عن ذلك، قانوناً يقضي بإبعاد عائلات الجنود، الذين يفرون من الجندية، إلى أقصى البلاد، ولم تطبقه إلا في سورية، وعانت من جوره نساء الجنود المصونات، فكن يُنفَين إلى الأناضول، ولو كن حاملات وأمهات أطفال صغار، هن وجميع أفراد عائلة الجندي الفار[٢٩].

---

(٢٢) مجلة الحرب العظمى، ج١٥، ص٢٨.

(٢٣) A.I. SABIS, Ibid. I, p. 111.

(٢٤) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص٩١ — ٩٢.

(٢٥) المصدر السابق، ج٢، ص٥٨.

(٢٦) المصدر السابق، ج١، ص٩٢.

(٢٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٧.

(٢٨) فائز الغصين، المظالم، ص٢٦.

(٢٩) المصدر السابق، ص٤٠.

ما إن بدأت الحرب حتى أخذ الذعر ــ كما هو الأمر في كل حدث جلل مماثل ــ يدب في نفوس الناس، وبخاصة منهم التجار، وأصحاب المصارف، والمنتجين، وغيرهم من أصحاب الحرف والصناعات، وبدأ الدولاب الاقتصادي يميل إلى الاضطراب، ويزداد اضطرابه كلما تتالت الأيام وطالت الحرب، وكان على الحكومة في هذه الحالة أن تتخذ التدابير اللازمة لوقف هذا التدهور. لكنها لم تستطع، بما فعلته، أن تنقذ السكان من الكوارث التي أحدقت بهم، سواء لأن تدابيرها لم تكن جدية مخلصة، أو لأن موظفيها أساؤوا تطبيقها، أو لأن ما بدر من الذين استغلوا هذا الاضطراب من سوء النية قد زاد مهمتها تعقيداً، أو لأن كوارث الطبيعة والنوائب غير المنتظرة قد جعلت كل تدبير متخذ عقيماً. هذا عدا عن أن الحكومة لم تنظر إلى الخطر المحدق بعين التقدير الصحيح والاهتمام اللائق، ولم تشعر بشعور السكان شعوراً سليماً، بل كانت تدابيرها أقرب إلى السطحية منها إلى الحلول الأساسية. ذلك أنها لم تتنازل عن تشديدها في تطبيق قانون التكاليف الحربية إلا بعد فوات الأوان، ولم تضع حداً لسوء الاستعمال في تنفيذ موظفيها لأحكامه، ولم تعر مسألة التموين حقها من العناية.

فالتدبير الذي يذكره جمال باشا في مذكراته بشأن التكاليف الحربية قائلاً «وإذ كنت أعرف أن خير تدبير من شأنه أن يحوز رضى العرب هو أن لا يؤخذ شيء منهم باسم التكاليف الحربية، أو إذا أُخذ شيء أن يُدفع لهم ثمنه نقداً، كان أول أمر أعطيته عند وصولي إلى دمشق هو أن لا يؤخذ شيء من سورية وفلسطين وسائر منطقة الجيش الرابع، باسم التكاليف الحربية، أو أن يدفع سلفاً ثمن أي شيء يؤخذ، سواء أكان طعاماً أو ثياباً أو متاعاً، ولما لم يكن من العدل والمساواة أن يجري تطبيق هذا التدبير في سورية وفلسطين، بينما تؤخذ الأشياء من سائر المناطق العثمانية، ويعطى أصحابها إيصالات يجري تسديدها لهم في نهاية الحرب، كتبت إلى الحكومة في الآستانة أوصيها بتعميم هذه الطريقة»[٣٠]. غير أنه لم يصدر بذلك قانون سوى في آخر سنة من سني الحرب (٩١٨/٤/٨)، كما بينت في الصفحة الثانية من هذا الفصل، ولا يستطاع الجزم فيما إذا جرى تطبيقه فعلاً، وعلى كل حال تجمع كل المصادر التي بحثت في موضوع التكاليف الحربية، على أن القانون الموضوع بشأنها قد طبق على السكان بأساليب عنيفة منفرة، رافقها كثير من سوء

(٣٠) CEMAL PAŞA, Ibid. p. 229 ; الترجمة العربية، ص٣٤٥.

الاستعمال، أو بصريح العبارة كان نوعاً من عملية سلب ونهب . فهل أعطى جمال الأمر ولم ينفذ ؟ وهذا بعيد الاحتمال، أم أهمله بعد عودته من السويس غاضباً حاقداً على العرب ؟ وهذا هو الأرجح . يضاف إلى ذلك أن جشع الموظفين الأتراك، في البلاد العربية، الذين لم يكن لهم هدف سوى جمع المال بطريق الرشوة ـــ وقد فسحت لهم الحرب مجالاً أوسع مما كان لهم وقت السلم ـــ قد زاد الأمر سوءاً . وهكذا بقدر ما بقيت الحكومة عاجزة عن إيجاد الحل الملائم للأزمة الاقتصادية ظلت الأحوال في تدهور مستمر[٣١] .

لم تمض عشرة أيام على إعلان الحرب حتى بدأ الاضطراب، وكأنه انقلاب هائل، في حياة السكان . فبعد أن كان الفلاح في حقله، والعامل في معمله، والصانع في مصنعه، والناس عموماً يتابعون أعمالهم التجارية والمالية كالمعتاد، لم يعد يظهر شاب في الشوارع أو في الحقول، فمنهم من حمل السلاح ملبياً دعوة الجهاد، ومنهم من توارى عن الأنظار خوفاً من ملاحقة دائرة التجنيد له . لقد ساد الجمود كل مكان، وشُلت الأعمال، وبدت إمارات الخوف والقلق على وجوه النساء والأولاد والشيوخ، خوفاً من عجزهم عن تأمين قوتهم في الأيام الآتية، وأقفلت المصارف أبوابها أو كادت، وأُعلن الموراتوريوم[*] ، واختفى الذهب من الأسواق[٣٢] .

كان المدخرون والتجار قد بادروا، منذ اضطراب الحالة الدولية، إلى سحب مودعاتهم من المصارف . فلجأت الحكومة، منذ ٧ تموز ١٩١٤، إلى إصدار مرسوم بتأجيل دفع الديون، وتعليق دفع السندات (الموراتوريوم)، وحظرت سحب المودعات منها لمدة شهر، ثم اضطرت إلى تكرار ذلك مرات عديدة بلغت العشر، كان آخرها في أواخر عام ١٩١٧ . ولم تسمح بأن يدفع للدائنين إلا نسبة ضئيلة من ديونهم في كل تأجيل[٣٣] . كما أخذ كل من يملك نقوداً ذهبية يصر عليها ويخفيها، فارتبك الناس في أمور معاشهم، لفقدان النقد من الأسواق، فبادرت الحكومة مضطرة إلى اتخاذ بعض التدابير في هذا الشأن، ذلك أنها لم تكتف بالقانون الذي كانت قد أصدرته، قبيل دخولها الحرب، ومنعت بموجبه إخراج الذهب من البلاد[٣٤] ، بل اضطرت، فضلاً عن ذلك، إلى سك

---

(٣١) دوفتور رضا نور، المصدر السابق، ص١٩٢؛ لطفي سيماوي، المصدر السابق... ص١٠٧ .

(*) تأجيل أو تقليص المبالغ التي يمكن سحبها من الودائع في المصارف من قبل المدخرين .

(٣٢) مجلة الحرب العظمى ج١٦، ص٩، بقلم آنسة أمريكا قضت مدة الحرب في سورية ولبنان .

(٣٣) دستور، ترتيب ثاني، مجلد٧، ص٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٣٠٥، ٣٥٧، ٦٤٧، ٧٥٥، ومجلد٩، ص٧، ومجلد١٠ ص٣٠ .

(٣٤) المصدر السابق، مجلد٦، ص٣٦٧، رقم ٥٧١ تاريخ ١٩١٤/١٠/٢٣ .

نقود ورقية للدفعة الأولى في ١٩١٥/٣/١٧ ، بمبلغ يزيد قليلاً عن ستة ملايين ونصف المليون من هذه الأوراق ، تكون صالحة للتداول في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، سواء بين الأفراد والدولة ، أو بين الأفراد بعضهم مع بعض ، وتكون قيمتها الاعتبارية بمقدار ما يعادلها من الذهب ، أي ليرة ورقية بليرة ذهبية ، وكل مخالفة لهذا القانون ، بالامتناع عن قبولها على هذا الأساس ، تقع تحت طائلة العقاب بجزاء نقدي يتراوح بين ليرة ذهبية واحدة و ١٥ ليرة ، أو بالحبس من يوم إلى شهر . كما جاء فيه أن هذه الأوراق تبدل في الآستانة بما يعادلها من الذهب بعد ستة شهور من تاريخ انتهاء الحرب لمجرد إبرازها . أما إذا لم تبرز في نهاية خمس سنوات من التاريخ المحدد للشروع بقبولها ، حينئذ تصبح ملكاً للخزينة(٣٥) . ثم تكررت عملية سك النقود الورقية على مر الشهور والسنين ، خلال الحرب ، حتى بلغ مجموع الذي سكته الدولة منها ما يعادل ١٣٥ ــ ١٦٠ مليون ليرة ذهبية عثمانية(٣٦) . وكانت في كل مرة تضطر إلى ذلك تلجأ إلى عقد قروض مالية مع ألمانيا أو مع النمسا ، حتى بلغ مجموع ما استقرضته خلال الحرب ما ينوف على ١٨١ مليون ليرة ذهبية و ٨٠ مليون مارك ذهب من ألمانيا ، و٢٨٧ مليون كرون ذهب من النمسا(٣٧) .

كانت هذه القروض الذهبية تودع في البنك العثماني (وإدارته أجنبية) لتكون أساساً لتغطية النقد الورقي المسكوك ، ومع ذلك لم يحظ هذا النقد بثقة الجماهير ، بل أصبح غير مرغوب فيه حتى انخفضت قيمته الشرائية انخفاضاً مروّعاً(٣٨) . وبالتدريج وكلما لجأت الدولة إلى سك المزيد منه ، ازدادت قيمته انخفاضاً حتى انتهى الأمر إلى هبوط الليرة الورقية إلى خمس قيمتها الاعتبارية أو أقل . ولم تُجْدِ القوانين والبلاغات ــ التي صدرت بتحذير السكان من جريرة عدم قبول هذه الأوراق وفقاً لقيمتها الاعتبارية ، وبإنذارهم بالعقوبات الصارمة ــ(٣٩) في رفع قيمتها . فنتج عن ذلك أن رفع التجار أسعار بضائعهم إلى درجة فاحشة(٤٠) . كما اختلفت أسعار البضائع باختلاف النقد الذي يدفع ثمناً لها ، فإذا كان ورقاً زاد سعرها أكثر من خمسة أضعاف ما إذا كان الدفع ذهباً . أما الذهب فقد

---

(٣٥) المصدر السابق ، رقم٢٠٧ تاريخ ١٩١٥/٣/١٧ ، مجلد ٧ ، ص٥٦٠ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص٣٦٨ ، مجلد ٩ ، ص١٤ ، ٧٧ ، ١٣٧ ، ١٦٦ ، ٧٤١ .

(٣٧) المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص١٠٢٣ ، مجلد ٧ ، ص٧٧٠ ، مجلد ٩ ، ص٧٧ ، ١٣٧ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ٥٦٠ ، ٧٤١ .

(٣٨) فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص٩٥ ، دكتور يوسف مزهر ، المصدر السابق ص٨٥٤ .

(٣٩) دستور ، ترتيب ثاني ، مجلد ٦ ، ص٩١٤ .

(٤٠) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١١٨ .

اختفى من الأسواق، وكُنز في صناديق الأغنياء الذين دفعهم الجشع إلى طلب المزيد منه، ولجأ التجار إلى الاحتكار طمعاً في الربح غير المشروع[41]. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن جمال باشا لما رأى تدني قيمة النقد الورقي أذاع بلاغاً، باسم قيادة الجيش الرابع، هدد فيه الصيارفة وأصحاب البنوك والتجار من مغبة بخس النقد الورقي حقه، وعزا ذلك إلى الاحتكار والتلاعب بالبورصة، ووصف العملية بأنها مصطنعة، وأنه ليس بالاستطاعة إعطاء حد لها إلا بالشدة والصرامة، وأن تجربة سنتين أثبتت له «أن الصرامة أصبحت أمراً مقدساً»، وأنه يعد الشدة والصرامة فرضاً لأجل سلامة الجيش وفقراء الأهالي والوطن، ولكنه قبل المباشرة باستعمال الشدة يرى أن يتوجه إلى من يهمهم الأمر بالإنذار التالي:

يقوم الولاة والمتصرفون بجمع الذوات، وأصحاب الفعاليات الاقتصادية، ومديري المصارف، والأغنياء، وكبار التجار والصيارفة، وينذرونهم بلزوم التحسس بالواجب، واتخاذ التدابير الآيلة إلى مساواة قيمة النقد الورقي بقيمة الذهب تماماً والشروع في تنفيذها. أما إذا خاب الأمل فيهم، وبقي الفرق بين النقدين حتى آخر مهلة وهي ١٩١٧/٥/١٥، ولم تتساو أسعار شراء المواد بالنقدين الورقي والذهبي، بحيث لا يعود ثمة فرق في سعر السلعة سواء شريت بالذهب أو بالورق، فإنه سيُنفى بصورة الاقتراع عُشْرُ الذوات الذين مر ذكرهم، مع عائلاتهم، إلى الولايات العثمانية في الأناضول والروملي. وبعد تبعيد الفوج الأول بستة أسابيع تجري القرعة على عُشْرٍ آخر ممن بقي من الذوات، ويُبعدون بدورهم، وهكذا دواليك إلى أن يعاد النقد الورقي إلى قيمته. ويعترف في آخر البلاغ بشدة المصيبة قائلاً «إن مصيبة سورية وفلسطين في الحال الحاضرة، من جراء خفض قيمة النقد الورقي، بلغت درجة لا يمكن أن تكون مصيبة أشد هولاً منها»، لذلك فإنه قرر وضع حد لها[42]. ومع ذلك لم يؤبه لتهديده هذا، وظل الحال كما هو لأن ذلك لم يكن الحل الناجع لإعادة الثقة بالنقد الورقي.

الاحتكـــار

أُحب أن أقف لحظة طويلة عند الاحتكار لأقول إن جميع طبقات السكان، من كل بلد من

(٤١) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص١٢، بقلم آنسة أمريكا.

(٤٢) فائز الغصين، المظالم السورية، ص١٧٧؛ لوثردب ستودارد، المصدر السابق، ص٣٩٠ ـ ٣٩١، بقلم شكيب أرسلان.

البلدان العربية، أحست بالضيق والضنك الناتج عن الغلاء، إلا طبقة التجار الأغنياء الذين احتكروا كل أنواع البضائع، ولم يتورعوا عن احتكار مواد الغذاء الأساسية للحياة، وراموا الغنى ولو على أشلاء مواطنيهم الذين أضناهم البؤس والعوز. لقد اغتنم هؤلاء الرأسماليون الفرصة السانحة فاحتكروا كل ما طالته أيديهم. فكل السكر في مدينة كبيروت مثلاً كان محتكراً في مخازن تاجر ثري واحد فقط، فَضَّل أن يصيبه العطب على أن يبيعه بالسعر الذي لا يُرضي جشعه، في حين لو تركت هذه الكمية حرة في الأسواق لكفت المدينة طيلة الحرب. وفي أوائل الحرب احتكر تجار يهود أغنياء من حلب قسماً عظيماً من البضائع الصوفية والقطنية في البلاد، وأرسلوها إلى بغداد والآستانة وغيرها، تاركين بذلك الأسواق السورية محرومة تماماً من كل ما يمكن ابتياعه منها، ولو بثمن فاحش[٤٣]. على أن بعض أعمال الاحتكار كانت تحصل بسبب خوف بائعيها من أن تمتد إليها يد السلطة العسكرية بالمصادرة، فصاروا ينقلونها إلى بيوتهم لعلها تنفعهم في الأيام السود الحالكة[٤٤]. وليت الأمر اقتصر على احتكار السلع الكمالية غير الضرورية لحياة الناس، إذاً لكانت البلية أهون شراً. غير أن بعض من غارت في قلوبهم الرحمة، من تجار بيروت وسورية وفلسطين والعراق، تجاوزوها إلى خزن الدقيق، واحتكاره ليبيعوه عند الطلب الشديد بأغلى الأسعار، بحيث أصبح الفقير لا يستطيع الحصول حتى على الخبز فقط. ولو أن الأمر اقتصر على كون ما يبيعون بأسعار فاحشة شيئاً يؤكل حقاً لكان ذلك أهون الشرين، إنما الأدهى والأمرّ أنهم كانوا يعرضون للبيع شيئاً لا هو بالدقيق ولا هو بالتراب، وإنما هو وسط بين الإثنين: مزيج من التراب والدقيق الأسود، ومع ذلك كان الناس يتهافتون على شرائه رحمة بصغارهم ونسائهم وشيوخهم من أن يموتوا جوعاً[٤٥].

لعل سائلاً يسأل: وأين هي الحكومة وما هو عملها؟ الواقع أنها كانت في واد والشعب في واد، إن صادرت شيئاً فباسم التكاليف الحربية، أو حاول موظفوها إعطاء حد للاحتكار كانت الرشوة دواءهم، يقدمها لهم التجار الجشعون، فتتعاون الدولة والتجار على بؤس الفقير، وبدلاً من أن تلجأ إلى تحديد الأسعار، وإحداث دائرة للتموين جديرة بحل الأزمة، كانت تلجأ إلى تدابير تزيد في العبء ثقلاً، ذلك أنها كانت قد رفعت التعرفة الجمركية من ١١ إلى ١٥٪، اعتباراً من

---

(٤٣) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص١٢، بقلم آنسة أمريكا.

(٤٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٢٢.

(٤٥) مجلة الحرب العظمى، ج١١، ص١٥.

١٩١٤/٩/١٧[٤٦]، بناء على اتفاقات عقدتها مع الحلفاء قبل الحرب؛ لكنها ما إن دخلت الحرب وأصبحت في حل من التقيد باتفاقياتها السابقة حتى زادت في هذه النسبة إلى أن بلغت عدة أمثال ما كانت قد اتفقت عليه، بحيث تجاوزت نسبة الضريبة الجمركية على بعض المواد مئة بالمئة. وبدلاً من أن تلجأ إلى تخفيف الأعباء عن كاهل السكان، لجأت بالعكس إلى مضاعفتها حينما وضعت قانوناً بوضع رسم استهلاك على السكر والبترول والشاي والقهوة، والمثابرة على استيفاء الضميمة الإضافية على أجور البرقيات والرسائل، وعلى أثمان التبغ بحجة دعم المؤسسات الصناعية وتأمين الأموال الضرورية لتمويل المؤسسات العلمية، وتعليم أبناء الشهداء. كما عمدت إلى استيفاء ضريبة تعداد الأغنام مضاعفة[٤٧].

غير أن هذه المواد: السكر، الشاي، القهوة، الأدوية، علب الثقاب، الورق، الأقمشة كانت قد فقدت من الأسواق، أو قلّت وأصبحت نادرة منذ ابتداء الحرب، ذلك أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين تركيا والحلفاء، وامتنعت بواخر هؤلاء عن دخول الموانىء العثمانية، ضربت أساطيلهم الحصار على الشواطىء العثمانية وأكثرها عربية[٤٨].

وهكذا لم يعد هناك من وسيلة لجلب البضائع الأجنبية، فانقطع ورود هذه السلع. وقد بلغ الاستهتار والعسف حداً أن جمرك بيروت أغلق أبوابه، بالرغم من احتوائه على بضائع بأكثر من مليون دولار، لم يستطع أصحابها تخليصها واستخراجها منه[٤٩]. وفي وقت قصير اختفى ما كان موجوداً في مخازن التجار من مختلف البضائع، بحيث شمل الاحتكار كل شيء: الزيت، السمن، الصابون، البصل، الرز، وكل ما له علاقة بالمعيشة، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، حتى بلغ سعر ذراع الخام أو القماش الرديء ليرة عثمانية ورقاً، ناهيك عن الصوف أو الجوخ فإن سعر المتر منهما كان يتراوح بين ثماني ليرات وخمس عشرة ليرة. أما الأحذية فلم يكن يستطيع المرء أن يشتري الزوج منها بأقل من عشر أو خمس عشرة ليرة[٥٠].

---

(٤٦) دستور، ترتيب ثاني، مجلد ٦، ص١٢٧٦، رقم ١٧٦.

(٤٧) المصدر السابق، مجلد ١٠، ص١٧٩، رقم ١٠٥.

(٤٨) فيليب حتي، المصدر السابق، ص٥٩٠؛ الدكتور يوسف مزهر، المصدر السابق، ص٨٥٤.

(٤٩) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص١٠، الكاتبة نفسها؛ حنا خباز وحداد فارس الخوري حياته وعصره، ص٢٧.

(٥٠) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١٥٣، عبد السلام الأدهمي، نضال القومية العربية، ص٣٢ — ٣٤.

وإذا استعرضنا أسعار بقية السلع في لبنان، في تلك الفترة، نشاهد أن ثمن الأقّتين(*) من القمح قد بلغ ١٦ قرشاً ذهباً في السنة الأولى، و٢٠ قرشاً ذهباً (٥٠ قرشاً ورقاً) في السنة الثانية، و٣٤ قرشاً ذهباً (١٣٥ قرشاً ورقاً) في الثالثة، و٦٠ قرشاً ذهباً (٢٥٠ ــ ٣٠٠ قرشاً ورقاً) في الرابعة. وهنا يتضح لنا أمران: الأول أن ثمن القمح كان في تزايد مطرد، والثاني أن قيمة الأوراق النقدية كانت في تدنٍ متزايد من سنة إلى أخرى. وعلى قياس القمح كانت ترتفع أسعار الحاجيات الأخرى، فقد بلغ ثمن الرطل من اللحم نصف ليرة ذهباً، وليرتين ونصف ورقاً، ورطل السمن ليرة واحدة ذهباً، أو خمس ليرات ورقاً. أما الرز والسكر والقهوة فقد حُرمها الناس بتاتاً كما قدمت[٥١]. وقد نتج عن ذلك أن أغلب الناس أصبحوا عاجزين عن شراء شيء إلا الضروري للحياة، فأهملوا شراء الأثاث وأدوات المنزل المختلفة، واقتصدوا في شراء الملابس، والتفتوا إلى تدارك ما يسكّن آلام الجوع، وليتهم يجدون الشيء اليسير منه. وهكذا تعطلت الصناعات، وأُغلقت المعامل، وضيق صغار التجار دائرة أشغالهم إلى الحد الأقصى، وتكتلت الأعمال التجارية في أيدي جماعات محدودة العدد من كبار التجار المحتكرين. وأما في الأرياف فلم تُبقِ العسكريةُ من الرجال من يعنى بالزراعة وإنتاج الغلال، وإذا زُرع شيء منها فليس من يُعنى بحمايته وحفظه بحيث بلغ ثمن ما كان يتلف منها آلاف الليرات الذهبية، فقلت الحبوب وبدأت المجاعة بالانتشار ولم يشعر بالفاقة والعوز فقراء الناس ومتوسطوهم فحسب، بل جميع الطبقات، حتى أولئك الذين عاشوا بترف قبل الحرب[٥٢].

لم يقتصر الأمر على الجشع يصدر من بعض الناس الذين لا ضمير لهم، بل تعدى ذلك إلى الكوارث والنوائب تأتي من الطبيعة. ذلك أنه ما إن مرت الأشهر الأولى من الحرب، ولم تكن الحالة قد بلغت حد التأزم بعد، إلا وقد فوجىء الناس، في مطلع شهر نيسان ١٩١٥، بأرجال الجراد جاءت بكثرة لم يسبق لها مثيل، تحجب نور الشمس عن الأبصار، وانقضّت على الزرع والشجر والثمر لم تترك أخضرَ ولا يابساً إلا التهمته، ولم يسلم من بلائها أي قطر من الأقطار العربية. وقد

(*) الأقة: من الأوزان التي كانت دارجة في العهد العثماني ومقدارها كيلوغرام واحد وثلث (٤٠٠ درهم)، أما الرطل فوزنه أقّتان ونصف.

(٥١) لطف الله البكاسيني، المصدر السابق، ص٣٦٠ ــ ٣٦١؛ أنطون يمين المصدر السابق ص١٥٤.

(٥٢) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص٩١٤، بقلم آنسة أمريكية.

بلغ سمك الطبقة التي غطت بها الأرض في بعض الأمكنة كالبقاع علو ذراع أو أكثر، ولم تَجْلُ عن البلاد ــ في أواخر تموز ــ لتعيد الكرة في العام التالي، الذي كان في غاية القحط، إلا وقد تركتها جرداء بلقعاً. من ذلك الأوان أخذت أسعار الحاجيات تتصاعد تصاعداً جنونياً دام في اطراد مستمر إلى نهاية الحرب(٥٣).

وقد شمل الغلاء بصورة خاصة القمح الذي بدأت أسعاره بالارتفاع منذ شباط ١٩١٥، بعد أن كانت قد تصاعدت أسعار باقي الحبوب كالعدس والحمص والفاصولياء والشعير والذرة والرز والسكر وزيت الكاز وغيرها. إلا أن الارتفاع الجنوني في أسعاره لم يبدأ إلا بعد موجة الجراد. عندئذ بدأ الناس يشعرون حقاً بسوء المصير، وبالمستقبل القاتم، فيما إذا طالت مدة الحرب(٥٤). وقد زاد الأزمة استفحالاً أن منتجي القمح في أهم مناطق الجيش الرابع ــ حوران والكرك وغيرهما ــ صاروا لا يبيعون شيئاً منها سواء للأهلين أو للتجار المحتكرين أو للحكومة إلا بالنقد الذهبي(٥٥)، إذ كانوا لا يعرفون أوراق النقد العثماني، وإن عرفوها فإنهم لا يعترفون بها، ولا يقبلونها ولا يخافون من فظائع جمال باشا، بل كان جمال نفسه يخاف أن يلتحق أهالي الكرك والحوارنة بالجيش العربي في الحجاز، لذلك كان مضطراً أن يدفع لهم ثمن القمح ذهباً، ليستطيع تموين جيشه المحارب في جبهة فلسطين. وهذا ما جعل الغلاء يتضاعف ويستفحل شره، لعدم وجود الذهب إلا بيد أغنياء التجار المحتكرين والحكومة(٥٦). ومما زاد الأمر سوءاً هو أن رسل الثورة العربية في أواخر عام ١٩١٧ بدأوا ــ عندما أخذت الثورة في قطاف ثمار انتصاراتها في التقدم نحو سورية ــ يتغلغلون في مناطق حوران وجبل العرب، ويحرضون السكان على عدم بيع قمحهم للجيش التركي، بل للإنكليز الذين أصبحوا يدفعون الذهب بدون حساب. وهكذا وقع الترك والألمان في أزمات ومشاكل معقدة، بحيث لم يعد يصيب الجندي أكثر من مئة غرام من الخبز يومياً. لهذا بادر المشير فون فالكنهاين إلى طلب المال لشراء كميات القمح الموجودة في حوران والجبل والبالغة ٢٥ ألف طن، فأجيب إلى طلبه فوراً واشترى القمح، لكنه بدلاً من صرفه على إعاشة جنود الجبهة أخذ في شحنه إلى ألمانيا عملاً بأوامر

---

(٥٣) لطف الله البكاسيني، المصدر السابق، ص٤٨٩؛ أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١٠٣ ــ ١٠٤.
(٥٤) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص٩٤.
(٥٥) حسين حسني أمير، يلدريم، ص٧٢.
(٥٦) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص٧٦.

أركان حرب دولته[٥٧] . فكان على القوات العثمانية أن تعمل على تدارك كميات غيرها وتحرم السكان من قوتها الضروري .

المجاعـــة وضحـايـاهـا

إن الغلاء لم يكن وقفاً على منطقة معينة في البلاد العربية بل كانت كلها ــ من العراق إلى سورية إلى فلسطين إلى لبنان ــ في الخطب سواء . وحتى الآستانة نفسها لم تسلم من المجاعة بسبب الغلاء ، وفقدان المواد الغذائية[٥٨] . وإذا كانت بادية الشام وبقية العربان ، وخاصة أهل حوران وجبل العرب ، لم يتأثروا كثيراً بالفقر والحرمان ، بل بالعكس فتحوا بيوتهم وقلوبهم لاستقبال اللاجئين الجياع ، وخففوا عنهم بعض ما كانوا يعانون[٥٩] ، فإن لبنـان والمناطـق الساحليـة ، كولايـة بيروت وجهات اللاذقية وفلسطين ، كانت أشد الأقطار العربية تأثراً بالغلاء والمجاعة . وأما لبنان وولاية بيروت فلم يعان أي قطر ما عاناه من البؤس والشقاء ، وكانا ضحية الحرب حقاً . والسبب في ذلك موقع لبنان الجغرافي وطبيعة أراضيه القاحلة ، وقلة موارده من الحبوب والمواد الغذائية ، واضطراره إلى الاعتماد في تموينه على البلاد العربية المجاورة ، ثم هبوط سعر الحرير ــ الذي كان اللبنانيون يُعْنَـوْن بإنتاجه وتربية دودته ــ هبوطاً مروعاً أدى إلى كارثة اقتصادية ، وربما كان ذلك بسبب وضعه العام من حيث نقمة الأتراك على أغلبية سكانه من المسيحيين ، الذين كانوا يتهمونهم بالخيانة والاتصال مع الأجانب ضد الدولة ، فعمدوا إلى تجويعهم بحجز الحبوب عنهم[٦٠] .

فمن جهة شح مورد لبنان من حبوب سورية الداخلية ، ومن جهة أخرى انقطعت عن أهاليه ــ بسبب حالة الحرب ــ التحويلات المالية التي كان يرسلها إليهم ذووهم من المهاجر الأمريكية والمستعمرات الإنكليزية ، إذ كان عدد كبير من اللبنانيين يعيشون من الأموال التي ترسل إليهم عن هذا السبيل . ويعود سبب انقطاعها إلى القانون الذي أصدرته الدولة ، وحرمت به التعامل بالحوالات المالية المسحوبة على مصارف لندن ، وكان ٩٩٪ من حوالات اللبنانيين تسحب على هذه

---

(٥٧) جمال باشا الصغير ، كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب ، ص٩٨ ، ١٠٦ .

(٥٨) ماري ملز باتريك ، المصدر السابق ، ص١٣٣ ، ١٣٧ .

(٥٩) حنا أبي راشد ، جبل الدروز ، ص٨٣ ــ ٨٤ .

(٦٠) ل . ن . البكاسيني ، المصدر السابق ، ص٣٥٧ ــ ٣٥٨ ؛ مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص١٨٥ .

المصارف. لذلك كان أصحابها يعرضونها للبيع بنصف قيمتها ولا من يشتريها[٦١]، ناهيك عن حرمان المنطقة من واردات موسم السياحة والاصطياف. وأما الحكومة فكأنها لم تكتف بما نُكب به هذا القطر، فعمدت إلى تجريده من أبدع تكوين حباه الخالق به وأسبغته الطبيعة عليه، عندما أقدمت على قطع أشجاره وأحراجه لتجعل منها وقوداً للقاطرات التجارية بدلاً من الفحم الحجري[٦٢].

كانت الحبوب الواردة من سورية إلى لبنان، على قلتها، لا يُسمح بنقلها إليه إلا بوثائق موقعة من متصرف جبل لبنان، أو والي بيروت. وكثيراً ما كانت هذه الوثائق موضوع متاجرة، بحيث تباع من قبل الذين يحصلون عليها (بالنفوذ أو الإغراء، مثل الوجهاء وكبار رجال الأعمال والغانيات ونساء المجتمع الراقي) إلى كبار الأغنياء المحتكرين بأثمان باهظة ليتاجروا بقوت الشعب، فيرفعون الأسعار على هواهم[٦٣].

هنالك من اتهم جمال باشا بأنه هو صاحب فكرة منع الحبوب عن لبنان ليشعر سكانه بوطأة الجوع، وتنكيلاً بأهله جزاء إخلاصهم للدولة الفرنسية وكرههم للدولة العثمانية. وقد يكون ثمة شيء من ذلك، حتى أن بعض العقلاء المخلصين لعثمانيتهم قد نصحوه بوجوب الإقلاع عن سياسة التجويع التي يتبعها مع السكان[٦٤]. إلا أن الضرورة الماسة لتموين الجيش وأهالي سورية قد اقتضت أيضاً مثل هذا الإجراء، ولم يُحظر إرسال الحبوب إلى لبنان فقط، بل إلى فلسطين أيضاً، واقتصر الحظر على سنة واحدة هي سنة ١٩١٥، لأن ما كان في سورية منها تلك السنة لم يكن يكفي لإعاشة سكانها بسبب الجراد الذي داهمها، ولكن على أن تُصدَّر للبلدين المذكورين في الموسم التالي[٦٥]. غير أن غزارة الأمطار، وتراكم الثلوج على الجبال الفاصلة بين لبنان والمناطق الداخلية، في فصل الشتاء، وعرقلتها الاتصال بين المنطقتين، يزيدها صعوبة فقدان وسائط النقل من العربات والحيوانات التي استولى عليها الجيش، ونشاط دوريات الأمن التي كانت تصادر حتى الكميات القليلة (التي يتجاسر المواطنون وينقلونها على ظهورهم عبر المنطقتين) بداعي حاجة الجيش للقمح،

---

(٦١) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص١١، بقلم آنسة أمريكية.

(٦٢) فيليب حتي، المصدر السابق، ص٥٨٩.

(٦٣) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١٢٨.

(٦٤) دكتور سامي الدهان، محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان، ص١٥.

(٦٥) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٣١.

وكونها منقولة بدون رخصة، قد زادت في شدة الضائقة التي نزلت بلبنان وسببت له كارثة المجاعة(٦٦).

ولقد زاد الأمر سوءاً الإجراءات الصارمة التي لجأت إليها الدولة ضد اللبنانيين الذين يتوجهون إلى سورية لابتياع الحبوب. ذلك أن اللبنانيين كانوا، قبل الحرب يتمونون بالحبوب من حوران، إذ كان الحورانيون يحملونها على جمالهم ويبيعونها هناك، واستمر الحال كذلك حتى بعد نشوب الحرب. لكن الحورنيين، لما شرعت الحكومة بمصادرة كل جمل تجده في لبنان، امتنعوا عن نقلها إليه، فاضطر اللبنانيون إلى الذهاب بنفسهم إلى حوران لشراء ما يسد حاجتهم منها. عندئذ أخذت الحكومة تقبض على من تراه منهم في سورية بدعوى خضوعه للخدمة العسكرية، وما كانت تسمع شكواهم ولا تطلق سراحهم إلا بعد أن يدفعوا البدل النقدي البالغ خمسين ليرة عثمانية ذهباً، فامتنعوا بعد ذلك عن الذهاب لجلب الحبوب(٦٧)، علماً بأن الحكومة لم تكن تسمح بنقل الحبوب إليهم بالقطارات(*).

وهكذا فتكت المجاعة بلبنان، إذ ضاقت بأهله موارد الرزق، وضؤل الدخل، وحلت بهم ضائقة خانقة بلغ من أهوالها أن السكان حينما نفد ما بأيديهم من المال لشراء الدقيق أو الخبز أخذوا في بيع أمتعتهم البيتية، فكنت ترى في الأسواق إلى جانب الأمتعة النفيسة ـــ كالطنافس والفرش واللحف الوثيرة وكراسي الخيزران والمرايا الثمينة التي ينزلها الميسورون إلى أيدي الباعة ـــ القدور والصحون والكراسي الخشبية والمناضد وغيرها من التي ينزلها الفقراء(٦٨).

كان المرء إذا فرغت يده من النقود يبتدىء بأرضه يبيعها ـــ إذا كانت له أرض ـــ ثم بما يقتنيه

---

(٦٦) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص٩٤؛ ل. ن. البكاسيني، المصدر السابق، ص٣٥٩.

(٦٧) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص٣٨.

(*) قدم اللبنانيون عريضة إلى جمال باشا يشتكون من فقدان القمح فأجابهم أن كميات كبيرة منه موجودة في مناطق حماه وحمص، وأن باستطاعتهم أن يشتروا حاجتهم منه، فجمعوا ٣٢ ألف ليرة ذهبية توجهت بها بعثة منهم إلى حمص، لكنها ما إن اشترت ودفعت الثمن حتى بادر جمال باشا ـــ عندما أعلمه موظفوه بذلك ـــ إلى الايعاز بمنع نقل القمح بالسكة الحديدية لأنها محتكرة للنقليات العسكرية، كما أوعز بمنع نقلها بواسطة الجمال لأن هذه تنقل الأرزاق والمهمات إلى الجيش فاضطر اللبنانيون إلى تسليمها للحكومة، لكنهم بدلاً من أن يستردوا نقودهم الذهبية سلمت لهم الحكومة نقوداً ورقية بعد ما استولت على القمح (CORRESPONDENCE D'ORIENT 10 Décembre. 1916, p.460)

(٦٨) الخوري أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١١٤، مجلة الحرب العظمى ج١٦، ص١٠.

في بيته من الأثاث غير الضروري أولاً ، ثم تمتد يده إلى الضروري حتى إذا باعها بأبخس الأثمان ، أي ما قيمته ألف بمئتين ، بادر إلى شراء القوت بأغلاها ، والسعيد الموفق من وجد لأثاث بيته مشترياً ، أو لأرضه مشترياً أو مسترهناً ، وهو مع ذلك يرضى مع من يرهنها عنده أن يستدين منه المئة بمئتين بل بثلاث بل بخمس لسنة واحدة ، وهو مدرك أنه قد فقد أرضه نهائياً ، لكنه يدرك أيضاً أنه إذا لم يحظ بالمال هلك وعائلته جوعاً(٦٩) .

أما المرابون الذين ماتت ضمائرهم ، ولم يفكروا إلا بالابتزاز وامتصاص دم الشعب البائس ، فقد لعبوا دوراً من أحط الأدوار وأقذرها ، ذلك أنهم رفعوا نسبة الفوائد على القروض إلى درجة غير معقولة (٧٠ ــ ١٠٠ ــ ١٥٠ ٪) . ولم يكونوا يسلمون المستدين قرشاً قبل الحصول على الضمانة الكافية بطريقة البيع بالاسترهان ، وذلك بأن يعقد بين الطرفين سند موثّق لدى الكاتب بالعدل بأن المستدين قد رهن أرضه أو حانوته أو بيته ، أو أي ملك ثابت آخر عند الدائن ، لقاء دين واجب الأداء في مدة معينة . فإذا عجز المدين عن وفائه في الوقت المعين يصبح العقار المسترهن ملكاً شرعياً للدائن . أما المبلغ الذي يستلمه المستدين لقاء هذا الاسترهان : فلا يساوي على الأكثر عشر الثمن الحقيقي للعقار المسترهن(٧٠) .

وهكذا امتلك كثيرون ، ملكية دائمة ، عقارات كثيرة بثمن بخس ، لأن المدينين لم يكن بوسعهم قط أن يعيدوا ما استدانوه ، بسبب الحاجة التي تدفعهم ، دفعاً مستمراً ، إلى طلب المزيد من النقود ، وبيع المزيد من المقتنيات . فإذا سلم المرء بعافيته حتى نهاية الحرب ، ولو صفر اليدين ، عُد من السعداء . الواقع أن بيوتاً كثيرة لم يبق فيها شيء مما له ثمن ، وبعضها بيعت أخشاب نوافذها وأبوابها ، وما على سطحها من آجر وما في سقوفها من خشب ، ولو كان في الإمكان بيع حجارتها لبيعت ، وذهب أصحابها يضربون في مشارق الأرض ومغاربها ، يلتمسون القوت فيلاقون الموت جوعاً . والسعيد المحظوظ من يستطيع أن يجد عملاً متواضعاً ، ولو مكنساً للشوارع بعد أن كان سيداً مرموقاً(٧١) .

أما النساء فقد شرعن في بيع حليهن ، ثم أثوابهن الثمينة ، فكسوتهن حتى يكَدْنَ لا يبقين ما يستر أجسامهن . وكنتَ تلاقي في الأسواق الأطفال ، صبياناً وبنات ، عراة لا يستر عورتهم شيء ،

---

(٦٩) ل . ن . البكاسيني ، المصدر السابق ، ص٣٦١ .

(٧٠) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ، ١٣١ ؛ ل . ن . البكاسيني ، المصدر السابق ، ص٣٦٢ .

(٧١) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص١٨٦ .

يرتمون على وجوههم في الأرض أينما قادتهم أقدامهم، معرضين للحر والبرد والأمطار ليلاً ونهاراً[٧٢].

وإذا رمنا وصفاً ناطقاً وحياً، عن الحالة التي وصل إليها لبنان، من المجاعة والبؤس، وجب علينا مراجعة ما كتبه الخوري أنطون يمين اللبناني كشاهد عيان: «انزل إلى المدينة تبصر هناك شيوخ لبنان وأطفاله، ورجاله ونساءه يسارعون من أعلى الجبال إلى الشوارع والأسواق، جاثين يئنون من ألم البرد القارس والجوع المهلك، يقفون وينظرون إلى الجهات الأربع مستغيثين وليس من يناولهم كسرة من الخبز، ولا حفنة من الدقيق، ولا فلذة من فضلات الطعام... هناك في الأسواق عويل الصغار الجائعين، هناك في الأزقة أنين الشيوخ المدنفين، هناك على الطرقات دموع الأمهات يعللن بها أطفالهن، هناك في الشوارع ومنعطفاتها الشباب منطرحون وهم غائبون عن الصواب لشدة جوعهم...، هناك في الساحات الأولاد يبحثون في القمامات، علّهم يعثرون على قشور الفاكهة وعلى العظام القذرة، هناك في أسواق الخضار النساء يلتقطن فضلات الأعشاب والأوراق الذابلة، هناك تحت منازل الأغنياء الزفرات والأنات، هناك أشباح المساكين تتكلم بلسان الحزن والألم...،

«... وأسفاه أنظر إلى أولئك المساكين، إنهم يتساقطون هنا وهناك كأوراق الخريف،.... تتلاشى أجسامهم عضواً عضواً فيموتون تباعاً عراة حفاة يساعد البرد الجوع في اختطاف أرواحهم الطاهرة، وتتراكم جثثهم في كل الأماكن والزوايا»[٧٣].

صحيح أن الحكومة فكّرت في معالجة الوضع فشكلت شركة «بيروتية — لبنانية» عُهد إليها بجلب الحبوب وبيعها بأسعار معتدلة إلى ذوي الفاقة من أهالي بيروت ولبنان، وأحدثت مستودعاً خاصاً لتلك الحبوب في كل مركز من مراكز القائمقامية. لكن الذين كلفوا بتوزيع الحبوب كانوا أناساً فطروا على الطمع واللصوصية، فأخذوا يسرقون كميات كبيرة منها، يضعون مكانها تراباً يمزجونه بما بقي منها، فاغتنى كثير منهم عن هذه الطريق. ولم تكن تلك الشركة لتسد عوز الشعب، ولا سيما أن الحكومة لم تسمح بجلب القمح من المناطق الداخلية إلا بكميات قليلة، فضلاً عن أن بعض الأغنياء أخذوا يزاحمون الفقراء على الاستفادة من هذه الحبوب. هذا في جبل لبنان، أما في بيروت فقد عمدت البلدية إلى توزيع الدقيق على الأفران، ثم خصصت من يوزع الخبز على بيوت المعوزين، إذ أصاب الفرد ما يقارب أوقية واحدة (٢٠٠ غرام) في اليوم وسموها «الجراية اليومية»، غير أن التوزيع لم يكن منتظماً، إذ يتم يوماً وينقطع يومين، فضلاً عن أن الموزعين كانوا يختلسون

(٧٢) ل. ن. البكاسيني، المصدر السابق، ص ٣٦٢.

(٧٣) أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص٦ — ٧.

نصف الكميات المخصصة للشعب[٧٤] . كما أُنقص وزن «الجراية» فيما بعد، كما أُنقص عدد من يتناولونها من أفراد العائلة، فأصبح لكل شخصين جراية واحدة في اليوم، ثم لكل ثلاثة أشخاص جراية واحدة، ثم أضحت ثلاث دفعات فقط كل أسبوع، ولكل ثلاثة أشخاص أو أربعة جراية واحدة. أما الخبز الموزع فلم يكن يعرف تركيبه أهو خبز شعير أم كرسنة أم ترمس[٧٥] .

وفي محاولة لإصلاح الوضع التمويني أُلغيت الشركة المذكورة، وأُقيم بدلاً عنها شركة مساهمة مغفلة ساهم فيها الأغنياء بقيمة / ٢٥٠ / ليرة عثمانية للسهم، بحيث اجتمع لديها في ١٩١٦/٦/٨ رأسمال بلغ /٢٥/ ألف ليرة عثمانية. وبدأت الشركة بجلب الحبوب وتوزيعها على السكان لكن الذي لوحظ أن الشركة إذا باعت الفقير الجائع ست أُقات باعت الغني ستة قناطير، وقد وزعت من الحبوب ثلاث دفعات فقط، ثم توقفت بداعي نفاذ ما لديها من الحبوب، بعد أن تسربت القناطير منها، وتكدست في أهراء التجار المحتكرين. أما الرئيس الذي عين لها فقد كان ممن فسدت ضمائرهم وانحطت نفوسهم، فلم يلبث أن دفع للمساهمين ثمن أسهمهم، واستأثر لوحده بالشركة، عندما رأى أن أرباحها فاحشة، ليستغلها لنفسه، وليتلاعب بمقدرات الشعب على هواه، بحيث إذا ورد للشركة خمسة ملايين من الكيلوات لم يوزع منها سوى نصف مليون، وأما الشكايات فلا من يسمعها، بل كان النفي أقل ما ينزله متصرف الجبل (علي منيف بك التركي) ـ الذي جاء خلفاً لأوهانس باشا، بعد أن ألغى الأتراك نظام الجبل المستقل إدارياً وألحقوه بالدولة إلحاقاً مباشراً كباقي الولايات ـ بمن يعترض على وجود مدير الشركة على رأسها[٧٦]، لأن التواطؤ كان تاماً بين حكام الجبل وولاة بيروت الأتراك، وبين أغنياء لبنان ووجهائهم. وكان هؤلاء يتملقون الولاة والحكام وكبار الموظفين، ويشتركون معهم في استغلال قوت الشعب وأرزاقه[٧٧] .

لذلك كان على اللبنانيين البؤساء أن يأكلوا، بدلاً من الخبز، ثمر البلوط والخرنوب وجذور النباتات والأعشاب التي تأكلها البهائم، ومما يُروى أن امرأة من إحدى القرى بقيت أربعين يوماً بلياليها في حرش قريب تقتات من عشب الأرض. لقد أكل الناس من لحم الجرذ والهررة والكلاب وقشور الليمون الحامض والبرتقال، يبحث بعضهم عنها وعن غيرها من بقايا الطعام أو قشور

(٧٤) المصدر السابق، ج١، ص٩٥ ـ ٩٧ .

(٧٥) المصدر السابق، ج١، ص١٣٣ .

(٧٦) المصدر السابق، ج١، ص١٢١ ـ ١٢٦ .

(٧٧) المصدر السابق، ج٢، ص٢٤ ـ ٢٥ .

الخضار والفواكه في القمامات، وحتى بذور المكانس والقنب طحنوها وصنعوا منها خبزاً. وكان الجياع إذا قشّر أحد برتقالة في السوق تسابق عشرة منهم أو أكثر إلى القشرة والبذور يلتهمونها بنهم ما بعده نهم. كان هؤلاء يبحثون حتى في روث الدواب عن حبة الشعير، كما لم يكن أحد يجسر على الأكل علانية، وإلا اجتمع حوله عشرات منهم لا يستطيع دفعهم عن طعامه. ولم يعد أحد يأمن أن يرسل عجينه إلى الفرن ما لم يحتَـط لذلك بجميع الوسائل، خوفاً من أن تختطف أرغفتَه أيدي الجياع[٧٨]. وقد أدى الجوع ببعض العذارى إلى بيع عفافهن برطل من القمح أو الشعير فامتلأت بيوت الدعارة بمن أصبحن عواهر ومومسات بفعل الجوع والحرمان[٧٩].

أما النهب والسلب والخطف والتعدي على باعة الخبز في الأسواق فحدث عنها ولا حرج، فلم يبق أحد يأمن على ماله وبيته وحانوته، بل يقوم على حراسته ليلاً ونهاراً. وقلّ من نجا من سرقة متاعه وماله. كما تألفت عصابة لصوص تغتصب الأرزاق والأطعمة والأموال علناً، أو تغتال ذوي الأموال ثم تسلب أموالهم، أو ترسل إليهم الإنذارات لدفع المبلغ الذي تريده وتأديته في مكان تعينه، وإلا فالموت يكون نصيب من يمتنع عن تأديته. وكانت الحكومة أعجز من أن ترد التعديات، بل اعتبرت جرائم السرقة غير موجبة للعقاب، لأن الجوع هو العلة الطبيعية لها[٨٠].

لم يقتصر فتك المجاعة بالناس على جبل لبنان وولاية بيروت، بل شمل أيضاً كل البلاد العربية في المشرق كسورية والعراق وفلسطين. وقد بلغت وطأة الجوع ببعض البؤساء في بعض المناطق، ولا سيما في العراق وطرابلس الشام، إلى أكل اللحم الآدمي، كما أوردت عن ذلك بعض المصادر، ومنها جريدة «علمدار» التركية تحت عنوان «موائد الاتحاديين»، فتحدثت عن قصة محاكمة امرأة وزوجها في الموصل، أُخذا بجرم خطف الأطفال وذبحهم وأكل لحمهم، بعد أن كانا يطاردان الهررة والكلاب، لأكل لحمها حتى نفدت من الجوار. وذكرت الجريدة أن هيئة المحكمة قد قامت بتفتيش منزلهما فوجدت، في حفرة كانا يدفنان فيها عظام الأطفال، ما يزيد عن مئة جمجمة من جماجم هؤلاء[٨١].

ومما روي في هذا الصدد إقدام امرأة في قرية القلمون، كما إقدام أختين صبيتين في طرابلس

(٧٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد٣، ص١٨٦ ــ ١٨٧.
(٧٩) أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١٢٦.
(٨٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٨٨.
(٨١) ل. ن. البكاسيني: المصدر السابق، ص٣٦٥ ــ ٣٦٧.

الشام على مثل هذا الفعل. وقد وجدت هيئة المحكمة، التي تولت النظر في جريمة الأختين، ٢٤ جمجمة من جماجم الأطفال المذبوحين مدفونة في بئر مهجورة بمنزلهما.

وهناك قصص أخرى يقشعر لها البدن، روتها شتى المصادر عن أكل لحم الأطفال، في الحرب العالمية، أتورع عن سردها لغرابتها وبشاعتها[٨٢]. ومع ذلك فإن جمال باشا لم يزل يكابر، وينفي وجود مجاعة في البلاد. فقد ذكرت بعض المصادر أن وفداً تشكل وجاء لمراجعته بشأن المجاعة وفقدان المواد الغذائية وغلائها الفاحش، وبخاصة منها الخبز، فما كان منه إلا أن واجه أعضاء الوفد بهذا السؤال «هل أكلت الأم أولادها؟» ولما أجابوه بالنفي قال «إذن لا مجاعة في البلاد»[٨٣].

ضحايا الأوبئة

ومن الكوارث التي حلت أيضاً في سورية ولبنان والعراق وسائر الأقطار العربية، وبخاصة منها لبنان، انتشار الأمراض السارية، كالطاعون والكوليرا والتيفوس والزحار وغيرها[٨٤] من الأمراض التي فتكت بخمس سكان لبنان، كما يقول بعضهم. وكانت هذه الأمراض، لا سيما التيفوس، تتفشى في صفوف الجيش التركي، ثم تنتشر بين السكان. وقد لوحظت أول إصابة بهذا المرض على جندي بفرقة زحلة أصيب بها في آذار ١٩١٦، ثم انتقلت إلى الفقراء الضعفاء من أفراد الشعب. واشتدت وطأة الإصابات في شهر تشرين الثاني، كما كانت وطأة الجدري والكوليرا والزحار ثقيلة الوطأة على الجنود، يموتون بالعشرات والمئات بل الألوف، فترمى جثثهم في الأحراش والوديان طعاماً للوحوش، فيفسد الهواء وينتشر الوباء بشكل مخيف، ويعم القرى والمدن، بالرغم من الحجر الصحي الذي ضُرب على الأمكنة الموبوءة وعلى كل منزل فيه إصابة[٨٥]، فقد كان الذباب ينقل حمى التيفوئيد، والقمل حمى التيفوس، والجرذان عدوى الطاعون. وقد كثر البعوض وتكاثرت الوفيات من حمى الملاريا. وكان الناس يشربون المياه ملوثة بجراثيم الزحار[٨٦]. وهكذا تعاونت الأوبئة مع الجوع على

---

(٨٢) راجع عنها ل. ن. البكاسيني، ص٣٦٥ ــ ٣٦٨؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٨٨ ــ ١٨٩؛ الدكتور أحمد قدري: مذكراتي عن الثورة العربية، ص٦٣؛ فائز الغصين: المظالم في سورية، ص٨١.

(٨٣) راجع غانم: «الدرة الغانمية في الحرب الكونية، ص٢١٩، ٣٣٢.

(٨٤) M. ERZBERGER, Ibid. p. 94.

(٨٥) أنطون يمين، المصدر السابق، ج١، ص١١٩ ــ ١٢٠.

(٨٦) فيليب حتي، المصدر السابق، ص٥٩١.

الفتك بمئات الألوف من السكان في جميع الأقطار العربية . كل ذلك ولا أطباء ولا أدوية ، ذلك أن السلطات العسكرية قد استدعت ، من لبنان وبيروت وسائر المدن السورية واللبنانية ، جميع الأطباء الأذكياء النشيطين الماهرين لخدمة الجيش ، ووضعت يدها على جميع الصيدليات الوطنية ، وأخذت منها العقاقير . وقد قدر عدد ضحايا التيفوس وحده في بيروت ولبنان بما يقارب سبعين ألفاً(٨٧) .

أمام هذه المصائب ، بل المأساة التي حلت بسورية ولبنان ، اهتزت مشاعر السوريين واللبنانيين في المهاجر الأميركية وبقية أرجاء العالم . فشكلت فيها اللجان لجمع التبرعات التي صارت ترسل بواسطة الحكومات المحايدة كالولايات المتحدة قبل دخولها الحرب وإسبانيا(٨٨) وبوسائط أخرى . كما كانت الولايات المتحدة ، وقد قلقت لهلاك مئات الألوف من الجوع والمرض ، قد أخذت ترسل البواخر المشحونة بالمواد الغذائية والأدوية والبعثات الطبية بمعرفة الصليب الأحمر . لكن الحكومة التركية كثيراً ما كانت تعرقل وصول هذه الإعانات ، ذلك أن كثيراً من البواخر لم تستطع الوصول إلى الموانىء العثمانية . فالحكومة التركية وإن كانت قد سمحت للبعثات الطبية المنظمة ، من قبل الصليب الأحمر الأميركي ، بالتركز في بيروت إلا أنها أقامت العراقيل الكثيرة في سبيل وصول الأموال إلى المنكوبين(٨٩) . كما كان الإنكليز من جهتهم يحجزون في الاسكندرية البواخر التي تحمل الطعام والأرزاق والمعونات المختلفة التي يتبرع بها اللبنانيون في المهاجر المختلفة ، بداعي أنها إذا وصلت إلى لبنان وسورية فسوف يستفيد منها أعداؤهم . وهكذا إلى أن يفسد ما فيها من أطعمة وأغذية(٩٠) .

عـدد الموتـى

أما الموتى من الجوع في سورية ولبنان وفلسطين والعراق ، فيعدون بمئات الآلاف ، قدرهم بعض المطلعين ، في بيروت ولبنان فقط ، بما يزيد عن / ٢٠٠ / ألف نسمة ، وفي سورية / ١٠٠ / ألف نسمة(٩١) . وقد فقدت سورية والعراق عام ١٩١٧ وحدها ما لا يقل عن / ١٥٠ / ألفاً(٩٢) . وقدر بعضهم عدد ضحايا الجوع ، مضافاً إليها عدد ضحايا الحرب والأمراض

(٨٧) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣٣ .

(٨٨) راجع غانم ، المصدر السابق ، ص١٤٧ .

(٨٩) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ج١٦ ، ص١٥ — ٢٥ .

(٩٠) الدكتور يوسف مزهر ، المصدر السابق ، ص٨٥٣ — ٨٥٤ .

(٩١) فائز الغصين ، المظالم ، ص٣٨ — ٣٩ — ٤٣ .

(٩٢) مذكرات الدكتور أحمد قدري ، ص٦٣ .

الوبائية الفتاكة في سورية ولبنان فقط، بما يقارب من مليون ونصف مليون نسمة. بحيث لو ذهب أحد ما إلى قرى لبنان مثلاً، بعد انتهاء الحرب، يجد أن القرى قد أقفرت من سكانها. فالقرية التي كان عدد سكانها / ١٤٠٠ / لم يبق فيها إلا / ٢٠٠ / في القرية و/ ٦٠٠ / في الخارج، وقس على ذلك[٩٣]. وقدر بعضهم نقص سكان دمشق بما يقارب نصفهم[٩٤].

ويقدر بعضهم نسبة النقص في سكان سورية ولبنان خلال الحرب بما يتراوح بين ٣٠ و ٤٠٪. ولعل أصدق عملية إحصاء، جرت في هذا المجال، ما قامت به إرسالية أميركية بالنسبة لجنوب لبنان وصيدا من حيث الأضرار المادية والخسارة في الأرواح، فتبين أن ١٨٢ قرية بمساكنها البالغ عددها ١٠ آلاف مسكن، وبعدد سكانها البالغ ٧٧ ألف نسمة، تهدم منها ٢٥٠٠ مسكن في أثناء سنوات الحرب، وهلك ٣٣ ألف نسمة، وأن الـ ٤٤ ألف نسمة الباقيين: بينهم ١٦٤٠٠ فقير معدم و ٢٦٠٠ يتيم، وأن خسارة لبنان بلغت مئة ألف نسمة من مجموع ٤٥٠ ألفاً من سكانه[٩٥].

أما كيفية موت هذه الضحايا فمما تقشعر له الأبدان، يراهم الناس منطرحين في الطريق، وفي زوايا الشوارع يئنون ويتضورون من ألم الجوع ولا رحمة، بل يجتازهم المارة، ولا يلتفتون إليهم، ولا يعبؤون بهم، وقد تعثر بهم الأقدام فيجتازونهم غير آبهين. وبعض هؤلاء المساكين يطوفون في المدن الساحلية كبيروت وطرابلس تحسبهم، لشدة الهزال والضعف، خيالات أو أشباحاً بأثواب رثة، أو خرق ممزقة يبدون فيها وكأنهم عراة، وجوه شاحبة وعيون غائرة، وأعضاء ناحلة وألوان صفراء، وهم أشبه بالأموات منهم بالأحياء، يمدون يد التسول إلى كل إنسان ولا ينالون شيئاً[٩٦]. وقد قدر بعضهم عدد الموتى من الجوع في دمشق وضواحيها يومياً بـ ٥٠٠ نسمة. وروى بعضهم مشاهد تنعصر لها الأفئدة من الألم، منها أن جثث الموتى كانت تشاهد، في بعض الزوايا والشوارع، بالعشرات يحوم حولها الذباب حتى يأتي عمال مصلحة التنظيفات، يجرفونها إلى بعيد ثم يلقونها في

---

(٩٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٨٩.

(٩٤) فائز الغصين، المظالم، ص٦٤.

(٩٥) فيليب حتي، المصدر السابق، ص٥٩١.

(٩٦) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٨٩.

حفر بعضها فوق بعض خارج المدينة كما هي عليه[٩٧]. وكم من نساء شوهدن مائتات من الجوع وهن محتضنات أطفالهن الرضع على أثدائهن وكلهم جثث هامدة[٩٨].

قال جمال باشا المرسيني (الصغير)، في مذكراته التي أُطلق عليها اسم «كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب»، عن ضحايا المجاعة: «اشتدت وطأة الحر في شهر تموز ١٩١٧، فزادت في الألم الذي أشعر به من المناظر البائسة التي كانت تمر أمام أنظاري في شوارع بيروت، فإن هذه المدينة، التي أحببت شعبها من كل قلبي، كانت خالية تقريباً من السكان، لا ترى في شوارعها إلا نفراً قليلاً من الأغنياء الذين اشتروا حياتهم بالمال، أو بعض الفقراء يتقلبون على بلاط الشوارع هنا وهناك، يطلبون لقمة ليسدوا بها رمقهم فلا يجدون ما يقتاتون به، ويلتصقون في أماكنهم إلى أن يذهبوا ضحية الجوع، فيأتي عمال البلدية في اليوم التالي، وينقلونهم جثثاً هامدة إلى المدافن»[٩٩].

خلاصة القول إن إجراءات الحرب العسكرية، وانهيار الحالة الاقتصادية التي كانت السبب في المجاعة، وهلاك الناس بمئات الآلاف، قد أثرت تأثيراً سيئاً للغاية في العلاقات العربية ـــ التركية. فولدت الاستياء في النفوس بوجه عام، لأن تقاعس الحكومة من جهة، وعسفها في السكان من جهة أخرى، كانا ظاهرين للعيان، فساد الخوف وتَغَلْغَلَ الاضطراب في النفوس، وعمت البلوى فشملت جميع السكان.

قال حسين كاظم، وهو أحد كتاب الترك، كشاهد عيان: «اضطررت إلى البقاء في سورية من أول الحرب إلى آخرها، فكنت طوال مقامي فيها شاهداً على ما نزل بأهلها من ظلم وعسف ونكبات، حتى لقد سالت دموعي حزناً على ما شهدته من تردي الإنسانية في سربال المهانة. الحق أقول إن أهل سورية قد برهنوا، في أوائل أيام الحرب، عن عطف وميل نحو الأتراك، لكن مَنْ تَسلَّطَ، من موظفي الترك، على رقاب أهلها كانوا من الغفلة بحيث لم يعرفوا السبيل الصحيحة للاستفادة من هذه البادرة الطيبة. بل بالعكس فإنهم، بما أفسحوا من مجال لصنوف من الغدر والظلم الشديدين، قد نفّروا منهم ومن حكومتهم كل فرد من أفراد الشعب السوري. ذلك أنه كان

(٩٧) فائز الغصين، المظالم، ص٧٠؛ مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص١١٠.

(٩٨) CORRESPONDENCE D'ORIENT, 525 Sept. 1916 p.319.

(٩٩) جمال باشا المرسيني، المصدر السابق، ص٦.

بين كبار الموظفين من عمدوا ـــ بدلاً من التفكير في تأمين قوت الشعب بما يستطاع من اليسر ـــ إلى الاشتراك، مع زمرة جشعة من أهل البلاد الظلام، في احتكار مواد التموين من قمح وسكر وبترول، وتقاسموا المنافع، وملأوا جيوبهم بالأموال على حساب قوت الشعب. وقد تردت الأحوال، في نهاية الأمر، إلى درجة أن الشعب العربي، بمسلميه ومسيحييه بلا استثناء، قد تمنوا لو يأتي أي كان ـــ حتى ولو كانت فرنسا أو إنكلترا ـــ لإنقاذهم من المصير القاتم الذي آلت حالتهم إليه»[100].

أنا لا أزعم أن كل البلاء الذي وصفته، وكل الكوارث التي سردت خبرها، قد وقعت من أول يوم من أيام الحرب، ولا ظهرت بوجهها المقيت المرعب من أول وهلة، ولا أنها السبب الوحيد لانتفاض العرب على الدولة العثمانية، منادين بالانفصال التام والاستقلال الناجز، إلا أن الذي ظهر منها في الأشهر الأولى من الحرب كان من الكفاية بأن ينذر بالشر المستطير الذي سيليه إذا طالت مدة الحرب. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ما وقع، قبل اندلاع الثورة العربية، كان كافياً لأن يكون من الأسباب الأساسية التي خمّرت فكرة هذه الثورة، إلى جانب مظالم جمال باشا الشخصية، وإرهابه، وفتكه بالعرب الأحرار، خاصة وأن العرب لم يكونوا راضين في الأساس عن فكرة الدخول في الحرب، لعلمهم بما سيرافقها من ويلات ومصائب، وهذه هي الفكرة التي كان يعتنقها الأحرار الذين مالوا إلى الاستقلال الناجز، فور دخول الدولة الحرب. وما إن تردّت الأحوال وعمت المصائب حتى اغتنموها فرصة لكي يجاهدوا في سبيل تحقيق استقلال بلادهم.

---

(١٠٠) Y.H. BAUYR, Ibid. III, p. 214 استناداً إلى كتاب «انقلاب ١٠ تموز ١٩٠٨، ونتائجه» من تأليف الكاتب المذكور.

الفصـــل الرابـــع

نضال العرب الأحرار وإرهاب الطاغية أحمد جمال وأثرهما في الانفصـال

نضـــال العـرب الأحـــرار

لقد اعتاد معظم كتاب العرب، الذين كتبوا في تاريخنا القومي، القول بأن أحرار العرب ــ بعد إعلان تركيا الحرب ــ قد أوقفوا نشاطهم السياسي، ولم يحركوا ساكناً في سبيل مطالبهم القومية التي كانوا يناضلون في سبيلها قبل الحرب، إلى أن نصب جمال باشا مشانقه للشهداء منهم، وبدأ بحركة إفناء لمنوريهم وأذكيائهم[1]. وقد دفعهم إلى هذا القول أمور عديدة منها: إما عدم تقصي الحوادث والتعمق في البحث، أو إظهار العرب بمظهر المخلصين للجامعة الإسلامية التي كانت تربطهم بالترك، أو إبعاد أي شبهة باتصالهم وتعاونهم مع الدول الأجنبية التي تحارب الدولة، أو إمعاناً في تجريم الاتحاديين بإظهارهم بمظهر الطغيان والعسف بدون سبب موجب، أو تبرئة العرب من كل محاولة للخروج عن نطاق الدولة العثمانية، وبالتالي من كل وصمة يمكن أن تجر عليهم تهمة الخيانة والانفصالية.

وقبل أن أحاول كشف ما استطعت أن أعثر عليه من حقائق توضح هذه النقطة، أود أن أقول إن ثبوت كونهم قد عملوا في سبيل مطالب أمتهم القومية، لا يعني مطلقاً أنهم قد ارتكبوا خيانة ما لدولة الخلافة. لأن الأفكار القومية كانت قد تخمّرت في نفوسهم إلى درجة أنها أضعفت صلتهم

---

(١) يوسف إبراهيم يزبك، مؤتمر الشهداء، ص١٢٩؛ أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٧١.

بالدولة برباط الجامعة الإسلامية ، ولأن الترك أنفسهم قد تحولوا فعلاً ، لا قولاً عن هذه الرابطة ، وذلك ما استوثق من صحته القوميون العرب الذين كانت لهم الكلمة الأخيرة . أما الرابطة العثمانية فغني عن القول أنهم اعتبروها وهماً تغنّى به الاتحاديون ، وجعلوها ستاراً لأغراضهم القومية . وأما تجريم الاتحاديين بالطغيان والعسف ، فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى نكران النضال الذي ثابر عليه أحرار العرب إثر إعلان الحرب . بل إن هذا النكران يقلل من قيمة استشهادهم ، إذ لعمري ما قيمة الشهادة إذا لم تكن تجسيماً للتفاني في الدفاع عن مبدأ يقف المرء حياته لتحقيقه ، بدون حساب لأي اعتبار آخر يدعوه إلى وقف نشاطه ؟

صحيح أنهم أوقفوا نشاطهم مؤقتاً ، واتخذوا موقف التريث ، حينما اكفهر الجو السياسي الدولي ، انتظاراً لما سينجلي عنه موقف الدولة العثمانية من الحرب ، وأظهر بعضهم غيرة عليها من أن تتناولها الأطماع الأجنبية ، كما يظهر من الكتب التي تبادلها بعض أحرار العرب ، والتي أشرت إليها في فصل سابق — وهم لو استطاعوا لمنعوها من دخول الحرب — غير أن دخولها فيها أحدث ارتباكاً في نفوسهم ، وأدخل الخوف والجزع إلى قلوبهم من أن تتعرض ولاياتهم للأخطار الشديدة ، فعقدوا العزم على بذل الجهد للوصول إلى غاية مزدوجة : استغلال الموقف لتحقيق استقلال بلادهم حفاظاً على كيانها وتجنيبها ويلات الحرب من جهة ، والعمل على منع وقوعها في براثن الاستعمار الأوروبي من جهة ثانية . فلما اجتمعت اللجنة العليا للجمعية « العربية الفتاة » وبحثت الأمر ملياً ، وبعد إنعام النظر والإحاطة بالموقف العام ، اتخذت قراراً يقول بأنه « نتيجة لاشتراك تركيا في الحرب ، أصبح مصير الولايات العربية في الدولة العثمانية معرضاً لخطر شديد ، ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها ، ومن المقرر أنه إذا تحقق أن للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد ، فإن الجمعية ملزمة بأن تعمل ، إلى جانب تركيا ، لكي تقاوم التدخل الأجنبي مهما تكن صورته »[٢] . وكذلك أصدر عزيز علي المصري ، مؤسس جمعية « العهد » وكان مقيماً في القاهرة ، تحذيراً لقادة الجمعية ، في الولايات العربية العثمانية ، من أن ينساقوا إلى القيام بعمل عدائي تجاه الدولة ، لأن دخولها الحرب سيعرض ولاياتها العربية للغزو ، وهذا ما يحتم عليهم الآن أن يقفوا بجانبها إلى أن يحصلوا على الضمانات الكفيلة بحماية هذه الولايات من المآرب الأوروبية[٣] .

---

(٢) أحمد قدري ، المصدر السابق ، ص٣٨ ، ج . كيرك ، المصدر السابق ص١٩٢ ، GEORGE ANTONIUS, Arab awakening, p. 152. الترجمة العربية الجديدة ، لكتاب أنطونيوس ، ص٢٣٨ (الترجمة القديمة المصدر السابق — ترجمة الركابي ص١٧٢) .

(٣) ج كيرك ، المصدر السابق ، ص١٩٢ ؛ أنطونيوس المصدر السابق (ترجمة الركابي) ص١٧٥ .

كان هذا في بداية دخول الدولة العثمانية في الحرب، إلا أن الأحداث الطارئة قد طورت موقفهم فيما بعد، ذلك أن الأوضاع الداخلية، مما أتيت على ذكره في الفصول السابقة، واتصالات ممثلي الحلفاء بزعمائهم في مختلف المناسبات(*)، وارتياب السلطات التركية من نياتهم قد آتت ثمرتها في زيادة الشقاق والخلف بينهم وبين الدولة العثمانية.

الواقع أن دخول الدولة في الحرب قد أحدث حالة جديدة في نفوس الأحرار ــ وهم ممن صنفتهم في الفئة الثانية في الفصل الأول من هذه الرسالة ــ إذ كانوا موقنين بضعف دولتهم، وقد خامرهم الشك في انتصار حليفتها ألمانيا على أعدائها، وأدركوا أن اندحارها نذير بزوال الإمبراطورية العثمانية وتقسيم الحلفاء لأراضيها، بما في ذلك البلاد العربية، وحينئذ تكون النتيجة وخيمة على العرب[٤]. لذلك ساءهم جداً ما فعله أنور وطلعت وغيرهما من رجال تركيا الفتاة، الذين زجوا بها في حرب طاحنة لا ناقة لها فيها ولا جمل، خلافاً لرأي عقلاء الترك، وجميع العناصر العثمانية، لا سيما العرب[٥]، فاندفعوا إلى العمل مخلصين، وانحصر نشاطهم في السبيل المؤدية إلى تعزيز كيانهم القومي سواء لحفظ هذا الكيان من أن تعبث به يد الترك ــ وقد تسوقهم مقتضيات الحرب إلى دفع العرب نحو الفناء وقوداً للحرب، كما كانت البوادر تدل عليه من إجراءات الحرب العسكرية والاقتصادية، حسبما بينت في الفصل السابق ــ أو لتفادي وقوعه فريسة للاحتلال الأجنبي مع سعي حثيث للاستقلال.

وهكذا نرى أن كتاب عزيز علي المصري إلى أعضاء جمعيته، وقرار الجمعية «الفتاة» المنوه عنهما، وإن لم يكونا قد دعيا صراحة إلى الانتقاض على الدولة العثمانية، إلا أن ما جاء فيهما لا يخلو من مغزى النضال. وفضلاً عن ذلك لم يكن ما طلبه عزيز من رفاقه، وما وضعته «الفتاة» من تحفظ، رفقاً بالدولة العثمانية، بل حرصاً على الولايات العربية من أن تتعرض للغزو الأجنبي[٦]، ومعنى ذلك أنه مع الحصول على الضمانات يمكن القيام بالثورة، وهذا هو الذي حصل فيما بعد. كما أرسل عزيز إلى ابن سعود أحد أعضاء جمعية العهد مندوباً عنها يستحثه على عدم التعاون مع الترك والعمل في سبيل القضية العربية[٧].

(*) سيأتي بحث هذه الناحية في الفصل الأول من الباب الثاني من هذه الرسالة.

(٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٧٦.

(٥) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٧١.

(٦) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٤١.

(٧) جلال يحيى، المصدر السابق، ص١٤٧.

وإذا كان موقف «العهد»، وهي إحدى الجمعيتين السريتين اللتين قادتا النضال العربي في تلك الفترة، قد بدا قليل الفعالية من حيث العمل السياسي، فإن نشاط الجمعية الثانية «العربية الفتاة» في هذا المجال كان أكثر فعالية وأكثر شمولاً، إنما أكثر تكتماً وحذراً. وكان يساعدها على ذلك النظام السري الدقيق الذي التزمته، سواء في تعيين أعضائها، أو في تنظيم علاقاتهم بعضهم ببعض، والتكتم الشديد في أمر وجودها. كانت «الفتاة» تشبه جمعية بيروت السرية التي أنشئت عام ١٨٧٥، إلا أنها تختلف عنها بكون أكثرية أعضائها من المسلمين، وبكونها تسعى إلى الاستقلال عن الترك دون أن ترتبط بالتبعية لأي دولة من الدول الأجنبية[٨]. كما تختلف عن جمعية «العهد» بكون أعضائها خليطاً من مدنيين وعسكريين وشبان وكهول. أما العهد فمقتصرة على الضباط إلا أفراداً معدودين من المدنيين، وتتفق معها في كونهما تستهدفان مصلحة العرب القومية العامة دون أية نظرة إقليمية، بل الشعور والعمل في جو أمة واحدة وكيان واحد. كما تختلف وتمتاز «العهد» عن الفتاة ببروز معنى التشكيل العسكري في تطور فكرة النضال العربي، واتجاهه اتجاهاً بعيد المدى شديد الخطورة، وبروز معنى العزم على الانتفاع من الفرص السانحة والإقدام على خطوات جريئة، كما سنرى عند ترك عدد كبير من ضباطها العرب صفوف الجيش التركي، والتحاقهم بصفوف الثورة العربية[٩].

غير أن نظرة نلقيها على تطور جمعية العهد تبين لنا أنه شبيه، إلى حد كبير، بتطور (العربية الفتاة) من حيث نشوؤها على فكرة اللامركزية الواسعة (الفدرالية) والبقاء ضمن الرابطة العثمانية، ثم تحولها عند نشوب الحرب إلى الانفصالية، كما يتجلى التشابه بين الجمعيتين في كون أعضائهما مزيجاً من أبناء الولايات العربية دون تفريق، مع ملاحظة أن أكثرية أعضاء العربية الفتاة من السوريين، وأن أكثرية أعضاء «العهد» من العراقيين. فمؤسسو «العهد» هم: الضباط عزيز علي (مصري)، سليم الجزائري (شامي) نوري السعيد (عراقي). وكان من الأعضاء الضباط: جعفر العسكري، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي، جميل المدفعي، تحسين علي، فؤاد المدفعي، تحسين العسكري، موفق الكامل، عيسى الوتري، يوسف حنظل، توفيق الدملوجي، عبد المجيد الانكرلي، مهدي الرحال، مولود مخلص، صبيح نجيب، علي جودة الأيوبي، نوري فتاح، عبد الله الدليمي،

(٨) من أجل جمعية «العهد» التي تأسست في ٢٨/١٠/١٩١٣ بمساعي عزيز المصري، راجع كتابي «العرب والترك» المصدر السابق ص٥٥٧.

(٩) محمدة غزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج١، ص٢٧ ــ ٢٨.

عبد الغفور البدوي، اسماعيل الصفار، يحيى الموصلي، شريف الشريف، محمد زكي البصري، رشيد الخوجه، يوسف العزاوي، إبراهيم أدهم البغدادي، حميد الشالجي. أما المدنيون فمنهم: ثابت عبد النور، مزاحم الباجه جي (وهما طالبا حقوق)، عبد الله الدملوجي (طالب طب)، عاصم الجلبي (طالب بدار الفنون)، وحمدي الباجه جي، وجميع هؤلاء من العراقيين. كما كان من أعضائها الضباط والمدنيون: محمود حلمي (طرابلسي)، ومصطفى وصفي، وعبد القادر سري، أمين لطفي الحافظ، يحيى كاظم أبو شرف، عارف التوام، علي رضا الغزالي، محمد إسماعيل الطباخ، خالد الحكيم، محي الدين الجبّان، صادق الجندي وجميعهم من السوريين، وعلى النشاشيبي من القدس. وكان عدد أعضائها كبيراً قد يكون نيفاً وثلاثمئة على قول بعض الروايات. وفروعها في العراق كانت عديدة: في الموصل، بغداد، والبصرة. تأسست الجمعية في الآستانة ثم ما لبثت أن أقامت لها فروعاً في دمشق وحلب علاوة على فروع العراق. أما الأقطار العربية الأخرى كالحجاز وطرابلس الغرب وفلسطين واليمن ونجد فكان لها فيها مندوبون أوفدوا خاصة لبث الدعاية لها حسب برنامج مدروس. وكان أعضاؤها من الجرأة بحيث لا يهابون السلطات الحاكمة إذ كانت مناشيرها تطبع في أهم المطابع سواء في الآستانة أو غيرها من المدن. وكان الأعضاء لا يستترون في نقلها وتوزيعها تدفعهم إلى ذلك الحماسة والجرأة والتضحية. وهذا ما دفع السلطات في بادىء الأمر إلى ملاحقة مؤسسيها، فسجنت وحاكمت عزيز علي ثم نفته إلى مصر، وهرب نوري السعيد إلى البصرة عند نشوب الحرب[١٠].

وإذا استُثْنِيَت جمعية العهد فإن «العربية الفتاة» قد تميزت بتقدمية برامجها نسبة للأحزاب والجمعيات الأخرى التي كانت تسعى للحكم الداخلي الذاتي ضمن الرابطة العثمانية، وإن جاء برنامجها، في أول تشكيلها عام ١٩١١ في باريس، متضمناً «عدم الانفصال عن الترك»، غير أنها تَخطَّت هذا الشعار مع الزمن حتى استحال إلى شعار انفصالي محض من أوائل سني الحرب العامة، كما تخطته زميلتها «العهد». ولم تكن تقبل في صفوفها ــ على كثرة طالبي الدخول ممن يظهرون حماسة لأهدافها ــ أي عضو إلا بعد اختبار طويل وتمحيص دقيق[١١]، وتتشدد في قبول المنتسبين إلا من عرف منهم بحسن الخلق والأمانة والكتمان والصلابة وقوة النفس والجرأة، بالإضافة إلى تشبعه بالفكرة القومية وحماسته لها. وكان القبول يجري بترشيح أو بتزكية طالب الدخول ــ أو من

(١٠) تحسين العسكري، مذكراتي، ج١، ص٨ ــ ٩؛ المهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، ص٣٨؛ م. عزة دروزة، المصدر السابق، ج١، ص٣٢ ــ ٣٣.

(١١) جلال يحيى، المصدر السابق، ص٩٤ ــ ٩٥.

يرى المسؤولون أو بعض الأعضاء أن في دخوله الجمعية فائدة لها ــ من قبل عضو سابق خبير به خبرة تامة. ويجري التحقيق عن أحوال العضو المرشح بإحالة أمره إلى دراسة سرية دقيقة يكلف بها عضو من أعضاء الجمعية السابقين، بحيث يسأل عارفيه بشتى الأساليب ويختبره بالمحادثة، حتى إذا أسفر ذلك عن قناعة تامة بأهليته أُحيل للمفاتحة ــ وهذا في حالة كونه مرشحاً دون علم منه بذلك ــ وعندئذ يفاتح بأساليب متنوعة، ويكون المكلف بمفاتحته متحفظاً قادراً على التراجع وسد الباب، دون أنْ يترك أي مجال لاكتشاف أمر الجمعية، أو الإحساس بوجودها. فإذا أسفرت المفاتحة عن الإيجاب أُعطيت له تفصيلات قليلة ثم يدعى إلى اليمين، ويحلَّف من قبل عضوين آخرين على الإخلاص لمبدأ الجمعية «بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة والمستقلة الكبرى»، ثم على التضحية في سبيله بالنفس والمال، وكتمان أسرار الجمعية والطاعة لأوامر هيئتها المسؤولة. عند هذا الحد لا يكون ما عرفه العضو المنضم إلا اسم الجمعية بالإضافة إلى أشخاص قلائل ممن فاتحوه أو حلَّفوه، وإذا أُريد تكليفه بمهمة أو إبلاغه أمراً ما جرى ذلك بواسطة أحد هؤلاء، أو بواسطة مأمونة أخرى. وقد يتعدى الأمر هذا الحد إلى الاستفادة من نشاط العضو والتوسع في إطلاعه على تشكيلات الجمعية، وإلى خوضه ميادين العمل تحت رايتها، إنما يكون ذلك رهناً بما يظهره من إخلاص شديد ونشاط فياض وقوة شخصية، ومن سعي في سبيل مرامي الجمعية وأهدافها[١٢].

كما كان للجمعية رموز وشعارات سرية ومطبعة وصندوق مركزي للمال[١٣]. وكانت تستعمل للمراسلات والاتصالات الكلمات الرمزية التالية: «بزغ فجر وطنك، مت لعضد شخص أخي ثقة ...»، وهو شعار يدل على الثقة والاعتزاز القومي والتضحية والتضامن بأجلى معانيها. وكانت الجمعية تتألف من ثلاث هيئات: الهيئة الإدارية وقوامها ستة أعضاء، وهي التي تتولى إدارة شؤون الجمعية، والهيئة العاملة، وهي التي تختار الهيئة الأولى وتتألف من الأعضاء الذين أمضوا مدة التجربة وهي ستة أشهر، والهيئة الثالثة وتضم الداخلين حديثاً وهؤلاء لا يعرف بعضهم بعضاً[١٤].

بفضل هذا الأسلوب الذي سارت عليه الجمعية «العربية الفتاة» بقي أمرها مكتوماً إلى آخر الحرب، بالرغم من تعذيب من أُلقي عليهم القبض وأُحيلوا إلى ديوان حرب عالية من أعضائها،

---

(١٢) م. ع. دروزة، المصدر السابق، ص٢٨ ــ ٢٩.
(١٣) LAWRENCE; Ibid. p. 60 وترجمته العربية، ص٣٣.
(١٤) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٩.

دون معرفة بحقيقة أمر انتمائهم الحزبي ، بالرغم من أن نشاطها قد انتقل إلى قلب دمشق ، مركز قيادة الجيش الرابع ، حيث كانت سيطرة الطاغية جمال باشا على أشدها . علماً بأن الجمعية كانت قد نقلت مركزها ، من باريس حيث تأسست ، إلى بيروت عام ١٩١٢ ، حينما انتهى مؤسسوها من دراستهم في فرنسا ، وعادوا إلى وطنهم ، ثم نقلت مركزها مرة ثانية إلى دمشق ، عند نشوب الحرب[١٥] . كما نقلت إلى دمشق مقر جريدتها « المفيد » ، التي كان يصدرها عبد الغني العريسي ، ومحمد المحمصاني ، والأمير عارف الشهابي[١٦] ، والتي كان العرب يتحمسون لما تنشره حماسة شديدة ، ويترقبون بفارغ الصبر صدورها بحيث كان موزعوها ، الذين ينتظرون تسليم أعدادها إليهم ، من الكثرة بحيث لا يستطيع الزائر أن يشق طريقاً من بينهم سواء على أبواب إدارتها ، أو على السلالم المؤدية إلى الداخل[١٧] . وفي انتقال مركز الجمعية وجريدتها إلى دمشق ، في هذه الفترة الحرجة ، دليل على جرأة القائمين عليها ، ورغبتهم في ممارسة النضال على أشده بكل شجاعة وإقدام ، كما هو دليل على سرعة البديهة في اقتناص الفرص التي هيأتها دعوة الحكومة للشبان العرب ، المتعلمين في المدارس العالية ، إلى ما سمي بـ « الخدمة المقصورة » ، أي التعليم الذي يهيئهم ليكونوا من ضباط الاحتياط . وكان كثيرون منهم مندمجين في الحركة العربية . وكان اجتماعهم في دمشق ، المركز الذي بدؤوا يتلقون تعليمهم العسكري فيه ، مما أتاح لهم مجال الاتصال والحديث والنشاط والحماسة للفكرة القومية وأهدافها . كما أن اجتماع عشرات الألوف من جنود العرب المدعوين للخدمة ، وتمركز مئات من ضباطهم في محل واحد نتيجة للنفير العام ، كان يبعث في نفوس القوميين العرب آمالاً جساماً في تحقيق غاياتهم القومية[١٨] .

شرعت الجمعية في العمل ، بعد انتقالها إلى دمشق وفور إعلان النفير العام ، فقررت أولاً الاستنارة برأي زعماء الحركة الوطنية من السوريين العرب المقيمين في مصر ، قبل أن تنقطع المواصلات ، فأوفدت إليهم الشيخ كامل القصاب للاتصال بهم ، والتفاوض معهم على خطة معينة . فسافر بحراً في تشرين الأول ١٩١٤ . وبعد أن قام بالمهمة عاد بحراً دون أن يستطيع الوصول إلى الغاية المرجوة . أنزلته الباخرة في مكان ما على شواطىء الأناضول الغربية فعاد براً إلى دمشق ،

---

(١٥) محمد جميل بيهم ، قوافل العروبة ومواكبها ، ج٢ ، ص٢٧ ، والعرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ص١٦٩ .

(١٦) فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص٦ .

(١٧) محمد جميل بيهم ، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ص١٥٤ .

(١٨) محمد عزة دروزة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤١ ـــ ٤٢ .

وسرعان ما اتصل أمره بالسلطة العسكرية فأمرت باعتقاله[19]، حينما بدأ جمال بإظهار نيّاته السيئة نحو العرب، غير أنه استطاع أن ينجو بنفسه ويلتجىء إلى مصر بطريق مكة، لأن جمال باشا لم يكن قد أوغل بعد في سياسة الإرهاب والبطش والتقتيل.

وحتى قبل قدوم جمال باشا حاكماً كانت الجمعية ماضية في بث أفكارها القومية في صفوف ضباط الاحتياط، وإذكاء مشاعرهم الوطنية. وكثيراً ما كانت تعقد لهم الاجتماعات في دور أعضائها البارزين، حيث يجري استعراض الموقف العام، وبحث ومناقشة أفضل السبل التي تكفل تحقيق الأماني القومية. وكان أبرز ضباط الاحتياط المدعو «جلال البخاري»، ذو الصوت العذب الرخيم، الذي كان يثير الحماسة في نفوس الحاضرين حينما تنطلق الحناجر ببعض الأناشيد الوطنية. وقد رأت الجمعية عوناً لها على العمل بتلك الحرية ما آنسته من وجود الفريق زكي باشا الحلبي، العربي، على رأس قيادة الجيش الرابع في دمشق، قبل قدوم جمال باشا ليحل محله[20].

كان نشاط الجمعية منصباً، في الوقت نفسه، على توسيع نطاق تشكيلاتها، وضم أكبر عدد من المنتسبين إليها، وبخاصة في صفوف ذوي الشأن والبأس من كبار الضباط العرب، ومن شخصيات البلاد ورؤساء العشائر في مختلف الأنحاء، حتى أربى عدد المنتسبين إليها في بداية الحرب على ألفين[21]. فبالإضافة إلى مؤسسيها: عوني عبد الهادي، رستم حيدر، محمد المحمصاني، عبد الغني العريسي، رفيق التميمي، وجميل مردم، دخلها، قبل الحرب، الدكتور أحمد قدري، وكان رئيساً لفرع دمشق قبل انتقال مركزها العام إليها، والأمير طاهر الجزائري، والأمير عمر الجزائري، والأمير عارف الشهابي، وسليم طبارة، والشيخ كامل القصاب، ومحمود المحمصاني، ويوسف حيدر، وإبراهيم حيدر، وصالح حيدر، وأسعد حيدر، وتوفيق البساط، وعمر حمد، ومحمد الشريقي، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وفوزي البكري، وأخواه نسيب وسامي، وشكري القوتلي، وفارس الخوري. وبعد إعلان الحرب دخل فيها بواسطة آل البكري، الأمير فيصل بن الحسين حينما أتى إلى دمشق، كما دخلها المحامي فائز الغصين، وعمر الأتاسي، ونوري الشعلان رئيس عشائر الروله، وفواز الفائز رئيس عشيرة بني صخر، ومحمد الملحم رئيس

---

(١٩) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١٠٨.

(٢٠) الدكتور أحمد قدري، المصدر السابق، ص٣٧ ــ ٣٨.

(٢١) ج. كيرك، المصدر السابق، ص١٨٧.

عشيرة الحسنة[٢٢]. وقد رأت الجمعية أن تدخل في عضويتها الضابط الكبير العقيد ياسين الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر (فيلق الموصل)، وكان يرابط يومئذ في سورية للاشتراك في حملة قناة السويس، وهو من خيرة الضباط العرب النابهين، فقررت الاتصال به ودرس اتجاهاته توطئة لإدخاله في عداد أعضائها، وكلفت بذلك السيد عبد الغني العريسي الذي تمكن من الاتصال به، وتم قبوله عضواً فيها، وجرى تحليفه اليمين من قبل الدكتور أحمد قدري وعبد الغني العريسي، وجعلته الجمعية همزة الوصل بينها وبين جمعية «العهد» التي كان من أعضائها هو ومعظم ضباط العرب القوميين. كما انضم إليها بعد ذلك، رضا باشا الركابي ونسيب بك الأطرش من أعيان جبل العرب، ونواف الشعلان نظراً لسمعته الوطنية الطيبة، «وللاستعانة بقوى البر عند الاقتضاء». وقد أبلغت الجمعية رضا الركابي والأمير طاهر الجزائري أن يبلغا فائز الغصين بالسفر إلى مضارب الشعلان(*) والعودة بالأمير نواف الشعلان إلى دمشق[٢٣]، بناء على طلب الأمير فيصل، فلم يستطع فائز إلا أن يمتثل لأمر الجمعية الذي «لا يرد» بالرغم من حرج الموقف، إذ كان جمال قد بدأ اضطهاداته لأحرار العرب، فذهب وقام بالمهمة الموكولة إليه وأتى بنواف مندوباً عن أبيه ومعه بعض رؤساء العشائر. وتقابل الأمير نواف والأمير فيصل في دار آل البكري في القابون، حيث اختليا ساعة من الزمن[٢٤]. أما فائز الغصين فلم يسلم من غضب جمال عندما بلغه من أحد الوشاة ما قام به، فأمر باعتقاله ومحاكمته في ديوان حرب عالية وحكم عليه بالنفي إلى ديار بكر، ومن هناك تمكن من الفرار واجتاز الطريق منها إلى البصرة مشياً على الأقدام[٢٥]. كذلك قررت الجمعية ضم الأمير علي النجل الأكبر للشريف حسين إلى صفوفها فأوفدت يوسف حيدر في هذه المهمة إلى المدينة المنورة فوفق فيها[٢٦].

لم يقتصر نشاط الجمعية على تقوية أوضاعها الداخلية، بل امتد نشاطها إلى الاتصالات السياسية الهامة بزعماء العرب البارزين عندما أرسلت وفداً من أعضائها إلى الأمير عبد العزيز بن سعود، أمير نجد فقابله أعضاؤه في الرياض، وخاطبوه بقولهم إنهم في سبيل القيام بحركة واسعة النطاق

---

(٢٢) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص٣٨.

(*) حصل ذلك إثر قدوم فيصل إلى دمشق وانتهاء مباحثاته مع أحرار العرب القوميين على القيام بالثورة، ورغبة فيصل بالاجتماع إلى شيوخ العشائر لاختبار استعدادهم للثورة كما سيأتي تفصيله في الفصل الخامس من هذا البحث.

(٢٣) أحمد قدري، المصدر السابق، ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢٤) فائز الغصين، مذكراتي عن...، ص٣٩.

(٢٥) فائز الغصين، مذكراتي عن...، ص١٤١ ـ ١٦١ وأحمد قدري، المصدر السابق، ص٤٠.

(٢٦) فائز الغصين، مذكراتي عن...، ص٣٨.

ضد الدولة العثمانية ، وأنهم يطلبون منه ــ تقديراً لمزاياه الحربية ــ تزعم هذه الحركة ، فأنصت إليهم بانتباه تام ، في حين ذهب تفكيره إلى أن أفكار مخاطبيه تسرح في جو من الخيال ، وأنهم ليسوا إلا عباقرة في الكلام ، تتراءى لهم رغباتهم وكأنها حقائق ملموسة ، ولم يرَ بداً من صرفهم برقيق العبارات ، بعد أن انتهى به التفكير إلى تقدير صعوبة تحقيق هذا المشروع ، بالرغم مما فيه من إغراء ، ذلك أنه لم يُسقط من حسابه احتمال الفشل ، وتكرر مأساة جديه سعود الكبير وعبد الله ، بحيث يجر أعداءه الترك إلى قلب الجزيرة العربية . ففضل أن يتوسع في جوار منطقته ، وأن يقوّي أركان إمارته ويرسّخ جذورها الداخلية بحيث لا تتجه أنظاره إلى خارجها إلا بعد توطيد قواعدها على أساس صلد متين(٢٧) .

حينئذ اتجهت أنظار الجمعية إلى الشريف حسين فأرسلت إليه مندوباً عنها فوزي البكري ، الضابط الشاب المجند حديثاً ، وقد انضم إلى الجمعية من عهد قريب ، وأسفرت جهودها وسعيه لدى الحكومة عن تقليده وظيفة شرفية في حرس الشريف . وحينما استلم أمر سفره حمّلته الجمعية رسالة شفهية إلى الشريف حسين ، فحواها أن زعماء العرب في الشام والعراق ، بما فيهم كبار ضباطهم ، قد عقدوا العزم على القيام بثورة للحصول على استقلال بلادهم ، فهل يقبل الحسين تولي قيادة حركتهم ، باعتباره أبا العرب وزعيم المسلمين وأميرهم الكبير ، وشريفهم الأكبر ، لينقذهم من شرور طلعت وأنور وجمال . وفي حالة الإيجاب هل يقبل وفداً يأتيه من دمشق أو يرسل من لدنه إليها مندوبين يثق بهم للتفاوض مع أركان الجمعية في أمر التنفيذ ؟(٢٨)

وصل هذا المندوب إلى مكة في وقت كان فيه الشريف يمعن التفكير فيما يجب عمله بعد أن أتته الرسل ــ إثر دخول تركيا الحرب ــ من مختلف الجهات : من الترك ومن الإنكليز ، وها هي تأتي من أحرار العرب السوريين ، وكان قد أرسل إلى رؤساء العرب في الجزيرة يستطلع رأيهم في الأحوال الحاضرة ، ولم يتلق منهم أي جواب بعد . فلم يشأ أن يقطع برأي ، بل أرسل ابنه فيصلاً إلى دمشق لاستطلاع الأحوال العامة هناك من جهة ، والذهاب إلى الآستانة للاتصال برجالها ، والمداولة معهم في سلوك نادي الاتحاديين في الحجاز ، وما يقوم به من أعمال عدائية ضده بالاتفاق مع والي الحجاز

---

(٢٧) BENOIST MECHIN, Ibn Séoud, pp:175-177 مصطفى الحفناوي ، ابن سعود ص٨٣ ، ٨٤ CAPITAINE ARMSTRONG, Le Maitre D'ARABIE Ibn Séoud, pp. 96-97.

(٢٨) LAWRENCE, Ibid. p. 64 ، وترجمته العربية ، ص٣٩ ــ ٤٠ أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٣٢ ــ ٢٣٣ ؛ جلال يحيى ، المصدر السابق ص١٣٩ .

وفائده العسكري الجديد وهيب بك من جهة أخرى. فما إن وصل فيصل إلى دمشق، في أواخر آذار ١٩١٥، حتى التف حوله زعماء الجمعية وأدخلوه في عضويتها، فأظهر نشاطاً واسعاً في اتصالاته، كما تبرع لصندوقها بمبلغ ألف ليرة عثمانية ذهباً(٢٩). ثم قدم تقريره إلى أبيه عن الحالة في سورية، وتابع سفره إلى الآستانة، وحلّ مشكلة خلاف أبيه مع وهيب بك ونادي الاتحاديين، ثم عاد إلى دمشق حيث عاود البحث مع أركان الجمعية في الشؤون الوطنية، واستلم منهم مذكرة تبين مطالب أمتهم القومية كشرط من شروط الاتفاق المزمع عقده، بين الحسين والإنكليز، للثورة على الترك، كما سيأتي بيانه بالتفصيل في فصل آخر.

ومع ذلك لم تكن أعمال هذه المنظمات العربية هي التي ساقت جمال باشا ــ بالدرجة الأولى ــ إلى إجراءاته الوحشية الإرهابية في سورية، لأنه جاء دمشق وهو يحمل فكرة البطش، زوده بها أنور باشا بالذات، حينما استدعاه وأبلغه مرسوم تعيينه قائداً عاماً للجيش الرابع، وحاكماً عاماً على منطقة نفوذه «دعاني أنور باشا إلى منزله... قال لي: إنني يا جمال أريد الشروع في مهاجمة قناة السويس... وتدل الأنباء الواردة من سورية **على وجود هياج في داخلية البلاد، مضافاً إليه النشاط العظيم الذي يبديه الثوار العرب**، فنظراً لهذه الظروف أعتقد أن وطنيتك العالية تجعلك توافق على قبول قيادة الجيش الرابع، فإن قبلت فعليك بتهيئة وتنفيذ الهجوم على القناة، **على أن لا تغفل عن أمر المحافظة على الأمن والنظام في داخل سورية**». هذا ما جاء في مذكرات جمال باشا نفسه. **وقد أضاف إلى هذا قوله إنه قَبِل المهمة** بارتياح، واشترط في محادثة ثانية مع أنور حصوله على الحرية التامة التي يخولها القانون لأي قائد في الجيش، فحصل عليها محتفظاً بلقبه «وزير البحرية» على أن يستلم هذه الوزارة منه أنور باشا بالوكالة(٣٠). والذي يلفت النظر في هذا التكليف عبارة «وجوب المحافظة على الأمن»، في حين لم يكن قد ظهر من أعمال الأحرار العرب، في ذلك الحين (أوائل تشرين الثاني ١٩١٤)، ما يدعو إلى الخوف، بل إن ما ظهر منها ــ كما بينت سابقاً ــ كان في مصلحة الدولة، من حيث إفصاح معظم العاملين في القضية العربية عن ميولهم الطيبة تجاه الدولة في مواجهتها للوضع الجديد، أو أن القليل الذي ظهر منها كان من السرية بحيث لم يكن باستطاعة أجهزة مخابرات الترك أن تكشفها. والمعتقد أن بعض الأخبار المزعومة كانت من قبيل الوهم أو خشية حدوثها، وأن أنور وزعماء جمعية الاتحاد والترقي أرادوا أن يتخذوا من هذا الوهم حجة لإفناء

---

(٢٩) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص٣٩، ٣٠٥.

(٣٠) مذكرات جمال باشا، ص٢٣٤ ــ ٢٣٦.

أحرار العرب، والانتقام منهم، لما بلوه من نشاطهم وصلابتهم في الدفاع عن حقوق أمتهم في الفترة السابقة، وعهدوا بهذا الأمر إلى أشرس رجل بينهم، فضلاً عن كونه أقواهم شخصية وأشدهم بأساً.

تحدث عزيز بك ـــ رئيس دائرة استخبارات الجيش الرابع، وكان الساعد الأيمن لجمال باشا في سورية، وقد تولى في أواخر عام ١٩١٧ مديرية الأمن العام في السلطنة العثمانية ـــ في مذكراته التي ترجمت إلى العربية باسم «سورية ولبنان في الحرب العالمية» عن عزل الفريق زكي باشا الحلبي وتعيين أحمد جمال باشا مكانه قال:

«والفريق زكي باشا لم يكن من الرجال الحزبيين، بل كان قائداً عسكرياً شريفاً حيادياً محباً للجامعة العثمانية. إلا أن هذه الصفات ما كانت لتروق للقابضين على زمام الحكم في السلطنة. فهم يريدون أن تكون البلاد التابعة للجيش الرابع مرتبطة مباشرة بهم، وأن يكون هناك رجل قوي يعرف كيف ينفذ إرادتهم ويقضي تماماً على الفكرة العربية، فالقائد زكي باشا عندما ذهب إلى سورية... مثّل هناك عظمة القيادة، ونزاهة الجندي وإخلاصه، وكان يعامل الجميع على السواء، كثير التقرب من العرب، فهذه الصفات الطيبة لم ترق لرجال الحكم فقرروا أن يستبدلوا به جمال باشا يدهم اليمنى...»[٣١].

سياسة جمال باشا المتقلبة

في الواقع بدأ جمال باشا سياسته العربية في دمشق باصطناع الملاينة وتقريب رجال الإصلاح الحقيقيين، فاتخذ من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر طبيباً خاصاً له[*]، وقرب عبد الكريم الخليل إليه، وصادق محمد كرد علي، وعبد الغني العريسي صاحبي جريدتي «المقتبس» و «المفيد» في دمشق ونفحهما بمبلغ من المال[٣٢] أسوة ببقية الصحافيين الذين رتب لهم رواتب شهرية، تساعدهم على إصدار جرائدهم، وأخذ يتحبب إليهم، مظهراً رغبته في دعم المطالب الإصلاحية التي

(٣١) عزيز بك ـــ سورية ولبنان في الحرب العالمية، ص٣٨.

(*) قال عزيز بك في مذكراته إن جمال باشا كان يرى في الشهبندر رجلا شديد الاندفاع في عقيدته الوطنية، ويعلم مقدار عدم ثقة العرب بالاتحاديين، لذلك أراد أن يكون الدكتور بجانبه، فاستدعاه وأقنعه بمحبته للعرب، ورغبته الأكيدة في تحقيق مايصبو إليه العرب من الإصلاحات اللازمة في بلادهم (عزيز بك، المصدر السابق، ص١٠٨ ـــ ١١٠).

(٣٢) مذكرات جمال باشا، ص٣٣٨؛ دكتور يوسف مزهر، المصدر السابق، ص٨٣٤.

يريدونها، منوهاً لهم بأنهم بدلاً من أن يتجهوا بأنظارهم إلى الدول الأجنبية لمساعدتهم على تحقيقها، فإنه على استعداد لتقديم هذه المساعدة لهم ما داموا يلحون عليها. فالذي يعرفونه خير من الذي يجهلونه[٣٣]. وطفق يشير في خطبه وتصريحاته إلى ضرورة تعزيز الصلات بين العرب والترك، وإلى حسن نيّات الدولة العثمانية نحو البلدان العربية. فوقعت هذه التصريحات في نفوس العرب موقعاً حسناً، وغرهم منها ملمسها الناعم، ومظهرها الودي نحو قضيتهم القومية[٣٤]. فاقتنع عبد الكريم الخليل والشهبندر وكرد علي بصدقه، وبادر الأمير سعيد باشا الجزائري يعرض عليه استمالة الدروز، فوافقه على اقتراحه، خاصة وأنه كان يعتقد خطأً بأن لبنان ملأى بالسلاح، وأن فيه ما لا يقل عن خمسين ألف بندقية، فرأى في استمالة الدروز ما يساعده على قمع أي ثورة قد تقع في ربوعه[٣٥]. وصار عبد الكريم الخليل يتعاون معه تعاوناً وثيقاً ومخلصاً، فيشرع في تنظيم الإحصائيات الدقيقة عن عدد أفراد عشائر بادية الشام وإمكاناتها، ومقدار وقيمة الاستفادة منها والخدمات التي تستطيع أن تؤديها للدولة، ويأخذ في إقناع أصدقائه من المحامين الذين لهم علاقة ببعض رؤساء العشائر بالذهاب إلى مضاربهم، وجلبهم إلى جمال ليقدموا فروض الطاعة والولاء له[٣٦].

وقد بذل جهوداً جبارة في جمع المتطوعة من أبناء طائفته «الشيعة»، في القرى الساحلية من جنوبي لبنان، تنفيذاً للدعوة التي وجهتها الحكومة إلى سكان جبل لبنان وولاية بيروت، واستنهضت وطنيتهم ورغبتهم في التطوع للخدمة الداخلية كل في بلده، وللدفاع عن السواحل ضد كل غزو محتمل من قبل الأعداء، دون أن يعطلهم هذا التطوع عن ممارسة أعمالهم اليومية المعتادة[٣٧]. كما وقف محمد كرد علي قلمه وجريدته «المقتبس» على إطراء سياسة جمال، وأخذ يدعمه في مواقفه المختلفة. وراح جمال من جهته يغدق الألقاب والأوسمة بكثرة على من تعاون معه من رجال العرب في سورية ولبنان والبلاد العربية، فمنح كامل بك الأسعد من جبل عامل رتبة البكوية من الدرجة الثانية، والمجيدي الثالث، واستصدر إرادة سنية بمنح عجيمي السعدون رئيس عشائر المنتفق (العراق) رتبة

(٣٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٦، ص١٣ ــ ١٤؛ عزيز بك، المصدر السابق، ص١٠١.
(٣٤) أحمد قدري، المصدر السابق، ص٣٩.
(٣٥) مجلة الحرب العالمية الأولى ج١٦، ص١٣ ــ ١٤.
(٣٦) فائز الغصين، مذكراتي...، ص٢٥.
(٣٧) أميل يوسف حبشي، جهاد لبنان واستشهاده، ص٣٩ ــ ٤١.

الباشوية مع لقب «ميرميران»، وهو من ألقاب الجيش الرفيعة، جزاء له على إخلاصه في الحرب ضد الإنكليز في العراق، فضلاً عن إغداقه الأموال الطائلة على آل الرشيد في حائل[٣٨].

وفضلاً عن ذلك أخذ يترنم بنغمة الجامعة الإسلامية التي زعم أنها تشد الترك إلى العرب شداً وثيقاً، فلا يدع مناسبة تمر إلا ويعلن حرص الدولة عليها ويدعو إلى تعزيزها[٣٩]. ولم يتردد في أن يسير مسافات طويلة لحضور الاحتفالات الوطنية، ليظهر مقدار ما أودعه من الثقة في من يشرفون على تنظيمها، مثل عبد الكريم الخليل وغيره، تعزيزاً لمركزهم في عيون مؤيديهم. كما ذكر في مذكراته أنه كان، أينما ذهب في ولايتي بيروت وسورية، يصطحب معه المصلحين في جولاته[٤٠]. وقد أصبح مضمون خطبته الأولى التي ألقاها في الحفلة التي أقامها في دمشق ــ بمعاونة المناضلين العرب مثل عبد الكريم الخليل وعبد الرحمن الشهبندر ــ على شرف الشيخ عبد العزيز جاويش، يتردد على كل لسان، وهي التي جاء فيها «إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لإصلاح حالة العرب لأوسع بكثير مما قد يخطر ببالكم، ولست أنا من الذين يتوجسون شراً من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد، مع انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين متحالفين .... .

«أؤكد لكم أن الأماني التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا سوى إخوان في غايتهم الوطنية... وإن هذين الشعبين مَقْضِيٌّ عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها... »[٤١] إلى آخر ما هنالك من العبارات المعسولة.

لقد أظهر جمال باشا كامل ارتياحه لما كان من أثر لخطبته في نفوس الحاضرين، إذ جاءه كثير من وجهاء القوم إلى مركز القيادة «لتقديم الشكر إليه على ما ورد فيها، وقابلها المصلحون من جهتهم بالارتياح. وفي خلال بضعة الأيام التالية تجمع سكان المدينة بأعلامهم شراذم شراذم وأقسموا بالقرآن ليكونن أولياء للحكومة، وليبذلن كل ما في استطاعتهم من المساعدة دفاعاً عن حقوق الإسلام ضد الإنكليز والفرنسيين»[٤٢].

---

(٣٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، الجزء نفسه والصفحة نفسها؛ عزيز بك، المصدر السابق، ص١١٩.

(٣٩) محمد جميل بيهم، العرب والترك....، ص١٣٦.

(٤٠) مذكرات جمال باشا، ص٣٤٦.

(٤١) المصدر السابق، ص٣٣٩ــ٣٤١؛ دكتور بديع شريف ودكتور عزت عبد الكريم... المصدر السابق، ص١٠٨.

(٤٢) جمال باشا: المصدر السابق، ص٣٤٣.

لكنه لم يكتم، مع ذلك، ما شعر به من الاضطراب والاستياء للمظاهرة القومية العربية التي رافقت هذه الحفلة، إذ أخذ الشبان العرب ينشدون الأناشيد الحماسية «التي رددت الآمال في تحقيق الوحدة العربية» كنشيد «نحن جند الله شبان البلاد، نكره الظلم ونأبى الاضطهاد» تلك الأنشودة التي قال عنها جمال إنها «كادت تزلزل فوق رؤوسنا سقف المكان الذي كنا فيه»(٤٣). فلم يبرح دمشق إلى قناة السويس — وكان على عجل من أمره في السير إليها — حتى أمر بحل كتيبة ضباط الاحتياط العرب قبل أن ينتهي تدريبها، وأرسل رجالها وكان عددهم ينوف على ثمانين صف ضابط — ومنهم جلال البخاري الذي كان صوته الرخيم الجهوري يجلجل بهذا النشيد في الحفلة — إلى ميادين الحرب في الدردنيل(٤٤).

وإذا استثنينا هذه البادرة السلبية من جمال باشا حتى ذهابه إلى قناة السويس غازياً وعودته منها خائباً، لم يصدر منه أي عمل يدل على سوء نيّاته نحو المصلحين من العرب. إنما لم يكد يعود من حملة القناة حتى قلب ظهر المجن لمن قربهم منه، وانقلب من رجل ذي مظهر وديع إلى ما يشبه الوحش الكاسر في طغيانه وإرهابه، فما هو السر في هذا التحول المفاجىء؟

لقد كثرت التعليلات، وأورد الكتّاب العرب أسباباً عديدة لهذا التحول. فكان بعضها معقولاً وبعضها الآخر غير معقول، فمن الأسباب المعقولة مثلاً أن جمالاً كان في صدد حملة عسكرية ذات شأن عظيم يبغي بها فتح مصر والجلوس على عرشها، فلو سار في سياسة الشدة والبطش في البلاد العربية قبل سفره إليها، لكان لسياسته هذه أسوأ الأثر عند عرب مصر — ولم تخل مذكرات جمال من إشارة خفية إلى هذه الناحية(٤٥) — فضلاً عن أن سياسة البطش قد تأتي بعكس ما يتمناه من المعونة التي كان يرجوها من العرب في هذه الحملة(٤٦). وهذا الرأي يفترض بديهياً أن جمالاً كان يحمل معه، من الآستانة، التصميم الجازم على الفتك، والتفويض الكامل به وباتخاذ كل إجراء يراه مناسباً على مبدأ «يَفعل ولا يُسأل»، كما عبر عنه الأتراك عند بحثهم في هذه المسائل(٤٧)،

---

(٤٣) المصدر السابق، ص٣٣٩.

(٤٤) مذكرات أحمد قدري، ص٣٩؛ مذكرات فائز الغصين، ص٨١؛ دكتور يوسف مزهر، المصدر السابق، ص٨٣٤.

(٤٥) مذكرات جمال باشا، ص٣٣٥ — ٣٣٦.

(٤٦) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٦، ص٣٦ — ٣٧، قال عزيز بك في ص٧٩ من مذكراته «لم يشأ جمال أن يعتقل السوريين المتهمين بالوثائق الفرنسية خوفاً من عرقلة سيره إلى غزو القناة».

(٤٧) A.B. KURAN, Osmanli Imparatorlugunde ve T.C. Ink. Harek. 647; G.VARDAR, Ibid. p.305.

وأن التوجيه اللازم للسير في هذه السياسة كان قد أتاه ممن فوقه في الآستانة ، أي من أنور بالذات ، ومن المركز العام لجمعية الاتحاد والترقي(٤٨) . وهذا ما تدعمه أدلة كثيرة ورد بعضها معنا ، وأشارت إليها كثير من المصادر(*) . ذلك أن أنور هو الذي بدأ سياسة الإرهاب في الأناضول ، قبل أن يبدأ بها جمال في بيروت ودمشق . بدأ بها في شباط ١٩١٥ بالأرمن ـــ إثر فشله المروّع في حرب القفقاس ضد الجيش الروسي . وكان هو بالذات قائداً للحملة ، حيث حلت بالجيش العثماني كارثة من أشنع الكوارث راح ضحيتها أكثر من ٨٠ ألف جندي ، معظمهم من عرب العراق ، سواء في المعارك أو تحت الثلوج ، أو بتأثير الجوع والعري والحرمان ـــ وقد اتهمهم بكونهم ساعدوا الجيش الروسي بتأليفهم العصابات الأرمنية ، والفتك بمواطنيهم الترك ، وبمؤخرة الجيش التركي ، فأصدر « قانون السوقيات » أي التهجير ، الذي كان له الأثر العظيم في إفناء قسم كبير من الشعب الأرمني ، بحيث تعرض الأرمن لأقسى وأشنع أنواع الاضطهاد والهلاك . إذ بطش بهم الأتراك بطشاً هائلاً ، وفني منهم مئات الآلاف ، ورافق ذلك كثير من الأعمال الوحشية وسوء الأخلاق ، مما لم يشهد له التاريخ مثيلاً(٤٩) . كما كان أنور باشا ـــ قبل وصول أحمد جمال إلى سورية ـــ قد اتفق مع والي دمشق خلوصي بك على اعتقال الزعماء السوريين الذين وردت أسماؤهم في الوثائق التي ضبطت من القنصلية الفرنسية . ثم جاء جمال فرفع الرقابة التي ضربت حولهم ، تجنباً لحدوث شقاق بينه وبين أبناء البلاد في حين كان الواجب يحتم عليه صرف اهتمامه على قضية الهجوم على القناة وفتح مصر(٥٠) .

ومن الأسباب المعقولة أيضاً أن الثلاثي الدكتاتوري قد رأى في الحرب فرصة للتملص من نتائج اتفاق باريس بين الترك والعرب ، والضرب بمقرراته عرض الحائط ، فأراد الاتحاديون التعجيل في القضاء على أحرار العرب كي لا يبقى أمامهم ما يسمى بالقضية العربية ، لا سيما إذا أحرزوا النصر

عبر الأتراك عنها بعبارة « لا يُسأل أما يَفعل «La yus'el amma yef'al» .

(٤٨) مجلة الحرب العالمية الأولى ج١٤ ، ص٣١ ـــ ٣٣ .

(*) قال عزيز بك رئيس استخبارات جمال باشا في كتابه المار ذكره إن جمال باشا قَدِم إلى سورية حائزاً على السلطة المطلقة . وحاملا معه مشروعين خطيرين الأول : الغاء الامتيازات التي يتمتع بها جبل لبنان منذ ١٨٦٠ ، واخضاع سكانه للسيادة العثمانية المباشرة ، والثاني : القضاء على الفكرة العربية التي اختمرت في نفوس القوم .. وتتريك العرب (عزيز بك ـــ المصدر السابق ص١٢٨ ـــ ١٢٩) .

(٤٩) ISMAIL HAMI DANIŞMEND, Ibid. p.428.

(٥٠) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٦٦ .

في نهاية الحرب[٥١] . هذا من جهة ومن جهة أخرى يكونون قد أنزلوا الرعب والهول والإرهاب في قلوب السوريين والعرب عامة ، فلا يحركون ساكناً يضر بالترك في هذه الحرب الضروس التي تخوضها الدولة[٥٢] .

أما فشله في حملة قناة السويس ، ونكول الشريف حسين عن مساعدته بالرجال ، وعار الهزيمة الذي أصبح يلاحقه أينما حل ، والوشايات التي أخذت تنهال عليه ، منذ وصوله إلى حلب ، من كل جانب ، وبشكل جعله يحس بالكراهية والاشمئزاز من مستقبليه الذين أكثروا من تملقه ، وإلقاء قصائد المديح لشخصه[٥٣] ، ثم ازدياد موجة الوشايات بعدئذ بحيث أصبح الأخ يشي بأخيه ، والنسيب بنسيبه ، دون وازع من قرابة أو من ضمير ، حتى بلغ عدد ما تلقاه جمال من تقارير (مرسلة من السوريين ضد مواطنيهم ، في الأسبوع الواحد ، وهو الذي عاد فيه من القناة إلى القدس ، وقس على ذلك في بقية الأسابيع ، كما قال رئيس استخباراته عزيز بك في مذكراته) « ٣٩٢ تقريراً لو أراد جمال أن ينفذ محتوياتها لملأ السجون بالضحايا البريئة »[٥٤] .

كل هذه الأمور كانت من العوامل التي زادت في ضرام نزوته إلى الفتك والإرهاب ، يضاف إلى ذلك الوثائق التي عثرت عليها السلطات التركية في قنصليتي كل من دمشق وبيروت الفرنسيتين ، والتي كان من شأنها أن تجرّم بعض زعماء العرب بالاتصال ، ولكن قبل الحرب ، بدولة أجنبية في سبيل الإصلاح . ومن جملة عوامل إجراءاته القمعية ما وقع في يد الحكومة من مخابرات حزب اللامركزية العثماني في مصر ، وما لمسه ــ ولا شك ــ من حركة غامضة تدل على عودة الجمعيات العربية إلى سابق عهدها في النضال ، مما أقض مضجعه فكشف القناع عن وجهه ، ونبذ سياسة اللين والمسايرة ، ليصبح ذلك السفاح الذي عرفه التاريخ . وأما السبب الأخير ، أي تحريك العرب للثورة ، فهو الذي ألح عليه في مذكراته تمويهاً وستراً للحقائق الأخرى الكامنة في صميم سياسته العربية ، بدعم وتأييد من سلطات الآستانة .

وأما تعليل بعض الكتّاب العرب لما كان من سياسة اللين ، التي سلكها في بادىء الأمر ، بأنها لم تكن إلا لمخادعة الإصلاحيين العرب ، إذ تظاهر أمامهم بأنه في سبيل إقامة عرش له في

---

(٥١) A.B. KURAN, Osmanli Imparatorlugunde ve T.C. inkil. harek. 645.

(٥٢) محمد كرد علي ، المصدر السابق ، ٣ : ١٣٨ .

(٥٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، ١٤ : ٣١ ــ ٣٣ ؛ أدهم آل الجندي ، شهداء الحرب العالمية الكبرى ص ٣١ ــ ٧٥ .

(٥٤) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .

سورية ، يجلس على أريكته مستقلاً عن الآستانة بمساعدتهم ولمصلحتهم ، ذلك الذي قيل إنه قد فاتح عبد الكريم الخليل به لمعرفة رأيه وآراء رفاقه في شأن الاستقلال عن الآستانة(٥٥) ، فهو أمر يستحق وقفة أطول ، ذلك أن جمالاً كان في الواقع يطمح إلى المناداة بنفسه خديوياً على سورية ، عندما يحين الوقت(٥٦) . وقد يكون فاتح بعضهم كالشهيد عبد الكريم الخليل وغيره ، ليعرف آراءهم وميولهم ، لتكون له عليهم حجة في المستقبل ، إذ إن اعتماده للوصول إلى هدفه لم يكن في الغالب على عناصر الإصلاح الصحيح ، لا بل إن وصوله إلى هذا الهدف ، في رأيي كان يوجب عليه التخلص من هذه العناصر التي تشكل عثرة أمام مشروعه ، لأنها لم تكن في الواقع تناضل وتكافح للخلاص من نير الآستانة ، لتقع تحت نير رجل معروف بنزعته الطورانية الشديدة .

قال عزيز بك في مذكراته « والمعروف عن أحمد جمال باشا أنه الرجل العصري ، بين وزراء الدولة العثمانية ، الذي يرغب أن يعزز الشبان والشابات ، ولهذا عزز أندية « تورك أوجاغي » في تركيا وبواسطتها بات زعيم الشبان والشابات الحقيقي ، وقد ودعه هؤلاء عند مغادرته الآستانة ، وداع الفئة التي تقدس رئيسها ، والعامل على النهوض بها(٥٧) .

في الواقع كان اعتماد جمال باشا للوصول إلى هذا الهدف على ثلاثة عناصر في سورية :

أولها : القباضايات(*) وكان يصرف عليهم ما ينوف على خمسمئة ليرة ذهبية شهرياً ، واتخذ منهم شبه حرس حوله يهبون للدفاع عنه ، كما كان يعتقد أن باستطاعته استخدام هذه الفئة ليس في مقاومة أعدائه داخل البلاد فحسب ، بل في المناداة بنفسه خديوياً على سورية عند سنوح الفرصة .

ثانيها : فئة رجال الدين ، لإدراكه نفوذهم على الشعب ، فاستمالهم ليكونوا بجانبه قوة ثانية إلى جانب الفئة السابقة ، وأكرمهم وبذل لهم الأموال والمؤن ، بحيث زاد ما يصرفه عليهم عن ألف ليرة

---

(٥٥) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٨٦ ؛ كريم خليل ثابت ، الدروز والثورة السورية ، ص٤٦١ ؛ NADRA MOUTRAN, La Syrie De DEmain, p. 50 .

(٥٦) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص١٠٤ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص٦٥ .

(*) جمع قباضاي (أو قباطاي) ، وهي كلمة تركية معناها « شجعة ــ مدّعي الشجاعة ــ شجاع اسماً » وتطلق على كل رجل موصوف بادعاء السجاعة والرجولة ، ويسيطر القبضايات عادة على الحي ، ويضعون أنفسهم في خدمة وجهاء وأعيان الأحياء من باشاوات وبكوات وأفندية . كما جاء في تفسير فخري البارودي في مذكراته ج١ ، ص١١٣ أنه الخال البدين أو الغليظ ، تفسيراً حرفياً ، حسب معناها الظاهر .

ذهبية شهرياً. وكان في مقدمتهم: الشيخ أسعد الشقيري من فلسطين، والشيخ عبد الكريم الحسني، والشيخ بدر الدين الحسني، وابنه الشيخ تاج الدين، والشيخ النحاس، والشيخ عبد الرحمن الأنصاري والشيخ الجوبي، والشيخ الصيادي، والشيخ عبد القادر الخطيب... وغيرهم.

ثالثها: طبقة الأغنياء التي أخذت تجمع ثروة طائلة من ورائه، وكانت تتزاحم، في كل فرصة، على إقامة الولائم والحفلات للباشا، ويحاول أفرادها بذلك نيل الحظوة في نظره ليعطيهم وثائق بكميات من القمح، يتاجرون بها لتزداد ثروتهم ويكثر جاههم(٥٨).

لقد ذهب الخيال بأحمد جمال باشا إلى حد القول إن محمد علي، لما غادر بلدته «قوله» إلى مصر، كان رجلاً عادياً، فما لبث أن ولى نفسه خديوية مصر، بعد أن هدم سلطة الدولة العثمانية القوية فيها، ولا يزال أحفاده يحكمونها، فلماذا لا يقوم هو نفسه بهذا الدور في البلاد العربية، فيعلن استقلاله في إدارتها وحكمها؟ مستعيناً بفئات من «الزعانف» ـــ على حد تعبير جمال باشا (الصغير) ـــ منحهم من النفوذ ومن المال ما اعتقد أنه كاف لتزويدهم بالقوة التي تمكنهم من مقاومة زعماء البلاد الإصلاحيين الذين اعتقد أنه إذا منحهم شيئاً من النفوذ قاموا ضده(٥٩).

هذا من جهة ومن جهة أُخرى فقد رُوي عن أحمد جمال اتصاله بالجواسيس الأجانب، الذين اكتشفت السلطات التركية في بيروت أمرهم، وقبوله مبدئياً بما عرضوه عليه من إضرام ثورة ضد الدولة العثمانية لحساب فرنسا، وكانت تعمل لها بواسطة جواسيس من مسيحيي لبنان، وبالاتفاق مع كثيرين من اللبنانيين المقيمين في باريس والقاهرة، يقيناً منها بأن الثورة التي يعدها الإنكليز في البلاد العربية لا تخدم إلا مصالحهم وحدهم. ولم يكن جمال ـــ على ما يظهر ـــ مستعداً للاستسلام إلى مشيئة الفرنسيين، بل كان ما يطمع به هو عرش سورية أو مصر، لا خدمة مصالح فرنسا، لذلك قطع المفاوضات التي كان قد بدأها مع أحد الضباط الفرنسيين في هذا الشأن(٦٠). إلا أن فكرة تسنم عرش سورية التي كانت متمكنة من رأسه قد ظلت مستحوذة على اهتمامه الدائم بحيث كان يترقب الفرص لتحقيقها، غير أن سياسته الحمقاء في سورية قد حالت دون استطاعته

---

(٥٨) عزيز بك، المرجع نفسه، ص١٠٤ ـــ ١٠٦.

(٥٩) جمال باشا المرسيني (الصغير) المصدر السابق، ص١١٥.

(٦٠) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٦، ص٣٥.

تنفيذها[٦١] . واستناداً إلى ما تقدم قال بعضهم إن جمال باشا قد رغب في القضاء على متنوري العرب لأن بعضهم قد اطلع على مفاوضاته مع الحلفاء[٦٢]، بشأن الثورة على سلطات الآستانة، وإنشاء سلطنة مستقلة لنفسه، كما يتضح مما نشره البلاشفة الروس من وثائق سرية، بعد ثورة ١٩١٧ في هذا الصدد، وهذه خلاصتها :

تقدمت روسيا في شهر تشرين ثاني ١٩١٥ بمشروع تقسيم لتركيا دارت على أثره مفاوضات بين الدول الثلاث : روسيا، فرنسا، إنكلترا، من تشرين ثاني ١٩١٥ إلى آذار ١٩١٦، واستندت روسيا في تقديمه على ما تلقته من أخبار أتتها، من المحافل الأرمنية، تؤكد أن جمال باشا على خلاف مستمر مع الآستانة، وأنه مستعد للعصيان عليها، فإذا ساعده الحلفاء مساعدة فعلية يترك المضائق والولايات الأوروبية للحلفاء، لقاء أن يُجعل من كيليكيا وسورية وفلسطين والعراق وعربستان وأرمينيا وكردستان حلفاً يعلن نفسه سلطاناً عليه. وتثبت الوثائق المنشورة موافقة إيطاليا على المشروع إذا كان ثمة أقل احتمال في نجاحه، وتَلقّي فرنسا له بتحفظ في بادىء الأمر، ثم موافقتها عليه مبدئياً، عندما طمأنتها روسيا على حصتها في سورية والبلاد العربية، على أن تتابع هي بنفسها المفاوضات مع جمال باشا بواسطة الأرمن حول المشروع. وأما إنكلترا فقد قابلته ببرود وتردد، ورفضت الاشتراك في مباحثاته، لأن مفاوضاتها مع شريف مكة كانت تسير سيراً حسناً[٦٣] .

غير أن هذا التعليل ظاهر الضعف من حيث حقيقة شروع جمال باشا بالتفاوض مع الحلفاء بهذا الشأن، ولا سيما أن كتّاب ومؤرخي الترك قد نقضوا دعوى اشتراكه في هذه المحادثات بحجج معقولة، إذ لا يوجد أي دليل ملموس على اشتراكه فيها، وهي (أي المحادثات) لا تتضمن أي وثيقة موجهة منه وبتوقيعه إلى المتفاوضين. لذلك يعتقد المؤرخ يوسف حكمت بايور، وغالب فاردار المعاصر للحوادث، بأن هذه القصة هي من نسج الخيال، ولا تستحق أن تعار أي التفات، أللهم إلا بقصد الوقوف على تَطَلُّع الحلفاء إلى اقتسام أراضي الدولة العثمانية[٦٤] .

---

(٦١) جمال باشا المرسيني (الصغير)، المصدر السابق، ص١٢ .

(٦٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٣٧ ــ ٨٨؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى ج١ ص٦٣ .

(٦٣) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٤٧ ــ ٤٨، راجع نصوص الوثائق كاملة في كتاب «الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب»، من نشر جريدة الأيام الدمشقية ص١٧ ــ ٢٤، ومجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٨٨ .

(٦٤) G. VARDAR. Ibid. p. 304; Y.H. BAYUR. Ibid, I. p. 224.

ومع ذلك، فإن كل القرائن تدل على أن سياسة البطش والإرهاب كان موعزاً بها من الآستانة، حمل جمال عند قدومه إلى دمشق أولى تعاليمها، بالإضافة إلى ملفات جميع زعماء الحركة العربية وتقارير الجواسيس بحقهم[٦٥]. ومن ثم تتالت مع الأيام توجيهاتها. وأنا لا أشك في صدق ما أورده المحامي فائز الغصين في مذكراته (ص ٥) من أنه تحقق بنفسه أن الحكومة التركية وطدت العزم على البطش بشبان العرب وتشتيتهم وإبعادهم إلى المنافي، وأن صديقه خالد بك الحكيم قد حذره في ٢٣ تموز ١٩١٥، وأعلمه بأن أحد ضباط أركان الحرب في الجيش قد أسرَّ له عن «برقية وردت من الآستانة، لقيادة الجيش في دمشق، تقضي باتخاذ جميع الوسائل والطرق لتشتيت شبان العرب المؤمنين بقوميتهم، وتمزيق شملهم حتى والقضاء عليهم». كما أن جمال باشا نفسه قد أشار إلى ذلك في آخر خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق «إن طالعي كان القتل، نُدبت لقتال الناشزين من الأتراك(*) كما عُهد إليّ بقتل الناشزين عن الطاعة من العرب»[٦٦].

غير أن هذا الندب قد لاقى هوى في نفس جمال، واستجابة من طبيعته التي فطرت على الشر، فانساق في أعمال الإرهاب، بعد أن بدأها، إلى درجة أن الآستانة نفسها لم تستطع كبح جماحه في نهاية الأمر[٦٧]. كما أن أنور وطلعت لمسا فيه هذه النزعة، فلم يريا أقدر منه على تنفيذ الخطة التي رسماها لإفناء أحرار العرب، نظراً لقوة عارضته، وشدة بأسه. هذا من جهة ومن جهة أخرى فلشدة ما كانا يعانيان من مشاكساته ومنافسته لهما، ووقوفه حجر عثرة في سبيل مآربهما الشخصية، إذ كان مثلهما طموحاً، يحب الانفراد بالسلطة والاستقلال في الأحكام، قرَّ رأيهما على إبعاده عن الآستانة وزجه في مشاكل العرب، وإغراقه في بحر من الحرج[٦٨].

ولكن التنافس بين أنور وجمال لم تلبث مشاهده أن أخذت تنذر بالتكرر في سورية، بعد

---

(٦٥) محمد كرد علي، المصدر السابق، ج٣، ص١٣٨.

(*) إشارة إلى أعمال الفتك التي أوقعها بأعضاء جمعية الحرية والائتلاف في الآستانة عندما كان محافظاً وحاكماً عسكرياً لها عام ١٩١٣، بمناسبة اغتيال الصدر الأعظم الفريق محمود شوكت الاتحادي، وراح ضحية جمال عشرات من خصوم الإتحاديين، وبينهم الداماد صالح باشا التونسي صهر السلطان محمد رشاد نفسه.

(٦٦) محمد كرد علي ـــ المصدر السابق، ج٣، ص١٣٨.

(٦٧) Y.H. BAYUR, Ibid. III, 221.

(٦٨) أسعد داغر، ثورة العرب، ص١٦٢؛ مجلة الحرب العالمية الأولى ج١٢، ص٢٨، وج١٤ ص٣١ ـــ ٣٣.

قدوم جمال إليها ، كما أخذت بوادر الحسد والغيرة والدس والوقيعة تلعب دورها بين بعض السوريين ممن عرفوا باقتناص الفرص . فقبل أن يسافر جمال إلى سورية أوفد أنور باشا مرافقه الخاص وبعض الشخصيات السورية ، وفي مقدمتهم عبد الرحمن باشا اليوسف عضو مجلس الأعيان ، والشيخ أسعد الشقيري ، والأمير شكيب أرسلان وغيرهم ، ممن عرفوا بإخلاصهم الشديد لأنور باشا ، بصورة خاصة وللاتحاديين بصورة عامة ، وبدعوتهم إلى التمسك بأهداب الجامعة الإسلامية ـــ العثمانية ، وبمناوأتهم للإصلاح العربي على الطريقة اللامركزية ، وذلك لكي يمهدوا الجو الصافي لجمال قبل قدومه .

لكن جمال باشا لم يرتح للعمل الذي بدر من أنور باشا ، واعتبر ما قام به موفدوه ـــ بعد وصولهم إلى سورية ـــ ضرباً من الفوضى ، فأبرق طالباً إليه أن يستدعي مرافقه ، وأن يتكل عليه وحده في إدارة شؤون هذه المنطقة . ذلك أنه لم يكن يرغب قط أن يكون بجانبه أشخاص يعملون لحساب غيره ، بل أن يتصرف في شؤون سورية وكأنه السيد المطلق فيها . بهذه الصورة استطاع أحمد جمال القضاء على ما كان يرمي إليه أنور من منافسة نفوذه في سورية بواسطة صنائعه المعروفين من العرب .

في الحقيقة كان كل من أنور وجمال يعمل لنفسه ، وكذلك بقية أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، كطلعت بك وخليل بك ، ولم يكن الحزب الذي ينتمون إليه سوى الواسطة التي تساعد كلاً منهم على ترويج الدعايات الشخصية . كان هؤلاء الأربعة يمثلون أربعة اتجاهات متناقضة في قلب جمعيتهم ، ولكل منهم أنصار في شتى أنحاء السلطنة . كان هناك أنصار لجمال عرفوا باسم « جماليين » كما كان لأنور أنصار عرفوا باسم « أنوريين » وقس على ذلك(٦٩) .

غير أن الأشخاص الذين كانوا يؤيدون أنور باشا من السوريين لم يلبثوا ـــ بعد الذي رأوه من قوة جمال ومقدرته ـــ أن تقربوا إليه ، وأصبحوا يتمسحون بأذياله ، وينقلبون من « أنوريين » إلى « جماليين » ، ويفتخرون بأن يكونوا من أتباعه ، يدبّج يراعهم قصائد المديح لشخصه ، وينطق لسانهم بخطب التمجيد لسلطانه . وظلوا كذلك حتى استطاعوا اجتذاب عطفه عليهم ، بعد أن أبدى سأمه من تملقهم له . فلم يلبث بعدئذ أن اعتاد هذا التملق ، وبات يهتز سروراً وطرباً لدى كل مديح ، ويأخذه الاعتزاز ، وتهزه النشوة عندما يصل إلى علمه أن الشعب ينظر إليه كغول يُخشى بأسه وسيطرته . كما بدأ الحسد والغيرة يمتلكان شعور المتملقين من تقريبه الظاهري للإصلاحيين العرب ،

---

(٦٩) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٦٣ .

كالشهبندر وعبد الكريم الخليل وغيرهما، فأخذوا يدسون الدسائس للإيقاع بهم، ويوغرون صدر الباشا عليهم، وكانوا السبب في إعدام بعضهم. وقد اعتمد جمال باشا على هؤلاء الصنائع، اعتماداً تاماً، بعد أن التفوا حوله، وفي مقدمتهم الشيخ أسعد الشقيري، الذي عينه جمال مفتياً للجيش الرابع، ومستشاراً له يرشده في السياسة التي يجب أن يسلكها في بلاد الشام. فوقع عليه قسط كبير من مسؤولية النكبات التي حلت بأحرار العرب ـــ كما شهد بذلك عزيز بك رئيس استخبارات جمال باشا ـــ ذلك أن الباشا قد أوكل إليه، في أثناء غيابه في القدس وانصرافه إلى تهيئة المعدات اللازمة لحملة قناة السويس، دراسة الحالة العامة في البلاد وكشف الحركات التي تبدر عن أحد من أبنائها، أي بصريح العبارة قد جعل منه دائرة استخبارات مستقلة[٧٠]. وقد عرف الشقيري كيف يستغل اللحظة المناسبة لمفاتحة جمال بالوشاية التي حاكها ضد الشهيد عبد الكريم الخليل، ذلك أنه سرعان ما اغتنم فرصة عودة الطاغية من غزوة قناة السويس فاشلاً، وعلى درجة كبيرة من الاستياء والغضب، فدخل عليه وأدخل في روعه أن ثورة عارمة تدبر ضد الدولة في جنوبي لبنان، هدفها التمهيد لتدخل الحلفاء. ونصحه ألا يثق بعبد الكريم والشهبندر اللذين استقدمهما جمال إلى القدس ليتدارس معهما الحالة في الجبهة قائلاً له: إنهما على اتصال بإخوانهما السوريين الفارين إلى مصر، يزودانهم بكل ما هم بحاجة إليه من معلومات في سورية[٧١]، وإنه إذا أراد مزيداً من الإيضاح فما عليه إلا استدعاء كامل الأسعد ليعطيه التفاصيل.

كما كان من هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذي تحدث عنه عزيز بك قائلاً «أما الأمير شكيب أرسلان فقد كانت مطامعه أعم، فهو يريد أن يكون المستشار الأول لجمال كي يصبح السيد المطلق على مواطنيه، ما دام غير قادر على أن يكون حاكم جبل لبنان أو أميره. وكان له شيء من النفوذ الذي أحرزه لدى جمال باشا، وخدم به أخاه الأمير عادل، الذي كان مراقباً بسيطاً على الرسائل في إدارة البريد ببيروت، فقدم بذلك خدمة كبرى للدولة إذ أصبح يطلع السلطات الحكومية على كل الأسرار الواردة في تحارير مواطنيه، فكافأه جمال باشا بأن عينه قائمقاماً لقضاء الشوف»[٧٢].

كما يتحدث عزيز بك عن الأمير شكيب قائلاً إنه أصبح مستشار جمال باشا الوحيد في

---

(٧٠) المصدر السابق، ص٦٤ ـــ ٦٧.

(٧١) المصدر السابق، ص٨٣ ـــ ٨٤.

(٧٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

السياسة اللبنانية، وأن المشاريع التي نفذت في ذلك الوقت في لبنان كانت بناء على نصائحه، وأنه قد ساعد صاحب المذكرات(*) في إعداد لائحة طلبها جمال بأسماء زعماء البلاد وقادة الرأي فيها، كي يعدهم مسؤولين إذا اختل الأمن، فجاءت القائمة مستندة في بعض الظروف على حزازات شخصية. وقد روى (عزيز) حديثاً دار بينه وبين الأمير يفهم منه أن الأمير كان محبذاً لإعدام الشهداء، لا بل كان من رأيه أن يكون ثمة مزيد من هذه الأحكام، وأن الشعب العربي يعتبر أن العمل الذي قاموا به خيانة. ولما استغرب الكاتب قول الأمير، وأبدى شكه في صحة ما ينسبه للشعب العربي، أجابه إنه سيرى البرهان على قوله هذا بعينه، ويقصد بذلك أن أهالي جبل لبنان من الدروز سيقيمون حفلة تكريم لجمال باشا. وفعلاً دبر الأمير حفلة شائعة في الباروك أقامها الدروز لجمال باشا، وكان قصد الأمير منها — كما قال عزيز بك — تمثيل روايتين في آن واحد، الأولى: مداهنة جمال وحمله على الاعتقاد بصداقته وإخلاصه ليؤمن له الفوز في مضمار السياسة اللبنانية، ويعين أخاه الأمير عادل في قائمقامية الشوف، والثانية: أن يبرهن للباشا أنه ذو نفوذ مطلق على دروز الجبل، وموازرته معاً. وهكذا أقيمت المأدبة، بعد يومين من تنفيذ أحكام الإعدام بالقافلة الأولى، وكانت غاية في الفخامة والترف، تقدم لدعوة الباشا إليها عجاج بك العماد، وتامر بك، وفرحان بك أبي علوان من زعماء دروز لبنان، وبرفقتهم الأمير شكيب. وعلى كل حال فقد نال الأمير مكافأة إخلاصه للدولة بأن منح الوسام المجيدي من الدرجة الثانية[٧٣].

وإذا كانت الشواهد التي من شأنها أن تدمغ الشقيري بوصمة الدس والوقيعة متوفرة في المصادر التاريخية، فإن القليل منها يأخذ على الأمير شكيب أرسلان(*) أنه كان يعتقد بوجوب البقاء في حظيرة الرابطة العثمانية — الإسلامية تحت راية الاتحاديين[٧٤]، الذين آمن بكل جوارحه بأنهم مخلصون في وطنيتهم، وفي اتباعهم السياسة التي تجنب السلطنة العثمانية، بما فيها البلاد العربية،

(*) يقصد بعبارة صاحب المذكرات: هو نفسه (أي عزيز بك).

(٧٣) عزيز بك: المصدر السابق، ص٢٨٣ — ٢٨٧.

(*) يذكر الكاتب أدهم الجندي في كتابه شهداء الحرب العالمية الكبرى (ص١١٩ — ١٢٠) أن جمال باشا أولم وليمة في أواخر ايلول ١٩١٥ دعا إليها أكثر من ثمانين من أعيان دمشق، ألقى خلالها شكيب أرسلان خطابا حرض فيه جمال باشا على المزيد من الفتك والشنق بمن دعاهم بالخونة، الذين أسسوا أحزاباً تارة باسم الإخاء العربي وطوراً باسم الحرية والإئتلاف أو باسم الاصلاح أو اللامركزية، وأن شفيق المؤيد العظم كتب رسالة لجمال تساءل فيها عمن يعنيهم شكيب أرسلان بكلامه الثقيل الخالي من اللياقة، فذيلها جمال بعبارة «من كان في برزعته مسلة وخزته»، ولم تمض أيام حتى اعتقله.

(٧٤) ETTORE ROSSI, Documenti Sull'Origine Egli Sviluppi Della Questione Araba, p. 19.

الوقوع في براثن الاستعمار الغربي ، الذي كان يمقته شديد المقت ، والذي كانت نظرته إلى مطامعه فيها نظرة صحيحة لا تشوبها أية شائبة . وهو وإن لم ينكر المبادىء التي قامت عليها سياسة الإصلاحيين العرب ، إلا أنه كان يرى أن الإصرار في المطالبة بها من جهة ، وتعنت الأتراك وترددهم في إقرارها من جهة أخرى ، من الأسباب التي تؤدي إلى انقسامٍ قد يقضي على الدولة ، وأن أية حركة تؤدي إلى تمزيق الدولة لا بد أن يعقبها استيلاء الأجانب على سورية وفلسطين والعراق ، وهكذا بقي طيلة الحرب يعمل للوحدة العربية التركية والتضامن الإسلامي . قال الأمير لمعارضيه في إحدى المناسبات التي جمعته بهم :

« لا أعتقد أن بينكم من هو عربي أكثر مني ، افتحوا عيونكم إلى ما يهدد البلاد العربية من خطر ، إقرؤا الجرائد الأجنبية ، انظروا إلى المعاهدات التي أُعلنت ، وإلى الاتفاقات التي أُذيع خبر عقدها ، ولم تنشر ، تروا أنها كلها ترمي إلى تقسيم الدولة ، وذهاب الأقطار العربية للإنكليز وللفرنسيين[٧٥] .

وليس أنصف للأمير شكيب أرسلان من رأي الأمير فيصل فيه ، ذلك أن فيصلاً كان يعتقد بإخلاصه للقضية العربية ، وأنه من المؤمنين بخدمتها والساعين في إعلاء شأنها ، وأنه قد عمل للعرب تحت ظل الخلافة الإسلامية . خلاصة القول كان فيصل يعرف عنه ما كان الناس يجهلون ، ويقدره حق قدره ويبادله الود والمحبة ، كما ذكر الكاتب سامي الدهان[٧٦] .

جمال باشا

ينتمي جمال باشا في أصله إلى العرق الكردي ، وقد ولد من أب عمل جلاداً في خدمة السلطان محمود الثاني ، وكان اسم « الجلاد » هو الشائع عن أبيه في الآستانة . عُرف بالذكاء المتوقد وسرعة الفهم ، والمهابة ومضاء العزم ، كما عُرف بالشدة والعنف والفظاظة وسرعة الانفعال والغطرسة ، وشدة المراس مع غرام بالمجد وولع باكتساب دوي الذكر ، ومقدرة على كتم نيّاته الخبيثة ، والظهور بمظهر يختلف عن المخبر ، فإذا ما استثير وغضب أصبح مخلوقاً فظاً لا يتورع عن شيء ، وهو في

---

(٧٥) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٦٩ .

(٧٦) سامي الدهان ، المصدر السابق ، ص١٧ .

اندفاعه إلى الانتقام والبطش شبيه بالوحش الضاري فتكاً بخصومه[٧٧]. شغل طيلة وجوده في الآستانة، وإلى جانب المناصب التي تقلدها، إدارة فرع الجواسيس والفدائيين في جمعية الاتحاد والترقي، وكان الرأس المدبر لجميع المؤامرات والاغتيالات التي انتهج خطتها الاتحاديون، كما روي عنه أنه هو الذي دبر مذابح الأرمن في آدنة عام ١٩٠٩[٧٨].

وعندما جثم على صدر سورية استطاع، بما أحاط به نفسه من مظاهر السلطان والأبهة[*]، وما اصطنع من وسائل الجبروت والقسوة أن ينشر جواً قاتماً من الإرهاب الشديد، قاسى العرب في ظله عظيم العنت والبلاء والذعر، وزاد ديوان عاليه الذي أقامه للتنكيل بالعرب ــ بما رافقه من تحقيقات ومطاردات ومآسٍ ــ الشدةَ شدةً والبلاءَ بلاءً، إذ أخذ يبطش بطشته الكبرى، آخذاً البريء بجرم المذنب، والمحق بعمل المبطل، حتى صارت القلوب تهلع من اسم «جمال»، والبلد الذي ينزل فيه يهتز رعباً من قدومه. وكان وجوده ورحلاته تتراءى للسكان كأنها بلاء نازل وداهية دهياء، يحار الناس كيف يدفعون شره، ويدعون ربهم باللطف فيهم منه، ويفتنُّ الذين كتب عليهم أن يحتكوا به في ضروب التزلف إليه جلباً لرضائه ودفعاً لسخطه[٧٩].

بعد خذلان جمال في حملة القناة، وعودته إلى سورية ــ مدعياً أن الحملة لم تفشل، لكنها قامت بمهمتها المرتجاة من حيث دراسة الحالة عن كثب، وأخذ العبرة اللازمة لإعادة الكرة، وأنه في صدد الاستعداد لحملة أخرى قريبة ــ[٨٠] التف حوله المتملقون، وازدادت موجة الوشايات تنهال عليه بكثرة هائلة، وتراكمت أمامه تقارير جواسيسه ورجال استخباراته، وكلها تضرب على وتر اتصال السوريين بالفرنسيين وبالحلفاء، وأخذت فكرة نزول قوات عدوة في الاسكندرونة تتناقلها

---

(٧٧) CAPIT. SEIGNOBOSE, Ibid. pp. 55-56 ; أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٥؛ لوثروب ستوارد، المصدر السابق، ج٤، ص٣٩٠، من مقال بقلم الأمير شكيب أرسلان.

(٧٨) أسعد داغر، ثورة العرب، ص١٦٢.

(*) لعل ما وصفه به أمين سعيد خير ما يكوّن فكرة عن حبه للفخفخة، قال «كان يركب ركبة الملوك، ويسير في موكب لا يقل عن موكب السلطان نفسه عظمة وجلالاً، والموسيقا تعزف بين يديه، والشعراء ينشدون قصائدهم ويتغنون بمدحه ويتغزلون بوصف أعماله وإصلاحاته، وقادة الجيش رهن إشارته، والحكام طوع أمره، والعلماء ببابه، يعطي ويهب، ويعفو وينتقم، لا كلمة فوق كلمته ولا نفوذ يعلو نفوذه (أمين سعيد، الثورة العربية، ١ :١٦٦).

(٧٩) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ج١، ص٤٣.

(٨٠) مذكرات جمال باشا، ص٢٧٤.

الأفواه[٨١]، وراجت شائعة قوية في بيروت وسورية بأن مسيحيي لبنان وطدوا العزم على القيام بثورة[٨٢]، فاشتد جزعه واستغل الحلفاء هذه البلبلة، فأخذوا ينشرون الأراجيف المختلفة التي من شأنها التفريق بين الشعبين العربي والتركي[٨٣]، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه الحقد على العرب، وبخاصة منهم الشريف حسين، يتغلغل في صدره من جراء فشل حملته، فصار يستمع إلى كل ما يقال، ويصدّق كل ما يسمع. وراح يتوهم أنه محاط بالخونة والجواسيس من جميع الأطراف، وأن أحرار العرب يتحفزون لثورة جامحة تطيح به وبدولته، فزادته هذه الأوهام حدة وغضباً، ورغبة طاغية في الانتقام والاقتصاص، بحق أو بدون حق، من كل من سبق له نشاط في العمل القومي العربي، ولو قبل نشوب الحرب. وكان جمال قد صرف جل اهتمامه إلى تنظيم دائرة الاستخبارات في سورية ولبنان وفلسطين. فأعفى رجال الصحافة من الخدمة العسكرية أو أجّلها، وخصص لهم مبالغ ضخمة. كما خصص مبالغ طائلة للجواسيس بحسب أهمية مناطقهم، وعُني خاصة بالتجسس في منطقتي دمشق وفلسطين، وقد أربى عدد الجواسيس فيهما على مئتين، يتراوح راتب كل منهم بين ٥ ــ ١٥ ليرة عثمانية ذهباً شهرياً. فجمال هو الذي خلق الجاسوسية في سورية تأييداً لمركزه[٨٤]، فأصبحت تُحصى على الأحرار أنفاسهم، عدا عن ذهاب كثيرين منهم ضحية التقارير الكاذبة.

وما لبث أن نبش قضية الوثائق التي عثرت عليها سلطات دمشق وبيروت في قنصليتي فرنسا فيهما، تلك الوثائق التي قال إنها تتناول شخصيات هامة من العرب منهم: الأمير علي عبد القادر الجزائري وكيل رئيس مجلس المبعوثان، وأخوه الأمير عمر النائب في مجلس المبعوثان عن دمشق، وشفيق المؤيد العظم، وعبد الحميد الزهراوي عضو مجلس الأعيان، ويحيى الأطرش من شيوخ جبل العرب، وعبد الوهاب الإنكليزي المفتش الإداري، وشكري العسلي، ورشدي الشمعة مبعوثي دمشق السابقين، وغير هؤلاء من كبار وجهاء العرب. وادعى أنه كان قد احتفظ بها في أحد أدراجه عندما عرضها عليه والي دمشق خلوصي بك فور قدومه إلى دمشق، ولم يشأ أن يتخذ ــ كما قال في مذكراته ــ «أي إجراء فوري بشأنها خوفاً من تعريض وحدة الإسلام للخطر، وضناً من أن تنظر أقطار إسلامية، انقطع اتصال الترك بها كمصر والجزائر ومراكش، إلى الأتراك وكأن ثورة من

---

(٨١) جلال يحيى، المصدر السابق، ١٦٤.

(٨٢) مذكرات جمال باشا، ص٣٤٦.

(٨٣) الدكاترة بديع شريف، أحمد عزت عبد الكريم ...، المصدر السابق، ص١٠٩.

(٨٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، ج١٤، ص٣١ــ٣٣.

الانتقام قد تملكتهم أو أنهم يسعون لتحقيق سيادة الأمة الطورانية عن طريق الفتك بوجهاء العرب، وأملاً في أن يرعوى من تناولتهم هذه الوثائق فيقلعون يوماً ما عن غيهم»[٨٥].

كما وقعت في يد السلطات التركية مراسلات هامة، بعضها بعث بها حقي بك العظم أمين سر حزب اللامركزية العثمانية في مصر إلى محمود المحمصاني في بيروت، صادرتها دائرة الاستعلامات أو مصلحة المراقبة على الرسائل، وسلمتها إلى قيادة الجيش، وبعضها الآخر وهي عبارة عن مراسلات وأوراق بينها نسخ مناشير قديمة العهد، وأوراق شتى تتعلق بحزب اللامركزية والجمعية القحطانية والجمعية الثورية، وكانت محفوظة عند حقي العظم، وقعت في يد الحكومة بطريقة ما. قال أمين سعيد في كتابه «الثورة العربية الكبرى»، دون أن يذكر المصدر، إن بعض ذوي الثقة أكدوا له أن محمد الشنطي اليافي، أحد مساعدي حقي العظم ومعتمديه، قد اغتنم إحدى الفرص فسافر في أوائل الحرب إلى آثينا فسلمها بكاملها إلى السفير العثماني غالب بك،[*] طمعاً في مكافأة

(٨٥) مذكرات جمال باشا، ص٣٣٥ ــ ٣٣٧.

(*) في الواقع أن من يلقى نظرة على كتاب «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان حرب عاليه»، الذي أصدره جمال ليبرر الأحكام بحق المتهمين، يندهش من كثرة هذه المراسلات وتنوعها. كما تدعو كثرتها وتنوعها، ورجوع أكثرها لتواريخ قديمة، إلى استغراب كيفية وقوعها دفعة واحدة بيد الأتراك، إذا لم تكن هناك من يد سلمتها إليهم قصداً، في حين يقول الحكم الصادر بحق الشنطي أنه أتى بمراسلات وسلمها إلى أصحابها من أعضاء حزب اللامركزية (ايضاحات، ص١٢١). ومع ذلك قد يكون هو الذي سلمها للحكومة وقصد جمال بما أدعى في كتاب «إيضاحات» تجريمه بعدما بلغه من اساءته إلى الثقة التي أولته إياها الحكومة. على أن القس بولس خوبري، وقد عمل في خدمة الاستخبارات الفرنسية، إذ أُرسل من مصر إلى سورية لاستقصاء أخبار الجيش العثماني فيها، وإرسالها إلى الفرنسيين، قال في كتابه «الرحلة السورية في الحرب العمومية»، الذي تحدث فيه عن الأعمال التي قام بها في سورية، تنفيذاً لهذه المهمة، إنه اتصل في دمشق بأحد الضباط العرب واستوضحه عن سبب إعدام الشهداء الذين شاهد مشانقهم منصوبة في ساحة المرجة، فأجابه قائلاً «إن أحمد جمال باشا بعد أن أطلق سراح المنفيين عاد اليوم واعتقلهم ثانية... وهاك السبب: قد برز بعد الخفاء رجل خائن يدعى محمد الشنطي (من يافا)، كان يمتهن الصحافة في مصر، كما كان من كتاب جمعية اللامركزية المطلعين على أسرارها. وقد دهمت الحرب هذا الخائن وهو في يافا فذهب على مركب شراعي إلى مصر لكن السلطة الإنكليزية في بورسعيد منعته من النزول، لما اشتهر عنه من الأعمال السيئة قبل الحرب. ولما استغاث مدعياً أنه إذا عاد إلى بلاد الشام يكون نصيبه الإعدام ولا شك، سفّرته السلطات الإنكليزية إلى اليونان حيث قابل سفير تركيا في آثينا، وطلب إليه أن يلتمس له العفو من طلعت باشا لقاء أن يطلع الدولة على أسماء أعضاء حزب «اللامركزية» وأن دافعه إلى ذلك ليس إلا شدة إخلاصه للدولة وحمايتها من دسائس العرب، فأبرق السفير إلى طلعت وأوفد الشنطي إلى الآستانة مع وعده بمكافأة قيمة، ومن هناك أُرسل إلى جمال باشا في سورية، فقربه وأكرمه إلى أن سلمه سجلات الجمعية وتقاريرها السرية، فاعتقل جمال أعضاء هذه الجمعية التي كشف الشنطي سترها أمام المجلس العرفي (ق. ب. خوبري ــ الرحلة السورية في الحرب العمومية ص٣٥ ــ ٣٦.

مالية كبيرة من الدولة فأحيل بالتوالي إلى طلعت بك وزير الداخلية ثم إلى جمال باشا ، فقصد دمشق ونزل ضيفاً عزيزاً على الحكومة ، بعد أن سلمها الأوراق ، وتوثقت صلته بأركانها ، وصار يتناول الأموال من صندوقها . وعندما بدأ يستغل نفوذه هذا لابتزاز الأموال من الشبان العرب ، وكانوا يومئذ في أزمة نفسية ، ذهب أحد الوجهاء العرب المقربين من جمال وقص عليه قصة الشنطي ، فأمر باعتقاله ومحاكمته في سجن عاليه ، فأعدم مع القافلة الثانية (١٩١٦/٥/٦)[٨٦] .

لقد ألف جمال لجنة خاصة لدرس هذه المستندات مع الوثائق التي ضبطت من القنصليتين الفرنسيتين وكانت هذه تحتوي على صور مخابرات جرت بين السفارة الفرنسية في الآستانة والقنصليتين المذكورتين ، وبين وزارة الخارجية الفرنسية ، حول سياسة فرنسا في سورية ، وبلاغات واردة من وزارة الخارجية الفرنسية ، وتقارير مقدمة إليها من بعض الجمعيات العربية في لبنان ، أو صور محادثات جرت مع بعض رجال السياسة من العرب[٨٧] . ولما أُنجزت دراستها وقُدمت إلى جمال أحالها مع المتهمين إلى ديوان الحرب العسكري الذي ألفه وجعل عاليه بولاية بيروت مقراً له .

وكي تكون الأمور واضحة أرى أن أُلقي نظرة على مضمون هذه الوثائق . فبالنسبة لوثائق القنصليتين الفرنسيتين :

أولاً : إنها بأجمعها ترجع إلى الأشهر الأولى من عام ١٩١٣ ، أي الفترة التي كان العرب فيها يفكرون في الخروج من مأزق التضييق الشديد الذي تعرضوا له من الحكومة ، بعد الانقلاب الاتحادي على الائتلافيين ، فانتهى بهم الأمر إلى عقد مؤتمر باريس في ١٨ حزيران ١٩١٣ ، ومعروف أن الأمور قد سُويت بين العرب والترك على وجه مرضي عنه من الطرفين ، بعد نجاح ذلك المؤتمر .

ثانياً : بينما لم تتعرض الوثائق قط إلى عبد الحميد الزهراوي ، حتى إنها لم تذكر اسمه ولم تشر إلا إلى أسماء الأميرين عمر وعلي عبد القادر الجزائري واسم شفيق المؤيد العظم فقط ، نرى كتاب إيضاحات يزج بأسماء كثيرة ويحشر أصحابها بين من ذكرتهم هذه الوثائق ، مثال ذلك الزهراوي وشكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي وغيرهم ، ذلك أنه ، بعد أن أورد نص الوثيقة التي ذَكَرت اسم شفيق المؤيد العظم ، أضاف بعدها أن « الأول » ــ أي العسلي ــ لم يتورع عن مراجعة قنصل فرنسا في الشام ، وأن الأمير عمر الجزائري ، الذي هو من تبعة فرنسا ، « ويتقاضى راتباً شهرياً

---

(٨٦) أمين سعيد ، الثورة العربية . . . ، ج١ ، ص٦٦ ــ ٦٧ ؛ أدهم آل الجندي ، المصدر السابق ، ص١٢٧ .
(٨٧) ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، ص٢٣٢ ــ ٢٣٣ .

٣٠ ليرة من القنصل الفرنسي في الشام» (وقد ورد اسمه في الوثائق بهذا المعنى فقط)، قد جاء بشكري العسلي إلى القنصل، وعرفه به فطلب القنصل من شكري أسماء الأشخاص الذين يمكنهم أن يقوموا بخدمة ما، وأنه ذكر للقنصل، عدا عن نفسه، عبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشمعة، وبعض أشخاص آخرين، وأن يحيى الأطرش قد ذهب إلى مصر ودخل الجمعية اللامركزية هناك، وأن شكري قد قدمه إلى القنصل. لقد جاء في كتاب إيضاحات بعد هذه الفقرات قوله إن الوثيقة التي تتضمن هذه المعلومات ستنشر، وبالطبع لم تذكرها المصادر العربية ولا التركية التي بين يديّ، فلو كان ثمة وجود حقيقي للوثيقة المذكورة فلماذا لم تُنشر في الكتاب مع غيرها من الوثائق؟[٨٨]

أما الاتهام الذي استُنتج من هذه الوثائق بحق شفيق المؤيد العظم، وهو المتهم الرئيسي فيها، فيظهر من الوثيقة المنشورة، المتضمنة كتاب سفير فرنسا في الآستانة المؤرخ ١٩١٣/١/١٣ إلى وزير الخارجية الفرنسية، أنه عبارة عن استفسار من السفير عن المعنى الذي ترمي إليه بيانات فرنسا عن المسيحيين القاطنين في البلاد العثمانية ... وهل سيكون اهتمام فرنسا محصوراً بالمسيحيين فقط أم سيشمل مسلمي سورية الذين اعتادوا أن ينظروا إلى فرنسا نظرة وطن ثان. فأجابه إن فرنسا صادقة في مودتها ومظاهرتها القديمة لأهالي سورية من غير تفريق بين دين وآخر، أو مذهب وآخر، وأن هذه الإيضاحات قد شفت غليله، فطلب منه تكرارها مراراً عديدة مع بيان شكره الحار له، وأن شفيقاً قد أوغل في روح المسألة وبحث له عن الإصلاحات الواجب تنفيذها في أصول إدارة سورية وعن اللامركزية، وعن قلب ولايات سورية الثلاث إلى إمارة، وعدم قبول الأتراك في الوظائف العمومية ....، وسأل: هل فرنسا مستعدة لسوق جيش إلى حلب فيما إذا ساقت الدولة العثمانية قوة لإبقاء سورية تحت سيطرتها؟[٨٩] وتختم الوثيقة قولها إن شفيق المؤيد العظم سيتوجه إلى مصر لهذه الغاية.

ويذهب كتاب «إيضاحات» إلى تأكيد أن اجتماعاً قد جرى في بيت اسكندر عمون بمصر، ترأسه الزهراوي وحضره شفيق المؤيد العظم ورفيق العظم والشيخ رشيد رضا وسائر اللامركزيين، وأنه قد تقرر في هذا الاجتماع الغاية التي ابتغتها الجمعية من عقدها لمؤتمر باريس. وتصديقاً لقوله يثبت نص كتاب مؤرخ في ١٩١٣/٣/٢٥، موجه من وزير خارجية فرنسا إلى قنصل فرنسا العام في

---

(٨٨) الجيش الرابع، إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان عاليه، ص٥٧ ــ ٥٨.
(٨٩) المصدر السابق، ص٥٢.

دمشق، جاء فيه أن البرقية الواردة من المسيو دو فرانس، مأمور فرنسا السياسي في القاهرة، تقول إن اجتماعاً هاماً جداً عُقد في القاهرة من قبل هيئة إدارة حزب اللامركزية، المؤلفة من السوريين المسلمين والمسيحيين (دون ذكر الأسماء)، وأن مقرراته تضمنت العزم على قلب سورية إلى إمارة ممتازة تحت حماية فرنسا تدار من قبل أمير مسلم ينتخبه الأهالي بكمال الحرية[٩٠]. لكن الوثيقة لم تذكر من الأسماء سوى اسم المسيو تويني، ترجمان القنصلية الفرنسية في بيروت، مندوباً عن الجمعية اللامركزية في سورية. وعلى كل حال لا تخفى غاية جمال من إدخال اسم الزهراوي ورفاقه في هذا الاجتماع وهو قد عقد العزم على البطش بهم.

على أن الشيء الذي يلفت النظر، ويجعل قيمة هذه الوثائق ضئيلة أنها جاءت يناقض بعضُها بعضاً. فلقد أثبت كتاب «إيضاحات» نص كتاب مرسل في ١٩١٣/٤/٢٨، من قبل وزير خارجية فرنسا إلى قنصلية فرنسا العامة في بيروت، جاء فيه أن مأمور فرنسا السياسي في القاهرة كتب عن المعلومات الواردة في الكتاب السابق أن مأمور فرنسا السياسي في القاهرة أعلمه أن المقررات التي اتخذها حزب اللامركزية «هي غير قطعية، وغير مقارنة لاتفاق الآراء»[٩١]. فإذا عرفنا أن آراء المسلمين من الإصلاحيين تختلف على طول الخط مع المسيحيين منهم، بخصوص النفوذ الأجنبي، اتضحت لنا رغبة جمال في استغلال هذه الوثائق إلى أقصى حد، دون أن يعير ما جاء فيها مناقضاً لغايته أية أهمية، مثل قول الوثيقة الأخيرة نفسها «إن رفيق بك العظم رئيس الحزب يرى أن لا يكون أحد آمراً على هذه الإمارة المستقلة سوى شفيق بك المؤيد العظم رئيس أسرتهم، وأنه ــ أي مأمور فرنسا ــ لم يسمع أن مسألة جعل سورية على شكل إمارة ممتازة قد وضعت موضع البحث في اجتماعات الحزب أصلاً، ولكن كثيراً من أعضاء الحزب يشتغلون بهذه المسألة»[٩٢]، وكقول الوثيقة المؤرخة في ١٩١٣/٤/٢٢ أن شفيق المؤيد العظم قد زار قنصل فرنسا في بيروت، وأبدى ارتياحه لوشك تسوية الأمور بين العرب والترك، وأن بعض المندوبين ومنهم أحمد مختار بيهم سيتوجهون إلى دار الخلافة وأوروبا، لأجل المفاوضة في مسألة سورية، مع ممثلي الحكومة العثمانية، وحكومات الدول العظمى في لندره وباريس[٩٣].

---

(٩٠) المصدر السابق، ص٥٤؛ نسخته التركية، ص٥٠ ــ ٥١.

(٩١) المصدر السابق، ص٥٥.

(٩٢) المصدر السابق، ص٥٦، نسخته التركية، ص٥٦.

(٩٣) المصدر السابق، ص٥٧.

وإذا ضربنا صفحاً عن التناقض الظاهر في هذه المراسلات فإن ما يدعو إلى الاستغراب كون جمال باشا قد أخذ ، بجريرة القلائل الذين ذكرت أسماؤهم فيها ، جميع متنوري العرب الذين اشتركوا في الحركة الوطنية العربية قبل مؤتمر باريس ، ضارباً عرض الحائط بمقررات المؤتمر المذكور التي سوت الأمور بين العرب والترك ، والتي كانت هذه المخابرات سابقة لها ، ولم يعر أية أهمية لما ثبت له بالتحقيق في ديوان حرب عالية بأن شفيق المؤيد العظم ــ الذي تمسه الوثائق ــ لم يكن ممن يثق بهم رجال الحركة الوطنية ، بل جاء في التحقيق ما يثبت أنه قد أُبعد عن رئاسة المؤتمر وعن عضويته لأنه « من الرجال الذين يشتبه بأمرهم »[٩٤] . فاعتبار أعضاء « حزب اللامركزية » مجرمين ، لمجرد ورود اسم شفيق المؤيد العظم ــ الذي علم جمال بأنه منتسب إلى الجمعية المذكورة ــ وأخذهم بجريرته وإعدامهم ، لاعتبار الديوان العرفي وثيقة القنصلية الفرنسية كافية لاتهام الحزب بالتآمر على الدولة ، خدمة لمصالح فرنسا ، شيء لا يأتلف مع المنطق والعقل[٩٥] .

هذا عن الوثائق التي تمس المسلمين من رجال سورية ، أما الوثائق التي نشرت عن وصم المسيحيين منهم بالخيانة ، فإنها تختلف تمام الاختلاف . ذلك أنها كتب ومذكرات سياسية هامة ، قدموها هم بأنفسهم ، وتحت تواقيعهم وبأسمائهم المعروفة إلى القنصليات الفرنسية ، وفيها مطالب انفصالية ورغبة في التبعية لفرنسا واضحة تمام الوضوح . مثال ذلك المذكرة المؤرخة في ١٩١٣/٣/١٢ المقدمة بتوقيع ميشيل تويني ، يوسف الهاني ، بترو طراد ، أيوب ثابت ، رزق الله أرقش ، وخليل زينية إلى المسيو « كوجه » قنصل فرنسا بالشام الموجود في بيروت ، والتي تشكو زيادة الضرائب ، وازدياد تعصب الترك ضد المسيحيين ــ مما يجبرهم على الهجرة ــ انتقاماً لهزيمة البلقان ، التي كانت عبارة عن اتحاد الصليب ضد الهلال ، ورغبة من الترك في إحلال مهاجري الولايات الأوروبية المغتصبة (الأتراك) محلهم ، وأن هذه الأسباب هي التي دعتهم إلى توحيد مساعيهم مع المسلمين في تنظيم اللائحة الإصلاحية على أساس إيجاد رقابة أوروبية على جميع أقسام الإدارة ، وأن نصارى سورية مرتبطون مع فرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك ، وأكبر آمالهم أن تستولي فرنسا على بلاد الشام ، وأن الحل يكون على الوجه الآتي : استيلاء فرنسا على سورية ، وإعطاء الحكم الذاتي لولاية بيروت ، وإلحاقها بلبنان على أن يكون كلاهما تحت مراقبة فرنسا وحمايتها الفعلية[٩٦] .

---

(٩٤) المصدر السابق ، ص٥٨ ، نسخته التركية ، ص٥٦ .

(٩٥) ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، ص٢٣٢ ــ ٢٣٣ .

(٩٦) إيضاحات ... ص٣٩ ــ ٤١ ، نسخته التركية ، ص٣٥ ــ ٣٧ .

أما الوثيقة التي حوكم نخلة باشا مطران — من متنفذي بعلبك — من أجلها فتاريخها ١٩١٣/١/١٥، موجهة من قنصل فرنسا في دمشق إلى وزير خارجيته، وقد تحدثت عن مراجعته للقنصلية مبيناً ولاءه لفرنسا، مفاوضاً إياها للعمل بشأن إلحاق بعلبك ووادي البقاع بلبنان، لأنها بحسب التقسيمات الجغرافية عائدة للجبل، وأنهم باحتياج إلى حكومة فرنسا لأجل تحقيق أمانيهم الوطنية، مسلمين ومسيحيين، وجميعهم متفقون في الهدف، سواء أرضيت الحكومة العثمانية أم لم ترض، وسيستعينون على ذلك بعصابات من البلدة، على أن يذهبوا إلى بيروت للمفاوضة بهذا الخصوص مع المسيو كوجه الذي له اهتمام بمسائل لبنان[٩٧].

لقد قُدم نخلة باشا مطران إلى المحكمة العسكرية قبل قدوم جمال باشا إلى دمشق، فحكمت هذه عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في أثناء غياب جمال في حملة السويس[٩٨]. إلى هنا تبدو المسألة وكأنها عادية، إنما الأمر المستهجن هو التشنيع الذي تعرض له نخلة باشا، والمصير الذي آل إليه، وهو وجيه في قومه عزيز عليهم، ذلك أنه بعد أن بُلغ الحكم في ١٩١٥/١/٦، في دار الحكومة بدمشق، وُضع في عربة أحاطها أفراد الدرك، وأُلبس طاقية قذرة استبدلها أحد القرويين بطربوش الباشا الجديد، ووقف القروي بثيابه الرثة أمامه في العربة، وبيده حذاء قديم يغطسه في سطل ماء ويصفع به وجهه منادياً: «هذا نخلة مطران خائن الوطن» وبجانبه ضابط يدعو الناس لأن يبصقوا في وجهه، فيأتون أفواجاً ويبصقون، والقروي يصفعه بالحذاء، وهو يمسح البصاق عن وجهه... وهكذا حتى طافوا به جميع أحياء المدينة، يقذفه الناس بالطين والوحل والقاذورات[٩٩]. وبعد أن طافوا به على هذا الشكل أنحاء المدينة أعادوه إلى القلعة مكبلاً بالحديد.

أما جمال فيضيف (في مذكراته) إلى هذه القصة قوله «وبعد زيارتي للقدس أخبرني خلوصي بك بأن بقاء نخلة باشا في دمشق غير مرغوب فيه، وأنه قد حصل على موافقة من الآستانة بإرساله، مع من يحرسه، إلى ديار بكر، وبينما هم في طريقهم إليها حاول الباشا الفرار ذات ليلة بالقرب من جرابلس، ولكنه وجد قتيلاً بجانب حراسه»[١٠٠]. غير أن الحقيقة قد تكون خلاف ذلك، فقد أورد

---

(٩٧) إيضاحات، ص٣٣.

(٩٨) مذكرات جمال باشا، ص٣٣٦.

(٩٩) فائز الغصين، المظالم...، ص٣٠ — ٣١؛ لطف الله البكاسيني، المصدر السابق، ص٢٠٢؛ أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص١٢٩ — ١٣٢.

(١٠٠) مذكرات جمال باشا، ص٣٣٦.

الخوري أنطون يمين قصة مقتله بقوله إن مأمور محطة تل أبيض قد حدّث سائق القطار إيليا الهراوي الذي له معرفة سابقة بنخلة باشا قائلاً «همس الضابط المكلف بمراقبته في أذن النفرين الحارسين له، فذهبا والباشا برفقتهما، ولم تمض ربع ساعة حتى سمعنا صوت طلق رصاص، وبعد هنيهة عاد النفران وأخبرا الضابط أن الباشا حاول الهرب فأطلقا عليه الرصاص فقتل»، ثم سلباه خاتمه الذهبي وحذاءه وسلماهما للضابط الذي شوهد يرتديهما[١٠١]. وليس نخلة باشا مطران وحده الذي ذهب ضحية اتصاله بالفرنسيين بل تبعه في هذا المصير الخوري يوسف الحايك، ويوسف الهاني، والأخوان فريد وفيليب الخازن وغيرهما.

هذه قصة الوثائق الفرنسية، أما قصة وثائق الجمعية اللامركزية والقحطانية والثورية، فإن معظمها ــ وهي إما رسائل خاصة أو حزبية أو منشورات قديمة ــ تحمل تاريخ عام ١٩١٣ أو ما قبله، وليس بينها ما كتب بعد دخول تركيا الحرب. ومنها رسالتان هامتان تحمل إحداهما تاريخ ١٩١٤/٤/١٦، أي قبل نشوب الحرب العامة، والثانية في العام ١٩١٤، بعد نشوب الحرب وقبل أن تدخلها الدولة العثمانية، وقد أُرسلتا: الأولى من قبل حقي العظم إلى محمود المحمصاني في بيروت، والثانية موقعة بحرفي ع. ر. وموجهة إلى كامل أفندي هاشم(*)، جاء في أولاهما المؤرخة في ١٩١٤/٤/١٦ ــ وهي التي اعتمد عليها جمال باشا في الحكم بالإعدام على من وردت أسماؤهم فيها ممن شكلوا القافلة الأولى، وبعض أفراد القافلة الثانية ــ إنه تم قبول مصطفى أفندي سميسمه عضواً في الحزب، وإنه اقترح قبول محمد أفندي (المحمصاني) فيه فقُبل بكل سرور، دون استئذان من هذا الأخير، وأنه يوجد للحزب فروع في مدن حماة وحمص وجنين ونابلس وبعلبك والبقاع ووادي العجم والموصل والبصرة. وفيها وصية بمقابلة عدد من الأشخاص بعد أن تُبرز لهم بطاقة الحزب لاثبات المكلف بذلك هويته ومنهم: علي الأرمنازي (صاحب جريدة العاصي)، وخالد أفندي درويش البرازي في حماة، وصالح بك حيدر رئيس بلدية بعلبك، وسليم أفندي

---

(١٠١) أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص١٣٢ ــ ١٣٣.

(*) الرسالة منشورة في مذكرات جمال باشا بكونها موجهة إلى سيد أفندي شكري، وفي كتاب «إيضاحات» إلى كامل أفندي هاشم، وقد دققت صورتها الزنكوغرافية في كلا نسختي «إيضاحات» العربية والتركية، فوجدت أن الإسم مطموس قصداً بالحبر الأسود، وبشكل كثيف لا يُقرأ منه سوى كلمة «علي» بين كلمتين دقيقتين أخريين غير مقروءتين، لا تتناسب دقتهما مع بقية الكتابة، وهي محصورة في فراغ ضيق لا يتسع لها لو كتبت بخط متناسب مع خط الرسالة كبراً، ويظهر أن الفراغ تُرك قصداً لوضع الإسم ــ أي اسم كان ــ بعد كتابة الرسالة وهذا ما يثير الشك العظيم حول صحة الوثيقة قانونياً.

الأحمد عبد الهادي في جنين، وحسن أفندي حمادة في نابلس، ونايف أفندي تللو مأمور التحصيلات في البقاع، وحافظ بك السعيد في يافا. أما بيروت فتذكر الرسالة أهميتها، ووجوب تأليف فرع كبير للجمعية فيها، وأن عدد الداخلين فيها رسمياً قد بلغ خمسة: «هم حضرتكم والأخ (أي أخوه محمد المحمصاني)، ونور الدين القاضي، ومصطفى أفندي سميسمه، وعبد القادر أفندي الخرسا، وهذا الأخير تعرفوه وهو الذي كان حمل إليكم الأختام قبلاً». وبعد أن يطلب منه بذل الهمة لإبلاغ عدد المنتسبين إلى عشرة كي يؤلف الفرع رسمياً فتُنتخب هيئة إدارية ويُرسل إليه الختم قال «أحسنتم جداً بتحذير عمر أفندي حمد، فهو عامل بنصائحكم وإرشاداتكم وقد سرتنا همتكم في مسألة تصريف البضاعة البغدادية». ويفسر كتاب «إيضاحات» البضاعة البغدادية بأنها البلاغات والمنشورات المختومة بختم «جمعية الثورة العربية»[١٠٢].

والرسالة الثانية، وقد ضبطتها مصلحة الاستعلامات، كما قال جمال باشا، تذكر دوران رحى الحرب، واحتمال طيران شرارتها إلى الشرق، وإنه إذا اشتركت الدولة العثمانية فيها فسوف لا تخرج منها سليمة أبداً، وربما كانت نهاية أجلها، وعندئذ تُقتسم أراضيها وفقاً لرغبة روسيا، وتتعرض البلاد العربية للأخطار نفسها، وسيضطر الأتراك للدفاع عن أراضيهم باستماتة. إنما الخطر الذي سيتهدد العرب سيكون أعظم، فمن المهم إذن أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد، «لذلك ترى جمعية اللامركزية اتخاذ الوسائل الفعالة في الحال لصيانة الوطن، فيرجى الإجابة عمّا يلي:

١ ــ ما هي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل ما؟

٢ ــ هل في إمكانكم جمع شيء من المال وإسعافنا به أو إبقاؤه عندكم حسب الحاجة، وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه؟

٣ ــ هل عندكم ملجأ لفرد أو أكثر ممن يناط بهم إدارة الحركة الوطنية وأن تؤمن معيشتهم تمام التأمين؟

٤ ــ هل يمكنكم إرسال شخص تثقون به ينوب عن فرعكم إلى جهة نعينها لكم ليتلقى منها التعليمات اللازمة؟»[١٠٣]

---

(١٠٢) إيضاحات...، ص٦٥ ــ ٦٧، نسخته التركية، ص٦٢ ــ ٦٣.

(١٠٣) إيضاحات، ص٩٢ ــ ٩٤؛ CEMAL PAŞA, Hatiraler, p. 244.

٥ ـــ إذا لم يمكنكم إرسال شخص، هل ترون من اللازم أن يأتيكم موفد مخصوص لإعطاء هذه التعليمات؟(*)

وقد علق جمال باشا على هذا الكتاب بقوله «وما كدت آتي على آخر الرسالة حتى وضحت حقيقة الموقف، فقد قام الدليل على أن الثوار العرب لم يعدلوا، بحال ما، عن فكرة العصيان في سورية وفلسطين»[١٠٤].

وهناك رسائل أخرى أقل شأناً كالرسالة المعطاة رقم ٢٢، وليس لها تاريخ، مذيلة بتوقيع ح. المصري، موجهة إلى شخص لم يذكر اسمه، بل اكتفي بعبارة «أخي الأفخم»، قال جمال إنها مرسلة إلى محمود المحمصاني، وقد أتت على ذكر «الهدية» وأنه فات أوان إرسالها، وأن لديه مقدار ما أرسل إليه منها سابقاً ـــ وقد فسر الأتراك «الهدية» بأنها منشورات ـــ وفي الرسالة حث على الثبات والحذر، وضرورة وجود تشكيلات سرية للحزب، ووجوب إحداثها على أنظمة عسكرية كل عشرة تابعون لقائد عشرة، وكل عشرة قواد يتبعون قائد مئة، «وهكذا إلى أن تصير في يدنا كل القوى العاملة» كما يذكر «البضاعة البغدادية وتوزيعها أو حرقها»، ثم يختم الكتاب بقوله «باشرت كتابة مفتاح شفرة أرسل عما قريب نسخة منها إليكم، لتكتبوا لنا التلغرافات والمكاتيب عند اللزوم حسب ما ورد فيها من الكلمات السرية...». ثم هناك رسائل لذكر إيجاد عَلَم وشارات بألوان وطنية «أخضر، أسود، أبيض».

وإذا كانت هذه الرسائل، المرسلة من حقي العظم أو من غيره، تتسم بطابع عدم التحفظ، فإن ثمة كتباً بتوقيع رفيق العظم لا يستشم منها شيء غير قانوني، باعتبار أن الحزب علني ومعترف به، وهي لا تتعرض لغير المسائل المالية للحزب: اشتراكات، حسابات، أو المسائل التنظيمية: إكثار سواد الحزب، تنظيمه على أساس عشرات عشرات، تأدية يمين الإخلاص من قبل الأعضاء[١٠٥]. على أن كتاب إيضاحات يحتوي على كثير من المنشورات التي لم ينشر منها شيء

(*) لدى تدقيق الخط الذي كتبت به الرسالة المثبتة بالزنكوغراف لم أجد أي وجه للشبه بينه وبين خطوط الرسائل الأخرى المنسوبة لحقي العظم أو لرفيق العظم، مما يدل على أن حرفي ع. ر. المذيلة به الرسالة ليس توقيع هذا الأخير (رفيق العظم) رئيس الجمعية اللامركزية، كما يتبادر إلى الذهن من كونهما الحرفين اللذين يبدأ بهما اسمه وكنيته، ثم إن الشخص المرسلة إليه غير واضح الإسم كما بينت آنفاً.

(١٠٤) مذكرات جمال باشا، ص٣٦٠.

(١٠٥) إيضاحات، ص٦٧ ـــ ٧٤.

بالزنكوغراف، وكلها قديمة، كالصرخة الثالثة، وبلاغ للأمة العربية تحض على النهوض واليقظة وعدم الرضوخ للظلم، ونبذ الذل والاستعباد، إلى جانب التنديد بأعمال الترك وبخنقهم حريات العرب، وبحملة جاويد باشا على عرب العراق، وبتآمر الشيخ عبد العزيز جاويش، وشكيب أرسلان، وعبد القادر المغربي... وغيرهم مع الترك، وباغتيال زكريا طبارة من بيروت... الخ. وقد جاء في ختام أحدها «بلاغ للأمة العربية» ــ (ويفهم من نصه أنه أذيع بمناسبة الحملة الانتخابية عام ١٩١٣) ــ: «فالبدار البدار، إننا قادمون إلى يوم الجلاء أعدوا عدتكم، وهيئوا أنفسكم للموت في سبيل الحياة، فقد كفانا سلباً ونهباً، وكفى أبناءنا ظلماً وتعذيباً، وكفى ديارنا خراباً وتدميراً»(١٠٦).

قال أمين سعيد إن حقي العظم استغل صلته بحزب اللامركزية، فكتب الرسائل وأذاع بعض المنشورات دون إطلاع رجال الحزب، ولو فعل لَمَا أقروه ولَمَا وافقوه، لفتور العلاقات بينه وبينهم(١٠٧). وبالرغم مما لهذا القول من وجاهة ــ نظراً للعداوة التي شجرت بينه وبين عبد الحميد الزهراوي، إثر تولي هذا الأخير عضوية الأعيان، وكان معروفاً عن حقي العظم طموحه إلى الوظائف الكبيرة التي كان يسعى إليها بالطريق السلبي، متخذاً من شدة الهجوم على رجال الدولة وسيلة للوصول إليها، ومسلكه بعد الاحتلال الفرنسي، وسيره في ركاب الدولة المحتلة، طمعاً بالرئاسات لا يجهله أحد من السوريين، فإنه ليس من سبيل إلى نكران شدة هجوم حزب اللامركزية، في الجرائد المصرية، على الدولة بعد دخولها الحرب(*)، مما حدا بجمال باشا في يوم من شهر أيار ١٩١٥ إلى دعوة عبد الكريم الخليل وسؤاله عن سر هذه الهجمات. وقد بين جمال في مذكراته أن عبد الكريم قد اعتراه اضطراب عند إلقاء هذا السؤال عليه، وأنه (أي عبد الكريم) زاره بعد عدة أيام، وعرض عليه أن يذهب إلى مصر ليشرح لزعماء اللامركزية سياسة جمال باشا في سورية، وليحملهم على تغيير خطتهم، مما أثار ارتيابه بعبد الكريم، لأن إيطاليا كانت قد أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أعدائها السابقين، فانقطعت آخر صلة بين الشاطىء السوري وبين العالم الخارجي،

---

(١٠٦) المصدر السابق، ص٩٨ ــ ١٠٣.

(١٠٧) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٦٥.

(*) قال عزيز بك رئيس استخبارات جمال باشا «إن أعضاء اللامركزية قد أساؤوا كثيراً ليس إلى جمال باشا فحسب، بل إلى مواطنيهم، بالحملات الصحفية الشديدة التي وجهوها إلى الباشا.. لأن توقيف بعض أنصارهم جعلهم يشددون الحملة، وهو كلما قرأ هذه الحملات ازداد حقداً على رفاقهم السوريين حتى كان ما كان...» (عزيز بك، المصدر السابق، ص١٩٤).

فسأله : «كيف تستطيع إذن الوصول إلى مصر ؟» ، فأجابه بأنه سيجد وسيلة لذلك فقوي شكه فيه إلى درجة اليقين[١٠٨] . وبنى جمال على هذا الشك ، إلى جانب الوشاية التي قُدمت إليه بحق عبد الكريم من قبل أسعد الشقيري ، موضوع تجريم هذا الشهيد وإعدامه .

ومن الحق ألا تغيب عن الباحث غرابة أن يعمد حقي العظم إلى هذه الأعمال الصبيانية في العمل غير المحترز ، التي لا تفسير لها إلا طموحه في الوظائف الكبرى ، وحقده على من تولوها دونه ، أو جهله لطرق النضال وأساليبه ، غير مدرك أنه بعمله هذا قد دفع برقاب كثيرين من متنوري العرب إلى قبضة طاغية غشوم لا وزن عنده لمنطق أو حق ، فصارت إلى حبل المشنقة ، لأن جمال باشا استند إليها في تجريم حزب اللامركزية بالخيانة ، ثم بتجريم كل منتسب إليه بالتهمة نفسها والحكم عليه بالإعدام .

سوق الوشايات وانتزاع الاعترافات بالقوة

ولم يكن عمل كامل الأسعد مبعوث بيروت أقل لؤماً من عمل حقي العظم ، عندما تقدم بوشاية إلى جمال ــ مهد لها قبله الشيخ أسعد الشقيري ، مفتي الجيش كما ذكرت سابقاً ، وهو من أعداء الأحرار ومن المتآمرين عليهم منذ انعقاد مؤتمر باريس وقبله ، بالاشتراك مع عبد الرحمن باشا اليوسف ، ومحمد باشا العظم ، والشيخ عبد العزيز جاويش وغيرهم ، بمجيئه إلى جمال موهماً إياه بأن الثورة قد ذر قرنها في سورية ، وأن باستطاعته أن يستدعي كامل الأسعد لإعطائه التفاصيل ــ وفعلاً وُجهت الدعوة إلى كامل الأسعد فأتى ، وحذر جمالاً من تقريبه جماعة الإصلاحيين وتخويلهم حرية مطلقة في طول البلاد وعرضها ، خشية من إساءة استعمال تلك الثقة ، بدليل أن رضا بك الصلح مبعوث بيروت الأسبق وعبد الكريم الخليل يعدان ، في هذه اللحظة ، عصياناً في جهات صور وصيدا[١٠٩] . وبعد أن انتهى كامل الأسعد من بسط وشايته ، تقدم الشيخ أسعد الشقيري من جمال وطلب منه مكافأة الأسعد بلقب أو بوسام رفيع فمنحه البكوية والمجيدي الثالث[١١٠] .

وعندئذ يأمر جمال بالتحقيق ويقول في مذكراته إنه أسفر عن إدانة الاثنين ، وأنهما أحيلا إلى

(١٠٨) مذكرات جمال باشا ، ص٣٥٢ ــ ٣٥٤ .

(١٠٩) مذكرات جمال باشا ، ص٣٥٥ .

(١١٠) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص١١٩ .

الديوان العرفي الذي حكم على الأول بالنفي المؤبد، وعلى الثاني بالإعدام[111]، في حين كان جمال باشا يعلم أن كامل الأسعد من الأعداء المعروفين لعبد الكريم ورضا الصلح، بسبب المنافسات الانتخابية بين الطرفين باعتبار أن الثلاثة من منطقة انتخابية واحدة[112]. وهو نفسه يعترف في مذكراته برواج سوق الوشايات والدسائس وحبكها ضد من ينال حظوة لدى المسؤولين[113]، يؤيده في ذلك ما جاء في شهادة شاهد عيان بأن كل إنسان من الطبقات ذات النفوذ في سورية كان يعيش لنفسه ويدس على الآخرين، «بل كان الأخ ضد أخيه، والابن يغدر بأبيه»[114]. ومع ذلك سمح جمال لنفسه بتصديق هذه الوشاية مع أن هناك من الشواهد ما هو كفيل بنقضها. قال فائز الغصين إنه عندما كان مسجوناً في سجن عاليه تحدث إليه القائمقام السابق أرطغرل بك التركي، وأخذ يقص عليه قصة اعتقاله قائلاً «في اليوم الثاني من وصولي إلى عاليه استُدعيت إلى هيئة التحقيق في الديوان وسُئلت عن أمر لم يخطر لي يوماً ببال، وهو أنني يوم كنت قائمقاماً في قضاء جبلة ... وردني بالبريد كتاب من الولاية يأمرني ... بأن أحقق عن أخبار اتصلت بوزارة الداخلية، تتضمن أن عبد الكريم الخليل يقوم بتوقيع مضابط من الأهلين يطلبون فيها حماية بعض الدول الأجنبية، فقمت بالتحقيق الذي أثبت لي أن هذه الوشاية كاذبة لا تستند إلى أساس»[115]. وينتهي حديث القائمقام بقوله إن سبب اعتقاله هو كونه أطلع عبد الكريم الخليل على هذا الأمر.

كما أورد عزيز بك في مذكراته برقية شيفرة مرسلة من قائمقام صيدا (منطقة عبد الكريم الخليل) إلى قيادة الجيش الرابع قال فيها «لقد عرضت في برقياتي السابقة على مقام الولاية الجليلة وعلى مقام صاحب الفخامة قائد الجيش الرابع، حقيقة المناورات الحزبية الموجودة في هذه المنطقة، والتي ترمي إلى استئثار بعض هذه العائلات بالنفوذ، لإذلال الفئة الثانية، بقصد جر مغنم أو التمتع بنفوذ لا تتمتع به الكتلة الثانية، وبهذا كثرت الوشايات وعمت المفاسد في البلاد.

«إنني أتلقى يومياً جملة أخبار من مختلف الحزبين أو الكتلتين المتعاديتين، وفي أخبار كل فئة منهما مفاسد ومطاعن بالفئة الثانية، الأمر الذي يتركني في حيرة من أمري. إذ كيف أستطيع معرفة

---

(١١١) إيضاحات، ص١٢٤.

(١١٢) أمين سعيد، الثورة العربية ...، ج١، ص٧٩.

(١١٣) مذكرات جمال باشا، ص٣٥٥.

(١١٤) مجلة الحرب العظمى، ج١٦، ص١٥ (بقلم آنسة أمريكية قضت مدة الحرب في بيروت وسورية).

(١١٥) فائز الغصين، مذكراتي ...، ص١٩.

الحقائق من وراء كل هذه الأمور ، ولهذا اكتفيت في التقارير التي أرسلها يومياً ... بنقل سائر الأخبار الواردة إليَّ من مختلف الجهات ....، ولهذا يمكنكم الرجوع إلى تلك التقارير وفيها ما ترغبون معرفته من هذه الأمور »(١١٦) .

والأغلب أن حملة الوشايات على عبد الكريم الخليل ورضا الصلح كانت مدبرة ومحبوكة بشكل دقيق ، بحيث سبق سعاية الشقيري وكامل الأسعد لدى جمال ضدهما ، أن أحد الأشخاص كان يرسل الوشاية تلو الأخرى بحقهما في البريد باسم مستعار ومجهول ، لم تستطع السلطة أن تكشف هويته ، ولكنها على كل حال ، وخلافاً للأصول المتبعة ، اعتُبرت مقبولة ، وقال عنها عزيز بك ، رئيس استخبارات جمال باشا ، إنه كان لها الفضل في الوقوف والحيلولة دون حدوث ثورة في جنوبي لبنان .

هذه هي مجمل عناصر الاتهام التي اجتمعت لدى جمال باشا في بادىء الأمر ، فأمر بأن تحال إلى الديوان بعد أن أمر باعتقال كل من ورد اسمه في الأوراق المضبوطة ، وبدىء التحقيق مع المعتقلين ، وأخذت دائرة الاعتقالات بالاتساع يوماً بعد يوم ، بازدياد ورود الأسماء على شفاه الموقوفين ، حتى ولو مهما كانت الصلة بينهم (أي بين أصحاب الأسماء) وبين المسائل المبحوث فيها ضئيلة . وقد وصل الأمر بالسلطات التركية أنها كانت تعتقل أي شخص يرد اسمه ولو عَرَضاً في أية رسالة موجهة من خارج البلاد إلى شخص آخر في داخلها ، وفيها بعض ما يمس الدولة(١١٧) . أما دائرة الاستخبارات والجواسيس فقد نشطت في العمل ، وصارت تقاريرها تترى على المجلس متضمنة اتهامات جديدة . وكان الضرب والتعذيب من وسائل انتزاع الاعترافات التي لعبت دوراً كبيراً في إنزال حكم الإعدام بمن تناولتهم ، حتى ولو مهما كان نصيبها من الصحة أو مهما كانت قيمتها(*) .

لقد انهالوا بالضرب والتعذيب على الشهداء فانتزعوا اعترافات من بعضهم ، واستعصى عليهم الأمر مع آخرين . ففي الكتاب الذي دسه الشهيد رفيق رزق سلوم بيد الكاهن الذي أتى ليتمم له

---

(١١٦) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٢٤١ — ٢٤٢ .

(١١٧) فيليب حتي : المصدر السابق ص٥٨٩ .

(*) روى محمد كرد علي أنه سأل خلوصي بك والي الشام آنئذ — وقد وصفه بقوله إنه من الأحرار العقلاء ، وهو أعلم تركي وأعقل عامل رأته الشام في الأربعين السنة الأخيرة — عن رأيه في قضية إعدام القافلة الأولى ، فأجابه بما تعريبه بالحرف « سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم قاتلهم الله وأخزاهم » أي قاتل الله المزورين والملفقين ويعني بهم الإتحاديين (محمد كرد علي المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٣٩ — ١٤٠) .

الواجبات الدينية قبل الإعدام، والذي وجهه إلى والدته، صورة ناطقة عن هذا التعذيب، وعن الوشايات التي كانت تقدم بحقه، وعن ألوان المغالطات التي كان الترك يوقعونه في حبائلها، قال «ربطوا يديّ ورجليّ بالحبال، وبدأوا بضربي ضرباً أليماً فأغمي علي ثم أفقت فأعادوا الكرة...» وهكذا دواليك بحيث أغمي عليه ثالثة ورابعة.. وتكسرت عدة عصي في أيديهم في أثناء ضربه، ثم اتبعوا ذلك بتهديده بقلع أظافره وإهلاكه ورمي جثته للوحوش[١١٨]، فلم ير بداً من الاعتراف بالجمعية السرية التي تألفت في باريس من بعض شبان العرب دون أن يذكر اسمها، بل ذكر أسماء مؤسسيها — وهي جمعية (العربية الفتاة) — وأنه دخل في عداد أعضائها. ولما عذب الشهيد سيف الدين الخطيب اعترف بأن مقصد هذه الجمعية هو إيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم «جمعية الأمة العربية في مصاف الأمم» وأنها هي التي دعت إلى عقد مؤتمر باريس[١١٩].

وقد أُنزل الإرهاق الجسدي والعذاب الذي لا يُطاق، بصورة خاصة بالشهداء عمر حمد، وتوفيق البساط، وعبد الكريم الخليل، ورفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وعبد الغني العريسي، وعارف الشهابي. روى فائز الخوري (أخو فارس الخوري)، الذي اعتقل في عاليه مع المعتقلين، أنه عندما دخل السجن، وكان يرتجف من البرد، أرسل إليه عمر حمد الكانون الذي كان يصطلي عليه في الغرفة المقابلة. قال فائز «وبعد أن اصطليت بالنار قليلاً التفتُّ إلى الغرفة المقابلة فشاهدت توفيق البساط متكئاً على سريره، ولما وقع نظره على نظري خلع نعليه ونزع جواربه ومد رجليه كأنه يقول «أنظر فنظرت إلى رجليه ورأيت ضربات السياط قد اخترطت رجليه عرضاً، وتركت فيهما أثراً أسود قاتماً، وكان قد مضى على هذه الضربة ما يزيد على العشرين يوماً وأكثرها لا يزال كما رأيته»[١٢٠]. ومع ذلك لم يستطع المحققون أن ينتزعوا من أفواههم إلا القليل مما يكشف عن حقيقة أسرارهم، أو عن اسم جمعيتهم السرية، أو أي خبر من أخبارها، أو أي نشاط من نشاطاتها[١٢١]. قد يكون صحيحاً أن عبد الغني العريسي، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم قد أفضوا، من شدة التعذيب، بأمور ادعى جمال باشا أنها ذات شأن، لكنه لم ينشر منها في كتاب «إيضاحات» بالزنكوغراف، سوى إفادة (بصحائف كثيرة) بدون توقيع ادعى أنها للعريسي جاء فيها عن «المنتدى الأدبي» أن الغاية من تأسيسه «أن يجمع كل الطلاب العرب، ويبث فيهم

(١١٨) أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص١١٥ — ١١٩.

(١١٩) إيضاحات، ص٤٩.

(١٢٠) أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص٨٦.

(١٢١) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٧٥.

فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت، ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية»، وعن «الجمعية القحطانية» أن مؤسسيها هم خليل حمادة وعبد الحميد الزهراوي وغيرهما، وأن غايتها نشر فكرة العمل على ترقي العرب وإصلاح حالتهم ونهضتهم، وأنها كانت سرية لها إشارات خاصة للتعارف بين أعضائها، وعن «الجمعية اللبنانية» أن غايتها تمهيد السبيل لفرنسا في سورية، وأن رزق الله أرقش كان يحبذ أعمالها، وأنه تسلط على صاحب جريدة الاتحاد العثماني (الشيخ أحمد طبارة) وأدخل في تحريرها سعيد عقل المعروف بنزعته الفرنسية، وأن الألسن قد تداولت أن قنصل فرنسا قد خصص لها مبلغاً من المال، وأن سليم البخاري كان رجلاً يتحدث كثيراً في مثالب الدولة العلية، ويرجو احتلال أية دولة كانت فرنسية أو إنكليزية بدلاً منها[١٢٢].

غير أن ما ادعاه جمال باشا مبالغ فيه، أو غير صحيح، ولا يخلو من التزوير، وليست إفادة العريسي التي أدرجتها هنا لتخلو من شيء من هذا القبيل. ومن المشكوك فيه أن يفضي العريسي — في حالته الطبيعية — بقول يفيد أن المنتدى الأدبي كان يبغي الوصول إلى غايته القومية ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية، وأن سليم البخاري كان يدعو لاحتلال فرنسا أو إنكلترا لهذه البلاد. وهو قول يخالف الحقيقة والواقع، مخالفة صريحة، ويناقض تماماً أهداف «المنتدى الأدبي» وكل الجمعيات العربية السرية والعلنية، التي كانت على العكس تشن حرباً شعواء على النفوذ الأجنبي في بلاد العرب ومن المعقول جداً أن يكون جمال باشا قد دسَّ هذه الأقوال في تلك الإفادات ليبرر فتكه بهم. وما عدا ذلك فإن معظم ما ادعى به جمال من أن هؤلاء الشهداء قد أدلوا به لا يزيد عن معلومات كان بعضها معروفاً، لدى العرب والترك معاً، عن بقية الجمعيات العلنية المعروفة، وعن اشتراك العرب في الجرائد العربية في سورية ومصر، تلك التي كانت تأتي إلى «المنتدى الأدبي» ويجري تشجيع الاشتراك فيها لإيقاظ الشعور القومي، وكان المنتدى يوزع المناشير التي كانت تأتيه ضمن الجرائد[١٢٣] وعن علاقة المنتدى مع كل جمعية وخاصة «جمعية اللامركزية»، وعن القصائد الوطنية التي كان من شأنها أن تنمي الشعور القومي لدى العرب، وعن «جمعية العهد» واتحادها «بالجمعية اللامركزية»[١٢٤]، ثم عن المؤتمر العربي في باريس، وما دار فيه من مطالب لا مركزية، وما تبعه من نشاط جانبي بذل المؤتمرون جهدهم كي يبعدوا عنه شبهة اتصاله بالدول

(١٢٢) إيضاحات، ص٦، والصور الزنكوغرافية الأولى والثالثة والسادسة عن إفادة العريسي في آخر الكتاب.

(١٢٣) إيضاحات، ....، ص١٤ — ١٥.

(١٢٤) إيضاحات، ....، ص٢٠ — ٢١.

الأجنبية ، وتلقّي التوجيه منها ، وإظهار تعلقهم بالدولة تعلقاً وثيقاً ، وسعي بعض أقطاب حزب اللامركزية لإبعاد شفيق المؤيد العظم عن المؤتمر لأنه مشتبه بأمره(١٢٥) ، وما جاء على لسان العريسي عن قوة علاقة الجمعية اللبنانية في مصر بحزب اللامركزية ، لأن رئيسها اسكندر عمون من أعضاء الحزب ، وأن الجمعيتين كانتا قد اتفقتا ، قبل إعلان الحرب العامة ، على أن يعمل الفريقان سوية فيما إذا دخلت تركيا الحرب(١٢٦) . والجدير بالذكر أن هذه الأقوال ليست منشورة بالزنكوغراف ، وقد تكون مدسوسة هي وغيرها على إفادة الشهداء المذكورين . فهناك من يقول بأن الاتحاديين قد اختلقوا بعض الرسائل السياسية وعزوها إلى أحرار العرب ، كما اختلقوا إفادات لم يدل بها الموقوفون . أما التي اختلقوها فلم ينشروا صورتها بالزنكوغراف ، أو نشروها بدون توقيع أو عملوا فيها حذفاً وتشويهاً ومسخاً ، بحيث لم يتركوا إلا عبارات ومقاطع مبتورة تتيح لهم الوصول إلى أغراضهم الدموية(١٢٧) .

في الواقع لدى تدقيقي كتاب « إيضاحات » والصور الزنكوغرافية المنشورة فيه ، لاحظت أن ثمة أكثر من رسالة نسبت إلى زعيم واحد مثلاً يختلف خط الواحدة منها عن خط الأخرى ، وأن الرسالة المنشورة تحت عبارة « الاستنساخ ٣٤ » التوقيع في ذيلها محكوك ، وموضوع تحته بخط مختلف توقيع : ح . المصري ، الذي ادعى كتاب إيضاحات أن المقصود به : حقي العظم ، وأن الاستنساخ ٣٧ موجه إلى شخص لم يذكر اسمه بل إلى « سيدي الأخ » ، والتوقيع في ذيله غير مقروء بتاتاً ، والاستنساخ ٤٢ الخط الفرنسي فيه مكتوب باليد ، والاستنساخ ٣ المدّعى بأنه إفادة عبد الغني العريسي فيه فراغات كثيرة وواسعة في منتصف السطور وفي أواخرها وفي أوائلها ، تدل على حذف أقسام منها ، وهي خالية من التوقيع ومكتوبة بخط جميل جداً ، لا يظنها القارىء إلا من عمل خطاط بارع جلس يكتبها بتأن وتؤدة ، دون شطب أو تحشية ، خلافاً للمعقول والمعتاد في حالات ضبط الإفادات التي تؤخذ في جو لا يسمح بالتأني والعناية والحرص على التفنن في الكتابة .

قال الدكتور أحمد قدري(*) في مذكراته ــ وكان من جملة الموقوفين في عاليه ــ في حديثه عن

(١٢٥) إيضاحات ، ..... ، ص٥٨ ــ ٦٠ .

(١٢٦) إيضاحات ، ..... ، ص٣٢ .

(١٢٧) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٣٩ .

(*) كان الدكتور أحمد قدري طبيباً في الجيش برتبة نقيب ، وكان هو المسؤول عن فرع جمعية « العربية الفتاة » في دمشق ، قبل انتقال مركزها العام إليها ، ويعد من أبرز وأنشط أعضائها ، اعتُقل لتردد اسمه في التحقيقات عَرَضاً دون أن يُذكر نشاطه ولا إسم الجمعية ، وقد بذل جهوداً كبيرة في السجن ، في مختلف المرات التي اعتُقل

تعذيب المعتقلين «أما عبد الغني العريسي فقد كتب صفحات مستفيضة، فوجب عليّ الاتصال به تحذيراً وتنبيهاً ...، وبعد رشوة الخفير قابلته، فكان جوابه بأنه لم يكتب شيئاً له صلة بأعمال جمعيتنا، وأن كل ما كتبه وَقَفَ على مؤتمر باريس والجمعية الإصلاحية في بيروت وغيره، مما هو مدون ومنشور في الصحف، وأنه لم يعمد إلى ذلك إلا بغية تضليل المحققين واستمناح شفقتهم، ولا سيما أنهم استشاطوا غضباً أمام تكتم توفيق البساط الشديد ...، ولا شك أن إفادة العريسي قد كان لها أثرها القوي في إبعاد الظنون عن جمعيتنا، إلا أن المحققين استغلوا أقواله وحكموا عليه بالإعدام، نظراً لجهلهم ما كان منشوراً منها في بطون الصحف»[١٢٨].

قوافـــل المجـــد

وهكذا أسفرت سياسة جمال باشا الإرهابية في سورية عن سلسلة من أحكام الإعدام جرت على قافلتين رئيسيتين، الأولى بدأت محاكمة أعضائها باعتقال عبد الكريم الخليل في أواخر حزيران ١٩١٥ وانتهت في ١١ آب ١٩١٥ بتعليق أحد عشر شهيداً في ساحة البرج في بيروت وهم: عبد الكريم الخليل، وصالح حيدر، ومسلم عابدين، ونايف تللو، ومحمد المحمصاني، وأخوه محمود، وعبد القادر الخرسا، ومحمود العجم، وسليم عبد الهادي، ونور الدين القاضي، وعلي الأرمنازي[١٢٩]. والقافلة الثانية، وكانت محاكمة أعضائها مستمرة مع القافلة الأولى حتى انتهت في ٦ أيار ١٩١٦، تضمنت عشرين شهيداً، ثلاثة عشر منهم عُلقوا على الأعواد في ساحة البرج ببيروت وهم: عمر حمد، عبد الغني العريسي، عارف الشهابي، توفيق البساط، سيف الدين الخطيب، الشيخ أحمد طبارة، سعيد عقل، باترو باولي، جرجي حداد، سليم الجزائري، أمين لطفي الحافظ، جلال البخاري ومحمد الشنطي(*). وسبعة علقوا في اليوم نفسه (٦ أيار) في ساحة الشهداء في دمشق وهم: عبد الحميد الزهراوي، شفيق المؤيد العظم، عمر الجزائري، رفيق

واستُجوب فيها، للاتصال بالموقوفين وتشجيعهم وتحذيرهم من البوح بأسرار الجمعية، وقد ساعد اختصاصُه في فرع معين من الطب على النفاذ بجلده، ذلك أن شقيق جمال باشا، وكان من رجال ديوان حرب عالية، قد أصيب بمرض هو من اختصاصه وليس هناك غيره من المختصين فيه، فعالجه وأصبح صديقاً له ولرجال الديوان.

(١٢٨) الدكتور أحمد قدري، مذكراتي ...، ص٥٢ــ٥٣.

(١٢٩) المصدر السابق، ص٤٢ــ٤٣.

(*) من الأمور المستغربة أن الحكومة العربية الفيصلية قد أدرجت اسم الشنطي في قائمة الشهداء التي أصدرتها.

رزق سلوم، شكري العسلي، عبد الوهاب الإنكليزي، ورشدي الشمعة[١٣٠]. هذا إلى جانب تنفيذ أحكام أخرى بالإعدام في فلسطين وبيروت في أوقات مختلفة.

وقد نفذ جمال الحكم في القافلة الأولى، بعد أن أخذ رأي مفتي الجيش الشيخ أسعد الشقيري، غير منتظر تصديق السلطان عليه، وقال في مذكراته إنه كان يمكن الحصول عليه فيما بعد، وإنه قد حصل بالفعل على موافقة وزيري الحربية والداخلية (أنور وطلعت)، وأنه نظراً للحالة العامة، أي الخطر المحيق بالدردنيل وخلو سورية إلا من الكتائب العربية، والخشية من أن تثور ولا قوة لديه لقمع ثورتها، لأنه لا يستطيع جلب قوات من الدردنيل، لذلك وبما أنه قد وجب عليه تحذير كل العاملين على خلق القلاقل والساعين فيها، فإنه أمر بالتنفيذ حالاً[١٣١]. غير أن جمال باشا لم يجسر على طلب موافقة وزير العدلية لعلمه بضعف مستنداته القانونية فأسخطه. فالسيد أمين التميمي الذي عُين محققاً في مذابح الأرمن، بعد الهدنة، قد عثر على برقيتين متبادلتين بين أنور وجمال. وقد جاء في برقية أنور أن خليل بك الذي أصبح وزيراً للعدلية في أثناء الحرب متذمر من إقدام جمال على تنفيذ الإعدام في الشهداء دون إرادة سنية، فكان جواب جمال «إني أعرف ميوعة خليل بك وتعقيداته، أما الإرادة السنية فليس أسهل عليكم من تدبير أمرها»[١٣٢]. وإن دل هذا على شيء فهو يدل على تواطؤ جمال وأنور وطلعت، بحيث أعطياه الموافقة على الإعدام، بدلاً من الوزير المختص «وزير العدلية» والسلطان، ثم يطلب منهما أن يدبرا له الإرادة السنية من قبيل «ثم التدارك».

خلاصة القول إن جمال باشا ورجال ديوانه قد جهلوا أو تجاهلوا ــ عمداً ــ أن معظم ما ورد في إفادات المعتقلين هو مما لم يكن يجهله أحد، وهم وإن لم ينسوا أن «المنتدى الأدبي» كان يطوي، وراء أهدافه الأدبية، أغراضاً قومية ترمي إلى النهوض بالأمة العربية عن طريق العلم والمعرفة ــ وهم الذين كانوا يَحضَرون حفلاته ــ كما لم يُنكروا أن وجود حزب اللامركزية العلني، واشتغاله للحصول على كيان داخلي للعرب في ولاياتهم، كان في نطاق القانون، غير أنهم تجاهلوا كون برنامج كل منهما يقضي ببقاء العرب ضمن نطاق الرابطة العثمانية، وعدم الخروج عن هذه الرابطة. وعلاوة على ذلك راح جمال باشا يفند وجود هذه الجمعيات وعملها ــ في كتاب «إيضاحات» ــ تفنيداً يخدم وجهة

---

(١٣٠) إيضاحات، ص١١٥ ــ ١٢٣؛ أنطون يمين، المصدر السابق، ج٢، ص٩٢.

(١٣١) مذكرات جمال باشا، ص٣٦٩.

(١٣٢) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ج١، ص٤٠١.

نظر الأتراك قال «صحيح أن الجمعيات المذكورة في هذا الكتاب قد تأسست في الظاهر بشكل قانوني، فكان بعضها أدبياً وبعضها سياسياً، وقَصْدُ جميعها العمل على رقي العرب وتأمين الرفاه لشبانهم، ومن هذه الناحية فإن إعطاء الحكومة الترخيص اللازم لها لم يكن عملاً قبيحاً، ومثل ذلك انضمام الناس إلى هذه الجمعيات وترحيبهم بها ما دامت برامجها تنطق بسعيها إلى إسعادهم، إنما أصل الجرم هو في كون القائمين على أمر هذه الجمعيات قد ضللوا عامة الناس، إذ غرروا بهم فأدخلوهم في عضويتها، فاستغلوا بذلك حسن نيتهم، وهؤلاء هم الذين طالتهم يد القانون، ذلك أنه كان لهذه الجمعيات برامج خفية تختلف عن تلك التي أعلنوا عنها، كما كان لها تشكيلات يسعى من ورائها أشخاص معدودون نحو آمال دنيئة. إذ أخذوا يتصلون بالدول العدوة، وبمواطنيهم الفارين إلى مصر الذين انتهت حياتهم السياسية، ويحيكون معهم خيوط المؤامرات ضد الدولة»[١٣٣].

هذا هو رأي جمال في الأحزاب العربية، وهو مليء بالمغالطة من حيث تضليل زعماء العرب للشعب العربي، في حين اعتقد القائمون على أمر الجمعيات العلنية ـــ باستثناء جمعيتي «العهد» و«العربية الفتاة» السريتين ـــ أن ليس من عاصم للعرب من براثن الاستعمار إلا بقاؤهم مخلصين لدولتهم ضمن الرابطة العثمانية. وبالرغم من ذلك أخذ جمال باشا ينكل ويبطش بهم ويعتبر الانتساب إلى الجمعيات التي يشرفون عليها، وبخاصة منها «اللامركزية»، جرماً يستحق الإعدام. وراح يتهمهم بالانفصالية، وبأن نضال العرب، بعد إعلان الدستور، كان لإعلاء شأن قوميتهم وحفظها من الاندثار، وعد هذه الأفعال جرماً يجازى عليه بالشنق، كأن مؤتمر باريس لم يعقد، وكأن الأتراك لم يوقعوا على الاتفاقية التي انبثقت عن مقرراته، وكلها تنطق بما يعزز القومية العربية، في حين أن الأمور قد سُويت بين العرب والترك بعد ذلك المؤتمر، وكان ذلك يعني أن الأتراك قد اعترفوا بكل ما قام به العرب من نضال سابق في سبيل تعزيز قوميتهم. ومع ذلك فقد دسوا جميع ما أوحت به عبقريتهم من تهم تعود لأعمال سابقة للحرب وللمؤتمر، وراحوا يفسرون كل حركة بأنها انفصالية استناداً إلى مراسلات من خارج سورية، ظهرت فيها عبارات من آخرين تمس أحرار العرب، وقد لا يكون لهؤلاء رأي مرسليها، في المسائل التي عالجتها، وإلى وثائق فرنسية ليس فيها عظيم أمر، خاصة وقد بينت ما جاء فيها من تناقض، وعلى إفادات واعترافات لم ينشروا بالزنكوغراف ما يشكل الدليل القاطع على خيانة الشهداء.

كما تناسى الأتراك أن إرادة سنية كانت قد صدرت بتاريخ ٢٩/١/١٩١٣ بالعفو العام عن

(١٣٣) QUATRIEME ARMEE, La Vérité Sur La Question Syrienn, p. 5-6.

جميع الجرائم السياسية التي ارتكبت قبل هذا التاريخ[١٣٤]، فراح جمال، بعد أن نقضها وأرضى شهوته للانتقام من أحرار العرب، يفلسف عمله بقوله «إن أولئك الأشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة، إلا أن إداناتهم ترجع إلى جرائمهم بعد ذلك العفو. وإذ كانت الوثائق الخاصة بإداناتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية، بدا للمحكمة أن تفحصها وتنشرها لتبين للملأ مبلغ شناعة خياناتهم»[١٣٥]، متجاهلاً أنه اتخذها مستنداً أساسياً للحكم. غير أن مغالطة جمال هذه يكشفها كونه قد أخذ البريء بجريرة المذنب، ذلك أن كتاب «إيضاحات» قد ألح على الوثائق الفرنسية ــ التي وصفها أحد كبار مؤرخي الترك بأنها باطلة ما دامت تتعلق بأعمال سابقة لمرسوم العفو[١٣٦] ــ في تجريم عبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، ورشدي الشمعة، والشيخ أحمد طبارة، مع أنه لم يرد لهم أي اسم فيها، وعلى رسائل اللامركزية في تجريم من وردت أسماؤهم فيها. مع أن ذلك لا يصح إلا إذا أثبت التحقيق علاقتهم الفعلية في ما احتوته من هجوم ومقاصد سيئة نحو الدولة، بشرط أن يكون قد بدر منهم عمل ملموس، أي أن يكونوا قد شرعوا في التمرد أو الثورة فعلاً، وهذا ما لم يحدث. كما ألح على اعترافات عبد الغني العريسي، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم، في تبرير الأحكام مع أن هذه الإفادات ــ إن كان كتاب إيضاحات أميناً في نقلها ــ لم تتناول أعمالاً معينة، إنما تناولت أوضاعاً عامة سابقة عن مقاصد أحزاب وجماعات، وآراء أشخاص عُرفت علانية عنهم قبل إعلان العفو[١٣٧]، ولم تدر حول أعمال عصيان ارتكبت وثبت اشتراك الشهداء فيها، ولم يرد ذكر أو تنويه بأعمال ونشاط جمعية «الفتاة» بعد الحرب، حتى ولا اسمها. وهذا برهان على وقوف أجهزة استخبارات جمال، التي صرف على تنظيمها الأموال الطائلة، عاجزة عن أن تكشف سرها. وكل ما كان قد اتصل بالأتراك أشياء عامة عن حركة غامضة تنشر الغيوم في سماء سورية، وهذا ما جعل جمال باشا يتقد غيظاً، فيصب جام غضبه على المعتقلين كي يعترفوا بما يكشف له مجرى الأمور فلم يوفق. لذلك جاءت الأحكام مبنية على الظن والشبهة، بحسب اعترافه هو نفسه عندما تحدث عن شكه بعبد الكريم الخليل، عندما طلب هذا منه إيفاده إلى القاهرة.

وإذا أمعن الإنسان النظر في الاتهامات ومستنداتها يتضح له أن جل ما كان يبغيه جمال هو القضاء على متنوري العرب ونابغيهم، أولاً خشية منهم على الدولة، وثانياً لمجرد الانتقام منهم عن

(١٣٤) دستور، ترتيب ثاني، مجلد ٥، ص٦٢.

(١٣٥) مذكرات جمال باشا، ص٣٨٣ ــ ٣٨٤.

(١٣٦) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 221.

(١٣٧) إيضاحات، ...، ص٦، ٣٢.

أعمال سابقة. فعبد الكريم هو مؤسس «المنتدى الأدبي»، الذي تزعم النهوض بشباب العرب، وله مكانة ممتازة، لذلك حكم عليه بالإعدام، بينما حكم على رفيقه في الجرم المزعوم رضا الصلح بالنفي المؤبد، والفارق عظيم بين الحكمين، مع أن الأول كان من المقربين إليه وأن الثاني ممقوت منه حسب قوله «أما رضا بك الصلح فكنت، على العكس، أعتبره دساساً دنيئاً، ولذلك كنت أرفض مقابلته»[١٣٨]. وهذا يدل على أن الحكم كان متناسباً مع درجة نبوغ الشخص وخطورته، ذلك ما اعترف به جمال نفسه بقوله «أما أنا فكنت أرى أن عقاب الخائن لدينه ووطنه ينبغي أن يكون مناسباً للمركز الاجتماعي الذي يشغله، لأنه لا يتأتى في هذه الحال أن تُعزى أعمال مثل ذلك الرجل الجنائية إلى جهله أو حمقه، وكذلك النتائج التي تترتب عليها، فإنها تكون بطبعها أشد خطراً وأعظم ضرراً..»[١٣٩]. أو كقوله في مكان آخر «يقول البعض: لقد كان ينبغي أن لا ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان، ورداً على هؤلاء أقول: أولاً لقد خولتني السلطة القانونية أن أفعل ما فعلت، وثانياً أن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الخونة. وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأرباب الوجاهة نفوذاً كبيراً حتى إن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق...»[١٤٠]، أو كقوله أيضاً «وبما أن محاكمة عبد الغني العريسي قد كشفت الستار عن عدة حقائق أليمة، فقد أيقنت أنَّ الوقت قد حان لاستخدام الوثائق التي ضبطت في القنصلية الفرنسية، فطلبت إلى وزيري الداخلية والحربية تخويلي السلطة اللازمة لذلك، فوافقا على طلبي بعد تبادل الرسائل الطويلة، وقد عزوت ترددهما إلى كون الأشخاص الذين تدينهم الوثائق من ذوي المناصب العالية، بينما كنت أرى أن عقاب الخونة يجب أن يسير طرداً مع علو منزلتهم الاجتماعية»[١٤١]. ومما يلفت النظر أن جمال باشا لم يكن يعير أهمية لغير موافقة طلعت وأنور، لأن الوزارة بمجموع هيئتها قد رفضت طلبه في محاكمة القافلة الثانية. ولكن إصراره الشديد هو الذي دفع زميليه المذكورين كي يوافقا على طلبه تحت مسؤوليتهما. عندئذ استدعى الشهيدين عبد الحميد الزهراوي والأمير عمر الجزائري من الآستانة وأعدمهما، بدون محاكمة، مع جملة الشهداء[١٤٢].

---

(١٣٨) مذكرات جمال باشا، ص٣٥٦.

(١٣٩) المصدر السابق، ص٣٧١.

(١٤٠) المصدر السابق، ص٣٨٢.

(١٤١) مذكرات جمال باشا، ص٣٧٠ — ٣٧١؛ الأصل التركي، ص٢٥٢.

(١٤٢) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 221.

كان الديوان العرفي ـــ المؤلف من هيئتين: إحداهما للتحقيق برئاسة ضابط اسمه صلاح الدين والثانية هيئة قضاة يرأسها الضابط الزعيم شكري بك، والذي لم تكن له جلسات علنية ولا مرافعات ولا دفاع بكل ما لهذه الأسماء من معنى ـــ يسترشد بأمر جمال نفسه. كان يكتفي في الغالب بدراسة نفسية المتهم ومزاياه الفكرية ومركزه الاجتماعي ـــ هذا إذا لم يكن من الزعماء المعروفين ـــ فإذا تبين أنه من الأذكياء الذين يشكلون خطورة على الدولة يُشار إلى ذلك بجانب اسمه، فيأمر جمال بإعدامه للتخلص منه(١٤٣) خشية من خطره على الدولة.

قال الدكتور أحمد قدري في مذكراته «وحدث أنني اجتمعت بكمال بك مستنطق ديوان الحرب، وذلك قبل يومين من الإفراج عني، فكان مما قاله لي: إننا نحكم بالشنق على كل من يؤتى به إلى هنا، كي لا يبقى في بلاد العرب من يفكر بالانتقاض على الدولة العثمانية. أما أنت فقد غدوت صديقنا، وأعتقد أنك من الذين سيُفرج عنهم، إذ لا خطر منك، فإذا سُئلت فتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً وانكر كل شيء». ويضيف الدكتور أحمد قدري قائلاً «وعلى أثر الإفراج عني حضر شكري بك رئيس الديوان إلى دمشق فلم أجد بداً من دعوته إلى حفلة ساهرة، وقد استثمرت عواطفه رحمة وعطفاً لإنقاذ إخواني، ولكنه أجابني والدمع يترقرق في عينيه، بأن ليس في وسعه تلبية طلبي، لأن جمال باشا مصر كل الإصرار على شنق أكبر عدد ممكن من المعتقلين، وبخاصة أولئك الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم، وأنه لم يتمكن من حمله على العدول عن رأيه، برغم المحاولات الكثيرة في هذا السبيل»(١٤٤). كما يذكر عزيز بك في مذكراته أن جمال باشا كان يبالغ في التشديد على ديوان الحرب بضرورة الحكم على الموقوفين بشدة متناهية، وأنه قد حصر كل همه في هذا الصدد، إذ كان يخابر رئيس الديوان وأركانه يومياً، متتبعاً بدقة زائدة سير القضية. كما بيّن عزيز بك أن سخط جمال باشا عليهم ناشيء عن اعتقاده بأنهم أقدموا على الكيد له في غيابه بحملة القناة، بينما كان يقاتل العدو واثقاً مطمئناً(١٤٥).

فعلاً كان الديوان العرفي آلة بيد جمال يريدها أن تكون طوع أمره، فعندما أُحيلت إليه قضايا القافلة الثانية من الشهداء لم يحكم بالإعدام سوى على ثلاثة أو أربعة أشخاص من مجموع عشرين متهماً، وما إن عرض القرار على جمال باشا حتى رفض قبوله، وأضاف بخط يده إلى جانب

---

(١٤٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٧٥.

(١٤٤) مذكرات أحمد قدري، ص٥٤ ـــ ٥٥.

(١٤٥) عزيز بك، المصدر السابق، ص٨٤.

بقية الأسماء كلمة إعدام، بحيث شمل هذا الحكم جميع من وردت أسماؤهم في القائمة. هذا ما روته مذكرات رئيس أركان حربه علي فؤاد إردن(١٤٦).

كما اعترف شكري باشا رئيس الديوان العرفي بأن جمال باشا هو الذي كان يحدد عقوبة كل شخص، ولا يقبل بسواها، ويتصرف في التعديل على هواه(١٤٧). وقد جاء في مقال نشره الأمير شكيب ارسلان في مجلة «المنار» القاهرية سنة ١٩٢٢، وهو عليم ومطلع على خفايا السلطة التركية حينئذ بحكم قربه منها، أن جمال باشا حينما صمم على إعدام أحرار العرب استدعى شكري بك، وأبلغه وجوب الحكم بالإعدام على /٤١/ شخصاً ممن يتناولهم التحقيق، فناقشه شكري بك ودافع كثيراً عن المتهمين، فهدده جمال بالقتل ولما أصر على أن الذين يستحقون الشنق هم ثلاثة أو خمسة على الأكثر، وأن وجدانه لا يرتاح إذا حكم على غير هؤلاء بهذه العقوبة، استقدم جمال باشا أعضاء الديوان ــ وكانوا شباناً لا يخرجون على إرادته ــ وأمرهم بتنفيذ رغبته، وكانت النتيجة أن جرى الحكم على ٢١ شهيداً(١٤٨).

قال عزيز بك في مذكراته إن جمال باشا عندما كان يوقع بالحبر الأحمر مصدقاً على أحكام الإعدام بحق الشهداء، كان يضع توقيعه بانفعال زائد كأنه يتشفى من المحكوم عليهم، ويردف كل توقيع بكلمات عنيفة كقوله «إن كل نقطة من هذا الحبر الأحمر تذكرني بدمائهم التي ستسفك لخيانتهم أمتهم ودولتهم»(١٤٩).

وإذا أمعنا النظر في أسماء القافلة الأولى من الشهداء نشاهد أنه لا يوجد بينهم من هو من ذوي المكانة المرموقة المعروفين سوى اثنين: عبد الكريم الخليل ومحمد المحمصاني، ولم يكن الثاني بأهمية الأول، بعكس القافلة الثانية التي تضم شخصيات مرموقة لها مكانتها في نظر الأمة العربية لنضالها المجيد وخطرها الشديد في نظر الاتحاديين، خذ مثلاً: عبد الحميد الزهراوي، عبد الغني العريسي، الشيخ أحمد طبارة، شفيق المؤيد العظم، شكري العسلي، رشدي الشمعة، عارف الشهابي، عمر حمد، توفيق البساط، سليم الجزائري، فالثلاثة الأُوَل كانوا من أقطاب المؤتمر العربي في باريس، وبرّزوا بخطبهم النارية في مهاجمة الإتحاديين، وعُرف الثلاثة التالون بمهاجمتهم الاتحاديين

---

(١٤٦) Y. H. BAYUR, Ibid. III, p. 221 (استناداً إلى مذكرات علي فؤاد إردن).

(١٤٧) أمين سعيد، الثورة العربية، ....، ج١، ص٧٥.

(١٤٨) المصدر السابق، ج١، ص٩٨.

(١٤٩) عزيز بك، المصدر السابق، ص٢٥٠.

بعنف في مجلس المبعوثان وأولهم شفيق المؤيد العظم كان ، في مجلس المبعوثان ، قد طرح طلعت بك وزير الداخلية أرضا وأهانه ، أما الثلاثة الآخرون فإن مقالاتهم النارية في جريدة « المفيد » كانت تلهب الشعور القومي عند العرب ، وتزلزل كيان القوميين الترك ، وأما الأخير سليم الجزائري فلم يكن نشاطه مع عزيز المصري في تأليف الجمعيات السرية مجهولاً ، كما لا تنكر أهمية الأحد عشر شهيداً الباقيين ، إذا استثنينا منهم المشتبه بخيانته محمد الشنطي فيما إذا قيسوا بأفراد القافلة الأولى .

بناء على ذلك أعتقد أن جمال باشا بدأ بإعدام القافلة الأولى ممن هم أقل أهمية لغايتين : أولا : إلقاء الرعب والارهاب في قلوب العرب حتى لا يحركوا ساكناً ، ثانياً : التريث كي يرى نتيجة ضربته الأولى فيتبعها بعدئذ بضربة أشد إذا آنس أن الجو ملائم ، وعندئذ يستتب له الأمر تماماً بعد أن يكون قد روّى غليله من دماء الأحرار العرب . وقد وُفق ، ولا شك ، في الغاية الأولى ، لأنه زرع الرعب في قلوب الناس ولم يعد أحد يجرؤ على إظهار نشاطه(١٥٠) . قال في مذكراته « وقد أحدثت هذه الأحكام ذعراً كبيراً في نفوس العصاة ، وأدخلت الفزع في قلوبهم »(١٥١) . لكنه أخفق في الغاية الثانية ، ذلك أن ليس العرب وحدهم ، خلافاً لما قال الضابط الألماني فوق كريس الذي كان يشغل منصباً قيادياً كبيراً في الجيش الرابع ، بل ان الأتراك أنفسهم دمغوا جمال باشا بالاجرام في العمل الذي قام به(*) . أما علي فؤاد ، رئيس أركان حرب جمال باشا فقد جاء في مذكراته « كان رأيي أن جمال باشا لم يكن مخطئاً في إجراءاته الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام برجال القافلة الأولى ، فقد كان في موقف حرج يبرر عمله ، ولو لم يُقْدِم على ما أقدم عليه ، لما استطاع أن يسيطر على الموقف ، ويحول دون اتساع نطاق الثورة ، وليبقى كرسي السلطنة مهدداً في البقعة العربية .

« لقد كان عليه أن يقف عند هذا الحد ، خصوصاً وقد لمس تأثير عمله في البلاد ، إذ هابه رجال الحركة الثورية ووقفوا جانباً . ولكنه لم يفعل ذلك بل واصل الكتابة إلى أنور باشا وطلعت باشا ملحاً بطلب تخويله السلطة اللازمة لمحاكمة جميع الذين وردت أسماؤهم في الأوراق التي صودرت في

---

(١٥٠) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 221.

(١٥١) CEMAL PASA, Hatiraler, p. 251 الترجمة العربية ، ص٣٦٩ .

(*) أما فون كريس نفسه فيقول إن هذا التجريم لجمال لي غير محله لأنه بإنزاله العقاب الشديد في هذه الشرذمة من الخونة قد أعطى حداً لكل من تسول له نفسه القيام بحركة عصيان وضرب الجيش المحارب في مؤخرته . (Y.H. BAYUR, Ibid; III, 222) (اقتباساً من كتاب فون كريس جنباً لجنب مع الأتراك في حرب فلسطين) .

القنصلية الفرنسية . وهذا خطأ فادح ارتكبه وجعل العرب يمقتونه ، حتى أعطوه لقب سفاح سورية ، وهم على حق »[١٥٢] .

ويقول الأستاذ ساطع الحصري عن الاعتقالات الأولى بأنها لم تثر هواجس الناس ، حتى القوميين منهم ، كثيراً لأنهم كانوا يقولون فيما بينهم إنه قد يكون ثمة ما يبررها ، ولكن عندما توسعت دائرة الاعتقالات وصارت تشمل بعض الرجال المعروفين بإخلاصهم القومي ، وحماستهم الوطنية ، صار جميع الناس يعتقدون أن هذه الإجراءات إن هي إلا حركات إرهابية يُقصد بها الانتقام من رجالات العرب المخلصين الذين ناوؤا الدولة فيما مضى[١٥٣] .

على أثر إعدام القافلة الثانية انسحب من مجلس المبعوثان كل من الأمير علي عبد القادر الجزائري وكيل المجلس وفارس الخوري ، تأثراً من هذا العمل الشنيع . وقد يكون انسحاب الأمير علي بضغط من جمال باشا الذي أبقى على حياته ، بالرغم من ورود اسمه في الوثائق الفرنسية ، لأنه قدر ضرورة وجوده على رأس إخوته الصغار وأولاد أخوته معيلاً لهم ، لكنه لم يسمح ببقائه عضواً في مجلس المبعوثان ، وقد جاء في استقالته « بما أنني قد شعرت بأنني لا أستطيع القيام بواجبات عضويتي في مجلس المبعوثات لأسباب صحية ، لذلك أطلب قبول استقالتي منها » . وقد قدم الطلب بواسطة والي دمشق بدلاً من إرسالها رأسا إلى رئاسة مجلس المبعوثان ، مما يدل على تأثير جمال في تقديمها . أما فارس الخوري فقد جاء في مستندات المجلس أنه قد انسحب منه لمعذرته المشروعة[١٥٤] . وقد يكون أرغم بضغط من جمال أيضاً على الانسحاب لأنه كان ، قبل تنفيذ الأحكام ، حاول إقناع جمال باشا بالعفو عن المعتقلين قائلاً له إنه يلتمس ذلك منه بعد ما رأى من طلعت وجاويد وأنور وزعماء الجمعية من أصدقائه ما يشجعه على طلب ذلك منه ، فأجابه جمال بأن العدل سيأخذ مجراه ، وما عليه (أي علي فارس) إلا أن يشتغل في تنظيف صفحته ، وأن مسألته هو أيضاً قيد الدرس[١٥٥] . وبالفعل أوقف ، بعدئذ ، فارس الخوري وشكري القوتلي وشكري باشا الأيوبي ، بالإضافة إلى جماعة من الأحرار آخرين ، في خان الباشا بدمشق ، بتهم سياسية كان من المحتمل أن تؤدي بأعناقهم إلى المشانق لولا قيام ثورة الحسين في الحجاز ، وتهديده جمالا بالانتقام من الأسرى الترك فيما إذا حاول

---

(١٥٢) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ص٧٦ ــ ٧٧ (نقلاً عن مذكرات علي فؤاد) .

(١٥٣) ساطع الحصري ، نشوء الفكرة القومية ، ص٢٣٠ ــ ٢٣١ .

(١٥٤) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 221, 223, 224.

(١٥٥) حنا . خباز ، جورج . حداد ــ المصدر السابق ، ص٢٨ .

من جديد قتل أحد من زعماء العرب . ويظهر أن الترك قد حقدوا على فارس الخوري كونه قد أثار في مجلس المبعوثان ــ بالإضافة إلى وقوفه فيما سبق الحرب موقف المعارضة للحكومة ــ قضية اختفاء النائبين الأرمنيين زوهراب وورتكيس اللذين قدما احتجاجاً إلى السلطات التركية ضد اعتقال الأرمن بالآلاف إثر التوتر الذي حصل بين الترك وبينهم ، فدبر الاتحاديون مؤامرة ضدهما إذ دعيا إلى شهادة في ديار بكر فاغتالهما حراسهما في الطريق . ولما تلي مرسوم انتخاب نائب عن الآستانة ــ وكان معروفاً أنه جاء بدلاً عن النائب زوهراب ــ قدم فارس طلباً لمعرفة اسم النائب الذي جاء هذا المنتخب الجديد بدلاً منه ، فأحْرَجَ بذلك الترك الذين أرادوا كتم مقتل زوهراب ، فأوقفت الجلسة واستُدعي فارس إلى غرفة الرئيس وأُوعز إليه بعدم إثارة هذه المسألة ، فتغيب عن الجلسة التالية وانتهى الأمر[١٥٦] .

إن من يرجع إلى كتاب « ايضاحات » (ص ١١٥ ــ ١٢٤) عن سرد التهم التي أُلصقت بالشهداء يشاهد أنها تافهة بل في غاية التفاهة ، فقد ذكر أن عبد الحميد الزهراوي كان مؤسساً للمنتدى الأدبي ومروجا لبرنامجه السري (مع أن عبد الكريم الخليل هو مؤسسه ، وقد تأسس بعلم من الحكومة واستمر ست سنوات يعمل تحت علم الحكومة وبصرها) ، وانه ترأس حزب اللامركزية ومذاكراته السرية وترأس المؤتمر العربي عنها (وكأن الأتراك لم يعترفوا بشرعية المؤتمر ولم يتفقوا مع ممثله على شروط للإصلاح) ، وأنه لم يقبل عضويته في مجلس الأعيان إلا بإذن من مقر اللامركزية (والمعروف أن ذلك كان تطبيقاً لمقررات المؤتمر العربي في باريس التي كان من جملتها عدم قبول أحد من الإصلاحيين لأي منصب إلا بموافقة الجمعية التي ينتسب إليها[١٥٧] ، وليس لحزب اللامركزية شأن في ذلك) . وقالوا إن عمله هذا معناه « انه قبل المنصب لا لثقة الحكومة به واعتمادها عليه ، بل كان قبوله على أثر مذاكرة اللامركزيين وتصويبهم أن يكون ممثل خيانتهم رسمياً في المجلس التشريعي العثماني »[١٥٨] . كما استند الحكم عليه بكونه تولى إدارة الأملاك التي أوقفها عزت باشا العابد للسعي في تحقيق الاستقلال للعرب ، وهذا افتراء ليس له أي سند أو مبرر قانوني .

وبنوا حكمهم على شكري العسلي على أساس انتسابه إلى حزب اللامركزية ، وتصريحه بالانفصال في خطاب ألقاه بمصر أمام تمثال إبراهيم باشا ، مع أن ما ذكر في ما أورده كتاب

---

(١٥٦) المصدر السابق ، ص٢٤ .

(١٥٧) محب الدين الخطيب ، المؤتمر العربي ، ص١١٩ (وقد جاء ذلك في الملحق رقم١) .

(١٥٨) إيضاحات ، .... ، ص٦١ .

«إيضاحات» من خطابه لم تأت فيه كلمة انفصال قطعاً بل جاء فيه حرفياً «إلى أين يشير هذا التمثال؟ ... إن مصر والشام أختان بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية، وهذا الهيكل يشير بيده إلى البلاد الشامية». وهذا القول المبهم يحتمل التأويل طبعاً لكنه لا يستحق الإعدام، كما نسبوا إليه اتصاله بمعتمد فرنسا في الشام بواسطة الأمير عمر الجزائري، مما لم يقم عليه دليل، وأنه أدخل بعض الناس في اللامركزية.

واستندوا في إعدام عبد الغني العريسي على دخوله اللامركزية وتشكيلاتها السرية، وأنه كان مأموراً لترتيب الثورة في سورية، وأنه كان من العوامل التي هيأت الأفكار المضرة قبل المؤتمر العربي وبعده، وأنه كان يسعى بكل قواه لاستقلال العرب، وأنه حرّض العربان على القيام بالثورة. وقد بنوا الاتهام الأخير على كونه قد هرب إلى جبل العرب، بعد أن علم بعزم الحكومة على اعتقاله، ثم إلى البادية قاصداً الحجاز مع رفيقيه عارف الشهابي وعمر حمد، وبينما كانوا في القطار متنكرين بزي العربان، وعند وصولهم إلى محطة «تبوك» أو «مدائن صالح»، اكتُشف أمرهم فاعتُقلوا وسيقوا إلى الديوان[159]. وهذا دليل على قصر ذكاء من لفق عليه هذه التهمة، إذ كيف يستطيع طريد العدالة أن يقوم بأي نشاط في بلاد لا يعرفها، ولا يتعرف عليه فيها أحد، بل كان يبالغ في التنكر خوفاً من اكتشاف أمره هو ورفاقه.

أما التهم التي أُلصقت ببقية الشهداء فلم تتعد الانتساب إلى «اللامركزية»، والتوقيع على المنشورات التي كانت توزع في أمر انفصال العرب عن السلطنة ــ مما لم يقيموا عليه أي دليل محسوس ــ والذهاب إلى مصر والحديث مع أعضاء «اللامركزية»، ولنظم بعضهم أشعاراً بغية تهييج الأفكار والدعوة للاستقلال العربي. ومما يستوقف النظر أن التهمة الموجهة إلى عمر حمد اقتصرت على كونه من أعضاء «اللامركزية»، وكونه أنشد في أحد مسارح التمثيل قصيدة توقع النفور بين الترك والعرب، وأنه فر مع عبد الغني العريسي، وعلى السيد حافظ السعيد نائب يافا، أن اسمه ورد في المكاتيب الواردة من مصر بأنه معتمد «اللامركزية» في بلدته، وقد استبدلت عقوبة السجن المؤبد بحكم الإعدام الذي أعطي بحقه وذلك لكبر سنه. والتهمة نفسها أسندت إلى رفاقه الذين وردت أسماؤهم في الرسالة المرسلة من حقي العظم إلى محمود المحمصاني ــ وقد مر ذكرها بالتفصيل ــ فأُعدموا جميعاً. والأغرب من ذلك كله أن ما أُسند إلى الشهيد محمود العجم أنه كان من الداخلين في فرع بيروت للامركزية، وأنه قرأ المنشورات، فاستحق على ذلك الإعدام.

---

(١٥٩) مذكرات أحمد قدري، ص٤٢.

خلاصة القول : بعد أن اعتقد الاتحاديون أنهم برهنوا على جريمة حزب اللامركزية ، وعلى خيانته بالاستناد إلى الوثائق التي صادروها ، صاروا يتهمون كل عضو فيه بالخيانة ، غير أنهم أعدموا كثيرين ممن لا علاقة لهم بأي حزب ، بل كان جل ما ارتكبوه أنهم عارضوا الاتحاديين معارضة شديدة في مجلس المبعوثان ، في فترة ما قبل الحرب ، كرشدي الشمعة وشكري العسلي ، ولا ذنب لهم إلا نبوغهم . قال أحد صنائع جمال ، عندما ناقشه أحدهم في الذنب المسند إلى شفيق المؤيد العظم «إن لشفيق المؤيد العظم ذنباً قديماً أخفى كل حسناته هو إهانته لطلعت بك عندما كان عضواً في مجلس المبعوثان ، ولا بد أن يُقتل بهذا الذنب قتلاً»(١٦٠) .

وأخيراً لا بد لي أن أثبت هنا — على سبيل المثال — ما جاء في حيثيات الحكم التي قُدمت إلى جمال باشا ، من قبل ديوان الحرب ، فيما يتعلق ببعض المتهمين ، كما جاءت في مذكرات عزيز بك(١٦١) .

سليم الأحمد العبد الهادي : من أهالي جنين (فلسطين) ، وعضو مجلس إدارة المنطقة المذكورة . ليس للرجل في الحقيقة أقل تدخل في شؤون هذا الحزب (حزب اللامركزية) إلا الكتاب الوارد من مصر ، والذي يثبت أنه معتمد الحزب في جنين . (أُعدم) .

عبد القادر الخرسا : من وجهاء بيروت ، إنه ليس عنصراً خطراً على سلامة الدولة في الوقت الحاضر .

محمد مسلم عابدين : مأمور في دائرة أوقاف اللاذقية ، إن الأدلة أثبتت أنه لم يكن عضواً في الجمعية اللامركزية ، ولا قام بأي عمل في منطقته أو غيرها في سبيل تأييد هذا الحزب أو غيره . والرجل — وإن كان متمسكاً في دفاعه عن اللغة العربية — إلا أنه لم يقم بعمل ما تُشتمُّ منه علاقته بالأعمال العدائية ضد الدولة أو إثارة النعرات بين العرب والترك . إن الرجل صديق قديم لحقي العظم وبينهما مخابرات قديمة وهذه الصداقة هي التي دعت حقي بك أن يحرر له بعض المكاتيب داعياً إياه للاشتراك في الحزب . (أُعدم) .

حافظ السعيد : وجيه من يافا ، خدم بلاده بأمانة وإخلاص ، وانتخب نائباً عن القدس ، إلا أن لطفي فكري بك (من أعضاء حزب الحرية والائتلاف) أثر عليه فجعله عدواً للاتحاديين

---

(١٦٠) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٤٢ .

(١٦١) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٢٥٢ — ٢٥٦ .

ولهذا نقم عليهم ، ووجوده معتمداً للحزب في يافا لا يكون خطراً على سيادة الدولة خصوصاً وأن أهله من أصدقاء الدولة المخلصين . (السجن المؤبد لكبر سنه) .

سعيد الكرمي : مفتي بني صعب ، لم يكن مندفعاً في تأييد اللامركزية ، وهو وإن كان معتمداً لها في بني صعب ، إلا أنه لم يكن عدواً يُخشى خطره على سيادة الدولة ... وقد أظهر في مختلف الأدوار رغبة أكيدة في خدمة الدولة ، وتأييد أواصر الصداقة بين الترك والعرب .

ومع كل ذلك لم يقتنع جمال باشا ببراءة هؤلاء الأحرار وأصر على الحكم عليهم بالإعدام فكان له ما أراد .

لقد حاول بعض كبار رجالات العرب ، وبعض فضلاء الترك ، إنقاذ رقاب المعتقلين بالتوسط لدى جمال باشا وحكومة الآستانة من أجلهم ، لكن جهودهم ذهبت سدى . فقد تناقلت معظم المصادر العربية ذات الإطلاع أن خلوصي بك والي دمشق(*) قد وعد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وغيره من رجال العرب أنه ما دام في دمشق فلا خوف على أحرار القافلة الثانية من المعتقلين ، لكن الخلاف لم يلبث أن تفاقم بينه وبين جمال باشا بشأن إعدامهم ، فاتصل بطلعت بك وزير الداخلية محتجاً على تصرفات جمال قائلاً « إن إطلاق يده على هذا الشكل يقتل ويشنق دون استئذان معناه انتهاك حرمة القوانين والأنظمة والاعتداء عليها » ، وطلب أن يؤذن له بالسفر إذا لم يوقف جمال عند حده فأذن له .

ولم يغادر دمشق إلا وقد بادر إلى تحذير الدكتور الشهبندر قائلاً « إنني عازم على السفر لأنني مريض ولا يناسبني هواء هذا البلد ، وأظنك ، وأنت دكتور ، تدرك أن حالك كحالي ، فالهواء لم يعد يوافقك » . ودعاه إلى مغادرة دمشق ، فصدع إلى هذا التحذير ، وغادرها إلى البصرة ثم إلى مصر . وكان الشهبندر قبل ذلك ــ أي في ايلول ١٩١٥ ــ قد اغتنم مناسبة إقامة حفل في الجامع الأموي ، (لتعليق القنديل المهدي من إمبراطور ألمانيا لضريح صلاح الدين الأيوبي) ، وكونه من بين الخطباء ، لكي يحض جمال باشا على العفو عن المعتقلين ، فتكلم عن تاريخ صلاح الدين وعدله وسعة صدره وإنصافه ، حتى في معاملة أعدائه ، ثم قال « وما على جمال باشا ، إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه ، كما

(*) كان خلوصي بك واليا على دمشق ، وجمال باشا واليا عاما على عموم منطقة الجيش الرابع .

حفظ اسم صلاح الدين، إلا أن يسير على منواله ». فما كان من جمال إلا أن تقدم إلى المنصة متخطياً دوره في الخطابة وقال « ليس صلاح الدين، الذي أسهب الدكتور في مدحه، الخليفة الوحيد في عظمته، بل إن التاريخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء، مع أنه فتك بأخوته وبأهله وبرجال دولته، لأنه وجدهم قد تآمروا عليه وهددوا المملكة الإسلامية، وسيأخذ القانون مجراه في معاقبة الذين تجرؤوا على معاداة الدولة والتآمر على سلامتها »[١٦٢]. عندئذ أدرك الشهبندر أن لا رجاء في إنقاذ المعتقلين وأسرَّ ذلك إلى بعض أصدقائه. كما حاول الشريف حسين وابنه الشريف فيصل التوسط لدى الباب العالي لإنقاذهم، حينما ذهب الأخير إلى الآستانة، وتحدث إلى أنور باشا عن سياسة جمال الإرهابية وطلب الإفراج عن المعتقلين[١٦٣]، وحينما أبرق الشريف حسين إلى أنور برقية بهذا المعنى. ولم يدخر فيصل جهداً في هذا السبيل لدى جمال باشا بالذات في دمشق، إذ كان يكرر عليه الرجاء بأن يظهر شيئاً من التسامح معهم[١٦٤]. لكن هذه الوساطات ذهبت جميعها سدى. بل إن جمال باشا كان يرفض هذه الوساطات باستمرار، وقد أجاب مرة الأمير فيصل، الذي دعاه إلى الغداء معه في القابون، وكرر عليه رجاءه في هذا الشأن، بقوله « هل تعلم مقدار جريمة المتهمين ؟ »، فأقسم فيصل أنه لا يعلم شيئاً عنها. عندها أجابه جمال بأنه لو علم بذلك لندم تمام الندم على كونه قد طلب العفو عنهم. ويتم جمال حديثه عن مسألة العفو في مذكراته قائلاً « إن فيصلاً لم ينقطع عن التوسط لديه بشأن المعتقلين حتى اليوم السابق لإعدامهم، إذ أرسل إليه الشيخ بدر الدين الذي يجله ويحترمه، ومعه الشيخ عبد القادر الخطيب، أحد خطباء الجامع الأموي، لكي يستعطفاه بالعفو عنهم، فطلب من الشيخ أسعد الشقيري أن يترجم له كلام الشيخ بدر الدين، لكن هذا الأخير بدلاً من طلب العفو طلب إنزال العقاب بمن ثبتت خيانته منهم عملاً بالآية الكريمة ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجُلهم من خلاف، أو يُنفَوا من الأرض ﴾ جزاء ما يقومون[١٦٥] به من الفتنة والفساد[*]. ومن جملة الذين توسطوا للشهداء فارس الخوري، كما مر معنا، فصده جمال صداً

---

(١٦٢) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٣٧ ــ ٣٨.

(١٦٣) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٣، استناداً إلى مذكرات علي فؤاد أردن.

(١٦٤) مذكرات جمال باشا، ص٣٧٣.

(١٦٥) CEMAL PAŞA, Hatiraler, pp. 266-267 ; الترجمة العربية، ص٣٧٩ ــ ٣٨٠.

(*) وهنا لا بد لي من الإشارة إلى تصرف مترجم مذكرات جمال باشا في المعاني بشكل يحورها عن مدلولها الصحيح، بقصد التشديد على تجريم الشهداء من قبل الشيخ بدر الدين، في حين كان كلام الشيخ المذكور يحتمل التأويل بحث جمال على التخفيف.

عنيفاً[١٦٦] . كما توسط لهم الأمير شكيب أرسلان ــ وكان من أعضاء مجلس المبعوثان ــ بنصحه جمالاً عن التمادي في سياسة العنف . لكن جمال باشا خيب رجاءه ولم يعره أذناً صاغية[١٦٧] .

بطولة الشهداء

إن من يقرأ ما كتب عن البطولة التي أظهرها الشهداء ، ساعة مثولهم أمام الموت ، ليقف مندهشاً حقاً ، حتى يكاد لا يصدق أنهم قد استقبلوه بهذه الشجاعة التي لم ينكرها عليهم حتى المؤرخون الترك . قال يوسف حكمت بايور « لقد قابل المحكومون الموت بكل شجاعة ورباطة جأش »[١٦٨] .

في الواقع أظهر الشهداء شجاعة عظيمة وبطولة رائعة عند الإعدام ، كما أظهروها في الاستنطاق والمحاكمة ، خذ مثلاً الشهيد عمر حمد : كان هذا الشاعر الشاب أجرأ المتهمين وأعزهم جانباً في أثناء الاستنطاق ، فبينما كان الضابط رئيس هيئة التحقيق يستجوبه مرة قال له « أنت تكذب » ، فثار الدم في رأسه ، وكاد يهجم عليه ، لولا أن حال الجندي بينه وبين ما عزم عليه ، مهدداً بالسلاح ، فاكتفى بان أجاب الضابط التركي بقوله « نحن لا نكذب ولا نحترم الكذابين » ، فحملق الضابط فيه ونهره قائلاً « اسكت .. كلب .. » ، فلم يستطع عمر حمد ضبط شعوره وأجابه « بل أنت الكلب » . ولا تسل حينذاك عن حالة الضابط الذي نهض عن كرسيه وهرول كالفيل الهائج ، وهجم على عمر حمد المكبل بالحديد ، وصفعه ثلاثاً ثم أعاده إلى السجن . قال فائز الخوري الذي روي هذه القصة « كنا نعجب جميعاً لجرأة عمر حمد ، فإنه لم يكن يبالي بالموت ، ويقضي وقته بنظم الأشعار »[١٦٩] .

لقد أظهروا ــ سواء منهم أفراد القافلة الأولى أو القافلة الثانية ــ من ضروب الشجاعة ما يهز الشعور ويثير الدهشة . فلما بُلّغوا أحكام إعدامهم لم يعرف الخوف والجزع إلى قلوبهم سبيلاً ، ولم تتبدل هيئتهم ، ولم تدمع عين أحد منهم ، ولا علا وجه أحدهم اصفرار ، لا بل كانوا يتكلمون

---

(١٦٦) حنا . خباز ، جورج . حداد ، المصدر السابق ، ص٢٨٠ .

(١٦٧) دكتور سامي الدهان ، المصدر السابق ، ص١٥ .

(١٦٨) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 222.

(١٦٩) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٨ ــ ٨٩ ، استناداً إلى مذكرات « فائز الخوري » شاهد العيان ، الذي نشر مذكراته في جريدة البرق ، وكان قد قضى فترة في سجن عالية موقوفاً .

بعضهم مع بعض وكأنهم في حلقة أدب[١٧٠] . ووقف معظمهم على منصة الإعدام يمطرون الحكام الظالمين وابلا من عبارات التقريع في مواقف خطابية رائعة الجرأة والبطولة . فقد وقف عبد الكريم الخليل — وهو من القافلة الأولى — أمام المنصة ، رابط الجأش ، ثابت الجنان ، وانطلق بصوته الجهوري قائلاً « يا أبناء أمتي وأهل بلادي يريد الأتراك أن يخنقوا أصوات حريتنا في صدورنا ... ، لكننا سنتكلم ، سنعلن للملأ أننا أمة تريد الاستقلال .. ، وتسعى إلى الخلاص من نير الترك . أنتِ يا أرض الوطن احفظي تذكارنا ، وأنت يا سماء بلادي احملي إلى كل سوري ، بل إلى كل عربي ، سلام هؤلاء الشهداء ، ورددي عليهم مأساتنا وكلامنا . قولي لهم إننا عشنا لأجل الاستقلال ، وها نحن نموت في سبيل الاستقلال .... ، إن الاتحاديين أبوا إلا أن يُعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذي لا يملك من أمره شيئاً . فإذا كان جمال باشا يتهمنا بإضرام الثورة لاستقلال العرب ، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال ، ولتكن نحن أول هذه الضحايا ... »[١٧١] . ولم يتركه الجلاد يتم كلامه ، بل أسرع إلى وضع الأنشوطة في عنقه ، ورفس الكرسي من تحت رجليه فهوى وفاضت روحه .

ولما جاء دور الشهيد محمد المحمصاني ، وهو من المجازين في الحقوق من جامعة باريس ، تعانق مع أخيه الشهيد محمود طويلاً ، وصعد إلى الكرسي في غير تخاذل ولا وجل ، وقال « إني أُشهد الله في هذا الموقف الرهيب أن هؤلاء الإخوان الذين يساقون إلى الإعدام أبرياء ..... أُشهد الله أن ما فعلته وما قمت به من الحركات التي اتهمت بها ، إنما كان عن اعتقاد ثابت بأني أخدم بلادي وأنجيها . فإذا كان من يتعشق الحرية ويسعى في سبيل تحرير بلاده مجرماً فأنا هو ذلك المجرم . لقد أردت الحرية لبلادي ، وما كنت لأندم ، لا بل أراني مسروراً أن أكون شهيداً في هذا السبيل . إن مراجلنا لتغلي ، نحن الذين كانت حضارتنا من ألمع الحضارات التي عرفها التاريخ ، من الصغار الذي يريدنا عليه هؤلاء القساة الظالمون ، برابرة الأناضول . كفاكم أيها القوم ، وحسب العرب ما لاقوه من نير الترك حتى اليوم » .

فلما بلغ من كلامه هذا الحد ضربه الجلاد بقبضة يده على فمه فأدماه ، ولكنه لم يستطع أن يمنعه من المضي في كلامه صارخاً بأعلى صوته :

---

(١٧٠) يوسف ابراهيم يزبك ، المصدر السابق ، ص١٧٠ .

(١٧١) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٩ — ٧٠ ، أمين سعيد ، الثورة العربية ، ج١ ص٨٥ .

« بلى حسبنا من الرق مالقينا ، وما علينا من الإعدام ما دامت الفكرة التي نحاولها باقية حية لا تتطرق إليها يد الأيام » .

وأراد الكلام بعد ذلك فحال دونه خصام بينه وبين الجلاد الذي تمكن من وضع الحبل في عنقه ورفس الكرسي من تحته[١٧٢] .

أما شهداء القافلة الثانية فقد قضوا أيامهم الأخيرة في السجن بالتسلي بلعب ورق الشدة والطاولة والدومينو ، وبالحديث عما جرى لهم في أثناء الاعتقال ، وما دار في جلسات استنطاقهم . ذلك أن السلطة قد سمحت لهم بالاجتماع بعضهم مع بعض ، بعد أن انتهى التحقيق معهم[١٧٣] ، وبعد أن كانت لا تسمح لأحد منهم بالاتصال مع الآخر ، ولو بكلمة واحدة ، تحت طائلة إطلاق الرصاص عليه ، مثلما حدث لأحدهم « توفيق الناطور » الذي اخترقت رصاصة الحارس جسمه حينما حاول التحدث إلى أحد رفاقه[١٧٤] .

كان القسم الأعظم منهم لم يقطعوا أملهم في النجاة ، ولا سيما أن الأتراك في الديوان العرفي ، وخاصة هيئة التحقيق ، كانوا يعللونهم بالخلاص ويعدونهم بالنجاة . إلا أنه قبل إعدامهم بيومين سرت في بيروت وجبل لبنان إشاعة تهامَسَ بها الناس بأن الموقوفين في عاليه سيُعدمون ، فلم يغمض خلالهما للناس جفن ، كل واحد يسأل ويتساءل : من سيعدم ، من سينفى ، من سيسجن[١٧٥] ؟ وهكذا إلى إن كان اليوم المشؤوم ، فجر يوم ٦ أيار ١٩١٦ ، إذ جاء الديدبان يطرق باب مهجع المعتقلين وينادي بصوته الأجش : عبد الغني العريسي ، ألبس ثيابك ، « فنظرنا كلنا ـــ والقول هنا لفائز الخوري ـــ دفعة واحدة إلى عبد الغني فإذا هو عالي الجبهة يبتسم . إني رأيته في تلك الساعة أشجع منه في كل المواقف ، رأيته لا تشوبه شائبة الخوف ، ولا تدل أسارير وجهه على الجبانة ، وكانت سنة المذهبة تلمع من خلال ابتسامته »[١٧٦] .

ثم ينادي الديدبان : عمر حمد ، ألبس ثيابك ، وكان عمر قد أكمل ارتداء لباسه الذي بدأه

---

(١٧٢) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٥١ ؛ خير اللهخير الله ، معضلة الشرق ، ص٨٢ ـــ ٨٣ .

(١٧٣) أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج١ ص ٨٨ .

(١٧٤) مذكرات أحمد قدري ، ص٥١ ـــ ٥٣ .

(١٧٥) يوسف ابراهيم يزبك ، المصدر السابق ، ص١٥١ ، ١٦٦ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ص١٥٦ ـــ ١٥٧ ، نقلاً عن مذكرات فائز الخوري .

لما نودي باسم عبد الغني، لعلمه أن مصيره مقرون بمصير صديقه، وخرج وهو ينشد: نحن أبناء الأُلى شادوا مجداً وعُلا ... «ولم يكن بين الشهداء أشجع منه»[١٧٧]. ولم يشأ رفيق رزق سلوم أن يغادر السجن إلا بعد أن عانق جميع من كانوا فيه من رفاقه، وهكذا نودي على المعتقلين وعددهم عشرون، واحداً بعد آخر، ثم توجه الديدبان إلى بقية المساجين قائلاً «الآن يمكنكم أن تناموا. ثم قُسّم المعتقلون إلى فئتين ثلاثة عشر سيقوا في جنح الظلام بالسيارات إلى بيروت، وسبعة بالقطار إلى دمشق. أما حافظ السعيد نائب يافا فقد استُبدل السجن المؤبد بحكم الإعدام الذي صدر بحقه نظراً لكبر سنه. ولما وصل المرسلون إلى دمشق، وضعوا في دائرة الشرطة، ثم قُدموا واحداً بعد آخر إلى المشانق، فتقدموا إليها برباطة جأش نادرة المثال، وفي مقدمتهم شفيق المؤيد العظم، وهو أكبرهم سناً، فألقى كلمة بليغة مختصرة نوه فيها عن موته في سبيل الغاية الشريفة التي يسعى أحرار العرب إلى تحقيقها، والاصلاح الأساسي الذي كانوا ينشدونه للبلاد العربية، وختمها بقراءة الفاتحة. وتكلم رشدي الشمعة منددأ بالدولة وختم كلامه بالآية الكريمة ﴿ ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون ﴾. وقال الأمير عمر الجزائري «إن مقتل ابن الأمير سيعود على الدولة بالوبال» وقال شكري العسلي «إن الله بالمرصاد، وسينتقم من الكفرة الظالمين»[١٧٨].

أما الذين سيقوا إلى بيروت فإنهم ظلوا يُنشدون الأناشيدَ الوطنية الحماسية طول الطريق. ولما وصلوا إلى المدينة، وضعوا في غرفة واحدة جميعهم، فجمعهم عمر حمد حوله، وأخذوا يرددون بصوت جهوري عال، وهم يزرعون الغرفة ذهاباً وإياباً «نحن أبناء الأُلى، شادوا مجداً وعُلا، نسل قحطان الأبي، جد كل العرب». ثم أُحضر الطبيب لفحص أجسامهم فغضب «باترووباولي»، وصرخ بالموظفين الترك قائلاً «عجلوا بتنفيذ حكمكم، وخلصونا من وجوهكم القبيحة. كان الأَوْلى بكم، بدلاً من أن تفحصوا أجسامنا بدقة، أن تحاكمونا بعدل ...، تأكدوا أننا لا نخاف الموت ولا نهاب المشنقة، خلصونا عجلوا». وخف مسرعاً إلى المشنقة وصعد إليها، ووضع الحبلة في عنقه بنفسه، ورفس الكرسي برجله[١٧٩].

ولما جاء دور عمر حمد أخذ يتقدم إلى المشنقة وهو ينشد ثلاثة أبيات حماسية من الشعر نظمها قبل قليل، ثم وقف على المنصة وخاطب رضا باشا ومدير البوليس باللغة الفرنسية «إني

---

(١٧٧) المصدر السابق، ص١٥٩، عن الشاهد نفسه.

(١٧٨) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٥٣ــ٥٤.

(١٧٩) أنطون يمين، المصدر السابق، ج ١، ص٧٧ــ٧٩.

أخاطبكما باللغة الفرنسية لأنكما لا تعرفان العربية[١٨٠]. بلغا حكومتكما التركية الظالمة أن العمل الذي يقوم به رجالها الآن سيكون سبباً لخرابها وتقويض أركانها » . ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية « إني أموت غير خائف ولا وجل ، أموت فداء الأمة العربية ، خَسِفتَ ياهلال وشُلت يداك يا جمال ، فليسقط الأتراك الخونة ، وليحيا العرب » . ولما وصل إلى هذه الكلمة اشمأز الضابط المشرف على عملية الإعدام منه ، ورفس الكرسي من تحته ، ولم يكن الحبل قد وضع في عنقه ، فهوى إلى الأرض بين حي وميت فبادر الضابط إلى وخزه بسيفه ، ثم رفعوه إلى المنصة وعلقوه برغم الدم الذي أخذ يسيل من جرح بليغ في رأسه . فالتفت عبد الغني عند ذلك ، وكان قد أخذ مكانه على المنصة المجاورة إلى مأموري الحكومة وقال لهم « عار عليكم أن تعذبوا المحكوم عليه إلى هذه الدرجة . إن الإنسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال » . وعندما حاول الشرطي أن يسرع في وضع الحبلة في عنقه التفت إليه وقال باشمئزاز :

« دعنا نتكلم يا هذا ، واحترم إرادة رجل يموت » . ونفر منه عندما أراد تكرار العملية ، والتفت إلى الناس ، وقال بصوته الجهوري :

« بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب ، وأن أبناء الرجال الذين قُتلوا اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق الترك . إن الدول لا تبنى على غير الجماجم ، وإن جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا » .

وهكذا إلى أن بلغ مجموع من رفعوا على الأعواد عشرة شهداء. فلما شاهد توفيق البساط ذلك المشهد المؤثر تُجسمت فيه روح الشجاعة والبطولة ، وصاح بصوت جهوري مخاطباً تلك الآلة :

« مرحباً بأرجوحة الشرف ، مرحباً بأرجوحة الأبطال ، مرحباً بالعمد التي تستند إليها الشعوب في استقلالها ، مرحبا بالموت في سبيل الوطن الحر » ، وكان في أثناء كلامه يسير إلى المشنقة بسرعة الطير . وما أنجز كلامه حتى كان قد اعتلى المنصة ، فوضع بيده الحبلة في عنقه ، وبسرعة البرق رفس الكرسي برجله وفاضت روحه إلى جانب رفاقه[١٨١] .

---

(١٨٠) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ج ١ ، ص٨٨ .

(١٨١) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٥٦ ـــ ٥٧ ؛ أنطون يمين ، المصدر السابق ، ج ١ ص٨١ ـــ٨٢ .

أما الضابطان سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ فكان دورهما آخر الجميع، وكانا من كبار ضباط الجيش ومن أركان حربه، فتقدم أمين لطفي من رضا باشا، المشرف على عملية الإعدام قائلاً «ليقل لنا الديوان العرفي، على الأقل، كيف حكم علينا بالإعدام، كيف لم يستنطقونا ولم يسمعوا كلامنا؟ أهذا هو جزاء خدمتنا الدولة؟»، فقال له رضا باشا «إني أخابر الآن القيادة العليا للعفو عنكما» ثم طلب جمال باشا فقيل له إنه متغيب، وإن فخري باشا لوحده في القيادة. فاتصل به وطالت المخابرة بدون جدوى لأن كلمة «أولماز» (لا يمكن) هي التي كانت ترن في بوق الهاتف. ولما حاول الجزائري إقناع فخري باشا ببراءتهما، تلقى الجواب نفسه فضرب السماعة في الأرض فكسرها. ثم مشى مع رفيقه إلى المشنقة بثيابهما العسكرية، ولما أراد الشرطي أن ينزع قبعتيهما وشاراتهما العسكرية رفضاً، فتُركت على حالها، وحينما صعد سليم الجزائري ـــ بعد أن صافحه رضا باشا وعاد إلى مكانه ليشهد إعدامه بصفته الرسمية ـــ نظر إلى الحاضرين، وكانت أنوار النهار قد انتشرت على بيروت، وقال موجها كلامه إلى رضا باشا:

«قل لهذا السافل جمال أن لا يفرح بموتي، فإن روحي ستظل حية وستُعلِّم أبناء بلادي من وراء القبر درس الوطنية الحرة وبُغض الأتراك». وعندما حاول الشرطي نزع نظارته عن عينيه مانع قائلاً «أعدمني على حالي كما عشت لأني لا أريد أن أموت وفيّ شيء ناقص».

ولما صعد أمين لطفي الحافظ إلى المنصة كان وجهه يطفح بالابتسام الممزوج بالتهكم، مردداً النكات هازئاً بالدولة التركية. وعندما ارتبك الشرطي في وضع الحبلة في عنقه، التفت إليه وقال له ساخراً «ألم تتعلم طريقة الإعدام حسب الأصول يا رجل؟ ضع الحبلة في عنقي بفن ولطافة على الأقل جزاء خدماتي للدولة». وحينما لم يحسن الشرطي وضع الحبلة أخذها منه ووضعها هو بنفسه في عنقه، لكن الكرسي رفست قبل أن يمكّنها من جوزة العنق فهوى وظل يتعذب ما يقارب من عشر دقائق قبل أن تفيض روحه[١٨٢].

إلى جانب أحكام الإعدام الوجاهية التي نفذت فعلاً، كان ثمة أحكام غيابية كثيرة بحق رجالات البلاد المسلمين والمسيحيين المقيمين في الخارج أمثال رفيق العظم، حقي العظم، رشيد رضا، عزيز المصري، شكري غانم، عزت العابد، داود بركات، فارس نمر، شبلي شميل، خليل مطران، نجيب عازوري.. وكثير غيرهم ممن لم تأت أية وثيقة من الوثائق الثبوتية على ذكرهم. وذلك

(١٨٢) أمين سعيد، الثورة العربية، ج١، ص٩١ ـــ ٩٢، أنطون يمين، المصدر السابق، ج١ ص٨٣ ـــ ٨٤.

بالإضافة إلى أحكام أخرى أخف كالحكم بالسجن المؤبد والمؤقت والنفي. وقد قال جمال إن مجموع عدد المحكوم عليهم بلغ مئتي شخص[١٨٣]. وكان لأكثر من نصفهم حكم الإعدام.

ولم يكتف جمال باشا بذلك، بل أخذ في نفي عائلات الشهداء بأجمعهم، نساء وشيوخاً وشباناً وأطفالاً إلى الأناضول، وبينها أشهر عائلات سورية مثل عائلات آل المؤيد العظم، والأمير عبد القادر الجزائري، وآل الكيلاني، والشمعة، والعسلي، وعبد الهادي، والحسيني، والمطران، وحيدر، والشباط... وكثير غيرهم. كما نفى الأتراك إلى الأناضول عائلات عراقية كثيرة من مسلمين ومسيحين ويهود، وبينهم آل الألوسي، والكيلاني، والسويدي وغيرها... وكان الأتراك يعطون هذه العائلات بيوتاً من بيوت الأرمن الذين أخذوا في إفنائهم بالقتل أو النفي إلى سورية، ويستولون على بيوتهم وأملاكهم، ويملّكونها للأتراك بأبخس الأثمان، أو يخصصونها للمهاجرين العرب. وقد جردت الحكومة التركية خمسة طوابير على منطقة اللجاة (في جنوبي سورية)، بقيادة فخري باشا وبرفقته ضابط ألماني كبير، وغدرت بأهلها، وقبضت على كثير من العائلات ونقلتها برمتها إلى قضاء الزيتون، وهي من مواطن الأرمن في ديار بكر، بعد أن قتلت أهلها، وإلى غيرها من مناطق الأناضول، وسلمت أراضي اللجاة للكرد والشركس والترك القادمين إلى سورية[١٨٤].

كان قصد الحكومة، من إبعاد العائلات السورية العربية العريقة، إخلاء سورية منها وتتريكها وإفقاد سورية طابعها العربي، وإضعاف العصبية العربية فيها، لكي يسهل دمجها في الطورانية[١٨٥]، حيث أخذت فكرة التتريك تقوى في أذهان الاتحاديين بعد دخولهم الحرب، فأخذوا في جلب المعلمات التركيات من الآستانة إلى دمشق وبيروت لهذه الغاية. وكان على رأسهن الأديبة المعروفة خالدة أديب التي عُهد إليها بإدارة دار المعلمات في بيروت، كما أُرسلت كثيرات من المعلمات العربيات إلى الآستانة والمدن التركية الأخرى بقصد تتريكهن[١٨٦]. وقد بلغ مجموع عدد العائلات السورية التي نفيت إلى مختلف مدن الأناضول ما يزيد عن /٣٠٠/ عائلة[١٨٧]. وقد اتخذ جمال من النفي سياسة مرسومة بحيث أسس في دمشق وحلب وبيروت والقدس وغيرها من البلاد العربية

(١٨٣) إيضاحات، ص١٢٤ ــ ١٢٥.

(١٨٤) فائز الغصين، المظالم...، ص٥١؛ كيرللس قاضي، المصدر السابق، ص٥١.

(١٨٥) أنور الجندي، رواد القومية العربية، ص٩٧.

(١٨٦) محمد جميل بيهم، العرب والترك...، ص١٣٩ ــ ١٤٠.

(١٨٧) أنور الجندي، المصدر السابق، ص٩٧، دكاترة بديع شريف، وأحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق، ص١١١. ولقد قدر الأمير شكيب أرسلان عدد نفوس هذه العائلات بأكثر من ثلاثة آلاف نسمة.

ما سماه «مديرية المهاجرة» رمى من ايجادها إلى استبدال الأهالي السوريين بغيرهم من الجنسيات الأخرى كالأرمن والأكراد والجركس، وعين لهذه المديرية في دمشق رجلاً متعصباً لطورانيته ذميماً هو «نوري بك» المعروف بكونه من كبار الجواسيس. كما عُيِّن في حلب رجلاً آخر لا يقل عنه تعصباً هو «أحمد أيوب بك» وقد واصَلا، مع الموظفين الأتراك الذين وضعوا في معيتهما، العمل ليلاً ونهاراً لتهجير العائلات السورية. وكان من جملة مخططاتهم الضغط على الملّاك السوريين ــ بإذكاء أزمة القمح والخبز لتجويعهم ــ كي يُرغموهم على بيع أملاكهم بأبخس الأثمان، بحيث يكون الترك هم الذين يبادرون إلى شرائها(١٨٨).

وعندما فاتح الشريف علي حيدر جمال باشا بشأن تهجير عائلات الشهداء وسوء المعاملة التي يعاملون بها قائلاً له «إذا كان فرد من أفراد العائلة قد أخطأ فعلام يؤخذ جميع أفراد عائلته بجريرته وما هو الوزر الذي ارتكبوه»؟ أجابه الباشا بقوله «في رأيي أن العدل يقضي بذلك، فإذا ما ارتكب رب العائلة عملاً فيه خيانة للدولة، حينئذ يكون عين العدل أن يتحمل جريرته جميع هؤلاء الذين ينتمون إلى أسرته»(١٨٩).

هذه السياسة أسخطت العرب وعمّقت عوامل الحقد في قلوبهم على الترك، بفعل المآسي التي تعرضوا لها، من مجاعة وتكاليف حربية ومكلفية عسكرية وإرهاب، فأصبحت الكآبة مطبوعة على وجه كل فرد من السوريين، ولم يعد ثمة من وجه ضاحك ولا ثغر مبتسم، بل كان كل فرد منهم، مسيحيين ومسلمين، يدعون الله آناء الليل وأطراف النهار أن ينقذهم من هذا المصير القاتم(١٩٠). وقد بلغ الاستياء في سورية مبلغاً أخذ ينذر بشر مستطير، لم تكتم حكومة الآستانة خشيتها وجزعها من سوء نتائجه، فاضطرت إلى إرسال لجنة من أعضاء المركز العمومي لجمعية الاتحاد والترقي، مؤلفة من الدكتور ناظم بك، وبهاء الدين شاكر وغيرهما لدراسة الحالة في سورية عن كثب، فقدمت تقريرها الذي جاء فيه أن جمال باشا يتصرف في سورية تصرفاً لا يأتي بمثله إلا من يَعُـدُّ نفسه ملكاً مطلقاً عليها. ذلك أنه، حتى ولو بفرض كونه محقاً في سياسته، قد زرع الرعب في قلوب الرعايا العثمانيين نظراً لسياسة العسف والقهر والإرهاب التي يمارسها في سورية، مما جعله في نظر الناس كفرعون مصر، أو نمرود الرافدين، أو كسرى إيران(١٩١).

---

(١٨٨) فائز الغصين، المظالم، ص٦٣.

(١٨٩) G. STITT, Ibid. p. 167؛ استناداً إلى مذكرات الشريف المذكور.

(١٩٠) فائز الغصين، المظالم، ص٦٣.

(١٩١) VARDAR, Ibid. p. 305.

في الواقع أصبح جمال حاكماً بأمره، وسلطاناً غير متوج لسورية، لكنه سلطان مستبد وطاغية غشوم، اضطهد جميع الطبقات، وعم ظلمه جميع الناس، فكانت سياسته هذه من العوامل التي عجّلت في قيام الثورة العربية(١٩٢). ذلك أن القوميين العرب من أعضاء جمعية «العربية الفتاة» أخذوا يستغلون هذا الاستياء لإثارة النفوس والتمهيد للأفكار الثورية. قال الدكتور أحمد قدري:

«وقد كان لهذه المآسي القاسية، والسياسة الطاغية التي لجأ إليها جمال باشا دويّ وأي دويّ في العالم العربي، إذ ثارت الخواطر واضطربت الأفكار، وأدرك العرب أنهم تلقاء سياسة جائرة ترمي إلى القضاء على جميع أمانيهم، والتعسف بهم لإخفات صوتهم.

«ولما كان القضاء إعداماً على أمثال هؤلاء الشهداء الذي يمثلون صفوة الشباب العرب ونخبتهم، ومنهم من ينتمي إلى جمعيتنا أمثال محمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وصالح حيدر، ولما كان هذا الحكم قد أظهر النيات التركية نحو العرب، فقد قررت الجمعية القيام بدعاية واسعة النطاق لإطلاع العالم العربي على حقيقة نيات الاتحاديين، فسعينا جهدنا، وبكل ما أوتينا من حول وقوة لتحقيق هذه الغاية»(١٩٣). وهكذا إلى أن تجاوب الشريف حسين مع هذا السخط الطامي والنفوس الثائرة، ووافق هوى في نفسه واتفاقاً مع مصالحه ومطامعه، فانبثق عن كل ذلك ثورة عارمة ستكون القاضية على الإرهاب والطغيان.

وبالرغم من قيام الثورة العربية، ومعرفة أنور وطلعت مقدار ما كان لجمال من يد طولي في إضرامها بسياسته الخرقاء، لم يستطيعا سحبه من دمشق إلا في آخر سنة من سني الحرب، ذلك أنه كان يقف من الوزارة موقف الإملاء والتحكم، بل التحدي، فلم يجدا وسيلة لاستدعائه إلا بالخديعة فالتمسا من إمبراطور ألمانيا استدعاءه إلى برلين للمشاورة، ولم يكد يغادر البلاد حتى نزعوا منه صلاحياته(١٩٤)، تمهيداً لعزله، وهذا هو الذي حدث كما سيأتي معنا في سياق البحث.

---

(١٩٢) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص٣٥.

(١٩٣) مذكرات أحمد قدري، ص٤٤.

(١٩٤) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ج١، ص٤٣.

الفصل الخامس

علاقة الشريف حسين بالترك وأثرها في الإنفصال

قبل ايضاح علاقة الشريف حسين بالأتراك الاتحاديين ، لا بد لي من إعطاء لمحة عن علاقة الحجاز وشرافة مكة بتاج السلطنة العثمانية ، بعد الرجوع إلى نبذة من تاريخ هذه الشرافة .

عندما ضعفت الخلافة الإسلامية في بغداد ، كان رئيس عائلة الشرفاء في مكة « محمد العلوي » الذي ينحدر من سلالة الحسن بن علي حفيد الرسول ﷺ ، يتمتع بنفوذ وسلطان قويين فيها ، فاستطاع الحصول على استقلال بلده ، ضمن شروط اقتضت ظروف تلك الأيام تحديدها . وهي تتضمن بعض مهام الخلافة التي أصبحت هزيلة ، وكان ذلك في عام ١٠٣٧ م . وعندما تم الفتح العثماني لسورية عام ١٥١٦ ، أرسل الشريف بركات أمير مكة آنذاك ابنه « أباغي » ومعه مفاتيح الكعبة إلى السلطان سليم ، عنواناً لانضواء الحجاز تحت سلطانه . غير أن سلطة العثمانيين في الحجاز لم تتعد كونها سلطة إسمية ، بحيث بقيت السلطة الفعلية في يد الشريف الأكبر (الأمير) . أما وراثة الإمارة فقد كانت تسير وفقاً لمبدأ انتخابي معين بين بنيه ، ولكن نظراً لاتساع عائلة الأمير ، كان من الضروري تعديل هذا المبدأ بحيث صار الأمير يعين واحداً من أولاده خلفاً له ، وكان على البقية أن يقبلوا بذلك بصورة عامة[1] .

ظل الأمر كذلك ، يحكم الحجاز شرفاء من أسرة تُعرف باسم « ذوي زيد » إلى عام ١٨١٦ ، حيث كان على رأس الإمارة شريف شديد القوة والنفوذ هو « الشريف غالب » ، الذي خشي بأسه

---

(١) G. STITT, Ibid. pp. 15-17.

كل من السلطان العثماني محمود الثاني ، ووالي مصر محمد علي باشا ، الذي احتل الحجاز بأمر السلطان لإخضاع الحركة الوهابية . غير أن محمد علي قد تمكن بالدسيسة والحيلة من إلقاء القبض عليه مع أفراد عائلته ، وأرسلهم إلى الآستانة حيث دُسَّ لهم السم بأمر من السلطان ، وقضوا نحبهم في سلانيك[٢] . ثم عَين أخاه سرور بن يحيى شريفاً مكانه . إنما لم يستقر عزم محمد علي على اعتماد شريف معين واحد ، بل كانت سياسته تتمثل في تشجيع استمرار الخلافات العائلية بين الأشراف لتوطيد نفوذه ، حتى إذا انسحب الجيش المصري من الحجاز تمكن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون ، من أسرة « عون » ، التي قَوِيَ نفوذها ، بعد الانسحاب المصري ، من تسنم سدة الشرافة[٣] ، وهو ينتمي إلى أصغر فرع من آل الرسول وهكذا انتقلت الإمارة من أسرة « ذوي زيد » إلى الأسرة الجديدة التي دعيت باسم أسرة « ذوي عونٍ » ، باسم أول أمير لها[٤] ، وكان الشريف حسين بن علي من هذه الأسرة[*] .

منذئذ بدأ نفوذ الترك وقوتهم بالنمو في الحجاز ، وشيئاً فشيئاً أصبح تعيين أمير مكة من صلاحية واختصاص السلطان العثماني يعينه باختياره ، بعد أن كان بالوراثة . وبعد موجات من الدسائس والمؤامرات والثورات تقلبت فيها الإمارة بين هاتين الأسرتين (ذوي زيد وذوي عون) ، استقرت أخيراً في يد الشريف « عون الرفيق » من أسرة « ذوي عون » ١٨٨٢ . غير أن الشريف حسين ـــ الذي كان ، هو والشريفان عبد الله وعلي وهما من أسرته ، من جملة الذين حاربوا الأمير السابق الشريف « عبد المطلب » بن غالب الذي كثرت مفاسده من أسرة « ذوي زيد » حتى تمكنوا من دفع السلطان إلى خلعه ـــ بدأ يثير الغبار حول سياسة الظلم والاعتساف التي اختطها الأمير الجديد ، لكن السلطان عبد الحميد بادر إلى استدعائه إلى الآستانة بسعي من الأمير « عون الرفيق » الذي أراد التخلص من معارضته . فأقام فيها على جبر وإكراه ، وعين عضوا في مجلس شورى الدولة ،

---

(٢) Ibid. pp. 24-25.

(٣) د . عبد الكريم غرايبة : مقدمة تاريخ العرب الحديث ـــ مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ ، ص٣٢٢ .

(٤) G. STITT. Ibid. pp. 26-28.

(*) ولد الحسين بن علي بن عون في الآستانة عام ١٨٥٣ . ولما اختلف مع عمه الشريف « عون الرفيق بن محمد استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة وعينه عضواً في مجلس شوري الدولة . يقول ابنه الأمير عبد الله في مذكراته أن هذا الاستدعاء إلى العاصمة وهذا التعين كانا عبارة عن نفي من الحجاز تفادياً لمعارضة الحسين القوية للشريف القائم على أمور مكة . (عبد الكريم غرايبه : المصدر السابق : ص٣٢٣) .

وهيئت له دار مفروشة على ساحل البوسفور فيها[٥]، فانصرف إلى تنشئة أولاده وتعليمهم، على أيدي معلمين خواص[٦]، علوم اللغتين العربية والتركية، والعلوم العسكرية.

ولما حدثت ثورة ١٩٠٨ الدستورية، عزل الشريف «علي» خليفة «عون الرفيق» من الإمارة مع من عزل من خواص السلطان عبد الحميد، وولي مكانه الشريف «عبد الالٰة» الذي وافته المنية قبل استلام منصبه. عندئذ سعى الشريف حسين في تعيينه مكانه باعتباره الأحق سنا بتوليها، وقدم طلباً إلى السلطان بواسطة الصدر الأعظم كامل باشا[٧]. ويقال إن السلطان عبد الحميد قد تردد عند توقيع الإرادة السنية التي عرضت عليه بداعي أن الحسين لا يكتفي بالإمارة، بل إنه يطمع بأكثر منها، وأبدى تخوفه من أن يخرج الأمير الجديد الحجاز من أيدي الترك[٨]. وقد يكون مبعث هذه الرواية ماعرف عن طموحه العظيم وما تجلى فيما بعد في سعيه الحثيث لتحقيق ذلك الحلم البعيد في تكوين الدولة العربية الكبرى[٩].

وبعد أن ودع السلطان الذي وضع وسام الافتخار المرصع بيده على صدره، غادر الحسين القصر إلى الباخرة، حيث وافاه الصدر الأعظم كامل باشا، وسلمه مذكرة جاء فيها «.... إن الخطة الحجازية المباركة مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى، وإنه لا يسري عليها، بمناسبة إعلان الدستور الجديد، ما يخالف الحقوق المقدسة، القائمة بين الإمارة الشريفة والسدة السلطانية السنية. وبحسب أساس التعامل القديم، وحسب شرائط الإمارة، أمرنا المشار إليه (الحسين) أن يستقبل الحجاج... من سائر ممالكنا الشاهانية، ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين آمنين، وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام، وأن يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمايونية[*]، المرسلة من طرف سلطنتنا السنية إلى أربابها بواسطة المأمورين بموجب الدفاتر الموجودة[١٠]... وأن يهتم في توفيق الأمور

---

(٥) حسين بن محمد نصيف، ماضي الحجاز وحاضره، ص٤، أمين الريحاني، ملوك العرب، ج١، ص٦٣.

(٦) خواص القوم بمعنى خيارهم وأكابرهم.

(٧) مذكرات عبد الله بن الحسين، ص١٧ ــ ١٩.

(٨) محمد طاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج١، ص١٧٧.

(٩) حسين نصيف، المصدر السابق، ص٦.

(*) مبلغ من المال يُمنح سنوياً للحجاز بصفته أرض الإسلام المقدسة.

(١٠) حسين بن ناصيف: المصدر السابق، ص١٥ ــ ١٦؛ مذكرات الأمير عبد الله، ص٢٧ ــ ٢٨.

والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية متحداً مع ... والي الحجاز ... وأن تكون حركته دائماً وفق الشرع القديمة ... »[11].

وبينما يبين الأمير عبد الله بن الحسين أن الخلاف على اتباع السبيل الدستورية في حكم الإمارة أو عدمه قد شجر بين أبيه وبين ممثلي الباب العالي في الحجاز، وبالتالي بينه وبين الآستانة، منذ أول يوم لقدومه ــ مما دعا ممثلي الباب العالي أن يكتبوا إلى مرجعهم يقولون «بعث عبد الحميد برجل جلس على مقام أسلافه لا يعبأ بأحد، ولا يقر بدستور ولا بتجدد»[12]، أي أنه لا يعترف بشيء سوى «دستور بلاد الله وشريعة الله وسنة نبيه»[*] ــ نرى أن والده لا يتأخر، من جهة أخرى، عن تلبية ما كان الاتحاديون يكلفونه به من مهام حربية ولو فيها قتال لأبناء قومه من رؤساء العرب. من هذا القبيل الحملة التي كُلف بتجريدها لقتال الأمير عبد العزيز آل سعود في ربيع ١٩٠٩، إذ بلغ الدولة أنه يحرض العرب على الثورة وعدم دفع الضرائب[13]. ومنها أيضاً الحملة التي كلفوه بتسييرها في شهر أيار ١٩١١ لقتال أمير العسير، محمد علي بن أحمد الإدريسي، الثائر على الدولة. فقام بما كلف به خير قيام هو وأولاده، وخدم الدولة خدمة كبرى، وأنقذ مدينة «أبها» من أيدي ثوار العسير بعد أن دخلوها عنوة. لكن جميع الدلائل كانت تشير إلى أنه لم يستجب إلى هذا التكليف إلا لتقوية نفوذه، وتوسيع حدوده، وخاصة في العسير التي ما إن أنقذ عاصمتها حتى بدأ في استغلال انتصاره، ولو على حساب الدولة العثمانية، وبالاستظهار بجندها الذي يرافق حملته، مما أثار ارتياب سليمان شفيق باشا متصرف «أبها» وقائدها العسكري، فاشتجر معه، ورفع المتصرف أمره إلى الباب العالي، مبيناً أنه لا يقل عن الإدريسي خطورة، بل هو «إدريسي مجهز بالنبادق والمدافع»[14].

كانت الدولة تعين، إلى جانب أمير مكة، والياً توكل إليه أمور الجيش النظامي والمحاكم والأمور

---

(١١) مذكرات الأمير عبد الله، ص٣٥.

(١٢) جريدة الأهرام، العدد ٩٤٢٥ ١٨/٣/١٩٠٩، والعدد ٩٤٣٠ ٢٤/٣/١٩٠٩؛ الدكتور محمد عبد الله ماضي: النهضات الحديثة في جزيرة العرب، ص١١٧.

(*) وقد يكون هذا صحيحاً، إذ لا يُستغرب أن يكون الحسين.. وقد عرف عنه اعتزازه بنفسه قد أجاب متشدقي فتيان الترك المغرورين، حين جاؤوا للسلام عليه مرحبين به، مخاطبين إياه بـ«الأمير الدستوري»، بما يُلزمهم حد الاهتمام بأعمالهم، وترك الحجاز على ما كان عليه يسير في سبيل «تعزيز شريعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

(١٣) الأهرام، العدد ١٠٠٧٧ ٨/٥/١٩١١؛ كتابي: العرب والترك...، ص٢٢٩ــ ٢٣١.

(١٤) علي فؤاد: المصدر السابق، ص٧٨.

المالية، وسائر ما يتصل بالمصالح النظامية للدولة، مع مراعاة الامتيازات الممنوحة لولاية الحجاز، مثل الإعفاء من الضرائب ومن خدمة العلم[١٥]، وكان مقره بجانب الحرم الشريف. أما الشريف فاليه شؤون الحج وأمور البدو، بحيث يكون صاحب الكلمة العليا في تصريف شؤونهم، ومرجعهم الأعلى وصلة الوصل بينهم وبين الدولة وما إلى ذلك. ولكن نفوذ الشريف ومهامه كانت تنمو وتتسع، أو تضعف وتتقلص بحسب ضعف الوالي أو قوته[*]، وبحسب كثرة الموظفين الحجازين الموالين له في دوائر الحكومة. وإذا عرفنا أن منصب إمارة مكة من المناصب الكبيرة في الدولة، ويأتي صاحبه في الترتيب بعد الصدر الأعظم وخديوي مصر، ويقلد ــ علاوة على الإمارة ــ منصب الوزارة ليعلو بذلك مقامه، أدركنا إذن أنه لم يكن ثمة بد من ازدواج السلطة في الحجاز، ومن تصادم القوتين، قوة الوالي وقوة الأمير، في حال عدم رضوخ أحدهما لسيطرة الآخر. لذلك ونظراً لما عرف عن الحسين من قوة النَّعْرَة العربية وشدة الطموح وصلابة الرأي وقوة المراس، كان على الاتحاديين أن يدركوا مقدار المتاعب التي وجب عليهم أن يواجهوها من توليته إمارة مكة. ذلك أنه أخذ في مشاكسة الولاة والاستبداد بكل الأمور دونهم، حتى إنه منع الأهالي من التقاضي في قليل أو كثير إلا لديه، سواء في ذلك الأحوال الشخصية، أو الأمور المدنية[١٦]، ووقف دون محاولاتهم التدخل في شؤون الحجاز الداخلية، كمحاولة فرض تعيين النواب لمجلس المبعوثان، بحسب مشيئة جمعية الاتحاد والترقي، أو التدخل في مسائل الحج وغيرها. وفوق ذلك كان يفرض على الدولة ــ بنفوذه الانتخابي طبعاً ــ أولاده نواباً في المجلس المذكور، بحيث كان الأمير فيصل نائباً عن جدة وعبد الله نائباً عن مكة. وكثيراً ماكان الاتحاديون ينزلون عند مشيئته، ويقفون عاجزين أمام صلابته وعناده وتعاظم نفوذه يوماً بعد يوم، بعد أن يئسوا من إيجاد وسيلة لعزله[١٧]، مما جعل وظيفة رجال الحكومة في الحجاز ــ من عسكريين ومدنين ــ مقصورة في الغالب على مراقبة أعماله وتقديم تقاريرهم إلى الآستانة عن كل عمل وكل حركة من أعماله وحركاته. لذلك، وبعد أن وردتهم التقارير من مكة بتردي الحالة فيها، فكروا في أواخر عام ١٩١٣ جدياً بعزله[١٨]، وتعيين الشريف علي حيدر، حفيد

---

(١٥) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٧٧.

(*) لقد تعاقب على ولاية الحجاز في مدة خمس سنوات، بدءاً من تولي الحسين إمارتها، ثمانية ولاة كانوا يُعزلون منها. إما بمساعيه أو لعجزهم عن الإدارة بسبب وجوده على رأس الإمارة (Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 236).

(١٦) حسين نصيف: المصدر السابق، ص٧ ــ ٨؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٢.

(١٧) محمد ظاهر العمري، المصدر السابق، ج١، ص١٧٧.

(١٨) G. STITT, Ibid; p. 143.

الأمير عبد المطلب من أسرة « ذوي زيد » مكانه ، بعد أن كانوا قد فصلوا المدينة المنورة عن ولاية مكة ، وجعلوها ولاية مستقلة تابعة رأساً لوزارة الداخلية ، بداعي أنها مرتبطة بالآستانة بخطوط تلغرافية وبسكة حديدية ، مما يسهل اتصالها بالآستانة ، بدلاً من الرجوع في هذا الاتصال إلى مكة التي لا تتوفر فيها هذه الشروط[١٩] ، وعقدوا العزم على تمديد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة ، بقصد السيطرة على مكة وعلى أميرها بإرسال الجند إليها من أهون السبل .

لقد أخذ طلعت ورجال الحكومة يتناقشون في أمر عزله ، وكان من رأي الصدر الأعظم سعيد حليم باشا أن الوقت غير ملائم لذلك ، باعتبار أنه سيثير تعقيدات ومشاكل من شأنها أن تؤثر على الدولة من وجهة علاقاتها مع الدول الأجنبية ، وبيّن عزمه على إرسال أحد خاصته ينصحه ويحذره ويفهمه المآخذ التي تأخذها عليه الحكومة . ولما لم تثمر هذه النصائح ، صمم أنور باشا على اتخاذ الإجراء اللازم ، وأعد العدة لتسيير فرقة عسكرية ، عن طريق البحر ، تنزل في الحجاز وتعمل على خلع الشريف حسين من الإمارة . لكن الوزير جوروك صولي محمود باشا وزير الأشغال العامة ، والصدر الأعظم وقفا دون إنجاز هذا المشروع ، وأبدى الصدر وجهة نظره بقوله إن تركيا عقدت مع فرنسا قرضاً بمبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة ذهبية ، فإذا سمعت بهذا الأمر سرعان ما تعتقد أن الدولة مقبلة على حرب فتمتنع عن إعطاء القرض ، وأشار بتأجيل المسألة إلى ما بعد استلامه ، فأيد أكثرية الوزراء هذا الرأي ، وامتعض آخرون مبدين قلقهم من كون الحسين سيجلب الدمار للسلطنة[٢٠] .

إلا أن هذا لم يمنع أنور باشا من حرية التصرف في أوائل عام ١٩١٤ ، إذ استصدر إرادة سنية بتعيين الزعيم العسكري وهيب بك والياً على الحجاز وقائداً عاماً لقطعات الجيش فيها . وقد زوده بتعليمات سرية للقضاء على كل ما للشريف من نفوذ وصلاحيات ، وتطبيق قانون الولايات الجديد على الحجاز ــ شأنه كشأن بقية الولايات ــ وإبطال العرف القاضي بإعفاء أبنائه من الضرائب وخدمة العلم ، وأمده بفرقة عسكرية لتنفيذ مهمته[٢١] ، علماً بأن وهيب بك كان ممن اجتمعت لديهم ، إلى جانب الشجاعة ، قوة العزيمة وصراحة الرأي والعمل ، لكنه جاء في وقت قد اتسع الخرق فيه على الراتق ، بعد أن تعزز موقف الشريف حسين بعصبية لا يستهان بها ، فعمل الوالي الجديد

---

(١٩) مذكرات الأمير عبد الله، ص٤٧ .

(٢٠) G. SRITT, Ibid. pp. 143-144 ; اقتباساً عن مذكرات غير مطبوعة للشريف علي حيدر .

(٢١) مذكرات تحسين العسكري، ص١٠٧ ؛ مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٧٧ .

بهمة لا تفتر على تحسين مركز الحكومة ، والضرب بيد من حديد على يد كل من يحاول الانتقاض على سلطة الدولة[٢٢] ، وكل من يقف حائلاً دون رغبتها في تطبيق قانون إدارة الولايات في الحجاز . وبدأ عمله بأن كتب إلى الشريف أن يسلم إلى السلطة العسكرية مائة بندقية كان يسلح بها حرسه ، فلم يجبه على كتابه .

ولما ألح الوالي في طلبها أصر الشريف على تجاهله ، ولم يكن ثمة بد من الاصطدام وتبادل إطلاق النار بين حرس الشريف والجند التركي ، أسفر عن سقوط عدد من القتلى[٢٣] . عندئذ ثار الرأي العام واستظهر به الشريف ، وتجمهر الناس احتجاجاً على البدعة التي صدرت عن وهيب بك ، فامتلأت بهم دار الحكومة « من غرفة الوالي إلى الشارع ، إلى دار الإمارة إلى ثكنة « جرول » وقلعة « جياد » يصيحون بسقوط تغيير امتيازات الحجاز » ، ويطالبون بعدم مد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة ، ويهتفون للأمير « دم دائماً » . وأعقب ذلك ثورة العشائر التي حصرت كل النقاط العسكرية بين جدة ومكة ، وامتنع أهل الأودية عن جلب الخضار والفواكه والسمن والأغنام إلى مكة ، وكادت المجاعة أن تحل في المدن الحجازية ، فارتبك موقف وهيب بك ، وكتب برقية مستعجلة بالحال الراهنة إلى الآستانة ، ولم تنفرج الأزمة إلا بورود برقية من الصدر الأعظم تفيد بأن « لا إخلال بحقوق الإمارة وبامتيازات الحجاز وأن الدولة لا تلح في الوقت الحاضر على مد الخط الحديدي »[٢٤] .

حصلت هذه الحوادث قبيل نشوب الحرب العالمية ، ولم يكن الهدوء الذي خيم بعد سكونها ، وعودة المياه إلى مجاريها بين الشريف ووهيب بك ، إلا كالرماد الذي يغطي الجمر ، سرعان ما ستذروه رياح الشك بعد اندلاع الحرب واشتراك تركيا بها ، وعندما يحصل الحسين على دليل يؤكد له سوء نية الاتحاديين ووهيب بك نحوه .

عندما دخلت تركيا الحرب كان موقف الشريف معروفاً ، حذرها قبل الدخول ، وامتعض منها بعده ، ورسالته إلى السلطان بهذا الشأن ــ وهي التي مر ذكرها في الفصل الأول ــ واضحة من حيث المخاطر التي تحيق بالأمارات العربية نتيجة لهذه الخطوة . ولم يكتف بذلك بل أجاب على برقيات الآستانة المتكررة ، التي جاءت تستطلعه رأيه ، بأن دخول الحرب « خرق عظيم وخيانة كبرى » ، وأن البلاد بأجمعها لا ترضى عن دخول حرب ضد الحلفاء ، وأن رجال الحكومة ، إذا كانوا

---

(٢٢) حسين نصيف ، المصدر السابق ، ص٩ .

(٢٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٧٧ ، أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٨٦ .

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص٧٩ ــ ٨٠ .

قد عقدوا العزم على دخولها، فقبل أن يفعلوا ذلك، يجب عليهم أن يزودوا الجيش الرابض في اليمن والعسير والحجاز بما يكفيه لثلاث سنوات من الذخائر والمعدات، وخزن مقدار كاف من المؤن في هذه الولايات، يكفي الجيش والشعب لمدة لا تقل عن خمس سنوات، أما إذا لم يؤمنوا هذه الأشياء فإنهم سيضعون هذه المنطقة في أحرج موقف قد يُفضي إلى ما لا تحمد عقباه. فجاءته برقية تقول إن الدولة فكرت في كل شيء وأنها تشكر سيادته السامية على نصائحه[٢٥]. وقد بينت سابقاً كيف كان موقفه من دعوة الآستانة له بإعلان تأييده للجهاد، وما هي المعاذير التي تذرع بها للتملص من هذا التكليف.

لكن المخابرة بينه وبين السلطة المركزية من جهة، وبينه وبين جمال باشا في سورية من جهة أخرى، لم تنقطع من ذلك الوقت. ولقد تظاهر الاتحاديون بأنهم إنما قبلوا عذره، لكنهم في أعماق أنفسهم تميزوا غيظاً من فعلته، فأخذوا يفكرون من جديد في عزله، وصدرت الأوامر إلى والي الحجاز كي يمهد السبيل سراً لاعتقاله، بحيث لا يثير اعتقاله ثائرة القبائل. وكجزء من هذه الخطة وجهت إليه دعوة تفيض بالرقة لزيادة دمشق، بقصد المباحثة مع جمال في شؤون حملة مصر. غير أن الحسين كان من الحذر بحيث لم يلب هذه الدعوة[٢٦]. ومع ذلك تظاهروا له بالود والمداراة، عل باستطاعتهم أن يستفيدوا من خدمته لهم، مع الحيطة والحذر التامين في نسج خيوط المخطط الذي رسموه للغدر به. ذلك أنهم كانوا يقدرون ما كان عليه من قوة ونفوذ، وأنه قد بلغ من السيطرة على قبائل الحجاز ما يجعله قادراً على أن يحشد، إذا أراد، جيشاً لا يقل عن أربعين ألفاً من العربان، وان ليس باستطاعتهم أن يستفيدوا من هذه القوة البشرية إلا إذا كان ذلك عن طريقه هو نفسه، لأن قواتهم في الحجاز كانت شبه محصورة في ثكناتها لا تستطيع التوغل في البلاد، والاتصال بالعشائر، وبالتالي ليس لها أي نفوذ عليها، فإذا ضمنوا معونته أصبح باستطاعتهم أن يعتمدوا على قوة من المتطوعين تشترك في حملة السويس كقوة مساعدة للجيش النظامي[٢٧].

لذلك بادر جمال باشا إلى تسطير كتاب إليه يطلب منه فيه أن يهيء قوة من المتطوعين العرب بزعامة أحد أبنائه، يعزز بها قائد فرقة الحجاز، الذي استُدعي مع فرقته ليشترك بحملة

---

(٢٥) المصدر السابق، ص٩٨ — ١٠٠.

(٢٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٢٦ — ٢٢٧.

(٢٧) المصدر السابق، ص٢١٨ — ٢١٩.

السويس، أو أن يتولى هو القيادة ويلتحق بالجيش[٢٨]. فأجاب الحسين أن الأفضل عنده أن لا يبرح مكة بقصد الدفاع عن الخطة الحجازية إذا ما تعرضت لأي هجوم، وأنه قد كَلَّف ابنه علياً بأن يسير على رأس فريق من المجاهدين، يلتحقون بفرقة الحجاز في طريقها إلى القناة[٢٩]. وكان استدعاء فرقة الحجاز قد أثار جدلاً في هيئة أركان حرب الحملة، نظراً لما كان قد وقر في الأذهان من احتمال قيام الحسين بثورة إثر خلافه الشديد مع وهيب بك والحكومة المركزية، ولم يكن ثمة بد من أن تتساءل هيئة أركان الحملة: هل يجوز إشراك فرقة الحجاز في الهجوم على القناة وترك الحجاز تحت رحمة الشريف؟ فجرى تقليب الأمر على وجوهه المختلفة، واستقر الرأي على أن إشراكها مفيد حتى ولو فرض احتمال ثورة الشريف، لأن الفرقة ليست من القوة والمنعة بمكان يجعلها قادرة على مقابلة الطوارىء، وإشراكها في هذه الحالة خير من بقائها في الحجاز. لا بل يجب دعوتها بسرعة إنقاذاً لها من مصيرها المحتوم، بحجة تجريدة مصر، أما إذا كانت نية الشريف حسنة فخير وأولى[٣٠].

بالفعل سار الأمير عليّ على رأس فصيلة المتطوعين البالغ عدد أفرادها (١٥٠٠) رجلاً من العربان ولكنه ما إن وصل إلى المدينة حتى امتنع عن مواصلة السير مع وهيب بك وفرقته، وبقي فيها بناء على أمر تلقاه من أبيه، واعتذر لوهيب بك عن مرافقة الحملة قبل إعداد عدته[٣١]. ولهذا امتلأ صدر جمال باشا غيظاً من نكول الشريف عن إمداده بهذه القوة، فوصمه في مذكراته بأقصى مراتب الخيانة، كما بينت فيما سبق من فصول.

وبينما تذكر المصادر التركية أن بقاء الأمير علي في المدينة، متخلفاً عن ركب تجريدة الحجاز، ليس إلا رأس السلسلة في مؤامرة الشريف حسين مع إنكلترا ضد الدولة العثمانية، تلح المصادر العربية على أن السبب في ذلك هو أن الأمير علياً قد عثر على حقيبة تتضمن طائفة من الرسائل، سقطت من أمتعة وهيب بك، في أثناء السير إلى المدينة المنورة، فالتقطها أحد رجال الأمير وسلمها إليه، فعدل عن المسير وقفل راجعا إلى مكة ليطلع أباه عليها، وكانت من الخطورة بحيث اقضّت مضجع الحسين، لأن فيها من المخابرات السرية بين الحكومة المركزية والوالي ما يشير إلى تكليف الأخير باغتيال الحسين وأنجاله، والقضاء على استقلال الحجاز الذاتي، مع بيان التدابير والخطط

(٢٨) مذكرات جمال باشا، ص٢٦٢.
(٢٩) علي فؤاد، المصدر السابق، ص٨٠.
(٣٠) المصدر السابق، ص٧٩.
(٣١) مذكرات جمال باشا، ص٢٦٢؛ مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٥.

الواجب ترتيبها لتنفيذ المؤامرة ضده، وقد حال دون ذلك نشوب الحرب واشتراك تركيا فيها، وانهماكها في استعداداتها[٣٢]. ومهما يظهر من غموض في أمر هذه الوثائق، واحتوائها على رغبة الاغتيال، فإن مما لا شك فيه أنه كان ثمة رسائل وقعت بطريق ما بيد الشريف فاستغلها أكبر استغلال للتخلص من مضايقات وهيب بك، وتوطيد سلطته ونفوذه في مكة.

في هذه الأثناء كانت بوادر الاتصالات قد جرت بين الإنكليز والشريف حسين، كما كان الشريف قد استقبل رسول جمعية «العربية الفتاة» فوزي البكري، ولم يكن الحسين يجهل أن زعماء السوريين العرب كانوا في ذلك الحين منقسمين، في آرائهم السياسية، إلى فئتين: إحداهما معتدلة تقول بوجوب السعي إلى الاستقلال العربي خطوة خطوة، لأن الثورة على الترك، في مثل هذه الظروف القائمة، قد تقضي على السلطنة العثمانية والبلاد العربية معا، وكان إبناه فيصل وعلي من رأي هؤلاء، والثانية متطرفة ترى وجوب قيام الثورة على الترك حالاً دون التفكير بالاستعداد والتريث، وكان نجله عبد الله من مؤيديها[٣٣]. فراح الأمير حسين يقلب الأمر على وجوهه المختلفة، وينعم النظر فيما يجب عمله خاصة وأنه لم يتلق بعد من رؤساء وأمراء العرب في الجزيرة: محمد علي الإدريسي، الإمام يحيى، ابن الرشيد، ابن سعود ــ الذين بعث إليهم برسائل يستوضح منهم الموقف الذي سيقفونه من دولتهم التي دخلت الحرب، ويشرح لهم الأسباب التي تمنعه من تأييد إعلان الجهاد[٣٤] ــ ردودهم على استفساره فرأى استتماماً للدراسة والتمحيص، قبل اتخاذ الموقف الحاسم، وانتظاراً لردود أمراء ورؤساء العرب أن يوفد نجله الثالث فيصلا إلى دمشق فالآستانة لدراسة الأحوال في سورية، وجس النبض، واختبار قوة الحركة الوطنية، ومقدار استعدادها للثورة من جهة ــ وهذه أهم نقطة في نظره ــ ثم دراسة الموقف العسكري التركي من جهة أخرى[٣٥]، والاتصال برجال الحكومة المركزية وبسط موضوع شكايته من وهيب بك والمطالبة بعزله من جهة ثالثة[٣٦]. كما أعاد الحسين، في الوقت نفسه، ابنه الأكبر الأمير علياً إلى المدينة كي يعمل على استنهاض القبائل

(٣٢) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٥؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٣، مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٢ ــ ٦٣.

(٣٣) مسز ستورز أرسكين، فيصل ملك العراق، ص٥٧.

(٣٤) جلال يحي، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٣٥) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 216-217؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٢٤؛ ف. و. فرنو، يقظة العالم الإسلامي، ص١٨٠.

(٣٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٤.

العربية ، وإبقائها على قدم الاستعداد للعمل متى حان الأوان ، ومراقبة محافظ المدينة « بصري باشا » وتتبع حركاته . وأوعز إلى ابنه عبد الله أن يثابر على الاتصال بالإنكليز لمعرفة ما يستطيعون تقديمه للثورة العربية المزمع إعلانها ، ومدى استعدادهم لدعم استقلال العرب(٣٧) .

وصل فيصل إلى دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥ ، ونزل في دار عطا باشا البكري ، وكان ابنه نسيب من أعضاء جمعية « الفتاة » . وقد اجتمع هناك إلى كثيرين من أصحاب الزعامة والأحرار المناضلين ، ورجال الدين والأدباء من مختلف الطبقات وشتى الأحزاب ، وبعض ضباط العرب ، ومنهم الزعيم ياسين الهاشمي رئيس هيئة أركان الفيلق ١٢ الذي كان بقيادة الفريق فخري باشا وكيل قيادة الجيش الرابع(٣٨) . وقد حصل لقاء الأمير مع أعضاء الجمعيات السرية المتطرفة في جو ساده التردد والحذر من قبل هؤلاء ، في بادىء الأمر ، لكنهم لم يلبثوا أن اطمأنوا إلى داخلته حينما كشف لهم عن شيء منها ، وأفهمهم السبب الذي كان من أجله يُؤْثِر الأتراك بإخلاصه ، وهو شدة تخاوفه من المطامع الأوروبية ، فانطلقوا يحدثونه عن أفكارهم ويشرحون له الأسباب التي تدفعهم إلى الانتقاض على الدولة(٣٩) ، وأخذوا يعملون على إدخال الطمأنينة إلى نفسه من جهتهم ، ويقولون إنهم على استعداد لرفع علم الثورة وإنهم ينتظرون منه الإشارة لتفجيرها . فأجابهم أنه موفد من قبل والده ليدرس الحالة السياسية في دمشق والعاصمة ، وأنه ليس بوسعه أن يتحمل مسؤولية الثورة دون تأييد من جهة قوية ، أو مساعدة من إحدى الدول ، وأن عليه الذهاب إلى الآستانة ، ثم العودة منها إلى سورية ، ومنها إلى مكة لرفع تقريره إلى والده عن نتيجة الدراسة التي كُلف بها ، وكان فيصل إلى ذلك الوقت غير مُغرق في التطرف ، معتدل الرأي(٤٠) .

لقد اجتمع لديه من اتصالاته في سورية ، من المعلومات الأولية ، ما أتاح له أن يقدم تقريراً بها إلى والده ، أرسله إليه ، وقد جاء فيه أن حالة الحرب العامة لا تساعد على تحقيق الآمال . غير أن الوضع المحلي حسن على كل حال ، ذلك أن ثلاث فرق في دمشق مستعدة لإعلان الثورة ، واثنتان أخريان ، فيهما كثير من الوطنيين العرب ، مستعدتان للإنضمام إليها متى بدأت ، وأن باستطاعة الثوار أن يستولوا على سورية بسهولة ، إذ لا يوجد للترك في هذه المنطقة سوى فرقة واحدة . لكن

---

(٣٧) لورنس ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٠ ـــ ٤١ .
(٣٨) مسز أرسكين ، المصدر السابق ، ص٥٧ .
(٣٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٣٧ .
(٤٠) مسز أرسكين ، المصدر السابق ، ص٥٨ .

الرأي العام على غير استعداد كبير لمثل هذه الأعمال، فضلاً عن أن العسكريين شديدو الثقة عموماً بأن ألمانيا ستكسب الحرب وستكسبها بسرعة. ومع ذلك إذا أنزل الحلفاء حملتهم الأسترالية(*) في الإسكندرونة ليحموا بذلك الجناح الشمالي من سورية، «فقد يصبح من المعقول عندئذ أن نخاطر غير مبالين بانتصار الألمان، والوصول إلى هدنة منفردة نعقدها مع الأتراك وحدهم»(٤١).

إلا أن هجوم الإنكليز على شواطىء غاليبولي والدردنيل، بدلاً من مهاجمة الإسكندرونة، قد دعاه إلى مواصلة دراسة موقف تركيا العسكري في الآستانة نفسها التي كان عليه أن يقصدها لعرض أعمال وهيب بك، وسوء نياته نحو والده، فواصل سفره إليها وبلغها قبل منتصف شهر نيسان ١٩١٥، ووجدها في اضطراب عظيم تغلي كالبركان على أثر هجوم الحلفاء على الدردنيل(٤٢). وهناك اتصل برجال الحكومة ــ الصدر الأعظم وأنور وطلعت ــ وعرض عليهم شكوى والده من والي الحجاز وهيب بك وبسط أمام أنور وطلعت مجموعة من الرسائل التي وقعت بيد والده، والتي تبادلها نادي الاتحاديين في الحجاز مع مركزه في الآستانة، يتهم فيها الشريف بموالاة الإنكليز ــ «بعد أن كانوا فيما سبق يتهمونه بالتشيع لخديوي مصر» ــ ويطلب فيها عزله وتعيين الشريف علي المقيم في مصر مكانه، وذلك لأن الأخير استمال إليه أعضاء هذا النادي. وبيّن لهما فيصل سوء نية وهيب بك، وما كان من معاملته الشديدة لوالده، وأن والده عازم على الاستقالة إذا لم يُبعد هؤلاء المفسدون من الحجاز، وإذا لم يُعزل وهيب بك، من الولاية. وقد أصغى أنور وطلعت لأقواله بانتباه تام ثم أجاباه بأن العلاج لهذه الأمور إنما هو في يد والده نفسه، فلو أنه استجاب للدعوة التي وجهها إليه السلطان للجهر بالجهاد، وهيأ المتطوعين، وأرسلهم إلى قناة السويس لدعم حملة مصر، إذن لكان من السهل إصلاح الموقف لمصلحته في الحجاز(٤٣). ومع ذلك طيبا خاطره وأبديا أسفهما لما حصل وأكدا ثقتهما بوالده. فقال لهما إن كانت ثقة الحكومة العثمانية بوالده لا تزال كما هي فما عليها إلا أن تقدّم الترضية اللازمة، مؤكداً لهما أن والده مستعد للتخلي عن الإمارة إذا لم تكن الثقة به متوفرة، أما إذا توفرت هذه الثقة فإنه مستعد لإرسال الرجال، وما على الدولة إلا مساعدته بالسلاح والذخيرة والمال.

(*) كانت قيد الإعداد في مصر.

(٤١) لورنس، المصدر السابق، ص٤١؛ LAWRENCE, Ibid. p. 65.

(٤٢) مسز أرسكين، المصدر السابق، ص٥٨.

(٤٣) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٤٢ (المصدر السابق، ترجمة الركابي، ص١٧٧).

واجه فيصل في أثناء إقامته في الآستانة ، الحاج أحمد شفيق باشا ، رئيس الديوان الخديوي سابقاً والمقيم في العاصمة العثمانية ، وفاتحه بهذه المحادثات التي أجراها مع أقطاب الحكومة ، وحدثه عن معاملة وهيب بك السيئة لوالده ، وانه ربما كان متبعاً فيها أوامر الاتحاديين ، وأظهر شعوره الطيب بمساعدة الدولة بتجريدة من المتطوعين ــ فَهِـم الحاج شفيق باشا منه أنها قريب من عشرة آلاف رجل للإشتراك في حملة قناة السويس ــ وقال عن عرب الشام إنهم « طيبون ومتى شاهدوا عرب الحجاز تشتد الحماسة في قلوبهم » . وقد عمل الأمير فيصل بعد ذلك ، مع الحاج أحمد شفيق باشا والبارون « أوبنهايم » الألماني(*) ، مدة أسبوع في عقد اتفاق نهائي نيابة عن والده مع الحكومة العثمانية ، وكانوا يجتمعون تارة في فندق « بيرابالاس » وتارة في منزل « الشريف فيصل » في أعالي « بيوك دره » أو في منزل البرنس ابراهيم حلمي . وكان الشريف ناصر أخو الشريف حسين يحضر بعض الاجتماعات . وفي أثنائها شرح الأمير فيصل ملخص الأزمة القائمة بين والده والأتراك ، بقوله إن الحجاز يعتمد في مؤونته على المحاصيل الخارجية التي ترد إليه بواسطة السفن الإنكليزية ، لقلة ما تنتجه الدول العربية منها ، وحاجتها إليها موضعياً ، بما لا يدع مجالاً لتموين الحجاز بكفايته منها ، علاوة على أن الخط الحجازي ، وهو فردي غير مزدوج ، ينتهي بالمدينة المنورة ، ولا يستطيع القيام بسد حاجات الحجاز من المواد التموينية في الداخل فإذا انقطعت الواردات من الخارج حصلت مجاعة تجر إلى ثورة العرب . وهذا ما يجعل الشريف مضطراً إلى التعامل مع السفن الإنكليزية . فعلى الحكومة العثمانية وحلفائها أن يأخذوا هذا الأمر بنظر الاعتبار . ثم أشار إلى علاقات الوالي وهيب بك مع والده ، وما يتخللها من جفاء وسوء ظن ، ولفت النظر إلى الدسائس التي يقوم بها الأمير جعفر الأخ الأصغر للأمير علي حيدر ، المشترك في نادي الإتحاد والترقي في الحجاز ، والذي يطمع في عودة الإمارة إلى أسرته « ذوي زيد » ، وما يلقاه من أخيه الأكبر من مؤازرة . ثم بيّن ما يجنيه الشريف ، ومَن حولَه ، من الدخل العظيم الذي يأتيهم من الحجاج على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، هذا الذي سيخسره ــ علاوة على هبوط نفوذه ــ فيما إذا وقع الحجاز تحت الحكم الإنكليزي . إذن فهو (أي والده) من هذه الوجهة مرتبط بالخلافة لارتباط جميع المسلمين بها ضد العدو المشترك ، لذلك يجب أن يثق به الأتراك ، ويبعدوا عن أذهانهم فكرة عزله ، وبذلك لا يدفعون به إلى اليأس ، بل يجب عليهم

(*) كان البارون أوبنهايم مكلفاً بقيادة الفيلق الألماني العامل إلى جانب الجيوش التركية في آسيا . وقد تولى وقتاً ما مساعدة فانجينهايم في السفارة الألمانية بالآستانة .

أن يقدروا موقفه حق قدره حتى يستطيع أن يتظاهر أمام الإنكليز بحياده التام، فيضمن تموين الحجاز، ويمنع عنه المجاعة والثورة، وبهذا يحفظ كيان الولايات العربية[٤٤].

وبعد أن انتهت هذه المداولات بين الثلاثة المذكورين، بدأ الحاج أحمد شفيق باشا بالاتصال على أساس ما سبق، مع أنور وطلعت، وانتهى الأمر بالاتفاق على ترضية شريف مكة وتأمينه على مركزه، وسلم السلطان لفيصل سيفاً هدية لوالده، وكتاباً من طلعت بك يؤكد فيه ثقته به. ثم اجتمع الأمير فيصل بعد ذلك بالبارون «أوبنهايم» في فندق «بيرابالاس»، وحضر معهما الدكتور سيد كامل المصري، ودار الكلام بينهما حول تنظيم دعاية يقوم بها الشريف حسين في البلاد الإسلامية لإثارة شعورها وحميتها لنصرة الدولة العثمانية. فأبدى الشريف فيصل أن هذا المشروع يشمل إرسال مندوبين للدعاية في بلاد إسلامية هي خارج نطاق السلطنة، وهذا سهل. أما إذا أريد منه أن يتعدى ذلك إلى إشعال ثورات في السودان المصري والهند الشمالية والصومال الإنكليزي، فإنها مسألة ثانية، ولا بد من ملاحظة ما يلزم لهذا العمل الكبير من نفقات، مبيناً أن والده قادر على مثل هذا العمل الضخم، لكنه استدرك قائلاً «إنه يقول هذا القول بصفته الشخصية، ولا بد من أخذ موافقة والده وتصريحه بقبول القيام به». ثم لم يلبث أن تراجع مكتفياً بما قال حول الدعاية. لكن البارون تشبث بما عرضه فيصل وألح عليه في بيان ما يلزم من النفقات فأجابه بأن المبلغ يتراوح بين ٣٠ ــ ٤٠ ألف جنيه ذهباً، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه قبض خمسة آلاف جنيه من أنور باشا لتجهيز المتطوعين لحملة السويس، وهو يخشى أن يمزج أنور بين هذا العمل الحربي وبين المشروع الذي يجرى البحث فيه حالياً، والواجب أن يفرق بينهما[٤٥].

ذهب بعد ذلك البارون فون «أوبنهايم» وقابل سفير دولته البارون فون «فانجنهايم» وأطلعه على خلاصة ما دار بين الإثنين، فأظهر السفير ارتياحه وكلفه بمقابلة أنور باشا لأخذ رأيه، مبيناً أن الدولة العثمانية إذا لم تدفع المطلوب من المبالغ لهذا المشروع، فإن ألمانيا مستعدة لدفعه. وفي مقابلة جرت بعد ذلك بين الأمير فيصل والدكتور سيد كامل نصح هذا الأخير فيصلا بأن لا يحدد مبلغاً معيناً خشية عدم كفايته، وأن يترك ذلك لوالده، وأنه يحسن عدم التعهد بإحداث الثورات في هذه البلاد من الآن، حتى إذا لم يفلح المسعى اكتُفي بالدعاية السلمية، فوافق على نصائحه ثم طلب من الدكتور أن يبلغ البارون أنه يطلب لوالده سلطة تامة في كل ما يتعلق بالشؤون الحكومية في الحجاز

(٤٤) الحاج أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص٦٠ ــ ٦٢.

(٤٥) المصدر السابق، ص٦٣، استناداً إلى تقرير أرسله الدكتور سيد كامل إلى أحمد شفيق باشا.

تسهيلاً لهذا العمل، فلما أُبلغ البارون ذلك رفض الحديث فيه، لأنه يعد تدخلاً في شؤون الدولة، ووعد بالكلام مع أنور باشا بشأن ما سبق من أمر الدعاية والثورات التي دار البحث حولها. ولما فوتح أنور بالمشروع وافق عليه مبدئياً دون الدخول في التفاصيل. وفي يوم ١٩١٥/٥/٩ قابل فيصل أنور باشا فسلمه رسالة الترضية وفي طيها ورقة تشمل نقط المشروع المراد تنفيذه وتتلخص بما يلي[٤٦] :

١ ــ تسيير أحد أنجال الشريف مع قوة منظمة للالتحاق بحملة مصر (القناة الثانية).
٢ ــ إذاعة إعلان الجهاد في البلاد الإسلامية.
٣ ــ إرسال مندوبين لهذه البلاد وتوزيع الرسائل والمنشورات.
٤ ــ السعي للفتك بمن يراد قتلهم من الأعداء.
٥ ــ توصيل الأخبار التي تُنمى إلى الشريف من الخارج لرجال الحكومة.
٦ ــ الاتفاق مع الوالي على النفقات اللازمة لهذا المشروع.

وهكذا بعد انتهاء مفاوضاته في الآستانة على ما تقدم غادر فيصل الآستانة عائداً إلى دمشق في ١٩١٥/٥/١٠. ولم يلبث قليلاً حتى لمس نتيجة مساعيه التي بذلها في الآستانة، إذ صدرت إرادة سنية بعزل الوالي وهيب بك من ولاية الحجاز، واستُبدل به غالب باشا قائد الفيلق الحادي عشر. وقد عُرف بطيب سريرته وحبه للمسالمة، وأُفهم بأن يتقرب إلى الشريف، وأن يقيم علاقات طيبة معه[٤٧].

قال فيصل في حديث طويل أدلى به إلى الكاتبة الإنكليزية «مسز ستورس أرسكين»، خصصت له قسماً كبيراً من كتابها «فيصل ملك العراق»، إنه قد اجتمع في العاصمة التركية إلى قائدين من كبار قواد الترك، ومن الذين كانوا على جانب عظيم من الثقافة والمعرفة بالفنون الحربية ــ دون أن يذكر اسميهما، ولا قوميتهما، ولا الحزب الذي ينتميان إليه ــ فلفتا نظره إلى ضرورة العودة سريعاً إلى مكة، ولفت نظر والده إلى خطة جماعة الاتحاد والترقي وسياستهم التي تدفع بالسلطنة إلى وادي الهلاك، وإلى أن الواجب يدعوه إلى إنقاذ الأقطار العربية من المأزق الذي زجها في الاتحاديون. وأضاف فيصل إلى ذلك قوله إنه رأى المسؤولين قد أخذوا ينقلون أوراقهم الرسمية ومستنداتهم الخطيرة

---

(٤٦) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، ص٦٣ ــ ٦٤.
(٤٧) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٣.

إلى الأناضول، خوفاً من أن يتمكن الحلفاء من اقتحام المضائق واحتلال العاصمة. وأنه قد قرر من ذلك الوقت أن يعمل مع المتطرفين من بني قومه، في سعيهم إلى إنقاذ البلاد العربية، لأنه أحس بالخطر القريب الذي أصبح يهدد الإمبراطورية العثمانية. ورجع مسرعاً إلى دمشق حيث وجد الأفكار في غليان شديد، ورأى ما يشبه الإجماع بين زعماء العرب على ضرورة تحرير البلاد العربية بأسرع ما يمكن[٤٨].

كانت الفترة الوجيزة التي قضاها فيصل في دمشق، قبل سفره إلى الآستانة، كافية لتجعله قريباً من نفوس أعضاء جمعية «العربية الفتاة»، فتداولوا أمر اغتنام فرصة وجوده بينهم لإدخاله في جمعيتهم وأجمعوا على هذا الأمر[٤٩]. فكشفوا له عن أسرارها، بعد عودته من الآستانة، وأطلعوه على القرار الذي كانت الجمعية قد اتخذته إثر دخول تركيا الحرب ـــ ببذل جميع الجهود لضمان حرية البلاد العربية واستقلالها، وان التحفظ الذي أورده القرار بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية لم يضعوه إلا خشية من أن تتحقق مخاوفهم من أن يكون للدول الأوروبية مطامع في هذه البلاد، كدليل على الأساس المشترك في اتجاههم السياسي واتجاهه ـــ ثم دعوه إلى الانضواء في عضوية الجمعية فقبل ذلك، وحلف يمين الإخلاص، وتبرع لها بمبلغ كبير من المال[٥٠]. ثم اجتمع ببعض أعضاء جمعية «العهد» بتدبير أحد الأعضاء الذين ينتمون إلى الجمعيتين، فرأى أن هدفها لا يختلف عن هدف أختها «الفتاة»، أي الرغبة في الانفصال عن الترك، ولكن هذه الرغبة كان يكبحها الخوف من المطامع الأجنبية، فقَبِل أن يدخلَ عضواً فيها أيضاً، وقد أعجب إعجاباً شديداً بتنظيمها، إذ كان زعماؤها قادرين على إيقاد نار الثورة متى يشاؤون، باعتبار أن للجمعية ضباطاً من العرب في صفوف الجيش الذي كانت أكثرية أفراده من العرب في منطقة الجيش الرابع[٥١].

رغب الأمير بعد ذلك، في معرفة مدى قوة الحركة العربية في سورية، فاجتمع أولاً بالشيخ بدر الدين الحسني (والد الشيخ تاج الدين رئيس الدولة السورية فيما بعد)، ثم بياسين باشا الهاشمي، ورضا باشا الركابي، وسأل عما يحتاجه الأحرار السوريون ليشتركوا في حركة التحرير، عند الاقتضاء، فأجابه ياسين باشا بأن سورية لا تحتاج إلا إلى قبول الحسين ترؤس هذه الحركة. فكان

---

(٤٨) مستر أرسكين، المصدر السابق، ص٥٨ ـــ ٥٩.

(٤٩) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٦.

(٥٠) أحمد سعيد، الثورة العربية، ص١٠٩؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٥١) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٧، ٢٤١ ـــ ٢٤٢.

لهذا القول، أثر عميق في نفس فيصل، باعتباره صادراً عن شخص له صفة المتكلم باسم قوى الجيش المرابط في سورية وأكثرية أفراده وضباطه من العرب[٥٢]. فاختمرت في ذهنه فكرة الثورة التي كان يكبح جماحها في السابق الخوف من وقوع البلاد العربية في براثن الاحتلال الأوروبي، إذا لم يكن ثمة ضمانات وطيدة، وباعتبار أن هذه الضمانات أصبح منالها قريباً إثر العروض التي قدمها الإنكليز لوالده، والتي تدور مفاوضات بينه وبينهم بشأنها، رأى فيصل أنه قد آن أن يكشف لهم عن عرض كتشنر لوالده كي يطمئنهم على مستقبل البلاد العربية، ويبدد عن أذهانهم المخاوف التي أشار إليها قرار جمعية «العربية الفتاة»، الذي ألمحت إليه، كما أشار إليها أيضاً تحذير عزيز المصري لأفراد جمعيته في سورية، وقد أشرت إلى ذلك فيما سبق، وهو أن لا يقوموا بأي عمل عدائي ضد الدولة إلا إذا حصلوا على ضمانات قاطعة[٥٣].

وبعد أن أنهى فيصل اتصالاته مع أعضاء الجمعيتين تركهم ليتدبروا الأمر في ضوء المعلومات التي أطلعهم عليها، وسافر مع جمال باشا في رحلته إلى جبهة سيناء، وكان جمال باشا قد تلقى برقية من أنور وطلعت يعلمانه بقدوم الأمير وبلزوم استقباله استقبالاً فخماً. وأن يعمل كل ما في وسعه لاستمالته وكسب مودته، فذهب جمال بنفسه إلى المحطة للترحيب بمقدمه. وأعد له حفلة تكريم رائعة في مقر القيادة، وبالغ في التودد إليه والحفاوة به، حتى إنه قد اصطحبه إلى القدس لزيارة ميدان الحرب في سيناء، حيث خطب فيصل في الحفلة التي أقيمت لتكريمه في الجبهة، متوجهاً إلى الضباط الذين حضروها بقوله «يجب على الأمة العربية أن تشترك في الجهاد، وأنا ذاهب إلى الحجاز لأعود على رأس جيش كبير من المتطوعة، ليشترك في الحملة الثانية التي ستحرر مصر»[٥٤]. ثم عادا إلى دمشق. على أن جمال باشا لم يعدّل، مع ذلك، من بوادر خطة الشدة التي بدأ يتبعها في سورية، وكانت الاعتقالات في أولى مراحلها. أما إذا كان قد جامل فيصلا هذه المجاملة فما ذاك إلا أملاً بأن يرافقه على رأس تجريدة حجازية في حملته الثانية على القناة، وقد صرح فيصل بانه سيأتي لمؤازرته على رأس قوة مؤلفة من ألف وخمسمائة رجل[٥٥].

وجد فيصل، عند عودته إلى دمشق، أن زملاءه في جمعيتي العهد والفتاة قد اتفقوا على خطة

---

(٥٢) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٦.

(٥٣) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٤١ (المصدر السابق، ترجمة الركابي، ص١٧٥).

(٥٤) مذكرات جمال باشا، ص٣٧٠؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد٣، ص٦٤.

(٥٥) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٧.

للعمل في أثناء غيابه ، ووضعوا ميثاقاً ينص على الشروط التي يرى المناضلون العرب وزعماؤهم أن يقبلوا العمل مع إنكلترا وحلفائها ضد تركيا على أساسها ، وطلبوا منه أن يأخذها معه ويعرضها على والده ، لدراستها ومفاوضة الإنكليز على مقتضاها . وقد جاء في هذه الوثيقة الهامة(٥٦) :

١ ـــ أن تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :
شمالاً : خط مرسين ـــ آدنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً ، على امتداد خط بيره جك ـــ أورفه ـــ ماردين ـــ مديات ـــ جزيرة ابن عمرو ـــ العمادية إلى حدود إيران .
شرقاً : على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوباً .
جنوباً : المحيط الهندي ، باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو .
غرباً : على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين .
٢ ـــ إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية .
٣ ـــ عقد معاهدة دفاعية مع إنكلترا وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية .

تعود أهمية هذا الميثاق إلى أنه قد رسم الكيان النظري لدولة عربية كبيرة موحدة ، وإن تكن ناقصة ، ترتبط مع دولة أجنبية بمعاهدة دولية على أساس استقلالها التام ، وإلى أنه سيكون الأساس الذي سيرتكز الشريف حسين عليه في مفاوضاته مع الإنكليز . وغني عن القول إن استثناء مصر وبقية الأقطار العربية في شمالي إفريقية لم يكن ناتجاً عن عدم اعتبارها جزءاً من هذه الدولة الكبيرة ، بل كان ذلك بسبب احتلالها من قبل الحلفاء الذين ستكون الاتفاقية معهم ، شأنها في ذلك شأن عدن المستثناة هي أيضاً منها ، وإذا كان فيصل قد أبدى شكه في أن يقبل الحلفاء بهذه الشروط ، أساساً للمفاوضة ، لارتيابه في نياتهم ، إلا أنه كان يرى أنها أقل ما يمكن أن يُطالب به العرب في سبيل الثورة على الترك(٥٧) .

أخذ فيصل بعد استلامه هذا الميثاق ، يوسع اتصالاته ، فطلب استدعاء نوري الشعلان أمير الجوف ورئيس عشائر الرّوَله في بادية الشام ، وهي من أهم القبائل العربية ، وابنه نواف الشعلان ، وهما من أصحاب النفوذ القوي في البادية ، فذهب أحد أعضاء الحزب « فائز الغصين » إلى

---

(٥٦) أنطونيوس المصدر السابق ، ص٢٤٣ ؛ الجنرال كيللر ، العرب والاستعمار (وهو ترجمة الكتاب اللاحق) ، ص٤٠ ؛
LE GENERAL KELLER, La Question Arabe, p. 24; .

(٥٧) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٤٤ ـــ ٢٤٥ .

مضاربهما ، بناء على أمر الجمعية ، غير عابىء بالملكة التي عرض نفسه لها ، إذ حوكم بالفعل في ديوان عاليه من أجلها ، وحكم عليه بالنفي إلى ديار بكر ، دون أن يدرك جمال ما كانت تنطوي عليه هذه الاتصالات من أسرار خفية . وبالرغم من أن موجة الاعتقالات كانت قد بدأت في دمشق ، نفذ المحامي فائز الغصين هذه المهمة ، وأتى بالأمير نواف الذي قابل الأمير فيصل وطالت مدة اختلائهما ساعة من الزمن[٥٨] ، كما اجتمع برجال آخرين من السوريين . قال فيصل في حديثه إلى المسز أرسكين «وقبل مغادرتي دمشق أعطاني العلماء مضبطة باسم جميع علماء دمشق وبينهم كبيرهم الشيخ بدر الدين الحسنى ، يعترفون فيها بملكية والدي الحسين بن علي على البلاد العربية ، وكان بين الذين وضعوا تواقيعهم عليها : رضا باشا الركابي رئيس بلدية دمشق في ذلك الحين ، وناب عن ضباط العراق في توقيعها اللواء شكري باشا الأيوبي ، والزعيم ياسين باشا الهاشمي ، وناب عن الدروز نسيب بك الأطرش ، وعن قبائل العرب نوري باشا الشعلان ، والشيخ نوار الفهد ، والشيخ محمد المهان»[٥٩] .

وبعد أن حلف ستة من كبار زعماء العرب يمين الولاء للشريف حسين ، وبكونهم يعتبرونه ممثل الشعب العربي ، وعلى أن تبادر فرق الجيش العربية الموجودة في البلاد إلى الثورة متى تم الاتفاق بين الشريف والإنكليز على أساس الشروط السالفة الذكر ، عقد فيصل العزم على العودة إلى الحجاز لإطلاع والده على نتيجة اتصالاته وإعلان الثورة . وقد خاط نسخة من الميثاق كتبت بخط دقيق داخل بطانة حذاء أحد رجاله وبلغ مكة في ١٩١٥/٦/٢٠ ، وقدم لوالده تقريراً مفصلاً عن كل ما قام به[٦٠] في دمشق والآستانة ، قائلاً له بأنه أصبح من الحزب المتطرف ، لما رآه من الموقف الخطير في البلاد العربية[٦١] فأخذ الوالد يغرقه بسيل من الأسئلة إمعاناً في الوقوف على دقائق الأمور .

كان كل شيء مما أتى به فيصل جديراً بأن ينال رضى الشريف ، إلا أن الذي لم يرتح له علمه بأن الإنكليز بدلاً من أن ينزلوا جيوشهم في الإسكندرونة ، كما كان متوقعاً ، أنزلوها في الدردنيل ، وأن الأتراك صامدون في هذه الجبهة لا يتزحزحون ، يدافعون عن وطنهم بمنتهى البسالة والاستماتة ، ومن شأن هذا أن يؤخر قيام الثورة العربية التي يجب أن تبدأ عندما يتم انكسار الترك فيها[٦٢] . ولم تمض

(٥٨) فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص٣٩ .
(٥٩) مسز أرسكين ، المصدر السابق ، ص٦٠ .
(٦٠) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٤٥ ، فرنو ، ف ، و : المصدر السابق ، ص١٨٠ .
(٦١) مسز أرسكين ، المصدر السابق ، ص٦٠ .
(٦٢) لورنس ، المصدر السابق ، ص٤١ .

أسابيع أخرى على عودة الأمير فيصل إلى الحجاز حتى أتته أخبار أشد سوءاً وإقلاقاً، ذلك أن الحكومة التركية في دمشق قد قامت بإجراء تنقلات عسكرية، بعثرت فيها القطعات العربية المعسكرة في سورية وأبعدتها إلى الأناضول وبقية الجبهات الشمالية، إذ إن الأتراك لم يبق لهم في المنطقة الممتدة من جبال طوروس حتى المدينة ــ بعد أن أرسل جمال إلى المضائق بناء على طلب أنور معظم الجيش الموجود في سورية ــ سوى فرقتين معظم أفرادهما وضباطهما من العرب، وكتيبة من متطوعي المولوية[٦٣].

فلما شعر جمال بحركة غامضة في الأوساط الوطنية في سورية، أخذ الهلع والرعب بمجامع قلبه من أن تقوم حركة ثورية تطيح بالحكم العثماني في هذه المنطقة، فأسرع في نقل الفرقة (٢٥) العربية التي كانت الدعامة الأساسية لجمعية «العهد» إلى «جناق قلعة» في جبهة الدردنيل، في شهر حزيران ١٩١٥، وشرع يرسل بقية الوحدات العربية واحدة تلو أخرى من سورية إلى الأناضول[٦٤]. وكان ممن أصابهم هذا التشريد /١٥٠/ ضابطاً عربياً معظمهم من الإصلاحيين، بينهم الزعيم ياسين الهاشمي، الذي لم يكن قائد فيلقه فخري باشا واثقاً من إخلاصه[*] ــ نُقل معهم أيضاً خمسون ضابطاً تركيا تمويها على العرب بأن هذا الإجراء لم يكن مقصوداً ضدهم ــ وزعوا في جبهتي القفقاس والدردنيل واستُبدل بهم مئتا ضابط تركي وضعوا مكانهم[٦٥]. وعندئذ شعر جمال باشا بشيء من الاطمئنان. ووجد نفسه قوي الشكيمة، شديد البأس لا يخشى أحداً، فانصرف إلى تنفيذ خطته الجهنمية في القضاء على الروح المعنوية للعرب بقتل أحرارهم، والتنكيل بزعمائهم[٦٦].

أما الشريف حسين فقد ازدادت هواجسه، ورجحت لديه فكرة التريث، خاصة وأن مفاوضاته مع الإنكليز ــ وقد بدأت دورها الجدي ــ لم تنته بعد. إنما لم يمنع ذلك من أن تأخذه نشوة الانتصار ــ بعد عودة نجله فيصل موفقاً في مهمته، بحيث غادر وهيب بك مكة والتحق بها الوالي الجديد في ٦/٦/١٩١٥ ــ فأخذ يبسط نفوذه على الموظفين وقطعات الجيش وضباطها وأمراء القبائل والشيوخ، مستفيداً من ضعف وطيب سريرة غالب باشا الوالي الجديد، الذي ما إن وصل

(٦٣) مذكرات جمال باشا، ص٢٣.
(٦٤) الدكاترة بديع شريف، أحمد عزت عبد الكريم..، المصدر السابق، ص١٠٩ ــ ١١٠.
(*) لأجل أن يقنعوه، هو والضابط محمد بك الشامي الذي كان من أعضاء هيئة الأركان، شعبة الاستخبارات، بقبول هذا النقل منحوا كلا منهما ثلاث سنوات قدم حرب.
(٦٥) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 219 ; عن مذكرات علي فؤاد أردن.
(٦٦) الدكاترة بديع شريف، وأحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق، ص١١٠.

إلى مركز عمله ــ واتخذ الطائف مقراً له نظراً لمرضه، مما جعل الشريف حر التصرف في مكة ــ حتى أذاع بلاغاً على الموظفين ينذرهم فيه بالطرد وسوء المصير فيما إذا تجاسر أحد منهم على الوقوف ضد «مقام الإمارة الجليلة» مما جعلهم يطأطئون رؤوسهم أمام الشريف الذي أخذ يجمع الشيوخ المحليين، وينظم لهم مجالس وهيئات اختيارية في كل حي وكل قصبة وقرية. كما راح يلقن أفراد الجيش من أبناء العرب ــ الذين أُرسلوا إلى الحجاز لحماية حدوده، وكانوا يتقاضون رواتبهم النظامية من الدولة ــ بأنهم تحت أمره، ويجب أن لا يدينوا بالولاء لأحد غيره، دون أن يلقى معارضة ما من غالب باشا الذي أورد المؤرخ التركي يوسف حكمت بايور كثيراً من الشواهد على ضعفه، منها أنه حينما قدم إلى الحجاز تلقاه البدو بين المدينة ومكة، واعترضوا طريقه وطالبوه بحق المرور، فاضطر أن يدفع لهم ثلاثمئة ليرة ذهبية، دون أن يحرك ساكناً ضدهم، بالرغم من وجود القوة الكافية من الجند معه، بينما كان سلفه وهيب بك، عندما تعرض في إحدى سفراته لمثل هذا الإزعاج، قد هدد المتجاوزين عليه بالسلاح فافسحوا له الطريق وإن هذه الحادثة كانت أولى علائم الانحناء التي أظهرها خلال إقامته في الحجاز(٦٧).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أخذ الحسين يكرر طلباته إلى الحكومة التركية بطلب النقود والسلاح والذخيرة، لتشكيل جيش المتطوعين من العربان، للإشتراك في الهجوم الثاني على القناة(٦٨). وفي أواخر عام ١٩١٥ عقد في الطائف اجتماعاً سرياً ضم، بالإضافة إليه، أولاده الثلاثة علياً وفيصلاً وعبد الله، بعيدين عن أعين الجواسيس الترك الذين كانوا يراقبونهم مراقبة حثيثة. وفي هذا الاجتماع اتفقوا على الاستمرار في الاستعداد للثورة، وإنجاز الاتفاق مع الإنكليز، وكان رسل هؤلاء يختلفون إلى الحجاز لمفاوضة الشريف، ورجع الأربعة إلى مكة بعد أن صمموا على الثورة، وحددوا موعداً مبدئياً لها يقع بعد مرور الشتاء والصيف(٦٩).

بعد أن مكث فيصل في الحجاز مدة من الزمن عاد إلى دمشق، في شهر كانون ثاني ١٩١٦. على رأس كوكبة من الفرسان يبلغ عدد أفرادها خمسين متطوعاً كمقدمة لفرقة متطوعي الحجاز إلى حملة القناة، وحلوا في منازل آل البكري في القابون(٧٠)، وعاد فيصل إلى الاتصال برجال

---

(٦٧) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp. 240-241. ; نقلاً عن مذكرات الكاتب التركي T. OZMERT.

(٦٨) Ibid. III, pp. 240-241.

(٦٩) مذكرات الأمير عبد الله، ص٦٥؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٥.

(٧٠) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٤٨؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٦.

الجمعيات العربية ومفكريهم ، كما راح يدرس معهم الخطط والاستعدادات للثورة في جو مكفهر يسوده ارهاب الطاغية جمال .

كان معظم الأحرار في تلك الفترة قد أصبحوا في المعتقلات رهن التحقيق والتعذيب ، ووصل التضييق على الناس حداً كتم منهم الأنفاس ، بعد أن صلبت القافلة الأولى من الشهداء على أعواد المشانق . وما بقي من القوات العربية القليلة ، بعد أن نقل معظمها إلى جبهات القتال البعيدة ، جُزّىء ووزّع بين الفرق التركية المختلفة في المنطقة ، مما أحدث لدى فيصل شيئاً من خيبة الأمل ، وبدأ يكتب إلى والده الرسالة تلو الرسالة ، يعلمه فيها عن الوضع بدقة تامة وتكتم شديد ، يحملها خدم أسرتهم القدماء ، الذين يتنقلون بين سورية والحجاز ، على الخط الحديدي ، يحملونها في أغماد السيوف أو داخل علب الحلويات ، أو مخفية في أحذيتهم بين النعل والطراق ، أو مكتوبة بحبر غير منظور على أوراق تغلف رزماً بريئة المظهر(٧١) . أما الأخبار السريعة منها ، فقد كان يرسلها إلى والده عن طريق خطوط الدولة التلغرافية ، مستعملاً شيفرة خاصة لم تكن قيادة الجيش الرابع لتستطيع أن تفك رموزها ، لأنها لم تتمكن من إيجاد مفتاحها ــ كما قال الجنرال علي فؤاد اردن في مذكراته ــ مبيناً دليله على غفلة جمال باشا وأجهزة استخباراته في هذه الناحية(٧٢) .

وعدا عن أن هذه الرسائل كانت كلها غير مشجعة لإعلان الثورة ، فإن وضع الحلفاء العام كان حرجاً في تلك الفترة ، ذلك أن هجومهم على الدردنيل ، وأقتحام المضائق قد أخفق ، ورأوا أن لامناص لهم من الإرتداد أمام الضربات المضادة التي كالها لهم الترك في « جناق قلعة » و « آنا فارطة » و « أري بورنو » و « سد البحر » ، والتي لعب فيها الجنرال مصطفى كمال باشا (أتاتورك فيما بعد) دوراً بطولياً ، وجمّد حركات القائد الإنكليزي السير « جان هيلتون John Hamilton » مدة ثلاثة أشهر بكاملها يصليه خلالها سعيراً من النار الحامية(٧٣) . كما كان نزع الموت البطيء في حصار كوت الأمارة في مرحلته الأخيرة ، وكان الهجوم السنوسي من جهة ليبيا على الحدود المصرية يهدد الجيش الإنكليزي في ميادين جديدة(٧٤) . لذلك وجد الأمير فيصل نفسه في دمشق ــ وقد حل ضيفاً على جمال باشا وقيادة الجيش الرابع ــ بداعي مساعدته في تجهيز المتطوعين الذين وعد

---

(٧١) لورنس ، المصدر السابق ، ص٤١ ــ ٤٣ .

(٧٢) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 217.

(٧٣) WILLY SPERCO, Ibid. p. 27.

(٧٤) LAWRENCE, Ibid. p. 66 ; ترجمته العربية ، ص٤٢ .

بإشراكهم في حملة القناة التي حدد موعداً لها شتاء (١٩١٥ — ١٩١٦) في وضع حرج، يسمع بأذنه شتائم الترك لقومه العرب، تخرج من فم جمال نفسه عندما يكون في حالة السكر، كما تخرج من فم غيره من الضباط، أو يرى بعينه المصلوبين من أخوانه. على أن أحداً من المعتقلين لم يذكر اسمه، وهو من جهته لم يكن ليجرؤ على النطق بكلمة واحدة مما يفكر فيه، تحت طائلة الموت شنقاً. لكنه لم يتمالك نفسه مرة، فاندفع يقول لجمال بأن سياسة الشنق التي يتبعها قد تعجل في وقوع ما يسأل الله أن لا يسمح بوقوعه، فلم ينجه من دفع ثمن هذه العبارات إلا شفاعة أصدقائه في الآستانة، وكلهم من كبار رجال الدولة، كما قال لورنس في مذكراته[٧٥]. لأن جمال باشا لم يكن يتورع أن يقول له مثلاً — عندما يتشفع بهم، طالباً مراعاة عواطف العرب — بأن ما يقوم به ضروري، ولو أن والده الشريف حسين حدث منه ما حدث من وطنيي الشام للاقى الجزاء نفسه الذي يلاقونه[٧٦].

وفي شهر شباط ١٩١٦ حضر أنور باشا إلى سورية وهو يبغي معاينة نظام خط مواصلات سيناء، فاقترح عليه جمال باشا أن يزور المدينة المنورة أيضاً[٧٧]. وقد وصل أنور إلى حلب قبيل منتصف الشهر، فقوبل بمظاهر الحفاوة، وأحيط بالمتزلفين. وكانت تلقى الخطب والقصائد أمامه، وتنثر الدرر في مدحه ومدح جمال باشا، ثم تجمع هذه «الدرر النادرة»، في كتاب يخرجه الأستاذ «محمد كرد علي» باسم «الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الشامية والحجازية»، ويقدم له بمقدمة من أروع ما دبجت يراعه كاتب، تحتوي من المديح والتفخيم ما يقصر عنه كل مداح ضليع. ولم يكن أخوه أحمد كرد علي أقل منه صولة وجولة في هذا الميدان في المقالات التي دبجها يراعه في جريدة «المقتبس» التي كانت في يوم من الأيام إصلاحية متحمسة هي وصاحباها الأخوان محمد وأحمد كرد علي، ولكنها الآن تجعل من أنور وجمال بطلين من أبطال الإسلام ومن «مجددي أمر الدين الذين يبعث الله بهم على رأس كل مئة سنة». كما لم يتورع الشيخ مصطفى الغلاييني نفسه، وقد عُرف بأفكاره القومية والإسلامية، عن نظم القصائد «بالبطلين العظيمين»[٧٨]. أما الشيخ أسعد الشقيري فلم يقصر بالواجب، ولكنه معروف بميله للإتحاديين من أول ظهورهم بعد الثورة الدستورية. ويزور أنور باشا بهذه المناسبة جبل لبنان وبيروت وحلب ودمشق والقدس ويافا وصحراء

(٧٥) لورنس، المصدر السابق، ص٤٣.

(٧٦) أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، مجلد ٣، ص٦٥.

(٧٧) مذكرات جمال باشا، ص٣٧٢.

(٧٨) محمد كرد علي، الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، ص١، ١١، ١٨٦، ٢١٨.

التيه وعمان والمدينة المنورة ، وعلى أثر وصوله إلى المدينة المنورة طلب إلى الشريف حسين أن يوافيه إليها للإجتماع به[٧٩] . لكن الحسين بعث إليه معتذراً عن عدم تمكنه من ذلك ، وأرسل إليه وإلى جمال باشا سيفاً مرصعاً بالحجارة الكريمة هدية منه لكل منهما ، كما أهدي أشياء أخرى لرجال معسكريهما[٨٠] . وقد قادهما فيصل إلى حيث تجتمع حشود المتطوعين العرب معسكرةً في السهل خارج أسوار المدينة ، حيث أُجريت أمامه استعراضات كان أصحاب الإبل يقومون فيها بتركيض إبلهم في كل جهة كأنهم في أثناء القتال ، والفرسان منهم يركّضون خيولهم وهم يطلقون السهام من عليها حسب تقاليدهم . ويروي لورنس أن أحد الشيوخ اقترح على فيصل الفتك بالقائدين التركيين وإنهاء المعركة بضربتي سيف ، فرفض فيصل بشدة قائلاً : إنهما ضيوفنا[٨١] ، وأخذ يحتاط للأمر ويبالغ في تشديد الحراسة عليهما ، بالرغم من ضخامة الموكب الذي كان يرافق الضيوف ، ومنهم « برونزارت باشا » الألماني ، وملحقا ألمانيا والنمسا العسكريان ، وحشد من الضباط والموظفين المدنيين[٨٢] ، علاوة على الحرس الضخم من العسكريين الترك الذي كان يسهر على سلامتهم في المدينة .

في هذه الأثناء كانت الاعتقالات والمحاكمات لا تزال مستمرة في دمشق ، وتفاقمت كثيراً بعد عودة أنور إلى الآستانة ، وفيصل وجمال إلى دمشق ، فامتلأت السجون بالأحرار ، وثارت الهواجس خوفاً عليهم ، وكانت تقارير فيصل تترى باستمرار على أبيه ، وفيها أنه قد فشل في إقناع جمال باشا في التخفيف من حدة السياسة الإرهابية التي يتبعها الطاغية . ومن جهة أخرى كانت مفاوضات الشريف مع ممثل إنكلترا « مكماهون » قد انتهت على نحو مرض نوعاً ما ، فحاول إلقاء آخر سهم في جعبته ــ مع علمه بضعف احتمال نجاحه ــ عله يستطيع أن ينال من حكومة الإتحاديين القليل مما تتوق إليه نفسه ، بالسلام والحسنى مع إنقاذ رؤوس المعتقلين من الشنق ، مفضلاً هذا القليل على نوال الكثير بسفك الدماء في ثورة قد لا يكون لها من ردود الفعل ما يُبقي سمعته مصونة من كل نقد في العالم الإسلامي[٨٣] . فطير في آذار ١٩١٦ برقية بالشيفرة إلى أنور باشا ، جواباً على برقية منه يستحثه فيها على إرسال المتطوعين ، ويلح عليه في إعلان الجهاد المقدس من مكة باسم الخليفة جاء

(٧٩) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٦٦ .
(٨٠) محمد كرد علي ، الرحلة الأنورية ، ص٢٦٩ .
(٨١) لورنس ، المصدر السابق ، ص٤٤ .
(٨٢) محمد كرد علي ، الرحلة الأنورية ، ص١٠ .
(٨٣) Y.H. BAYUR. Ibid. III, p. 248.

فيها «إن خروج الدولة العلية منتصرة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها، ولا سيما العرب ــ والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم ــ وعلى تأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها.

«ويلوح لي أن ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة... والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية، وسبيله الدواء الآتي:

١ ــ إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين في سورية والعراق.

٢ ــ إعطاء سورية ما تطلبه من نظام لا مركزي.

٣ ــ جعل إمارة مكة وراثية في أولادي وإبقاؤها على حالتها الحاضرة.

«فإذا قبلت هذه المطالب اتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين، وإذا لم تقبل فأرجوكم أن لا تنتظروا مني شيئاً، سوى الابتهال للحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق»[٨٤].

إن من يدقق في توقيت إرسال هذه البرقية، لا تخفى عليه المناورة التي قصد إليها الحسين، ذلك أنه كان يعرف ولا شك ضعف الاحتمال بقبول الترك لهذه المطالب. فإذا استجابوا لها فإن لديه من الوقت الكافي للتفكير في ما يلي ذلك من الخطوات. وفي تأخيره توقيت الثورة، إلى ما بعد انتهاء المفاوضات بسبعة أشهر على الأقل، ما يهيىء له فرصاً عديدة، سواء منها ما يعطيه مجالاً للاستعداد، أو للمناورة، أو للتفكير في كيفية وقاية نفسه وبلده من الهجوم الإنكليزي على بلاده ــ في حالة النكوص عن اتفاقه مع الإنكليز ــ وبالتالي المماطلة بين الإنكليز والترك، مترقباً على كل حال تطور سير الحرب بين المعسكرين، وأي كفة منهما تميل إلى الرجحان. وأما إذا لم يستجيبوا لها، فيكون قد حصل على مبرر قيامه بالثورة المتفق عليها مع إنكلترا. وعلى رأي الكاتب التركي يوسف حكمت بايور، ربما يكون الحسين قد رمى إلى هدف آخر، هو امتداد أطماعه إلى مدى بعيد، بحيث تضطر الدولة إلى قبول عروضه هذه نظراً لوضعها الحرج الذي تعانيه، وبعد أن يصبح المسيطر على مملكة تمتد على مسافة ألف كيلومتر، يجعلها بطريقة ما تسحب جيوشها من هذه

---

(٨٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٦؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١١٠ ــ ١١١.

المنطقة ، وعندئذ يستطيع العمل جنباً إلى جنب مع الإنكليز بسهولة أكثر ، وبطريقة أضمن لحياته ولمستقبله ، كما يكون بوضع أكثر مساعدةً له على ضم باقي المناطق العربية[٨٥] .

تلقى أنور البرقية فأحالها إلى جمال باشا الذي رأى فيها من غموض المرمى ما جعله هو وأنور عاجزين عن فك طلاسمها ــ كما قال ــ فأرسل جمال بطلب فيصل ، وأشار إلى علي فؤاد بك رئيس الأركان بان يكون شاهد المحادثة بينهما ، وأخذ يؤنبه قائلاً إنه عندما علم أن أخاه علياً يتدخل في سلطة حاكم المدينة بدعوى أن ذلك جزء من سلطته بصفته إماماً ، عزى ذلك إلى حداثة سنة وعدم تجاربه ، ثم ذكره بما كان قد قاله له ، في محادثاتهما مراراً ، من أنه لن يدخر وسعاً في المحافظة على حقوق الإمارة الموثقة بالفرمانات السابقة ، وانه سيعمل على إحقاق الحق ، وأن الشريف حسين نفسه قد شكره على ذلك . كما لفت نظره ، مهدداً ، إلى أن لأبيه أعداء كثيرين ، منهم من هو موجود في الآستانة ، يعملون صباح مساء لإثارة الحكومة ضده ــ يقصد بذلك أبناء عمومته من « ذوي زيد » ــ وحذره من مغبة إعطاء هؤلاء الأعداء الحجة والمستمسك عليه ، ثم سلمه البرقية قائلاً « وإذا قرأت هذه البرقية علمت أن أباك إنما يسير في الطريق العوجاء ، وأنه بعمله هذا يسلم أعداءه سلاحاً يحاربونه به »[٨٦] .

فلما قرأ فيصل البرقية امتقع لونه ، وظهرت على وجهه إمارات الإضطراب ، كما قال جمال ، وأبدى أسفه وغمه لما تضمنته ، واعتذر عن والده بأن ذلك قد يكون ناشئاً عن سوء فهم والده للغة التركية ، إذ ربما يكون المترجم الذي نقلها إلى التركية قد عجز عن فهم النص العربي ، فجاءت ترجمته محرفة لعبارات والده ، وأنه يؤكد أن ذلك ناشيء عن سوء تفاهم ، وأن أباه لا يقصد بهذه البرقية شيئاً ضاراً ، واستعاذ بالله أن يخطر لأبيه مثل هذا الخاطر ، وأنه سيكتب في الحال إليه يسأله العدول عن هذه النيات . وبعد أن تلقى هذه الإيضاحات من فيصل بادر جمال إلى إرسال الجواب للشريف حسين ببرقية جاء فيها أن ليس بالمستطاع اجابة طلبه بالعفو عن المعتقلين بعد أن قامت البراهين على خياناتهم للوطن ، وإلا أدى ذلك إلى ضرر شديد للمصلحة العامة ، لأن حكومة تصفح عن الخونة لخليقة بأن يتهمها الجمهور بالضعف الذي كثيراً ما يغري الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء ، وأنه لو عرف محتويات الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأي إلى أي حد من الخيانة قد انحدر أولئك المتهمون . أما عن مسألة جعل الإمارة وراثية في أسرة الشريف فقد أجاب جمال أن

---

(٨٥) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 349.

(٨٦) مذكرات جمال باشا ، ص٣٧٤ ــ ٣٧٥ .

الفرصة ليست مناسبة للتحدث بها ، وأن الإعراب عن مثل هذه الرغبات من شخص مثل الحسين يشغل منصب إمام في أهم بقعة من بقاع الدولة ، ومن أكثرها تعرضاً للأخطار ، وفي وقت هذه الحرب ومخاطرها الجسيمة لا بد أن يكون له أسوأ الوقع في نفوس الجمهور . ثم لفت نظره إلى أن جميع الجهود يجب أن تبذل الآن لغرض واحد هو إحراز النصر النهائي ، وأنه بفرض أن الحكومة لبت طلبه لمجرد الرغبة في تجنب مشاغبته الآن ، ثم كان النصر حليفها في النهاية ، فما الذي يمنع الحكومة أن تعامله بمنتهى الشدة ، بعد أن تضع الحرب أوزارها . وختم البرقية مهدداً بقوله إن رجال الحكومة الحاضرة الذين جرؤوا على القيام في وجه عبد الحميد « الذي أمضّك استبداده » لن يصفحوا عمن يجترىء على شل أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الإسلامي ، ومن جهة أخرى لن ينسوا الحصول من جلالة السلطان على جزيل الإحسان وعظيم المكافأة ، لكل من عمل لتحقيق الغاية المقدسة(٨٧) .

وأما برقية أنور باشا الجوابية إلى الشريف حسين فقد كانت أشد حزماً وأقسى لهجة ، وها هي بالحرف « وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة إن إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالباً ... ولما كان طلب إعلان العفو عن بعض المتهمين ، وتطبيق نظام اللامركزية في سورية ، واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم ، خارجاً عن اختصاص سيادتكم ، فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء .

« وإني أبلغكم بأنه لا بد من أن ينال المعتقلون عقابهم ، كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل في الحجاز كما كانت عليه ، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية ، وأوصيكم ملحاً بأن تستدعوا ولدكم الموجود في المدينة إلى مكة فوراً ، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بإرسالهم إلى دمشق ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل ، وبديهي أنه سيظل (أي فيصل) ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب »(٨٨) .

غير أن جمال باشا ، بعد أن مر على ذلك فترة من الزمن وهدأ روعه ، أرسل كتاباً إلى الحسين يبغي من ورائه تلطيف الجو بينه وبين الشريف قال فيه « لقد بلغني أنكم تأثرتم مما بدر مني نحوكم على أثر الأحاديث التي فاتحني بها نجلكم ، أو المخابرات التي وردتنا من مقام دولتكم ، فرأيت أن معكم الحق في بعض ما انفعلتم من أجله ، وأن ليس معكم حق في بعضه الآخر . واليوم نظراً لأن ما يعانيه

(٨٧) مذكرات جمال باشا ، ص٣٧٦ ــ ٣٧٨ .

(٨٨) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٦٦ ــ ٦٧ .

العالم الإسلامي ، وبخاصة منه الوطن العثماني ، يضطر رجالات الإسلام ممن يشكلون أركانه أن يتناسوا مطالبهم الخاصة ، ويتجهوا بكليتهم إلى بذل التضحيات التي تؤمن السلامة العامة للوطن . لذلك فإنه إذا كان قد بدر مني شيء مما اقتضته الظروف الطارئة ، فمن الموافق جداً أن يدرج في طي النسيان »[٨٩] . فما كان من الشريف حسين إلا أن أجاب على هذه الرسالة بما يتفق مع لهجتها الملطفة قائلاً إنه لا يزال يكرر الدعاء آناء الليل وأطراف النهار أن يجعل النصر والتوفيق حليف دار الخلافة الإسلامية ، ومقام السلطنة السنية ، وأنه نظراً لما يعانيه العالم الإسلامي وبخاصة منه الوطن العثماني من المخاطر العظيمة ، فإنه قد أحنى هامته بكل فخر ، ولا يزال يحنيها في كثير من الحالات لما تقتضيه مصلحة الوطن وسلامته[٩٠] . لكن الشريف حسين ، حينما أجاب جمال باشا بهذا الجواب اللطيف بتأثير برقيته التي تحمل الروح نفسها ، لم ينس مع ذلك ما كان في برقية جمال الأولى من تنديد وتهديد ، فأردف قوله السابق بما أثار النفور في نفس جمال ، فقد بين له أن طلبه العفو عن المعتقلين ليس إلا من مصلحة الحكومة ، ولم ينس أن يشكو مر الشكوى من بصري باشا حاكم المدينة المنورة ، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه يأبى أن تسلب منه بلا مسوغ حقوق منحها إياه الخليفة العثماني . فثارت ثائرة الطاغية عند ورود هذه البرقية إليه ، نمّ عنها ما جاء في مذكراته عن سلوك الشريف علي حيال بصري باشا في المدينة ، ذلك السلوك الذي وصفه بأنه أصبح لا يطاق ، فاستدعى الأمير فيصل وأطلعه على رد أبيه ، ثم أنذره بحدة بأنه إذا لم يكف عن تدخله في شؤون الحكومة ، فلا بد من استعمال القوة معه ، مبيناً أنه لم يستطع إدراك الغرض من سلوك أبيه وأخيه ، فمن جهة يعملان على تجهيز المتطوعين لحملة القناة ، والحكومة جاهدة في إمدادهم بالمال والرجال ، ومن جهة ثانية يلاحظ على أبيه نزعة الإنفصال ، وعلى سلوك أخيه في المدينة أنه يتفق وما ينزع إليه الوالد ، وأنهم إذا أرادوا أن يبقوا أصدقاء فما عليهم إلا مراعاة قوانين الصداقة . ثم يختم كلامه قائلاً «أما إذا كنتم ذوي غايات أخرى فالأولى أن تلجؤوا إلى السلاح وتجنحوا إلى ثورتكم في الحال ، وبذلك تنتهي المهزلة ويصبح كل منا ظاهر العداوة للآخر ... وأما إذا كنتم لا تريدون الثورة ، ولا تضمرون الشر ، فاكتب إلى أخيك علي بك كي يحضر إليّ في الحال ... »[٩١] .

ويمضي جمال في مذكراته قائلاً إن هذا الكلام كان له من الأثر على فيصل بحيث علا وجهه

---

(٨٩) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 251 ; استناداً إلى مذكرات الجنرال علي فؤاد أردن المنشورة في جريدة «دنيا» في ١٩٥٥/١٠/٧ .

(٩٠) Y.H. BAYUR. Ibid. III, p. 252.

(٩١) مذكرات جمال باشا ، ص٣٨٤ ــ ٣٨٦ .

الإصفرار ونهض من مقعده، واستغرب كيف يخطر لجمال أن يعزو لأسرته هذه التهم، وكيف يليق بأسرته أن تُنسب إليها الخيانة بينما هي من سلالة الرسول، وترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين للخليفة، وأنه أبدى استعداده لتسوية الخلاف بين أخيه ومحافظ المدينة بصري باشا (٩٢).

لم يمض أسبوع أو أسبوعان على ذلك حتى نُفذت أحكام الإعدام بالقافلة الثانية من الشهداء، بعد أن جاهد فيصل في الحصول على عفو عن أفرادها، وكان لا يني عن مفاتحة جمال بذلك في كل مقابلة، بحيث يحول الحديث إلى جهة العفو كلما سنحت له الفرصة، لا بل كان يعنف بعض الأعيان الذين يذهبون لزيارة جمال ولا يستنحون الفرص لمفاتحته بأمر العفو والعمل على إنقاذ رقابهم، حتى إن فيصلا قد أولم لجمال وليمة في القابون، قبيل تنفيذ الأحكام بأيام قلائل، خاصة لمفاتحته بهذا الأمر، لكن أمله خاب وسمع جواباً حازماً من الطاغية، كما مر معنا فيما سبق. غير أن حكم الإعدام لم يكن قد نفذ بعد بالشهداء حينما تلقى الشريف حسين من أنور باشا برقيته الشديدة اللهجة التي هدده فيها بإبقاء ابنه فيصلاً رهينة لدى الجيش الرابع، فلما استلمها الأمير عبد الله، وفك رموزها عرضها على والده، فتلاها وقال: أيهددني، وأردف ذلك ببيت شعر:

سوف ترى إذا انجلى الغبـــارُ　　　أفَــــرَسٌ تحتك أم حمار؟

ثم التفت إلى الأمير عبد الله قائلاً «أكتب الجواب حالا للصدر الأعظم ولوكيل القائد العام (أنور)».

«ليس لي ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي، وبها ضمان انحياز العرب إلى صفوفكم بقلوبهم. أما ابني فيصل فلم أبعثه إليكم وأنا أعتقد أنني أراه مرة أخرى، فما عساي أن أقول عن إبقائه رهينة في دمشق؟». وبعد يومين وردت برقية من الصدر الأعظم تقول «بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكم. فإذا بعثتم بالمجاهدين إلى الشام أشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم السامي الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين»(٩٣).

لكنه لم تمض أيام قليلة حتى بلغت مسامع الشريف أنباء تنفيذ حكم الإعدام بالشهداء،

---

(٩٢) المصدر السابق، ص٣٨٦ ـــ ٣٨٧.

(٩٣) مذكرات الملك عبد الله، ص١٠٦.

فاضطربت أفكاره، وشغل فكره بصورة خاصة ما جاء في برقية أنور باشا بشأن استبقاء نجله فيصل رهينة في دمشق. كما كان قد شغل فكر فيصل ما جاء في طلب جمال منه أن يكتب إلى أخيه علي بلزوم القدوم إلى دمشق، وتبادر إلى ذهنه حالاً أنه يريد استبقاء هما معاً رهينة لديه، فأخذ فيصل من جهته يعمل على الإفلات من الأسر، كما أخذ والده من جهة أخرى يعمل على إنقاذه مما هو فيه بأية وسيلة وبأي ثمن، فراح يمعن النظر في ما عساه يخرجه من هذه الورطة. فحينما عزم على إرسال برقيته الجوابية إلى الصدر الأعظم شرع يعمل الفكر في كيفية صياغة عباراتها، ويسكب فيها كل ما أوتيه من دقة ومهارة في التعبير، فجاءت تنطق بالحذر والدهاء. وقد بعث بها في ١٩١٦/٥/١٢ وتضمنت ما يلي «إنني ممتن على تلطفكم بالجواب، أما بشأن المجاهدين فإنهم سيتحركون كما عرضت لكم في برقيتي المؤرخة في ١٩١٦/٤/٢٧، ولكن سوقهم من مكة يتطلب أن يكونوا مزودين بكامل السلاح والذخيرة، فضلاً عن أنهم أصروا على عدم السفر إلا إذا حضر فيصل ليأخذهم، فإذا كانت الرغبة حقيقية يكون من الأوفق لو أُرسل فيصل لقيادتهم»(٩٤).

لقد خاف الشريف على ولده فيصل من أن يساق إلى المشنقة كما سيق غيره من الأحرار، ومن جهة أخرى يريد استدعاءه قبل أن يعلن الثورة التي يستعد لها. وكان في ١٩١٦/٤/٢١ قد أبرق إلى جمال أن يعيده إلى مكة على أن يرجع إلى دمشق بعد شهرين، لكن جمال باشا أجابه ببرقية يقول له فيها بأنه لا يمكن إرساله بداعي الاستحضار لحملة السويس المقبلة(٩٥). وهكذا كان على فيصل وأبيه أن يفكرا في طريقة للخروج من المأزق.

في هذه الأثناء كانت المراسلات السرية تجري بلا انقطاع بين فيصل ووالده وأشقائه، يوافيهم بكل ما يقع في دمشق من حوادث، وما يدور بينه وبين الترك فيها، وأخيراً جرى الاتفاق بينه وبين والده وأخيه علي بأن يوعز هذا الأخير لزعماء المتطوعين أن يقترحوا استقدام الأمير فيصل من دمشق ليذهب معهم إلى جبهة القتال ففعلوا. وقام فيصل بمثل هذه المساعي في دمشق، فزار جمال باشا، وأبلغه أن شقيقه علياً تلقى أمراً من والده بأن يسافر إلى القناة، وأنه يريد الذهاب إلى المدينة ليأتي على رأس المتطوعين مع أخيه إلى القدس(٩٦). وأكد له أن ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيراً

---

(٩٤) Y.H. BAYUR, Ibid. III, 258 نقلها عن مذكرات علي فؤاد أردن المنوه عنها سابقاً؛ أمين سعيد، الثورة العربية...، ج١، ص١١١؛ أمين الريحاني، ملوك العرب، ص٦٨.

(٩٥) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 258.

(٩٦) أمين سعيد، الثورة العربية، ج١، ص١٥٥؛ مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص٦٩ — ٧٠.

حسناً، فأجابه إلى طلبه قائلاً له «أغد إلى المتطوعين واستقبلهم باسمي، ثم ائتني بهم هنا» مبيناً له أنه سيرسل معه بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابه، وبذلك يؤلف وفداً خاصاً لاستقبال المجاهدين[٩٧].

يقول جمال باشا بأنه أحس بالخديعة التي ينويها فيصل من فرحه الشديد لما وافق على ذهابه، وأنه أدرك مع رئيس أركان حربه بأن الثورة وشيكة الوقوع[*]. لذلك أوعز إلى والي المدينة بأن يُبقي لديه الكتيبة المؤلفة من /٣٥٠٠/ رجل التي كانت أُرسلت مؤخراً من الآستانة إلى المدينة المنورة لتكملة ملاك فيلق اليمن، وأن يقوم الضباط الموجودون بتمرين الجنود وتسليحهم بالبنادق التي كان في النية إرسالها إلى متطوعي مكة، الذين أمر جمال بأن يأتوا من مكة إلى المدينة مشياً على الأقدام وبدون سلاح، عندما ساوره الشك في وضع الحسين من مراسلاته الأخيرة، وأنه أوصاه بالحذر والبقاء على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة في حالة مهاجمتها نظراً لسلوك الشريف حسين الباعث على الريبة.

ثم رأى جمال أن يرسل، من باب الاحتياط، قائد الفيلق فخري باشا إلى المدينة بحجة زيارة الروضة الشريفة، بعد أن شرح له الحالة، وأنه يتوقع من الشريف أن يثور قريباً، وأوصاه أن يرتب مع بصري باشا وسائل الدفاع عنها، وأن يبادر فوراً، ومتى شعرا بحركة تدل على قيام الثورة، أولهما إلى استلام قيادة الجيش والثاني إلى استلام الإدارة الملكية[٩٨].

سافر الوفد بطريق سكة حديد الحجاز في منتصف شهر أيار ١٩١٦، وكان مؤلفاً من الأمير فيصل رئيساً، وكاظم بك مفتش المنزل (الذخيرة والمؤن)، وآصف بك المستشار العدلي للجيش الرابع، ونسيب بك البكري، والشيخ عبد القادر الخطيب، أعضاء[٩٩]. لقد فرح فيصل فرحاً شديداً لخروجه من المأزق، وعندما وصل إلى المدينة أقام في منزل شقيقه، كما وصل إليها فخري باشا، ثم تواردت عليها قوات جديدة تعزز القوات الموجودة فيها، فأوجس الشريف حسين خيفة من

---

(٩٧) مذكرات جمال باشا، ص٣٨٩.

(*) يناقض جمال باشا نفسه هنا، فقد جاء في الصفحة ٣٨٨ من مذكراته، إنه لو علم بأمر اتفاق الحسين مع الإنكليز وعزمه على الثورة، لأمر بالقاء القبض على فيصل وأخيه علي، ولأرسل فرقة إلى مكة اعتقلت الشريف حسين وأولاده، والقضاء على تلك الثورة في مهدها.

(٩٨) مذكرات جمال باشا، ص٣٩٠ ــ ٣٩٢.

(٩٩) حنا أبو راشد، المصدر السابق، ص٨٦.

هذه الحركات العسكرية التي يحشدها الترك في المدينة بحجة السفر إلى اليمن ظاهراً، لأنه فهم أن غايتهم الأولى هي الاستيلاء على ناصية الحال في مكة، بالاتفاق مع القوة التركية الباقية فيها، وعند ذلك تنهار آماله ويضعف مركزه. وعليه قرر الإسراع بإعلان الثورة برغم عدم إتمامه استعداداتها، خوفاً من المفاجآت، وأعلم فيصلاً في المدينة بقراره، وأصر على ذلك عندما طلب منه فيصل تأجيلها إلى شهر آب، حيث ينتهي جمع المحاصيل.

نزل فيصل عند إرادة أبيه وقرر ألاّ يعود إلى دمشق مع أعضاء الوفد، واعتذر إليهم بأن ثمة مشاغل ضرورية تضطره إلى البقاء في المدينة أياماً أخرى، وأنه لا يزال يفاوض جمالاً بشأن المتطوعين أيسافرون بالقطار إلى دمشق، أم يذهبون رأساً إلى القناة؟ وأن عليهم ألّا ينتظروه، إذ إنه سيلحق بهم متى انتهت هذه المفاوضات. فذهب الوفد ومعه نسيب البكري الذي ما إن وصل إلى دمشق حتى بدأ يسفّر عائلته بالقطار ويستعد للسفر، إلى أن أتته برقية تتضمن لغزاً اتفق مع فيصل عليه، يعني قيام الثورة، فهرب مع الخمسين فارساً الذين كانوا بمعية فيصل في دمشق، وكان جمال حينئذ في بيروت، فلما عاد إلى دمشق وعرف بالأمر أوعز بمطاردتهم عبثاً(١٠٠).

وبعد أن تم الاتفاق على إعلان الثورة قابل الأخوان (فيصل وعلي) يوم ١٩١٦/٥/٣٠ فخري باشا، وأطلعاه على برقية أنور الأخيرة الشديدة اللهجة المرسلة إلى والدهما والمليئة بالتهديد ــ وقد مر ذكرها ــ وأفهماه أنهما بعد هذه البرقية لم يعد باستطاعتهما الدوام على العمل مع الحكومة، وأن أحدهما علياً سيعود إلى مكة عملاً بإشارة الشريف. فاعتذر فخري باشا بأن ما جاء فيها هو نتيجة لتسرع غير مقصود، وأنه لا بد من تسوية الأمور في المستقبل، فأظهرا الرضى من كلامه، وجرى الإتفاق على أن يبقى فيصل في المدينة ليقود المجاهدين إلى القناة بدلاً من شقيقه، ثم برح الأمير علي المدينة في ٦/١ متوجهاً إلى موقع «سيدنا حمزة» حيث يعسكر المتطوعون، على أن يبيت فيه ليلة ثم يسافر في الصباح إلى مكة، ورافقه أخوه لوداعه، على أن يعود بعد وداعه لأخيه إلى المدينة، فقضيا ليلتهما في المعسكر. وفي الصباح التالي ٦/٢ كتبا كتاباً مشتركاً إلى فخري باشا وبصري باشا، أرسلاه مع مرافق فيصل ــ وهو ضابط تركي ــ جاء فيه «حيث إن رجال الحكومة أساؤا فينا الظن، ولما كان ذلك يحول بيننا وبين الاستمرار في التعاون مع الحكومة، فقد عدنا إلى مكة بناء على البرقية التي تلقيناها من والدنا لعدم استطاعتنا البقاء».

---

(١٠٠) المصدر السابق، ص٨٦.

ثم سارا مع مئتي هجان إلى مكة ، وفي الطريق أخذا يوجهان الرسل إلى القبائل يدعوانها للانضمام إليهما حتى اجتمع لديهما نحو من /٦٠٠٠/ مقاتل في أسبوع واحد ، هاجما بها الخط الحديدي واشتبكا مع قوة تركية خرجت إليهما من المدينة بقيادة فخري باشا نفسه . ثم انسحب الأخوان على أثرها نحو « بير الماشي » فالغدير . وكانت أول معركة جرت بين الطرفين قبيل إعلان الثورة ، ثم افترق الأخوان فسار فيصل إلى « ينبع » ، وبقي عليّ وحده مع هذه القوة ليقاتل الترك فيما بعد ويحاصر المدينة[١٠١] .

قال جمال باشا في مذكراته « لما بلغ فيصل المدينة كتب إليّ معرباً عن سروره لأن شقيقه علياً سيقابلني قريباً ، وبما أن الشريف حسينا سألني أن أرسل إليه مبلغاً من المال لإنفاقه على المجاهدين فقد أبرقت إلى محافظ المدينة ليسلمه ما طلب ، وذلك قبل إعلان الثورة »[*] . ويتم جمال حديثه قائلاً إن فخري باشا طلبه يوماً على الهاتف وأفهمه أنه ذهب بدعوة من فيصل وعلي إلى موقع « سيدنا حمزة » حيث شهد ألعاباً فروسية من المتطوعين ، وحيث جرى الإتفاق على أن تسافر أول كتيبة من كتائب المتطوعين في هذين اليومين إلى درعا ، إلا أن الموقف تبدل في الصباح التالي ، إذ وردته ثلاثة كتب : الأول من الأمير علي إلى فخري باشا ، والثاني والثالث من الحسين ـــ بطريق الأمير علي ـــ . أحدهما لجمال باشا ، والثاني للصدر الأعظم . أما الكتاب الموجه إلى فخري باشا فيقول بتوقف إرسال المتطوعين إلى فلسطين بناء على أمر والده ، وانه متوجه مع المتطوعين إلى مكة ، وأنه آسف لذهابه دون أن يودعه . وأما الآخران فمكتوبان بالشفرة ، لذلك أرسلهما فخري باشا إليه لفك رموزهما ، وأن فخري باشا أعلمه أنه أرسل إلى المكان الذي كان فيه المجاهدون بالأمس كتيبة فوجدته خاوياً على عروشه . ثم أمر جمال بفك رموز الكتابين فإذا بهما ما يلي : يعتذر الحسين في أولهما الموجه إلى جمال من عدم استطاعته الإسهام في حملة القناة حتى تجاب طلباته التي تقدم بها سابقاً ، وإلى أن يكف المسؤولون الأتراك عن اتباع خطة الإبهام والغموض حياله . أما الخطاب الموجه إلى الصدر الأعظم فقد جاء فيه أنه لا يعرف أي الرجلين يصدّق « أهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة ، ولطالما أظهر له المجاملة والود (ويقصد بذلك سعيد حليم باشا) ، أم ذلك الذي استعمل معه ألفاظاً جارحة مهينة (ويقصد به أنور باشا) » . لذلك فهو يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات مع

---

(١٠١) أمين سعيد ، الثورة العربية ، ج١ ، ص١١٥ ـــ ١١٧ ؛ مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٧١ ـــ ٧٢ .

(*) يقول نسيب البكري إن الأتراك سلموا الشريف يومئذ /١٨/ ألف بندقية مع /٢٠/ ألف ليرة ذهبية (مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص٧٢) .

الحكومة حتى تجاب المطالب التي طلبها من أنور باشا منذ شهرين[١٠٢] . ولم تمض بضعة أيام على هذه الحوادث حتى اندلعت الثورة التي كانت نهاية المطاف في سياسة الجذب والدفع بين الترك والحسين بخاصة وبينهم وبين العرب بعامة .

---

(١٠٢) مذكرات جمال باشا، ص٣٩٢ ـــ ٣٩٦ .

الباب الثاني

عوامل الانفصال الخارجية وثورة الشريف حسين

الفصل الأول : المفاوضات الإنكليزية ــ العربية وأثرها في الإنفصال .

الفصل الثاني : اتفاقات الحلفاء لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وتصريح بلفور .

الفصل الثالث : الثورة العربية .

الفصل الرابع : حرب العراق وسورية وفلسطين .

الفصل الخامس : المراحل النهائية للعلاقات العربية ــ التركية .

الخاتمة : الانفصال والانهيار العثماني .

الفصل الأول

المفاوضات الإنكليزية ــ العربية وأثرها في الانفصال

حينما قامت الحرب العالمية الأولى كانت مطامع الدول الأجنبية في الأراضي العربية قد تبلورت، وسياستها في هذا المجال قد استقرت على شكل يجعل إنكلترا تحدد منطقة نفوذها بجنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، بالإضافة إلى مصر، مع السيطرة على قناة السويس، وألمانيا بممر سكة حديد بغداد والحلم في السيطرة على وادي الفرات، وحتى إنشاء مرفأ الإسكندرونة ووصله بمدينة «العثمانية» بخط حديدي، وفرنسا في سورية ولبنان[1]. وكانت كل دولة من هذه الدول تعتمد على عنصر من عناصر السكان في السلطنة، فالألمان كان اعتمادهم على قسم كبير من الضباط الأتراك الذين دُربوا عسكرياً في ألمانيا. والفرنسيون على موارنة لبنان والمَلكيين فيها، والإنكليز على الدروز وهم أصدقاؤهم القدامى. ولم تكن روسيا بعيدة عن هذا الصراع، فبالإضافة إلى مطامعها في الآستانة والمضائق، كانت تنافس فرنسا في بلاد الشام، وخاصة منها الأراضي المقدسة في فلسطين، وإن ظهر من الدولتين المذكورتين تعاون ملموس، في فترة ما قبل الحرب بقليل، تجلي في افتتاح المدارس الجديدة وانهيال الطلبات لتقديم العون المالي للمدارس القائمة، وتأسيس الشركات، وازدياد التدخل في الشؤون الدينية، مع حرص كل من الدولتين على التأكيد أن هذا النشاط لا يرمي إلا إلى أغراض ثقافية واقتصادية. وكان الروس يعتمدون على الطائفة الأرثوذكسية[2].

---

(١) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٣٥، دكتور نور الدين حاطوم؛ العرب والدولة العثمانية وأوروبا...، ص١٥ــ١٦.

(٢) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٣٨، وفيه تفصيلات وافية عن هذه الناحية، NADRA MOUTRAN, La Syrie De Demain, p. 29.

وإذا كانت فرنسا لم تكتم مخاوفها، في ذلك الوقت، من منافسة إنكلترا لها في هذه البلاد التي طالما احتدم الخصام بينهما على مناطق النفوذ فيها[٣]، فقد كان لها ما يبرر هذه المخاوف، ذلك أن الحكومة البريطانية التي حفزها على العمل ما لمسته من امتداد الخطر الألماني نحو الشرق العربي، بما يكاد يهدد نفوذها في أكثر المناطق حساسية بالنسبة إليها، وهو العراق، قد عملت في اتجاهين: أولاً الوقوف في وجه الامتداد الألماني في العراق والثاني في بسط سيطرتها، إذا أمكن، على المناطق الغربية من العالم العربي، حتى ولو كلفها الأمر تجاهل مصالح فرنسا فيها، كجزء من العمل لتعزيز اتجاهها الأول. إن يوانكاره لم يكن واهماً عندما أطلق تصريحه الشهير سنة ١٩١٢[*]، الذي كان — في الواقع — تحذيراً لإنكلترا، وفي الوقت نفسه توثيقاً لحق فرنسا المزعوم في سورية. فقد جاء الدليل المبرر لمخاوف رئيس وزراء فرنسا في ما أثبتته — بعد مرور سنتين على تصريحه المنوه عنه — محاضر مجلس العموم البريطاني ١٩١٤/٣/١٧ من تذمر النائب الإنكليزي «مارك سايكس» حينما وقف ينتقد التصريحات المطمئنة التي كانت قد أعطيت آنذاك لفرنسا، فيما يتعلق بالموضوع الذي أثاره خطاب «يوانكاره» في مجلس الشيوخ. فأجابه اللورد غراي، وزير الخارجية الإنكليزي، بأن الأمر لم يكن سوى عبارة عن تهدئة لروع الفرنسيين، فيما يختص بالمسائل الاقتصادية فقط، وأن تلك التصريحات المطمئنة لا تمس مسألة اقتسام مناطق النفوذ في الشرق العربي[٤].

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المطامع الألمانية في البلاد العربية لم تكن لتخفي نفسها، ولم يكن سعي ألمانيا للتوسع الاقتصادي في آسيا الصغرى، وتظاهرها بدعم المسلمين، وتحببها إليهم واهتمامها بأمورهم، ولو مهما تستر بالمظهر البريء، إلا لينم عن هذه المطامع[٥]، التي لم يُخفها الكتاب الألمان. فقد كتب البروفسور «هلفريخ»، وزير المالية الألماني، في بداية الحرب، كتاباً عن «منشأ الحرب العامة»، جاء فيه صراحة أن من أسباب هذه الحرب «رغبة التفوق في الشرق،

(٣) J. PICHON, Les ORIGINES ORIENTALES DE LA GUERRE, P. 199.
في كتابي السابق «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني» بحث واف عن مطامع كل من إنكلترا وفرنسا في البلاد العربية، ص٣٨ — ٤٢، ١٧٦ — ١٩٠، ٤٢٥ — ٤٣٤، وغيرها من الصحائف.

(*) جاء في ذلك التصريح الذي تفوه به في مجلس الشيوخ «ولا أرى لزوماً لأن أذكر مجلس الشيوخ أن لنا في لبنان وسورية حقوقاً تاريخية تقليدية، ونحن نريد دائماً أن تراعى منافعنا وحقوقنا». ثم أضاف أن لا صحة لما ارجفه المرجفون عن وجود خلاف بين فرنسا وإنكلترا على هذه النقطة، وأن الحكومة الإنكليزية قد نفت أن لها مطامع في سورية ولبنان.

(٤) J. PICHON, Les Origines Orientales De La Guerre, p. 217.

(٥) أمين سعيد، الدولة العربية المتحدة، ص١٥ — ١٦.

وتحقيق السيطرة على العالم الإسلامي ، ثم الرغبة في تحطيم كل قوة تمانع دولة تحكم قسماً كبيراً منه في أن تبسط سيطرتها على جميع أقسامه الباقية»[٦] . ومعنى ذلك أن ألمانيا لم تكن لتكتفي ببسط نفوذها على أراضي السلطنة العثمانية بشكلها القائم ــ وفقاً لما نشره المستشرق «سيرنجر» سنة ١٨٨٦ بكون آسيا الصغرى «تمثل أخصب حقل للاستعمار» بالنسبة لألمانيا[٧] ــ بل هي تريد مساعدة السلطنة في الاستيلاء على جميع البلاد الإسلامية ، لتجعلها مطية للإستعمار الألماني على هذه البلاد بأجمعها .

لقد جاء في مقال لأستاذ ألماني ، كتبه بعد نشوب الحرب ، قوله «إن هدف ألمانيا يمكن أن يُلخص ببضع كلمات يجمعها قولنا : البحر الشمالي ــ الآستانة ــ بغداد ــ الأوقيانوس ــ الهندي» . على أن الإمبراطور الألماني نفسه قد عرف مقاصد ألمانيا بقوله «إسفين ألماني ممتد من هامبورغ إلى خليج فارس» . لذلك وضع القائمون على «البنك الألماني» أيديهم على سكك حديد تركيا ــ أوروبا ، وقر الرأي على أن تكون سكة حديد بغداد أهم الوسائل في بسط السيطرة الألمانية على الشرق الأوسط[٨] .

في الواقع بدأت ألمانيا اهتمامها الفعلي بقضايا الشرق منذ مؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ذلك أنها قد أصبحت ــ خلال الثلاثين سنة الأخيرة ــ بلداً صناعياً كبيراً ، فوجب عليها أن تعنى بإيجاد منافذ تصريف لمنتجاتها الصناعية ، ومجالات تشغيل بالتعهدات والأعمال العمرانية لشركاتها ، ومجالات توظيف لرؤوس أموالها ، وأعمال مصرفية لإنعاش بنوكها . لذلك سرعان ما اتجهت فعالية الرأسماليين وأطماع الصناعيين الألمان نحو الشرق : الأناضول ، سورية ، العراق ، هذه البلاد التي تتمتع بالغنى العظيم غير المحدود[٩] . فأخذت ألمانيا تتطلع نحو السيطرة عليها ، وشرعت بعض جرائدها وبعض كتابها يتكلمون عن طموح إلى ما سموه بـ «الهند الجرمانية» في بلاد الشرق . وقد كتبت مجلة «داي بوست Die Poste» في ١٩١٢/١١/١٧ «إن سورية وبلاد ما بين النهرين تخصان ألمانيا ، فإذا كانت فرنسا تريدهما فما عليها إلا أن تستولي عليهما بالقوة»[١٠] وحدد الكتاب «هانز دلبروك

---

(٦) مجلة «تورك يوردي» السنة الرابعة ، عدد ١٩١٦/٦/١٨ ، عن كتاب البروفسور هلفريخ .

(٧) فرنان وليه ، الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط ، ص٣٩ .

(٨) مطبعة المقتطف ، تاريخ الحرب العظمى ، ج٥ ، ص٤٨٤ ، عن المستر ولسن .

(٩) ATALA, La Syrie ... , p. 32.

(١٠) NADRA MOUTRAN, Ibid. p. 50; دكتور نور الدين حاطوم . العرب والدولة العثمانية وأوروبا في الحرب العالمية الأولى ، محاضرات (علي الستانسل) ألقيت على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ ص٦٢ .

الهند الجرمانية بأنها آسيا الصغرى وما بين النهرين. أما الكاتب «ماكس هوشيللر MAX HOSCHILLER» في مقال نشرته جريدة «La Cote de la Banque et de la Bourse» ، فيقول إن ألمانيا إذا كانت ترمي إلى الاستيلاء على الآستانة ، ففي الدرجة الأولى لتضمن توطيد أركان سكة حديد هامبورغ ـ بغداد . ويعترف «فون كيردوف VON KIRDOFF» رئيس نقابة الفحم ورئيس شركة مناجم وصناعة «جلسنكيرتشين GELSENKIRCHEEN» بأن «إلحاق أراضي الشرق ضرورة حتمية لألمانيا ، لأن مصالح الإمبراطورية الحيوية تقضي بإنشاء مناطق جديدة للإستعمار الزراعي ، ولتنمية الموارد الزراعية ، إلى أن يصبح بإمكانها أن تكفي نفسها بنفسها ..» . وفي محاضرة ألقيت بحضور «غليوم الثاني» أبرز «فون غوينر VON GWINNER» مدير البنك الألماني «الفوائد العظيمة التي تنجم عن استصلاح واستثمار سهول الأناضول وما بين النهرين التي تصلح لزراعة الحبوب والقطن بشكل عجيب» . ويلاحظ «ماكس هوشيللر» بأن «الهند الجرمانية» قد اكتشفها الإنكليز ، مشيراً بذلك إلى الكتاب الذي وضعه المهندس الإنكليزي الشهير «وليم ويلكوس W. WILLCOKS» بعنوان «ري العراق Irrigation de la Mésopotamie» (نشر في القاهرة ١٩٠٩) ، وعثر فيه على الفكرة الجريئة التي تبنتها ألمانيا . وصرح البرنس «بولوف De EULOW» بأن «مشروع خط بغداد تنعشه المشاريع الألمانية الهادفة إلى السيطرة على المناطق الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي (العربي) وعلى حوضي الدجلة والفرات ، حيث توجد ممتلكات لا مثيل لها في الخصب . وإذا جاز القول فإن في العراق آفاقاً لا نهاية لها»[١١] . ويظهر أن ألمانيا قد جندت إمكاناتها المختلفة لهذه الغاية ، إذ كان لضباطها الوافدين إلى تركيا مهمة أخرى غير التي أوفدوا من أجلها . فإلى جانب عملهم العسكري كانوا ينتحلون مهنة الصحافة ، ويبذلون منتهى الجهد للحصول على الرسوم والخرائط المفصلة ، والمعلومات الدقيقة الضافية عن كل قطر من الأقطار العربية . كان كل واحد من هؤلاء إذا اختبرته وجدته يلم بالتفاصيل الدقيقة ، وكأنه من الاختصاصيين المتعمقين في هذه الدراسات : يعرف نزعات زعماء القبائل العربية ، وأحوال قبائلها وآراء مفكريها ، باختصار يعرف معرفة دقيقة أحوالها الجغرافية والسياسية والإقتصادية والعسكرية[١٢] .

وهكذا فان شركات ألمانية قوية مدعومة من حكومتها من جهة ، ومتضامنة بعضها مع بعض

---

(١١) NADRA MOUTRAN, Ibid. pp. VII, VII.

(١٢) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٥٣ .

في مجال التنافس الاقتصادي من جهة أخرى، قد اندفعت في تيار التوسع الاقتصادي. مثل البنك الألماني و «بنك درسدن» و «بنك ديسكونتو جيسلشافت Diskonto Gesellchaft» ... الخ. وقد أنشيء قبل الحرب العالمية ببضع سنوات «البنك الفلسطيني ــ الألماني La Deutsche Palestina Bank» في فلسطين، ولم يلبث أن فتح له فروعاً في القدس وحيفا ويافا وغيرها، وذلك تطبيقاً لمبدأ الماليين الألمان بأن المصارف يجب أن تتقدم التجارة وتهيّىء لها الاعتمادات اللازمة والدعم المالي الكافي[١٣].

ثم لم يلبث هذا الفتح الاقتصادي أن برز بشكل آخر بالخطوط الملاحية، فحوالي سنة ١٩٠٤ لم يكن ثمة سوى شركة ملاحية ألمانية واحدة: الخط الشرقي الألماني (Le Deutsche Levante Linie) الذي كان يجوب شرقي البحر المتوسط. ولكن من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ أنشئت ثلاث شركات ملاحية في أقل من عشر سنوات، وأصبحت بواخرها تجوب البحر الأبيض المتوسط منافسة في ذلك الخطوط الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والروسية والنمساوية، مشكلة شبكة من الخطوط غايتها تعويد مرافىء الشرق رؤية ألوان العلم الألماني أكثر من جني المنافع الآنية[١٤].

ولما لم يكن الإنكليز يجهلون ذلك، فقد أقض مضجعهم هذا الخطر الاستعماري المداهم في منطقة يعتقدون أن من حقهم السيطرة عليها. ولم يفتأ اللورد كتشنر ــ المعتمد البريطاني في مصر، قبل الحرب، والذي عرف بعميق خبرته في الأمور الشرقية، نظراً للمدة الطويلة التي قضاها في الهند والسودان قائداً عاماً للجيش ــ يتابع بقلق تام نمو النفوذ الألماني في هذه المنطقة، فاختمرت في ذهنه فكرة اقتطاع جزء من الدولة العثمانية، جنوب خط حيفا ــ عكا ــ العقبة، يؤلف منه دولة عربية مستقلة[١٥]، توضع تحت الحماية البريطانية، أو تشجيع الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية ومساعدتها في الحصول على استقلالها، وتكوين دولة واحدة، أو مجموعة من الدول مستقلة استقلالاً داخلياً، وترتبط بإنكلترا برباط الصداقة، وتشكل حزاماً إنكليزياً ــ عربياً يمتد من شواطىء البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى حدود إيران شرقاً، ويقف سداً منيعاً أمام المد التركي ــ الألماني[١٦] وخطره

---

(١٣) PINON, René = L'Europe et L'Empire Ottoman, p. 322.

(١٤) ATALA, Ibid. p. 33.

(١٥) فرنان وليه، المصدر السابق، ص٦٢.

(١٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٠٨.

على قناة السويس والخليج العربي، وعلى الطريق البرية المؤدية من سواحل البحر المتوسط إلى ساحل الخليج العربي، وحقول البترول في العراق وإيران[١٧].

شرع اللورد كتشنر في التمهيد لهذا العمل منذ شتاء ١٩١٣، إذ كلف بعثة أثرية برئاسة الكبتين «نيوكمب»، وعضوية لورنس (المعروف) المجاز في الآثار ــ وكان حينذاك يعمل في حفريات كركميش (جرابلس) مع بعثة أثرية لحساب المتحف البريطاني ــ بالذهاب إلى شبه جزيرة سيناء، وتنظيم خرائط طوبوغرافية تخدم أغراضاً عسكرية، تحت ستار العمل الأثري، بحيث لم يكن لورنس ورفيقه «وولي WOOLLEY» سوى الواجهة التي تستر «نيوكمب NEWCOMBE» وراءها لتنظيم خرائطه العسكرية. ولم يكن تكليف هذه البعثة بهذه المهمة ــ التي كان اللورد كتشنر قد بدأها عندما كان ضابطاً شاباً[١٨] عن لهو وعبث، بل بناء على الخطة التي رسمها، كما بينت وشرع في تحقيقها، إذ لم يكد يمضي عام واحد على هذا العمل (أوائل شباط ١٩١٤) حتى اغتنم اللورد كتشنر مرور الأمير عبد اللّٰه بن الحسين بالقاهرة في طريقه إلى الآستانة، وقام بزيارته في مقر الخديوية بمصر، ثم استقبل الأمير في مقره عندما رد إليه الزيارة[١٩].

صحيح أن مقابلته للأمير عبد اللّٰه لم تتطرق إلى مواضيع خطيرة ــ إذ إنها لم تتناول سوى إبلاغ الأمير امتنان حكومة صاحب الجلالة البريطانية عن الحالة الراهنة في الحجاز، وتأمين راحة الحجاج، وعدم رضاها بأن يجري أي تغيير في مقام الإمارة، ثم مبادرة اللورد ــ لدى زيارة عبد اللّٰه له ــ إلى سؤاله عن احتمال إجراء الترك تغييرات أساسية في بلاد العرب، وعما إذا كان الشريف حسين سيسكت إن تناولته هذه التغييرات، وتوجيه الأمير عبد اللّٰه سؤالاً مقابلاً عن موقف إنكلترا من مساعدته فيما إذا حاول المقاومة، ذلك الذي أجاب عليه كتشنر بأن بين إنكلترا وتركيا صداقة تقليدية لا تسمح بالتدخل في شؤونها الداخلية، فذكّره الأمير عبد اللّٰه بدفاع الإنكليز عن الكويت. وأنهيت المحادثة بأن اللورد سيكتب إلى حكومته بهذا الشأن[٢٠]. إلا أن حدوث هذه المقابلة في مثل الوقت الذي جرت فيه، بعد ما كان من قلق كتشنر من التغلغل الألماني في الشرق، وظهور بوادر الحذر وسوء الظن بين الشريف حسين والأتراك، في وقت صادف قدوم وهيب بك والياً على

---

(١٧) أرسكين تشايلدرز، الحقيقة عن العالم العربي، ص٦٥.

(١٨) R. GRAVES, Lawwrence Et Les Arabes, pp. 28-29; A. ARMITAGE, Lawrence D'Arabie, p.87.

(١٩) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٠٥ ــ ٢٠٦.

(٢٠) مذكرات الأمير عبد اللّٰه بن الحسين، ص٧٢ ــ ٧٣، HUREWITZ, Ibid. II, p.13, N° 8

الحجاز، وخوف الحسين وبنيه من نيات الترك نحوهم، يدل دلالة واضحة على استعداد الجانبين للتجاوب والتفاهم إذا سنحت الفرصة في مقبل الأيام، ولم تكن هذه المقابلة، إذن، إلا بمثابة جس النبض من الطرفين.

في الواقع تكررت الإتصالات بين السلطات الإنكليزية في مصر، وبين الشريف حسين قبيل الحرب، وبعد نشوبها ودخول تركيا فيها. ولم تكن هذه السلطات تجهل قيمة الشريف ومقدار الاستفادة التي تجنيها من صداقته في حالة نشوب حرب، وانحياز تركيا فيها إلى جانب ألمانيا التي أصبح نفوذها متغلغلاً إلى الأعماق في ربوعها. ذلك أنه عدا ما للشريف حسين من نفوذ معنوي ــ بصفته سليل أسرة هاشمية ويشرف على الأماكن المقدسة ــ يمتد إلى ما وراء حدود بلاده، فإن لمنطقة الحجاز التي يجلس على إمارتها أهمية عظيمة. فالحجاز يقع في قلب شبه الجزيرة العربية، وفي وسط القوات التركية التي تعسكر في موانىء الحجاز وأهمها جدة، وفي كبرى مدنه وأهمها مكة والمدينة. فإذا استطاعت إنكلترا أن تستميل الشريف وتتحالف معه بحيث تمده بالمال والسلاح، وهو من جهته يجند القبائل التي تمتد سيطرته عليها، تستطيع عندئذ أن تضرب القوى العثمانية في الجزيرة العربية ضربة قاصمة، أو على الأقل تعطلها عن العمل، وتحجز بذلك قوة كبيرة منها عن الاشتراك في العمليات الحربية، فضلاً عن أهمية البحر الأحمر الحربية، من حيث تشكيله واجهة الحجاز العربية، وتحكّم موانئه في الطريق العالمي للمواصلات(٢١)، علاوة على كونها تكمل نجاح بريطانيا في فرض حصارها البحري في منطقة الشرق الأدنى والأوسط. كما لا تنكر فائدة التحالف مع الحسين في الحجاز ــ فيما إذ اقترن بتحالف آخر مع إمارة العسير ــ في دق إسفين بين القوات التركية في الشمال (بلاد الشام) وبين القوات التركية في الجنوب (اليمن)(٢٢). وفضلاً عن ذلك كله فإن الحسين إذا ما استطاع أن يزيل السيادة العثمانية من الجزيرة العربية عموماً ومن الحجاز خصوصاً، يكون عمله متفقاً مع سياسة إنكلترا التقليدية في شبه الجزيرة العربية، من حيث زعزعة الحكم العثماني، وتوطيد النفوذ البريطاني. كما أن إنشاء سلطنة عربية في الحرمين الشريفين خاضعة لنفوذها يتفق مع سياستها الإسلامية أيضاً، فهي إذا تمكنت من إثارته تستطيع أن تستخدم حركته في الحجاز في إثارة الأقطار العربية السورية والعراقية أيضاً ضد الترك، والتهوين من أمر الجهاد الذي أعلنته السلطنة العثمانية بعد دخولها الحرب(٢٣).

(٢١) P. LYAUTEY. Ibid. p. 118.

(٢٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم، محاضرات غير مطبوعة القيت في جامعة دمشق عام ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩.

(٢٣) محمد شفيق غربال، العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية، ص٩٥.

أما البادىء بالاتصال قبل الحرب فهو الجانب الحجازي (بعد المحاولة الأولى) ذلك أن الأمير عبد الله عندما مر بالقاهرة في نيسان ١٩١٤ ، في طريق عودته من الآستانة ، واجه السير « رونالد ستورز » السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطانية بمصر ، وبيّن له استياءه من السياسة التركية ، مستوضحاً ما إذا كانت إنكلترا مستعدة لمد أبيه بالسلاح والمؤن للدفاع عن نفسه في حال عدوان تركي ، فأجابه بالنفي نظراً لصداقتها مع تركيا[٢٤] . والواضح أن الأمير عبد الله لم يطالب بذلك إلا بعد أن شعر بالخطر الذي يحيق بمركز أبيه من أعمال الوالي وهيب بك ، وبعد أن اتسمت محادثاته مع المسؤولين ، في الآستانة ، بسمة التوتر وإرهاق الأعصاب في محاولة من رجال الدولة للوصول إلى أخذ موافقة الشريف حسين على مد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة أملاً في إحكام سيطرتهم على الحجاز[٢٥] ، بينما كان الحسين يشعر بنيتهم السيئة نحوه ، ويدرك أن تغلغل هذه السكة داخل الحجاز حتى مكة ، ثم وصلها بجدة ، فيه عرقلة لسلطانه على العشائر ، وتقوية للسيطرة التركية ، وقضاء عليه وعلى نفوذه في الحجاز[٢٦] . لكن الإنكليز ظلوا في إعراضهم الصوري ، في حالة ترقب للموقف في الشرق الأدنى ، إلى أن نشبت الحرب ، ودخلتها إنكلترا في المعسكر الغربي .

كان كتشنر آنذاك في لندن حيث عُهد إليه بوزارة الحربية ، فأبرق إلى سكرتيره السابق في مصر مخولاً إياه أن يستعلم من الأمير عبد الله ، بواسطة رسول سري ، عن موقف والده في حال نزاع يقع بين إنكلترا وتركيا ، وهل سيقف مع الإنكليز أم ضدهم[٢٧] . فكلف السكرتير بذلك تاجراً مصرياً يدعى « علي أفندى أصغر » تنكّر بزي حاج ، وقصد مكة في ١٩١٤/١٠/٢٠ ، وقابل الأمير عبد الله في الطائف ، وسلمه رسالة المستر « ستورز » ، فعرضها الأمير على والده الذي جمع ولديه فيصلاً وعبد الله ، واستمزج رأيهما ، فنصحه الأول بالتريث ومراقبة الحوادث عن كثب ، باعتبار أن الضمانات غير متوفرة ، والبلاد العربية غير مستعدة للثورة ، وارتأى الثاني القيام بثورة . عندئذ أمر الحسين بصرف الرسول أميناً مكرماً مع جواب من الحسين فيه من الغموض ما ليس يعني الرفض ولا القبول[٢٨] ، قال فيه إنه راغب في الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا العظمى ، ولكنه مع ذلك غير قادر على أن يغير موقف الحياد الذي يفرضه عليه مركزه الديني في الإسلام ، ولمّح أنه قد

---

(٢٤) دكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٤٤ .

(٢٥) مذكرات الأمير عبد الله ص٨٤ .

(٢٦) أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق .

(٢٧) دكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٢٨) دكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٤٥ ؛ مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٢ .

يستطيع إيقاد نار الثورة إذا ما اضطره الأتراك إلى ذلك، على شرط أن تتعهد له إنكلترا بتقديم مساعدة فعالة، فأبرق السكرتير بذلك إلى اللورد كتشنر.

•

تلقى اللورد هذا الجواب بعد أن كان قد تلقى رسالة من السير «جون ماكسويل» قائد القوات البريطانية في مصر، بعث بها إليه في ١٦/١٠، من القاهرة يقول «إنني لا أعرف ما هي سياسة وزارة الخارجية، ولكنني أعتقد أنه يجب التقرب إلى العرب المحيطين بمكة واليمن، وتأليبهم على الأتراك»، فابرق كتشنر في ٣١/١٠، بنص رسالة جوابية بقصد إيصال مضمونها إلى الأمير عبد الله، وقد استهلها بإعلان نبأ دخول تركيا في الحرب، وضمّنها وعداً قاطعاً من إنكلترا بأنها تضمن للحسين، في حالة وقوفه وأتباعه في جانب إنكلترا ضد تركيا، بقاءه في منصب شرافة مكة، مع احتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته، وأنها ستحميه ضد كل اعتداء خارجي، وعهداً بأن تساعد العرب في تحقيق حريتهم، بشرط أن يتحالفوا مع بريطانيا، مع التلميح للحسين بإمكان الاعتراف به خليفة للمسلمين، فيما إذا دعمه المسلمون وبايعوه بهذا المنصب(٢٩).

وبالرغم من أن عرض الإنكليز قد اقتصر على وعود عامة، حاولت بها أن تكسب الحسين، مع حصر مساعدتها له بتأييد كيانه في الحجاز، وإرضاء طموحه الذاتي بجعله خليفة على المسلمين، أما بالنسبة للقضية العربية العامة فليس هناك سوى مجرد وعد عام بالمساعدة في سبيل الحرية، دون تحديد للأقطار العربية التي ستساعدها، ولا مدى هذه المساعدة، ولا مدى الحرية التي ستساعدهم في إحرازها، إذ بقيت هذه الأمور كلها عبارة عن ألفاظ عامة مطاطة(٣٠). بالرغم من ذلك كله فهم الحسين من هذه البرقية أنها دعوة للقيام بالثورة، وأن ما جاء فيها خطوة واسعة إلى الأمام، رأى فيها أشياء محسوسة لم يكن يراها من قبل في الكتب البريطانية السابقة، أشياء فتحت أمامه أبواب الأمل في تحرير العرب، فبدأ يوجه جهده إلى تحقيق تلك الغاية بحيث أوعز إلى ولده عبد الله بأن يكتب جواباً لها بعدم مقدرة الشريف على المجاهرة بأي عمل عدائي للأتراك قبل استكمال الاستعدادات اللازمة، وطلب إمهاله بعض الوقت للنظر في جميع الاحتمالات، ثم يجمع قواته وينتهز

---

(٢٩) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢١٢ــ٢١٣؛ دكتور أ. ع. عبد الكريم، المصدر السابق؛ دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص٤٥.

(٣٠) دكتور أ. ع. عبد الكريم، المصدر السابق.

الفرصة المؤاتية لإعلان الثورة، ووعد بأن يكتب إلى المستر ستورز في هذا الموضوع متى حان الأوان. وهكذا توقفت الاتصالات مؤقتاً لتستأنف ثانية بعد ثمانية أشهر[٣١].

وبينما انصرف الحسين إلى دراسة الموقف من جميع وجوهه إذ أرسل رسلاً بكتب منه إلى أمراء العرب، كما أرسل فيصلاً إلى دمشق فالآستانة وعلياً إلى المدينة، كما مر معنا في الفصل السابق، انصرف الإنكليز إلى متابعة التفاوض مع بقية أمراء الجزيرة العربية، وزعماء الحركة العربية في مصر، ومختلف الجهات تلك التي بدؤوها عند نشوب الحرب.

حينما دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط تبخرت آخر ذرة من الأمل الذي كان يراود إنكلترا في وقوفها على الحياد. فأدركت حينئذ ما سيكون لهذا الانضمام، إلى جانب الأعداء، من نتائج خطيرة على سير الحرب، وما سيستفيده الألمان من الأوضاع الجغرافية والعوارض الطبيعية، والقوى العسكرية التي تملكها تركيا، ومقدار القوة المعنوية التي سيعتمدون عليها من كون السلطان العثماني هو خليفة للمسلمين أيضاً، وإعلانه للجهاد سيحدث، ولا شك، تأثيراً عميقاً في نفوس أهالي المستعمرات الفرنسية والإنكليزية المسلمين، لا سيما الجنود منهم. لذلك رأت أن تستفيد من قوة العرب للحد من الإمكانات التي حصلت عليها ألمانيا باجتذابها الدولة العثمانية إلى جانبها[٣٢]، فبدأت في العمل فوراً لإحداث الإضطرابات في أرجاء العالم العربي، ومجابهة إعلان تركيا الجهاد بنشاط كبير، لمحو أثره، وتفادي خطره العظيم على موقف الحلفاء. فاتصلت بواسطة رسلها الذين وزعتهم في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية بابن سعود أمير نجد، والشيخ مبارك الصباح أمير الكويت، والأمير محمد علي الإدريسي أمير العسير، والشيخ العربي خزعل باشا أمير المحمرة الواقعة على حدود الأراضي الإيرانية الذي وعدته بأن تعينه والياً على البصرة مدى الحياة[٣٣]. كما اتصلت بالسوريين العرب من زعماء الجمعية اللامركزية العثمانية وجمعية «العهد» الموجودين في القاهرة، وخاصة بعزيز علي المصري والشيخ رشيد رضا، ودارت المفاوضات مع هؤلاء حول ما جاء في برقية اللورد كتشنر إلى الشريف حسين، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة إيجابية. ذلك أن إنكلترا التي هدفت إلى إقناع العرب بالتحالف مع إنكلترا ضماناً لمستقبلهم، اصطدمت برغبة هؤلاء الزعماء — الذين كان باستطاعتهم أن يؤثروا على بني قومهم في سورية ومختلف ولايات الدولة العثمانية، ودفعهم إلى الثورة

---

(٣١) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٣٢) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٤٠ — ٤١.

(٣٣) Y.H. BAYUR, Ibid. I, p. 227.

ضدها ــ في أن تضمن لهم استقلال البلاد العربية ، كشرط أساسي لدعوة العرب إلى الثورة ، بينما لم تكن السلطات البريطانية في مصر مستعدة لإعطاء مثل هذا الضمان[٣٤] . لقد طلب منهم عزيز المصري ، عندما فاتحوه بأمر الثورة ، أن يعلنوا هم وحلفاؤهم أن لا طمع لهم في أي قطر من الأقطار العربية ، وأن يتعهدوا للعرب بتحقيق أملهم بالوحدة والاستقلال التامين ، وأن لا يُنزلوا جيوشاً إنكليزية في العراق ، ولا جيوشاً فرنسية في سورية . ولما سأله المقدم ج. ف. كلايتون ، مدير المخابرات العسكرية البريطاني في القاهرة ، الذي تولى مع المستر ستورز مهمة الإتصال بالزعماء العرب في القاهرة ، عن وسائله لتحقيق هذا الاستقلال بأيدي العرب أنفسهم ، قال إنه يستطيع أن يستأجر باخرة تقله وبعض أصحابه إلى البصرة حيث يؤلفون قوة تزحف نحو الشمال والغرب ، وفي حالة نجاح الخطة يكون من واجب الحلفاء أن يمدوه بالسلاح والذخيرة اللازمين ، وإذا لزم الأمر بالنجدات العسكرية . ولكن بشرط أن تكون فرنسية في العراق وإنكليزية في سورية[٣٥] . لكن الإنكليز لم يكونوا على استعداد للموافقة على هذه الشروط فضلاً عن أنهم شعروا بأن إمكانات عزيز ووسائله ضعيفة ومطالبه كثيرة ، وإذا كان ثمة احتمال لنجاح الثورة على يده فإنها لا تحقق لهم الاتساع والسيطرة الاستعمارية التي يتوخونها منها[٣٦] .

اتصل الإنكليز في الوقت نفسه بأعضاء الجمعية اللامركزية ، إذ تباحث المستر « رونالد ستورز » مع زعمائهم وسألهم عن خططهم فيما لو دخلت تركيا الحرب ، وعن المساعدة التي يستطيعون أن يقدموها للحلفاء في مقابل مؤازرة هؤلاء لهم في الحصول على الاستقلال ، وعما إذا كان باستطاعتهم أن يقوموا بأعبائه ، فأفصحوا له عن أملهم في الوصول إلى هذه الغاية فيما إذا كان انهيار الدولة العثمانية أمراً لا بد منه . وأنهم على استعداد للعمل على استقلال بلادهم ، وتأييد كل حركة في هذه السبيل . وبعد اتصالات عديدة تم الاتفاق على أن يكتبوا شروطهم ، ويرسلها السير « رونالد ستورز » إلى الحكومة البريطانية ، حتى إذا وافقت عليها أعلنتها رسمياً بواسطة شركة « رويتر » للأنباء بحيث تكون معروفة ومذاعة على ملأ الناس . وعلى أن تتعهد بريطانيا بحمل حلفائها على قبولها ، والتعهد بها للأمة العربية ، كي لا يبقى أمامها أي مجال للطمع في أراضيها . وفي مقابل ذلك تتعهد الهيئات السياسية العربية بالسعي لتفجير الثورة العربية في كل مكان من بلاد العرب ، وشل حركة الجيوش العثمانية . وقد كتب اللامركزيون البيان المطلوب إذاعته وأرسل فعلاً إلى لندن . وكان

(٣٤) جلال يحيى ، المصدر السابق ، ص١٤٥ .

(٣٥) أسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية ، ص٧٤ ــ ٧٥ .

(٣٦) مؤرخ الثورة العربية ، الملك فيصل الأول ، ص١١ .

من مقتضاه أن يبعثوا برسل إلى البلاد العربية لدرس الحالة فيها، والاتصال بزعمائها ومفكريها، واستطلاع آرائهم في الموضوع، على أن تتولى دار العمادة البريطانية دفع نفقاتهم. وبناء على ذلك غادر محب الدين الخطيب القاهرة متوجهاً إلى البصرة، كما سافر الشيخ محمد القلقيلي إلى سورية وفلسطين. وبينما قُبض على الأول من قبل الإنكليز في البصرة ـ لاختلاف في وجهات النظر بين سياسة الإنكليز في الهند والمكتب البريطاني العربي في مصر حول المسألة العربية ـ وكان الهجوم الإنكليزي على العراق قد بدأ إثر اشتراك تركيا في القتال إلى جانب ألمانيا، وظل ما يقارب من عشرة أشهر في غياهب السجن، عاد الثاني على الفور، ولم يطل الإقامة في دمشق وبيروت خوفاً من سوء العاقبة. وبعد أسابيع عاد البيان من إنكلترا مشوهاً مبتوراً، فامتعض اللامركزيون وقطعوا مفاوضاتهم مع السلطات الإنكليزية وأمسكوا عن العمل معهم(٣٧).

إلى جانب هذا النشاط الذي بذله البريطانيون في مصر، كان لهم أيضاً نشاط مماثل في العراق. فما إن أعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا العظمى حتى غادر القنصل البريطاني في البصرة المدينة ملتجئاً إلى «المحمرة». ومن هناك أرسَلَ أحدَ رجال أميرها، الشيخ خزعل، مع رسالة سرية إلى السيد طالب النقيب يرجوه الحضور ليعرض عليه بعض المقترحات البريطانية بشأن مستقبل العراق. فجاء السيد طالب، ثم اصطحب معه الأمير خزعل، وتوجه الاثنان إلى مقر القنصل حيث استمع إلى المقترحات البريطانية، وهي تتلخص بأن يُقدم طالب النقيب للإنكليز جميع المساعدات اللازمة لاحتلال البصرة لقاء تنصيبه حاكماً عاماً على ولاية البصرة ولوائَي الناصرية والعمارة، وجَعْل اللغة العربية لغة رسمية في دوائر الحكومة والمدارس، وتعيين موظفين عراقيين في جميع مناصب القضاء، وفي الدوائر الرسمية، وغير ذلك من الأمور التافهة التي لا تؤمن المطالب القومية التي طالما ناضل طالب من أجلها ضد الترك.

فاستمهل طالب القنصل بضعة أيام للتفكير في هذه المقترحات، وبعد أن تباحث بشأنها مع أخوانه الذين سبقت لهم جهود في النضال معه، عاد إلى المحمرة سراً وتقدم بمقترحات مقابلة جاء فيها: إن البلاد العربية ترغب في التخلص من نير الاستعمار التركي لتعيش مستقلة، لا لتبتلي باستعمار جديد، لذلك فإنه يتعهد بإعلان الثورة ضد الترك مستعيناً بالضباط والجنود العرب، وبالعشائر العراقية، بدون تدخل الجيش البريطاني، على أن يمده الإنكليز بالسلاح والذخيرة والمال

(٣٧) أمين سعيد، الثورة العربية، ج١، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

والطائرات والطيارين والفنيين فقط، وأن تبقى البواخر والقطعات البحرية الإنكليزية في الخليج العربي، خارج مياه شط العرب، وألاّ تُنزل بريطانيا جيوشاً في البلاد، إلا إذا اشتركت الجيوش الألمانية في القتال، أو إذا اقتضت الضرورة العسكرية. وإذا تم إخراج الترك من البلاد، تؤسس فيها دولة مستقلة دستورية ملكية أو جمهورية، حسب رغبة الشعب، تحت حماية الإنكليز، على أن تُمنح إنكلترا امتيازات اقتصادية، ويكون المستشارون الفنيون منهم دون سواهم. أما النفقات التي يتكبدها الإنكليز في مساندة الثورة فتعتبر قرضاً على البلاد، يسدد على شكل أقساط من الميزانية، تنتهي الحماية بتسديده، وتبقى الإمتيازات الاقتصادية وحدها نافذة. وأخيراً أن تصبح هذه الشروط أساساً لمعاهدة دولية يوقع عليها مندوب رسمي عن الحكومة البريطانية.

ولما رفضت السلطات البريطانية هذه المقترحات، وأصرت على مقترحاتها السابقة أجابها السيد طالب النقيب برسالة ضمنها العبارة التالية «إني لا أوافق على ذلك بتاتاً، وإني ساعاضد الترك مهما كلف الأمر ...»[٣٨].

لقد جاء ذكر لهذه المفاوضات في كتاب السير «أرنولد ويلسون»، الذي شغل بعد الاحتلال الإنكليزي للعراق منصب المفوض السامي الإنكليزي المدني، لكن المؤلف لم يورد من تفصيلاتها سوى قوله «إن السيد طالب تفاوض معنا، بواسطة شيخ المحمرة، وكانت مطالبه تحمل من سمات المطامع الشخصية ما لم نستطع قبوله أساساً للتفاوض، فاضطر إلى الالتجاء إلى المناطق الداخلية في الجزيرة العربية»[٣٩]. ومما لا شك فيه أن هذا القول ليس إلا من مغالطات الإنكليز الطامعين في الاحتلال والحكم المباشر للبلاد. أما السيد طالب النقيب الذي أصبح منبوذاً من الإنكليز، فسرعان ما تأكد لديه أنه، في الوقت نفسه، ممقوت من الأتراك الذين قامت الدلائل لديه على أنهم عازمون على اعتقاله مع جميع الإصلاحيين في البصرة، متى وصلت الجيوش العثمانية التي وُجهت إليها لمقاومة الهجوم الإنكليزي المنتظر. فترك البصرة بحيلة جازت على واليها التركي، بدعوى أنه مكلف بمفاوضة ابن سعود من قبل أنور باشا. وقبل وصوله إلى الكويت جاءته رسالة، بواسطة الأمير خزعل من القنصل الإنكليزي، فيها تعديل لمقترحات الإنكليز السابقة، بحيث يتعهدون له بجعله حاكماً عاماً مدى الحياة على العراق من الفاو (مدخل شط العرب) إلى آخر نقطة يصل إليها الاحتلال الإنكليزي، فيما إذا التزم جانب الحياد في أثناء الحرب. فأجاب بالرفض قائلاً «إني

(٣٨) سليمان فيضي، المصدر السابق، ص١٨٨ ــ ١٩٠.

(٣٩) SIR ARNOLD T. WILSON, Loyalties Mésopotamia, I, p. 18.

عزمت على السفر إلى نجد ، فابحثوا عمن يعينكم على استعمار بلاده ، واعلموا بأن الذي لا يرضى بحكم الأتراك ، أخوانه في الدين ، حريٌّ به أن يأبى حكم الإنكليز »[٤٠] . وقد كرر الإنكليز عروضهم عليه ، في أثناء مروره بالكويت بواسطة قنصلهم فيها ، الذي أعلمه أن التعليمات التي تلقاها تقضي بأخذه إلى الباخرة الإنكليزية الراسية قرب الفاو ، والتي تحمل على ظهرها السير « برسي كوكس » ، المقيم البريطاني في الخليج العربي سابقاً ، وأن يبقى فيها إلى أن يتم احتلال البصرة ، فيدخلونها سوية : السيد طالب حاكماً عاماً ، والسير برسي كوكس ممثلاً للحكومة البريطانية ، فما كان من طالب النقيب إلا أن أجاب قائلاً بأن ذلك لو جرى يكون وصمة شنيعة وجريمة وطنية لا تغتفر ، ولما أخذ القنصل في إقناعه استمهله ريثما يفكر في الأمر ، لكنه أسرع في الفرار من الكويت خوفاً من الإعتقال[٤١] . ومع ذلك لم ينج من الاعتقال كما سنرى .

في الواقع كان الإنكليز يتحاشون في بداية الحرب ــ وبخاصة في العراق ــ أن يوقعوا أي عهد يعترفون فيه باستقلال البلاد ، ذلك أنهم كانوا يعتمدون على موارد قوتهم أنفسهم ، ولا يرغبون في محالفات قد تعقد أمامهم قضية تقرير مصير العراق[٤٢] . فقد جاء في كتاب السير « آرنولد ويلسن » قوله « إننا لم نستطع أن نعطي أي زعيم من زعماء العرب أي عهد يتناول تشكيل حكومة عربية في العراق ، إذ لم نجد أن الوقت قد حان لوضع مخطط يهدف إلى هذه الغاية ، بل كانت فكرة إقامة دولة عربية مستقلة بمثابة الوهم . وقد حددت رسالة برقية من اللورد « هاردينج » ، نائب جلالة الملك في الهند ، المسألة بقوله إنه يعتبر أن اتخاذ أي إجراء من شأنه أن يُقر تسوية نهائية لمسألة العراق ، وباقي أجزاء السلطنة العثمانية ، شيء سابق لأوانه ، ولا ينتج عنه سوى مزيد من تعقيد الأمور »[٤٣] .

بهذه السياسة لم يستطع الإنكليز ــ في أثناء تقدمهم في البلاد ــ أن ينالوا إلا قليلاً من مساعدة العشائر العربية في العراق ، ذلك أن هذه القبائل ، شأنها كشأن بقية السكان ، لم تقبل التعاون مع الإنكليز ، لأن هؤلاء ــ عدا عن رفضهم التعهد بما يؤمن للعرب ما يطمئنهم على مستقبل بلادهم ــ لم يكونوا على استعداد أن يقدّموا أي إغراء لرؤسائها ، مما جعل هؤلاء يفضلون مساعدة الترك ضدهم ، خاصة وأن الخوف من جلاء الإنكليز عن الأراضي التي يحتلونها ، ثم احتمال عودة

---

(٤٠) سليمان فيضي ، المصدر السابق ، ص١٩٠ ــ ١٩٢ .

(٤١) المصدر السابق ، ص١٩٣ .

(٤٢) فيليب آيرلاند ، المصدر السابق ، ص١٨٣ .

(٤٣) SIR ARNOLD T. WILSON, Ibid. I, p. 17.

الترك إليها وانتقامهم منهم كان يمنعهم من أن ينضموا إلى الإنكليز[٤٤]. وهكذا فشل الإنكليز في استمالة أحد من العراقيين، ولم يُجدهم فتيلاً ما حاولوه من إغراء زعماء من الدرجة الثانية. إذ يروي المحامي سليمان فيضي، النائب في مجلس المبعوثان، في مذكراته المسماة «في غمرة النضال» حديثاً عن قدوم لورنس إلى البصرة عام ١٩١٦ ــ قبل شهرين من نشوب الثورة العربية ــ ومحاولة إغرائه (هو) ودفعه إلى العمل للثورة ضد الترك، إذ أخذ يفتل له في الذروة والغارب طويلاً، لكنه لم يصل إلى نتيجة ما، إذا أفهمه المحامي سليمان بأن العرب غير واثقين من نيات الإنكليز، ولا يستطيعون أن يمدوا يدهم إليهم إلا بشرط أن يضمنوا لهم حريتهم واستقلالهم الناجزين بعهود موثقة وبتوقيع المسؤولين في الحكومة البريطانية، فانكفأ لورنس وغادر البصرة فجأة[٤٥].

لم يكن أشد من سياسة بريطانيا مكراً في هذه الفترة من الحرب وهي في بدايتها:

تريد من العرب أن يثوروا على الدولة العثمانية مستغلة ما كان بينهم وبينها من نفور وخلاف فيما سبق الحرب من سنين، ولكنها لا تمنحهم من المطالب التي كانوا يناضلون في سبيلها سوى وعود مبهمة: دفاع عن بلادهم ضد كل خطر أجنبي، أو مناصب محلية تحاول أن تغري بها ذوي النفوس الضعيفة. أما ضمان استقلال بلادهم ووحدتها فهذا أبعد من أن تلتزم بالتعهد به. وهي من جهة أخرى تزن الأشخاص الذين تتعامل معهم بميزان ما لهم من قوة أو ضعف، فتمنح ما تمنح بنسبة ما تستفيد من قوتهم، أو بنسبة ما يجره إليها موقع بلادهم الجغرافي من مساعدة ونفع، هذا إذا لم تستطع نوال مبتغاها بالإغراء دون مقابل. فإذا فاضلت مثلاً بين الحسين شريف مكة وبين ابن سعود أمير نجد، فإنها تفضل الحسين على ابن سعود، نظراً للمزايا التي يتمتع بها هو وبلاده من حيث موقعها الاستراتيجي الممتاز، فضلاً عن قوته وسيطرته على قوة بشرية من القبائل ليس لابن سعود مثلها في ذلك الوقت. أما ابن سعود القابع في وسط الهضبة النجدية المعزولة عن البحر ــ فيما عدا الإحساء التي يستطاع الاستغناء عن مساعدة من يملكها (إلا إذا كان على قوة خطيرة) والاستعاضة عنها بمساعدة باقي أمارات الخليج ــ فليس له اتصال بالترك من الشمال، ولا بقناة السويس، وليس له ذلك النفوذ الديني الواسع. وإنكلترا ــ عدا ذلك ــ لم تفطن إلى أهميته إلا بعد احتلاله الإحساء عام ١٩١٣ وانتزاعها من أيدي الترك، وتجريد رجال حاميتها من سلاحهم بشرزمة قليلة من رجاله، واستعماله ذلك السلاح في غزواته الجديدة. ثم إشرافه إشرافاً مباشراً على الخليج

(٤٤) Ibid. pp. 16-19.

(٤٥) سليمان فيضي، المصدر السابق، ص٢٠٨ ــ ٢٢٦.

العربي، بعد أن كان في نظرها مجرد زعيم بدوي كغيره من المشايخ والأمراء[٤٦]. لكنها كانت ـــ مع ذلك ـــ غير واثقة من قوته، فضلاً عن أن بجانبه خصماً لدوداً لا يقل عنه قوة هو ابن الرشيد أمير حائل، فإذا ما اتصلت به وحاولت مفاوضته فليس لغاية أكثر من أن يهاجم خصمه المحالف للترك، وإثارة الحرب بينهما، أي أن يقوم بدور محلي لا يؤثر إلا من بعيد في مجرى الحوادث العامة، أو حتى للوقوف على الحياد في الحرب الدائرة، إذا لم تستطع دفعه إلى تجريد الحسام.

أما النزعات المحلية لأمراء شبه الجزيرة العربية، بل استقلالهم المحلي، وتوسعهم في حدود ضيقة على حساب الترك، بشرط أن يبقوا موالين لها أو تحت حمايتها، فهذا مما لا تمانع فيه، بل تشجعه ما دام لا يتجاوز نطاق حدودهم المحلية إلى المحيط العربي، الذي لها أو لحليفاتها مطامع فيه، وما دام هو يخدم سياستها الإستعمارية، ويساعد في حماية طريقها إلى الهند، ولا يقف مانعاً من استغلالها الاقتصادي لخيرات البلد، وهذا من الكفاية لها بحيث لا تطمع في احتلال فعلي تغني عنه التبعية الوثيقة.

ولسوف تثابر إنكلترا على هذه السياسة فترة من الزمن إلى أن ترغمها الظروف وخطأ حسابها في تقدير قوة العرب، وصلابتهم ومقدار تعلقهم بالمبادىء السامية، إلى تغيير خطتها في بعض المناطق[٤٧]، وإلى التمسك بها في مناطق أخرى جهد المستطاع. ومع ذلك تظل سياسة ممثليها في الهند مختلفة عن سياسة ممثليها في مصر حول هذه الناحية. فبينما اقتنع المكتب البريطاني العربي في القاهرة، في مفاوضاته مع العرب ـــ كما سيأتي الحديث عنها ـــ بمنحهم وعوداً بالإستقلال، وتشكيل دولة عربية من طوروس إلى عدن، مع الحرص على إحاطة قضية الوحدة العربية بالغموض والإبهام وتقييدها بالتحفظات، ظلت حكومة الهند على إصرارها في عدم التفاوض مع العرب، وعدم إعطائهم أي ضمان بالإستقلال[٤٨]، واستمرت في اتباع سياسة الفتح والاحتلال، وترسيخ قدم بريطانيا في المناطق التي تريد استعمارها، ولو جلبت على نفسها عداء السكان واشتراكهم في مقاومتها جنباً لجنب مع أعدائها الترك. وما كانت تحيد عن هذه السياسة إلا قليلاً بعد أن تدرك مقدار خطرها على حملة العراق. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان رجال الاستعمار البريطاني العاملون في حقل السياسة العربية منقسمين في رأيهم إلى فريقين: الأول يعتقد أن مصلحة بريطانيا

(٤٦) جان جاك بيريبي، الخليج العربي، ص١٣٨.

(٤٧) أرسكين تشايلدرز، المصدر السابق، ص٦٥.

(٤٨) Mme BERTHES GEORGE GAULIS, La Question Arabe, pp. 73-77.

تقضي بأن تسيطر على القسم الجنوبي للبلاد العربية وأن تستولي على عدن والخليج العربي والعراق الأسفل، من بغداد إلى الجنوب، والثاني يرى أن تسيطر بريطانيا على مصر وتجعل من البحر الأحمر بحيرة إنكليزية، وأن تستولي على سورية وبذلك تصون طريق الهند، وتسيطر على الأماكن المقدسة: مكة والمدينة والقدس، وبهذا تفت في عضد الترك، وفي مقدرتهم على توطيد عرى الوحدة الإسلامية. وكان يمثل الفريق الأول رجال حكومة الهند الذين نجحوا في توثيق الصلات بين الاستعمار البريطاني وبين أمراء شبه جزيرة العرب، وفي بسط النفوذ البريطاني في الخليج العربي، ويرشحون ابن سعود لزعامة العرب. أما الفريق الثاني فكان يضم موظفي الحكومة البريطانية في المكتب العربي بالقاهرة Arab Bureau of Cairo، وهؤلاء يرشحون الشريف حسين لزعامة العرب(٤٩).

وجرياً على هذه السياسة تبادر إنكلترا، منذ الأيام الأولى لدخول تركيا الحرب ــ وبغية توطيد مركزها في جنوب البلاد العربية ــ إلى الاعتراف باستقلال إمارة الكويت تحت الحماية البريطانية ١٩١٤/١١/٣، في مقابل اشتراكها في الحملة المزمع تسييرها لاحتلال العراق، بمذكرة قدمها المقيم البريطاني العام في الخليج العربي إلى أميرها الشيخ مبارك الصباح، جاء فيها أنه مكلف من قبل الحكومة البريطانية بأن يقدم إليه شكرها وامتنانها لجميل ولائه نحوها ومساعدته القيمة لها، وأن يدعوه إلى شن الهجوم على «أم القصر» و «صفوان» و «بوبيان» (جزر واقعة بين الكويت ومدخل شط العرب) واحتلالها، وأن يسعى بالاشتراك مع الشيخ خزعل، والأمير عبد العزيز آل سعود، وغيرهم من الشيوخ الموالين لإنكلترا إلى تحرير البصرة من الحكم العثماني، حتى إذا تم ذلك بُذل الجهد الكبير لمنع الإمدادات التركية من الوصول إليها، أو إلى «القرنة» ريثما تصل الجيوش البريطانية المزمع إنزالها في جنوبي العراق. وأن مدرعتين حربيتين بريطانيتين ستدعمانهم عند الهجوم على البصرة، وأن المقيم العام مكلف، من قبل حكومته، بأن يتعهد له، لقاء هذه المساعدة القيمة، بأن الإنكليز سوف لا يعيدون البصرة إلى الترك، بعد احتلالها، وأن الأراضي الواقعة بين «الفاو» و «القرنة» (بين مدخل شط العرب من الجنوب ومنتهاه في الشمال حيث التقاء الفرات بالدجلة)، بالإضافة إلى الأراضي التي في حوزته الآن، وإلى الجزر التي سيحتلها، ستبقى له ولذريته، معفاة من جميع الضرائب والعائدات الأميرية(٥٠).

ثم تعقد بريطانية إتفاقية «صداقة وولاء» مع السيد محمد علي أحمد الإدريسي، أمير العسير في

---

(٤٩) رسائل الأهالي، على طريق الهند، ص ٣٢٠ ــ ٣٢١.

(٥٠) J.C. HUREWITz, Ibid. II, p. 4, D. N°3.

١٩١٥/٤/٣٠، وقعها باسمه السيد مصطفى بن السيد عبد العلي، وعن الحكومة البريطانية معتمدها في عدن الميجر جنرال «شو SHAW» غايتها إعلان الحرب على الترك[٥١]. وقد علق الإنكليز أهمية كبيرة للتحالف مع إمارة العسير، لأن خططهم الحربية تقضي بقفل البحر الأحمر أمام النشاط التركي، وللعسير موانئ عديدة على هذا البحر، وعليهم أن يطمئنوا إلى عدم استخدامها ضدهم، فضلاً عن استفادتهم من موقع العسير في الفصل بين القوات التركية في الحجاز والقوات التركية في اليمن، والحيلولة دون اتصالها بعضها ببعض، بحيث يخف الضغط العثماني على الحجاز من جنوبه، وعلى المحميات البريطانية في الجنوب، بفعل الضغط الذي تتعرض له القوات العثمانية في اليمن من طرف قوات العسير[٥٢].

تعهد الإدريسي، في هذه المعاهدة، بقتال الترك، وبذل الجهد لطردهم من اليمن، وأن يتعقبهم ويوسع أراضيه على حسابهم، وأن عمله هذا موجه ضدهم فقط، بحيث يمتنع عن كل حركة عدائية ضد الإمام يحيى، ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك. وتعهدت الحكومة البريطانية، من جهتها، بالمحافظة على أراضيه ضد أي اعتداء يقع على سواحل بلاده، وبضمانة استقلاله في أراضيه الخاصة، وباستعمال كل الوسائط السياسية في ختام الحرب للتأليف بين مطالبه وما يناقضها من مطالب الإمام يحيى، أو أي خصم آخر له، وبمده بالمال والمؤونة طوال مدة الحرب، على أن يكون ذلك متناسباً مع ما يقوم به من أعمال[٥٣].

استمرت المعاهدة بين الإدريسي والإنكليز طوال الحرب، وقد علق هؤلاء عليها أهمية كبيرة، حتى إنهم سلموا إليه ميناء الحديدة الذي احتلوه في النهاية. لكن إمارة العسير لم تكن من القوة بحيث تستطيع مهاجمة الترك في اليمن، بالرغم من أن أميرها أعلن الحرب عليهم في بلاده والجزر المجاورة له، وكان أول أمير عربي قام بهذا العمل[٥٤]. ومع ذلك لم يتحقق المفعول الإيجابي للمعاهدة لأن الإدريسي اكتفى بتوطيد أقدامه في العسير، واقتصر الأمر على بقائها في نطاق التدبير الوقائي ضد ما يحتمل أن يقوم به الإمام يحيى، من اعتداء على الإنكليز باعتبار أنه قد بقي، لوحده بين أمراء هذه المنطقة الغربية من الجزيرة، موالياً للأتراك طوال مدة الحرب[٥٥]. وعلى كل حال اعتبر الإنكليز

(٥١) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٣٢٠.

(٥٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق.

(٥٣) HUREWITZ, Ibid. II, p. 12, D. N°7.

(٥٤) صلاح الدين المختار، المملكة العربية السعودية، ص١٧٣، ج٢.

(٥٥) محمد شفيق غربال، المصدر السابق، ص٩٥.

إمارة الإدريسي حليفة لهم أكثر من كونها محمية، وعقدوا مع أميرها إتفاقية لاحقة ١٩١٧/١/٢٢ اعترفوا له فيها بكون جزائر فرسان التي انتزعها من أيدي الترك خلال الحرب، جزءاً من أراضيه التي اعترفوا باستقلالها(٥٦).

أما شبه جزيرة قطر، ففي المعاهدة التي كانت بريطانيا قد عقدتها مع الدولة العثمانية في ١٩١٣/٧/٢٩(٥٧)، تخلت تركيا عن جميع ما لها من مدعيات فيها، فتُركت لحكم شيخها قاسم بن ثاني وخلفائه، كما في السابق، ولم تعمد بريطانيا إلى بسط حمايتها عليها حتى عام ١٩١٦، حينما عقدت مع شيخها عبد اللّٰه بن قاسم، الذي خلف والده على الإمارة إتفاقية في ١٩١٦/١١/٣، حوفظ فيها على العهود التي كان قطعها الشيخ على نفسه فيما سبق — شأنه في ذلك كشأن جميع مشايخ الشاطىء المهادن في «أبي ظبي والشارقة ودبَيّ والعجان ورأس الخيمة وأم القوّين» — وبالاتفاق معهم، على مكافحة تجارة الرقيق، والمحافظة على سلامة الملاحة في الخليج العربي، وعدم التنازل عن أي شبر من أراضيه لغير بريطانيا التي يتخلى لها عن إدارة سياسته الخارجية، ومنح الرعايا البريطانيين امتيازات اقتصادية. وقد تعهد الشيخ عبد اللّٰه في هذه الاتفاقية الجديدة بما تعهد به شيوخ الأمارات المذكورة، وأعطى حق التمتع بالإمتيازات التي تمتعوا بها، على أن يمنع استيراد وتجارة الأسلحة في إمارته، وأن يكون له حق شراء ما يلزمه منها، ومن الذخيرة من المخزن البريطاني الحربي في مسقط، أو من أي مكان آخر توافق عليه إنكلترا، لاستعماله الشخصي وتسليح أتباعه، بشرط أن لا تخرج من منطقته وأن لاتباع للأهالي، بل يقصر استعمالها على توطيد الأمن الداخلي، والدفاع الخارجي. كما تعهد بأن لا يعقد علاقات خارجية مع أي دولة من الدول أو أن يقبل ممثلاً من ممثليها، وأن يقبل في بلاده ممثلاً لبريطانيا، ويسهل أمور التجارة لأبنائها، ويسمح بإقامة مكاتب للبريد وشبكة تلغراف ... في أراضيه(٥٨).

وهكذا نرى أن إنكلترا لم تترك أميراً من أمراء العرب ممن ترتجي منهم الاستفادة — مهما كانت ضئيلة — إلا وبادرت إلى استمالته، وعقد محالفة معه. ولم يفلت من يدها سوى ابن الرشيد أمير حائل، وإمام اليمن يحيى حميد الدين، اللذين فضلاً الانضمام إلى الأتراك، أولاً لأن كليهما كانا حليفين لتركيا قبل الحرب، وأدركا أن بقاءهما إلى جانبها فيه فائدة لهما بعد الحرب. لأن الأتراك لا بد

---

(٥٦) HUREWITZ, Ibid. II, p. 12.

(٥٧) Ibid. Doc. 22, Doc. 11. Ibid. I, p. 269, D.N°108

(٥٨) Ibid. II, p. 22, D.N°11.

أن يقدروا لهما هذا الجميل فيما إذا أحرزوا النصر في النهاية . أما إذا هزموا فيبقى في استطاعة كل منهما أن يوطد أركان ملكه على أنقاض الهزيمة التركية . وقد استفاد الإمام يحيى فعلاً من هذه السياسة بعد الحرب ، وكان من الممكن أن يستفيد ابن الرشيد منها ، لولا أن العاصفة السعودية قد اجتاحت بلاده عقب الحرب العامة . كما أن من الأسباب التي حملت الإمام يحيى على البقاء موالياً للترك أنه كان لهم قوة كبيرة في اليمن ، يحسب لها الأمام ألف حساب ، ففشلت محاولة الإنكليز في فك معاهدته التي عقدها عام ١٩١١ مع السلطنة إثر ثورته عليها ، وفي جذبه إلى ناحيتهم والتحالف معهم ، بل بالعكس قدم للقوات التركية في بلاده العون المادي والمعنوي ، حتى استطاعت الاستيلاء على بعض المحميات (لحج والضالع) ، ودقت أبواب عدن . ولما كانت نهاية الحرب انسحب الأتراك وسلموه بعض هذه المحميات (الضالع) ، فحاول التشبث بها إلى النهاية[٥٩] .

خلاصة القول وبالرغم من أن المعاهدات الإنكليزية مع إمارتي الكويت والعسير ، والمعاهدة التي سنرى أن إنكلترا سنعقدها مع الأمير عبد العزيز بن سعود ، قد بقيت في النطاق السلبي أكثر من كونها إيجابية ، إذ لم تفدها في محاربة تركيا ، إلا أنها قد استفادت منها ، مع ذلك ، في منع هذه الأمارات من الانضمام إلى الأتراك ، وفي إحكام الحصار البحري على تركيا في البحر الأحمر ، وفي توطيد نفوذها السياسي على شاطىء الخليج العربي بأسره ــ مغتنمة هذه المناسبة النادرة ، ألا وهي نشوب الحرب العامة ــ ودعمت هذا النفوذ السياسي باحتلال عسكري للمراكز الهامة ، فاتخذت البحرين نقطة تجمع فيها قواتها التي حشدتها لاحتلال العراق ٢٣/١٠/١٩١٤ ، ثم احتلت مسقط في أوائل ١٩١٥ عسكرياً بحجة مساعدة سلطانها على قمع الثورة ، التي أعلنها عليه إمام عمان في ذلك العام بمساعدة قبائل الداخل[٦٠] . ثم بدأت باستمالة ابن سعود ضمن الخطة التي سارت عليها ، وهي بذل أقصى الجهود ، واجتذاب أكبر عدد من الحلفاء لمجابهة الأتراك في هذه الحرب ، متنافسةً في ذلك مع الترك في جهودهم المبذولة في السبيل نفسه ، متسابقة معهم لاقتسام الأمارات العربية المتعددة .

لم يكن ابن سعود بحاجة إلى من يغريه بالتعاون مع الحلفاء وبغض الترك ، لأنه كان مبغضاً لهم ناقماً عليهم ، لما لقيه أسلافه من جورهم والتنكيل بهم قتلاً وتمثيلاً[٦١] . وكان نفسه قد كتب إلى

---

(٥٩) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق .

(٦٠) دكتور صلاح العقاد ، الاستعمار في الخليج الفارسي ، ص١٩١ ؛ جان جاك بيريي ، جزيرة العرب ، ص٢١٣ .

(٦١) حسين خلف الشيخ خزعل ، تاريخ الكويت السياسي ، ص ١٠٦ .

الشريف حسين ، رداً على رسالته ، يقول إنه لن ينضم إلى حركة الجهاد ، وشرح له أنه لن يتعاون مع الأتراك(٦٢) .

قبل أن تنشب الحرب ويدخل الأتراك فيها ، أصبحت شبه الجزيرة العربية تعج بالعملاء السريين : من إنكليز وألمان وفرنسيين وأتراك وإيطاليين وروس وحتى من اليابانيين . أتوا من كل مكان : من السويس والبصرة وبومباي وطهران ، همهم أن يفتشوا عن حلفاء ينضمون إلى جانب دولهم في البركان الذي يكاد أن ينفجر . غير أن ابن سعود ، الذي كان شغله الشاغل أن يهتم بقضايا شبه الجزيرة العربية الداخلية ، لم يشعر بهبوب العاصفة ، وبالتالي فإن انتصاب مارد الحرب الجبار ، حينما انتصب ، كان مفاجأة تامة له . وإذا كان قد خطر له يوماً أن تنفجر الحرب ، فإنه حسب أن دخول تركيا فيها لمما يتيح له تحقيق غاياته في التوسع ، وأنها فرصة مؤاتية له كي ينقض على عدوه الحسين في مكة ، فيثأر منه لهزيمته أمامه عام ١٩٠٩(*) ، دون أن يسقط من حسابه أمر معارضة إنكلترا له(٦٣) . ولما استشار صديقه مبارك الصباح في هذا الأمر ، إثر نشوب الحرب ، حذره أشد الحذر من هذا العمل الصبياني . لذلك كان عليه أن يفكر ، ويمعن في التفكير قبل الإقدام على عمل ما . وانتهى به الأمر إلى إرسال ثلاثة كتب ، أنفذها مع بعض رجاله ، إلى ثلاثة من زعماء العرب : مبارك الصباح أمير الكويت ، وابن الرشيد أمير حائل ــ وكان بينهما عهد مصالحة ــ والشريف حسين ، يقترح عليهم فيها أن يعقدوا اجتماعاً للمذاكرة فيما قد يؤدي إلى اتفاق عله ينقذ العرب من أهوال الحرب القائمة(٦٤) ، والتحالف مع دولة من الدول لصون حقوقهم وتعزيز مصالحهم . ولكن أحداً منهم لم يلب طلبه بغير مواربة ، إلا خصمه القديم ابن الرشيد ، الذي صارحه « بأنه من رجال الدولة ، يحارب إذا حاربت ويصالح إذا صالحت » . أما الشريف حسين فقد أرسل إليه نجله الأمير عبد الله للنظر فيما تضمنته رسالته ، فاجتمعا على الحدود ، وافترقا دون أن يصلا إلى قرار ما(٦٥) .

وقبل ذلك كان قد أتاه الكبتين « شكسبير » . ممثل إنكلترا السياسي في الكويت ، موفداً من حكومته ، مزوداً بتعليمات تقضي بمباحثته في « أمر هو في مصلحة العرب » ، فيما إذا دخلت تركيا

---

(٦٢) جلال يحيى ، المصدر السابق ، ص١٤٧ .

(*) راجع عن ذلك كتابي « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني » ، ص٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

(٦٣) BENOIST MECHIN, Ibid. pp. 193-194.

(٦٤) ARMSTRONG, Ibid. p. 105.

(٦٥) أمين الريحاني ، تاريخ نجد الحديث ، ص٢١٨ ــ ٢١٩ ؛ دكتور ابراهيم عبدو ، انسان الجزيرة ، ص٩٧ .

الحرب، ويستحثه لالتزام جانب الإنكليز[٦٦]، لأن هؤلاء وقد قرروا مهاجمة البصرة، فيما إذا اشتركت تركيا في الحرب، رأوا أن في استمالة ابن سعود فائدة لهم. ذلك أن باستطاعته أن يجعل قبائل شمر (ورئيسها ابن الرشيد) والمنتفك (ورئيسها عجيمى السعدون الموالي للترك) مضطرة للبقاء على الحياد، بدلاً من أن تهدد الجناح الأيسر للجيوش البريطانية، عندما تتقدم من الفاو إلى الشمال في العراق[٦٧]. كما أتاه، بعد دخول تركيا الحرب، وفد تركي من المدينة يحمل معه مبلغاً من المال، ويتزلف إليه بواسطة صديقه محمود شكري الألوسي، أحد أعضاء الوفد، كي يلتزم جانب الترك[٦٨]. واتفق وجود هذا الوفد مع قدوم طالب النقيب ومعه صديقاه سليمان فيضي، وعبد الوهاب المنديل من وجهاء البصرة، وضابط تركي مرافق، يستثير شهامته العربية لمقاومة الهجوم الإنكليزي على البصرة، فوقع في حيرة من أمره[٦٩]. وبينما كتب إلى الشريف حسين يعلمه بما طلب منه طالب النقيب، معبراً له عن حيرته، مستمداً منه الرأي، ووعد ــ غير جاد ــ طالباً النقيب بأنه سيسير على رأس جيش لمقاومة الإنكليز في البصرة، وهو في حقيقة الأمر ينوي التريث وكسب الوقت، ريثما تنجلي المعركة المنتظرة بين الترك والإنكليز عن نتيجة ما، في حين أبرق طالب من جهته إلى طلعت وأنور ينبئهما بموافقة الإمام على مساعدة العثمانيين[*] وأوصاهما بتجهيز الجيش الوهابي بالمؤن والذخائر[٧٠]، أتاه من مبارك الصباح ــ الذي كان يعتبره ابن سعود بمقام والده، لما كان له من أيادٍ بيضاء على أسرته التي استضافها لديه في الكويت، إبان محنتها عندما طردها آل الرشيد من الرياض، وقبل أن يستعيدها ابن سعود ــ ما يشعره بوجوب «الحذر من الوفد التركي والتصلب معه»، كما كانت قد أتته منه رسالة تحمل العبارات نفسها فيما يتعلق بمطلب الإنكليز[٧١]، ولم يكن قصد أمير الكويت من ذلك ــ على ما يظهر ــ سوى خوفه الشديد من تزايد نفوذ ابن سعود، وخشيته من أن تمتد أطماعه إلى الكويت نفسها، فيما إذا وثق صلاته بالترك أو بالإنكليز. لذلك زادت حيرة ابن سعود زيادة شديدة، وقد تشعبت أمامه السبل. لقد فهم من نصائح مبارك له أن

(٦٦) SIR ARNOLD WILSON, Ibid. I, p. 30.

(٦٧) J. PICHON, Le Partage Du Proche Orient, p. 75.

(٦٨) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص٢١٨.

(٦٩) ARMSTRONG, Ibid. p. 103.

(*) حينما أخفق طالب النقيب في استرضاء الترك، وفشل في مفاوضاته مع الإنكليز، داخل اليأس نفسه، فقرر الاستسلام للإنكليز على أن يُنفى إلى بومباي، وقضى أيام الحرب في الهند ثم عاد إلى العراق بعد انتهاء الحرب.

(٧٠) سليمان فيضي، المصدر السابق، ص١٩٥ ــ ١٩٦.

(٧١) أمين الريحاني، المصدر السابق، ص٢١٣.

عليه أن يلتزم الحياد، لكن بقاءه على الحياد معناه بقاؤه وحيداً، ومعنى ذلك أن يكون عرضة لطمع الطامعين من جيرانه، وهو عاجز عن الدفاع، ولم يكن أمراء وحكام المناطق المجاورة لنجد ليجهلوا مغبة الحياد. فقد كان كل واحد منهم يسابق الآخرين إلى التحالف مع هذا المعسكر أو ذاك، حسبما تفرض مصلحته[٧٢]. ولكن الإنضمام إلى أحد المعسكرين المتحاربين يجب أن تمليه معرفة من منهما سيحالفه النصر في النهاية. صحيح أنه كان يكره الترك والإنضمام إليهم لأنهم أعداؤه صراحة، ولكن هل له أن يأمن سياسة الإنكليز؟ وهل يستطيع أن يعرف حقيقة نياتهم نحو شبه الجزيرة العربية فيما لو أحرزوا النصر؟ وفي مقابل ذلك أيستطيع أن يتجاهل قوة الإنكليز في الخليج، وعلاقاتهم الودية مع مشايخه، وقوتهم وصولتهم في الهند، وقوة أساطيلهم ومقدار خطرها على الإحساء التي ضمها حديثاً، وإمكانهم حرمانه منها[٧٣]؟.

هذا هو وضعه وهذا هو الذي كان يجول في فكره عندما عاد «شكسبير» إليه — وقد استُدعى من إجازته، وأرسله السير «برسي كوكس»، الذي أصبح الضابط السياسي الأعلى في قوات الحملة الإنكليزية على العراق، لتمثيل مصالح بريطانيا في الرياض — وكان «شكسبير» ذا ثقافة عسكرية عالية وإدراك وبداهة سياسية حصيفة[٧٤]. فأخذ يفتل له في الذروة والغارب، محاولاً زجه في أتون الحرب ضد الترك، ومعاونة الجيش الإنكليزي في هجومه على البصرة، ومساندة جناحه الأيسر بمهاجمة ابن الرشيد الضالع مع الترك[٧٥]. ولم يكن هدف الإنكليز من ذلك اكتساب مساعدة ابن سعود فقط، بل في الوقت نفسه الهاؤه عن التفكير في متابعة توسعه في الخليج العربي من جهة، وإضعاف قوة الترك من جهة أخرى[٧٦]. لكن ابن سعود، وقد أدرك خطر هذه المغامرة الرهيبة رفض الإجابة إلى طلب «شكسبير» وأبان له، كما كان قد أبان للسير برسي كوكس من قبل، بأنه من طرف الإنكليز، وأنه يود من صميم قلبه تحرير البصرة من الحكم التركي، لكنه يود أن تعقد بينه وبين إنكلترا معاهدة صريحة محددة الشروط والأهداف، كي يستطيع القيام بعمل حاسم[٧٧]. فتظاهر

---

(٧٢) ARMSTRONG, Ibid. pp. 103-104.

(٧٣) دكتور محمد ابراهيم عبده، المصدر السابق، ص٨٦.

(٧٤) عبد الله فيلبي، «تاريخ نجد»، ص٣١٧.

(٧٥) SIR ARNOLD WILSON, Ibid. p. 161. V.I.

(٧٦) جان جاك بيريي، جزيرة العرب ص٥١.

(٧٧) SIR ARNOLD WILSON, Ibid. I, p. 31.

«شكسبير» بأنه يجهل مرامي ابن سعود، وطالت المفاوضات أسابيع دون أن تؤدي إلى نتيجة ما، إلى أن وضع الأتراك أنفسهم، وفجاة، حدا لها(٧٨).

لم يكن سعود بن الرشيد غافلاً عن خصمه عبد العزيز بن سعود، فقد اجتمع بوالي البصرة وتم الاتفاق بينهما على مهاجمة ابن سعود. ويظهر أن أنور وطلعت لم يثقا بما جاء في برقية طالب النقيب التي أرسلها إليهما من الرياض، إذ ترامى إلى علمهما ما يدور بين أمير نجد والإنكليز، فخشيا أن يتم بين الطرفين عهد مكتوب فبادرا إلى الحيلولة دون عقده، ووافقا على مد ابن الرشيد بعشرة آلاف بندقية، وبكثير من الذخائر وبمبلغ كبير من المال. فلما علم ابن سعود بذلك كتب إلى ابن الرشيد يذكره بما بينهما من «عهد مصالحة» فأجابه «إني من رجال الدولة وليس لي صلح معك إلا إذا رضيت الدولة بذلك»، فكتب ابن سعود إليه «إذا كنت مصراً على نكث العهد فالمقاومة أولى ...»(٧٩). ثم جمع على عجل جيشاً من الأخوان والعجمان خف به لملاقاة ابن الرشيد، الذي رافقت جيشه عدة أفواج من الجيش التركي النظامي بمدفعيتها. وجرت المعركة في موقعة «جراب». وقد رافق الكبتين «شكسبير» حملة الأمير النجدي، بقصد الوقوف بالذات على المقدرة الحربية التي تتمتع بها القوات السعودية، ولم يقبل نصيحة الإمام بالبقاء في الرياض قائلاً «أنا مأمور بأن أكون معكم، فإذا تركتكم أكون قد خالفت حكومتي، وما يحتمه علي شرفي، وعليّ أن أبقى على كل حال»، وكان يشرف على مدفعية الوهابيين ويدير النار من أحد المدافع، حينما جاءته رصاصة من بعيد أصابت منه مقتلاً فلفظ أنفاسه(٨٠). وما حل المساء حتى أخذ الإعياء من كلا الجانبين مأخذه، دون أن يكون أحدهما قد أحرز نصراً حاسماً على الآخر، إذ كان النصر حليف المشاة الوهابيين في أحد الجناحين، بينما كانت الغلبة لخيالة شمر في جناح آخر. وقد لحق بجيش ابن سعود خسائر فادحة بسبب خيانة «العجمان» من جنده، وفرارهم من المعركة إبان احتدامها(٨١). ومع ذلك أخذ كل الخصمين يدعي النصر على الآخر في هذه المعركة، التي حدثت في شهر كانون ثاني ١٩١٥.

هذه الأحداث أقنعت ابن سعود بأن من مصلحته ألاّ يبقى وحيداً، وأصبح يتساءل ما الذي

---

(٧٨) BENOIST MECHIN, Ibid. pp. 194-197 ; م. الحفناوي، المصدر السابق، ص٨٦.

(٧٩) الريحاني، تاريخ الحديث، ص٢١٧ — ٢١٨، صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ج٢، ص١٦٢.

(٨٠) Mme. GAULIS, Ibid. p. 76 ; جان جاك بيريبي، «الخليج العربي» ص١٣٩، رسائل الأهالي، المصدر السابق، ص٤١٣؛ حسين خلف الشيخ خزعل المصدر السابق، ص٥٩.

(٨١) B. MECHIN, Ibid. p. 198; عبد الله فيلبي، المصدر السابق، ص٣١٧.

ينتظره من الترك والألمان ، بعد أن كشفوا عن حقيقة نياتهم نحوه . لكن المصاعب الداخلية كثورة العجمان وغيرها أخرت لبضعة أشهر ما أزمع عليه من إجابة الإنكليز إلى طلبهم في الاتفاق معه . فقد شغل في إخضاع « العجمان » الذين خانوه ثم ثاروا عليه في الأحساء[٨٢] ، وفي تقوية موقفه الداخلي خاصة وأنه شعر بأنه محاط بالأعداء من كل جانب ، فهو يتوجس خيفة من الشريف حسين ، ولا يثق بالشيخ مبارك الصباح ، وابن الرشيد عدو لدود . وأما القبائل الأخرى التابعة له فقد أخذت تتحفز للثورة إثر السمعة السيئة التي انتشرت عن تخاذله في معركة « جراب » ، والشائعات التي حيكت عن ضعفه وانهيار سلطانه[٨٣] . لذلك أدرك أن أسلم طريق له أن يتخذ موقف الحياد الخارجي ، لأنه أصبح في مركز لا يستطيع فيه أن يؤثر في التطورات الجارية في أنحاء شبه الجزيرة العربية . فقد جعلته كارثة « جراب » في مركز ثانوي بالنسبة للسياسة العربية ، فضلاً عن أنها زادت أعداءه وضخمت قوتهم[٨٤] . فلم يحارب الترك ولا الحسين ، حتى ولا منع رسل الدولة العثمانية من المرور بنجد ، وهم يحملون المال إلى أخوانهم الأتراك المحصورين في اليمن في بادىء الأمر[٨٥] . ولم يكن عليه في ذلك الوقت إلا الإنصراف إلى قمع الفتن الداخلية . وقد وفق إلى ذلك بعد جهد كبير ، إذ لقن العجمان درساً قاسياً ، فأحرق قراهم وقتل رجالهم ، بلا شفقة ولا هوادة[٨٦] . لكنه بعد أن وطد مركزه الداخلي ، وقضى على الفتن ، أخذ حياده يتسم ، من جهة ، بشيء من العداء للترك ، إذ راح يمنع وصول الإمدادات إليهم[٨٧] ، ومن جهة أخرى ، يرتدي طابع العطف والميل للإنكليز .

كما كان السير « برسي كوكس » نفسه يهتم بأمر ابن سعود ، إذ كانت بينهما اتصالات وعلاقات ودية أحسن حبكها عبد اللطيف بن قنديل ، ممثل ابن سعود في البصرة (بعد الاحتلال) ، فأخذ ، بعد أن فوضته الحكومة البريطانية في متابعة الخط الذي سلكه « شكسبير » ، في توثيق العلاقات مع ابن سعود ، فاستؤنفت المفاوضات لعقد المعاهدة التي كان من المتوقع أن تُبرم قبل موقعة « جراب » ، وأسفرت عن إرسال مسودة معاهدة صداقة ، أخذها ابن سعود وأعمل فيها من التعديل ما أوجب دراستها من جديد . ولم يكن بإمكان الطرفين الاجتماع إلا في نهاية عام ١٩١٥ .

(٨٢) B. MECHIN, Ibid. p. 198; م . الحفناوي ، المصدر السابق ، ص٨٨ .

(٨٣) حافظ وهبة ، المصدر السابق ، ص٢٥٠ .

(٨٤) عبد الله فيلبي ، المصدر السابق ، ص٣١٧ .

(٨٥) أمين الريحاني ، المصدر السابق ، ص٢٢٠ ــ ٢٢٢ .

(٨٦) مصطفى الحفناوي ، المصدر السابق ، ص٨٩ .

(٨٧) حافظ وهبه ، المصدر السابق ، ص٢٥٢ .

وكان ذلك في «القطيف»، حيث وُقعت المعاهدة المسماة بالاسم نفسه في ١٩١٥/١٢/٢٦[٨٨]. وقد جاء فيها مايؤكد توطيد الصداقة القديمة بين الطرفين، وتأييد منافعهما المتقابلة، واعتراف بريطانيا بتبعية نجد والأحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها، والمرافىء التابعة لها على الخليج العربي لابن سعود، وباستقلال هذه الأراضي ورئاسته المطلقة على جميع القبائل الموجودة فيها، وبوراثة ذريته عليها، شريطة أن تكون حدودها حسب ماتتمخض عنه الحرب، و «على أن يكون خليفته منتخباً من قبل الأمير الحاكم وألّا يكون مخاصماً لإنكلترا بوجه من الوجوه». وتعهدت إنكلترا له بأن تحميه من كل تجاوز يقع من إحدى الدول على أراضيه، وأن تعاونه ضدها، وأن تحافظ على منافعه وتحميها. كما تعهد ابن سعود من جانبه بألاّ يبيع أو يرهن، ولا يتخلى عن شبر من أراضيه، ولا يمنح أي امتياز لأي دولة أجنبية، أو لأحد من أتباعها دون رضى الحكومة البريطانية، وأن يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه. على أن أهم ماتعهد به هو أن يتجنب أي اعتداء أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وقطر وعمان وسواحلها، وبصورة عامة أن لا يشهر السلاح بوجه حلفائها أو الموجودين تحت حمايتها أو الذين هم معاهدات معها[٨٩].

لم تكن هذه المعاهدة لتختلف عن المعاهدات، التي عقدتها إنكلترا مع أمراء الخليج، من حيث أن ابن سعود قد اعترف للبريطانيين بحق الإشراف على علاقاته الخارجية، وبالتبعية لهم، وربط بلاده بحمايتهم[٩٠]. وقد تجلى فيها قصر نظر مستشاري ابن سعود وجهلهم ما كان يجري في الخفاء بين إنكلترا وسائر أمراء شبه الجزيرة العربية، أو في العلن بين الدول المتحاربة، ذلك أن الصعوبات الحربية التي كانت تحيط بالإنكليز قد جعلتهم يمتلئون سروراً للظروف التي اضطرت ابن سعود إلى الرغبة في التعاقد معهم. فلقد كان جناحهم الأيسر في الحملة العراقية معرضاً لحملات البدو. غير أن مفاوضتهم مع الشريف حسين كانت في ذلك الحين تسير في طريق النجاح، ولم يبق أمامهم إلا ابن سعود الذي أخافهم منه احتمال معارضته لأعمال الشريف لما بينهما من منافسة وعداء قديم[٩١]. وقد ظهر لابن سعود فيما بعد، وهو الذي غادر «القطيف» يتمايل طرباً لهذه التسوية ـــ لأنه كان قد قبض من الإنكليز، علاوة على ألف بندقية حربية، مبلغاً من المال مقداره عشرون ألف جنيه

---

(٨٨) عبد الله فيلبي، المصدر السابق، ص٣١٨.

(٨٩) HUREWITZ Ibid. II, p. 17, D.N°9.;

(٩٠) جان جاك بيربي، جزيرة العرب، ص٥٣.

(٩١) حافظ وهبة، المصدر السابق، ص٢٤٨ ـــ ٢٤٩.

إنكليزي ـــ فداحة الخديعة التي وقع في شباكها، وأدرك أن ما ناله من الإنكليز، من أسلحة ومن مساعدة، لم تكن إلا ثمناً بخساً لما حصلوا عليه منه في هذه المعاهدة.

لقد ظن، إثر توقيعها، أنه ـــ مع عدم التزامه بمحاربة الترك ـــ قد حصل على ضمانة تحميه من كل عودة منهم إلى محاربته، وأن العبارة التي تعهد فيها بأن لا يشهر سلاحاً في وجه حلفاء إنكلترا، وأن لا يساعد أعداءها، قد تركت له الباب مفتوحاً للإنقضاض على خصمه الحسين متى شاء، في حين كانت هذه المادة بعينها هي التي قيدته بها إنكلترا قيداً وثيقاً لحماية الشريف حسين من اعتدائه هو نفسه[٩٢] بينما كانت مفاوضاتها مع الشريف تكاد تنتهي إلى النجاح. وبينما حرص السير برسي كوكس على التزام التكتم الشديد في أمر محادثات هنري مكماهون البريطاني مع الشريف حسين، في أثناء تفاوضه مع ابن سعود[٩٣]، عمد هذا الأخير فور عودته إلى الرياض ـــ وقد يكون ذلك بإيحاء من المفاوضين الإنكليز ـــ إلى إرسال مندوبه صالح باشا العذل إلى الشريف يعلمه بأمر المعاهدة التي عقدها مع إنكلترا، وكان الشريف يبدي تصلباً مع مفاوضه البريطاني، فخشي أن يتقدم ابن سعود أمراء العرب في الزعامة والنفوذ بعد تعاهده مع إنكلترا، فاضطر إلى التساهل[٩٤] في موقفه أمام تحفظات السير مكماهون.

بينت فيما سبق أن الحسين قد استمهل الإنكليز بعض الوقت ليتبين جميع الاحتمالات قبل إعلان الثورة، واستكمال الاستعدادات اللازمة لها، ووعد بأن يكتب إلى المستر «رونالد ستورز» في الوقت المناسب. ولم يعد الحسين إلى استئناف الاتصال بينه وبين الإنكليز إلا في شهر تموز ١٩١٥ بعد أن مرت ثمانية أشهر ـــ اعتباراً من كانون الأول ١٩١٤ ـــ على آخر رسالة بعث بها إلى المستر ستورز في القاهرة[٩٥]. وقد انصرف الشريف حسين في أثناء هذه الشهور الثمانية إلى الاتصال بأمراء وزعماء العرب كما سبق وبينت، وتلقى منهم ما يشجعه على المضي في سياسته القائمة على مناهضة الترك وتخليص الأمة العربية من نيرهم، بينما انصرف الإنكليز إلى الضغط غير المباشر على الشريف بواسطة السيد علي الميرغني صاحب أكبر مقام ديني بين العرب في السودان. ذلك أن السير «ريجنالد ونغت» الحاكم العام للسودان، قد دفعه ـــ بحافز من صداقته له ـــ إلى أن يبعث برسالة ودية

---

(٩٢) B. MECHIN, Ibid. p. 198.

(٩٣) عبد الله فيلبي، المصدر السابق، ص٣١٨؛ أحمد طربين، الوحدة العربية، ص١٢٩.

(٩٤) صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ج٢، ص١٧٧.

(٩٥) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢١٤.

غير مقيدة بأي تعهد إلى الشريف ، يحثه فيها على أن يعلن سياسته . أما الشريف ، ولم يكن ليجهل المصدر الذي أوحى بهذه الرسالة ، فقد أجاب بصراحة ممزوجة بالتودد ، متحدثاً عن الاستبداد التركي وأمله في الخلاص منه . وبعد أن أجابه السيد الميرغني أن باستطاعته أن يساعده لدى صديقه الحاكم العام ، وما عليه إلا أن يبين الطريقة التي يستطيع هذا أن يساعده بها ، أجابه بتحفظ مذيلاً رسالته بما يفيد أنه يود لو يتلقى الاقتراحات التي قد يقدمها « صديقه » ، فأرسل إليه الميرغني يقول « لو أن الحسين وضح ما يريد ، لربما استطاع هذا الصديق أن يزوده بالمال والسلاح والذخائر » .

لم يكن من شأن هذا الإتصال إلا أن يشجع الحسين تشجيعاً كبيراً ، وأن يُقوي أمله في محالفة إنكلترا له ، لثقته بأن الميرغني صديق للإنكليز ، وأن يقنعه بأن سياسته تلقى تأييداً من زعيم المسلمين في السودان ، لكنه لم يؤدِّ به إلى نتيجة حاسمة(٩٦) ، إذ لم يكن بعد قد انتهى من مشاوراته ، ولم تتهيأ له الوسائل التي من شأنها أن تدفعه إلى العمل .

وفي أثناء انقطاع المفاوضات بين الإنكليز والحسين اقتنع الإنكليز ــ بنتيجة الاتصالات التي جرت بينهم وبين زعماء العرب في القاهرة ، وفي كل مكان كما سبق وبينت ــ باستحالة دفع العرب إلى الثورة بمجرد الوعود الشفهية والكلام المعسول ، ورأوا أن لا بد من إعطاء بعض الضمانات المحددة التي تكفل مستقبل البلاد العربية ، فعرض مسؤولو الإنكليز في القاهرة الأمر على حكومة لندن وإذ اقتنعت هذه بما عُرض عليها فوضت معتمدها في القاهرة السير هنري مكماهون ، خليفة اللورد كتشنر في مصر ، بإصدار بيان (صدر في ٤ حزيران ١٩١٥) جاء فيه ما يرمى إلى تهدئة مخاوف المسلمين أكثر مما يرمى إلى تحقيق آمال العرب السياسية(٩٧) . وقد تضمن تعهداً من إنكلترا بأن تنص إحدى فقرات معاهدة الصلح ــ التي ستعقد في نهاية الحرب ــ على الاعتراف بشبه جزيرة العرب ، التي تضم أماكن المسلمين المقدسة ، دولة مستقلة ذات سيادة تامة مصونة من أية تبعية للإنكليز أو لأية دولة من الدول الأجنبية . كما جاء فيه ما يطمئن نفوس المسلمين عن احترام الإنكليز للدين الإسلامي ، وسلامة نياتهم نحوه ، ورغبتهم في إعلاء شأنه وإجلاله ، وما يُطَمْئِن سكان الحجاز على معاشهم ، إذ « إن إنكلترا التي حزَّ في نفسها أن تراهم في عوز ، وشفقة منها عليهم ، قد أذنت لهم بجلب الحبوب إلى ميناء جدة »(٩٨) . ومن المحتمل أن يكون قد تضمن ــ كما ذكر جورج

(٩٦) المصدر السابق ، ص٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

(٩٧) المصدر السابق ، ص٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

(٩٨) Y.H. BAYUR, Ibid. I, pp. 340-341; عن دائرة المحفوظات في وزارة الخارجية التركية .

أنطونيوس ــ وعدا من إنكلترا بالترحيب بقيام خلافة إسلامية عربية. ووزع البيان في مصر والسودان، وُهرِّبت منه أعداد كثيرة إلى الشام، وألقت الطائرات البريطانية عدداً كبيراً منه فوق مدن الحجاز الساحلية.

صحيح أن هذا البيان قد قطع شوطاً أبعد مما كان كتشنر قد عرضه على الحسين من حماية الجزيرة العربية ضد أي اعتداء خارجي، بوصفه قد وَعَد بقيام دولة مستقلة في جزيرة العرب، لكنه، مع ذلك، قد أغفل مطلب العرب الأساسي، ألا وهو استقلال بلاد الشام والعراق أسوة بالجزيرة العربية(٩٩)، وهذا ما لم يكن ليرضي العرب فلم يقنعوا به.

كانت المدة، التي مرت بين توقف المفاوضات وعودتها في تموز ١٩١٥، إذن فترة تبلورت خلالها ــ لدى الجانبين العربي والإنكليزي ــ الخطة التي يجب على كل منهما اتباعها تجاه الآخر. فلقد عرف الشريف حسين مقدار ما يعلقه الإنكليز من أهمية على مشاركته لهم في هذه الحرب، كما عرف بواسطة نجله فيصل ــ العائد من دمشق ــ المطالب التي تستطيع أن تنال رضى الزعماء العرب، والقوى التي يستطيع الإعتماد عليها في حركته التي يُزمع الإقدام عليها. كما اقتنع الإنكليز بأن سورية ــ بالرغم من كونها قد أصبحت البؤرة الأساسية لليقظة العربية، بفضل تغلغل الفكرة القومية بين أبنائها، لا سيما الشبان المتنورين منهم ــ لا تستطيع أن تكون المركز الذي تنطلق منه شرارة الثورة، ومثلها العراق الذي لم يكن ليقل عنها استمساكاً بهذه المبادىء، نظراً لأنهما كانا من مراكز احتشاد الجيوش العثمانية، ومن المناطق التي تستطيع الدولة أن تزيد حشودها فيها، وأنه إذا أريد للثورة أن تنجح ــ وكان هذا بالضبط ما اقتنع به أحرار العرب وزعماؤهم والشريف حسين، وابنه فيصل بالذات ــ فلا بد أن تكون في منطقة ذات ظروف أكثر ملاءمة، ولم يكن أفضل من الحجاز مكاناً لانطلاقها(١٠٠). هذا من جهة ومن جهة أخرى كانوا على صلة بحلفائهم الفرنسيين والروس، فوقفوا على مطالبهم ومطامعهم في تركة الرجل المريض، وفي الوقت نفسه اختبروا قواهم الحربية على ضوء المعارك التي كانت تخوضها جيوشهم في مختلف ميادين الحرب في الشرق. ذلك أن روسيا قد بدأت، منذ تشرين الثاني ١٩١٤، تطالب حلفاءها بالمناطق التي تطمع بها في تركيا، فما كان من فرنسا إلا أن تطالب مقابل ذلك بسورية التي اعتبرتها حصتها من إرث السلطنة العثمانية، ثم تدخل إنكلترا في المفاوضات، ويحصل الاتفاق بين الدول الثلاث على الحصص التي

(٩٩) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٤٧.

(١٠٠) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٤١.

تطمع فيها كل واحدة منها[101]، وتظهر إلى الوجود اتفاقية سايكس ــ بيكو التي ستكون موضوع فصل آخر من هذا الكتاب.

على هذا الأساس من الاستعداد استؤنفت المفاوضات التالية التي أطلق المؤرخون عليها اسم «محادثات الحسين ــ مكماهون»، والتي بدأت برسالة وجهها الحسين إلى السير «هنري مكماهون»، المعتمد البريطاني في القاهرة، وكان الحسين قد استتم دراساته للوضع في سورية، ولامكاناته، واطمأن إلى تأييد السوريين ومطالبهم، وإلى موافقة زعماء العرب في الجزيرة على موقفه السلبي من دعوة الجهاد، وقد شجعه على خطوته هذه ما كان جمال باشا جاداً به في سورية من اعتقال ومحاكمات في ديوان حرب عالية، كمقدمة لإعدام القافلة الأولى من الشهداء.

كانت رسالة الحسين هذه عبارة عن مقدمة ومذكرة. وقد أحيطت بكتمان شديد، ولم تحمل لا توقيعاً ولا تاريخاً زيادة في الحذر، لكنها أرفقت برسالة شخصية موجهة من الأمير عبد الله إلى صديقه المستر «رونالد ستورز» وتحمل تاريخ ١٤/٧/١٩١٥، حملهما مندوب خاص يدعى الشيخ محمد عارف بن عريفان، لم يستطع الوصول إلى القاهرة إلا في أحد أيام شهر آب، وسلمهما إلى السلطات الإنكليزية[102]. وأما المقدمة فقد جاء فيها ما يطمئن مخاطبه إلى ميل أفكار الشعب العربي إلى الحكومة البريطانية، مما لا يدع لزوماً إلى إرسال الطائرات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير على المدن الحجازية «لأن القضية قد قررت»، ورجاءه بأن يسمح للحكومة المصرية بإرسال «الهدايا المعروفة» من الحنطة للأراضي المقدسة التي أوقف إرسالها منذ عام، وأن إرسال هدايا العام الحالي والسابق سيكون له الأثر الفعال في توطيد المصالح المشتركة بين العرب والإنكليز.

وأما المذكرة فقد جاء فيها أن العرب بأجمعهم قد قرروا الفوز بحريتهم واستلام مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم. وأنهم شعروا وتأكدوا أن مصلحة بريطانيا أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة. ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة بريطانيا على أية حكومة أخرى، نظراً لموقعهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية، لذلك يرى الشعب العربي أن يسأل الحكومة البريطانية، إذا رأت ذلك مناسباً، أن تصادق بواسطة ممثلها على اقتراحات وصفها بأنها

---

(١٠١) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٣٢.

(١٠٢) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٥١.

أساسية[١٠٣]، وتنطوي على المطالبة باعتراف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية، ضمن حدود عينتها المذكرة، وهي التي رسمها ميثاق الزعماء السوريين الذي نقله فيصل لوالده (كما وردت في الفصل السابق)، مضافاً إليها اعتراف بريطانيا بإعلان خلافة عربية على المسلمين، وبذل مساعدتها في أخذ اعترافات بقية الدول الأوروبية على إلغاء الامتيازات الأجنبية، وأن تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية عسكرياً وبحرياً وجوياً في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين، حفظاً لاستقلال البلاد العربية، وتأمينا لأفضلية إنكلترا الاقتصادية. أما إذا اعتدى أحد الفريقين على بلاد ما، ونشب بسبب ذلك قتال بينه وبينها، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد، إلا إذا اتفق الفريقان على شروط جديدة. وتكون مدة الاتفاق العسكري خمس عشرة سنة، يجرى تحديدها بناء على طلب أحد الفريقين مسبقاً. ويطلب الشريف الإجابة عن مطالبة هذه سلباً أو إيجاباً، خلال ثلاثين يوماً من وصول اقتراحه، حتى إذا انقضت هذه المدة، ولم يتلق جواباً، يعتبر أن جميع مقترحاته وتصريحاته، ووعوده السابقة مع على أفندي أصغر بحكم الملغاة[١٠٤]. والمفهوم من هذه المذكرة أن الشريف حسين قد جسّم مطالب أحرار العرب في الاستقلال التام، وفي رسم خطوط دولة عربية كبرى، تتمتع بجميع الحقوق الدولية في تحالف الند للند وفي الكرامة القومية. وقد عول على الدولة البريطانية في هذا الأمر العظيم. أما السبب الذي أهاب بالشريف حسين أن يؤثر بريطانيا وحدها دون سائر الحلفاء بثقته، ويسعى إلى التحالف معها، فواضح من أنها ــ بعلاقاتها مع شبه الجزيرة العربية ومحالفاتها المعقودة مع مختلف أمرائها ــ أكثر الدول الأوروبية اتصالاً بالعرب، فضلاً عن أنها، باحتلالها مصر والسودان، تكوّن على الجانب الآخر من البحر الأحمر قوة يحسب حسابها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فضّل الحسين أن يتصل بها وحدها، أولاً لأنها عرضت عليه التحالف والمساعدة في الوقت المناسب، حينما كان يقلب الأمر على وجوهه المختلفة، ولأن الإتفاق معها وحدها أضمن من أن يُلقي بمصالح العرب في مهب التنافس الدولي، وأنها وحدها التي تستطيع أن تساعد العرب على نيل استقلالهم، لثقته بالشرف البريطاني، في وقت كان العرب يتوجسون من مطامع فرنسا في بلاد الشام.

وأما جواب ممثلها السير «هنري مكماهون»، وهو الذي أرسله في ١٩١٥/٨/٣٠، فقد تضمن كثيراً من عبارات التملق والتفخيم والمراوغة، وقليلاً من الوعود، مغلّفة بمسحة من الغموض

(١٠٣) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ــ من نشر جريدة الأيام، ص١.
(١٠٤) HUREWITZ, Ibid. p. 13, D. N°8.

والإبهام. صحيح أنه أكد رغبته، مقرونة برغبة اللورد كتشنر، في استقلال البلاد العربية وسكانها، والموافقة على أن يكون خليفة المسلمين عربياً، وعلى استعداد إنكلترا لإرسال المنح المطلوبة للمدن المقدسة، لكنه قال فيما يتعلق بالحدود التي رسمتها مذكرة الشريف إنه قد يكون البحث في مثل هذه التفاصيل ــ والوقت قصير والحرب قائمة ــ سابقاً لأوانه، وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشير إليها احتلالاً تاماً(١٠٥). وقد تجاهل مكماهون حقيقة هامة هي أن مقتضيات الحرب هي التي تُملي ما يمكن أن يحصل من اتفاق بين الجانبين، للتعاون في القضاء على الاحتلال التركي، بدلاً من أن تكون الحرب والاحتلال التركي سبباً مانعاً من الوصول إلى اتفاق مفصل الشروط على ذلك، فأثبت المعتمد البريطاني في الواقع، رغبته في المخادعة والمراوغة للوصول إلى الثورة بأبخس ثمن(١٠٦).

لذلك بادر الحسين فوراً إلى إرسال مذكرته الثانية، وقد حملت تاريخ ٩ أيلول ١٩١٥، وتضمنت ما يشعر بنفور الحسين من «الغموض والبرودة والتردد» الذي احتوته مذكرة مكماهون، فيما يتعلق بالنقطة الأساسية: الحدود. كما بين فيها تأكيد إخلاصه نحو إنكلترا واعتقاده بتفضيلها على جميع الدول في كل الشؤون، ولومه السير «هنري مكماهون» على ما جاء في رسالته عن كون النظر في قضية الحدود سابقاً لأوانه، موضحاً أن الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد، يستطاع إرضاؤه ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب بأسره يعتقد أن حياته فيها، وأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد. وهذا ما يجعله على يقين أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء، وأن يعتقد أنه من المحتم أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة ليعرف على أي دعامة يؤسس حياته كيلا تعارضه إنكلترا، أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع، وأن العرب لم يطلبوا، ضمن تلك الحدود، مناطق يقطنها شعب أجنبي. أما مسألة الخلافة فقد لفت الحسين نظر مكماهون إلى أنه قد ضرب على وترها وكأنها كل شيء في الموضوع، لذلك أجابه عن هذه النقطة بقوله «أما الخلافة فليرض الله عنها، ويسر الناس بها»، كناية عن نظرته إليها نظرة ثانوية، ثم ختم الشريف مذكرته بقوله إن الشعب العربي بأجمعه ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على الموافقة على قضية الحدود أو رفضها(١٠٧).

---

(١٠٥) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، ص٣.

(١٠٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٥٣ ــ ٢٥٤.

(١٠٧) الوثائق والمعاهدات، ص٤ ــ ٦؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص٥٥٠ (الملاحق ــ نقلا عن الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، إصدار الجامعة العربية).

لقد وضع الشريف حسين، في هذه المذكرة، مفاوضه الإنكليزي بين أحد أمرين: إما الموافقة أو الرفض. كان الإنكليز إلى هذا الوقت يجهلون أن الحسين على اتفاق مع أحرار سورية في السير ضمن خطة مرسومة للوصول إلى الغاية القومية المنشودة، وأن الحركة الوطنية فيها قد نشطت نشاطاً كبيراً في أثناء الحرب، وأن هناك جمعية سرية باسم «العربية الفتاة». حتى إن معلوماتهم عن «جمعية العهد» كانت غامضة. لذلك توهموا أن الحسين لم يكن يمثل إلا نفسه، وأن سعيه إن هو إلا لتحقيق أطماعه الشخصية فقط، وأنه من الممكن استمالته فيما لو وعدوه بالخلافة، ولوحوا له باستقلال العرب تلويحاً مبهماً، ولم يكن لديهم أدنى معرفة بما كانت تنطوي غليه مقترحاته[١٠٨].

لكنهم في أوائل شهر تشرين الأول ١٩١٥ عرفوا الحقيقة صدفة، عندما جاء الضابط العربي العراقي محمد شريف الفاروقي إلى مصر، وقد فر بحيلة إلى الجيش الإنكليزي الذي كان يحارب في جبهة الدردنيل، بعد أن رجا الضابط الإنكليزي الذي طلب المثول بين يديه بألاّ يعتبره أسيراً وأن يؤمن سفره إلى مصر، وأن يُبقي اسمه مكتوماً، وأن يؤمن له الإنكليز السفر إلى الحجاز متى شاء، فأجابه إلى طلبه. وفي مصر اتصل بعزيز علي المصري، ثم بالسلطة الإنكليزية، وأفصح لها عن كونه قد أخذ على عاتقه القيام بمهمة تخدم القضية العربية، بناء على اتفاق جرى بين حزبي «العهد» و «العربية الفتاة» اللذين قررا العمل معا، وحث الشريف حسين على الثورة، وتأييده فيها، لأنه اتصل بهما أن ثمة مفاوضات دائرة بين الشريف والإنكليز، وأدعى أنه من المنتسبين إلى جمعية «العهد»، وأن رئيسه ياسين الهاشمي، الذي نقل مع الضباط العرب الذين أبعدهم جمال باشا من سورية إلى الآستانة، قد كلفه بهذه المهمة[١٠٩]. فكان للمعلومات التي ذكرها الأثر الحاسم في موقف الإنكليز، ذلك أنه أفاض في الحديث عن حقيقة الشعور السائد بين القوميين العرب في كل من سورية والعراق، وعن نشاط الجمعيتين السريتين المذكورتين آنفاً، وعن الحقد الذي يجيش في صدور أعضائهما ضد الأتراك[١١٠]. فمحصت أقواله بدقة، ولما ظهرت صحتها اعتبره الإنكليز ناطقاً بلسان جمعيتي «العهد» و «الفتاة» ومفوضاً عنهما(*). وقد ظهر فيما بعد أنه لم يكن كذلك. وعلى كل حال اطلع الإنكليز على أمور كثيرة، لم يكونوا على علم بها قبل وصول الفاروقي، أتاحت

---

(١٠٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٥٤.

(١٠٩) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٨٢ــ ٨٣.

(١١٠) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٥٨.

(*) في أثناء إقامة الفاروقي في مصر كتب إلى الشريف حسين بواسطة الإنكليز، وأخبره أنه قادم باسم أخوانه في تركيا ليعرض معلوماته وخدماته عليه، ثم التحق بعد ذلك بمعسكر الشريف عند ابتداء الثورة.

لهم الوقوف على مضمون مذكرة الشريف الثانية بفهم أكمل من ذي قبل، مما جعلهم يتخذون موقفاً محدداً من مطالب الشريف. فبعث إليه مكماهون برسالته الجوابية الثانية، وتعتبر أهم المراسلات الجارية بينهما لاحتوائها على النقط الأساسية التي وقف التحالف الإنكليزي ـ العربي عندها بين الجذب والدفع.

كتب السير هنري مكماهون مذكرته هذه في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥، وقد اعتذر فيها عما ظنه الحسين بروداً، مع أنه لم يقصد هذا الأمر، بل جل ما رمى إليه أن الوقت لم يحن بعد للبحث في مسألة الحدود، ولما فهم أن هذه المسألة تشكل في نظر العرب أمراً حيوياً، اتصل بحكومته في لندن، حول مذكرة الحسين الأخيرة، وأنه أصبح باستطاعته بعد هذا أن يتقدم بالبيانات التالية

«إن مرسين واسكندرونة، وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية صرف. لذلك يجب أن تستثنى من الحدود التي ذكرتموها، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات، **على أن لا تنقض شيئاً من اتفاقاتنا مع زعماء العرب.**

«**أما الأراضي التي تستطيع إنكلترا العمل فيها بملء الحرية، ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا**، فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم.

١ ـ إن إنكلترا مستعدة على أساس تلك التعديلات أن **تعترف باستقلال العرب**، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة.

٢ ـ تحمي بريطانيا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها.

٣ ـ تقدم بريطانيا للعرب ـ عند الحاجة ـ كل مساعدة أو نصيحة تلزم، وتعاونهم في تنظيم أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية.

«هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يوافق العرب على الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الإنكليزية.

«أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد، فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية، وتأمين راحة واطمئنان السكان، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها».

وينهي السير مكماهون مذكرته بتطمين الحسين عن عطف بريطانيا على أماني أصدقائها «التقليديين» العرب، ويعرب عن أمله في توحيد العمل على طرد الأتراك وإنقاذ العرب من نير حكمهم(١١١).

إن من يدقق في نصوص هذه المذكرة التي أوردتها بتفاصيلها نظراً لأهميتها يلاحظ أن ليس فيها ما يشبه العروض التي يقدمها فريق لآخر يعتبره ندا له — إذا أعتبرنا مذكرة الشريف الأولى مقياساً لها — لكثرة ما ورد فيها من عبارات: المساعدة، النصيحة، الحماية، الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها، وتنظيم دوائر المملكة العربية من قبل موظفين من الإنكليز، وغيرها من العبارات التي تعرف دولة مستعمرة كبريطانيا كيف تستغلها.

وقد حرصت المذكرة على استثناء المناطق التي عقدت بريطانيا مع أصحابها من أمراء العرب اتفاقات خاصة — مثل نجد ابن سعود وأمارات الخليج العربي — من المخطط العربي، ولم يكن الحسين على علم بما تضمنته تلك المعاهدات من نصوص. كما حرصت على إحاطة مقترحاتها بالغموض والإبهام، فيما يتعلق بشكل وإطار ووحدة البلاد العربية المزمع الاعتراف بها وباستقلالها، وكل ما اعترفت به بوضوح هو وحدة الأراضي المقدسة، أي الحجاز فقط واستقلال العرب، بل أكثر من ذلك أنها قد أفصحت عما يناقض وحدة بلاد العرب، بالحديث عن مساعدة بريطانيا في «تنظيم أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية». ثم إنها لم تتضمن إي إشارة إلى مسألة الخلافة التي لم يعرها الحسين أهمية كبيرة. ولم تنس أن تقتطع لنفسها أهم منطقة عربية لها فيها مطامع عريقة هي العراق.

على أن أهم ما تضمنته حرصها على حفظ حقوق حليفتها فرنسا ومصالحها في المناطق التي تدعي أن لها فيها حقوقاً تاريخية: سورية ولبنان، من مرسين شمالاً إلى حدود فلسطين جنوباً. والواقع إن إنكلترا، قبل استئناف مفاوضاتها مع الشريف حسين، كانت قد تفاهمت مع فرنسا على هذه النقطة في المباحثات التي رافقت اتفاقيات سايكس — بيكو. وبهذه المناسبة لا بد لي من القول إن

(١١١) HUREWITZ, Ibid. II, p. 14.

ما أدعى به بعض الكتاب الفرنسيين من أن اتفاقات الحسين ــ مكماهون قد جرت من وراء ظهر فرنسا ليس له أساس من الصحة، إنما كان عبارة عن تهويش وإغاظة وإزعاج لإنكلترا، سرعان ما انتهى عندما تقاسمت الحليفتان المغانم بعد انتهاء الحرب[١١٢]. فالمفاوضون الإنكليز قد أبلغوا المسؤولين الفرنسيين بمحادثاتهم مع الحسين، وبأن إنكلترا تشجع قيام دولة إسلامية سياسية مستقلة، لأن قيام مثل هذه الدولة ضروري لبريطانيا لمقابلة تأثير الأتراك، ولأنها قلقة جداً من إمكان تعرض مصر من طرفيها لهجوم يقوم به السنوسيون من الغرب والأتراك من الشرق، وأن العرب قد يطالبون ببعض الأماكن التي تعتبر جزءاً من سورية، ويترك لفرنسا أن تقدر مدى التساهل الذي يمكن إظهاره في هذه الناحية.

صحيح أن المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية آنئذ قد جزع جزعاً شديداً من المفاوضات الإنكليزية ــ العربية عند الشروع فيها، وبذل جهداً كبيراً منذ شهر تشرين ثاني ١٩١٥ لمنعها وتمنى فشلها، لكن جهوده ذهبت سدى، فحاول حينئذ أن يحصل على وعد صريح من بريطانيا بأن تحفظ ــ في أثناء المفاوضات ــ لفرنسا ما تدعيه من حقوق ومصالح في سورية وكيلكيا ولبنان. لذلك أوفد المسيو «جورج بيكو» قنصل فرنسا العام في بيروت سابقاً، إلى لندن لمباحثة السلطات الإنكليزية في هذا الأمر. ويتضح مما كتبه المسيو بوانكاره في مذكراته حول هذا الموضوع أن ممثل الحكومة البريطانية السير أرثر نيكلسون لم يتشدد في مسألة الاعتراف بسلطة فرنسا على الإسكندرونة وآدنة وكيلكيا، على الرغم من اعتراض اللورد كتشنر على هذا الاعتراف. لكنه اشترط مقابل ذلك تحديد سلطتها في سورية، بوضعها تحت سيادة شريف مكة، وأن لا تخول فرنسا سوى حق تعيين الحاكم عليها، وباختصار لم تكن إنكلترا لتترك سورية لفرنسا إلا بشرط أن تكون تحت سيادة الشريف، وفضلاً عن ذلك تطلب لنفسها فلسطين وحيفا.

لم يكتم بوانكاره خشيته من الإمبراطورية العربية الكبيرة المزمع تشكيلها خوفاً من تأثيرها في مستعمرات فرنسا الإفريقية، قال «إن هذه الإمبراطورية الكبيرة، لا أفهم لها معنى... وكنت أحب أن لا أراها تخرج إلى حيز الوجود، وقد عرضت مخاوفي على مجلس الوزراء، إلا أنه يظهر أننا قد سبق وخضنا غمار البحث في هذا الموضوع، وقيل لي إنه قد فات الآن أوان العودة إلى المناقشة»[١١٣].

(١١٢) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٥٦ ــ ٥٧.

(١١٣) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٤٢ ــ ٤٥، (عن المسيو بوانكاره في كتابه Au Service De La France, T. VII, p. 363).

وإذ اعترف المفاوض الفرنسي بيكو بحق العرب في إدارة مدن دمشق وحمص وحماه وحلب تحت إشراف فرنسا[114]، حصلت هذه على العهد الذي رغبت في الحصول عليه بشأن مطامعها في الإسكندرونة وكيلكيا وآدانة، والمدن الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب، لكنها لم تكتف بذلك بل ظلت تطالب بالموصل، ومنطقة سورية الداخلية، وتقسيم فلسطين بين فرنسا وإنكلترا. وهذه المطالب كانت موضوع مناقشة بين الفرنسيين والإنكليز فيما أطلق عليه «مباحثات سايكس ـ بيكو» ـ التي سابحثها مفصلاً في فصل آخر ـ والتي كانت تسير جنباً لجنب مع مفاوضات الحسين ـ مكماهون، ذلك أن إنكلترا كانت تفاوض الحسين حول استقلال البلاد العربية، في الوقت نفسه الذي كانت تفاوض فيه فرنسا حول تقسيم تلك البلاد[115]. أي أنها كانت مضطرة لإجابة شيء من أماني العرب كي تستطيع دفعهم إلى الثورة، فكان لزاماً عليها أن تعدهم بالمساعدة على تأسيس دولة مستقلة، لكن هذا كان يتطلب منها أن تتخلى عن قسم من مطامعها القديمة في البلاد العربية، وأن تحمل فرنسا في الوقت نفسه على أن تتخلى عن قسم من مطامعها في سورية. وبالايجاز أن تؤلف بين أماني العرب ومنافعها هي ومطامع حليفتها فرنسا. فأقدم ساستها على هذا الأمر العسير بمهارة فائقة[116].

جاء رد الحسين (١٩١٥/١١/٥) على رسالة السير مكماهون الثانية رداً قال عنه جورج أنطونيوس في كتابه «يقظة العرب» أنه «يظهره سياسياً بعيد النظر من أرفع طراز»، وأنا لست أرى ذلك الرأي فيه، إذ تنازل دون تلكؤ ـ كما قال ج. أنطونيوس نفسه ـ عن إصراره في ضم مرسين وآدنه إلى المملكة العربية «رغبة في تسهيل الإتفاق وخدمة الإسلام» واعتماداً منه «على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة»!! كأن خدمة الإسلام وتسهيل الإتفاق هما في التهاون والتساهل على حساب القضية العربية، وكأنه قد خبر بريطانيا حق الخبرة، في حين كان غيره من السياسيين أدرى منه وأخبر بها. فالأمير شكيب أرسلان، عضو مجلس المبعوثان ـ وكان على اطلاع بدخائل السياسة الأوروبية ـ قد أنذر وحذر من أن يضع أحد من العرب يده بيدها[117]، لأنها عدوة العرب والإسلام شأنها كشأن حلفائها في ذلك، وتسعى وإياهم إلى سلخ البلاد العربية عن جسد الدولة

---

(١١٤) دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٥٧.

(١١٥) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٤٥ ـ ٤٦.

(١١٦) المصدر السابق، ص٤٢.

(١١٧) محمد لطفي جمعة، حياة الشرق، دوله وشعوبه؛ ص٢٣٢.

العثمانية، لاستعمارها باطناً، وتحريرها من الاستعمار ظاهراً(١١٨). ويضرب أمثلة على ذلك استعمارها مصر والهند وغيرهما من الأقطار الإسلامية. وقد مر معنا من جهة أخرى كيف كان موقف الزعيم العراقي البصري طالب النقيب الذي فضّل النفي على الوقوع في حبائل الإنكليز، وليس بمنقذ الحسين من اللوم رفضه الموافقة على استثناء ولايتي حلب وبيروت ــ وربما يقصد بذلك أجزاء سورية الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب بما فيها الإسكندرونة، وهذا دليل على عدم الدقة في الإجابة ــ من المخطط العربي على أساس أنها ــ خلافاً لمرسين وآدنه ــ عربية خالصة، ذلك أنه برهن على خطل سياسته بجهله أو تجاهله كون مرسين وآدنه مأهولتين بأكثرية عددية من عناصر عربية لا يستهان بها ــ ولا يزال عدد كبير من سكانهما يتكلمون اللغة العربية حتى الآن ــ وأنه في مراسلاته التالية لم يقف موقفاً صلباً في الوصول إلى اتفاق حاسم حول عدم استثناء هذه الأجزاء من المملكة العربية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد وافق في مذكرته الثالثة هذه على التحفظات الخاصة بالأمراء العرب المرتبطين مع بريطانيا بمعاهدات خاصة، لكن هذه الموافقة جاءت في سياق من الحديث قد يفهم منه أنها تقتصر على الشيوخ المجاورين للقسم الجنوبي من العراق، الذي كان تحت الاحتلال الإنكليزي. أما ما جاء عن ولايتي البصرة وبغداد في مذكرة السير مكماهون، من قيام شكل إدراي خاص يراعى فيه مركز إنكلترا ومصالحها فيهما، ويمكنها من ممارسة مراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية، فإن الحسين قد رفض اقتراح المفاوض الإنكليزي توطيد مصالح الطرفين المشتركين فيه ولكنه ــ مع ذلك ــ وافق على أن تحتل القوات الإنكليزية هذه المناطق، خلال مدة الحرب، احتلالاً مؤقتاً، على أن لا يعني ذلك سلخها عن الدولة العربية، وعلى أن تدفع بريطانيا، لقاء هذا الاحتلال المؤقت، معونة مالية يجرى الاتفاق عليها للدولة العربية. **وهنا يظهر قصر نظر الحسين، وكأنه قد نسي أو كان يجهل أن الإنكليز دخلوا مصر لفترة مؤقتة وظلوا فيها إلى ذلك الوقت ما ينوف عن ثلاثين سنة.**

على أن الحسين، وقد ركز اهتمامه على سلامته وسلامة حركته، أثار مسألة ضمان عدم عقد صلح منفرد مع الأعداء، وطلب عهداً بألاّ يُترك العرب وحدهم ــ مهما تكن الأحوال ــ في مواجهة جيوش ألمانيا وتركيا، وأن يُعتبر العرب في مؤتمر الصلح محاربين رسميين، وأن تقف بريطانيا في صفه في مفاوضات الصلح، وتدافع عن قضيتهم. وقد أبدى عدم رغبته في إعلان الثورة فوراً قبل إتمام الإستعداد لها. وختم كتابه بقوله : إنه لو لم يكن يعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية

---

(١١٨) الدكتور سامي الدهان، المصدر السابق، ص١٤.

بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانيهم لكان يفضل أن يصعد إلى رأس جبل وينزوي ، ولكن العرب بأسرهم يصرون عليه بأن يقود حركتهم حتى النهاية(١١٩).

لم يكن جواب السير هنري مكماهون ــ بالطبع ــ إلا بإبداء السرور لقبول الحسين بإخراج ولايتي مرسين وآدنة من المملكة العربية ، مؤكداً على أن الاعتراف بالمعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع رؤساء العرب الآخرين يعني بالطبع شمول هذا الاعتراف المعاهدات المعقودة مع البلاد الداخلية في المملكة العربية ، لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أُبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء. وأما بشأن ولايتي حلب وبيروت اللتين ذكرهما الشريف ، وقصد بهما المناطق الغربية من سورية ، فإن بريطانيا قد أخذت علماً بما بينه الشريف عنهما ، لكنه لما كانت مصالح فرنسا داخلة في هذه المسألة ، فهي تحتاج إلى نظر دقيق ، وسيخابر الشريف بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب . ثم أكد السير هنري مكماهون على أن مصالح بريطانيا في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة ، ووافق على رغبة الحسين في الحذر والتؤدة ، وعدم القيام بعمل سريع ، لكنه في الوقت نفسه دعاه إلى بذل أقصى مجهوده لجمع كلمة الشعوب العربية إلى غاية الطرفين المشتركة ، وحث هذه الشعوب على أن لا تمد يد المساعدة لأعداء بريطانيا بأي وجه كان ، فإنه على نجاح هذا المجهود ، وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرض الحلفاء ، عندما يجيء وقت العمل ، تتوقف قوة الإتفاق بين الطرفين وثباته . وختم كتابه بتطمينه أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية ، وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك ، وبتقديمه /٢٠/ ألف جنيه عربوناً على صدق نية إنكلترا ، ومساعدة له في مجهوده للغاية المشتركة(١٢٠).

وعلى الرغم مما جاء في رسالة مكماهون هذه من إصرار وثبات على مطالب إنكلترا ، فإن الرسالتين التاليتين اللتين حررهما الشريف حسين ، جواباً عن هذه الرسالة وعن رسالة مكماهون التالية ، لم تفصحا عن شيء من الإصرار والصلابة ، اللهم إلا ما جاء في أولاهما ، المؤرخة في كانون ثاني ١٩١٦ ، من تأكيد بأن ما يقوم به الحسين ليس لغايات وميول شخصية ، بل نتيجة مطالب ورغائب الشعب العربي ، الذي لم يكن الشريف سوى ناقل ومنفذ لرغبته وإلحاحه . وأما قضية التعويض الذي طلبه عن احتلال بريطانيا المؤقت للعراق فإنه ، رغبة منه في تقوية ثقة بريطانيا بنياته

(١١٩) الوثائق والمعاهدات . . ، ص٩ ؛ أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٢٦٠ ــ ٢٦٢ .

(١٢٠) الوثائق والمعاهدات . . . . ، ص١١ .

في القول والعمل، يدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وإنصافها، مذكراً السير مكماهون بأن ما أبداه في رسالته السابقة فيما يتعلق بالأقسام الشمالية من سورية ومرافئها، هو أقصى ما يمكن أن يوافق عليه من تعديلات، وأن ما أبداه من تساهل هو في سبيل تجنب كل ما من شأنه أن يسيىء إلى تحالف إنكلترا وفرنسا، والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب. لكنه يختم رسالته بالتنازل عن بيروت مؤقتاً لفرنسا، على أن يطالب بها بعد انتهاء الحرب «سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسة في بيروت وسواحلها»، مؤكداً أن الشعب البيروتي لا يرضى قط بذلك الإنفصال، قائلاً بلهجة التهديد «وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة لبريطانية، تفوق في صعوبتها متاعبها الحاضرة... وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالإستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة...»(١٢١). وهنا لا بد لي من ملاحظة أن الكاتب جورج أنطونيوس قد أغفل ذكر هذه النقطة بوضوح في متن كتابه، بل أشار إليها بإبهام وغموض، بينما أثبتها في نصوص الملاحق، لكن كتاب العرب قد أغفلوا الخوض فيها، مع ما لها من الأهمية في قضية العرب القومية.

أما رسالة الحسين الخامسة المؤرخة في ١٩١٦/٢/١٨، فقد سلمت بما جاء في رسالة مكماهون الرابعة التي طلبت تأجيل البحث في مسألة ولاية بغداد، والوصول إلى تسوية سلمية بشأنها وإعارتها الاهتمام والعناية الزائدين بعد أن تتم هزيمة الأعداء، أي تأجيل الخوض فيها إلى ما بعد انتهاء الحرب، وذلك بالرغم من أنها (أي رسالة مكماهون) سجلت على الحسين ما استشفته من رغبته في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا، وأبدت سرورها بإبداء مثل هذه الرغبة، كما أكدت بحزم قرار إنكلترا وفرنسا قراراً نهائياً بأن لا يسمحا بأي تدخل ــ مهما قل شأنه ــ في اتفاقهما المشترك في إيصال هذه الحرب إلى الفوز، وأنه متى انتهت فإن صداقتهما ستقوى وتشتد(١٢٢). وليسْ بخاف على المدقق ما تحويه مذكرة السير مكماهون من معان تطويها هذه السطور وكلها تنم بوضوح عن إصرار إنكلترا على التحفظات التي وضعتها للإعتراف باستقلال العرب، ومن أنها لن تحيد عنها حتى بعد إنتهاء الحرب، بقولها إن صداقتها مع فرنسا ستقوى وتشتد، وهل يمكن أن تقوى وتشتد إلا إذا أجيبت مطالب فرنسا كاملة في سورية؟. كان على الحسين، إذن أن لا يستكين ويرضخ لعناد الإنكليز بهذه السهولة، ويجيب على خطاب مكماهون بقوله «إن مضامينه

---

(١٢١) HUREWITZ, Ibid. II, p. 16; ANTONIUS, Ibid. p. 425, appendice N°7.

(١٢٢) الوثائق والمعاهدات..، ص١٣؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ٥٦٩ ــ ٥٧١ (الملاحق).

أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب»[١٢٣]. فما هو السبب الذي حدا بالشريف إلى هذه الليونة والتراخي ؟ .

لا شك أن عوامل نفسية كثيرة دفعته إلى ذلك ، منها قبل كل شيء عداؤه للأتراك الاتحاديين ، ورغبته في الثورة عليهم بأي ثمن . ثم ثقته العمياء بنزاهة إنكلترا التي أعتقد أنه خبر نياتها ، في أثناء إقامته في الآستانة ، حيث نشأت بينه وبين السفارة البريطانية صلات ودية ، وحيث لقي تعيينه على إمارة مكة سنة ١٩٠٨ معاضدة بريطانيا سراً . وبنتيجة هذا الإيمان الراسخ ، بإخلاص بريطانيا في معاملتها ، فسر الحسين تنويه مكماهون ، في كون مسألة العراق ستبحث بعناية بعد الحرب ، على أنه موافقة صريحة على مقترحاته بشأنها ، وترك لإنصاف بريطانيا أمر تقدير التعويض المالي عن احتلال أجزائه الجنوبية .

أما بشأن المناطق السورية الواقعة غرب خط دمشق ــ حلب ، فقد رأى نفسه أمام معضلة : الإنكليز يصرون على تحفظهم حولها ، وهو لا يستطيع أن يبت في الموضوع لأنه لا يتكلم باسمه الشخصي ، لذلك حسم الأمر بتأجيل بحثه إلى ما بعد انتهاء الحرب ، حرصاً على اجتناب ما يعكر صفو العلاقات بين فرنسا وإنكلترا ، وهذا جلّ ما كان يتمناه الإنكليز ، لأنه بذلك قد جعلهم يطمئنون إلى قيام ثورة عربية تدعمهم ، وتسهل عليهم احتلال الشرق ، والوقوف أمام التقدم الألماني فيها ، ومن جهة أخرى ــ وقد كانوا على اتفاق مع حلفائهم في شأن تقسيم هذه البلاد ــ قد ترك لهم الحرية والمجال مفتوحاً كي يحققوا ، بعد الحرب ، مطالب فرنسا في سورية . وقد غاب عن بال الحسين أو تجاهل كونه قد ربط ، في أول محادثاته مع مكماهون ، مسألة التحالف مع إنكلترا ، بأمر الموافقة العاجلة الكاملة على شروطه في حدود الدولة العربية مقدماً . ولم يعد يطلب جواباً عن أية نقطة من النقاط التي أوردها ، بل كان يتصرف في كتابته وكأن الصفقة الرابحة قد عقدت مع بريطانيا ، ويؤكد عزمه على إعلان الثورة في أقرب فرصة ، وأنه سيبلغ مكماهون في الوقت المناسب عما يحتاج إليه من الأسلحة والذخائر والمؤن[١٢٤] . بينما لو تصلب الحسين ولم يرضخ بهذه السهولة لربما يكون قد حصل على شروط أفضل ، ذلك أن الإنكليز كانوا في ذلك الوقت في موقف حربي حرج في الشرق . فلقد بدأت حملتهم على العراق تلقى الفشل تلو الفشل ، إلى أن حوصرت قوة كبيرة تشكل القسم الأعظم منها ، بقيادة الجنرال «تاونزند» ، في كوت الإمارة ابتداء من أوائل كانون الأول

---

(١٢٣) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٥٧١ (الملاحق نقلا عن الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين الجامعة العربية) .

(١٢٤) المصدر السابق ، ص٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

١٩١٥، ولم تجد بدا من الاستسلام بعد خمسة أشهر من الحصار المرّ[١٢٥]. وفي الوقت نفسه كانت جيوش الحلفاء وأساطيلهم تعاني فشلاً أعظم في هجومها على الدردنيل، وكان عليها أن تجهز هجوماً في جبهة أخرى لتغطي نتائج هذه الهزائم، فقررت القيام بحملة من مصر بقيادة الجنرال السير «أرشيبالد مورّي SIR ARCHIBALD MYRRAY»، ليسير على شبه جزيرة سيناء، ويتقدم عبر فلسطين إلى القدس[١٢٦]، وكانت بالتالي بحاجة ماسة إلى محالفة الشريف ليحمي جناح الحملة الأيمن. وبالفعل لم تقم تلك الحملة إلا بعد أن أُعلنت الثورة العربية. فلو أن الشريف تريث ولم يستعجل الإتفاق، لكان ذلك أجدى على القضية العربية. لكنه كان على ما يظهر يخشى الحكومة التركية التي بادرت إلى تعزيز قواها في المدينة خاصة لمناوأته. ومن جهة أخرى عاد الإنكليز إلى فرض الحصار البحري على شطوط الحجاز اعتباراً من ١٥/١١/١٩١٥، فكادت المجاعة أن تفتك بالسكان. ويظهر أنهم قد تعمدوا ذلك لإجبار الحسين على الرضوخ لمطالبهم[١٢٧].

على أن أمراً آخر يجب أن لا نغفل عنه هو تلك المنافسة التي كانت بينه وبين عبد العزيز آل سعود، الذي كان الحسين يعرف أنه يتحين الفرص للإنقضاض على مكة وطرده منها، لا سيما بعدما علم بأمر معاهدة «القطيف» التي عقدها مع الإنكليز، والتي لعبت دوراً هاماً في القضية العربية، دون علم من موقعها ابن سعود. لأن الإنكليز استخدموها في التغلب على آخر محاولات التردد والتصلب التي أبداها الحسين. وقد جاءه علمها في أواخر كانون الأول ١٩١٥، وقبل أن يبعث برسالته الثالثة المؤرخة في ١ كانونّ ثاني ١٩١٦، والتي ظهر فيها التساهل من جانبه بشكل فجائي لم يُعهد في رسائله السابقة. وقد لوح له الإنكليز بأن أمير نجد أصبح «صديقهم»، وأن تركه ينقضّ على الحجاز أمر غدا بيدهم لا بيد أحد غيرهم. وفي هذه الحالة يكون بين فكي كلابة إحداهما قوة الأخوان من جنود عبدالعزيز بن سعود، والأخرى فرق السير «أرشيبالد موري»، التي تستعد للزحف من مصر. والحل الوحيد أمامه هو أن يعطي قراره النهائي بأسرع ما يمكن، حتى إذا أصبح حليفاً لإنكلترا يكون في حمايتها، ويصبح في نجاة من كل اعتداء[١٢٨]. وهكذا تم كل شيء كما أراد الإنكليز، وكانت تلك الصفقة التي وصفها أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب»، بأنها

---

(١٢٥) CAPITAINE EDWARD MOUSLAY, Le Siége De Kut-El-Amara, pp. 37, 187-189.

(١٢٦) B. MECHIN, Ibid. p. 199.

(١٢٧) R. ALDINGTON, Lawrence l'impasteur p. 116.

(١٢٨) Ibid. pp. 201-202.

« صفقة يائس مستهتر » ، وأن في شروطها « دليلاً على سذاجة في المنقذ الأكبر مهما كان دهاؤه السياسي »[١٢٩] .

قيمة وعود بريطانيا للشريف

لقد اختلفت الآراء حول قيمة هذه الوعود ، فمنهم من رأى فيها خيراً للقضية العربية ، وإن يكن فيها ، من الشروط الناقصة والغموض ، ما جعل الحكومة البريطانية حرة طليقة في توزيع وعودها المتناقضة ، على مقدار ما كان هناك من أطراف ذات مصالح متعارضة : كالعرب والفرنسيين واليهود ، وانتُحل للشريف حسين شتى المعاذير ، كاضطراره إلى إعلان الثورة على الترك لاستحالة الاتفاق معهم على حل القضية العربية حلاً عادلاً ، ولازدياد ضغط الحالة الاقتصادية على بلاده ، من جراء الحصار الذي فرضه الإنكليز على شواطئها ، أو كعجزه عن مواجهة الدبلوماسية الإنكليزية ، وهو رجل واحد وقف بإزاء دولة كبرى عريقة في السياسة ، ولم يكن باستطاعته أن يملي إرادته ويفرض شروطه بالشكل الذي يقف فيه موقف الند للند مع الإنكليز[١٣٠] . قال محمد عزة دروزة ، المعاصر للحوادث « لقد بولغ كثيراً في توجيه النقد للحسين لما كان من منافذ وثغرات في مراسلاته ، وفي النتيجة التي آلت إليها ، ونعتقد أن هذا النقد قد صدر بروح ما بعد الحرب ، ونتيجة لما كان من غدر الإنكليز وختلهم ، وخيبة الآمال التي علقها رجال الحركة العربية على انتصار الحلفاء » . وبرر الكاتب تصرف الحسين في عقد الصفقة مع الإنكليز بما كان من غضبه هو وأولاده حينما بلغهم خبر اتفاقية(*) سايكس ــ بيكو[١٣١] .

ومهما يكن من أمر فإن الذي يؤخذ على الشريف حسين إسرافه في الثقة بشرف بريطانيا ، هذا الذي اعترف هو نفسه به إذ قال في خطاب موجه إلى شيوخ البدو « لقد أصغيت ووجدت نفسي مسوقاً مع الإنكليز الخونة . لقد ساهمت في المحافظة على إمبراطوريتهم الاستعمارية الإسلامية ،

---

(١٢٩) ناجي علوش ، الثوري المعاصر ، ص١٨٤ ، اقتباساً عن أمين الريحاني ، ملوك العرب ، ص ٧٥ ، ج١ .

(١٣٠) فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص٢٩٣ ، (نقله أحمد طربين ، التنازع الدولي حول أقطار آسيا العربية ، ص٥١) .

(*) الرد على دروزه يُلخص بكون اتفاقية سايكس ــ بيكو كانت سرية ولم يطلع الحسين عليها إلا في نهاية الحرب ، سيما أن التوقيع عليها بالحروف الأولى كان في ١٩١٦/٣/١٥ ، بينما كانت تنازلات الشريف ضمن رسالته الثالثة المؤرخة في ١٩١٥/١١/٥ .

(١٣١) محمد عزة دروزة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٨ ــ ٥٩ .

وبفضلنا بقي طريق الهند حراً خلال الحرب .. وأسفاه لقد اعتقدت بأنني كنت أعمل لعظمة الإسلام ووحدته . وسارت الأمور على غير ما أريد »[132] . وفي معرض الحديث عن مراسلات الحسين ـــ مكماهون كان الكولونيل الإنكليزي لورنس ، مرافق الأمير فيصل في زحفه نحو دمشق ومستشاره ، صريحاً في ما سرده في كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » قال « لم أُبلَّغ رسمياً ولا ودياً بتعهدات مكماهون واتفاقية سايكس ـــ بيكو ، وبما أنني لست أحمق مطلقاً فقد كنت أرى ـــ إذا كسبنا الحرب ـــ أن الوعود المقطوعة للعرب ستكون قصاصة ورق . ولو كنت مشاوراً شريفاً لصرفت رجالي عوضاً عن أن أتركهم يجازفون بحياتهم ... ولكن ألم تكن الحماسة العربية أفضل أداة لنا في حرب الشرق الأدنى . لقد قلت لرفاقي في النضال (العرب) بأن إنكلترا تحترم وعودها نصاً وروحاً ، فأطمأنوا لذلك ، واستقتلوا ببسالة . أما أنا فمعاذا الله أن أفخر بما فعلناه معا . فما زلت أتميز من مرارة الخجل »[133] . وقد سخر لورنس مرة من الأمير عبد الله بن الحسين ، الذي غرته وعود إنكلترا التي أعتقد أنها قد ضمنت استقلال العرب ، وقال « وقد حاولت غير مرة أن أقول له إن الشيخ الساذج لم يحصل منا على وعد صريح أو غير صريح من أي نوع ، وأن سفينتهم قد تغرق بسبب سياسته الخرقاء . ولكني ـــ لو فعلت ـــ لكنت بذلك قد خنت رؤسائي الإنكليز . وكان فكري يتردد بين الصدق والإخلاص لرؤسائي ، وقد انتهيت بعد تردد إلى اتباع أسهل الأساليب وهو السكوت »[134] . كما قال « دخلت على الأمير عبد الله يوماً فوجدته منتصباً وقد اتسعت حدقتاه وضرج الدم خديه ، ذلك أنه تلقى رسالة من الكولونيل بريموند (رئيس البعثة الفرنسية في الحجاز) يشير فيها إلى أن الإنكليز يحاولون تطويق العرب من كل ناحية : في عدن وغزة وبغداد ، ويأمل أن ينظر عبد الله إلى هذا الموقف نظرة صحيحة . سألني عبد الله بحماسة عن رأيي في ذلك ، فاصطنعت في جوابي له عبارة لطيفة هي أني آمل أن يشك في إخلاصنا حين يرانا نوقع في حلفائنا بالمراسلات السرية . إن رطانتي بالعربية أضحكته فأجابني بالمقابلة أنه يعلم بإخلاصنا منذ أن أصبح الكولونيل ويلسن ممثلنا في جدة . ولكن ذكاء الأمير قد خدعه هذه المرة ، فقد فات أن إخلاص ممثل دولة قد يكون أكبر حيلة تعمد إليها ، إذا ما أرادت جر المغانم جميعها ، وقد كان ويلسن أبعد من يشك في نيات رؤسائه »[135] . ولولا موقف لورنس الحرج بين القيام بواجبه نحو رؤسائه الإنكليز ،

---

(١٣٢) دكتور حاطوم ، المصدر السابق ، ص٥٩ .

(١٣٣) LAWRENCE, Ibid. pp. 345-346; أورد النص الدكتور حاطوم ، المصدر السابق ، ص٥٨ .

(١٣٤) لورنس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ترجمة النعيمي ، ج٢ ، ص١٧٦ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ص١٧٧ .

وبين واجبه بأن يكون مخلصاً لفيصل بصفته مستشاراً له ، ويقضي شرف المهمة بأن يكون صادقاً معه ، لكان أفضى إليه بأشياء كثيرة ، قال « كان فيصل يثق بشرفي وجدارتي إلى درجة أنه كان كثيراً ما يعمل بآرائي دون أن يناقشها . ومع ذلك لم يكن باستطاعتي أن أشرح للجنرال اللنبي كل الموقف العربي ، ولا أن أكشف لفيصل عن مخطط اللنبي بتمامه »(١٣٦) . وفوق ذلك يعترف لورنس بأن العرب لو لم يكونوا ضعفاء عسكرياً ، وسيبقون كذلك بعد النصر أيضاً ، لعدم وجود موارد معدنية يستطيعون الاعتماد عليها لصنع آلات الحرب الحديثة ، لترددت إنكلترا كثيراً قبل أن تُقدم على إثارة هذه الحركة القومية الجديدة العنيفة في هذا المركز العسكري المهم في الشرق الأوسط(١٣٧) .

---

(١٣٦) LAWRENCE, Ibid. p. 482.

(١٣٧) لورنس ، المصدر السابق ، ترجمة النعيمي ، ج١ ، ص١٣٠ .

الفصل الثاني

اتفاقيات الحلفاء لتقسيم الممتلكات العثمانية وتصريح بلفور

لقد فتح اشتراك تركيا في الحرب باب المسألة الشرقية على مصراعيه، ذلك أنه قد دفع الحلفاء إلى اقتسام أراضي الدولة العثمانية، حتى قبل انتهاء الحرب، وقبل أن تنعقد لهم راية النصر عليها وعلى حليفاتها.

حقاً إن فكرة التقسيم قد استبعدت في بادىء الأمر، علماً من الحليفتين الغربيتين فرنسا وإنكلترا، بأن فكرة سلامة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها لم تزل تلقى من التأييد — سواء في فرنسا أو إنكلترا، حتى بعد دخول تركيا في الحرب — ما يجعل هاتين الدولتين تترددان في اتخاذ الخطوة الحاسمة. وحتى عمليات الدردنيل الحربية لم يُقصد منها في بادىء الأمر سوى أن تكون وسيلة لإخراج تركيا من الحرب. ولم تضع فرنسا وإنكلترا مسألة اقتسام الممتلكات العثمانية — في الواقع — على بساط البحث إلا عندما تقدمت حليفتهما روسيا مطالبة بحيازة الآستانة والمضائق. وعندها لم تر فرنسا — المترقبة سنوح الفرصة الملائمة — بدا من المبادرة إلى التدخل، يدفعها إلى ذلك حرصها على حماية ما تدعيه من مصالح مادية(*)، ومن مكانة أدبية في الشرق[1]، وعلى تحقيق

(*) ارتفعت مبالغ رؤوس الأموال الفرنسية التي وظفت في سورية قبل الحرب إلى ما يقارب /٢٠٠/ مليون فرنك، ووزعت بين مختلف المشاريع الاقتصادية والمالية: كمد شبكات الخطوط الحديدية والبنوك (وخاصة البنك العثماني)، وإنشاء الموانىء وإصلاحها، وخاصة ميناء بيروت، وامتيازات الحافلات الكهربائية (الترامواي اللبناني). كما أن ثلث الصادرات السورية كان يذهب إلى فرنسا، بينما لم يكن لإنكلترا بالمقابل سوى ٥، ٩٪، وللألمانيا ٢٪، وللنمسا — المجر ٥، ١٪، (دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٣٠).

(١) COMPTE DE GAUNTOT—BIRON, Ibid. pp. 2-3, 9.

مطامعها الاستعمارية التقليدية في الإستيلاء على سورية التي أعطت لنفسها الحق أن تطلق عليها اسم «فرنسا الشرق»، والتمتع بمواردها الإقتصادية، والحصول على حصة من بترول الشرق الأوسط[٢]، والسيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي الهام الذي يساعدها ــ في الوقت نفسه ــ على حماية وجودها في المغرب العربي، ذلك الذي عبر عنه، فيما بعد، مقيمها العام في تونس، «بضرورة حماية نفوذ فرنسا الأدبي والسياسي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، كدعامة للسلام الفرنسي في تونس وبقية أنحاء المغرب العربي، ذلك السلام الذي لا يمكن أن توطد أركانه إلا إذا بسطت فرنسا سيطرتها على سورية، وبصورة خاصة على حلب، ولا سيما دمشق، لما لها من مكانة عظيمة الشأن، باعتبارها مركزاً إسلامياً بالغ الأهمية»[٣].

وأما إنكلترا فقد مر معنا في الفصول السابقة ما من شأنه إعطاء فكرة واضحة عن مطامعها في هذه المنطقة التي أصبح الإنكليز يطلقون عليها ــ منذ ما قبل الحرب ــ إسماً جديداً «منطقة الشرق الأوسط»، والتي أصبحت منذ ١٩٠٧ الشغل الشاغل لهم[*] ذلك أن البحر المتوسط طريق اقتصادي هام بالنسبة إليها، وبصورة خاصة ساحله السوري ــ الفلسطيني، «فكما أن مصر مفتاح الطريق البحري إلى الهند، كذلك سورية هي المفتاح البري إليها»[٤]، إذ إن الهند معقد آمال الإنكليز، ترتبط بذلك البحر المتوسط بطريقين: طريق البحر الأحمر، وطريق العراق، وإذ كان الطريق الأول إنكليزياً منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، فقد أصبحت سياستها الشرقية ترتكز على نقطة المحافظة عليه، فإما أن يبقى لها أو أن تخسر تجارة الهند «أن تكون أو أن لا تكون». هذا هو الشعار الذي أصبحت تنطوي عليه سياستها المرسومة فيما يتعلق بهذا الطريق. أما بالنسبة للطريق الثاني فإن اتصالاً أرضياً بين مصر والهند ــ عبر شبه الجزيرة العربية ودجلة والفرات ــ قد أضحى ضرورياً، حتى في صالح الطريق البحري: السويس ــ عدن. ولم تقف سياسة إنكلترا عند هذا الحد، بل امتدت أطماعها حتى إلى السيطرة على المضائق كوسيلة لتأمين طريق ثالث يؤدي إلى الهند هو طريق عواصم أورية ــ الآستانة (الأناضول ــ حلب ــ العراق ــ كراتشي)[٥]، وإن

---

(٢) ارسكين تشايلدرز، المصدر السابق، ص٦٥.

(٣) G. GAUTHEROT, Ibid. p .62.

(*) وهي تشمل المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى حدود الهند.

(٤) J. PICHON, Les Origines Qrientales De Le Guerre, 11.

(٥) راشد طبارة، المصدر السابق، ص٩٨؛ L. LYAUTEY, Le Drame Oriental Et Le Rôle De La France, pp. 111-113.

كان من شأن العمل على تحقيقه أن يثير مشاكل يبدو حلها النهائي أمراً خيالياً . لكن الاستعماريين الإنكليز لم يدخروا وسعاً في السعي لحلها ، اعتقاداً منهم أن أمن وسلامة تجارتهم لا يقومان إلا بتحقيق هذا الهدف(*) . لذلك فإن السيطرة على المضائق ، وعلى طريق بور سعيد ــ البصرة البري ، بالإضافة إلى فارس وبلوجستان وأفغانستان والأردن والعراق ، وحتى على سورية إذا أمكن ، كانت الأهداف الرئيسية لسياسة إنكلترا في الشرق(٦) .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه كان لإنكلترا أهداف أخرى أقرب من هذه الأهداف البعيدة ، وهي رغبتها في السيطرة على البصرة لأنها ضرورية لحماية سيطرتها على الخليج العربي ، وعلى منابع البترول في المنطقة الإيرانية ، ولاستثمار ثروات العراق البترولية ، ولتأمين الحماية لحلفائها من المشايخ العرب في سواحل الخليج ، والحيلولة دون إقامة منافستيها ألمانيا أو روسية أو الدولة العثمانية قواعد بحرية في صميم الطرق الإمبراطورية المؤدية إلى الهند(٧) خاصة بعد حصول ألمانيا على امتياز خط حديد هامبورغ ــ بغداد ووشك نهاية العمل فيه قبيل اندلاع الحرب .

غير أن نشوب الحرب العالمية الأولى ، وارتباط المصالح الإنكليزية والفرنسية والروسية السياسية والحربية بعضها ببعض ، باعتبار هذه الدول حليفات ضد عدو مشترك ، أوجب على كل منها أن تتنازل عن شيء من مطامعها البعيدة الواسعة ، وتركزت مطالب كل منها في المناطق التي أسفرت عنها اتفاقات سايكس ــ بيكو ولندن . وقد اضطرت إنكلترا بصورة خاصة ــ حرصاً منها على كسب الحرب بسرعة ، وعلى اجتذاب حلفاء يسيرون معها جنباً لجنب في إحراز النصر ــ إلى التساهل مع حليفاتها في هذه الاتفاقات ، وإلى إطلاق الوعود يميناً ويساراً ، سواء إلى العرب الذين يريدون التحرر من نير العثمانيين ، أو إلى اليهود الذين كانوايعملون بكل جهد وإصرار لامتلاك فلسطين وطناً قومياً لهم ، بقطع النظر عن تناقض هذه الوعود(٨) .

(*) مما يدل على مطامع إنكلترا القديمة في هذا الطريق البعثة التي أوفدت برئاسة «جسني F.R. CHESNEY» ليسبر غور نهر الفرات ومعرفة مقدار صلاحه للملاحة النهرية من أعاليه إلى المصب ، والأعمال البارزة التي قام بها مهندس الري «WILIAM WILCOCKS» في العراق (راجع ص١٧٦ ــ ١٧٧ من كتابي السابق العرب والترك) .

(٦) E. JUNG, La Révolte Arabe, II, p. 14: P. LYAUTEY, Ibid. pp. 111-113.

(٧) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 114-115.

(٨) جان جاك بيربي ، المصدر السابق ، ص١٠٤ .

١ ـ المرحلة الأولى : الاتفاقات الفرنسية ـ الروسية ـ الإنكليزية

قبل اجتماع المفاوض الفرنسي جورج بيكو بالمفاوض الإنكليزي مارك سايكس جرت مخابرات أولية بين الحكومة الروسية والحلفاء بشأن المضائق. في الواقع كانت روسيا تعمل لهذه القضية من زمن بعيد، وبصورة خاصة في نهاية عام ١٩١٣، عندما برز إلى الوجود خطر النفوذ الألماني في الدولة العثمانية، بقدوم الجنرال ليمان فون ساندرس إلى الآستانة، فازداد بقدومه قلقها، إذ أصبحت القوات العثمانية التي تحرس المضائق تتلقى تدريبها على أيدي الضباط الألمان. وهذا ما جعل الأوساط الرسمية الروسية في حالة يأس من إمكان حل مسألة المضائق باتفاق دولي يحظى بموافقة الدول العظمى الإجماعية. لذلك عقد الروس في ٢١ شباط ١٩١٤ مؤتمراً ضم العسكريين والدبلوماسيين منهم، واتفقوا على رأي يقول إن القضية أصبحت غير قابلة للحل إلا بطريق القوة، عندما تحين الفرصة المناسبة. وكانت الفرصة التي يرتقبونها أقرب مما كانت تظن أوساطهم الرسمية. فقد فتح دخول تركيا الحرب أمام الدبلوماسيين الروس واسع الأمل في الوصول إلى أهدافهم التاريخية. فاغتنمت حكومتهم في ١٩١٤/١١/٢ الفرصة كي تشير بلسان القيصر إلى ما أسمته «بالمعضلة التاريخية التي ناط بهم أجدادهم أمر الاضطلاع بحلها على ضفاف البحر الأسود» وتفاتح بها حلفاءها[٩]. وهكذا بعد أن عقد «بينكندورف BENCKENDORFF»، سفير روسيا في لندن، اجتماعين مع اللورد غراي، وزير خارجية إنكلترا، استطاع الحصول على تأكيد منه (١٩١٤/١١/٩) بأن مسألة المضائق ستحل وفقاً لرغبة روسيا فيما إذا هزمت ألمانيا في الحرب[١٠]، بينما كان ملك الإنكليز أكثر صراحة بقوله للسفير إن الآستانة ستكون ملكاً لكم. غير أن الأمل العريض، الذي ارتسم في أذهان الروس من هذه الوعود الشفهية، لم يلبث أن تبدد عندما تلقوا، من سفير إنكلترا في بطرسبورغ، جواباً خطياً لمذكرة وجهتها وزارة الخارجية الروسية إليه تقول إن حل المسألة لا يكون إلا بعد هزيمة ألمانيا، وفي مؤتمر للصلح يعقد بعد انهيارها العسكري، يقرر فيه مصير المضائق والنظام الذي ستدار بموجبه، ولم يشر الجواب إلى شيء يرضي مطالب الروس. ولم تلوّح إنكلترا بما يرضي قليلاً من هذه الرغبة إلا لقاء ثمن مقابل «بأن تُلحق مصر بإنكلترا إلحاقاً تاماً»[١١]. فتلقت الحكومة الإنكليزية على الفور

---

(٩) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, Doc. Diplom. Russes, Constantinople Et les Détroits, I,5-8.

(١٠) ELIE KEDOURIE, England And The Middle East, p. 30.

(١١) LAPRADELLBET COMPAGNONS, I, p.8.

برقية برقم ٣٨٦١ وتاريخ ١٩١٤/١١/١٨ من المسيو سازونوف وزير الخارجية الروسية يقول فيها إنه «بموافقة إنكلترا على حل مسألة المضائق والآستانة أعلمكم ـــ بمزيد الامتنان ـــ موافقة حكومة صاحب الجلالة القيصر على إلحاق مصر بإنكلترا»، علماً بأن إنكلترا كانت في ذلك الوقت ترغب في حل المسألة المصرية بواسطة الإلحاق لا بإقامة نظام «حماية». كانت تحلم بأن تفرض على المصريين نظاماً شبيهاً بالنظام الذي فرضته على الهند. وقد أعلمت بذلك حليفتها فرنسا، مبينة بأنها لا تبدي أية معارضة فيما إذا ألحق الفرنسيون تونس ومراكش أسوة بها، لكن فرنسا لم تقبل بوجهة نظر إنكلترا، وطلبت إلى حلفائها بأن لا يتخذوا أي قرار بشأن إلحاق مصر في أثناء الحرب. عندئذ عدل الإنكليز عن هذه الفكرة، وأعلنوا الحماية بدلاً من الإلحاق في ١٩١٤/١٢/١٨(١٢).

الواقع أن روسيا نفسها لم تكن ـــ في هذه المرحلة ـــ قد حددت مطالبها بشكل واضح. كانت مباحثاتها تدور في بادىء الأمر حول «حرية المرور في المضائق»، و«طرد الأتراك، وإقامة نظام دولي في الآستانة»، تحاشياً لما يمكن أن تتعرض له من إقفال تركيا لمضائقها، وعرقلة التجارة الروسية، ومنعها من تصدير قمحها إلى الخارج. غير أنه في ربيع ١٩١٥ جدت أمور هامة بالنسبة لها، جعلتها تحرص على أخذ وعود صريحة من حلفائها. ذلك أن فرنسا وإنكلترا، حينما قررتا خوض معركة الدردنيل، كان عليهما، في حال نجاح هذه العملية، الاستيلاء على الآستانة. وبما أن روسيا كانت عاجزة عن تقديم القوات اللازمة للاشتراك في هذا الاحتلال، فقد أقلقها احتمال لجوء حليفتيها إلى تكليف اليونان بإمدادهما بالعون اللازم لهذا الاحتلال. فهل في استطاعة الدبلوماسية الروسية أن تتصور دخول الجيش اليوناني إلى «بيزنطة» التاريخية والروس بعيدون عنها؟ إذن فكل حل لمعضلة المضائق يجب أن يكون متلائماً مع مصلحة الروس. أما إذا لم تستطع روسيا الحصول على رغباتها من حلفائها فإن لها الخيار في اختيار الجانب الذي تستعين به على بلوغ هذا الهدف. فقد جاء في تصريح للمسيو سازونوف قوله «إذا استطعنا الحصول على طلبنا بالاتفاق مع فرنسا وإنكلترا ضد ألمانيا كان به، وإلا يكون من الأفضل لنا أن نحصل عليه بالاتفاق مع ألمانيا ضدهما». وهكذا وضعت روسيا صيغة مطالبها، ولأول مرة، بشكل واضح «ترى روسيا أن مصلحتها تقضي بالحصول على مضائق الدردنيل والبوسفور كي تؤمن لنفسها قاعدة وطيدة الدعائم، وعلى مساحة من الأراضي على الضفة الأوروبية بما في ذلك الآستانة، وحتى خط اينوس ـــ ميديا، بالإضافة إلى

---

(١٢) J. PICHON, Le Partage Du Proche Orient, p. 36.

مساحة أخرى على الضفة الآسيوية حتى نهر سقاريا، وعلى جزر بحر مرمرة علاوة على جزيرتي «ايمبروس Imbros» «وتينيدوس Ténédos» في بحر إيجة[١٣].

أمام هذه المطالب الصريحة من الحكومة الروسية رأت كل من إنكلترا وفرنسا الفرصة السانحة التي تتيح لهما تحقيق مطامعهما في بلدان الشرق الأوسط. لكن العقبة التي تقف أمام إجابة المطالب الروسية هي معرفتهما أن حيازة روسيا للآستانة والمضائق تجعل منها دولة بحرية عظمى تجد طريقاً لها إلى البحر الأبيض المتوسط، فيختل بذلك التوازن الدولي الأوروبي في هذه المنطقة، مما يوجب عليهما التفكير في الحصول على ترضيات متناسبة مع ما تبغي روسيا تحقيقه من مطامع[١٤]. غير أن الذي جعلهما ترضخان إلى مطالبها أيضاً، هو أن الحزب المناصر للألمان في بطرسبورغ أخذ ينمو وينتعش، وخشيتا أن يزيد رفضهما مطالبها في قوته وانتشاره، خاصة وأن ألمانيا حينما علمت بهذه التطورات بادرت إلى تقديم عروض صلح منفرد مع روسيا، على أساس أن تقدم لها الآستانة والمضائق هدية، لقاء انضمامها إلى المعسكر الألماني. وقد قامت بمحاولة التقريب بين روسيا وألمانيا البرنسيس «فاسيلتشيكوفا VASSILTCHIKOVA» وصيفة الإمبراطورة الكسندرا[١٥]. كما اتصل مدير البنك الألماني «مونكيفيتز MONKEVITZ» بالوزير المفوض الروسي في استوكهولم وحدثه قائلاً «إن ألمانيا على استعداد ــ في سبيل عقد صلح منفرد مع روسيا ــ أن تقدم لها الآستانة والمضائق، لقاء أن تعوض لحليفتها تركيا ــ بدلاً عنهما ــ بإعطائها مصر»[١٦]. عندئذ أخذت المفاوضات بين الحلفاء دوراً جدياً ــ في حين أصم القيصر أذنيه عن العروض الألمانية ــ ورأت كل من إنكلترا وفرنسا، اللتان أدركتا مقدار ما تستفيده روسيا من زيادة ونمو في قوتها بإلحاق الآستانة وتوابعها، أن تعملا على حيازة ما من شأنه أن يعيد توازن القوى الدولية بينهما وبينها، فبدأتا تستعرضان ما يتوجب عليهما ضمه من الممتلكات العثمانية، وما من شأنه أن يؤمن هذا التوازن[١٧].

وهكذا كان على إنكلترا أن تغتنم هذه الفرصة لتطالب بتحقيق أحلامها التاريخية في الإستيلاء على العراق وقسم من بلاد الشام الداخلية. وعلى فرنسا أن تطالب بمنطقة كيليكيا حتى

---

(١٣) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, Ibid. I, pp. 9-11. ; من المقدمة بقلم بييره نوفن.

(١٤) R. POINCARE, Au Service De La France, VI, pp. 94-95; E. KEDOURIE, Ibid. p. 31.

(١٥) LAPRADELLE ET COMPAGNONS, Ibid. I, pp. 10-11. ; الوثيقة رقم ٣٣٢ في ١٩١٥/٥/٢٧.

(١٦) Ibid. p. 11 ; من برقية الوزير المفوض الروسي في استوكهولم، الوثيقة رقم ٣٣٣ في ١٩١٥/٧/٢٠.

(١٧) E. KEDOURIE, Ibid. p. 31; J. PICHON, Le Partage Du prôche Orien t, p. 40.

جبال طوروس، وبسورية غير مكتفية بذلك، بل امتدت أطماعها إلى شمالي العراق وقلب الأناضول، فأخذت تفاوض إنكلترا على هذا الأساس. وبينما لم تعارض إنكلترا حليفتها في هذه المطالب إلا أنها رأت أن لها الحق بالمقابل في المطالبة بتوسيع منطقتها من حدود سيناء على طول سواحل فلسطين حتى حيفا على أقل تقدير. كما قالت بوجوب استرضاء العرب بمعاملتهم في سورية الداخلية معاملة تختلف عما في سورية الساحلية[١٨]، التي جعلتها موضوع استثناء في المخطط الذي باحثت الشريف حسين على أساسه، والتي التزمت في مفاوضاتها معه جانب الحذر الشديد بشأنها، مع الحرص الزائد على جعل نصوص المراسلات بينها وبينه غاية في الإبهام والغموض، بينما هي — في الوقت نفسه — تمنح قسماً من البلاد التي وعدته باستقلالها إلى حليفتها فرنسا. وكان باعث حرصها على كتمان مفاوضاتها مع فرنسا عن الشريف حسين، وكتمان تفاصيل مراسلاتها مع الشريف عن فرنسا، هو الخوف من فشلها في التوفيق بين مطامع فرنسا الاستعمارية ومطمح الشريف حسين في إقامة الدولة العربية الموحدة التامة الحدود، لما في مطالب الطرفين من تناقض واضح. ولا يخفى أن هذا الفشل في تلك الأيام العصيبة، حينما كانت الحرب تمر في أحرج دور من أدوارها، كان من شأنه أن يؤدي إلى نتائج خطيرة. لذلك آثرت أن تترك الأمور معلقة، خاصة بينها وبين الجانب الأضعف، أي الشريف حسين، اعتقاداً منها أن في وسعها أن تجد حلاً ما للمشكلة في نهاية الحرب[١٩].

دامت المفاوضات بين الحلفاء لاقتسام التركة من أواسط عام ١٩١٥ إلى شهر أيار ١٩١٦، ومرت في مرحلتين. أولاهما بين فرنسا وإنكلترا وروسيا، والثانية بين فرنسا وإنكلترا. والشيء الجدير بالذكر أنها قد جرت في جو ساده القلق والارتياب والارتجال، ولم تتقدم إلا بمشاق كبيرة. وقد واجهت فرنسا خلالها مشروعين بريطانيين رأت فيهما ما ينافي مصالحها في سورية، ويهدد تلك المصالح تهديداً خطيراً، أولهما مشروع احتلال الإسكندرونة، والثاني مشروع الإتفاق مع الشريف حسين، فخافت من نتائجهما، وأخذت تخالفهما مخالفة شديدة. وبينما وفقت في نهاية الأمر إلى إحباط المشروع الأول لم تنجح في عرقلة المشروع الثاني[٢٠].

كان الغرض من المشروع الأول حماية مصر من هجوم يشنه الألمان عليها بقطع الطريق عليهم

(١٨) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٣٦.

(١٩) ج. دي ف. لودر القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق، ص١٧ — ١٨.

(٢٠) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ص٣٧.

عبر سورية ، وهو من بنات أفكار اللورد كتشنر وزير الحربية البريطاني ، الذي أصبح ـــ بعد زيارته لجبهة غاليبولي في الدردنيل ـــ يلح على ضرورة إخلاء الدردنيل ، إذ تأكد لديه أن الأمل المعقود على هذه الحملة في اختراق المضائق والوصول منها رأسا إلى عاصمة الدولة العثمانية ، بناء على إلحاح روسيا ، أمر مستحيل . وكي يغطي الأثر المعنوي الذي ينجم عن هذا الانسحاب ، أخذ يصر على رأيه في إرسال حملة على ميناء الإسكندرونة ، تتغلغل منه نحو الداخل ، لما لها من أثر فعال في الحيلولة دون هجوم بلغه من مصدر ثقة أن الألمان يهيئونه لاقتحام قناة السويس والاستيلاء على مصر ، مؤكداً بأن سلامة مصر مما يهم جميع الحلفاء[٢١] .

وبينما كان هذا المشروع موافقاً لرغبة الشريف حسين في قطع الطريق على الجيوش التركية التي تستطيع الدولة أن تسيرها إلى الحجاز فيما لو أعلن ثورته ، لم يستصوبه الفرنسيون بل عارضوه بشدة خشية من تأثيره على مستقبل مطامعهم في سورية ، باعتبار أنهم كانوا عاجزين عن تقديم قوات تساهم في الحملة التي ستأخذ على عاتقها تنفيذ المشروع . فإذا ما قامت به القوات الإنكليزية تتعرض مصالح فرنسا ونفوذها إلى خطر عظيم ، إذ من شأن هذا العمل أن يدفع بالسوريين إلى أحضان الإنكليز[٢٢] . لذلك حاربه الفرنسيون بكل ما لديهم من قوة ، ووفقوا إلى حمل الإنكليز إلى العدول عنه ، بالرغم من إصرار اللورد كتشنر عليه ، وتحذير حكومته بأنه « إذا لم يؤمن الدفاع عن مصر فإنها سوف تضيع وتنتهي الحرب ضد مصلحة إنكلترا ، وأنه سيعرض هذا الرأي أمام مجلس الوزراء الإنكليزي فإذا لم يشاطره رأيه فيه فإنه سوف يعلن عدم تحمله مسؤولية النتائج التي ستترتب على رفضه » . إلا أن الحكومة البريطانية قد أبدت استعدادها « للتضحية ـــ إذا اقتضى الحال ـــ بالدفاع عن مصر في سبيل ضمان النصر في الجبهة الغربية » ، كما صرح بذلك اللورد غراي بلهجة حاسمة ، وأضاف قائلاً « مهما تكن النتائج التي نرتجيها من الخطط الرامية إلى تأمين خط الدفاع عن مصر ، لكننا لا نجهل بأن المعركة الحاسمة التي ستقرر المصير النهائي للحرب ستكون فوق الأرض الفرنسية »[٢٣] . كما تمكن المسيو « أوغانيور AUGAGNEUR » ، وزير البحرية الفرنسية ، حينذاك ـــ وقد زار إنكلترا لهذا الغرض ـــ من الحصول على وعد من المستر تشرشل بأن قيادة أساطيل الحلفاء المرابطة حول الشواطىء السورية ستظل في يد فرنسا ، وأن إنكلترا سوف لا تقوم بأية عملية إنزال

---

(٢١) R. POINCARE, Ibid. VII. p. 253.

(٢٢) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص٣٨ .

(٢٣) R. POINCARE, Ibid. VII, pp 261, 288.

منفردة في الإسكندرونة، وأنه إذا جرت عملية ما مشتركة من هذا النوع فإن التدابير التي ستتخذ في هذا الشأن ستكون، بقدر الإمكان، باتفاق الحكومتين معاً، ولكن دون أن يكون ثمة أي انتقاص من سلطة القيادة الفرنسية(٢٤). وبناء على ذلك احتلت قطعات الأسطول الفرنسي جزيرة أرواد المقابلة لمدينة طرطوس (محافظة اللاذقية)، والواقعة على بعد لا يزيد عن خمسة كيلومترات عن شاطئها في حزيران ١٩١٦ وجُعلت قاعدة بحرية تولّى الحكم فيها القائد الفرنسي «ترابو TRAPAU»(٢٥).

لكن الخطأ الذي ارتكبه الحلفاء في العدول عن مشروع مهاجمة الإسكندرونة لم يكن ليعادله خطأ آخر بحسب رأي أحد كبار الضباط الألمان، فقد كان من شأنه ـــ من الوجهة الحربية عامة ومن وجهة القضية العربية خاصة ـــ أن ينهي الصراع الغربي ـــ التركي والعربي ـــ التركي في المنطقة العربية بأسرع مما انتهى. قال الماريشال الألماني «هندنبرغ» في مذكراته «نيطت حراسة خليج الإسكندرونة بجيش تركي كان من الصعب أن توجد فيه وحدة واحدة قادرة على القتال... أما عن المدفعية المكلفة بحفظ الشواطىء فكانت في المخيلة الشرقية أكثر مما في الحقيقة الواقعة. لقد أوجز لي أنور باشا الحال إيجازاً بديعاً، إذ قال: «أملي الوحيد هو أن لا يلاحظ عدونا كم نحن ضعفاء في هذا المكان المعرض للخطر. لكن أكان يمكننا أن نسلم مصدقين بأن هذا الضعف البادي في خليج الإسكندرونة قد يخفي على عدونا؟ أنا ما كنت لأصدقه... وبدالي من الأمور المستحيلة أن تكون القيادة الإنكليزية العامة جاهلة الحالة الحقيقية في الدفاع عن هذه الشواطىء. وما كان لإنكلترا أن تخشى من الوقوع على عش دبابير لو هاجمتها، ذلك أنه لم يكن في العش دبابير. أجل لو أن خاطراً خطر لهجوم باهر لما كان له خيراً من الإسكندرونة. ولو وقع فعلاً لكان له من الأثر العظيم ما يجعله يمتد على العالم بأسره لا سيما على تركيا فيفت في ساعدها»(٢٦).

ولكن، لو وقع الهجوم فعلاً، أكان من مصلحة العرب وقوعه؟ أكان بوسع الجيش العربي بقيادة فيصل أن يصل إلى دمشق قبل جيوش الحلفاء ـــ ولم تكن الثورة العربية قد أطلقت رصاصتها الأولى بعد ـــ؟ أكان باستطاعة أحد أن يخرج الحلفاء، فرنسا على الأخص، من سورية بعد احتلالها؟ وهل كان سيبقى أي اعتبار لمفاوضات الحسين ـــ مكماهون؟ ـــ بالطبع لا، ودليلي على

---

(٢٤) J. PICHON, Le Partage Du Prôche Orient, p. 25.

(٢٥) جورج رامح غانم، المصدر السابق، ص١٤٨.

(٢٦) مذكرات هندنبرغ، ج٢، ص٢٨٢ ـــ ٢٨٣.

ذلك ما ذكرته سابقاً من شهادة الكولونيل لورنس الذي وصف الوعود التي أعطيت للحسين بأنها كاذبة ، وأنه (لورنس) لم يكن من الحمق بحيث يصدقها ، وأنها « سوف لا تكون إلا قصاصة ورق ، بعد أن يكسب الحلفاء الحرب » ، كما نصح مرة للأمير فيصل بألاّ يغتر بوعود إنكلترا ــ كما فعل والده ــ وألاّ يثق إلا بعمله وجهاده(٢٧) خاصة وأن العرف الذي تفاهم عليه فيصل مع الجنرال اللنبي ــ في أثناء الزحف لتحرير سورية ــ هو أن كل من يسبق زميله من الجيشين العربي والإنكليزي إلى احتلال منطقة من المناطق يكون هو المسيطر عليها إلى حين انعقاد مؤتمر الصلح وتقرير مصيرها النهائي .

ومهما يكن من أمر فإن المحادثات التي سبقت الاتفاق الإنكليزي الفرنسي (سايكس ــ بيكو) ــ وإن كانت بعيدة نوعاً ما عن القضايا العربية ــ إلا أنه لا بد من التنويه بما جاء فيها متعلقاً بهذه القضايا . من ذلك المذكرة الجوابية التي سلمها سفير إنكلترا في بطرسبورغ إلى المسيو سازونوف في ١٩١٥/٣/٢٠ ، وقد جاء فيها « أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعتبر أنه من السابق لأوانه البحث في مسألة اقتسام مناطق العراق وسورية وفلسطين وغيرها من المناطق التابعة للسلطنة العثمانية ، ما لم يجر الإتفاق على إقامة إمبراطورية إسلامية ترى حكومة جلالته وجوب إنشائها ــ فور زوال الأتراك من الآستانة ــ وهذه الإمبراطورية يجب أن يكون مركزها الأماكن المقدسة الإسلامية ، فتكون بذلك عاصمة سياسية للمسلمين ، على أن تضم شبه جزيرة العرب ، ويمكن أن تضم أيضاً مناطق أخرى من آسيا الصغرى فيما إذا رؤي لزوم لذلك ، وهذا متوقف على رغبة بقية الحلفاء »(٢٨) . والملاحظ هنا أن إنكلترا قد التزمت الغموض في تقرير شكل هذه الإمبراطورية وصفتها ، لقد « وضعت عدة أسئلة وتركتها دون حل » ، ذلك أن مفاوضاتها مع الشريف حسين لم تكن بعد قد تبلورت على شكل معين ، وكان هم الإنكليز في هذه المرحلة ألّا يبرموا أي تسوية نهائية مع الدول العظمى قبل انتهاء هذه المفاوضات(٢٩) . فتلقت إنكلترا جواباً من حكومة القيصر بالموافقة على وجوب بقاء الأماكن المقدسة الإسلامية تابعة للإمبراطورية الإسلامية المقترحة ، آملة بأن يتقرر منذ الآن فيما إذا كانت هذه المناطق ستبقى تحت إدارة تركية ، مع الاحتفاظ للسلطان بلقب « الخليفة التركي » ، أم إذا كان ثمة تفكير بإنشاء دول جديدة مستقلة .

---

(٢٧) LAWRENCE, Ibid. pp. 345, 691.

(٢٨) J. PICHON, Le Partage Du Prôche Orient, pp. 47-48.

(٢٩) دكتور حاطوم ، المصدر السابق ، ص٣٥ .

لأن حكومة جلالته القيصرية لا تستطيع إبداء وجهة نظرها إلا إذا عرفت أن الحل سيكون على هذا الوجه أو ذاك. على أنها تستطيع بيان رأيها في مسألة الخلافة الإسلامية، وترى أنه من الأوفق أن تفصل عن شخص السلطان التركي، وغني عن القول إن حرية القيام بشعائر الحج ووسائله يجب أن تكون مؤمنة إطلاقاً»[٣٠]. وعلى كل حال انتهت المحادثات الروسية ـ الإنكليزية باتفاق حول جعل الآستانة والمضائق وأرمينية وإيران من حصة روسيا، حسب رغبتها (٢٤ آذار ١٩١٥)، وسنرى كيف تتأمن رغائب إنكلترا وفرنسا في المرحلة الثانية من المفاوضات.

ومن المسائل العربية التي كانت موضوع مجادلة بين الحلفاء، ما جاء منها متعلقاً بقضية فلسطين، ذلك أن فرنسا قد اعتبرت أن هذه المنطقة داخلة في جملة المطالب التي تقدمت بها كتعويض لها عن ضم روسيا للمناطق التي طالبت بها، باعتبار أنها جزء من سورية الطبيعية. فلما تلقت حكومة القيصر من فرنسا مذكرتها، التي تفصح عن مطالبها، أجابت بالتحفظ حول مرسين والمناطق المجاورة لها، مدعية أن الأرمن يطالبون بها، وأن واجب الحكومة الروسية أن تلفت نظر الفرنسيين إلى هذا الأمر، «علماً بأنه إذا كان من المهم اللازب لفرنسا أن تضم هذه المنطقة، فمن البديهي حينئذ أن الروس لا يقيمون في وجهها العراقيل». هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن موافقة روسيا على إعطاء فلسطين للفرنسيين لم تكن أيضاً خالية من التحفظ. ففي ٣/١٥ أرسل «نيراتوف NERATOV» مساعد وزير الخارجية الروسية، الرسالة التالية إلى المسيو سازونوف، قال «أبان لي سفير فرنسا عن اعتقاده بأن سورية تتضمن فلسطين، فرأيت من المفيد أن أذكره بأنه يوجد في القدس حاكم مستقل». كما جاء في برقية أرسلها المسيو سازونوف إلى سفيره في باريس أن المسيو «باليولوغ PALEOLOGUE»، سفير فرنسا في بطرسبورغ، قد أفهمه أن فلسطين جزء من سورية، «في حين أن برقية «دلكاسه DELCASSE» وزير الخارجية الفرنسية المتلقاة منه لا تتضمن هذا التحديد. وباعتبار أن هذه النقطة ذات أهمية في نظر الحكومة الروسية، فإنه إذا كان المطلوب من روسيا أن توافق على ضم سورية وكيليكيا لفرنسا، فإن عليها أن تفهم ما إذا كان الفرنسيون يعتبرون أن الأماكن المقدسة المسيحية هي من ضمنها، لذلك يقتضي إيضاح هذا الأمر»[٣١].

والخلاصة أن روسيا لم تكن تعارض في ضم الفرنسيين لسورية وكيليكيا، لكنها أفصحت عن عدم استطاعتها قطعاً أن تترك حماية القدس والجليل والأردن وبحيرة طبريا (الأماكن المقدسة

---

(٣٠) J. PLCHON, Le Prtage Du Prôche Orient, pp. 47-49. نقلاً عن الوثائق الدبلوماسية الروسية العربية.

(٣١) J. PICHON, Le Partage Du Prôche Orient, pp. 51-54.

المسيحية) لدولة غير أرثوذكسية . وأضاف القيصر نيقولا الثاني ووزير خارجيته إلى تصريحهما هذا المؤرخ في ٣/١٨ قولهما إن روسيا لا تطالب بامتيازات وحقوق خاصة في فلسطين ، لكنها تريد فقط أن يبقى وضع فلسطين على حاله ، وأن تترك للحجاج الروس حرية الدخول إلى هذه الديار دون أن يكونوا مجبرين على التقيد بالقوانين والأوامر الجديدة التي قد يمكن فرضها في حالة تغيير نظام الحكم فيها . وأخيراً تركزت المباحثات حول قبول الطرفين لصيغة اقترحها المسيو « باليولوغ PALEOLOGUE » جاء فيها « استناداً إلى المادة ٦٢ من معاهدة برلين ، توافق كل من الحكومتين الروسية والفرنسية على عدم المساس بوضع فلسطين الحالي » . ذلك أن الدولتين قد رغبتا في إبقاء القضية معلقة وتجنبتا الإعراب عن شيء ، بغية الوصول إلى تفاهم أفضل في المستقبل . وجاءت موافقة فرنسا على هذه التسوية الموقعة في ٤/١٠ ـــ ، مع اعترافها بحقوق روسيا في المضائق وغيرها التي طلبتها ـــ بعد أن كانت إنكلترا قد وافقت عليها في ١٩١٥/٣/٢٧[٣٢] .

إيطاليا والاتفاقات : ليس الذي يهمنا من أمر الاتفاق الإيطالي مع الحلفاء ما نالته الحكومة الإيطالية من الأراضي في آسيا الصغرى . بيد أنه لا يمكن إغفال ما كان من علاقته بطرابلس الغرب والجزيرة العربية ، وقد دار قسم من المباحثات حول هذه المناطق . وقفت إيطاليا على الحياد في بادىء الأمر ، لكنها ـــ عندما قامت النمسا بعمل هجومي ضد صربيا كان من شأنه أن يهدد التوازن الدولي البلقاني ـــ طالبت هذه الدولة بإقليم « ترانتينو » ، وباستقلال « تريستا » . فلما فشلت محادثاتها معها في هذا الشأن اندفعت إلى صف الحلفاء ، وبينت غايتها من دخول الحرب في مذكرة مطولة ، ضمنتها مطالبها التي رغبت بأن تحقق ، فيما إذا خسرت ألمانيا وحليفاتها الحرب ، واقتضى الأمر وجوب اقتسام أملاك الإمبراطورية العثمانية[٣٣] ، بشرط أن تكون الحصة التي تعطى لها مساوية لحصة فرنسا أو بريطانيا ، حرصاً على التوازن الدولي في حوض البحر الأبيض المتوسط . أما بشأن فصل الإمبراطورية الإسلامية ، التي ستؤسس ، عن السلطنة العثمانية ، ونزع الخلافة من الأتراك ، ووجوب تأمين حرية طريق الحج وسلامته ، فقد جاء رأيها مؤيداً لرأي الحكومة الروسية[٣٤] . فما كان من الحلفاء لقاء هذا التعهد من إيطاليا إلا أن أجابوا بعض مطالبها ، ووقعوا في ١٩١٥/٤/٢٦ ، اتفاقية لندن السرية التي جاء فيها : اعتراف الحلفاء بملكية إيطاليا لجزائر الدوديكانيز التي تحتلها فعلاً ، وبحقها في نوال

---

(٣٢) Ibid. pp. 54-55.

(٣٣) Ibid. p. 6.

(٣٤) جريدة الأيام ، الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ، ص٥٨ .

حصتها من تركة الإمبراطورية العثمانية في آسيا في حالة اقتسام هذه التركة، وبأن تنتقل إليها جميع الحقوق والامتيازات التي كانت للسلطان العثماني في ليبيا وطرابلس الغرب. وقد نصت المادة ١٢ من الاتفاقية على أن إيطاليا تشاطر كلاً من فرنسا وإنكلترا وروسيا تصريحها ببقاء شبه الجزيرة العربية والأماكن الإسلامية المقدسة تحت سيادة حكومة إسلامية مستقلة[٣٥]. ثم دعيت إلى توقيع تصريح مشترك بأن لا تعقد أية دولة من الدول الأربع المتحالفة صلحاً منفرداً في أثناء الحرب مع الأعداء، وأن لاتقدم أي عرض للصلح دون الاتفاق المسبق بين الجميع. وهكذا دخلت الحرب في ١٩١٥/٥/٢٤، ولم تعلنها سوى على النمسا ـــ المجر، خوفاً من إسخاط الحياديين وأنصار دول الوسط من أفراد الشعب الإيطالي. غير أنها لم تكن على علم بالمفاوضات السرية التي جرت بين الحلفاء الذين، اتخذوا من ترددها حجة كي لا يطلعوها على اتفاقاتهم المتعلقة بآسيا الصغرى والمضائق، رغبة منهم في إبقائها على جهل بها خوفاً من أن تطالب هي بدورها بدالماسيا وكيليكيا. وبالرغم من أنها أعلنت الحرب فيما بعد على تركيا في ١٩١٥/٨/٢٠، وعلى ألمانيا في ١٩١٦/٦/٢٨ فإن الحلفاء بقوا على موقفهم السابق من كتمان الاتفاقات المذكورة عنها[٣٦].

المرحلة الثانية

انتهت المرحلة الأولى، إنما الواضح منها أنها تلزم فرنسا وإنكلترا تجاه روسيا، ولكنها لا تلزم الحليفتين الغربيتين إحداهما تجاه الأخرى، ولا تلزم روسيا تجاههما، هذا فضلاً عن أنهما لم تتفقا بعد ـــ نهائياً ـــ على مصير الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها الآسيوية ـــ العربية، وكل ما هنالك أن قضية الآستانة والمضائق قد سويت، بقي أن تُسَوَّى المسائل الأخرى:

لم تنشط المفاوضات بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية إلا ابتداء من تشرين الثاني ١٩١٥، حينما أرسلت فرنسا المسيو جورج بيكو قنصلها السابق في بيروت إلى لندن، ودخل في مفاوضات مع الخبير الإنكليزي السير مارك سايكس، النائب في مجلس العموم، والذي اشتهر في دراسة المسائل الشرقية بكتاباته ورحلاته الكثيرة في طرق الإمبرطورية العثمانية ومساربها، إنما لم يلبث الخلاف أن نشب بينهما من أول مقابلة. ذلك أن فرنسا قد طالبت بأن يكون لها في سورية وكيليكيا

(٣٥) HUREWITZ, Ibid. II, Doc. 6, p. 11.

(٣٦) J. PICHON, Le Parage Du Prôche- Orient, pp. 65-68.

مطلق السيادة والحكم ، في حين كانت رغبة الإنكليز في وضع سورية ولبنان تحت سيادة الشريف حسين أمير مكة ، على أن يكون لفرنسا فيهما حق تعيين الحاكم فقط[٣٧] .

الواقع أن إنكلترا كانت ــ في الوقت نفسه ــ تتفاوض أولاً مع الشريف حسين لتتعهد له في نهاية الأمر باستقلال البلاد العربية ــ مع بعض التحفظات التي لم يوافق عليها الشريف نهائياً ــ لقاء قيام ثورة عربية على الترك ، وثانياً مع حليفتها فرنسا وروسيا لتقرير كيفية اقتسام ميراث الدولة العثمانية ــ ومن ضمنها البلاد العربية ــ وقد رأت أخيراً وجوب أن تطلع الفرنسيين على طرف من المباحثات الأخيرة مع الشريف لا على تفاصيلها كلها ، وأن تحصل على تنازل منهم عن شيء من مطالبهم . فطلبت من حليفتها أن تناقش معها حدود سورية . عندئذ كلفت فرنسا ممثلها في لندن المسيو جورج بيكو أن يبحث هذه المسألة ، فبدأ مفاوضاته مع السير « أرثر نيكلسون ARTHUR NICOLSON » ، وكيل الدولة الدائم لوزارة الخارجية ، وإلى جانبه السير « مارك سايكس M. SYKES » . لقد كان من صلب هذه المحادثات مفاتحة اللورد غراي في ١١/١٣ للمسيو « بول كامبون » ، سفير فرنسا في لندن ، بشأن الدولة العربية التي ترى الحكومة الإنكليزية إنشاءها لتوازن بها نفوذ الترك في الشرق الأدنى ، إذ ردد على مسامعه احتمال مطالبة العرب ببعض المناطق التي تعتبرها فرنسا من ضمن ما تطالب به . وأضاف بأنه يترك لحكومة فرنسا أن تعين ما يجب التنازل عنه . وتولى السير نيكلسون شرح مجرى المفاوضات مع الشريف حسين لممثل فرنسا ، لكنه لم يعلمه بالنص الواضح للكتب المتبادلة معه . وفي ١٩١٥/١٢/٢١ أعلم المسيو بيكو زميله السير نيكلسون أن الحكومة الفرنسية تقبل بأن توضع حلب ودمشق وحماه وحمص تحت إدارة العرب ، ولكن بشرط أن تمارس هذه الإدارة بمعونة ومراقبة الفرنسيين ، على ألاّ يشمل هذا التنازل مدينة بيروت[٣٨] .

عندئذ سلكت المفاوضات طريقاً أسهل ، فتقدم المفاوض الإنكليزي بمذكرته الأولى ، وكانت مفصلة وفيها أولاً تطالب إنكلترا بالحوض الأدنى لدجلة والفرات لتأمين مواصلاتها الإمبراطورية ، ثم بحقها في إقامة قاعدة لها في حيفا ، وبربط هذه المدينة بالخليج العربي بواسطة خط حديدي ، وبالحصول على امتياز تجاري في الإسكندرونة ، التي يجب أن تكون ميناء حراً لتسهيل ترانزيت السلع الإنكليزية الموجهة إلى العراق . ثانياً : بإرساء قواعد الاتحاد (الكونفدراسيون) العربي في وسط

---

(٣٧) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٣٦ .

(٣٨) J. PICHON, Le Partage Du Prôche- Orient, pp. 100-101.

سورية تحت رئاسة شريف مكة الإسمية ، على أن تكون فيه السلطة الفعلية لفرنسا وإنكلترا اللتين تتقاسمان حمايته . ثالثاً : بتقسيم مناطق النفوذ العائدة لكل من فرنسا وإنكلترا ، بشكل أن يكون بين المنطقتين خط اعتباري يذهب من منطقة القدس متجهاً نحو الشمال الشرقي ماراً بجنوب منطقة الموصل البترولية حتى يصل إلى الحصة التي خصصت لروسيا . وتكون المنطقة الواقعة شمالي هذا الخط بما فيها دمشق وحمص وحماه وحلب تحت الحماية الفرنسية ، والمنطقة الواقعة جنوبية تحت الحماية البريطانية . أما بيروت وقسم من لبنان فيلحقان بالاتحاد العربي ليكونا له بمثابة منفذ على البحر ، على أن يشتمل هذا القسم ، الذي سينضم إلى فرنسا ، على قسم كبير من الساحل الشمالي لفلسطين ــ التي يجب أن تُدوّل ــ حتى كيليكيا . وفي الشمال يجب أن يمتد الاحتلال الفرنسي بعيداً حتى قلب آسيا الصغرى إلى ما وراء ديار بكر(٣٩) .

هذا الاقتراح كان هو الأساس الذي دارت حوله مناقشة المستر سايكس مع المسيو بيكو . وقد عاد الفرنسيون إلى التذمر من الصعوبات التي بدأ الإنكليز يقيمونها حول مطالبهم الإقليمية . فقد عرض المسيو بريان ، وزير الخارجية الفرنسي حينذاك ، على مجلس الوزراء سير المفاوضات الجارية في لندن قال « إن إنكلترا تعترف لنا بحق السلطة الكاملة على الإسكندرونة وكيليكيا وما بعدها حتى الموصل ، وتقبل بوضع لبنان وطرابلس وبيروت تحت سلطتنا ، لكنها لا تترك لنا سورية إلا تحت إدارة شريف مكة ، وأنها تطلب لنفسها حيفا مع قسم من فلسطين ، ولكننا طلبنا تقسيم فلسطين بين إنكلترا وفرنسا ، وإقامة إدارة ثنائية فرنسية ــ إنكليزية على الخط الحديدي الذي يُنوى تمديده من حيفا إلى الداخل » .

وبالرغم من عدم استعداد المسيو بوانكاره للخوض في هذه المسألة ، نظراً لأن الملفات المتعلقة بها لم تكن قد قدمت إليه بعد ، فانه قد أبدى في هذه الجلسة ملاحظاته بأن إنكلترا تخصص لفرنسا مناطق كانت ــ وفقاً لاتفاقات أجرتها هذه مع تركيا وألمانيا في بداية ١٩١٤ ــ من نصيب النفوذ الألماني ، بينما تخصص إنكلترا لنفسها مناطق قد تخلت تركيا وألمانيا عن حقوقهما فيها . فإذا عقد صلح ليس من شأنه أن يعطي فرنسا الترضيات التامة ، فإن ألمانيا تطالب بما خصص لغريمتها في حين أن إنكلترا تستطيع ــ على العكس ــ أن تحتفظ بما اعترفت لها به فرنسا . فيجب أن يتوقف قبول فرنسا لهذه التسوية على تحقيق حصتها كاملة دون نقص .

(٣٩) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٣٧ .

وبعد أيام أعلن المسيو بريان لمجلس الوزراء بأن الحكومة البريطانية رفضت رفضاً باتاً التنازل عن حيفا، وأنها من جهة أخرى طلبت تدويل فلسطين، وفي مقابل ذلك اعترفت لفرنسا بالإسكندرونة وما بعدها من البلاد شرقاً حتى الموصل داخلة، ولكنها طالبت، بالمقابل، بإقرار سلطتها على حيفا. وأضاف إلى ذلك قوله «أما مدينة الموصل فإذا وافق الإنكليز على تركها لنا فلأنهم لا يقبلون أن تؤول إلى أيدي الروس»[٤٠]. وفي نهاية الأمر استطاع المفاوض الفرنسي أن ينال من زميله الإنكليزي امتيازين، أولاً: ألا تلحق بيروت بالاتحاد العربي، ثانياً: أن تعدل الحدود قليلاً في بعض النقاط.

وفي ١٩١٦/١/٣ انتهى الطرفان إلى تسوية وقعت منهما وأرسلت إلى باريس للموافقة عليها من الحكومة الفرنسية، فانكب مجلس الوزراء على دراستها. وقد أبدى المسيو بريان ملاحظته بألا يعترف بحقوق إنكلترا ما لم تتحقق لفرنسا حصتها كاملة غير منقوصة بعد الحرب. وقد حاولت الحكومة الفرنسية الحصول على فوائد إضافية بتعديل بنود تسوية ١/٣، والحصول على قبرص أو على الأقل إعادة النظر بالبنود المتعلقة بحيفا وفلسطين، لكن محاولاتها هذه لم تثمر. فنصح المسيو بريان سفيره في لندن بأن يعمل بسرعة قبل أن يستطيع اللورد كتشنر، بأسلوب التشدد الذي التزمه حول هذه القضية داخل الحكومة البريطانية، التغلب على زملائه. وأخيراً استطاع الطرفان الوصول إلى تسوية مبدئية، وقعت في ٤ و ١٩١٦/٢/٨ في باريس ولندن، فكانت أساساً للاتفاق النهائي[٤١].

المرحلة الثالثة

لكن السير أدوار غراي قال عند توقيع هذه التسوية بأنها لا تربط إنكلترا بصورة قاطعة إلا إذا نالت موافقة الحكومة الروسية، فاقتضى أن تصاغ التسوية في نص واحد، وتخضع لقبول الحليفات الكبرى الثلاث. وتوجه المتفاوضان بنفسهما ــ سايكس عن الجانب الإنكليزي، وبيكو عن الجانب الفرنسي ــ إلى العاصمة الروسية، ولما عرضا المشروع على المسيو سازونوف شُدِه هذا من سعة الأراضي التي تطالب بها كل من الحليفتين، وجرى التلميح من قبل العاهل الروسي لفرنسا بأن تعتدل في مطالبها لقاء أن يساعدها في احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين[٤٢]. وكانت النقطة الهامة

(٤٠) J. PICHON, Le Partage Du Prôche-Orient, pp. 103-105.

(٤١) J. PICHON, Le Partage Du Prôche-Orient, 105 ; دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص٣٨.

(٤٢) دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص٣٨.

التي دار حولها الخلاف الشديد هي قضية فلسطين ، ذلك أن كلا من إنكلترا وفرنسا وروسيا قد قدمت بشأنها حلولاً مختلفة ، تبعاً لاختلاف مصالح كل منها . ففرنسا تطالب بها باعتبار أنها جزء لا يتجزأ من سورية ، وروسيا لا ترغب بأن تسيطر على الأماكن المقدسة المسيحية دولة غير أرثوذكسية ، فضلاً عن أن لها فيها مدارس وأديرة لا سيما في الناصرة ونابلس والخليل ، لذلك طلبت وضع المنطقة تحت الحماية الروسية . وإنكلترا تعارض وقوعها في غير يدها لسببين : أولهما أنها ترغب في السيطرة على خليج حيفا ـــ عكا ، فيكون لها بذلك منفذ يصل العراق بالبحر المتوسط ، وهذا أمر حيوي بالنسبة لمواصلاتها البرية عبر منطقة الشرق الأوسط إلى الهند ، والثاني أنها لم تستسغ أن ترى فرنسا أو أية دولة كبرى توطد أقدامها على مقربة من قناة السويس[٤٣] ، فكان إذن من الصعب التوفيق بين مختلف وجهات النظر المتضاربة . إلا أنه قد وجب على الدول المعنية أن تخرج من المأزق وهي على أتم ما يكون من الوفاق ، خاصة وأن الضرورة كانت تدعو هذه الدول إلى أن تحسب حساباً لرأي بعض الدول المحايدة ، لا سيما الولايات المتحدة . لذلك اضطر دبلوماسيوها أن يلحظوا حلولاً من شأنها اجتناب كل خصام وتنافس ، والتماس كل ما من شأنه تضييق شقة الخلاف ، وإحلال الوئام بين الجميع . وهكذا استقر الرأي ـــ بعد أن أبدت كل من الدول رغبتها في التنازل عن بعض مطالبها ـــ على تدويل هذه المنطقة بحيث تحتفظ كل من الدول المعنية بحقها في الإسهام في إدارتها بصورة مشتركة . وكان الفضل في الوصول إلى هذا الحل لاتفاق وجهتي نظر إنكلترا وروسيا حوله ، فوجب عليهما استرضاء فرنسا وتعويضها خسارتها لمنطقة اعتادت أن تنظر إليها كجزء من الغنيمة التي تطمع فيها ، فسمحتا لها بالتوسع في المناطق التركية الواقعة في الشمال من سورية أي كيليكيا وجزء من الأناضول[٤٤] .

كما دار النقاش حول نقطة أخرى هي الموصل التي كانت كل من فرنسا وروسيا تطلبها لنفسها ، كما طالبت بها إنكلترا أيضاً . ولم تستطع فرنسا أن تدخلها في حصتها إلا بسبب التنافس عليها بين الحليفتين الأخريين : رفض الروس إعطاءها للفرنسيين فانبرى المفاوض الإنكليزي يقول بأن إنكلترا أحق من روسيا بها ، عندئذ اتفقت مصالح الجميع على جعلها من حصة الفرنسيين[٤٥] . وقد كان هذا التنافس الشديد الذي حصل بين الحلفاء حينذاك مقدمةً واضحة للحلول الغريبة التي ترجمت عنها الاتفاقية المعقودة بين الحلفاء خلال الحرب ، كما كان ـــ في الوقت نفسه ـــ تفسيراً جلياً

(٤٣) ج . أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٥١ ـــ ٣٥٢ .

(٤٤) E. JUNG, Ibid. II, p. 30 ; أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٥٢ ـــ ٣٥٣ .

(٤٥) ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، ص٤٦ ـــ ٤٧ .

لعدم تنفيذ بعض أحكامها في أعقاب الحرب، بعد أن خرجت روسيا من المعمعة مهيضة الجناح، وبقي الميدان فسيحاً أمام الدبلوماسية الإنكليزية الماكرة.

اتفاقية سايكس ـ بيكو: وعلى كل حال وقعت التسوية بالأحرف الأولى في ١٩١٦/٣/٢٥، ثم أعيد النظر فيها وتمت بنقط تفصيلية في ١٩١٦/٤/٢٦، ثم أبرمت نهائياً في ١٩١٦/٥/١٦، بين فرنسا وإنكلترا وفي ٩/١٦ بين فرنسا وروسيا. وقد سميت بغير حق «معاهدة سايكس ـ بيكو» لأنها لم تكن في الواقع سوى رسائل تبودلت بين دبلوماسي كل من الدول الثلاث[٤٦] واعترفت فيها كل دولتين بحق الدولة الثالثة في أجزاء من الإمبراطورية العثمانية بعد تجزئتها، ويمكن أن نستخلص منها خطوطها المميزة ـ هذه الخطوط التي أصبحت معروفة ومتداولة في كتب التاريخ بشكل واسع، يوضحها الرسم المرفق، منقولاً عن كتاب «يقظة العرب» من تأليف جورج أنطونيوس ـ كما يلي:

تقسم المناطق المخصصة لكل دولة بشكل يجعل لكل منها لون خاص على المخطط (أزرق، أحمر، بني) بالإضافة إلى منطقتين داخليتين أعطيتا حرفي (أ)، (ب):

١ ـ **المنطقة الزرقاء**: خاصة بفرنسا، وتمتد على الساحل السوري اعتباراً من رأس الناقورة على حدود فلسطين ـ لبنان، صاعدة إلى الشمال وتشمل لبنان الحالي ومنطقة اللاذقية ولواء الإسكندرونة وكيليكيا (منطقة آدنة ومرسين) حتى شمال سيواس في قلب الأناضول، وتنتهي شمالاً عند نقطة تلامس خطاً وهمياً يصل أرضروم في الشرق بأنقرة في الغرب، ثم تنحدر حدودها إلى الشرق الجنوبي ثم الشرق مارة في الشرق من ديار بكر وماردين لتلتقي بالمنطقة (أ) عند نقطة دخول الدجلة في الأرض العراقية أما الخط الحديدي الذي يذهب من رياق إلى حلب فإنه يقع خارج المنطقة أي في المنطقة (أ).

٢ ـ **المنطقة الحمراء**: خاصة بإنكلترا، وتمتد من خليج البصرة وتسير حدودها شرقاً ـ شمالاً محاذية حدود إيران حتى الكوع المشكل شمالي بغداد، ثم ترسم شمالي هذه المدينة قوساً مفتوحة بصورة عريضة تصل حافتها حتى تخوم الصحراء في الغرب لتعود وتنحدر ثانية إلى الجنوب حتى تصل شاطىء الخليج من جديد، وتشمل بذلك القسم الجنوبي من العراق، اعتباراً من شمالي بغداد حتى الخليج العربي.

(٤٦) دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص٣٨.

ويباح لفرنسا في المنطقة الأولى ولإنكلترا في الثانية إنشاء ما ترغبان فيه من مراقبة أو من شكل حكم مباشر أو بالواسطة، بعد الاتفاق على ذلك مع الدولة العربية، أو حلف الدول العربية التي ستقام في منطقتي (أ) و (ب).

٣ ـ المنطقة البنية (السمراء): أي فلسطين، وتنشأ فيها إدارة دولية يعين شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

٤ ـ المنطقة (أ): وتمتد شرقي المنطقة الجنوبية من المنطقة الزرقاء (أي الساحل السوري ـ اللبناني حالياً) وترتسم حدودها من نقطة التقاء حدود فلسطين ـ الأردن ـ لبنان وتسير شمالاً حتى نقطة تحاذي مدينة الإسكندرونة، ثم تتجه إلى الشرق حتى تلامس الحدود العراقية ـ الإيرانية بحيث تنتهي عند مدينة راوندوز ثم تنحدر نحو الجنوب فالجنوب ـ الغربي مشكلة قوساً صغيراً في شمالي كركوك، وتتم اتجاهها نحو الجنوب ـ الغربي في خط شبه مستقيم إلى أن تلتقي من جديد في نقطة ابتدائها عند الحدود الأردنية الفلسطينية ـ اللبنانية. وتضم بذلك سورية الداخلية مع قسم من شمالي العراق (منطقة الموصل).

٥ ـ المنطقة (ب): وتقع ضمن الحدود التالية: خط يسير من العقبة إلى غزة (حدود مصر) ومنها إلى البحر الميت، ثم يساير نهر الأردن حتى بحيرة طبريا ثم يسير منها في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي يشكل الحد الفاصل بينها وبين المنطقة (أ) حتى يصل إلى شمال شرقي كركوك التي يحصرها ضمنه ويسير جنوباً بشرق في حنية تضم كركوك ثم ينحرف جنوباً بغرب محاذياً للمنطقة الحمراء حتى كربلاء، ومنها حتى الخليج العربي ثم يسير إلى الشمال بانحناء ملحوظ حتى يتجه إلى الجنوب الغربي مشكلاً قوساً يلتف حول حدود المملكة العربية السعودية من حدود الكويت ـ العراق حتى العقبة. ويضم بذلك منطقة الأردن الحالية وشريطاً من بادية الشام والقسم الأوسط من العراق.

وتقام في هاتين المنطقتين دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي، تعترف بهما كل من فرنسا وإنكلترا وتحميانهما. ويكون لفرنسا في المنطقة (أ) ولإنكلترا في المنطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في الأولى وإنكلترا في الثانية بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

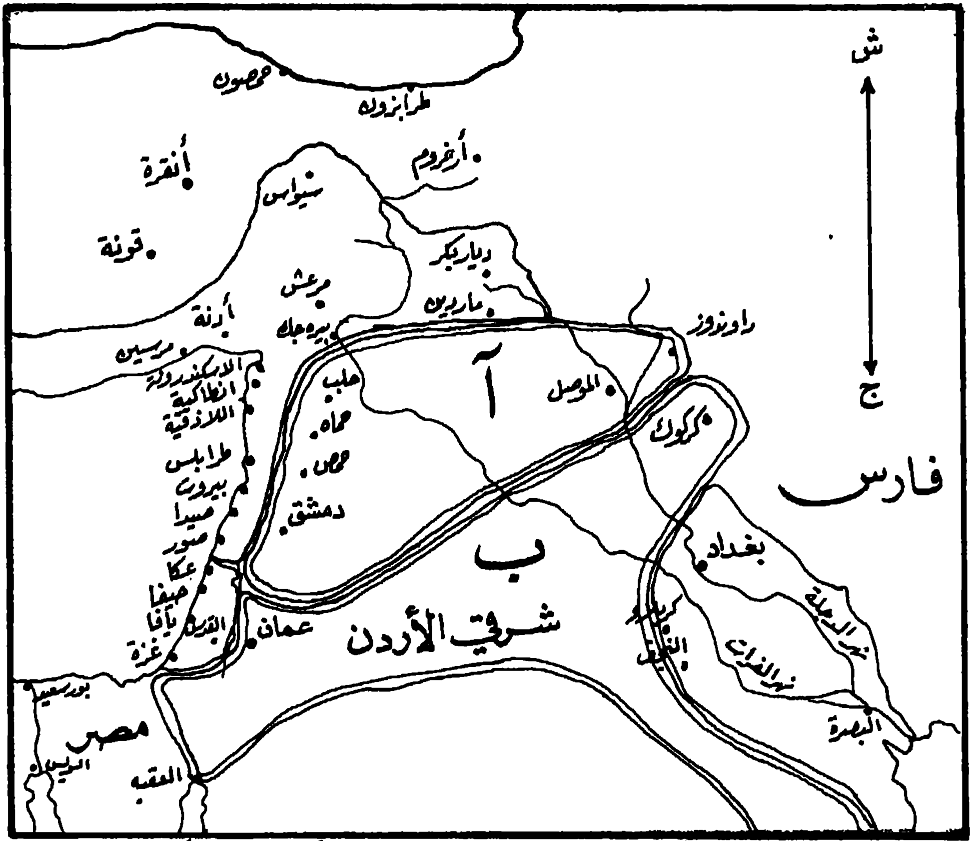

مصور تقسيم الممتلكات العثمانية وفقاً لاتفاقيات سايكس - بيكو
منقولاً عن كتاب جورج أنطونيوس : يقظة العرب

٦ ــ تنال إنكلترا خليج (ميناء) حيفا ــ عكا، وتتعهد بأن لا تدخل في مفاوضات مع دولة أخرى للتنازل عن جزيرة قبرص إلا بعد موافقة فرنسا مقدماً.

٧ ــ تكون الإسكندرونة ميناء حراً لتجارة الإمبراطورية البريطانية مع تسهيلات خاصة لملاحتها وبضائعها. وإباحة حرية نقل هذه البضائع عن طريق الإسكندرونة وسكك حديد المنطقة الزرقاء، سواء أكانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) أو (ب) أو صادرة منهما.

وبالمقابل تكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، مع تسهيلات مماثلة للملاحة والبضائع الفرنسية ونقل هذه البضائع بحرية بطريق حيفا وسكك الحديد الإنكليزية في المنطقة السمراء... الخ.

٨ ــ لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) إلى ما بعد سامرا شمالاً إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب مارا بوادي الفرات ويكون ذلك بموافقة الحكومتين.

٩ ــ يحق لبريطانيا أن تنشيء وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب) مع الحق الدائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط.

وما بقي من النصوص يتعلق بالتعرفة الجمركية وإنشاء الجمارك. والمهم فيها أن الاتفاق يتضمن أيضاً أن لا تجري الحكومة الفرنسية أية مفاوضة في أي وقت كان، للتنازل عن حقوقها في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى غير الدولة أو حلف الدول العربية، بدون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية التي تتعهد بمثل ذلك في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

كما نصت الاتفاقات على أن الحكومتين الإنكليزية والفرنسية تتعهدان ــ بصفتهما حاميتين للدولة العربية ــ بأن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة بأن تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشيء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، على أن هذا لا يمنع إجراء تصحيح في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الأخير.

وأخيراً تتفق الدولتان على استمرار مفاوضاتهما مع العرب لتعيين حدود الدولة أو حلف

الدول العربية، على أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية[٤٧].

نقد الاتفاقيات : أما الملاحظات التي يمكن إبداؤها حول هذه الاتفاقيات فهذه لمحة عنها :

١ ـ إنها لم تنص صراحة على «استلحاق» المناطق المخصصة لحكم الدولتين الغربيتين المباشر (المنطقة الزرقاء والمنطقة الحمراء)، كما أنها لم تستبعده، وتركت الأمر للدولتين فإن شاءتا استحلقتاهما بتمامهما أو اكتفيتا بجزء منهما[٤٨].

٢ ـ إن المناطق الداخلية في كل من العراق وسورية (أ) و(ب) والتي لوحظ قيام دولة عربية أو حلف دول عربية مستقلة نظرياً فيهما، فلم يترك لهما أي منفذ على البحر ومصيرهما في المستقبل غير أكيد: هل ستؤلفان دولة وحدوية أم اتحاداً؟ ومن هو السيد الذي سيحكم هذه الدول؟ إنما الأكيد أنهما ستوضعان تحت حماية الحليفتين، تلك الحماية المستترة في جلباب المساعدة، ومن الواضح أنهما ستكونان ميداناً للاستثمار الاقتصادي للدولتين، وأنهما ستكونان مفتقرتين للمنطقتين الساحليتين الفرنسية والإنكليزية. علماً بأنه لم يراع في التقسيم برمته أي اعتبار جغرافي أو اقتصادي أو عرقي أو ديني، إنما الذي أدى إلى هذا التقسيم هو التنافس الفرنسي ـ الإنكليزي، أما حاجات السكان الأساسية فلم يؤبه بها[٤٩].

٣ ـ إن الغاية من تجزئة البلاد العربية على هذا الشكل هي ـ فضلاً عن الأطماع الاستعمارية ـ تقطيع أوصال هذه البلاد والحيلولة دون وصولها إلى الوحدة بوضع العراقيل المصطنعة في سبيلها.

٤ ـ على أن أخطر عيب فيها أنها تشكل نقضاً فاضحاً للوعود التي أبرمتها إنكلترا مع الشريف حسين، وأنها دبرت ووقعت بدون علمه. إلا أن ثمة ادعاء من مروجي الدعاية الصهيونية يقول بأن الشريف قد أطلع على خبرها. وسآتي على مناقشة هذه الناحية في نهاية الفصل.

---

(٤٧) ج. أنطونيوس، المصدر السابق، ص٥٧٧ ـ ٥٨٢ ـ ملاحق.

المصدر السابق، ص٣٥١.

(٤٩) دكتور حاطوم، المصدر السابق، ص٤١.

٥ ـ أعيد إلى المنطقة الزرقاء (لبنان) ما أرضى رغبة اللبنانيين من عودة ارتباط أقضية بعلبك حاصبيا، راشيا بها، وكانت من ضمن لبنان قبل عام ١٨٦٠[٥٠].

وأخيراً لا بد من التنوية برأي أتى به كاتب عربي، هو صلاح الدين المختار، مؤلف كتاب «تاريخ المملكة العربية السعودية»، قال فيه إن اتفاقيات سايكس ـ بيكو من صنع اليهود، وأورد بعض معلومات ربط فيها بين عقد هذه الاتفاقات وتصريح بلفور منوها بأن السير مارك سايكس كان من الذين جذبتهم الصهيونية إلى حظيرتها، فكرس نفسه لخدمتها، وجعل قصره في باكنجهام أحد مراكزها، (سيأتي في بحث وعد بلفور ما يؤيد ذلك) وأورد طائفة أخرى من المعلومات، دون إشارة إلى المصدر الذي استقاها منه ـ ولو فعل لأسدى خدمة كبرى للحقيقة ـ قال بأن الدكتور موسى جاستر، والدكتور حاييم وايزمن، وهربرت بنتوبيتش، ويوسف كون، ونعوم سوكولوف، من أعضاء اللجنة السياسية الصهيونية العالمية، قد وضعوا في العام ١٩١٦ برنامجاً واسعاً للانتدابات الاستعمارية كان من جملتها الخطوط الأساسية لاتفاقات سايكس ـ بيكو، والغاية منها تمزيق بلاد العرب على أساس يضمن إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، وأنهم عرضوا في تشرين الأول ١٩١٦ على الحكومة البريطانية منهاجهم لتنظيم حكومة جديدة لفلسطين، لتسهيل هجرة اليهود إليها، ثم دخلوا معها في مفاوضات، وان خطوط معاهدة سايكس ـ بيكو قد تقررت بنتيجة مباحثات جرت بين وايزمن وصحبه، وبين مارك سايكس بعد أن دخلوا معه، ومع المفاوض الفرنسي جورج بيكو، في مباحثات حول البرنامج السالف الذكر[٥١].

وإذا كان السير مارك سايكس ـ كما سنرى في معالجة وعد بلفور ـ قد لعب دوراً هاماً في التهيئة لهذا الوعد، وكان مطية للصهيونية، فلا يستبعد أن يكون في ما نقله صلاح الدين المختار نصيب كبير من الصحة، لأنه قد جرت اتصالات جانبية كثيرة ومريبة بين من ذكرت أسماؤهم في أثناء تدبيرهم مؤامرة وعد بلفور، كما سنرى، علماً بأن كثيراً من الوثائق السرية المتعلقة بقضية الوعد وقضية اتفاقية سايكس ـ بيكو لا تزال طي الكتمان.

على أن الذي استوقف نظري التفسير الذي التزمه «جورج أنطونيوس» لإيضاح الدور الذي لعبه مارك سايكس، كمفاوض إنكليزي في الجمع بين المتناقضات (اتفاقيات سايكس ـ بيكو،

---

(٥٠) J. PICHON, Le Partage Du Prôche-Orient, p. 110.

(٥١) صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ص١٨٥ ـ ١٨٦.

واتفاقية الحسين مكماهون) على صعيد واحد. فبعد أن نفى عنه الحماقة والمخادعة، ووصف خِلالَه بالنقاء الصريح، والحماسة للقضايا التي يؤمن بها، وأنه خير من يعرف المشكلة العربية بين السياسيين العاملين معه، واستغرب كيف أقنع نفسه برجاحة الاتفاقية، واعتبر أن ذلك سيبقى لغزاً غامضاً، اتخذ أنطونيوس المفهوم السيكولوجي أساساً لتفسير جانب من موقفه، وبدأ يحلل نفسيته، ثم يركبها: إدراك سريع لمّاح مع شرود بليد في الوقت نفسه، مع مقدار معين من غفلة المتحمس الإنفعالي وحرارته، مع قسط من المعرفة عن العرب تتميز بثغرات، مع أحكام تتراوح بين نفاذ البصيرة وانغلاق الفهم «كأنما كانت بصيرته العقلية تحاكي رقعة الشطرنج (مربعات بيضاء تمثل نفاذ البصيرة، وسوداء تمثل ضروب الغموض وقلة اليقين في معرفة اكتسبت على عجل). كل ذلك أدخله جنة الحمقى التي خلقها جشع الدول الثلاث وتحاسدها»[٥٢] غير أنني أقول لو أن السيد «جورج أنطونيوس» اقتصد في هذا التحليل والتركيب، واكتفى بالجملة الأخيرة مضيفاً إليها عراقة المستر سايكس في خدمة الاستعمار ثم في خدمة الصهيونية كما سنرى، مما جعل كل مربعات عقله سوداء، لكان قد أغنى نفسه عن كل هذا الجهد دون أن يجانب الحقيقة.

إنما الغريب في الأمر أن كلا من الحليفتين: فرنسا وإنكلترا، قد رأت منذ ١٩١٦، نفسها مخدوعة من قبل الأخرى. فلقد تظلم اللورد «بيرتي BERTIE» سفير إنكلترا في باريس بقوله «مسكين مارك سايكس، لقد اعتبره ديوان الحرب «خبيراً ممتازاً» في قضايا الشرق الأدنى، ولكن الدبلوماسي الفرنسي قد خدعه»[٥٣]. كما أكثر السياسيون والكتاب الفرنسيون من ترديد أن إنكلترا قد تجاوزت على حقوقهم وحرمتهم من مناطق هي في صميم حصتهم كفلسطين، أو على الأقل حددت الحدود السورية ـــ الفلسطينية تحديداً جائراً على حساب سورية[٥٤]. وتساءل بعضهم «لماذا وضع السوريون المثقفون (سكان دمشق وحلب) تحت سلطة الشرفاء، هؤلاء البدو الأجلاف الذين لم يسيطروا على سورية إلا في سنة ٦٣٥ ـــ ٦٥٦ م، حين الفتح الإسلامي؟ لماذا لم يُحافَظ على الوحدة السورية؟ لماذا فُصل الساحل عن الداخل بسهوله الخصبة، وليس من يجهل أن لا حياة للساحل بدون الداخل؟»[٥٥].

---

(٥٢) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٥٥.

(٥٣) دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٤١.

(٥٤) J. PICHON, Le Partage Du Prôche- Orient, p. 110.

(٥٥) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 60.

كما قال الكونت « دوغونتوبيرون » « لم يكن باستطاعة أية حكومة أن توقع وثيقة مجحفة كهذه في الأوقات العادية. إنما كان المهم في الدرجة الأولى ــ في ذلك الوقت الذي كان وجود ومستقبل فرنسا فيه، فضلاً عن مستقبل الشرق، في يد القدر ــ هو الحفاظ على التماسك بين الحلفاء، هذا الشرط الجوهري للظفر في وقت لم يحرز الحلفاء أي ظفر له قيمته على مختلف الجبهات ». ويعزو الكاتب نفسه فشل فرنسا في تحقيق مطامعها إلى كونها بعيدة عن الشرق في ذلك الوقت الذي كانت فيه إنكلترا موجودة في مصر وقائمة بأعباء حملة فلسطين، وفي العراق حيث كانت جيوشها تهاجم عدداً كبيراً من القوات التركية وتجمّدها، وفي جزيرة العرب حيث كانت تمارس تأثيراً لا ينكر، مما ترك لها مجال التصرف فسيحا[٥٦]. باختصار شعر الفرنسيون بالغبن: طالبوا بسورية كاملة فلم يُعطَوا إلا شريطاً ساحلياً ضيقاً خارجاً عن الخط الحديدي الوحيد، الذي يؤلف الشريان الحيوي للبلاد، والذي هو شرط لا غنى عنه لكل عمل استراتيجي اقتصادي. كما حرموا من فلسطين، أما كردستان التي أعطيت لهم تعويضاً فقد ضاعت منهم، وهم لا يجهلون قلة أهميتها وكونها غير مطروقة، لا يمكن اجتيازها باعتبار أنها منطقة جبلية[٥٧].

القضية الفلسطينية وتصريح بلفور

لم يكتف الحلفاء باتفاقات سايكس ــ بيكو في ضرب أماني العرب في الوحدة والاستقلال، بل عمدت إنكلترا إلى إصدار « تصريح بلفور » لتحقيق أماني الصهاينة في الحصول على وطن قومي لليهود في فلسطين.

ليس من شأن هذا البحث التحقيق علمياً في تاريخ اليهود القديم ــ ذلك يحتاج إلى دراسة خاصة ــ إنما أكتفي بإيراد بعض الحقائق التي أصبحت معروفة.

أولاً: لم يكن اليهود أول شعب سكن فلسطين، فقد سبقهم إليها الكنعانيون (الساميون) الذين هاجروا إليها من شبه جزيرة العرب (٢٥٠٠ ق. م)، وكان الأحرى بالمؤرخين أن يطلقوا عليهم وعلى غيرهم من الشعوب التي هاجرت منها إلى الشمال اسم « الشعوب العربية » نسبة إلى موطنهم

---

(٥٦) COMTE DE GAUNTOT—BIRON, Ibid. pp. 32-33.

(٥٧) دكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٤١ ــ ٤٢.

الأصلي(*). كما سبقهم إليها ــ بعد الكنعانيين ــ شعب «فلسطي» الايجي الأصل الذي أعطى المنطقة اسم «فلسطين».

ثانياً: إن اليهود لم يؤلفوا في فلسطين دولة مستقرة إلا فترة وجيزة من الزمن في عهد الملكين: داوود وسليمان، اللذين ما إن انقضت فترة حكمهما حتى دب الانقسام في المملكة اليهودية، التي لم تدم أكثر من قرنين من الزمان بما في ذلك عهد وحدتها وعهد انقسامها[٥٨]، إذ تعرضت البلاد إلى غزو مستمر قام به على التعاقب الآشوريون الذين قضوا على أحد شطريها: مملكة إسرائيل (القسم الشمالي)، وهدموا عاصمتها وسبوا رجالها إلى نينوى (٧٢١ ق.م) والبابليون الذين قضوا على الشطر الثاني: مملكة يهوذا (القسم الجنوبي)، وخربوا هيكل سليمان، وهدموا المدينة، وسبوا معظم السكان إلى بابل (٥٨٦ ق.م).

وما إن عاد اليهود إلى فلسطين، وأعادوا تشكيل دولتهم حتى داهمهم الإمبراطور الروماني الكبير «بومباي» (٨٥ ق.م) فألحق بلاد الشام برمتها (بما فيها فلسطين) إلى الإمبراطورية الرومانية، فامحى ظل السيادة اليهودية على فلسطين. ولما حاول اليهود ــ بحركة عصيان يائسة ــ استرجاع السيادة على البلاد وجهت إليهم الضربة القاضية، ودمر الهيكل من جديد وشرد اليهود من فلسطين تشريداً كلياً (١٣٥م)، بحيث لم يبق منهم فيها سوى أقلية ضئيلة[٥٩] فتفرقوا في مختلف أنحاء العالم دون أن يكون لهم مأوى أو وطن. وأينما حلوا كانوا يعاملون معاملة الغرباء غير المرغوب فيهم، فاضطروا إلى الإقامة في أماكن خاصة في المدن، منفصلة عن باقي الأحياء، ويُجبرون أحياناً على ارتداء ملابس خاصة مع شارات تميزهم عن غيرهم، وكانت كلمة «يهودي» مرادفة للبخل والربا. ومع ذلك كانوا يعتقدون أنهم «شعب الله المختار»، ويواصلون الحنين إلى صهيون، وهو التل الغربي من القدس الذي أصبح رمز أمانيهم في العودة[٦٠].

الشيء الجدير بالذكر هنا أن إقامة اليهود الفعلية المستمرة لم تتجاوز خمسة أو ستة قرون بينما سكنها العرب ما يقارب أربعة عشر قرناً[٦١] وأن عدد العرب فيها كان لا يقل عن

(*) إن تسمية هذه الشعوب باسم «السامية» إنما هو من وحي يهودي توراتي، والأحرى أن تسمى باسم «شعوب عربية» لا شعوب سامية لأن الدراسات الجادة أثبتت أنها قدمت في الأصل من شبه الجزيرة العربية.

(٥٨) NEGIB MOUSSALLI, Le Sionisme et La Palestine p. 22.

(٥٩) وديع تلحوق، دولة إسرائيل، ص٢٦؛ عبد الله حسين، المسألة اليهودية، ص١١٨.

(٦٠) البانديت نهرو، تاريخ العالم، ص٣١٥.

(٦١) NEGIB MOUSSALLI, Ibid. p. 22.

/٧٠٠/ ألفاً حين صدور تصريح بلفور، بينما لم يتجاوز عدد اليهود /٥٥/ ألفاً أي ٧٪ من مجموع السكان تقريباً. وأما بقية الشعب اليهودي فقد عاشوا أحقاباً طويلة في إفريقية الشمالية ومختلف بلدان أوروبا وآسيا، وخاصة منها البلاد العربية، التي لم يلقوا فيها سوى الرعاية والإخاء، لا تربطهم بفلسطين أية رابطة مادية. وقد هاجر عدد كبير منهم إلى القارة الأمريكية بقسميها الشمالي والجنوبي، حيث تكونت منهم فيها جاليات أحرزت شأناً كبيراً في التجارة والمال(٦٢).

ومن الخصائص التي عرف بها اليهود، في العصر الحديث بصورة خاصة، انصرافهم إلى شؤون التجارة وإقراض المال والمراباة، بحيث أصبح لهم في هذا الميدان تخصص ومران ودربة وحيل مبتكرة، ساعدتهم على جمع الثروة وشراء ذمم الحكام، حتى أصبحوا قوة يُخشى نفوذها ويُستنكر نشاطها حيثما حلوا، وقد دفعهم إلى هذا التخصص الاضطهادات التي تعرضوا لها، وحرمانهم من الوظائف الحكومية، ومن احتراف الجندية، أو ممارسة الشؤون العامة، بالإضافة إلى احتقارهم واستذلالهم(٦٣). غير أن اليهود الذين كانوا محرومين من امتلاك الأراضي، في القرون الوسطى إبان سيادة النظام الإقطاعي، كانوا لذلك مبعدين عن التجارة وامتهان الحرف. ولم يكن لهم حق إلا ببيع بعض البضائع المعينة، وكان أكثرهم باعة متجولين في المزارع والحقول، كما كان بعضهم يمتهنون إقراض النقود بربا غير محدود، وبصورة سرية باعتبار أن الكنيسة كانت تنهى عن ذلك. لكنهم ما لبثوا ــ حينما حل المجتمع البورجوازي محل المجتمع الاقطاعي ــ أن تقدموا لامتهان المهن المختلفة نظراً لكثرة الحاجة إلى الأيدي العاملة، كما تقدموا بحكم اختصاصهم إلى احتكار وظائف الصيرفة والوظائف التجارية، وبذلك كان ظهورهم مرتبطاً بظهور المدن وتوسعها، فعاشوا كما عاش غيرهم فيها، ولم يكن يميزهم عن سواهم من الناس غير دينهم(٦٤). إنما لم تلبث الكراهية ــ كظاهرة اجتماعية ــ أن حلت بينهم وبين أهالي المدن المسيحيين، بسبب التنافس التجاري والمصرفي، ذلك أن رجال الدين المسيحي قد تساهلوا في مسألة الربا، فصار المسيحيون يتعاطونه، فاصطدموا بما كان لليهود في هذا المضمار من القدح المعلى. يضاف إلى ذلك أن الاقطاعيين ــ حينما كان صرح نظامهم يترنح أمام انتصارات البورجوازية ــ لم يكونوا يرون في غير اليهود ملجأ يلتجئون إليه لاستدانة النقود. إذ كانوا يتحاشون التعامل مع الدائنين البورجوازيين خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى ازدياد ثروتهم

---

(٦٢) أحمد طربين، القضية الفلسطينية، ص٦.

(٦٣) قاسم حسن، العرب والمشكلة اليهودية، ص٣٧؛ عبد الله حسين، المصدر السابق، ص١٣٥.

(٦٤) JAMES PARKER, The Jews In Médiaevl Community؛ راجع: قاسم حسن، المصدر السابق، ص٣٣.

واتساع نفوذهم، فأصبح اليهود مكروهين من أبناء المدن، لا لمزاحمتهم لهم اقتصادياً وحسب، بل لوقوفهم عائقاً دون توسع نفوذهم السياسي أيضاً(٦٥).

وإذا أضفنا إلى ذلك الحياة الدينية ــ العنصرية التي كان يحياها اليهود، وموقفهم السلبي من الاندماج بالشعب الذي يعيشون معه، وسكناهم في أحياء خاصة بهم تسمى «الغيتو Gyhettos» لا يسكن فيها غيرهم، وانعزالهم فيها بشكل يثير شكوك المسيحيين، ويعطي مجالاً لتصديق ما كان يشاع من تهم مروِّعة توجه إليهم، كقتل الأطفال واستعمال دمائهم لأغراض وطقوس دينية، يزيد في أوارها ما كان لرجال الدين المسيحيين من سيطرة على النفوس، يبثون فيها عاطفة الكره لليهود، إذن لأدركنا سبب الاضطهادات التي لقيها هؤلاء في مختلف العصور وفي مختلف البلاد الأوروبية: ألمانيا، بولونيا، إسبانيا، روسيا، فرنسا، وحتى إنكلترا(٦٦). على أن أروع الاضطهادات التي لقوها كانت في ألمانيا. وقد بدأت في القرن التاسع عشر وازدادت حدتها في عهد النازية، بحيث اتخذت شكل «محاربة الساميين» (اللاسامية). ولعل الدافع إليها هو التطور الصناعي والاجتماعي، ذلك أنه بسيطرة الآلة على الإنتاج فقدت جموع غفيرة من الفلاحين أراضيها بسبب القضاء على الصناعة اليدوية التي كانوا يمارسونها، فاضطروا لبيع أراضيهم كي يعيشوا بثمنها، وبدؤوا يتدفقون إلى المدن باحثين عن عمل في المصانع، فحصل التزاحم والتنافس بينهم وبين أهل المدن عليها. وباعتبار أن القرن التاسع عشر كان بحق عصر القوميات، بدأ الألمان ينظرون إلى الساميين بأنهم من عنصر مختلف عن العنصر الألماني الآري. ولما شعر أفراد هذا العنصر الأخير بسيطرة اليهود على المناصب الكبرى في الدولة وفي المصانع، وعلى الحياة الاقتصادية ــ بعد أن كسر اليهود طوق العزلة، وتفتحوا على الحياة العامة بعد الثورة الفرنسية ــ بدأ الحسد والتبرم يتمكنان من صدر الشعب الألماني، وعمت النقمة عليهم، بحيث قامت كثير من الأحزاب في ألمانيا وفي أواخر القرن التاسع عشر منها: الحزب الاجتماعي الألماني، وحزب أعداء الساميين الشعبي، وحزب الإصلاح الألماني ... الخ وكلها وضعت في رأس مناهجها فقرة بوجوب محاربة الساميين باعتبار أنهم السبب الأساسي للمشاكل الاجتماعية الطارئة، فضربت بذلك على الوتر الحساس في النفوس المتبرمة، لأن اليهود الساميين كانوا

---

(٦٥) قاسم حسن، المصدر السابق، ص٤٢، اقتباساً من RENNAP, Antisémitisme And The Jews Question, p.21.

(٦٦) H. FORD, Beynimilel Yahudi, pp. 12-13، قاسم حسن، المصدر السابق ص٣٨ ــ ٤٣ ــ ٤٤ ــ ٤٩.

في الواقع يزاحمون أرباب المال والصناعات والطبقة الوسطى سبل الحياة[٦٧] . ولم تكن روسيا وشعبها أقل تبرماً باليهود في أواخر القرن التاسع عشر فاضطهدتهم ، ونكلت بهم تنكيلاً لم ينسوا أثره إلى وقت طويل ، وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

لقد ذهب مئات الآلاف منهم ضحايا لهذه الاضطهادات ، ومع ذلك لم يفتؤوا أينما حلوا يحاولون السيطرة على الاقتصاد والسياسة ، متخذين ديدنهم المضاربة ، واحتكار التجارة والأعمال المالية ، حتى بزوا الآريين في الميدان التجاري ، وأخذوا يسترهنون الأراضي الواسعة لقاء الديون التي يقرضونها لأصحابها ، ويتحكمون برقاب مالكيها وفلاحيها تحكماً جعل ضحاياهم يتألبون عليهم في كل مكان ، بعد أن اكتشفوا أنهم ليسوا إلا طفيليات مزعجة وخطرة . وكانت لهم أساليب ماكرة في علاقاتهم مع الحكام والأمراء : يتواطؤون معهم في بادىء الأمر لاستغلالهم ، حتى إذا لمسوا أن نجمهم آخذ في الأفول يغذون النقمة عليهم . ولهم اختصاص ومهارة في الانحراف بالحاكم عن رسالته الحقيقية ، يتوددون إلى الحكام ويستميلونهم بالهدايا ، حتى إذا اطمأن هؤلاء إلى نياتهم إزاءهم ، هيؤوا لهم أسباب الاستمتاع ، وزينوا لهم التهتك والاستهتار لينصرفوا هم إلى استنزاف ما في جيوب الأهالي ، وإيصال أبناء جلدتهم إلى مصاف العلماء والنبلاء والوزراء والمستشارين . وهم يجمعون إلى صفة حب المال الطموح إلى المعالي ، يستعملون كل أساليبهم الماكرة لإدراك أغراضهم[٦٨] ، ويلبسون لذلك كل لباس حتى ولو كلفهم الأمر التظاهر بالتحرر واعتناق المبادىء الإنسانية ، والمناداة بمبادىء الإخاء والمساواة التي رسمتها الثورتان الأمريكية والفرنسية ، اللتان كان لهما الفضل في خروج اليهود من عزلتهم ، وكسر الطوق الذي ضربوه على أنفسهم داخل بوابات « الغيتو »[٦٩] ، والتجنس بجنسية البلاد التي يعيشون فيها ، واختلاطهم بأهلها ، ومشاركتهم لهم في حياتهم الاجتماعية . وكان عليهم أن يلبسوا ثوب الحمل البريء ليتخذوا من المنظمة الماسونية مطية للوصول إلى أغراضهم ، متظاهرين بالدعوة إلى التسامح الديني . وكانت هذه المنظمة قد جذبت إلى صفوفها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبورجوازيين ورجال الفكر في كل دولة من دول أوروبا وخاصة في إنكلترا ، فتقاطر كبار زعماء اليهود إلى الانتساب للمحافل الماسونية ، وكان من أبرز هؤلاء آل روتشلد ، وآل مونتاكو من ملوك البترول ، ومنهم « لورد سوايسلنغ SWYTHLING وآل بليسنغتون ، ومنهم الماركيز

---

(٦٧) قاسم حسين ، المصدر السابق ، ص٨٢ ــ ٨٣ .

(٦٨) H. FORD, Ibid. p. 28 ; أدولف هتلر ، كفاحي ، ج٣ ، هتلر والأجناس ، ص٢٣ ــ ٢٥ .

(٦٩) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ؛ ص٩ ، ج دي ف . لودر ، المصدر السابق ، ص١٨٧ .

BLESSINGTON ، ولوردات دربي DERBI » ، وغيرهم من كبار الشخصيات اليهودية المرموقة[٧٠] . وهكذا أضحت الماسونية أداة طيعة في أيديهم استخدموها لتحقيق غاياتهم السياسية . وعندما شعروا أن الماسونية وحدها لا تكفي لا يصالهم إلى الهدف المنشود وضعوا نصب أعينهم تهويد الصحافة أو توجيهها ، على الأقل[٧١] ، الوجهة التي يريدونها ، فيتم لهم بذلك بسط إشرافهم على الحياة العامة بجميع نواحيها : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ولم يتورعوا ــ كما قال هتلر ــ عن الإلقاء بنسائهم في أحضان الألمان ذوي النفوذ في سبيل الوصول إلى أغراضهم ؛ لكنهم حرصوا دائماً على نقاوة دمهم بمنع أبنائهم الذكور من التزوج بغير اليهوديات[٧٢] . كما كانوا لا يتأخرون عن اعتناق الأديان الأخرى كالمسيحية والإسلام للتمويه وإيجاد طريقة لتنفيذ مخططاتهم التي يرسمونها ، لكنهم مع ذلك يحتفظون في قلوبهم بديانتهم الأصلية ، وعند الايجاب يتخذون اسمين : إسماً إسلامياً أو مسيحياً وآخر يهودياً ، وشعارهم المتبع على الدوام هو « أن اليهودي يظل يهوديا يسري في عروقه الدم اليهودي ، ولو مهما اعتنق من أديان » فهو يثابر على القيام بشعائره وتقاليده وعاداته لا يشتغل ، ولا يشعل ناراً في بيته يوم السبت ، ولا يحلل ما حرمته الديانة اليهودية ، ولا يحرم ما حللته[٧٣] . وهكذا فإن « الدونمة » (الصابئين أو المتحولين) وهو الإسم الذي أطلق على اليهود الذين اعتنقوا الدين الإسلامي في تركيا ، وقد قدموا من إسبانيا هرباً من الاضطهاد ، لم يكونوا مسلمين إلا رياءً وظاهرياً[*] . وكذلك الذين ذهبوا إلى إنكلترا واعتنق بعضهم فيها الدين المسيحي ، وكان سبب هجرتهم أن إسبانيا في القرن السادس عشر لم يكن بالإمكان أن يبقى فيها أي يهودي بصورة رسمية[٧٤] .

---

(٧٠) CEVAT RIFAT ATILHAN: Yahüdiler Dunyayi Nasil Istila Ediyorler, 38 مرجع تركي : تأليف جواد رفعت آتيلخان : كيف يستولي اليهود على العالم .

(٧١) H. FORD, Ibid. p. 37.

(٧٢) هتلر ، المصدر السابق ، ص٣٨ .

(٧٣) CEVAT RIFAT ATILHAN, Ibid. pp. 16,31.

(*) كان زعيم اليهود المسلمين « الدونمة » في تركيا يدعى « سباتاي زيني » أدعى النبوة ، وعظم شأنه لدى بني جنسه ، واتهم بسعيه للحصول على مقام السلطنة ، ولما مثل أمام السلطان محمد الرابع (١٦٤٦ ــ ١٦٨٧ م) أعلن إسلامه خوفاً على حياته ، واتبعه كثير من مريديه ، لكنهم بقوا متمسكين بمبادىء ديانتهم القديمة ، وحصل نوع من اختلاط العقائد عندهم ، ونشأ نوع جديد من الاعتقاد يصح أن يسمى « المذهب اليهودي ــ الإسلامي » «Secte Judéo-Musulman» وكان الأتراك يسمون اليهود المسلمين باسم « اليهود المرائين » ويُطلق عليهم اليهودُ الذين بقوا على يهوديتهم اسم « المسلمين المرائين » وغلب عليهم اسم « الدونمة » (راجع Rev. Du Monde Musulm. Nov. 1908 pp. 483-495) .

(٧٤) CEVAT RIFAT ATILHAN, Ibid. pp. 16, 30 (جواد رفعت آتيلخان) .

لم يترك اليهود في البلدان التي قطنوها أية وسيلة إلا واستخدموها لتنفيذ مخططاتهم. أما إذا اعترض سبيلهم أحد فإنهم لا يتورعون عن تحطيم شخصيته، وتلويث سمعته مهما كان شريفاً. قال هتلر «أما إذا كان المقصود محاربة رجل شريف فإن اليهود، بسفالتهم المعهودة، لا يتورعون عن رميه بكل نقيصة جاعلين من الصحافة التي يوجهونها منبراً للتحامل عليه، حتى إنهم يذهبون إلى حد انتقاد حياته الخاصة ونشر الفضائح عن أفراد عائلته... ولا يتورعون عن الإفتراء ونسج الأكاذيب، ويواصلون الحملة مسخرين في ذلك عشرات الصحف...»(٧٥). ويؤيد هذا القول الكاتب التركي جواد رفعت آتيلخان في كتابه الحديث «كيف يستولي اليهود على العالم» إذ يبين أن اليهود حينما لمسوا معارضة السلطان عبد الحميد الثاني لرغبتهم التي عرضوها عليه في أن يساعدوه مادياً لقاء السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، بدؤوا يحطمون سمعته ويضخمون أخطاءه، ويحملون عليه حملات شديدة في الصحف العالمية، ويدسون الدسائس الداخلية في الإمبراطورية العثمانية بواسطة اليهود «الدونمة» حتى أدى الأمر إلى تقويض عرشه(٧٦)، وقد استعانوا على ذلك بالذهب الذي كانوا يبذلونه بدون حساب، وبالجاليات الصهيونية في أمريكا، والوكالة اليهودية في فرنسا، والمنظمات الصهيونية في إنكلترا، بحيث رُسم المخطط هناك ونفذ في تركيا(٧٧). ومما يؤيد صدق هذا القول السلوك الذي سلكه يهود «الدونمة» بعد ثورة تركيا الدستورية، ومحاولتهم الاستفادة من العهد الجديد كي تطلق يدهم في أرض فلسطين، وكان للمراسم التي رتبها الاتحاديون لتبليغ السلطان المذكور قرار خلعه دلالة خاصة، إذ كان في مقدمة الوفد، الذي بلغه القرار، النائب اليهودي «كاروسو CAROSSO»(*) الإيطالي الأصل. والحقيقة أن أمل الصهيونية بعد هذه الثورة أصبح مضاعفاً في تحقيق برنامجها القومي(٧٨).

خلاصة القول إن اليهود، وخاصة في ابتداء القرن العشرين، جعلوا من إنكلترا رأس جسر ينطلقون منه إلى تنفيذ أغراضهم، فقد وجدوها أنسب مكان يطلق يدهم في العمل نظراً لما لهذه

---

(٧٥) هتلر، المصدر السابق، ج١، هتلر واليهود، ص٤٢.

(٧٦) CEVAT RIFAT ATILHAN, Ibid. pp. 44,45, 49. 51.

(٧٧) Ibid. p. 83.

(*) لما أُذن للوفد بدخول قاعة العرش تقدم كاروسو من السلطان عبد الحميد وخاطبه قائلاً «إن أي ظالم بادیشاه!!» أي: (إنزل أيها السلطان الظالم).

(٧٨) C.R.ATLHAN, Ibid. p.28, Rev. du Monde Musulman, Aout 1908, p.732.

الدولة من مكانة دولية ، بحيث تتحكم في مصائر السياسة الدولية ، وشرعوا بالاستناد إلى المنظمة الماسونية ، التي احتلوا المراكز الهامة فيها ، في رسم مخططاتهم ودسائسهم[٧٩] .

كان الإنكليز يعطفون على اليهود ، ويشجعون الحركة الصهيونية التي اتخذت في أواخر القرن التاسع عشر ــ عصر اليقظة القومية ــ شكل العمل السياسي المنظم ، والتصميم الجدي للحصول على وطن قومي ، بعد أن كان هذا الهدف مجرد حلم من أحلام اليهود[٨٠] . لقد شجعها المسيحيون الإنكليز ، وخاصة منهم أصحاب رؤوس الأموال الضخمة والاستعماريون ، الذين كانت تضمهم مع أرباب المال اليهود في إنكلترا وأمريكا ، الارتباطات الاقتصادية ، « الترستات » ، الكبيرة والشركات المسيطرة . وكان هؤلاء يريدون أن تبقى الروح القومية حية عند اليهود ، فاللورد أشلي واللورد شافتسبوري والكولونيل كولير ووالتر كرسيون وجيمس فن ولورنس أوليفانت وغيرهم كانوا يساندون مطالب زعماء اليهود القومية على أسس وخطط رتبت معهم[٨١] ، وهي تخدم مصالح الاستعمار الإنكليزي ، والآمال القومية الصهيونية في فلسطين معاً : ايجاد حكومة يهودية تحت حماية الإنكليز في الأراضي المقدسة لتأمين سلامة قناة السويس بوصفها طريق بريطانيا الرئيسي إلى الهند[٨٢] .

على أن محاولات اليهود التي سبقت هذه الأساليب المنظمة في العودة إلى فلسطين قد جرت بشكل عفوي . كانت غايتها اغتنام أية فرصة تهيئها الظروف للوصول إلى الغاية المنشودة . وهكذا حاولوا استغلال حملة نابليون على عكا ، وعرضوا عليه مساعدتهم لقاء تحقيق أملهم المنشود . كما تبع ذلك مفاوضة الزعيم اليهودي « موسى مونتفيوري »ــ وكان تاجراً إيطاليا تجنس بالجنسية الإنكليزية ، وصاهر أسرة روتشلد اليهودية ذات الثراء الواسع ، وقد أثرى من التجارة ثراء عريضاً ، فتركها وكرس جهوده لخدمة أبناء دينه ــ لمحمد علي باشا (١٨٣٧) في أثناء الحكم المصري في سورية ، مستغلاً تسامحه الديني تجاه المذاهب الأخرى ، في سبيل إقامة مستعمرات زراعية لليهود ، فتريث محمد علي في الأمر ، لكنه لم تمض بضع سنوات حتى عادت سورية وفلسطين إلى حوزة الدولة العثمانية فجدد مونتفيوري مسعاه لدى السلطان العثماني ، وحصل لليهود على جميع المزايا التي كان يتمتع بها الأجانب في أنحاء الدولة العثمانية ، ولكن دون أن يصل مع ذلك إلى تأمين كيان قومي لهم

---

(٧٩) C.R. ATILHAN: Ibid. pp. 29, 37.

(٨٠) وديع تلحوق : المصدر السابق ، ص٢٩ .

(٨١) قاسم حسن : المصدر السابق ، ص٨٤ (نقلاً عن «Encyclopédia Britanico «Zionism) .

(٨٢) أرسكين تشايلدرز ، المصدر السابق ، ص٦٦ .

فيها ، وكان مونتفيوري أول من تكلم باسم اليهود في أوروبا والشرق في العصر الحديث[٨٣] . وقد يصح أن نعتبر هذه المحاولات بمثابة البذرة الأولى للحركة الصهيونية في التاريخ الحديث ، بحيث أخذ اليهود منذئذ يجهرون بفكرتهم القائلة إنهم شعب « بلا وطن » ويبثون في نفوس الشعب اليهودي أن الاضطهادات التي يلقونها ليست إلا نتيجة للكره العنصري الذي تضمره لهم الشعوب المختلفة ، فكان هذا الدور من المسألة اليهودية هو الدور التمهيدي لظهور الحركة الصهيونية الفعلية التي برزت إلى الوجود في نهاية القرن التاسع عشر .

الحركة الصهيونية

هي حركة سياسية حديثة منظمة ترجع إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، غايتها بصورة عامة تأمين عودة اليهود إلى ما اعتبروه « أرض الميعاد » ، وجعل فلسطين دولة يهودية يحشد فيها ما تستطيع استيعابه من جموعهم المنتشرة في أرجاء العالم . ولم تكن مرامي اليهود قبل هذا العهد سوى عقيدة كامنة تعرب عن نفسها بعاطفة حنان وشوق إلى « الوطن المفقود »[٨٤] وبعبارات تحمل في طياتها ذكريات انفعالية ووجدا دينيا مثل « ... كيف نغني أغنية الرب في أرض غريبة ؟ شلت يميني إن نسيتك ياأورشليم ، ليلتصق لساني بحلقي إن لم أذكرك ياأورشليم ، وإن لم أفضلك على أعظم أفراحي » ، تلك القصائد التي نظمت منذ سبي بابل ودونت في المزامير « هناك على انهار بابل جلسنا وبكينا عندما تذكرناك يا صهيون ، وعلى أشجار الصفصاف علقنا أعوادنا ، بعد أن طلب الذين سبونا أن نغني لهم أغنية من أغاني صهيون »[٨٥] ، وهي عبارات درج اليهود على ترديدها دون ربطها بهدف قومي منظم ، ودون أن تتخذ معنى سياسياً واضحاً[٨٦] .

إن المذابح والاضطهادات التي تعرض اليهود لها في مختلف البلدان الأوروبية ، وخاصة منها المذابح الروسية عام ١٨٨٢ ، هي التي حفزت مفكريهم إلى الاهتمام بمشكلة الوطن القومي لليهود ، فقام أحد زعمائهم « ليوبنسكر » بتأليف كتاب « التحرر الذاتي » قال فيه « إن العالم يحتقر اليهود

---

(٨٣) محمد رفعت ، قضية فلسطين ، ص٢٢ ، وديع تلحوق ، المصدر السابق ، ص٢٩ .

(٨٤) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٦٨ .

(٨٥) البانديت نهرو ، المصدر السابق ، ص٣١٦ .

(٨٦) من محاضرة ألقاها وليد الخالدي في نادي الخريجين ببيروت ــ راجع مجلة الأسبوع العربي عدد ١٧٩ (تشرين ثاني ١٩٦٢).

لأنهم ليسوا أمة ، ولأنهم أجانب في كل بلد يعيشون فيه ، والعلاّج الناجع لهذا الداء المستعصي هو إيجاد قومية يهودية لشعب يعيش في أرض الوطن » ، دون أن يحدد مكان هذه الأرض . على أن اعتقاده فيما يختص بفلسطين « أنه لا ينبغي على اليهود أن يتعلقوا بالمكان الذي زالت منه حياتهم السياسية بعنف » . وقد تألفت بعدئذ جمعية أطلقت على نفسها اسم « عشاق صهيون » غايتها الحث على إحياء اللغة العبرية ، والدعوة للهجرة إلى فلسطين ، واستعمار أراضيها ، ولاقت تشجيعاً من اليهود ، وبخاصة من أثريائهم ومنهم البارون « أدمون روتشلد » فعاشت على إحسانهم[٨٧] .

لم يكن اليهود الصهيونيون على اتفاق ــ في بادىء الأمر ــ حول جعل فلسطين لا غيرها الوطن القومي المنشود ، وحتى « ليوبنسكر » نفسه لم يوص بالإلحاح على هذه الفكرة دون غيرها . كان قسم كبير منهم ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الصهاينة الإقليميون Sionistes Territoriaux » يتزعمهم الكاتب الإنكليزي المشهور « إسرائيل زنكويل ISRAEL ZANGWILL » يرون أن أية بقعة من الأرض سواء أكانت فلسطين أو غيرها تصلح بل يجب أن تخصص لجمع اليهود في وطن قومي ، ينقذهم من التشرد[٨٨] . كما وقف المتدينون من اليهود ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الاندماجيين » موقفاً معادياً من إقامة « دولة يهودية » تجمع اليهود في مكان واحد ، وحجتهم في ذلك أن اليهودية دين لا قومية ما دام الذين يعتنقونها من أمم مختلفة وعروق متباينة . كما كان بعض أصحاب المصالح في أمريكا لا يرون حاجة لوجود قومية يهودية ، وعارض المجلس اليهودي المناهض للصهيونية في أمريكا فكرة إنشاء « الدولة اليهودية »[٨٩] . إلا أن البارون « موريس دي هيرش » مؤسس جمعية الاستعمار اليهودي في لندن ، الذي كان يهتم ، في بادىء الأمر ، بتهجير اليهود إلى الأرجنتين ، والذي وضع كتاباً باسم « روما أورشليم » ، أثار فيه عواطف اليهود في ضرورة العودة إلى « أرض الميعاد » ، وبعث أورشليم « وطناً قومياً لليهود » ، وغيره من زعماء الصهيونيين كالدكتور « تيودور هرزل » اليهودي النمسوي الذي يعتبر بحق مؤسس الصهيونية الأول ، وواضع براجها ووسائلها ، ومحدد أهدافها ــ بعد أن كانت قبله غامضة الملامح ــ وصاحب الدعوة إلى إنشاء الدولة اليهودية ، بدؤوا يعملون على تعبئة الشعور القومي لدى اليهود ، ويخططون لتحقيق أهداف الصهيونية .

نشر الدكتور « هرزل » كتابه « الدولة اليهودية » ، الذي اعتبره اليهود إنجيل الدعوة ، عام

---

(٨٧) أكرم زعيتر ، القضية الفلسطينية ، ص٤٢ ؛ أحمد طربين ، تاريخ قضية فلسطين ، ص١١ .

(٨٨) N. MOUSSALLI, Ibid. p. 21.

(٨٩) أحمد طربين ، تاريخ قضية فلسطين ، ص١٤ .

١٨٩٦ ، وهو في الأصل رسالة موجهة إلى اللورد اليهودي « أدمون روتشلد » ، وإلى أفراد أسرته الغنية في إنكلترا ، يلفت نظرهم إلى ما يلاقيه اليهود « المنكودون » من عذاب وحرمان ، ويلتمس منهم العمل على انقاذهم مما هم فيه . لم يكن هرزل ، في بادىء الأمر ، من طلاب العودة إلى فلسطين ، بل كان من الذين ينادون باندماج اليهود في الشعوب الأوروبية التي يعيشون معها ليتخلصوا من الاضطهاد والظلم ، وبتنصرهم ليصبحوا جزءاً من العالم المسيحي ، لكن فكرته ، تطورت بعد زيارته لإنكلترا ، واتصاله بزعماء الصهيونية فيها ، فأصبح ينادي بإنشاء الدولة اليهودية[٩٠] . على أن هرزل لم يعين في كتابه البقعة المطلوبة ، ولم يحتم أن تكون فلسطين هي مكان الدولة المنشودة[٩١] ، وإن يكن قد عالج بخيال خصب عجيب تفاصيل الحياة الاجتماعية للدولة اليهودية ، كما يريدها ، مفضلاً أن يكون نظامها جمهورياً أرستقراطياً ، ولم يهمل مسائل العمل والعمال وساعات العمل ، وغير ذلك كأنه يصنع الدولة اليهودية بيديه لبنة لبنة . كما اقترح إنشاء وكالة يهودية للتنظيم والمفاوضات السياسية ، وشركة يهودية تتولى الشؤون الاقتصادية والمالية للحركة[٩٢] . كان لكتاب هرزل أهمية بالغة في نظر اليهود ، بلغت حد التقديس ، واعتبر هرزل رائداً للصهيونية السياسية الهادفة إلى الحصول على ميثاق دولي يعترف بشرعية المزاعم اليهودية ، ويساعد على تنظيم الهجرة . وقد كتب هرزل في هذا يقول « لا نريد أن نتسلل كمهربين ، بل نريد أن نشعر بأننا في وطننا الأول »[٩٣] . وعندما انعقد المؤتمر الذي دعا إليه في مدينة « بال » في سويسرة عام ١٨٩٧ بحضور ١٩٧ مندوباً من أمريكا وأوروبا ونفر من فلسطين ، لاقت فكرة إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين معارضة شديدة لأنها تحرم الصهيونية من تأييد الدول الكبرى ، باعتبار أن لهذه الدول أطماعاً خاصة في الشرق الأوسط وفي خيراته وموقعه الهام . إلا أن الزعيم الصهيوني الكبير « ماكس نوردو » وهو من مفكريهم العظام ، اقترح صيغة محكمة جاءت تلائم جميع الاتجاهات والتيارات ، لأنها خالية من كل مدلول سياسي وهي « الوطن القومي لليهود في فلسطين » وكان من شأنها أن تزيل جميع المخاوف والشكوك وتحقق الآمال[٩٤] وقد عرّف المؤتمر الصهيونية تعريفاً أصبح فيما بعد مدرسياً وهو « ان الصهيونية تنزع إلى خلق وطن

---

(٩٠) المصدر السابق ، ص١٢ ــ ١٣ ، اقتباساً من محاضرات عن قضية فلسطين للأستاذ أحمد الشقيري .

(٩١) عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٤٦ .

(٩٢) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص١٣ ، اقتباساً عن الشقيري (محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة) ؛ أكرم زعيتر ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

(٩٣) دكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٦٩ ، عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٤٥ .

(٩٤) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص١٥ ، عن محاضرات الشقيري .

للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه الحق العام »[٩٥] . وبعد انتهاء المؤتمر وخشية من اصطدام الآراء ناشد هرزل بعض خاصته « بتجنب الخلاف والقلق حول الصيغة ، لأن الشعب سوف يقرأ عبارة الوطن القومي على أنها تعني الدولة اليهودية »[٩٦] .

وقد أوضح المؤتمر الوسائل التي يجب أن تتخذ لتحقيق الوطن القومي فيما يأتي :

١ ـــ تنمية حركة استعمار الأراضي في فلسطين بايفاد عمال الزراعة والصناعة إليها .
٢ ـــ تنظيم العناصر اليهودية وتوثيق الروابط القومية بينها في مختلف الدول وتنمية الوعي القومي اليهودي بين الشبان اليهود .
٣ ـــ اتخاذ الاجراءات اللازمة ـــ عند سنوح الفرص ـــ للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية .
٤ ـــ تأليف لجنة تنفيذية من ٢٣ عضواً بصورة دائمة مركزها « فيانا »[٩٧] .

وقد انتخب هرزل رئيساً للجنة التنفيذية . كما رأى أنصار الحركة الصهيونية وجوب العمل على إثارة أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية في بلدان الشرق العربي ، كي يرى الاستعمار في هذه الحركة عوناً وحليفاً له في تنفيذ أغراضه الاستعمارية فيسدى إليها يد العون بالمقابلة[٩٨] . ولما كانوا يرون أن الوطن الروحي اليهودي المنشود لا يؤسس إلا على مبادىء روحية أخذوا يهتمون بالأمور الأدبية كاحياء اللغة العبرية وتوسيع نطاق التربية والتعليم والشروع بتحضير الوسائل اللازمة لبناء جامعة عبرية كبرى في « أرض الميعاد » المزعومة[٩٩] .

لم يكد المؤتمر ينهي أعماله حتى بدأ العمل لتنفيذ مقرراته . واعتقد هرزل أن الحالة في الدولة العثمانية ـــ التي واجهت ضغطاً من الدول الأوروبية كي تقر لسكان اليونان ومختلف دول البلقان الأخرى بحقهم في الحرية والاستقلال ـــ مساعدة لتحقيق أماني اليهود ، وكانوا إلى ذلك الوقت يعيشون على أحسن حال من الوفاق ومن صلات المودة وحسن الجوار مع العرب ، فأخذ يسعى ويجد ، حتى فاز بمقابلة مع السلطان عبد الحميد (١٩٠١ ، ١٩٠٢) عله أن يقنعه بالتخلي عن

(٩٥) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٦٩ .
(٩٦) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص١٥ ، عن محاضرات الشقيري .
(٩٧) محمد رفعت بك ، قضية فلسطين ، ص٢٣ ـــ ٢٤ ؛ عزيز بك ، المصدر السابق ، ص٤٦ .
(٩٨) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص١٦ .
(٩٩) ج . دي . ف . لودر ، المصدر السابق ، ص١٩٠ .

فلسطين لليهود تحت سيادة تركيا(١٠٠)، مقابل أن يأخذ اليهود على عاتقهم جميع ديون السلطنة، وأن يخفضوا فائدتها من ٤ر٥٪ إلى ٥ر٢٪. وبالرغم من أن العرض كان مغرياً فإن السلطان أفهمه، أن جل ما يستطيع السماح به هو أن يمتلك من يريد من اليهود الأراضي في العراق أو كيليكيا أو أي مكان آخر غير فلسطين، بشرط أن لا يتجاوز عدد أفراد أي مجتمع يهودي في مكان واحد الألف شخص، وبقيت المفاوضات عند هذا الحد. فلما رأى يهود «الدونمة» أن ثمة جمعية لرجال تركيا الفتاة تعمل في مكدونيا لخلع عبد الحميد دخلوا فيها جماعات، ونقلوا نشاطها إلى «سلانيك»، حيث تسكن أكثرية إسرائيلية، وجروا أكثر أعضائها وزعمائها إلى المحافل الماسونية، وساعدوا الجمعية بأموالهم وبخبرتهم، حتى استطاعت تقويض عرش السلطان(١٠١).

وكان مما اتخذه السلطان عبد الحميد لمنع تسرب اليهود، القادمين من خارج البلاد العثمانية إلى أرض فلسطين واستيطانهم فيها، أن أوعز بحجز جوازات سفرهم في مخافر الحدود التي يدخلون منها، وإعطائهم، بدلاً عنها، تذاكر مرور فقط، لا تخولهم الإقامة الدائمة، وتنظيم قوائم بأسمائهم وملاحقتهم ومراقبتهم مراقبة دقيقة، حتى إذا تجاوزوا المدة المسموح لهم بقضائها في البلاد عُمد إلى إخراجهم منها(١٠٢). ومع ذلك لم ييأس هرزل، بل واصل مساعيه لدى رجال الدولة العثمانية، وبعض زعماء العرب مشيراً إلى المنافع التي تجنيها الدولة والعرب من قدوم اليهود إلى فلسطين، كما حاول توسط الإمبراطور الألماني لدى السلطان العثماني، لكن جميع مساعيه باءت بالفشل(١٠٣). عندئذ اتجهت جهود الصهيونية نحو إنكلترا ــ وكانت حركة الهجرة في ذلك الوقت آخذة بالازدياد من شرقي أوروبا باتجاه أمريكا ــ وقد أخذ كثير من المهاجرين باستيطان بلاد أوروبا الغربية التي مروا بها في طريقهم إلى الولايات المتحدة، ومنها إنكلترا، فسببت هجرتهم زيادة كبرى في عدد اليهود ببريطانيا، مما أدى إلى توتر عنصري، وردة فعل من المواطنين البريطانيين، وخاصة منهم اليمينيين، فاضطرت الحكومة إلى تأليف لجنة برلمانية لدرس قضية الهجرة اليهودية إلى بريطانيا عام (١٩٠٢). وكان اللورد بلفور قد تولى رئاسة الوزارة في السنة نفسها. وعندما أعطت اللجنة قرارها، ومن ضمنه تقييد الهجرة اليهودية، حصل جدال حول هذا الموضوع بين الحكومة والمعارضة التي ترأسها المستر

(١٠٠) محمد رفعت بك، المصدر السابق، ص٢٥.

(١٠١) G.R. ATILHAN, Ibid. pp. 49-51; N. MOUTRAN, Ibid. pp. 142-143.

(١٠٢) C.R. ATILHAN, Ibid. pp. 47-48.

(١٠٣) أحمد طربين، تاريخ القضية الفلسطينية، ص١٨ ــ ١٩.

ونستون تشرشل مدافعا عن حقوق اليهود، وهوجم «بلفور» الذي دافع عن قرار اللجنة، واتهم باللاسامية وبالعداء للشعب اليهودي بأسره. وفي سبيل ايجاد حل لهذه الأزمة قدمت بريطانيا لليهود عرضين (١٩٠٢ ـــ ١٩٠٤):

١ ـــ إنشاء وطن قومي يهودي في سيناء حتى العريش.
٢ ـــ إيجاد وطن قومي يهودي في يوغندا في إفريقية الشرقية وكانت تحت الاستعمار البريطاني.

ومن هنا يتضح أن مساعدة إنكلترا لليهود ليست قضية عطف وحسب، بل أيضاً رغبة منها في تخفيف الضغط على بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية، بالإضافة إلى المنافع الاستراتيجية التي تهم بريطانيا في منطقة الشرق العربي[١٠٤].

قبل المؤتمر الصهيوني السادس العرضين مبدئياً وأرسل لجنة إلى يوغندا لدراسة أحوالها فيما إذا كانت تصلح للغاية المنشودة، لكن الدراسات التي أجريت حولها وحول سيناء دلت على عدم صلاحهما وطناً قومياً لليهود، فرفضا من قبل المؤتمر الصهيوني الذي عقد سنة ١٩٠٤، تلك السنة التي توفي فيها الزعيم هرزل، ففقدت الصهيونية بفقدانه عقلها المفكر وساعدها المدبر، إلى أن ظهر الزعيم الصهيوني الدكتور «حاييم وايزمن»، وهو بولوني الأصل، استوطن بريطانيا، وتعرف سنة ١٩٠٦ في مانشستر ـــ حيث كان يعمل أستاذاً للكيمياء في جامعتها ـــ بالسير «أرثر جيمس بلفور» المار الذكر، وبسط له سبب رفض اليهود لمشروع «يوغندا» بأنه ناشىء عن عقيدة دينية، باعتبار أن هذا الاعتقاد الديني العميق، المعبر عنه بمصطلحات سياسية، يوجب أن تكون فلسطين بالذات هي الوطن المنشود قائلاً «لو أن موسى حضر المؤتمر الصهيوني السادس، الذي تبنى قرار إيفاد لجنة إلى يوغندا، لكان حتماً قد حطم الألواح مرة أخرى»[١٠٥]. كما اتفق وايزمن مع الزعيم الصهيوني البارز «آحاد هاعام» ـــ الذي وقف بعناد معارضاً لمشروع يوغندا ـــ على وجوب توجيه الحركة الصهيونية نحو فلسطين. ولم يلبث الزعيمان أن تمكنا من تحويل آمال اليهود نهائياً وبشكل حاسم نحو فلسطين دون سواها[١٠٦]. وهكذا تبلورت القضية الصهيونية في قالبها النهائي متخذة الدوافع الدينية تكأة لها لاستدرار العطف العالمي ـــ لا سيما قد لقيت من الدافع الإنساني الناشىء

(١٠٤) وليد الخالدي، المصدر السابق، ص١٤.
(١٠٥) أحمد طربين، تاريخ القضية الفلسطينية، ص٢٢، اقتباساً عن كتاب وايزمن المسمى «Trial &Error».
(١٠٦) وديع تلحوق، المصدر السابق، ص٣٣ ـــ ٣٧؛ أحمد طربين، تاريخ القضية الفلسطينية، ص٢٠ ـــ ٢٢.

عن الاضطهادات العنصرية رافداً لها ــ بينما هي تخفي وراءها أسباباً واقعية مختلفة المظاهر، منها ما هو سياسي واستراتيجي واستعماري واقتصادي[١٠٧] .

غير أن قيام ثورة ١٩٠٨ التركية، وتسنم الاتحاديين سدة الحكم بما عرف عنهم من محاربة القوميات، واتباع سياسة صهر العناصر العرقية في البوتقة التركية، كاد أن يسقط في أيدي الصهاينة ويخيب آمالهم التي عقدوها على رجال تركيا الفتاة، فتوشك أمانيهم في الوطن القومي أن تنهار، لذلك اقتصر نشاطهم في بادىء الأمر على بذل الجهود الفردية لمساعدة الفقراء واللاجئين منهم على الإقامة في فلسطين، وإنشاء مراكز زراعية لهم يمولها أغنياء اليهود[١٠٨] . ذلك أن الصهيونيين عندما أدركوا إخفاق وسائلهم السياسية المنظمة وجب عليهم أن يغيروا طريقة السعي بالبحث عن الوسائل العملية التي تكفل الوصول إلى الهدف دون انتظار منحهم ميثاقاً شكلياً، وتبنوا في مؤتمري ١٩١١، ١٩١٢ سياسة تقول بفتح فلسطين عن طريق شراء الأراضي والهجرة الفردية المنظمة على مقياس واسع، وفكروا بانه من المستطاع، متى رسخت أقدامهم بقوة في أرض فلسطين، تسوية وضعهم بالحصول على اعتراف الدول بالأمر الواقع، بعد أن يكونوا قد أمنوا لأنفسهم أكثرية السكان وتملكوا الأرض[١٠٩] . وقد تكللت جهودهم هذه بالنجاح بفضل ما كان لهم من نفوذ في أوساط جمعية الاتحاد والترقي وحكومتها. ثم تدرجت مساعيهم إلى مفاوضة الباب العالي الذي كان قد ثابر ــ بعد الثورة ــ على الإجراءات المانعة لتسرب اليهود إلى فلسطين، ويظهر أن الاتحاديين قد أظهروا شيئاً من التراخي معهم، خاصة وأن كثيرين من اليهود «الدونمة» كانوا من الأعضاء البارزين في الجمعية المذكورة، وأشهر هؤلاء وزير المالية «جاويد بك» الذي حشد في وزارته عدداً كبيراً من الموظفين اليهود .

ولم يكن النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني بغافلين عن نوايا الصهيونية الماكرة، فما إن عرفوا بتسرب بعضهم إلى مرج عامر ــ وشرائهم الأراضي على نطاق واسع، وإقامتهم فيها مستعمرات زراعية يهودية[١١٠]، واستعمالهم طوابع بريدية خاصة بهم تحمل صور هرزل وماكس نوردو، يلصقونها على رسائلهم المتداولة عن طريق مكاتب البريد الأجنبية، وإقامتهم في البلاد المقدسة أندية ومحاكم

---

(١٠٧) وليد الخالدي، المصدر السابق، ص١٣ .

(١٠٨) محمد رفعت، المصدر السابق، ص٢٦ .

(١٠٩) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٧٠ .

(١١٠) جان بيشون، بواعث الحرب العالمية الأولى، ص١٢٠ .

تحكم بغير القضايا الجنائية، ولهم أعلام يرفعونها في أعيادهم وأناشيد ينشدونها في مناسباتهم القومية[١١١] ـــ حتى بادر زعماء العرب في المجلس النيابي التركي وخاصة منهم النائبان شكري العسلي (نائب دمشق)، وروحي الخالدي (نائب القدس) إلى كشف خطرهم، وأثاروا القضية في المجلس واشترك في المناقشة أحد النواب اليهود «مزلياح أفندى» مدافعاً عن بني جنسه، محرضاً الحكومة على النواب العرب الذين حسروا النقاب عن تسرب اليهود إلى البلاد، وازدياد عددهم ازدياداً مقلقاً، وأبرز النائب روحي الخالدي رسالة بتوقيع الزعيم الصهيوني «اوبتشكي» الملقب بالأمير اليهودي، وفيها يبين الوسائل التي تؤدي إلى بلوغ الهدف القومي الصهيوني، كما قررت في مؤتمر ١٨٩٧[١١٢]. فاضطرت الحكومة إلى اتخاذ قرارات وتدابير كفيلة بمنع تسرب الأراضي إلى أيدي اليهود[١١٣].

لكن الصهيونيين لم يعرفوا لليأس معنى، فما إن نشبت الحرب العامة حتى بادروا إلى توسيط الإمبراطور غليوم الثاني، عاهل ألمانيا، لدى الحكومة العثمانية، فكلم الإمبراطور الوزير التركي طلعت بك في موضوع إعطاء فلسطين لليهود. وكان مما اصطنعته الصهيونية من وسائل الاغراء أنها صورت للأتراك حاجتهم الماسة إلى وجود قوة من شأنها أن توازن قوة الحركة القومية العربية لاضعافها، وان اليهود مستعدون لكي يشكلوا هذه القوة الموالية للأتراك في فلسطين، وأعلن الزعماء الصهيونيون عن استعدادهم لتعبئة فرقة يهودية بولندية للدفاع عن فلسطين، وعن امكانية اسهام الأموال اليهودية في مساعدة الدولة العثمانية على تخفيف الأزمة المالية التي تعانيها، كما أعلنوا للحكومة الألمانية عن استعدادهم لجعل فلسطين جبل طارق تركي ـــ ألماني. فعرض طلعت بك المشروع على مجلس المبعوثان التركي الذي قابله بالرفض[١١٤]. وهكذا حل بالقضية الصهيونية حتى أوائل أيام الحرب جمود تام، إذ إن جميع محاولات زعمائها باءت بالفشل وبدأ عدد المؤمنين بها بالتناقص، لأن الفكرة بدأت تظهر لأعينهم وكأنها حلم خيالي عقيم[١١٥].

---

(١١١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٥، ص١٣٢.

(١١٢) راجع كتابي السابق: العرب والترك ....، ص٢٨٢ ـــ ٢٨٤.

(١١٣) N. MOUSSALLI, Ibid. p. 45.

(١١٤) أحمد طربين، تاريخ القضية الفلسطينية، ص٢٢ ـــ ٢٣، عن كتاب حقائق عن قضية فلسطين، من منشورات الهيئة العربية العليا.

(١١٥) نجيب صدقة، قضية فلسطين، ص٨.

لكن زعماء الصهيونية كانوا أحذق من أن يستسلموا لهذا الجمود ، فسرعان ما استغلوا ظروف الحرب ونقلوا مكاتبهم إلى عواصم الدول المحايدة ، وخاصة إلى نيويورك التي ركزوا جهودهم ونشاطهم فيها ، لأن لهم في أمريكا بضعة ملايين من اليهود بينهم عدد كبير من رجال الدولة العظام ، ومن أصحاب الأعمال الكبرى(١١٦) . ولكنهم لم يهملوا لندن التي جعلوها المحور الذي تدور فيه المفاوضات الصهيونية ــ الإنكليزية في سبيل تحقيق حلمهم التاريخي ، ذلك أنهم بعد أن رأوا ألمانيا ــ التي كانت عند بدء الحرب مركزاً لنشاطهم ــ تدخل الحرب وجدوا أن من المفيد لقضيتهم أن يستميلوا الحلفاء ، حتى إذا أدت الحرب إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية وتفككها ، ضمنوا لمطالبهم أن تلقى آذاناً صاغية(١١٧) وبدا لهم أن الجو أصبح أكثر ملاءمة لتحقيق مبادىء الزعيم هرزل بالحصول على الدعم السياسي للقضية الصهيونية وبالتالي على الميثاق الدولي المنشود .

لم تظاهر الصهيونية ، قبل عام ١٩١٧ ، أياً من الفريقين المتحاربين ، فقد كان ممثلوها يفاوضون الأتراك والألمان ، كما يفاوضون الإنكليز والأمريكيين ، وكان كل من المعسكرين المتحاربين يسابق الآخر إلى خطب ودهم بفضل ما تجر الصهيونية وراءها من قوى يهودية عالمية مادية وأدبية(١١٨) . وقد ظفر الصهيونيون بفضل الضغط الألماني ــ النمساوي على الأتراك ، وبتوسط السفير الأمريكي المستر هنري مورغنتو ، اليهودي ، لدى الباب العالي ــ وقد جاء في تصريح له سنة ١٩١٦ بأنه نصح الحكومة التركية ببيع فلسطين لليهود ، بعد نهاية الحرب ، وأن الوزراء العثمانيين وافقوه على ذلك ، وناقشوا مسألة جعل فلسطين جمهورية ، وأنهم استعرضوا بجد مسألة إرسال « حاييم ناحوم » الحاخام الأكبر اليهودي في تركيا سفيراً لهم إلى الولايات المتحدة(١١٩) ــ ظفروا بوعد من الحكومة العثمانية بأن يسمح لليهود ، بعد نهاية الحرب ، بإنشاء شركة ذات امتيازات واسعة تتولى تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ولكن بدخول الجنرال اللنبي إلى فلسطين قبل أن يصدّق الوعد نهائياً من قبل الحكومة التركية لم يبق له أية قيمة بنظر اليهود ، فأُهمل ، خاصة وأنهم كانوا في حينها قد حصلوا على تصريح بلفور ، أما كيف تحقق لهم ذلك ففيمايلي بعض التفصيل عنه .

---

(١١٦) محمد رفعت ، المصدر السابق ، ص٢٧ .

(١١٧) أنطونيوس ، المصدر السابق ، (ترجمة الركابي) ص٢٨٦ .

(١١٨) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

(١١٩) CORRESPONDANCE D'ORIENT, (10/6/916) p. 87.

كان زعماء اليهود البارزون على اتصال دائم ــ في أثناء الحرب ــ برجال الحكم في إنكلترا، فاستطاعوا بما لهم من مركز اجتماعي ممتاز ــ ومعظمهم من علية القوم، كاللورد أدمون روتشلد الثري الشهير، والدكتور وايزمن، ونعوم سوكولوف السياسي اللبق، ونخبة مختارة من الكتاب والصحفيين ورجال السياسة، كالمستر هربرت صموئيل ولاندمن وكوهن وساشر ــ أن يُحلوا المسألة الصهيونية المحل المرموق في نظر المسؤولين الإنكليز، ويكسبوا عطف الحكومة الإنكليزية وثقتها وحدبها على أماني اليهود القومية.

بدأت المحادثات غير الرسمية بين زعماء الصهيونية وبعض الوزراء الإنكليز منذ تشرين الثاني ١٩١٤، بمقابلة جرت بين السير هربرت صموئيل (اليهودي) رئيس مجلس الحكومة المحلية في حكومة اللورد «اسكويث» رئيس الوزارة، والسير ادوارد غراي وزير الخارجية (سلف اللورد بلفور)، وبأخرى جرت بين الدكتور وايزمن واللورد بلفور. قال صموئيل لغراي «قد تخلق هذه الحرب قريباً مناسبات عديدة لتحقيق مطالب اليهود في إقامة دولة يهودية في فلسطين، فإن حُققت هذه المطالب على يد بريطانيا كسبنا عطف الملايين من اليهود المنتشرين في جميع أقطار العالم، وأوجدنا على مقربة من مصر ومن قناة السويس دولة جديدة موالية لنا». فوعد الوزير بتأييدها إن سمحت الظروف. ولما سأله اللورد غراي عما إذا كان الصهيونيون يكتفون بفلسطين أم يطالبون بسورية بأجمعها، أجاب بأن القناعة أولى، لأن في سورية، «مدناً كبيروت ودمشق تكثر فيها العناصر غير اليهودية بحيث يصبح من الصعب تمثيلها، ولكن من رأي الصهيونية أن تقوم في المناطق السورية الأخرى دولة أوروبية كفرنسا مثلاً. وأما فلسطين فلا يحسن منحها الاستقلال السياسي في الوقت الحاضر لأن أكثرية سكانها من غير اليهود، وأن الأفضل أن توضع تحت الحماية البريطانية». ثم اجتمع بالمستر لويد جورج وحدثه في الموضوع، فرأى لويد جورج أنه جدير بالاهتمام ولكنه تحفظ في إبداء رأيه بصراحة. وفي كانون الثاني ١٩١٥ كتب هربرت صموئيل مذكرته عن «مستقبل فلسطين» ووزع نسخاً منها على زملائه أعضاء الوزرارة، وبعض النواب وذوي النفوذ، وعرض فيها مشروعاً لتأسيس دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا، يأوي إليها بضعة ملايين من اليهود المنتشرين في أوروبا[١٢٠].

في الواقع تلاقت أهداف الصهيونية بالمطامع البريطانية، ومخططاتها في الشرق الأوسط، لقاءً

(١٢٠) نجيب صدقة، المصدر السابق، ص٢٠ ــ ٢٢.

أسفر عنه «تصريح بلفور». ذلك أن السياسة الإنكليزية في مصر كانت ترى أن التحكم في شؤون القطر المصري لا يتم إلا إذا اتُّخذت بلاد الشام قاعدةً دفاعية، وأن شبه جزيرة سيناء لا يمكن أن تفي بالغاية المرجوة. وهكذا ووفقاً لهذا التخطيط أقر اللورد غراي ولويد جورج في العام ١٩١٥ المشروع الذي وضعته القيادة العليا في مصر، والقاضي بضم فلسطين إلى الإمبراطورية. لكن سياسة الحكومة الإنكليزية الماكرة رأت أن من الحكمة أن تخفي هذه الخطة وراء ستار إنساني، ذلك أنها وجدت في المطالب، التي انبثقت عن المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (١٨٩٧) لإنشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين، الذريعة الملائمة. فاستعملت كل ما أوتيت من مكر ودهاء كي لا تنص اتفاقيات سايكس ــ بيكو إلا على إنشاء إدارة دولية في فلسطين، ووقفت أمام مطامع الفرنسيين في السيطرة على عموم البلاد السورية بما فيها فلسطين(١٢١). غير أنها لم تشأ أن تبذل عطاءها هذا دون مقابل من منفعة آنية تخدمها في الحرب القائمة، ذلك أن الحلفاء كانوا بحاجة إلى أن يدعمهم اليهود، بما يمتلكون من قوى سياسية وأدبية، وخاصة في الولايات المتحدة التي كان بإمكانهم أن يدفعوها إلى تبني موقف ملائم للحلفاء(١٢٢). وهي (إنكلترا) وإن كانت مستعدة لإظهار عطفها الشديد على أمانيهم، وعزمها على تحقيق رغباتهم، إلا أنها أخذت تساومهم كي تكسبهم إلى جانبها، فأخذت تنوه لهم بالمصاعب التي تقف في وجه مطالبهم، وغايتها أن يلقوا بأنفسهم في أحضانها فتستعين بهم في السيطرة على فلسطين، وإلغاء تدويلها، فتحقق بذلك غايتها وغايتهم.

لم تكن بريطانيا لتجهل أن في ألمانيا والنمسا عناصر قوية من اليهود تعمل لدى الدول الوسطى، وتفاوضها فعلاً لإصدار وعد تركي شبيه «بتصريح بلفور» ــ كما مر معنا ــ وأن في روسيا عناصر أخرى منهم متغلغلة في النظام القيصري، وأن من الضروري استمالتها وجعلها تعمل في سبيل استمرار مساهمة روسيا في الحرب(١٢٣). هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنها رأت من الضروري أن تخفف من عداء اليهود القاطنين في بلاد الحلفاء نحو روسيا، التي يقفون موقف التحفظ من الحلفاء بسببها. وعليه فإن إجابة مطالبهم لمما يتفق وسياسة الحلفاء العامة. لذلك شرعت

(١٢١) p. LYAUTEY, Ibid. p. 209 ; كارل بروكلمن، المصدر السابق، ج٥، ص١٠٢.
(١٢٢) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٧١.
(١٢٣) G. ANTONIUS, Ibid. p. 261.

حكومات الحلفاء تتذاكر فيما بينها حول مطالب الصهيونية، وقد مهدت لها اتصالات زعماء اليهود الفردية مع الشخصيات البريطانية البارزة طوال عام ١٩١٦.

رأت بريطانيا أن تستمزج رأي حليفتها روسيا في الموضوع، فأرسلت إليها في ١٣ آذار ١٩١٦ مذكرة بينت فيها أن إجابة مطالب الصهيونيين يكسب الحلفاء تأييد اليهود في الولايات المتحدة وفي أوروبا الشرقية، وأنها ترى من الموافق القيام بعمل يرضيهم ويحملهم على مساعدة الحلفاء، وذلك بالاعتراف لهم بحق إدارة شؤون فلسطين الداخلية، حالما يصبح عددهم فيها كافياً، منوهة بأن تدويل فلسطين يلاقي معارضة شديدة من قبل أكثرية اليهود. كما أصدرت المنظمة الصهيونية ــ من جهتها ــ بياناً رسمياً عن وجهة نظرها في مستقبل الحكم في فلسطين، وقد طلبت فيها الإعتراف لها بإنشاء شركة يهودية تعمل على إعمار فلسطين بواسطة المستعمرين اليهود، تُعطى حق الأولوية في شراء الأراضي، وتطلب الاعتراف بأن يهود فلسطين يشكلون وحدة قومية مستقلة. وباعتبار «أن السكان الحاليين (أي العرب) قليلو العدد، وأهل فقر وفاقة، وقسطهم من العلم قليل، وتوخيا لتقدمهم تقدماً سريعاً، فلا بد ــ وهذه حالهم ــ من إردافهم بعنصر جديد آخذ بقسط وافر من التقدم والرقي، تواق إلى وقف ما عنده من جهود ورؤوس أموال على الإعمار، وفق المنوال الحديث»[١٢٤].

وعلى أثر تقديم هذا البرنامج اتخذت الاجتماعات ــ منذ تشرين الأول ــ صفة أكثر رسمية. علماً بأن الحلفاء كانوا آنئذ في ضيق ملموس: جمود حربي في الجبهة الفرنسية، اشتداد خطر الغواصات في البحار المحيطة بالحلفاء، وضع عام غير مرضٍ بتزايد خطره باضطراد، اندحار الإيطاليين في موقعة كابوروتو، سحق الجيش الروماني[١٢٥]. باختصار كان الحلفاء ــ والقلق مستحوذ على نفوسهم ــ يتلهفون على تدخل أمريكا، في حين أن الاتصالات معها لم تحقق كثيراً من الآمال المعقودة عليها. ولم يبق لإنكلترا إلا الاستنجاد بنفوذ اليهود في الولايات المتحدة. لكن التقارير التي تلقتها من أمريكا كانت تشير إلى ميول قوية موالية للألمان لدى كبار أرباب البنوك الأثرياء من اليهود، والبيوتات المالية الكبرى، ومعظمهم من أصل ألماني، ولدى الصحفيين اليهود

(١٢٤) نجيب صدقة، المصدر السابق، ص٢٢ ــ ٢٣.

(١٢٥) المصدر السابق، ص٣٩.

الذين يعملون بإيحاء منهم، مما جعل البعثتين اللتين أرسلتهما فرنسا وإيطاليا إلى أمريكا، تخفقان في مهمتهما، ذلك أن الاضطهادات الروسية لليهود قد تركت أثراً عميقاً عند يهود أمريكا[١٢٦].

غير أن توسط «جيمس مالكولم» الإيراني الجنسية الأرمني الأصل، وعضو الوفد الأرمني القومي الذي عهد إليه بتولي مصالح الأرمن إبان الحرب وبعدها ــ وكان مركزه لندن ــ والذي كان له صداقات قوية وعريقة مع اليهود، قد هون الأمر، فاتصل بالسير مارك سايكس، وأفهمه الطريقة التي يُستطاع بها كسب اليهود الأمريكيين إلى جانب الحلفاء، ونبهه إلى أن أثرياء اليهود وحاخاميهم الموجودين في إنكلترا ليسوا الزعماء الحقيقيين للشعب اليهودي، كما نبهه إلى أهمية الحركة الصهيونية، ووجوب استرضاء هذه الحركة بمنح فلسطين لليهود. ثم استعرضا وقوف اتفاقية سايكس ــ بيكو (في محاولة لإلغاء تدويل فلسطين ولم يجف بعد مداد المعاهدة) عقبة كؤود في سبيل استمالة اليهود إلى جانب الحفاء واحتمال رفض الحلفاء لها. ثم اتصل سايكس بالشخصيات البريطانية البارزة، وحصل على وعد منهم بأن يخول مالكولم مفاوضة اليهود ــ باسم الحلفاء ــ على أساس إعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم، لقاء مساعدتهم الحلفاء بنفوذهم لدى الولايات المتحدة، باعتبار أن «فلسطين هي ثمن التأييد اليهودي». واتفقا على وجوب تذليل ما يمكن أن يعترض المسعى من عقبات من قبل فرنسا والفاتيكان، الذي يمكن أن يعارض أي مشروع يهدف إلى وضع الأماكن المقدسة المسيحية تحت سيطرة اليهود.

وشرع مالكولم بالعمل بادئاً بالاتفاق مع المستر غرينبرغ (اليهودي)، رئيس تحرير جريدة «الجويش كرونيكل Journal Juif»، الذي جمعه بالدكتور وايزمن(*)، وكان هذا قد انتقل من مانشستر إلى لندن، وشرع يعمل في اختراع المتفجرات للأميرالية ووزارة الذخيرة، وبالمستر سوكولوف وبغيرهما من الزعماء اليهود، وأبلغهم ما كلفته به وزارة الحرب البريطانية. وبعد أن استوثق الدكتور وايزمن منه بأن الحكومة تعتزم بصورة جدية أن تعدهم بفلسطين، مقابل ما تطلبه من مساعدة يهود أمريكا صافحه، وطلب منه أن يجمعه بالمستر سايكس. وفي اليوم التالي جرت مقابلة

---

(١٢٦) مجلة الرائد العربي (العدد ٢١ ــ شهر تموز ١٩٦٢) وثيقة تاريخية بقلم جيمس مالكولم، ص١٦.

(*) من وصف وايزمن للسير ماركس سايكس أن تفكيره غير منطقي، ولكنه كريم طيب القلب. وأن له الفضل في نقل نشاط الصهيونيين إلى الصعيد الرسمي عندما كان سكرتيراً لوزارة الحرب، معترفاً بأنه لولا مشورة رجال مثل مارك سايكس ولورد سيسل لصادف الصهيونيين بعض العقبات في الاتصال بالمراجع السياسية (أحمد طربين: تاريخ القضية الفلسطينية، ص٢٧ ــ نقلاً عن وايزمن نفسه في كتابه (المحنة والخطأ، ص٢٢٩).

بين سايكس (بتفويض خاص من السير موريس هانكي سكرتير المجلس الوزراي الحربي) وبين زعماء الصهيونيين : نعيم سوكولوف ، وغرينبرغ ، واللورد روتشلد ، وهربرت صموئيل . ولم يكن بينهم وايزمن لمشاغله في وزارة الحرب(١٢٧) . وأسفرت المقابلة عن نتيجة مرضية ، وكانت الخطوة الأولى إبلاغ الزعماء الصهيونيين في جميع أنحاء العالم بنتيجة الاتفاق المبدئي ، وقدم سايكس تسهيلات خاصة لإرسال البرقيات ، ومنها برقية خاصة مسهبة أرسلت فوراً إلى الزعيم الصهيوني القاضي لويس برانديس ، الصديق الحميم للرئيس ويلسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، الذي يجل آراءه غاية الإجلال ، بالشيفرة عن طريق وزارة الخارجية . كما جرت محادثات أخرى في مختلف وزارات الدولة ، شهدها الدكتور وايزمن ، دارت كلها بمعرفة اللورد موريس هانكي ، سكرتير مجلس الوزراء الحربي ، وأسفرت عن تفاهم عام أطلق عليه اسم « اتفاق المهذبين » (الجانتلمان) ، وهو يقضي « بأن يعمل الصهيونيون لضمان عطف اليهود الفعلي على قضية الحلفاء ، وتأييدهم لها ، ولا سيما في الولايات المتحدة ، وذلك لتحقيق اتجاه ميال إلى الحلفاء في الولايات المتحدة ، وأن تقوم الوزارة البريطانية بمساعدة اليهود في الفوز بفلسطين مقابل ذلك » ، **وعلى الأثر انتقلت المفاوضات إلى غرفة السير مارك سايكس في وزارة الخارجية التي احيلت إليها** القضية من وزارة الحرب لاتخاذ الإجراءات اللازمة بصددها(١٢٨) ، فاتخذت بذلك صفتها الرسمية .

في الواقع كان للبرقيات المرسلة إلى الجاليات اليهودية ، سواء في روسيا أو البلاد المحايدة ، أثرها في تقوية العطف على الحلفاء عند اليهود في كل مكان . وحتى خصوم الصهيونية لم يسع بعضهم إلا إبداء التأثر عند اطلاعهم على البرقيات المتضمنة الوعد المبدئي بإعطاء فلسطين لليهود قائلين « كيف يمكن ليهودي أن يرفض مثل هذه الهبة » . كما كان « الجديديون » في إيران وهم يشبهون يهود « الدونمة » في سلانيك ، أي يتظاهرون بالإسلام ، على وشك اعتناق الإسلام جماعةً ، وعندما سمعوا بهذا الاتفاق وبعده بتصريح بلفور ، عدلوا عن قرارهم(١٢٩) .

ثم تتالت الاجتماعات بين السير مارك سايكس وزعماء الصهيونية المار ذكرهم ، بالإضافة إلى آخرين ، كالدكتور تشيلنو والمستر ساكر والدكتور غاستر والدكتور وايزمن ، ولم يكن هذا الأخير ليكرس كل وقته للقضية بسبب أعماله الكيمياوية ، كما لم يكن آنذاك عضواً في اللجنة التنفيذية

---

(١٢٧) الرائد العربي ، وثيقة جيمس مالكولم ، ص١٢٦ ـــ ١٧ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ص٧ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص١٧ .

الصهيونية، فعهد إلى المستر سوكولوف بمواصلة المحادثات مع سايكس بالنيابة عن الزعماء الصهيونيين، لكنه لم يكن ليغفل عن اقتناص الفرص السانحة للوصول إلى الغاية المنشودة. وهو بحكم اشتغاله في اختراع المتفجرات لوزارة الذخيرة قد خدم القضية خدمة كبيرة. فعندما وقع الإنكليز في ضيق من حيث صعوبة استيراد مادة «الأسيتون» (الخلون) من أمريكا التي زاد التجار في أسعارها، وطالبوا بالثمن سلفاً، أتيح للمستر لويد جورج من ينصحه باستقدام الدكتور وايزمن، بوصفه أستاذاً جامعياً ممتازاً للكيمياء، ومخلصاً تمام الإخلاص لقضية الحلفاء، «إنما الشيء الوحيد الذي يملك لبه هو قضية الصهيونية، ويقينه بأن الشيء الوحيد الذي يوحي ببعض الأمل لشعبه هو انتصار الحلفاء». فاستدعاه وكلفه بالعمل للحصول على هذه المادة، فقبل واستطاع استخراج الأسيتون من بعض الحبوب مثل الذرة وجوز الهند. يقول لويد جورج في مذكراته بهذا الصدد «وعندما تغلبنا على المصاعب التي اعترضتنا بفضل عبقرية وايزمن، قلت له: لقد أديت خدمة عظيمة للدولة، لذلك فانني سأطلب من رئيس الوزراء أن يقترح منحك وساماً، وعندئذ أجابني قائلاً: أنا لا أطلب شيئاً لنفسي فقلت له: أليس من شيء نستطيع أن نرد به الجميل الذي أسديته للدولة بمساعدتك القيمة لها؟ أجاب: أجل أريد منكم أن تفعلوا شيئاً من أجل شعبي. وأخذ يشرح لي آماله بعودة اليهود إلى الأراضي المقدسة وجعلها وطناً قومياً لهم». ويضيف لويد جورج بأنه بعد استلامه رئاسة الوزارة ــ إثر استقالة وزارة المستر اسكويث (كانون أول ١٩١٦) ولم يكن هذا ميالاً إلى العطف على آمال الصهيونية ــ بحث الموضوع ملياً مع المستر بلفور وزير الخارجية الجديد، الذي تأثر تأثراً بالغاً بحديثه معه عن العمل الذي قام به الدكتور وايزمن. يقول لويد جورج بعدئذ «وحيث كنا راغبين في أن يكون اليهود سنداً لنا لدى الدول المحايدة، لاسيما أمريكا، فقد كُلف الدكتور وايزمن بأن يكون على اتصال مباشر مع وزارة الخارجية»(١٣٠).

وكان ممن قدموا العون الكبير لنجاح المفاوضات المستر فيتز موريس، المترجم ذو الشهرة العالمية للسفارة البريطانية سابقاً في الآستانة، وإليه يرجع الفضل في كسب الفريق السير هنري ويلسن، رئيس أركان حرب الإمبراطورية، والفريق السير جورج مكدونو مدير المخابرات العسكرية وغيرهما ممن ساهموا في العمل. وكان مما عرضه المذكور وجوب الحصول على موافقة الحكومتين الفرنسية والإيطالية وتأييد الفاتيكان. أما روسيا فلم يكن يتوقع أية متاعب من قبلها، فيما إذا وافق الآخرون على المشروع، خاصة وأنها كانت قد وصلت آنذاك إلى حد الإنحلال. لهذا الغرض اتصل

(١٣٠) LLOYD GEORGE, Mémoires De Guerre, pp. 52-57.

مالكولم بالمسيو جورج بيكو ، الذي أصبح إبان الحرب يشغل منصب مستشار السفارة الفرنسية في لندن ، وكان كثير التفهم لقضيتي الأرمن واليهود ، وشديد العطف عليهما ، وكان على استعداد لتقديم ما يستطيعه من عون ، لكنه كان يعتقد بوجود صعوبة واحدة كبرى وهي أنه ، باستثناء البارون أدمون دي روتشلد ، فإن جميع اليهود البارزين في فرنسا كانوا مناوئين للصهيونية ، وكانوا يسخرون من الفكرة القائلة بذهاب عدد من اليهود إلى فلسطين ، ويعتقدون أن الصهيونية فكرة مثالية طوباوية تسلطت على عقول بعض اليهود الأوروبيين الشرقيين المتعصبين . فكان على مالكولم أن يستأصل هذا الاعتقاد من ذهن « جورج بيكو » فاستطاع ذلك ، وحصل منه على وعد بالمساعدة ، ثم توجه إلى باريس لبحث القضية مع المسيو « غوت Gott » وكيل وزارة الخارجية الفرنسية للشؤون الشرقية آنذاك ، وكان وثيق الصلة باليهود الفرنسيين ، فاجتمع به في حين كان يهود فرنسا الذين يمثلهم « الاتحاد الإسرائيلي » العالمي ذو النفوذ الكبير ، والمسيو « بيغارت » سكرتير هذا الاتحاد ، يبذلون كل جهد لتحطيم المشروع الصهيوني .

على أن استقالة « اسكويث » من رئاسة الوزارة واستلام « لويد جورج » مكانه قد خدم القضية ، لأنه كان أكثر حدباً عليها ، فاستطاع مالكولم مع سايكس من الحصول على تأييده بكل سهولة[١٣١] ، بينما زار الدكتور وايزمن وزارة الخارجية البريطانية رسمياً ، وأبدى للورد « بلفور » قلقه مما سمعه عن معاهدة سرية (سايكس ـــ بيكو) عقدت بين الحلفاء تعطَى فرنسا بموجبها القسم الشمالي من فلسطين ، وطالب بأن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية ، فأشار بلفور بأن يتصل الصهيونيون بالحكومتين الفرنسية والإيطالية وأن يحملوهما على تأييد مطالبهم[١٣٢] . عندئذ كلف المستر سوكولوف بالذهاب إلى باريس لهذا الغرض ، والتحق به مالكولم في باريس (بموافقة وزارة الخارجية) ، فاتصل الأخير بالمسيو استيفان بيشون وزير الخارجية والمسيو دي مارجيري وجورج بيكو . وما إن علم أعضاء الاتحاد الإسرائيلي في فرنسا ، وأمين سره المسيو « بيغارت » ، بقدوم المستر سوكولوف وبالموعد المضروب له لمقابلة السياسيين الفرنسيين المسؤولين حتى دب فيهم النشاط وحاولوا المستحيل ـــ بما لهم من نفوذ كبير في الأوساط الرسمية ـــ لاحباط مباحثاته معهم . لكن مالكولم استطاع ـــ بما بذله من التمويه والكذب عليهم ـــ أن يجعل مساعيهم عقيمة . ولم تكن معارضة هؤلاء ناجمة فقط عن حبهم لوطنهم فرنسا ، بل أيضاً عن خوفهم من أن يؤدي قيام وطن

---

(١٣١) مالكولم ، المصدر السابق ، ص١٨ .

(١٣٢) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

قومي لليهود في فلسطين إلى التأثير على مركزهم السياسي في فرنسا ، كان هذا الحافز نفسه كذلك هو السبب في اشتداد معارضة اليهود من أصحاب النفوذ في إنكلترا(١٣٣) .

وبعد أن أمضى سوكولوف فترة وجيزة في باريس ، فاز خلالها بموافقة الكي دورسه ، وكان من جملة الحجج وأقواها التي تذرع بها ، ما ينتظره الحلفاء ــ لقاء إرضاء مطالب اليهود ــ من تأييد اليهود الأمريكيين لقضية الحلفاء في الولايات المتحدة(١٣٤) . ثم تابع سوكولوف رحلته إلى إيطاليا ، واتصل بالبابا ، وصدر بلاغ رسمي عن المقابلة التي تمت معه جاء فيه أن البابا قال لزائره : إن الفاتيكان واليهود سيكونان على علاقات من الجوار الطيب في فلسطين . كما استقبل وزير خارجية إيطاليا البارون « سونينو » المستر سوكولوف ، بناء على الترتيبات التي اتخذت مسبقاً في السفارة الإيطالية في لندن بمعرفة مالكولم وسايكس ، وتمت جميع هذه الخطوات بمعرفة القاضي برانديس التامة وموافقته ، إذ كان هناك اتصال برقي مستمر بينه وبين الدكتور وايزمن(١٣٥) . ولعل أهم نتيجة توصل إليها سوكولوف في العاصمتين الفرنسية والإيطالية حمل الفرنسيين والإيطاليين على التنازل عن فكرة تدويل فلسطين ، وعدم اعتراضهما على إنشاء الوطن القومي لليهود فيها(١٣٦) .

عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، في ربيع ١٩١٧ ، كان العمل يسير سيراً مرضياً ، لكن بعض النكسات توالت فأدت إلى تأجيل القضية ، وجعلت إصدار الوعد الرسمي المنتظر يتعثر ، ذلك أن الوزارة الإنكليزية شغلت ببعض الاندحارات العسكرية البرية والبحرية التي وقعت في ذلك العام ، فصرفتها عن الاهتمام بمشكلة فلسطين واليهود . كما أن أحد أعضاء الوزارة البريطانية ، وهو « أدوين مونتاغو » ، وزير شؤون الهند وهو يهودي ونجل اللورد سويتلنغ من أصحاب المصارف المعروفة ، شرع يبذل كل ما أوتي من جهد للحيلولة دون صدور الوعد ، كما اشتدت معارضة يهود فرنسا ، واتحدت في أيار ١٩١٧ جهود زعيمي اليهود الإنكليز : كلود مونتفيوري رئيس اتحاد اليهود الإنكليز ، ودافيد الكسندر رئيس مجلس المنتخبين ، وجمعا عدداً من زملائهما ، بحيث تشكلت لجنة مختلطة أعدت بياناً مشتركاً نشر في « التايمز » احتجت فيه على ما قيل من عزم الحكومة البريطانية

---

(١٣٣) مالكولم ، المصدر السابق ، ص١٨ .

(١٣٤) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

(١٣٥) مالكولم ، المصدر السابق ، ص١٨ .

(١٣٦) نجيب صدقة ، المصدر السابق ، ص٢٤ .

على اتباع سياسة مؤيدة للصهيونية في فلسطين(١٣٧). وقد جاء فيه أن اللجنة المختلطة ترى وجوب التقيد بما اتفق عليه، في المؤتمرين اليهوديين المنعقدين في ١٩١١ و ١٩١٢، بوجوب الاقتصار على السعي لتمكين اليهود في فلسطين من أن يعملوا بأنفسهم لترقية النبوغ اليهودي، ووجوب استبعاد المسائل السياسية الكبرى، وأنها ستقصر جهدها على بذل المساعي لدى الحكومة البريطانية لإصدار وعد يُكتفَى فيه بالاعتراف رسمياً بالتقاليد التاريخية التي يحرزها اليهود في فلسطين، ويصون لهم حقهم في التمتع بالحرية المدنية والدينية، ويمنحهم حقوقاً مساوية لحقوق سكان فلسطين الآخرين، ويسهّل لهم السبل المعقولة للهجرة والاستعمار، وتشكيل البلديات في المدن التي يسكنها اليهود بحسب الحاجة. كما احتجت اللجنة على قول النظرية الصهيونية بأن اليهود يكونون أمة واحدة لا وطن لهم وليس في وسعهم أن يمتزجوا مع الأقوام القاطنين معهم لأسباب سياسية وقومية، هذا الذي دفع الصهيونيين إلى طلب جعل فلسطين مركزاً سياسياً ووطناً قومياً لهم، بل تعتبر اللجنة المختلطة أن اليهود ليسوا سوى طائفة دينية لهم حق المساواة مع أقرانهم الوطنيين، من أي دين كانوا، وفي أي بلد يقطنونه، جنباً لجنب وإياهم، وأن اليهودية دين ليس لها علاقة بأية أنظمة سياسية(١٣٨).

لكن الجهود الصهيونية بذلت لمواجهة هذه الحركة بنشر ردود فورية صادرة عن رئيس الحاخامين الدكتور هرتز واللورد روتشلد والدكتور وايزمن. كما أُعدت حملة سريعة تغلغلت في أوساط مجلس المنتخبين حملت المجلس على إتخاذ قرار مؤيد للصهيونية بأغلبية كبيرة، أدى صدوره إلى استقالة رئيسه دافيد الكسندر ونائبه، فنقلت «التايمز» الخبر فوراً، وحذت حذوها بقية الصحف البريطانية، مما ترك انطباعاً قوياً لدى الحكومة البريطانية بحيث قررت أخيراً استشارة زعماء اليهود في إنكلترا، قبل اتخاذ قرارها الأخير. فلم يلبث القلق أن أخذ يسود الأوساط الصهيونية لعلمها بأن اليهود المناهضين للصهيونية كانوا أكبر قوة من الصهيونيين في لندن وقد بعثت وزارة الحرب بالسؤال إلى ثمانية أشخاص هم: ليونارد كوهن، كلود مونتفيوري، السير ستوارت صموئيل، السير فيليب ماغنس، اللورد روتشلد، المستر سوكولوف، الدكتور وايزمن، بالإضافة إلى رئيس الحاخامين. وقد رد ثلاثة منهم: مونتفيوري وكوهين وماغنس رداً قوياً يعارضون صدور الوعد. وبينما كان السير ستوارت صموئيل شقيق هربرت صموئيل قليل التحمس له ــ مع أنه يريد صدوره ــ جاء رد

---

(١٣٧) مالكولم، المصدر السابق، ص١٨.

(١٣٨) ج. دي. ف. لورد، المصدر السابق، ص١٩٢ ــ ١٩٤ من نص البيان نفسه.

الدكتور هرتز رئيس الحاخامين مؤيداً الوعد كل التأييد . فكان له بذلك أثر قوي في إقناع الوزارة بأن الوعد المقترح سيُقابل بالحماسة من غالبية اليهود في الإمبراطورية البريطانية .

كما كان للدكتور وايزمن فضل كبير ، في الوصول إلى هذه النتيجة ، بما بذل من جهد خلال سنوات عديدة بمساعدة المستر سكوت ، رئيس تحرير المانشستر غارديان ، والأستاذ صموئيل الكسندر من جامعة مانشستر لحمل المستر لويد جورج وبلفور واللورد كرو واللورد سيسل وغيرهم على الاهتمام بالأهداف الصهيونية . وقد رافق الجهود المبذولة على النطاق الرسمي إصدار الكتب والمنشورات والمطبوعات والجرائد والمقالات المركزة ، التي كان يكتبها جهابذة الفكر ، والإتصالات الحثيثة بالعلماء والمفكرين وغيرهم ، مما كان له أثر كبير في تحويل عدد كبير من الرجال المهمين إلى أصدقاء في جانب الصهيونية(١٣٩) .

وهكذا ــ بعد أن اختمرت الفكرة لدى الحكومة الإنكليزية ــ شرعت في بحث صيغة التصريح المطلوب مع زعماء الصهيونية ، بعد أن جاء وايزمن وروتشلد إلى وزارة الخارجية الإنكليزية ، وطلب من اللورد بلفور أن تصدر الحكومة تصريحها بتحقيق ما وعدت اليهود به ، فارتأى أن تهيء المنظمة الصهيونية مشروعاً لنص هذا التصريح . فتألفت لجنة سياسية من زعماء اليهود ضمت ــ بالإضافة إلى الدكتور وايزمن ــ جابوتنسكي وكوهن وغيرهما ، وشرعت في الاتصال مع يهود أمريكا بحيث كانت النصوص تدرس وتناقش وتعدل في الولايات المتحدة وفي إنكلترا ، وتعرض بصورة غير رسمية على البيت الأبيض ، وعلى وزارة الخارجية البريطانية ، إلى أن اتفقت الأطراف الثلاثة : اليهود والحكومتان الأمريكية والإنكليزية على نص موحد ، اعتبرت فيه فلسطين بأجمعها وطناً قومياً يهودياً ، بحيث تطلق الهجرة إليه إطلاقاً بلا قيد ، واعُترف فيه بحق الشعب اليهودي في إنشاء حياة قومية في ظل حماية تنظم بعد النصر عند إنعقاد مؤتمر الصلح ، وبحق التمتع باستقلال ذاتي داخلي للقومية اليهودية ، وإنشاء شركة قومية لاستعمار الأراضي ، التي أعطي لهم الحق باستملاكها ، تهتم بإسكان المهاجرين ، وتنمية اقتصاديات البلاد .

غير أن هذا النص ــ عندما عرض على ممثلي اليهود غير الصهيونيين في إنكلترا ــ حملوا عليه حملة عنيفة ، وردوه برمته لاحتوائه على ما يشير إلى « قومية يهودية » ، ــ وقد مر معنا أنهم يعتبرون اليهودية ديناً ــ وكان خوفهم من إقامة الوطن القومي وإطلاق الهجرة إليه وخلق الجنسية اليهودية أن

---

(١٣٩) مالكولم ، المصدر السابق ، ص١٨ ــ ١٩ .

تضطرهم الدول التي يقطنونها إلى اعتناقها والهجرة إلى فلسطين، وكانت رغبتهم في أن يقتصر التصريح على نص «إنشاء موطن يهودي في فلسطين»، وأن يحوي على فقرة تضمن لليهود المقيمين خارج فلسطين حقوقهم المستمرة وحرياتهم في الأوطان التي يقطنونها. وهكذا ـــ بعد تعديلات وأخذ ورد ومداولات بين إنكلترا والولايات المتحدة ـــ تمخضت المباحثات عن النص النهائي المعروف، الذي صدر بشكل كتاب موجه من اللورد بلفور وزير الخارجية إلى اللورد روتشلد، وقرىء في أثناء خطبة ألقاها الوزير في مجلس العموم في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، أي قبل سقوط القدس ببضعة أيام وهو كما يأتي:

«يسرني جداً أن أبلغكم، بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، بأن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيء يضير بالحقوق المدينة والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن، ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى[١٤٠]».

أما مناقشة التصريح وإقراره في مجلس الوزراء فلم يستغرق أكثر من خمس دقائق. قال مالكولم في وثيقته التاريخية «وقد عرفت فيما بعد من المستر أورمسبى غور أن بلفور شرح لزملائه في خمس دقائق وبطريقة مقنعة أهمية الوعد، وسرعان ما انبرى لتأييده كل من ملنر وسمطس ورئيس الوزراء نفسه (لويذ جورج)، وتوصل المجلس إلى قرار جماعي في الموضوع». وبعد إقراره فوراً خرج مارك سايكس من مجلس الوزراء، وكان ينتظره في رواق وزارة الحرب، كل من وايزمن ومالكولم، وهتف بكلمة «الرمز» المتفق عليها بينه وبينهما، وبأعلى صوته قائلاً «جاء المولود صبياً»[١٤١].

تحليل التصريح

لا جدال في أن التصريح قد صيغ بشكل قصد منه أن يضم تعهدات غامضة، وأن يكون من المرونة بحيث يتكيف في المستقبل مع مقتضيات الظروف السياسية الطارئة. إن كلمة «الشعب اليهودي» التي جاءت فيه كانت مقصودة بالذات بدلاً من كلمة «عرق Race»، التي كانت

(١٤٠) نجيب صدقة، المصدر السابق، ص١٩، ٢٥ ـــ ٢٩.

(١٤١) مالكولم، المصدر السابق، ص١٩.

موجودة في صيغة سابقة، لأن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تتدخل في خلافات اليهود الداخلية (من قوميين وإقليميين وإندماجيين) فاتخذت موقفاً وسطاً بين النزعتين، مع انحراف ظاهر نحو وجهة النظر الصهيونية بقولها «وطناً قومياً National home» تلك العبارة التي احتج عليها غير القوميين منهم، إنما لم يستطيعوا تبديلها. ومع ذلك فكلمة «وطن Home» التي وردت في النص إنما تعني بالإنكليزية «بيت»، وهي لا تعني «مركز الاشعاع الثقافي Foyer Culturel»، الذي طالب به اليهود المعتدلون، ولا تعني أيضاً «الدولة اليهودية» التي طالب بها المتطرفون. فعبارة الدولة اليهودية وردت في المحادثات التي قام بها زعماء الصهيونيين في أوائل أيام الحرب، لكن ذكرها انعدم تماماً في الوثائق السياسية بعد عام ١٩١٦[١٤٢]. فإذا عدنا إلى شهر آذار ١٩١٧ نرى أن الدكتور وايزمن قد ألقى محاضرة هامة شرح فيها أهداف الصهيونية قائلاً «إن الكثيرين من أصدقائنا ينتظرون أن تشاد الدولة اليهودية حالاً، ولكن المطلعين على سير الأمور يعلمون أن تنفيذ مثل هذا المشروع متعذر في الوقت الحاضر. أجل إن هدفنا لايزال «الدولة اليهودية»، ولكن بلوغ هذا الهدف لا يأتي دفعة واحدة، بل يجري على مراحل متعددة، أولاها أن توضع فلسطين تحت حماية دولة صديقة، كبريطانيا مثلاً، تسهل لنا الهجرة والسكن، وتمكننا من تحضير الجهاز الإداري اللازم لبلوغ هدفنا. وأستطيع أن أصرح بأن الحكومة البريطانية موافقة على هذه الخطة، ومستعدة لتسهيل تنفيذها[١٤٣]». هذا بالنسبة للصهيونيين، وأما بالنسبة للإنكليز فإن الوطن القومي المقصود بالتصريح يعني بالنسبة للورد بلفور ــ كما شرحه في جلسة سرية لديوان الحرب في نهاية الشهر الذي صدر فيه تصريحه ــ شكلاً من الحماية الإنكليزية أو الأمريكية، أي حماية أخرى تعطي لليهود كل التسهيلات لتأسيس «مركز حقيقي للثقافة القومية ووطن للحياة القومية» لكنه لا يتضمن بالضرورة «تأسيساً قريباً لدولة يهودية مستقلة» لأن الدولة المستقلة لا ترتجل، وإنما تنشأ ببطء وتدريجاً[١٤٤]. وهو بهذا التفسير لا يخرج عن أهداف وايزمن في الحصول على تكوين دولة يهودية تدريجاً. على أن اللورد كورزن لا يبعد كثيراً عن هذا الإيضاح عندما يقول إن «الوطن القومي N. Home» يعني المكان الذي يستطيع اليهود أن يتجمعوا فيه بصفة أمة، ويتمتعوا بامتيازات تخولهم الوصول إلى وجود قومي مستقل، كما يعني «تشكيل كيان سياسي مؤلف من اليهود، ويحكمه اليهود ويدار لمصلحة اليهود». غير أن للويد جورج كلمة أصبحت شهيرة قال «إن تصريح بلفور كان عبارة عن إجراء حرب، لقد أردنا قبل

(١٤٢) نجيب صدقة، المصدر السابق، ص٣١.

(١٤٣) المصدر السابق، ص٢٥.

(١٤٤) الدكتور نور الدين خاطوم، المصدر السابق، ص٧٢ ــ ٧٣.

كل شيء أن نربح الحرب ، وإذا أدى بنا الأمر إلى إغداق الوعود إلى جميع من يستطيعون أن يساعدونا على كسبها فمن اللازم ــ على الأقل ــ الانتباه إلى أن لا تكون هذه الوعود دقيقة وواضحة جداً»[١٤٥] . أما التعقيدات التي أمكن أن يسببها هذا الغموض ــ كما جرى فعلاً عندما بدىء بتطبيق الوعد في أثناء الانتداب الإنكليزي على فلسطين ، مما اضطر إنكلترا إلى التلون تلون الحرباء في كل مرة ترى نفسها في موقف حرج بين مختلف العناصر ــ فإن لإنكلترا من لا أخلاقية السياسة ما يبررها .

في الواقع كان الميسم الذي يسم كلاً من اتفاقية سايكس ــ بيكو وتصريح بلفور هو اللاأخلاقية بكل ما لهذه الكلمة من معنى . ذلك أن تناقض الاتفاقية الأولى مع ما قطعته من وعود للشريف حسين أمر واضح . وكذلك تصريح بلفور الذي تجاهلت ــ عندما قطعته ــ ان في فلسطين شعباً عربياً يشكل أكثر من اثني عشر مثلاً من عدد اليهود ، لم تراع له حقوقه السياسية ، واقتصر الأمر على مراعاة الحقوق الدينية والمدنية للطوائف غير اليهودية ، ولم يذكر العرب حتى باسمهم ، وكأنهم الفرع واليهود هم الأصل ، في حين ألح التصريح على حقوق اليهود السياسية في بلدان أوروبا مع أنهم أقلية فيها[١٤٦] . ومن جهة أخرى لم يكن لإنكلترا حق شرعي في منح أرض لم تكن ملكاً لها ، لشعب غير الشعب الذي يقطنها بالفعل . ومما يدمغ التصريح باللاأخلاقية سلوك إنكلترا ــ عندما افتضح أمر اتفاقية سايكس ــ بيكو ، ونُمي خبر منح التصريح لليهود إلى علم الشريف حسين ، فأرغى وازبد وهدد ــ إذ لجأت إلى الكذب والمراوغة حينما اضطرت إلى إرسال الضابط «هوغارث Hogarth» ، أحد رؤساء المكتب العربي في القاهرة ، إلى جدة (كانون ثاني ١٩١٨) ، الذي قابل الملك حسين مرتين في محاولة لتهدئة ثائرته ، خوفاً على الثورة العربية من نكسة تحل بها ، وأكد له (في تصريح حمله من الحكومة البريطانية ، إذ ألقاه شفهياً على الحسين باللغة العربية ، وطلب إليه أن يكتبه بخط يده فكتبه واحتفظ به) حسن نية بريطانيا ، وقد جاء فيه ما يلي :

« بالنسبة لقضية فلسطين نحن مصممون على ألا يخضع شعب لآخر . ولكن بالنظر لأن في فلسطين مقامات وأوقاف وأضرحة وأماكن مقدسة للمسلمين وحدهم ولليهود وحدهم وللمسيحيين وحدهم ، وبالنظر لاهتمام جماهير عديدة خارج فلسطين والبلاد العربية بهذه الأماكن ، فيجب أن

---

(١٤٥) المصدر السابق ، ص٧٣ ــ ٧٤ .

(١٤٦) أكرم زعيتر ، المصدر السابق ، ص٤٧ .

يقام نظام خاص يقره العالم لها . ويكون مفهوماً بأن المسجد الأقصى يعتبر أمره من شأن المسلمين وحدهم ، ولن يوضع مباشرة أو غير مباشرة في أيدي سلطة غير مسلمة .

« وبالنظر لأن الرأي العام اليهودي في العالم يحبذ عودة اليهود إلى فلسطين ، وبالنظر لأن حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف لتحقيق هذا المطمح ، فهي مصممة ، في حدود عدم تعارض هذا مع حرية السكان الموجودين فعلاً من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، على تحقيق هذا الغرض[١٤٧] » . ولا يخفى ما في هذا التصريح من تحوير للحقيقة لأن تصريح بلفور لم يضمن للعرب حقوقهم السياسية .

وهناك ناحية أخرى في لا أخلاقيته ، ذلك أنه قد أُعطي دون أن تؤخذ وجهة نظر سكان فلسطين العرب أصحاب الأرض الحقيقيين ، ولا رأي أحد من زعماء العرب آنذاك ، ولا تعرضت المفاوضات الجارية بين الأطراف المختلفة ولا مرة لمصلحة عرب فلسطين ، بل كان العكس هو الأصح ، إذ كان جهد وايزمن منصباً على التأثير على أعصاب مارك سايكس خوفاً من أن يجعل البرنامج اليهودي ملحقاً للبرنامج الأكبر الذي يعالجه ، وهو البرنامج العربي . وقد تملكه القلق من احتمال عدم الاعتراف تماماً بمصالح اليهود في فلسطين ، خلال المفاوضات الجارية مع العرب . وهذا ما جعله يعترض على اتفاقية سايكس ــ بيكو عندما علم بها كما مر معنا . وقد وصل ــ ولا شك ــ إلى غايته في ترويض سايكس ، إذ نراه يسجل في ص ٢٣٨ من مذكراته « إن سايكس دخل في مفاوضات مع الصهيونيين دون أن يكلمهم عن اتفاقية سايكس ــ بيكو ، وأنه كان يعدل موقفه لمصلحة الصهيونية هادفاً إلى مراجعة الاتفاقية كي تتسع لمطالب الصهيونيين »[١٤٨] .

قال مالكولم ، في وثيقته التاريخية إنه اجتمع في لندن بالفريق حداد باشا ممثل الشريف حسين في لندن ، وشهد المقابلة ضابطان عربيان كبيران من جيش الشريف ، وأبلغهم بأن وعداً سيصدر لليهود بفلسطين مقابل مساعدتهم للحلفاء ، ويكسب تأييد الولايات المتحدة لهم . فاعترضوا على ذهاب اليهود إلى فلسطين لأنها عربية ، لكنه عندما شرح لهم أهمية القضية ، وأن وزارة الحرب قد اتخذت قرارها في هذا الشأن ، وافقوا برمين ، مع إدراكهم الأهمية القصوى للعون الأمريكي ، وتعهدوا بعدم إثارة أي اعتراض ، وقالوا إن في وسعهم أن يعتمدوا على موافقة القادة العرب على السياسة

---

(١٤٧) أمين سعيد ، ثورات العرب في القرن العشرين ، ص٤٩ .

(١٤٨) أحمد طربين ، تاريخ القضية الفلسطينية ، ص٢٩ ــ ٣١ .

البريطانية المقررة. وأضاف مالكولم قائلاً إنه عندما اجتمع بلورنس في لندن وباريس أيام الحرب، وبفيصل ولورنس إبان مؤتمر الصلح، وجد لورنس مؤيداً تمام التأييد لتنفيذ الصفقة، بينما وجد فيصلاً أقل عداء لها(١٤٩).

الواقع أن المصادر الصهيونية والموالية لها قد درجت على ترديد هذه الأقوال، ولا بد لي من ملاحظة أن الغموض لا يزال يكتنف هذا البحث لأن مصادره إجمالاً، لا تزال سرية. على أن اليهود لم يتركوا ثغرة في موقف العرب إلا واستغلوها لمصلحة الصهيونية. خذ مثلاً ما أورده الكاتب اليهودي «إيليا كدوري E. KEDOURIE» بأن بريطانيا ــ قبل أن ترد على مذكرة الشريف حسين الأولى التي رسم فيها حدود الدولة العربية المطلوب الاعتراف باستقلالها ــ كشفت للشريف، بواسطة محمد شريف الفاروقي ممثلة في القاهرة، عن مطالب فرنسا بالمناطق التي خصصت لها بموجب اتفاقية سايكس بيكو(١٥٠)، وهو يتفق في هذا مع بعض الكتاب الغربيين الذين رددوا هذه المزاعم، بما يعني أن الحسين قد أطلع على اتفاقية سايكس ــ بيكو قبل أن ينشرها البلاشفة إثر ثورتهم التي قامت في أواخر عام ١٩١٧، وليس من دليل على صحة هذه المزاعم. وقد يكون الشريف حسين قد سمع ــ في جملة الشائعات ــ عن مطامع إنكلترا وفرنسا في مناطق الشرق العربي، لكن هذا لا يعني أنه قد أطلع على خبر توقيع المعاهدة واقتسام الأراضي العربية. على أن الفاروقي يوضح هذه الناحية في كتاب أرسله إلى الشريف في أثناء مفاوضات الحسين ــ مكماهون، قال فيه إن الإنكليز قد أطلعوه على الرد الذي أرسلوه إلى الحسين والمتضمن استثناء المناطق الواقعة غربي مدن حلب ــ حماه ــ حمص دمشق من المخطط العربي، باعتبار أن لفرنسا فيها مصالح لا يسعهم أن يغضبوها من أجلها، وأنه أجابهم بصفته الشخصية، وبحسب ما فهمه من آراء بعض الزعماء العرب، بأنه لا يمكن بوجه من الوجوه التنازل عن شبر من أرض سورية، وأنه لا يعرف بأن ثمة مناطق غير عربية غربي المدن المذكورة، وأنه لا بد من اعتراف الحلفاء بذلك، وإنما يمكن الاعتراف للإنكليز بالمنافع الاقتصادية بالعراق وللفرنسيين بمثلها في سورية، وجلب المفتشين منهم(١٥١). وهذا لا يعني شيئاً أكثر مما دار بين الحسين ومكماهون من مجادلة حول المناطق الغربية من سورية.

---

(١٤٩) مالكولم، الوثيقة نفسها، ص١٧.

(١٥٠) E. EEDOURIE, Ibid. p. 37.

(١٥١) محمد طاهر العمري، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٢ ــ ٢٢٣، من نقل أحمد طربين، التنازع الدولي حول أقطار آسيا العربية، ص٥٩.

خلاصة القول إن بإعطاء إنكلترا لتصريح بلفور قد فازت الصهيونية بغايتها القومية المنشودة. هذا صحيح ولكن إنكلترا من جهتها ـــ وقد وهبت أرضاً ليست ملكها ـــ قد حسبت نفسها أنها ضربت عدة عصافير بحجر واحد:

فهي قد ربحت عطف اليهود في العالم أجمع بحيث اضطربت غريمتها ألمانيا، فأخذت تفاوض حليفتها تركيا لتصدر تصريحاً يلائم الصهيونية، وخلقت العداء العربي ـــ الصهيوني في المنطقة فوضعت بذلك عقبة كؤوداً في سبيل تحقيق الوحدة العربية، ومهدت السبيل لإنشاء سكة حديد حيفا ـــ الخليج العربي، وأمنت شر الخطر على نفط الموصل، وأمنت خفارة قناة السويس، وسلامتها، وأنشأت درعا يقي مصر من الهجوم الخارجي، وأقامت الحرس الاستعماري في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وأخيراً حققت حلم اللورد كتشنر بإقامة الحزام الاستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط ضد الخطر الألماني والروسي(١٥٢).

(١٥٢) محمد عبد الحسين، محنة العرب، ص١٤.

الفصل الثالث

الثـــورة العربيـــة

هناك أسباب أساسية وأخرى مباشرة للأحداث التاريخية الكبرى. والثورة العربية ــ الحدث الرائد التحرري الخطير من أحداث نهضتنا الحديثة ــ كان لها من الأسباب الأساسية مما أتيت على بيانه في الفصول السابقة ما يبرر نشوبها، ويجعلها ضربة لازب لا مَعْدَى عنها، لتضع الأمتين العربية والتركية ــ بعد تعايش دام أربعة قرون ــ على مفترق الطرق. فهي بهذا الوصف قد جاءت تعبيراً ناطقاً عن الانفصال بين الأمتين في محاولة منها لتحقيق أماني الأمة العربية في الحرية والوحدة والاستقلال.

تحدث كثيرون عن طموح الحسين في أن يكون له عرش وراثي يتربع عليه، لا بالنسبة للحجاز فحسب بل بالنسبة للبلاد العربية جميعها. وهذا من الوضوح بحيث نلمسه في سياق الحوادث، على أني أرى من الإنصاف أن نعترف أن هذا الطموح قد اتخذ وجهة قومية صريحة لا موازبة فيها، «بحيث إنه قد وجد من اضطهاد الترك للقومية العربية منبهاً وحافزاً له على الظهور»[1]، كما قال أحد كبار السياسيين السوريين.

أحب أن أقف وقفة أطول عند الناحية الاقتصادية التي جاء الحديث عنها مقتضباً عابراً في ما تقدم من فصول. فالحجاز يتمتع بوضع اقتصادي لم يكن ليحسد عليه، بحيث كان باستطاعة كل من الطرفين المتعاديين أن يطبق عليه الحصار، ولا بد له من الإتفاق مع أحدهما، ذلك أنه

(١) عبد الرحمن الشهبندر، من مقال في مجلة اليقظة العربية الحاضرة، عدد ١١، ص١٨.

يعتمد في معاشه ــ بالإضافة إلى موسم الحج ــ على منفذين خارجيين لا ثالث لهما : طريق البحر الأحمر وطريق الخط الحجازي الذي يربطه بسورية . وقد أدرك البريطانيون ، منذ البداية ، حاجة الحجاز إلى الاتصال الخارجي فبادروا أولاً إلى قطع المعونة التي كانت مصر تقدمها له سنوياً من الحبوب ، وثانياً إلى ضرب الحصار البحري على شواطئه . ولما كانت الحرب قد قضت على مورد الحج ، وأصبحت سورية غير قادرة على إمداده بالمؤن لأن الحكومة العثمانية قد وضعت يدها على جميع المنتجات الزراعية والاستهلاكية لمصلحة الجيش ، لذلك أصبح سكان الحجاز في ضيق شديد[٢] ، فكان هذا الأمر من جملة الدوافع التي دفعت الحسين إلى إجابة الإنكليز إلى ما عرضوه عليه من وجوب التحالف ضد الترك ، الذين اعتقد باستحالة الوفاق بينهم وبين العرب ، بصورة عامة ، وبينه وبينهم بصورة خاصة .

صحيح أن الإنكليز كانوا قد صرحوا ــ تمهيداً للتفاوض معه ــ بأنهم يستثنون سواحل الحجاز من الحصار البحري الذي ضربوه على سواحل السلطنة العثمانية ، وسمحوا بنقل الأرزاق من الهند وغيرها إلى البلاد المقدسة ، لكنهم عادوا إلى ضربه من جديد عليها ، اعتباراً من ١٩١٥/١١/١٥ ، بداعي أنهم قد علموا بأن الحكومة العثمانية قد أرسلت كثيراً من جنودها إلى هذه المنطقة ، فهي إذا سمحت بتسرب الحبوب والمؤن إليها تخشى أن يستفيد منها جنود عدوتها[٣] ، وكان من نتيجة ذلك أن وقع الحجازيون في حرمان شديد ، وكادت المجاعة أن تفتك بهم[٤] . إنما المستغرب أن يأتي هذا الحصار ــ بالإضافة إلى أسبابه التافهة ــ في نفس الوقت الذي تتلقى فيه إنكلترا اعتراض الشريف حسين على ما جاء في مذكرتها المؤرخة في ١٩١٥/١٠/٢٤ ، التي طلبت فيها استثناء المناطق الغربية من سورية من المخطط العربي للدولة العربية ، لكنه عاد فتساهل في المذكرة التالية ، مما يثير الظنون حول هذا التساهل .

غير أن الملاحظ أن الناحية الاقتصادية التي كثيراً ما تأتي في جملة العوامل الأساسية للثورات والأحداث التاريخية الهامة ، قد جاءت هنا من جملة الأسباب المباشرة . أما الأسباب الأساسية للثورة العربية فيمكن تلخيصها بعبارتين : بزوغ فجر الوعي القومي العربي ، ومحاولة الأتراك الاتحاديين

---

(٢) الدكتور أحمد قدري ، المصدر السابق ، ص٤٥ ، محي الدين السفرجلاني ، فاجعة ميسلون ، ص٥٠ .

(٣) R. ALDINGTON, Ibid. p.118 ; مجلة المنار ١٩١٦/٨/٢ ، ص١٤٧ .

(٤) فائز الغصين ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص٢١٨ ؛ مذكرات الملك عبد الله ، ص١٠٤ ، COL. BREMOND: Ibid. p. 28 .

طمس هذا الوعي بالقوة. وقد رأينا كيف اشترك في تحضيرها أحرار العرب من كل قطر بينهم ضباط ومثقفون وشبان وكهول[٥]. وما الشريف حسين إلا الأداة التي تجسمت فيها كل مظاهر القوة القادرة على مجابهة التحدي بمثله، والزعيم الذي كان العرب حينذاك بحاجة إليه ليعبر عن نهضتهم القومية[٦]. فالثورة العربية التي بدأت من مكة ــ لأنها أصلح مكـان لقيامهـا، فضلاً عن كون الحجاز مأهولاً بعشائر مسلحة اعتادت القتال منذ أجيال ــ لم تكن ثورة حجازية إقليمية صرف، بل عربية قومية بكل معنى الكلمة، ترمي إلى استقلال العرب، وتكوين دولة عربية موحدة، وتنهض بالأمة نهضة حقيقية تعيد إليها مجدها السالف، وكانت الراية التي قررها رجالها ترمز إلى هذه النزعة السامية بوضوح وجلاء، ذلك أنها قد جمعت الألوان الأربعة التي كان كل منها شعاراً لعهد من عهود دولة العرب إبان سؤددها الغابر[٧].

كان على الشريف حسين أن يعلن ثورته منذ أن انتهت مفاوضاته مع ممثل إنكلترا في القاهرة بآخر رسالة تلقاها منه (١٠/٣/١٩١٦)، لكنه اضطر إلى تأخيرها لسببين رئيسيين: أولهما العمل على إنقاذ ولده فيصل من قبضة جمال باشا في دمشق، وثانيهما وجوب استتمام استعداداته[٨]، وقد عرفنا فيما سبق كيف نجا فيصل من الشرك.

لقد انصرف الشريف إلى تهيئة وسائل الثورة مغتنماً فرصة غياب والي الحجاز غالب باشا عن مكة وإقامته في الطائف. وكان عليه أن يتدبر تدبير رجل عاقل حكيم، لأن أقل هفوة أو فلتة لسان تعرضه وأولاده للهلاك[٩]. لذلك كانت اتصالاته بشيوخ القبائل ــ وقد طاوعه كثيرون منهم فرتب الأمور معهم ــ سرية للغاية، لكن الرجال الذين وجب عليه أن يعمل وإياهم كانوا ضعاف التسليح والتنظيم، ليس لديهم سوى البنادق الحربية، فأخذ يطالب السير هنري مكماهون بمزيد من الأسلحة المختلفة الأنواع مع ذخائرها بصورة سريعة، وإعدادها في بور سودان تمهيداً لنقلها إلى الحجاز سراً. كما طلب من إنكلترا أن تحاصر الحجاز بأسطولها، وأن تنفذ وعدها بالإستيلاء على الإسكندرونة لقطع الطريق على الإمدادات التركية من الأناضول[١٠]. كما طلب الأمير عبد الله مقابلة

---

(٥) B. JUNG, Ibid. II, p. 38.

(٦) أمين الريحاني، فيصل الأول، ص٦.

(٧) ساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية، ص٢٣٦ ــ ٢٣٧.

(٨) الدكتور عبد الله ماضي، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٩) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٢٧.

(١٠) جلال يحيي، المصدر السابق، ص١٦٩.

مستعجلة مع السير «رونالد ستورز» ـــ الذي بذل جهداً كبيراً في أثناء محادثات الحسين مكماهون ـــ فقَدِم هذا إلى جدة مستصحباً معه الكوماندور هوغارث وكورنواليس من المكتب العربي في القاهرة، فقابلهم الأمير زيد، أصغر أنجال الحسين، وأكد لهم طلبات والده للأسلحة ووجوب إرسالها بسرعة، بالإضافة إلى سبعين ألف جنيه استرليني ذهبي، فسلمه هوغارث عشرة آلاف كانت معه منها، ووعده بإرسال خمسين ألفاً أخرى فيما إذا انفجرت الثورة بصورة فعلية(١١).

لم تكن استعدادات الشريف حسين قد أنجزت بعد حينما اضطر إلى الاستعجال باعلان(*) الثورة (٩ شعبان ١٣٣٤، ١٠ حزيران ١٩١٦)، وقد دعاه إلى ذلك ما شعر به من سعي الترك إلى الإيقاع به لما لمسه من حركاتهم المريبة الموجهة ضد الحجاز. ذلك أن الألمان والأتراك قد توقعوا، على ما يظهر، حدوث الثورة في هذه المنطقة لما كان يتصل بمسامعهم من مفاوضات الإنكليز في مصر مع العرب، فهيؤوا في أوائل ١٩١٦ قوة عسكرية جديدة من الترك بقيادة القائد التركي خيري بك، قوامها /٣٥٠٠/ رجلاً سموها «المفرزة اليمنية»(١٢)، ترافقها بعثة ألمانية بقيادة القائد الألماني «فون ستوتزنجن VON STOTZINGEN»، وأرسلوها إلى المدينة المنورة لتذهب منها إلى مكة ثم إلى اليمن، بطريق العسير، تعزيزاً لقوات سعيد باشا قائد الفيلق التركي المرابط في صنعاء، لاشغال الإنكليز في عدن والإمارات العربية المحيطة بها، وإقامة محطة إرسال تؤمن الاتصال مع الألمان في شرقي إفريقية، وتنظيم إرسال الأسلحة والذخير، عبر البحر الأحمر، إلى الحبشة بغية إثارة الثورات في أريتريا والصومال والسودان. فلما دخلت القوة التركية من المفرزة اليمنية إلى المدينة ـــ بينما توجهت البعثة الألمانية نحو الساحل متواعدة مع خيري بك بالتلاقي ثانية في القنفذة ليتحرك جميعهم بعدها إلى اليمن(**) ـــ خشي الشريف النتائج التي تترتب على مرورها في مكة، والخطر الذي سيحدق به وبأولاده وإمارته حينذاك، وأدرك مغبة الإبطاء في إعلان الثورة فصمم على العمل الحاسم(١٣)، قبل أن

---

(١١) R. ALDINGTON, Ibid. p. 119.

(*) جاء في «Official War History» الإنكليزي أن الثورة بدأت في ٥ حزيران، معتبراً أن تاريخ إعلانها هو يوم قيام الأميرين فيصل وعلي بمحاولتيهما العقيمة ضد قوات المدينة المنورة حينما غررا بفخري باشا وغادراها.

(١٢) COLONEL BREMOND, Ibid. p. 30.

(**) كانت البعثة الألمانية لا تزال في ينبع حينما أُعلنت الثورة ففر أفرادها يطلبون النجاة، بعد أن ألقوا جل معداتهم في البحر، واختفى ثلاثة منهم ولم يسمع عنهم أي خبر، ودبر فون ستوتزنجن والضباط الألمان الآخرون لأنفسهم سبيل النجاة، وعادوا إلى دمشق سالمين (أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٠٦).

(١٣) R. ALDINGTON, Ibid. p. 119 ; مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٢٧.

يتأكد مما إذا كان الإنكليز سينزلون في الإسكندرونة أم لا ، غير عارف بأن الحلفاء قد اتفقوا على العدول عن هذا العمل كما رأينا . كما كان من الأسباب التي عجلت في نشوب الثورة الأحكام الجائرة التي نفذت بشهداء العرب في كل من دمشق وبيروت ، والتي هزت وجدان الزعماء العرب والشعوب العربية .

ما إن أعلن الشريف الثورة حتى باغتت قواته حامية مكة التركية فأسقطتها ، بعد قتال عنيف دام ثلاثة أسابيع ، حاول الأتراك خلالها إرهاب الحسين ورجاله ، فأطلقوا بعض القنابل على الكعبة ، وعلى دار الشريف ، فهدموا قسماً منها ، وقد استولى الثوار على الأسلحة والرشاشات والذخائر الموجودة فيها ، وأسروا قواتها المؤلفة من نحو /١١٠٠/ ضابط وجندي[١٤] . أما الطائف فكان الأمير عبد الله قد توجه إليها بأمر من والده ، منذ أول شعبان ، لمحاصرة فرقتها العسكرية ومنعها من مهاجمة مكة ، فذهب إليها وقابل الوالي غالب باشا ، وأوهمه أنه ذاهب لتأديب عشيرة البقوم . وبعد أن نفى نفياً باتاً ما علق في ذهنه من أنباء ، حملتها إليه الشائعات ، عن قرب قيام الثورة افترقا على وئام ، وتعانقا عناقاً ذرفت خلاله الدمع عينا الوالي . ولم يكد يغادر الأمير الطائف حتى قطع أسلاك البرق ، بين مكة والطائف ، وأمر بمنع كل من يسافر إلى مكة « منع قتل وإبادة » . ثم هاجم القوات التركية فيها اعتباراً من ١١ شعبان على رأس قبائل عديدة بقيادة عدد من الشرفاء ، ولم يستطع فتحها إلا بعد أن وردته من مكة بنادق « استير » وبطاريات جبلية ، ومدافع الهاوزر وهي مما استولى عليه الثوار بعد سقوط جدة[١٥] ، بالإضافة إلى قدوم المفرزة المصرية ، التي أرسلها الإنكليز لمؤازرة الثورة ، ومعها أربعة مدافع جبلية نصف سريعة بقيادة الأمير آلاي المصري سيد بك علي . وكانت النتيجة سقوط الطائف في ١٠ ذي القعدة ، أي بعد ثلاثة أشهر من إعلان الثورة ، واستسلم الوالي ــ القائد الفريق غالب باشا ، مع /٣٠٠٠/ من جنوده بينهم ٧٥ ضابطاً من رتبة قائد إلى رتبة زعيم ، عدا صغار الضباط . وجرى استلام أسلحة الحامية ومعداتها بكاملها وفيها /١١/ مدفعاً وكمية كبيرة من البنادق . وقد دارت محاورة بين الأمير عبد الله وغالب باشا الذي قال « هذه فاجعة ، فبعد أن كنا أخواناً أصبحنا أعداء » . ولما أجابه عبد الله أن الذنب على الترك قال « كنت واثقاً أن الأمة العربية ستنفصل يوماً ما عنا ، ولكنني ما كنت اؤمل أن يكون الانفصال على هذا الشكل وبهذه السرعة »[١٦] .

---

(١٤) مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص٢٩ .

(١٥) أمين سعيد ، ثورات العرب في القرن العشرين ، ص٤٧ .

(١٦) مذكرات الملك عبد الله ، ص١١٠ ــ ١٢٢ .

ولما كان الإنكليز على علم بالتاريخ الذي حدد لإعلان الثورة، وكان من الضروري أن يتصلوا بالشريف مباشرة، ومدينة جدة هي الباب الذي يلجونه للاتصال به، أرسلوا ثلاثة دوارع حربية كي تتولى ضربها من البحر ــ بعد خمسة أيام من إعلان الثورة ــ مما عجل في سقوطها بيد قوات الثورة التي هاجمتها براً بعدد من الرجال يبلغ أربعة آلاف، بقيادة الشريف محسن بن منصور. فلما سقطت في ٦/١٦ اطمأن الإنكليز إلى الاتصال بالشريف دون عائق. وقد استولى العرب على ١٤ مدفعاً و ٤ رشاشات مع كمية كبيرة من البنادق الحربية والذخيرة، وأسروا نحوا من /١٣٤٦/ ضابطاً وجندياً و/١٥٠/ موظفاً تركيا. ثم أخذت مدن الحجاز الساحلية مثل رابغ وينبع وغيرها تسقط واحدة تلو أخرى في أيدي قوات الشريف. ولم يستعص عليها سوى المدينة المنورة، التي أخذت تتلقى الإمدادات، بطريق سكة الحديد، حتى أصبح عدد الجند فيها ما يقارب /١٤/ ألفاً بين ضابط وجندي، عدا من يساعدهم من البدو المحالفين لهم، وتدعمهم قوات كبيرة في مختلف محطات سكة حديد الحجاز بين المدينة ومعان لحفظ خط المواصلات سليماً بين سورية وبينها، لتمسك الترك تمسكاً شديداً بها نظراً لأهميتها الدينية والسياسية. هذا بالإضافة إلى وجود قائد محنك كفؤ على قيادة حاميتها هو الفريق فخري باشا. وهذا ما ساعدها على الصمود حتى نهاية الحرب. وقد اكتفى العرب بضرب الحصار عليها[١٧].

نظمت الثورة ثلاثة جيوش لمحاربة الترك وتطهير البلاد منهم أو على الأقل لتجميد قواهم في الأمكنة التي استعصى الاستيلاء عليها وهذه الجيوش هي:

١ ــ الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل، وكان عليه أن يسير نحو الشمال متجهاً إلى سورية لتحريرها، وكانت قاعدته متحركة بحيث ينتقل من مدينة إلى أخرى حالما يجري احتلالها.

٢ ــ الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي وقاعدته مدينة رابغ، ومهمته الوقوف قبالة المدينة المنورة ومنازلة الترك، ومنعهم من السير نحو مكة كلما حاولوا أن يخرجوا من المدينة.

٣ ــ الجيش الشرقي بقيادة الأمير عبد الله ومقره في وادي «العيس» شمال شرقي المدينة المنورة ومهمته عرقلة إمداد الترك في المدينة بالمؤن والجند، عن طريق السكة الحديدية، وعن طريق الصحراء، من جهة الهضبة النجدية وجبل شمر. وكان يؤازره الضابط المغربي الرئيس راحو الذي أرسله الفرنسيون في جملة الفصائل الإسلامية التي أرسلوها لمؤازرة الثورة[١٨].

---

(١٧) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٢٩ ــ ٣٠؛ أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين، ص٤٧.

(١٨) GRAVES, Ibid. p. 85 ; أمين سعيد، ثورات العرب في القرن العشرين، ص٤٨.

ومن الصعب تقدير قوة هذه الجيوش تقديراً صحيحاً ، بل يمكن القول إن عدد ما كان لدى أفرادها من الأسلحة يقل بكثير عن عدد الرجال ، الذي كان يتراوح زيادة ونقصاناً ، باعتبار أن أغلبهم من البدو غير المرتبطين بنظام ثابت . فالقوات العربية التي كان عددها ــ بمجموعها ــ بعد ثلاثة أسابيع من نشوب الثورة بين ٣٠ ــ ٤٠ ألفاً لم يكن لديها سوى عشرة آلاف بندقية ، ليس بينها لا مدافع ، ولا رشاشات ، ولم يرتفع عدد البنادق الصالحة للاستعمال إلى أكثر من ٢٨ ألفاً . عندما احتل العرب مدينة الوجه ، بينما ارتفع عدد القوات العربية إلى سبعين ألفاً .

وإذا وجب عليّ اختصار الحديث عن الوقائع الحربية لأستطيع الافاضة في التطورات السياسية والنزعات المتضاربة بين مختلف الأطراف ، فإنه لا بد لي ، مع ذلك ، أن أشير إلى الأعمال الهامة التي تمت على يد الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل ، فقد واصل التقدم شمالاً حتى استولى على مدينة « الوجه » في ١٩١٧/١/٢٥ ، واتخذها قاعدة لعملياته العسكرية ، ثم على ثغر المويلح في ٢/١١ . وباحتلال الوجه ــ المدينة الساحلية التي تقع إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة ــ رسخت أقدام الثورة ، وباءت كل محاولات الترك لاحتلال مكة بالفشل ، بعد أن كان موقفها في حرج خلال الأشهر السابقة . فهي وإن كانت قد حققت غايتها العسكرية المباشرة باحتلال الطائف ، إلا أنها مرت في أحلك ساعاتها عندما بدأ فخري باشا ، بقواته المجهزة بالمدفعية يكرر غاراته على المراكز العربية ويدخل الهلع ــ بدوي مدفعيته ــ على قلوب العربان المسلحين بالبنادق فقط ، فلا يستطيعون الصمود أمامها . وقد راحت قواته تدق أبواب رابغ ليزحف من بعدها على مكة . فاضطرب فؤاد الشريف ، وراح يدرس الموقف ويطلب استقدام لواء من جيش الحلفاء ينزل في رابغ[19] . وتكررت المخابرات بينه وبين المعتمد البريطاني في مصر ، واتخذ أسلوب مخابراته صفة الإلحاح والتبرم والقلق الشديد ، في حين كانت حليفته تتعلل بالحذر من اتهام العالم الإسلامي لها ، في حال إرسالها الجنود « المسيحيين » إلى الديار المقدسة[20] . وأخيراً تبددت مخاوف الشريف حينما استطاع الأمير فيصل بمساعدة الأسطول الإنكليزي في البحر الأحمر احتلال الوجه ، فكانت كالدرع الذي يقي مكة من الهجوم التركي عليها من جهة المدينة[21] ، وأصبحت منطلقاً لبعثات تخريب الخط الحجازي .

---

(١٩) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

(٢٠) راجع التفصيلات الوافية في أمين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ج١ ، ص٢٠٣ ــ ٢١١ .

(٢١) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٠٩ .

في الواقع لم تأت الثورة بأعمال باهرة في أول انطلاقها لضعف قواتها، وعدم استيفائها التشكيلات العسكرية اللازمة، وبسبب الخلاف الذي كان ناشباً بين السلطات الإنكليزية العسكرية، وعلى رأسها الجنرال «ارشيبالد موري ARCHIBALD MURRAY»، الذي كان يجهل القضية العربية، ولا يقدرها حق قدرها، مستخفا بها، مستهونا أمرها، وبين السلطات المدنية، وعلى رأسها السير هنري مكماهون، مما حال دون تنظيم علاقات الارتباط مع القوات العربية. وقد أدى فقدان الثقة بالثورة إلى تكهن هيئة الأركان في مصر بفشلها القريب «كما يذوب الثلج فوق رمال الصحراء»، وبقرب تعليق الحسين على مشنقة تركية[٢٢]. يضاف إلى ذلك انشغال البلاد، في شهري أيلول وتشرين الأول، بموسم الحج الذي كان الحجازيون ينتظرونه بفارغ الصبر لتأمين معاشهم من ريعه، ولأن الحركات العسكرية في فصل الصيف صعبة جداً في الحجاز، مما جعل نشاط قوات الأميرين علي وفيصل يقتصر على تخريب محطات سكة الحديد، ومنها محطة الحفيرة قرب المدينة حيث عرض فيصل نفسه لخطر الأسر من قبل قوات فخري باشا، ولم ينج إلا بأعجوبة. ولو أن فخري باشا قد أقدم على مغامرة عسكرية جريئة تمكن من سحق الثورة في مهدها، ودخل مكة ظافراً[٢٣]. غير أن الثورة لم تلبث أن بدأت بالانتعاش حينما أخذت النجدات الحليفة من المقاتلين المسلمين ترد تباعا، وذلك على أثر تفهم الإنكليز لحقيقة الوضع العربي، وايكال الأمور إلى خبراء سياسيين يتعهدون الثورة كالجنرال كلايتون والكولونَيل لورنس، الذي أبدى فكرة الاستفادة منها كعنصر صدام متحرك ضد الترك[٢٤] والكوماندور هوجارث وغيرهم من أعضاء المكتب العربي في القاهرة الذين كانوا يقفون إلى جانب الثورة، ويثقون بجدواها، وخاصة بعد أن تنبه عسكريوهم إلى خطورتها وأهميتها حينما وصلت قوات فيصل إلى الوجه، وأدركوا أن القوات التركية التي تحارب العرب أكثر من القوات التي تحارب الإنكليز. ففي تموز ١٩١٦ وصلت نجدة إنكليزية مؤلفة من فصيلتين مصريتين، وبطاريتين وأربع طائرات، وبعض الذخائر، وعدد قليل محدود من الجنود بقيادة العقيد سيد بك علي المصري[٢٥]، كما وصلت بعثة فرنسية تتألف من الكولونيل بريمون رئيساً، ومن ضباط مساعدين أحدهم فرنسي، وبقيتهم من المسلمين، وعددهم ١٢ ضابطاً من مختلف الرتب، وعدد

---

(٢٢) لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ج١، ص٥٩ ــ ٦١.

(٢٣) راجع أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١٩٩ ــ ٢٠٠، عن تفوق الترك في المدينة والطائف على جيوش الأمراء علي وفيصل وعبد الله في أول عهد الثورة.

(٢٤) ARMITAGE, Ibid. pp. 99-100.

(٢٥) COL. BREMOND. Ibid. p. 55 ; مؤرخ الثورة، المصدر السابق، ص٣٣ ــ ٣٤.

من جنود المغاربة مع بعض المدافع والأسلحة، و ٨ بطاريات خفيفة وبطاريتان من عيار ٨٠، و ٢٥٠٠ بندقية[٢٦]، علماً بأن هذه النجدات لم ترد إلا بعد لأي، فقد كان عبد اللّه السراج رئيس وزراء الشريف يقول «إذا بقي الحلفاء على هذا الضعف معنا لا يبقى لنا إلا أن نعود فنتفق مع الترك»[٢٧].

تنظيم الدولة العربية

لم يمض على إعلان الحسين لثورته فترة من الزمن حتى بدأ في ترسيخ دعائم الدولة، لكنه لم يعلن عن تشكيل وزارته فوراً، بل تأخر ذلك حتى ١٩١٦/١٠/٥ إذ أصدر إرادة سنية بإسناد منصب قاضي القضاة إلى الشيخ عبد اللّه السراج، الذي عين في الوقت نفسه رئيساً للوكلاء (الوزراء)، وبإسناد وكالة الخارجية لنجله الأمير عبد اللّه، وبوكالة الداخلية لنجله الأمير فيصل (ينوب عنه فيها الأمير عبد اللّه). وبتعيين عزيز علي المصري رئيساً لأركان الحرب، ووكيلاً لرئاسة الجند، وبوكالة المعارف للشيخ علي المالكي، وبوكالة الأشغال العامة للشيخ يوسف بن سالم، وبوكالة الأوقاف للشيخ محمد أمين، مع احتفاظه بوظيفة مدير الحرم الشريف، وبوكالة المالية للشيخ أحمد بن عبد الرحمن باناجه[٢٨]. وقد أعطاهم لقب وكلاء باعتبار أنهم وكلاءه في تصريف شؤون الدولة. وفي الوقت نفسه أصدر إرادة سنية أخرى بتأليف «مجلس للشيوخ الأعلى» للنظر في كل ما يتعلق بمنافع البلاد، ومراقبة أعمال الدواوين والدوائر الرسمية، وإبداء الرأي في ما تعرضه الدوائر على رئيس الوزراء، على أن تُقرر فيما بعد صلاحية هذا المجلس. وقد عين لرئاسته الشيخ محمد صالح الشيبي، ولعضويته مفتيي الشافعية والمالكية وغيرهما من الشخصيات الحجازية[٢٩]، وأطلق على حكومته اسم «الدولة العربية الهاشمية»، وحرم استعمال الألقاب التركية (باشا، بك، أفندى)، ورفع رواتب رجال الدين (المؤذنين القراء، خدام الجوامع...) إلى ثلاثة أمثال[٣٠] كما ألف لجنة من كبار رجاله لتسوية

---

(٢٦) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٣٤، كان من الضباط المغاربة الذين أرسلوا إلى الشريف المقدم قاضي والنقيب راحو.

(٢٧) COL. BREMOND, Ibid. p. 85.

(٢٨) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢٣٢، ٢٣٣، مذكرات الملك عبد اللّه، ص١٢٩.

(٢٩) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢٣٣.

(٣٠) G. SAMNE Ibid. pp. 385-386.

مشاكل الأجور والرهون والديون، وإزالة الخلافات بين المؤجر والمستأجر، والدائن والمدين، فتم الأمر بتسوية ترضي الخاصة، وتقبلها العامة[٣١]. وحرص على أن يحفظ للبلاد المقدسة مظهرها الأخلاقي. فأصدر مراسيم تقضي بمنع تقديم الخدمات لرواد المقاهي في أثناء أوقات الصلاة، وتحريم حمل الأسلحة في المدن، ومنع بيع وتجارة الخمور. ولكن هذا المنع لم يطبق بدقة نظراً لنفوذ صناع الخمر في مكة. كما أمر بتدمير محلات البغاء السري، وهيأ مشروعاً لصك عملة عربية هاشمية مقتبسة من الطراز الإنكليزي، على أن تضرب في الهند[٣٢]. وكان في حكومة الشريف جهاز من الموظفين فيه كثيرون من السوريين والعراقيين تولوا مختلف الوظائف، مثل المحامي فائز الغصين، وقد عين أمينا للسر لدى الأمير علي، ثم لدى الأمير فيصل، ونسيب البكري من أركان حرب فيصل، وأخوه سامي البكري، وهو من خريجي مدرسة الحقوق، وقد عين مساعداً لوزير الخزانة، وشفيق العير وكان صحفياً، عين مساعداً لأمين السر[٣٣]. وأنشأ جريدة سياسية سماها «القبة» لتفي بأغراض الدعاية والتوجية لخدمة حركته الثورية. غير أن تنظيم الإدارة بقي محصوراً في نطاق ضيق، لأن ظروف الحرب وما فيها من إرهاق قد حالت دون التوسع فيه، فأبقى النظام التركي في المدن بصورة مصغرة، إلا فيما يتعلق بالقانون المدني التركي الذي أهمل ليحل محله التشريع الإسلامي الأصيل. وقد أيد الشريف ـــ بسكوته ـــ العودة إلى النظام القبلي القديم، بأن يكون الاعتماد على العرف والتقاليد، وعلى ما يتذكره القضاة من سوابق الأحكام. فكان على البدو ـــ بطبيعة الحال ـــ أن يهللوا لهذه التطورات، بينما امتعض سكان المدن ـــ وخاصة منها مكة وجدة ـــ الذين أسفوا لقيام حكومة محلية، ذلك أن الحكومة التركية كانت تتساهل كثيراً مع أصحاب النفوذ من هؤلاء، الذين كانوا يحصلون على امتيازات كثيرة، وكان أكثر سكان المدينتين المذكورتين من الأجانب كالهنود والجاويين والإفريقيين، وهم أبعد من أن يتحسسوا بالأماني التي تجيش في صدور العرب، خاصة إذا كانوا من البدو، لما كان بين هؤلاء وبين سكان المدن من حقد دفين ناشيء عن التعديات والسلب والنهب الذي كان يقع عليهم منهم[٣٤].

---

(٣١) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢٣٥.

(٣٢) COL. BREMOND, Ibid. pp. 127-128.

(٣٣) لورنس، المصدر السابق، ج٢، ص٥٨.

(٣٤) لورنس، المصدر السابق، ج٢، ص٧١ ـــ ٧٢.

تنظيم الجيش

بعد ذلك كان على الثورة أن تلتفت إلى تنظيم الجيش، ذلك أنها قد واجهت في بادىء أمرها مصاعب جمة، ولم تحظ بالدعم العاجل المطلوب من الحليفة إنكلترا، حتى أن القائد العام للجيش البريطاني في مصر — كما قال لورنس — لم يكن مؤمناً بالثورة فلم يبذل المال والرجال والسلاح في سبيلها، وفضل توجيه كامل قواه نحو جبهة فلسطين. كما كان ضباط الأركان البريطانيون في مصر لا يتورعون عن السخر بالمعتمد البريطاني — الذي يدعم الثورة لكنه يكره التدخل في الشؤون العسكرية — فيقهقهون من توقعهم أن يجدوا الحسين معلقاً عاجلاً أو آجلاً على مشنقة تركية[٣٥]

وهذا ما دعا فيصلاً أن يعتمد في ابتداء الحركة على الحجازيين الذين استجابوا للثورة، وكانوا أول من تقلد السلاح لتأييدها، وكان يدعو القبائل لتلتف حوله وتقاتل الترك فلبت النداء وكانت وفودها «كالطوفان العظيم الذي يتدفق مطالبة بالسلاح»[٣٦]. حسب برقية من الأمير عبد الله غير أن حروب القبائل لم تكن من التنظيم بحيث تنتهي إلى نتائج باهرة. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإنكليز كانوا يماطلون في إرسال الأسلحة أو إذا أرسلوا منها شيئاً فإنهم يكتفون بالأسلحة الخفيفة، كالبنادق وكثير منها لم يكن صالحاً للاستعمال لقدمه[٣٧]، فضلاً عن أنهم لم يكونوا ليرسلوها إلا بعد المطل والتسويف، لأنهم رسموا للثورة برنامجاً يجب ألاّ تتعداه، كي لا تكون خطراً على مشروعاتهم الاستعمارية[٣٨]. كما كان يقف أمام الإنكليز اعتبار آخر بأن دخول الحجاز محظور على غير المسلمين، وهذا ما يمنعهم من إرسال قوات إنكليزية أو حليفة إلى بر الحجاز لقتال الترك، خاصة وأنهم لا يريدون «نثر جيوش الدفاع عن مصر — التي هي المحل الأول في الأهمية — ليتلهوا على رمال صحراء العرب»، كما قال لورنس. على أن سياسة الحسين ومواقفه من طلب المساعدة بالرجال لم تكن ثابتة، إذ كان كثير التردد قليلاً ما يثبت على رأي، يطلب الجيوش من الحلفاء — ببرقية يرسلها وزير خارجيته — عندما يفطن إلى ما يمكن أن يلحقه به الترك فيما إذا وقع في أيديهم، ويرفضها حينما ينتهي به التفكير إلى الاعتقاد بأن الحلفاء — إذا دخلوا وتوطدت أقدامهم في البلاد — فإن من الصعب إخراجهم منها، وأن العالم الإسلامي سوف ينهض ضده لسماحه بدخول الأجانب إلى الديار المقدسة. وأخيراً وجد السير «ريجنالد ونجت» الحل الملائم: أن لا يرسل أي جندي إلى

---

(٣٥) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢١٧.

(٣٦) المصدر السابق، ص٢٠٨، من برقية أرسلها الأمير عبد الله للمعتمد البريطاني في مصر.

(٣٧) الأمير مصطفى الشهابي، محاضرات عن الاستعمار، ج٢، ص٧٠، نقلاً عن لورنس.

(٣٨) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٨٩.

الحجاز إلا إذا طلب الحسين ذلك خطياً تحت توقيعه، هذا الذي لم يفعله الحسين قط، لأنه كان يحاذر هياج العرب، إذا رأوا الجيوش الأجنبية في الأراضي المقدسة[٣٩].

كل ذلك جعل الحسين يعدل عن الاعتماد كلياً على الحلفاء، وينظر في إنشاء جيش نظامي يكون عليه المعول. لكن حاجته إلى ضباط اكفاء ليحقق هذه الأمنية جعلته يتصل بولاة الأمور الإنكليز في مصر، ويتفق معهم على امداده بالجنود والضباط العرب، الذين يأسرونهم في ميداني فلسطين والعراق، على أن تقدم إنكلترا الأسلحة والمعدات التي تلزم لتأليف الجيش المطلوب. عندئذ بدأت أفواج الضباط والجنود العرب تتدفق على الحجاز سواء منهم المأسورون، أو الهاربون من صفوف الجيش التركي بدافع من وطنيتهم. وكانت أول قافلة من هؤلاء غادرت السويس في أول آب ١٩١٦ تتألف من سبعة ضباط هم: نوري السعيد، ومحمد حلمي البغداديان، وراسم سردست الدمشقي (وقد برز في معارك الشمال بقيادته الماهرة لمدفعية الجيش العربي)، ورؤوف عبد الهادي النابلسي، وإبراهيم الراوي، وجميل الراوي، ورشيد الهاشمي وكلهم عراقيون. وقد رافقهم الطبيب الدكتور أمين المعلوف اللبناني، وبرفقته مستشفى كامل المعدات يفي بحاجة مئة جريح مع جميع لوازمه بالإضافة إلى خمسين خيمة، وأمدت الثورة معها بألفي بندقية وكمية كبيرة من القذائف و ٣٠٠ بغلة للنقليات و ٢٦ حصاناً لجر المدافع، وكميات كافية من الأرزاق والمؤن[٤٠]. ثم توالت القوافل من الضباط والجنود والمثقفين والزعماء، وكل من كانت تضطرم في نفسه شعلة الوطنية والحماسة للقضية القومية، وخاصة من كان يقع منهم أسيراً بيد القوات الإنكليزية، التي كانت تسوقهم في بادىء الأمر إلى «سمربور» في الهند، حيث تجمع الضباط والجنود العرب بعضهم إلى بعض، فيقوم المتحمسون منهم للقضية العربية بإقناع الآخرين بضرورة الالتحاق بثورة الشريف، بعد أن يطلعوهم ــ وخاصة الضباط العراقيين الذين لم يكن لهم علم بما يجري من حوادث خارج منطقة العراق ــ بالفظائع التي ارتكبها جمال باشا في دمشق، وبما يصدر عن القادة الأتراك من سوء نية، بحيث لا يقبلون بأن يكون الأسرى العرب من جملة الذين يجري تبادلهم مع الأسرى الإنكليز لدى الترك. وهكذا التحق بالثورة من ضباط العرب: القائد حسن فهمي الزنبركجي، والملازم نسيب المتولي، وكلاهما من دمشق، والملازم شاكر ملا حماده من برقه، والملازمان مكي أبو حمد ومنعم عبده من فلسطين، والنقباء عبد الرؤوف الموصلاوي ورشيد آل أنكرلي وعبد الكريم التتري،

(٣٩) R. ALDINGTON, Ibid. p. 121؛ لورنس، الثورة في الصحراء، ص١٣.

(٤٠) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢١٨ ــ ٢١٩.

والملازمون عبد الرزاق الخجا، وعبد الرزاق حاج رزوقي، ورشيد حسين الخماش، وشاكر آل النائب، وحامد الوادي، وعبد الحميد الشالجي، وشاكر ملا عبد الوهاب، وعبد اللطيف طابور آغاسي، ومحمد جمال القول آغاسي، وكلهم عراقيون. كما كان من هؤلاء من يتطوع من تلقاء نفسه. ولم تكن السلطات الإنكليزية لترسلهم إلى الحجاز إلا بعد أخذ موافقة الشريف حسين. وكان من هؤلاء الدكتور حسن شرف الدمشقي، والنقيب توفيق أبو طوق الحموي، والضباط العراقيون مولود مخلص، وعلى جودة الأيوبي، وعبد اللّه الدليمي[41]، وجميل المدفعي والضباط السوريون: بهجت الشهابي، وفائز الشهابي، وتوفيق الشهابي، وزكي الشطي، وزكي الدروبي، والضابط الفلسطيني رؤوف عبد الهادي[42]. وكان لهؤلاء الضباط فائدة كبيرة لأنهم مدربون تدريباً جيداً في مدارس حربية من جهة، ولكونهم قد خدموا في الجيش التركي ولهم معرفة تامة بخطط العدو وحركاته وأحواله من جهة ثانية. غير أن السياسة كانت تشغل أفكارهم لأنهم كانوا يخشون نيات الحلفاء وجزعوا من أن تذهب جهودهم عبثاً، وان يكونوا عمالاً لخدمة الاستعمار أكثر من عملهم للاستقلال العربي لذلك كانوا حسبما وصفهم أحد الكتاب «يقومون ببعض الواجب العسكري، وتصرفهم المشاغل الفكرية عن اتمام الباقي»[43]. كما أن بعضهم لم يقدموا على الاشتراك في الثورة إلا بشروط معظمها مادي، هذا بالإضافة إلى أن الدسائس بدأت تدب في قلب الجيش يثيرها بعض من ارادوا الصيد في المياه العكرة، فظهرت مسألة سوري وعراقي، وكثرت الانتقادات التي توجه للشريف حسين «العصبي المزاج المتعنت المتشبث برأيه» ولو بغير حق، ولنجله فيصل، ثم بدأت عملية الدس بين الأب وابنه. كما تخرص المتخرصون بأن فيصلاً ينوي الاستيلاء على سورية وفصلها عن سلطة الشريف وتمزيق الوحدة العربية تحقيقاً لاطماعه الخاصة، واوغروا صدر الشريف حسين على الضباط السوريين والعراقيين بانهم أعوان فيصل للوصول إلى هذه الغاية، وكادت هذ الدسائس أن تعكر الجو بين الشريف ونجله والضباط السوريين والعراقيين لولا أن تدارك الأمير فيصل الأمر بحكمته[44] عندما ثارت ثائرة الشريف لدى اطلاعه على نبأ الأوسمة التي منحها الجنرال اللنبي لجعفر باشا العسكري، فانبرت جريدة «القبلة» بأمر من الحسين إلى وصف من أطلقوا على جعفر باشا لقب «الجنرال الأعلى لجيش الشمال» بأنهم «مهابيل»، وإلى نفي أن أحداً من قادة الجيش

---

(٤١) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص١٥٧، ١٧٦ — ١٨٠.

(٤٢) الأمير مصطفى الشهابي، محاضرات عن الاستعمار، ج٢، ص٨٠ — ٨١.

(٤٣) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٣١ — ٤٨.

(٤٤) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 193-194; أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية ص٩١، ٩٤.

يحمل رتبة أعلى من رتبة نقيب، وأن الضابط المذكور ليس له ما يميزه عن غيره من الضباط، فبادر جعفر وغيره من الضباط العرب إلى الاستقالة، وثارت ضجة كبيرة تلافاها فيصل وعادت الأمور إلى مجاريها(٤٥).

لقد تطلب تنظيم الجيش وتدريبه استقدام الضابط السابق عزيز علي المصري من القاهرة، وكان ــ بعد أن أخفقت مفاوضات الإنكليز معه في بداية الحرب ــ يرقب الأحداث عن كثب. ولما أفضت إليه السلطات البريطانية بالقاهرة سراً بفحوى مراسلات الحسين ــ مكماهون أبدى استعداده للتعاون مع الإنكليز، وتقديم خدماته للثورة(٤٦). بعد وصوله اجتمع بالشريف علي، ونوري السعيد، وغيرهما من الضباط، وجرى البحث بينهم في أمر تشكيل الجيش وتنظيمه فتألف، من الرجال الموجودين، لواء كامل بضباطه وجنوده ومدافعه ورشاشاته ــ وكنا رأينا أن وكالة الحربية أسندت لعزيز المصري ــ وعين النقيب توفيق أبو طوق قائداً للكتيبة الأولى والنقيب رشيد أنكرلي قائداً للكتيبة الثانية، والعقيد نوري السعيد رئيساً لأركان الحرب، وعين كل من الدكتور أمين المعلوف، والدكتور منير، والدكتور حسن شرف أطباء للجيش، وعين الملازم علي جودة الأيوبي رئيساً لشعبة الأركان، ونسيب المتولي مرافقاً لقائد اللواء(٤٧).

وشرع عزيز علي في العمل بكل ما أوتي من جد وإخلاص وهمة ونشاط، حتى وفق في إنشاء قوة قوية لا يستهان بها، نالت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء، ودلت على نشاط العرب وذكائهم، وفي خلق نواة جيش مدرب مؤلف في أكثريته من رجال القبائل الذين ليس لديهم إلا إدراك يسير لمعنى النظام والترتيب(٤٨). في الواقع كان رجال القبائل كثيراً ما ينفضون عن فيصل ثم يجتمعون حوله من جديد، وهكذا دواليك بحسب الأهواء التي تسيرهم، وأهمها الحصول على الغنائم وقبض الرواتب(٤٩). وفضلاً عن ذلك فهم لم يميلوا إلى مساعدة الثورة إلا بعد أن أغراهم فيصل بالأموال التي كان يقبضها ذهبا من الإنكليز، لأنهم اعتقدوا في بادىء الأمر أن لا بد للترك من استرداد مكة. ومع ذلك كانت مساعدة كثيرين منهم صورية، يأخذون الأسلحة والذخيرة ويسيرون لمقاتلة الترك،

---

(٤٥) LAWRENCE, Ibid. pp. 717-723.

(٤٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣١٠.

(٤٧) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص٢٢٩ ــ ٢٣٠.

(٤٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣١٠؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢١٩.

(٤٩) P. LYAUTEY, Ibid. p. 123; ARMITAGE, Ibid. p. 100.

فإذا لم يروا حولهم أحداً يراقب حركاتهم باعوا أسلحتهم، وإذا شعروا بمن يراقبهم أطلقوا بضع طلقات نارية ثم هربوا. وكان بعضهم ــ وخاصة في جبهة الأمير علي في بير الدرويش بجوار المدينة ــ يرسلون لقتال الترك، فيطلقون عليهم النيران طيلة النهار، حتى إذا أدلهم الظلام تركوا مواقعهم وعادوا إلى خيامهم، وسرعان ما يعود الترك إلى مراكزهم التي اضطروا إلى إخلائها بفعل نيران العرب[٥٠]. لذلك فان فيصلاً ــ مع شدة ثقته بنفسه وبرجاله العرب ــ كان يطالب بأن يرسل إليه جنود منظمون ولو كانوا بقبعات أفرنجية، وبأن يزود بالمدافع الخفيفة. وهكذا حتى استطاع بفضل تنظيم الجيش أن يكون لديه قوات نظامية ظل عددها يتزايد حتى وصل في نهاية مراحل الثورة إلى ما يقارب ٥ آلاف مقاتل يشرف عليهم عدد كبير من الضباط، وإلى جانبها عدد كبير من العربان، قفز عددهم في بعض الأحيان إلى ٧٠ ألفاً موزعين على مختلف جبهات أنجال الشريف حسين[٥١].

صدى الثورة لدى الترك

لم تكد أنباء الثورة تصل إلى أسماع الترك حتى ثارت ثائرة جمال باشا، فأمر فخري باشا، قائد جيش المدينة المنورة، بأن يسير إلى مكة ويحتلها، ويلقي القبض على الشريف حسين وأولاده. وتضاعفت شراسته، فصب حمم غضبه على من بقي من زعماء وأحرار العرب، وأمر بإلقاء القبض عليهم، وقذفهم في السجن وتعذيبهم، وكان منهم الشيخ الوقور شكري باشا الأيوبي، وأمير اللواء عبد الحميد باشا القلطقجي، والنائب فارس الخوري، والدكتور أحمد قدري الترجمان، وشكري القوتلي، أودعوا الزنزانات المظلمة في خان الباشا بدمشق، وسيموا أنواع العذاب ضربا وتجويعا ... وكان أولهم شكري باشا يُضرب كل يوم حتى أشرف على الهلاك، ومع ذلك لم يعترف أحد منهم بسر من أسرار الحركة العربية وجمعياتها السرية. لا بل إن شكري القوتلي ــ وقد جزع من أن تؤدي وحشية رجال الدولة وشدة تعذيبهم له إلى تخاذله فيضطر، في حالة فقدان الوعي، إلى الإدلاء بما يضر القضية العربية ــ آثر الانتحار بقطع شرايين يده، وكاد أن يفارق الحياة، ولم ينقذه من هذا المصير غير انتباه السجانين إلى الدم الذي كان يسيل خارج بوابة الزنزانة، فنقل إلى المستشفى وأسعف بسرعة[٥٢]. ولم لم يبادر الأمير فيصل بإنذار جمال باشا، بأنه مقابل كل شهيد جديد من زعماء العرب سيضطر

---

(٥٠) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٣٥، ٣٩.

(٥١) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٣، ص١٤٣.

(٥٢) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٦٤.

إلى قتل عشرة من ضباط الترك الأسرى لديه، لكان قد حل بهؤلاء الزعماء ما حل بسابقيهم. وكان لهذا الوعيد أثره في الإفراج عن المعتقلين[٥٣]. ومع ذلك لم تكن السلطات التركية، التي أذهلتها مفاجأة الثورة، لتطلع الشعب على حقيقة الأمر، إذ ظلت البلاغات التركية مدة أسبوعين تنفي وقوع أي اضطراب، إلى أن صدرت جريدة الشرق الرسمية في ٢٩ حزيران تنوه «بأن بعض الفئات القبلية هاجمت بضعة مراكز في جوار المدينة» دون أن تشير إلى الشريف حسين بشيء. ولم تسمح بالخوض في موضوع ثورة الحسين حتى ١٩١٧/٧/٢٦، حينما نشرت جريدة طنين بالآستانة صورة مشوهة عنها[٥٤].

ومما يدل على شدة أثر الثورة على جمال باشا اللهجة التي كتب بها انطباعاته عنها في مذكراته، إذ أنه وصف الشريف بالغدر والسفالة والأنانية والجشع والطمع والخيانة، وبانه قد باع نفسه للإنكليز، وانه لو علم أن الحسين قد اتفق مع الإنكليز على الثورة لما ترك نجله فيصلاً يفلت من قبضته، ولأمر بالقاء القبض عليه وعلى أخيه علي في المدينة، ولأرسل فرقة تركية على جناح السرعة إلى مكة للقبض على الشريف وأولاده، والقضاء على تلك الثورة في مهدها[٥٥]. والواقع أن جمال باشا قد أدرك بعد فوات الأوان أنه كان مخدوعاً، وأنه لم يحسن التصرف مع الحسين وأولاده الذين أفلتوا من يديه، بعد أن نالوا كميات كبيرة من السلاح، وعشرات آلاف الليرات الذهبية، لذلك بادر إلى توجيه بعض المفارز العسكرية، الواقفة في دمشق على قدم الاستعداد، إلى الحجاز للإنضمام إلى قواتها، وأصدر تعليماته إلى الوالي فخري باشا كي يستلم قيادة الجند فيها، وأن يعجل في القضاء على الثورة. كما ألف وفداً من أعيان العرب الموالين للاتحاديين (محمد فوزي باشا العظم، وعبد الرحمن باشا اليوسف، والشيخ أسعد الشقيري) سافر إلى المدينة على الفور لمقابلة زعماء القبائل، وحثهم على مناصرة الدولة والولاء لها[٥٦]. ولم يكتم جمال باشا أثر الثورة الفعال على الترك، إذ قال في مذكراته «أما ثورة الشريف حسين فكانت ضربة قاضية على حملة قناة السويس». كما قال في مكان آخر «والتضحيات الهائلة التي اقتضاها تموين حامية المدينة، وإمداد الجنود المرابطة بين المدينة ومعان بالمؤونة والذخيرة، حتمت علينا أن نشطر المؤن المخصصة لفلسطين إلى شطرين، وحالت دون تعزيزنا لهذه الجبهة بالقوة اللازمة متى شئنا وكيفما أردنا». وعن تأثيرها السيء على الجهاد قال

(٥٣) رشدي الملوحي، الزعيم الرئيس شكري القوتلي، ص١١ ــ ١٤.

(٥٤) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٢٩٨.

(٥٥) مذكرات جمال باشا، ص٣٦٦ ــ ٣٦٧ ــ ٣٨٨.

(٥٦) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١٥٧ ــ ١٥٨.

«من المؤسف أن أمراً دنيئا قد عطل الجهاد المقدس، في صميم الأرض الإسلامية المقدسة، حينما حالف القوى المسيحية التي تسعى إلى ابتزاز العالم الاسلامي، والاستيلاء على عاصمته»[٥٧].

أما الحكومة التركية في الآستانة فقد كان للثورة العربية وقع شديد عليها، وبلغ استياؤها منها مبلغاً عظيماً فبادرت فوراً، وبعد ساعات من بلوغها النبأ، إلى إصدار إرادة سنية بخلع الشريف حسين من إمارة مكة، وإسنادها إلى من طالما اعتبرها حقاً شرعياً له هو الشريف علي حيدر، من أسرة «ذوي زيد» المنافسة لأسرة الشريف حسين، وكان يشغل حينذاك منصب نائب رئيس مجلس الأعيان، يريدون بذلك أن يضربوا العرب بالعرب، ويلقوا الشقاق بين مختلف فئاتهم المتنافسة ويمزقوهم تمزيقاً[٥٨]. فقبل المهمة مصرحاً بأنه «يريد أن يخدم بلاده كجندي يتلقى الأمر»، وأنه سيعرض شروطه على الترك بعد انجلاء الموقف. وقد جاء في المذكرات التي تركها لزوجته الإنكليزية، والتي تولى عرضها الكاتب الإنكليزي جورج ستيت G.STITT، أنه قال لطلعت بك بأن بقاءه في هذا المنصب، بعد الحرب، سيكون متوقفاً على الإستجابة لبعض الاعتبارات والمطالب الهامة التي يثق تماماً بأن الحكومة سوف لا تتأخر عن قبولها. فأجابه طلعت «أستطيع أن أؤكد لك بأن الحكومة توافق على أية شروط تضعها، إن مهاماً كبرى تنتظرك في الحجاز، فنرجو الله أن يسير كل شيء على ما يرام». ولما سمع الشريف ناصر أخو الشريف حسين — وكان عضواً في مجلس الأعيان وشجب حركة أخيه علنا، ولكن بعبارات غامضة — بخبر إسناد الإمارة إلى الشريف علي حيدر، اتصل بطلعت بك حالا، في محاولة منه ومن أفراد عائلته في الآستانة لإبقاء الإمارة في أسرة «ذوي عون»، وقال له «أنا هو ذلك الرجل الذي كان يجب أن تسند إليه الإمارة. فإذا ما أسندتموها إلي فإنني أقسم لكم بالقرآن الكريم بأن آتيكم برأس أخي الشريف حسين». فأجابه طلعت بأن للحكومة مرشحها الخاص، فإن كنت غيوراً على مصلحة الدولة فاذهب وانضو تحت لوائه مجاهداً. لكن الشريف ناصر آثر البقاء في الآستانة ولم يلبث أن رمى القفاز بوجه الترك وذهب إلى مكة، حيث أصبح من مشاوري أخيه[٥٩].

وقبل أن يتحرك الشريف علي حيدر إلى المدينة، لاستلام منصبه الجديد، استعرض مع الحكومة إمكانات ضرب الثورة، وتفريق القبائل التي التفت حول الشريف حسين، وأن وجوده في

---

(٥٧) مذكرات جمال باشا، ص٢٩٠ — ٢٩٢ — ٢٩٣؛ أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٠٥.

(٥٨) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١٥٨.

(٥٩) G. STITT, Ibid. pp. 160-163.

المدينة لا يكفي لجذب القبائل المذكورة، إنما يكون ذلك بتزويد المدينة بالإمدادات والمؤن والأرزاق والمهمات بدرجة كافية، وطلب الإسراع في تأمينها، إذا أريد لمهمته أن تكلل بالنجاح. فطمأنه أنور باشا إلى أنه سيجد كل شيء جاهزاً عندما يصل إلى دمشق(٦٠). وقد فكر أنور في تشكيل حملة حجازية لاسترداد مكة، ولكن تَعَذُّر اشتراك غير المسلمين في هذه الحملة، وعدم استطاعة تشكيلها من الأتراك لوحدهم جعله يصرف النظر عنها(٦١). ويظهر أن للألمان ــ الذين كانوا يودون توجيه جميع القوات شطر قناة السويس ومصر ــ تأثيراً في عدول أنور عن عزمه.

عندما وصل الشريف علي حيدر إلى دمشق فوجيء بالبرود الذي استقبله به جمال باشا، ذلك أن الطاغية أخذ ينظر إليه بعين الشك والارتياب، ولم يترك له مجالاً للاتصال بشيوخ العرب المحليين. وأخذ ينشر حوله الجواسيس يراقبون حركاته واتصالاته، ورغب منه أن يسير بسرعة إلى المدينة، بعد أن هيأ له بعض ما طلبه من لوازم وأموال، فذهب إلى المدينة بحرس خاص وقطار خاص وعمل على جمع القبائل حوله ــ وكان فخري باشا قد قبض على ناصية الحال فيها ــ فاجتمع لديه ما يقارب ١٥ ألفاً منهم، وأذاع منشوراً على أهل الحجاز، وجه الطعن فيه إلى الشريف حسين والإنكليز الذين غرروا به، وأشاد بالدولة العثمانية، واتهم الحسين بأنه يتواطأ مع العدو على الحجاز، ويحاول أن يجعل بيت الله الحرام وقبلة الاسلام ومرقد الرسول تحت حماية دولة مسيحية، وفند حججه في خروجه على الدولة العثمانية، ثم أخذ يحرض القبائل على عدم طاعته، والبقاء على ولائها للدولة العثمانية، دولة الإسلام والخلافة وحاميتها(٦٢). لكنه شكا في مذكراته بأن نقص التنظيم في تأمين ضروريات المعيشة في المدينة قد وقف حائلاً دون إتمامه مهمته في إعادة السلام إلى ربوع الحجاز، فوقف مكتوف اليدين أمام الحاجة الملحة إلى المؤن التي لم يكن في المدينة منها ما يكاد يكفي حاميتها، فاضطر إلى صرف القبائل إلى أماكنها، ووعدها بأنه متى سنحت الفرصة وجاءت المؤن والأرزاق فإنه سوف يستدعيها للاستفادة من جهودها. غير أن فخري باشا أيضاً بدأ يرتاب منه في بادىء الأمر، ويظهر له الجفاء، ويكتم عنه أكثر المعلومات أهمية، ثم أصبح صديقاً له. ويذكر لنا الشريف علي حيدر في مذكراته أن الترك كانوا خاضعين لتأثير الألمان، الذين كانوا يرغبون في تركيز قوى الترك في جبهة السويس، ولا يريدون أن يبددوها في جبهة الحجاز لضرب الثورة العربية.

---

(٦٠) Ibid. pp. 162-163.

(٦١) ليمان فون ساندرس، توركيه دوه بش سنة، ص١٣٥.

(٦٢) محمد طاهر العمري، المصدر السابق، ج٢، ص٢٩.

والخلاصة أن الشريف علي حيدر رأى نفسه عاجزاً ــ وهو صفر اليدين من المال ــ أمام الذهب الإنكليزي الذي كان يتدفق على القبائل العربية عن طريق الحسين، خاصة وأنه لاحظ أن القبائل العربية كانت تخشى إذا هي ساعدته ضد الإنكليز أن يلجأ هؤلاء إلى ضرب الحصار الشديد على شواطئهم فيموتون جوعاً، فصاروا يطالبونه بتأمين مؤنهم وأرزاقهم أولاً بأول(٦٣)، فكرر طلب المؤن والأرزاق والأموال من الحكومة، ولما رأى أنور باشا نفسه عاجزاً عن تلبية مطالبه الملحة أبرق إليه بالرجوع إلى دمشق، فقضى بقية أيام الحرب فيها، وفي لبنان.

في الواقع واجهت المدينة المنورة مشكلة الإعاشة والتموين إلى درجة أن فخري باشا لجأ إلى سياسة ترحيل الأهالي ليخفف من عدد الأفواه الآكلة، فبدأ يسوقهم جماعات جماعات سواء إلى الشام أو إلى العراق أو غيرهما، أو تنزلهم القطارات في مختلف المحطات. ذلك أن المجاعة قد أخذت، منذ ربيع ١٩١٧، تفتك بالسكان بسبب الحصار المفروض عليها من جنود الثورة، وبعد نفاد ما كان لدى الأهالي وفي الأسواق من المواد الغذائية، ولم يكن القليل الذي يوزعه فخري باشا، يومياً على الأهالي ليكفيهم فمات بعضهم جوعاً(٦٤). ولم يكن فخري باشا ليتورع عن مداهمة المنازل، ومصادرة ما فيها من أغذية، ولم تكن سياسة جمال باشا إلا لتزيد في تعقيد الأمور، ذلك أن أحد الأتراك قد ذهب إلى دمشق وأعلم الطاغية بأن شعب المدينة لديه الكفاية من المؤن، متهما تجارها بأنهم يحتكرون قوت الشعب فيسببون المجاعة. فانصرف عن الاهتمام بأمر إمدادها بالقوت. ولما وردته كتب الإلحاح من واليها أجابه بما بلغه من قصة الاحتكار، عندئذ بادر فخري باشا إلى تفتيش منازل التجار فلم يجد فيها من الأرزاق ما يكفي لأكثر من يومين(٦٥). لذلك كانت سياسة الترحيل هي الحل الأخير ترجيحاً لمصلحة الجند. وقد ارتكب الترك في أثناء ترحيل الأهالي بعض الفظائع التي هزت وجدان العرب، إذ كانوا يعمدون إلى نقلهم أحياناً بالقطار، حتى إذا قطعوا بهم مرحلة في الصحراء، ألقوهم في الفيافي والقفار عرضة للجوع والهلاك، فكانت وحدات جيشي الأميرين عليّ وزيد تبث العيون والأرصاد لالتقاط كل من يلوذ منهم بالجبال والكثبات فينقذونهم من موت محقق. كما كان الترك يبعدون إلى الأناضول أو بلغاريا من يشتبهون باشتغالهم في السياسة. وقد

(٦٣) G. STITT. Ibid. pp. 163-172.

(٦٤) حسين محمد نصيف، المصدر السابق، ص٥٦.

(٦٥) G. STITT, Ibid. pp. 174-175.

بلغ عدد من أبعد إلى الأناضول من هؤلاء ما يقارب /١٧٠/ رجلاً[٦٦]. ويظهر أن إحدى القبائل (العوالي) قد بدر من رجالها ما أسخط الترك، فسلط فخري باشا المدافع على أحيائهم وهدم قسماً منها، ثم أمر جنوده بمهاجمتهم، فحدثت مجزرة ذهب ضحيتها مئات الرجال والنساء والأطفال[٦٧]. وهذا ما دعا وزارة خارجية الدولة العربية الهاشمية إلى تقديم احتجاج، إلى دول الحلفاء المحاربين، نددت فيه بفظائع الترك في المدينة، وجورهم على أهالي قبيلة العوالي، ونصبهم المشانق لأفرادها، ولغيرهم من أهل المدينة. وهددت بالثأر لهذه الفظائع الوحشية[٦٨]. كما أذاعت جريدة «القبلة» نداء موجهاً إلى جميع المسلمين بأن ينبذوا الترك نبذ النواة، لأنهم قد سطوا على قبر الرسول، ونهبوا ما فيه من أثاث ومحتويات، وأن ينفضوا يدهم من تأييد السلطان العثماني، الذي سوف يكف خطباء الجوامع عن ذكر اسمه في خطب الجمعة، تعبيراً عن الانفصال عن السلطنة العثمانية[٦٩].

ومما كان يزيد في وطأة الحياة على المدينة فقدان الوقود للقاطرات، ذلك أن هذه كانت ــ كما رأينا سابقاً ــ تعتمد على الحطب، ولم تكن التخريبات التي يحدثها جنود الثورة على الخط الحجازي أكثر إزعاجاً للترك من فقدان الوقود، لأنه كان بإمكانهم إصلاحها فور حدوث التخريب، بفضل الفوج المؤلف من /٨٠٠/ رجل والمكلف بهذه المهمة، بحيث إن التخريبات التي كانت تجري حتى ربيع ١٩١٨ ــ حينما كلف الجنرال اللنبي الكولونيل «داوني DAWNAY» على رأس فرقة منظمة للقيام بالتخريب الجدي ــ لم تكن لتشكل تهديداً جدياً للترك في المدينة بل مجرد إزعاج. لذلك لجأ فخري باشا إلى اقتحام منازل أهل المدينة ليستولي على أخشاب نوافذها وأبوابها ليستعملها وقوداً للقاطرات[٧٠].

صدى الثورة لدى الألمان

كان وقع الثورة على الألمان من الشدة بحيث منعوا نشر أي نبأ من أنبائها في صحفهم، وأخذوا يتقصون أخبارها بدقة، وبادر قنصلا ألمانيا والنمسا إلى جمال باشا يستمزجان رأيه، فأجابهما

---

(٦٦) فائز الغصين، المظالم في سورية ولبنان، ص٩٥ ــ ٩٦.

(٦٧) لطف اللهنصر البكاسيني، المصدر السابق، ص٥٢٧ ــ ٥٢٨.

(٦٨) فائز الغصين، المظالم في سورية، ص١٠٢.

(٦٩) COL. BREMOND, Ibid. p. 129.

(٧٠) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 141-142.

بأنها حركة موضعية بسيطة لن يكلفه إخمادها أي جهد، وأنه أصدر الأمر إلى قواده في الحجاز بالقاء القبض على الشريف، الذي يأمل بأن يبشرهما بنبأ شنقه على أحد أبواب دمشق بعد بضعة أيام. ويمكن القول إن تأثير الثورة الأدبي على الألمان قد فاق تأثيرها المادي، بدليل التصريح الذي أدلى به أحد قادتهم العسكريين في دمشق بقوله «إننا لم نستمل الترك، ولم نبذل لهم ما بذلناه، ولم نتحمل ما تحملناه، إلا لأن الخلافة الإسلامية فيهم، ولأنهم موضع احترام مسلمي العالم بسببها. أما وقد أضاعوها وفقدوا هذه المزية بخروج الشريف حسين عليهم، وهو أكبر زعيم مسلم، وسليل أعظم بيت في الإسلام، فإن الألمان سيعيدون النظر في موقفهم من الترك..»[٧١]. كما أنشأ الكاتب الألماني الشهير الهر مكسيميليان هارون فصلاً عن الثورة قال «إذا تمكن الأمير حسين من استمالة العرب إليه، فإن إرادته تصبح أمراً مطاعاً لا يخالف ولا ينازع في سورية والعراق وطهران وأصفهان وأفغانستان، ويقضي على نفوذ ألمانيا في الشرق قضاء مبرما»[٧٢].

صدى الثورة لدى العرب

عديدون هم الذين انتقدوا الثورة وجلهم من دعاة الجامعة الإسلامية ومن طلاب بقاء الرابطة العربية ـ التركية، إلا أن الأغلبية الساحقة من المنورين العرب قد أيدوها ـ وكان جل هؤلاء من الشبان الذين أخذوا على عاتقهم العمل القومي، وأغلبهم من المنتمين للجمعيات السرية، ولم يفرضوا أنفسهم بالكلام والتبجح واللهو وتملق الجماهير، وإنما فرضوه بالجد والمغامرة والجلد والتضحية ـ لا سيما وقد حدثت في الوقت الذي بلغت فيه وحشية جمال وطغيانه منتهى الشناعة، فاتجهت قلوبهم إليها، وكانت من العوامل القوية في انتشار الفكرة العربية إلى مدى واسع، وبدأ العرب يستبشرون بمستقبل الأمة، وإقبالها على حياة جديدة من العزة والمنعة والقوة والنهوض، بعد أن تنال حريتها في ظل دولة موحدة مستقلة، وبدأ الشبان يروجون لها ويبثون الدعوة لتأييدها والالتحاق بها[٧٣]. أما سواد الشعب العربي، فمن الإخلاص للحقيقة أن نعترف أنه لم يتحمس بها تحمساً قوياً يسمح بالقول إن الفكرة قد تغلغلت في وجدانه حتى الأعماق، بل إن الحركات التي كان يضطلع بها المنورون كانت تستلفت نظره وتوقظه من السبات، فجاءت الثورة لتقوي هذا الالتفات وهذه

---

(٧١) أمين سعيد، الثورة العربية، ج١، ص١٦٥.

(٧٢) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢١٨.

(٧٣) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ج١، ص٤٧، ٦٣ ـ ٦٤.

اليقظة لديه ، علماً بأن معظم من كان يسكن المدن الصغيرة والقرى والبوادي ، من الشعب العربي ، كانوا في معزل عن الحركات السياسية وعن الاهتمام بها . وزيادة على ذلك فإن عمق الفكرة ، وقوتها عند الشباب المتنورين ، والزعماء السياسيين كانت متفاوتة : كانت تصل عند بعضهم إلى مرتبة العقيدة التي تدفع بصاحبها إلى اقتحام الأخطار ، والتضحية بالنفس والمال ، وعند فريق آخر لم تكن سوى كلمات يرددها اللسان ، دون أن يكون لها أثر نافذ في القلب ، وعند آخرين وسيلة استغلال وجاه ومنصب وتفاخر . ناهيك عن وجود طبقة من الشبان المنورين المرتبطين بوظائف الدولة ، التي اندمجوا في جوها إلى درجة أصبحوا فيها غرباء عن العروبة ، وعن اللغة العربية ، فوقفوا من الفكرة موقف المتحفظ أو المتهجم أو العدو المهاجم . ومثل هؤلاء طبقة الوجهاء والأعيان ، وبعض المشايخ ، الذين مارسوا الوظائف الحكومية والإدارية والشرفية ، كمجالس البلديات والإدارة والمحاكم ، التي استمدوا منها وجاهتهم ومنافعهم المالية(٧٤) .

ويتلخص رأي الذين أيدوا الثورة بقولهم إنه كان على العرب ــ بعد أن لمسوا خطة الحكومة التركية بما ترتكبه من جرائم وحشية في سبيل إفناء منوريهم ، تمهيداً لصهرهم في البوتقة التركية ــ أن يفكروا في مصيرهم ، وأن يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت ، وخطة الخروج على الدولة والانحياز إلى جانب الحلفاء . ففي حالة السكوت يكون نصيب البلاد العربية ــ إذا ما انتصرت الدول الوسطى حليفات الترك ــ فقدان قوميتها والإنصهار في البوتقة التركية حسبما رسم الاتحاديون . وباعتبار أن الترك لم يكونوا سوى دمية في أيدي الألمان يفرضون عليهم ما يريدون ، ولا سيما أن لألمانيا ــ كما رأينا ــ أطماعاً في بلادنا ، وبخاصة منها العراق التي وضعت فيها إسفينها الاقتصادي « سكة حديد بغداد » ، فانتصار الدول الوسطى معناه حلول الألمان في العراق واستعماره ، ثم الامتداد إلى غيره من الأقطار العربية . أما إذا انتصر الحلفاء فإنهم سيعدون العرب أعداء لهم ، ويعتبرون بلادهم غنيمة حرب فيقتسمونها . فالسكوت أو الانحياز إلى جانب الدول الوسطى مغبته الخسرانِ المؤكدِ ، سواء أكتب النصر لتلك الدول أم للحلفاء . في حين أن خطة الثورة على الترك في جانب الحلفاء تكون مغبتها المرتقبة ــ إذا انتصر الترك ودول الوسط ــ أن يؤول مصير البلاد العربية إلى ما ذكرناه نفسه في حالة السكوت والبقاء بجانب الترك ، أي الاستتراك أو الخضوع للاستعمار الألماني ، وأما إذا انتصر الحلفاء فإلى استقلال نجد والحجاز واليمن ، وقد تستقل سورية

---

(٧٤) المصدر السابق ، ج١ ، ص٦٤ ــ ٦٥ .

والعراق . إما إذا حيل ـــ في أسوأ الأحوال ـــ بينهما وبين أمنيتهما تلك فإن سكانهما يحتفظون ، على كل حال ، بقوميتهم ولغتهم ويناضلون في سبيل الاستقلال . ولم يُغفِل زعماء العرب القوميون ، في ذلك الحين ، مناقشة الأمور بهذا المنطق حينما اتخذوا قرار الشروع في الثورة ، فأجمعت آراؤهم على أن الترك قد جروهم إلى الثورة جراً ، وأن الثورة عليهم أمست أمراً لا بد منه ولا معدي عنه(٧٥) .

ومع أن معظم الذين عارضوا الثورة لم يكونوا من المنكرين على العرب سعيهم إلى تعزيز كيانهم القومي ولغتهم ، إلا أنهم شجبوا الطريقة التي اتخذها القوميون للوصول إلى هذه الغاية . وسأكتفي هنا بإيراد رأي زعيمين من زعماء هؤلاء ، أولهم الشريف علي حيدر ، والثاني الأمير شكيب أرسلان ، النائب في مجلس المبعوثان عن منطقة حوران .

فالشريف علي حيدر ، مع كرهه للتحالف مع ألمانيا ، ووجوب إقامة علاقات طيبة مع إنكلترا ، ومع اشمئزازه من غطرسة الاتحاديين ، ومن مبالغتهم في الطموح السياسي وبَهْرَجِ الحكم ، وتكالبهم على السيطرة وتقديمهم الأغراض الشخصية على المصلحة العامة ، لم يكن ممن يرون بتر الصلات القائمة بين العرب والدولة العثمانية . كان يؤمن إيماناً صادقاً بأن ازدهار البلاد العربية ليس ممكناً إلا إذا بقيت تدور في فلك سلطنة عثمانية متنورة ، مع ضرورة قيام المساواة السياسية بين الترك والعرب . والشكل الذي كان يتطلع إليه ، لعلاقة العرب بالترك ، هو قيام إمبراطورية كبيرة تضم دولاً ذات استقلال داخلي فعلي ، مرتبطة بسلطة الخليفة ، على غرار الارتباط الذي يشد مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية إلى التاج البريطاني(٧٦) . وكان يؤمن بهذا الرأي فريق من منوري الترك أنفسهم ، وحتى بعض القوميين منهم ، وإن كانوا أقلية مثل يوسف بك آقجوره ، والكاتبة الشهيرة خالدة أديب التي كرست قصتها « يكي طوران » (طوران الجديدة) لتعزيز هذا الرأي(٧٧) ، وغني عن القول أن حزب الحرية والائتلاف التركي المعارض الذي تزعمه البرنس صباح الدين كان مؤيداً لهذه الفكرة(٧٨) .

كان الشريف علي حيدر يعتقد أن زعماء تركيا الفتاة قد فتحوا صفحة جديدة في تاريخ الأمة العثمانية ، وأن كل شيء سيستقيم في أوانه ، ويناشد الثائرين على الدولة بقوله ألاّ يحاولوا الانشقاق عن

---

(٧٥) الأمير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص١١١ ـــ ١١٢ .

(٧٦) G. STITT, Ibid. pp. 141, 156.

(٧٧) خالد أديب ، يكي طوران (يني طوران) ، ص٤٢ ـــ ٤٣ .

(٧٨) راجع كتابي السابق « العرب والترك في العهد الدستوري العثماني » ص٥٤ ـــ ٥٨ ، ٣٠١ ـــ ٣٠٦ .

السلطنة العثمانية في هذا الظرف، الذي يمور العالم فيه في فورة من الاضطراب، ويحذر من سفك الدماء دون طائل، ويقول «إن لدينا الآنَ حياة برلمانية، وإذا قُدر لهذا النظام أن يدوم فباستطاعتكم أن تفصحوا عن جميع رغباتكم، فتحققوا المعنى الحقيقي للحياة البرلمانية. ومن خلال البرلمان تستطيعون أن تنالوا المساواة التي تتوق إليها نفوسكم، وهكذا يمكن جعل اللغة العربية لغة التدريس في الأمكنة التي تقطنها أكثرية عربية، ويستطيع العرب أن يحصلوا على حقهم في الاضطلاع بالخدمات العامة، على قدم المساواة مع الترك، وأن يكون لهم أسطول يجوب شواطىء شبه الجزيرة العربية، يقوم عليه العرب أنفسهم، مع التبعية للسلطان العثماني، وبهذا الشكل يمكن حماية البلاد من الاعتداءات الخارجية. كما يمكن جعل بغداد عاصمة ثانية للسلطنة يقيم فيها السلطان لمدة محدودة في أيام معينة من كل سنة. وبتأمين التنمية العامة لبلادنا نستطيع أن نبرهن للعالم كيف يستطيع المسلمون أن يساهموا في الحضارة العالمية. إن جميع الولايات العربية تستطيع التطور وفقاً لخصائصها القومية ...»[٧٩]. ولا بد لي من التعليق على هذا القول بأنه أقرب إلى الخيال منه إلى واقع تصور الاتحاديين لما يمكن أن يُقروا به للعرب.

أما الأمير شكيب أرسلان فقد كان أشد وطأة على الشريف حسين وثورته، يحركه اعتقاد مماثل بأن الاتحاديين سوف لا يغمطون العرب حقهم في الحياة القومية بعد الحرب، ويرى أن الثورة على الترك جناية قومية لا تُعادِلَها جناية. لقد وجه الأمير على صفحات جريدة «الشرق» الرسمية كتاباً مطولاً مفتوحاً إلى الشريف علي نجل الشريف حسين بدأه بالحديث الشريف «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، ثم يسأله «فما قولك بالمؤمن يلدغ ألف مرة. ما ظنك بالمؤمن ابن المؤمن، والشريف ابن الشريف ... يلدغ من جحر قد سبق أن لدغ غيره من المؤمنين منه.. مراراً يضيع عندها الحساب..». وهو في هذا الكتاب يحذر الشريف وينبهه إلى حبائل الإنكليز، وكم أوقعوا فيها من زعماء قبله. ويذكره كيف وعد الإنكليز بإخلاء مصر، ثم بدؤوا يلتهمونها تدريجياً، دون أدنى مبالاة بعهود خطية، ويلومه على المعاهدة التي عقدها معهم(*). كما يذكره بما صنعوه في الهند وزنجبار وجنوبي اليمن ومسقط والبحرين والكويت ... ثم يخاطب الأمير بقوله «وإلى كم أيها الأمير، تمر بنا المثلات ولا نعتبر، وتعظمنا الحوادث ولا نذكر؟ ونكون أشبه بالغنم يأخذها الجزار للذبح واحدة بعد واحدة، وهي لا تعقل ماذا يفعل بها حتى تصير السكين في أعناقها»، ويقرعه لأنه يريد بناء دولة

---

(٧٩) G. STITT, Ibid. pp. 156-157.

(*) يظهر أن الكتاب موجه إلى الشريف حسين لا إلى نجله علي كما يذكر ناقله (البكاسيني).

عربية تبدأ أول أمرها بالنشوء تحت حماية إنكلترا . ثم يغمز من جانب زعماء العرب القوميين محذراً إياه منهم ، قائلاً بأنهم هم الذين يزينون له هذه الأوهام ، ويصفهم بأنهم قوم لا أخلاق لهم ، وقد ابتلى الله بهم هذه الأمة ، وأنهم ليسوا في واقع الحال سوى سماسرة للإنكليز ، يتقاضون منها مبالغ سرية ثمناً لصفقة البلاد العربية . ويضيف قوله « قل لهؤلاء القائمين بالدعوة العربية ، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذ ثأرتها ، ماذا إلى اليوم أمنوا من حقوق العرب بقيامهم ؟ » ويسأله « قد استولى الإنكليز على العراق العربي ، فهل سلموكم شبراً واحداً من أرض العراق ؟ ... لقد دخلوا فلسطين من ستة أشهر فهل قالوا هو ذا فلسطين لكم أيها العرب ... ؟ بل كان قصارى أمرهم ، بمجرد دخولهم القدس أن صرحوا على لسان المستر بلفور ... بأنهم سيتركون فلسطين لليهود ... وباشروا بتهيئة معدات دولة مستقلة يهودية ... أفهذه باكورة مساعدة أصحابكم الإنكليز للأمة العربية ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ » . ويختم كتابه بإنحاء اللائمة عليه ، لأنه يقاتل بعربانه أخوانه العرب ، ويسفك الدم العربي بأيد عربية ، ويذكره بأنه كان من الواجب عليه أن يلتزم الحياد ، ثم يعلمه بتصميم الدولة العثمانية على عدم ترك سورية للإنكليز ما دامت على قيد الحياة[٨٠] .

صدى الثورة في البلاد الاسلامية والعربية

لم تكد أنباء الثورة تصل إلى أسماع المسلمين في مختلف أنحاء العالم حتى استاء منها أكثرهم ، واعتبروها طعنة نجلاء في ظهر الدولة العثمانية ، التي اعتبروها حصن الإسلام ودرعه الواقي ، موجهة إليها من شخص كان المنتظر منه أن يكون في رأس المجاهدين ، وذلك بالرغم من أن الحكومة البريطانية التي تحتل جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي قد حرصت ــ بمختلف وسائل الدعاية ــ على أن تظهر حركته بأنها ترمي إلى تأييد الإسلام ، لأن دولة الاتحاديين خرجت عن مبادىء هذا الدين[٨١] ، وهذا ما ألح عليه منشور الحسين الأول الذي أذاعه في ١٩١٦/٦/٢٦ . وقد علل فيه سبب قيامه على الترك ودعا فيه الشعب العربي إلى شد أزر الثورة ، والأنضواء تحت علمها ، بوصفها ثورة قومية غايتها تحريرهم من النير التركي ، الذي استحكم في أعناقهم طيلة أربعة قرون ، وإحياء أمجاد الدولة العربية التي قضي عليها الفتح العثماني[٨٢] . وقد حرص الحسين في المنشور إلى توجيه

---

(٨٠) لطف الله نصر البكاسيني ، المصدر السابق ، ص٥١٢ ــ ٥٢١ نقلاً عن جريدة الشرق .

(٨١) أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق .

(٨٢) أمين سعيد ، ثورات العرب في القرن العشرين ، ص٤٦ .

أنظار العالم الإسلامي إلى اتهامات جمة ألصقها بالاتحاديين، منها انحرافهم عن صراط الدين، وطعنهم في الإسلام، وتجرؤهم على السيرة النبوية والخلفاء الراشدين، وتقويضهم أركان السلطنة، وضياع أراضيها بخوضهم الحروب وخاصة الحرب الأوروبية الأخيرة، التي لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ووقوفهم بالدولة موقف الهلكة، واضطرارهم أهل البلاد — بسبب سياستهم الرعناء — إلى بيع أمتعتهم وحتى أبواب بيوتهم وأخشاب سقوفها للحصول على ما يسد الرمق، وإصدارهم الأوامر للجنود في مكة بجعل الصلاة والصوم اختياريين، وهدمهم بذلك ركنين من أركان الإسلام، وسلبهم ما للسلطان من حق التصرف والحكم الشرعي، واضطهادهم للعرب ومحاولتهم القضاء على لغتهم القومية(٨٣)، وعلى منوريهم بتعليق معظمهم على أعواد المشانق، وإجلاء فريق كبير من العرب عن أوطانهم، وإرسال كتائب وأسلحة كثيرة إلى الحجاز، بينما هو ليس بحاجة إلى ذلك. ثم أخذ يهون من شأن حركته بالنسبة للأتراك، حتى يلطف الوقع الناشيء عن ثورته، فقال إنه دعا الأتراك في معاقلهم للتسليم ومن سلم منهم سلم بنفسه، وانه لا يبغي سفك الدماء بل إن الترك هم الذين ارتكبوا الفظائع، بضربهم البيت العتيق بقنبلتين من قنابل مدافعهم وقعتا على مقربة من الحجر الأسود، والتهمتا بنارهما أستار الكعبة، وبضربهم بقنبلة ثالثة مقام إبراهيم مما يدل على استخفاف وازدراء بالكعبة وعظمتها(٨٤). وانتهى إلى أن علاقة العرب بالدولة العثمانية يجب أن تنتهي بالاستقلال التام، وأخذ ينفي خضوع بلاده للسيطرة الأجنبية، ليقاوم بذلك دعاية أخرى، بثها الأتراك، تقول بأن حركة الشريف هي بتحريض الإنكليز، ووعد العالم الإسلامي بأن يقيم الحقوق ويرعى الذمم، كما وعد بإدخال مظاهر التقدم والرقي الحديث في البلاد العربية التي ينوي إعلان استقلالها، ودعا المسلمين كافة لتأييد حركته(٨٥).

أعد الشريف منشوره بعد شهر تقريباً من إعلان الثورة (١٢ رمضان) لينشر في الجرائد المصرية، بعد أن يؤخذ رأي المعتمد البريطاني في مصر في طريقة نشره في جميع أنحاء الجزيرة «مراعاة للوداد، وحسن الطوية» ولم ينس أن يؤكد أن «الزيادة والنقص غير ممكنة وإنما يمكن جعلها بصفة ملحق». وقد ظن الحسين أن الإنكليز لا يعارضون في نشره، لكنه فوجيء يوم ١٦ رمضان ببرقية

(٨٣) A. MANDELSTAM, Le Sort De L'Empire Ottoman pp. 360 ; جريدة الأيام، الوثائق والمعاهدات ص٢٦ — ٣٤.

(٨٤) ناجي علوش، المصدر السابق، ص١٨٦؛ أسعد داغر، ثورة العرب، ص١٩٨ — ٢٠٣.

(٨٥) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، المصدر السابق.

من مندوبه تنبئه باعتراض «نائب الملك» على ما جاء فيه عن ضرب الكعبة المقدسة وإحراق الستارة، اعتقاداً منه أن هذه العبارة تغيظ القسم الأعظم من مسلمي الهند، بسبب تأثير الاتحاديين المعنوي عليهم، وأن أول ما سيبدر عنهم قولهم أن لا سبب لضرب الكعبة سوى ثورة الشريف. وبالرغم من اعتراض الحسين على هذا الزعم بأن الكعبة ليست ملكاً للعرب بل للمسلمين عامة، وموالاته الكتابة والأخذ والرد بينه وبين مندوبه في القاهرة، والتوسط لدى الإنكليز في ذلك، ووعدهم أخيراً بأنهم سينشرونه كاملاً نشروه في نهاية الأمر ــ ولكن بعد أن تناوله قلم المراقبة البريطاني تعديلاً واختصاراً ــ في ١٩١٦/٨/٣٠، أي بعد أكثر من شهرين ونصف من قيام الثورة[٨٦].

لم تكن قيمة المنشور في ما سرده من مسوغات للثورة، وإنما في استنفاره المسلمين للانتقاض على تركيا، فكان بذلك المعول الذي هدم فكرة الجهاد التي أستند عليها السلطان. غير أن المنشور لم يأت بالنتائج المرجوة، لأن الشك بنيات الإنكليز كان عاماً، وبخاصة في البلاد التي قاست من حكمهم واستعمارهم، وكان القلق على سلامة الأماكن المقدسة يشغل أذهان سكانها المسلمين، فانعقد اجتماع في «لكناو» بالهند أيد المسلمون فيه الخليفة العثماني، ونددوا بعمل الشريف جهاراً بعبارات صارخة. وفي مصر والسودان استمر شعور الناس ــ عدا قلة منهم يمثلهم الشاعر على الغاياتي ــ مع الدولة العثمانية، ونظر سكانهما إلى حركة الشريف على أنها عمل ينم عن الخيانة، وأنها طعنة نجلاء للإسلام ودولته، واستقبلتها النفوس بالامتعاض، وحاول قسم منهم التهوين من شأنها، لكن الرقابة المشددة المفروضة على الصحف حالت دون أي تهجم علني عليها. أما الجاليات السورية والعراقية في مصر فقد تلقت أنباء الثورة بحماسة عظيمة وشاملة، وأشادت بها، وكرست لها الصفحات الأولى من الصحف التي كان للسوريين حينذاك نفوذ كبير عليها سواء في مصر أو في السودان[٨٧].

أثر الثورة في أمارات شبه الجزيرة العربية

إذا استثنينا إمارتي حائل، التي يحكمها ابن الرشيد الميال للأتراك، واليمن التي يحكمها الإمام

---

(٨٦) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢٨٥ ــ ٢٨٧.

(٨٧) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٠٢ ــ ٣٠٥، CORRESPONDECE D'ORIENT, 25/4/917, p. 230, 10/9/917, p. 138.

يحيى حميد الدين ، الذي كان معاهداً للأتراك ، ولم يشأ أن ينقض اتفاقه معهم ـــ بالرغم من قطعهم الإعانة المنصوص عنها في معاهدة ١٩١١ ، بأن يؤدوها له ولقبائله (حاشد وباقل) ، بسبب انقطاع الصلة بينهم وبين منطقته ، بل بقي موالياً لهم ، ولم يشأ لأسباب تمت إلى سلامته بصلة حتى أن يقبل العرض الذي قدموه إليه بتخليهم عن صنعاء له[*] ، يحكمها بصورة مستقلة والانسحاب إلى تعز التي اقترحوا بأن يجعلوها مقراً لفرقتهم العسكرية[٨٨] ـــ فإن بقية الأمارات العربية في شبه الجزيرة ، وكان بينها وبين الإنكليز معاهدات ، قد تلقت الثورة العربية ، بوجه عام ، تلقياً حسناً .

غير أن إمارة نجد السعودية كان لها وضع خاص من الثورة العربية . ذلك أن أميرها عبد العزيز بن سعود ، الذي عقد مع الإنكليز معاهدة القطيف ، كان عليه أن يكون مع الثورة ، ولم يكتم ذلك حتى عن الأتراك في بادىء الأمر . يتضح ذلك من الكتاب الذي بعث به جواباً على رسالة تلقاها من والي الحجاز العثماني ، غالب باشا ، الذي نمي إليه ما دار بين الشريف حسين ورجال الحكومة البريطانية من مفاوضات سرية وقد جاء فيها « إنك تعلم بأعمال الشريف ، وأنا الآن أزيدك علماً أنه يفاوض الإنكليز ، وهو على وشك أن يخون الدولة ويفتح لأعدائها الحرمين ، فإذا قدمت إلى الحجاز أسلمك الحرم وأساعدك بكل ما لدي من قوة » . فأجابه ابن سعود بقوله « إني والشريف حسين يد واحدة »[٨٩] .

بيد أن ابن سعود لم يلبث أن شعر بما يهدد نفوذه في منطقته ، ذلك أن الشريف حسين قد خطا خطوة جريئة أثارت ضده أمير نجد ، حينما أعلن نفسه ملكاً على العرب ، دون سابق تفاهم على ذلك معه ، أو مع غيره من أمراء شبه الجزيرة العربية ، أو مع حلفائه الإنكليز والفرنسيين . فقد جاء إليه (إلى الحسين) في ذلك نجله الأمير عبد الله ـــ الذي استقرت في ذهنه فكرة إعلان استقلال البلاد العربية والبيعة لوالده ملكاً عليها ، لأن الترك في ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى رجال الثورة على أنهم عصاة خارجون ، والحلفاء ينظرون إليهم كثوار لا أقل ولا أكثر ـــ وأفهمه أن هيئة الوزارة مصرة على إعلان الاستقلال والمناداة بملكيته على العرب ، فتظاهر بالرفض فانحنى الأمير يقبل ركبته ، ويتوسل إليه بالقبول ، وإلا فإن الوزارة ستستقيل ، فأعلن قبوله وأخذت له البيعة العامة[٩٠] في ١ محرم

(*) كان الأتراك مستعدين أن يتخلوا للإمام عن جميع أراضي اليمن يحكمها بصورة مستقلة لولا أن الألمان منعوهم من ذلك بداعي أنها تكون عند ذلك لقمة سائغة للإنكليز .

(٨٨) COLONEL JACOB, Ibid. pp. 158-160.

(٨٩) حسين خلف الشيخ خزعل ، المصدر السابق ، ص٦١ ـــ ٦٢ .

(٩٠) مذكرات الملك عبد الله ، ص١٢٩ ـــ ١٣٠ .

١٣٣٥/٢٨/١٩١٦/١٠ ، واشتركت في المبايعة وفود من مختلف البلاد العربية كانت في مكة بمناسبة موسم الحج .

اعتقد الشريف حسين أن الصفقة التي تمت بينه وبين الإنكليز ــ على ما فيها من ثغرات تركها الفريقان للزمن ــ تخوله إنشاء المملكة العربية التي كانت تدور في مخيلته ، لا سيما وأنه كان يثق ببريطانيا ثقة لا حد لها ، وكلمة منها كافية لإطمئنانه ، فكيف إذا كانت هذه الكلمة مؤيدة بتحارير رسمية من رجال رسميين ؟ وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن بريطانيا ، بما يعهده فيها من عدل وشرف وصدق الوعود ، ستساعده بكل قوتها على تكوين هذه المملكة كما يفهمها[٩١] ، وإن كانت مراسلاته مع الإنكليز لم توضح هذه الناحية التي بقيت غامضة . صحيح أنهم قيدوه بإحترام الاتفاقيات التي بينهم وبين بعض أمراء العرب ، لكنه اعتقد ــ على ما يظهر ــ بأن الدولة التي يريد إنشاءها ، ويكون هو بطبيعة الحال ملكاً عليها ، لا تتعارض مع هذه القيود . إذ يكفي أن يعترف بوجود الأمراء الآخرين ، وبمحالفتهم مع إنكلترا ، مع بقائهم تابعين لتاج دولته الجديدة[٩٢] ، كي يحترموا إرادته ويعترفوا بملكيته للعرب ، كما يتضح من الوثيقة المؤرخة في ١٧ صفر ١٣٣٧ هـ/١٩١٨/١١/٢٢ م ، المنشورة في كتاب حافظ وهبه « جزيرة العرب في القرن العشرين » (ص ٣٢٧) بعنوان « مشروع الوحدة العربية » حسبما كان يفهمها الملك حسين ، والتي تضمنت بضع عشرة مادة اعتبرها الشريف حسين « دستوراً للأمراء كافة » ، وقد جاء فيها ما يمكن تلخيصه بأن تتكون حكومة مركزية (هو رئيسها) ، تمارس الشؤون العامة للدولة العربية ، بما فيها علاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى ، ويقع على عاتقها ــ باعتبارها تمارس القوة العسكرية ــ عبء الدفاع عن مجموع الدولة ، على أن يحتفظ كل أمير بمنطقته ، ويكون مسؤولاً تجاه الحكومة المركزية عن إدارتها . وقد نصت صراحة على خطر مخابرة أي أمير من الأمراء التابعين له مع أي دولة أجنبية « لا يحق لأمير نجد أن يخابر أي دولة كانت في أي مسألة كانت بأي شكل وصورة ، وهذه أيضاً من حقوق المركز وعائدة له ... » ، وعلى ضرورة حل « الزمرة الموسومة بالأخوان الحادثة من سنتين ، والتي هي عبارة عن معسكرات .. ، ويكون للإدريسي منطقة صبيا المعروفة من زمن الترك ، وللإمام يحيى ما كان له من الأراضي قبلا ، أما عنيزة والقصيم أي بريدة وملحقاتها فيكون لها الخيار في انتخاب ابن سعود أو ابن الرشيد للالتحاق به أو يكونون مستقلين في أنفسهم ... » .

---

(٩١) حافظ وهبه ، المصدر السابق ، ص١٧٠ ؛ محمد عزة دروزة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٦ــ٥٧ ، مسز ستورث أرسكين ، المصدر السابق ، ص٦٤ ، من حديث للملك فيصل .

(٩٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، المصدر السابق .

وانطلاقاً من هذه النظرية لم يستطع الحسين أن يقبل باحتلال الإدريسي للقنفذة ١٠/٧/١٩١٦، وأسره لحاميتها التركية، ورفع الراية الإدريسية عليها. لأنه لم يكن ينظر بارتياح إلى اتساع رقعة هذه الإمارة في العسير أو غيرها من الأمارات، ويعتقد بأن القنفذة حجازية، وأن الإدريسي معتد عليها. فأبرق إلى مندوبه في مصر متذمراً وطالباً منه أن يتوسط لدى الإنكليز في حمل الإدريسي على الجلاء عنها. ولكن الشريف كان في واد والإنكليز في واد آخر. إذ كانت «رغبة بريطانيا العظمى في استيلاء الإدريسي على ولاية العسير عموماً». فعندما أبلغه مندوبه بأن لا يتأثر للحادث، لأن «الأحوال الحاضرة تجبرنا على السكوت»، بادر إلى إرسال برقية مستعجلة، إلى المعتمد البريطاني في مصر، يشكو ما صادفه من معاملة دولته في حادث القنفذة، مما لم يكن يتصور أن يصادفه، لأن الحادثة «متعلقة بروح المسألة رأساً ويتأثر منها جوهر الكيان... لا سيما عكس تأثيراتها في أمهات المواد والتشبثات...»[٩٣]، وكأنه يريد أن يقول إن حادث القنفذة ليس إلا خرقاً لاتفاقيات الحسين ــ مكماهون، والوقوف في وجه استتمام حدود الدولة العربية المستقلة بكامل حدودها. ولولا تشدد الحسين لما سلم الإنكليز بإرجاعها إليه.

على أثر إتمام البيعة للشريف أذاع الأمير عبد اللّٰه، بصفته وزيراً للخارجية، بلاغاً على وزراء خارجية الدول الحليفة بما تم، وأبرق به إلى مندوب الشريف في مصر، لإيصاله إلى ذوي العلاقة، فلم يكن من قلم المراقبة الإنكليزي إلا أن حجز البرقية عنده خمسة أيام، ثم اضطر إلى إطلاعه عليها بعد أن علم بخبرها من مصدر غير رسمي. ولما أبلغ مندوب الشريف المعتمد البريطاني مضمون البرقية، اقتضى الأمر أن يتريث الإنكليز في اتخاذ ما يجب من تصرف لمواجهة هذا الحدث غير المنتظر، وانصرف اهتمامهم إلى دراسة ما سيكون وقع خبره على العالمين العربي والإسلامي، وكيفية تلقيهما هذا النبأ»[٩٤].

لقد اعتبر الحلفاء الخطوة التي قام بها الشريف عملا قد أُخطيء اختيار الوقت لإعلانه، ورأوا أن الاعتراف بملكيته على العرب من شأنه أن يخلق تعقيدات لا حصر لها، بين أمراء العرب، الذين سيعتبرون خطوة الشريف افتئاتاً على حقوقهم، مما يؤدي إلى وقوع الشقاق والإنقسام في صفوفهم، ويحول في المستقبل دون تسوية شؤون شبه الجزيرة العربية تسوية مرضية، فأمسك الحلفاء عن الاعتراف به ملكاً على العرب مدة من الزمن، ثم وجدوا لأنفسهم مخرجاً بأن اعترفوا به رئيساً

(٩٣) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢٩١ ــ ٢٩٢.

(٩٤) المصدر السابق، ص٢٩٤.

للشعوب العربية الثائرة على الترك، وملكاً شرعياً وفعلياً على الحجاز، وأبلغوه ذلك في ١٩١٧/١/٣ في مذكرتين متماثلتين إنكليزية وفرنسية[٩٥].

خلال الفترة التي مرت، بين إعلان بيعته والاعتراف به ملكاً على الحجاز، كان الحسين يذيع النبأ على ملأ الناس، ويتصرف تصرف ملك للعرب، ويعامل أمراء العرب معاملة الأتباع[٩٦]. كان يتلقى مساعدات الإنكليز المالية والحربية ليستخدمها في تجنيد العرب واستمالة أمرائهم، فأخذ يرسل الهدايا إليهم وفي جملتهم ابن سعود، ويتعالى عليهم. كان يذهب رسوله بالهدايا لابن سعود ويقول له «هذه من جلالة الملك» دون أن يرفقها بكتاب منه. وتكرر هذا العمل فساور أمير نجد الشك في هذا السلوك، فأرسل إليه وفداً برآسة أخيه محمد بن عبد الرحمن، ومعه كتاب يقول فيه «يا حضرة والدنا إننا وإياك في هذه الحرب وثمرتها لنا ولك، فقد مشت عرباننا وعشائرنا عملا بأوامرنا لمساعدتكم، وإني مستعد أن أُرسل إليك أحد أخوتي وأولادي ليحارب مع أولادكم...

«قد يكون حدث بيننا وبينكم سوء تفاهم في الماضي، فلا بد إذن من التفاهم والتأمينات، وذلك بأن تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك، وتتضاعف من أهل نجد المساعدات». فلما استلم الحسين هذا الكتاب استاء منه استياء شديداً، وأرغى وأزبد وزمجر، في جريدة القبلة، وكتب إلى ابن سعود جواباً ملؤه الوعيد والتهديد جاء فيه «إما إنك سكران يا ابن السعود وإما إنك مجنون، أفلا تعلم لأي أمر قمنا وأي غرض نبغي؟»[٩٧]. عندئذ لم يسع ابن سعود ــ وقد وجب عليه أن يستدرك الأمر ويضع النقاط على الحروف لصيانة إمارته، بعد أن انكشف له ما كان خافياً عليه من نيات الحسين ــ إلا الاحتجاج على هذه الإهانة، وأنذر إنكلترا بأن هذه الحالة ستضطره لقتال الحسين، الذي شعر بأنه يضمر له ولبلاده السوء، فبادر الإنكليز إلى الحيلولة دون إقتتال حليفيها في ساعاتها الحرجة[٩٨]، واتصلوا بالشريف حسين وأعلموه بما ارتبطوا به مع أمير نجد، وبأنهم لا يستطيعون الاعتراف به ملكاً على العرب، بهذا الإطلاق، خشية التعقيدات التي يحدثها هذا الاعتراف لدى أمراء العرب الآخرين[٩٩]، وأبلغوا الأمير عبد العزيز بن سعود بهذه النتيجة في المقابلة

---

٩٥) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣١١ ــ ٣١٢.

(٩٦) الدكتور محمد عبد الله ماضي، النهضات الحديثة في جزيرة العرب، ص١٤٣.

(٩٧) حسين خلف الشيخ خزعل، المصدر السابق، ص٦٢، أمين الريحاني، نجد الحديث، ص٢٣٦.

(٩٨) حافظ وهبه، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٩٩) الدكتور محمد عبد الله ماضي، المصدر السابق، ص١٤٥.

التي جرت في العقير بينه وبين السير برسي كوكس، وكان ابن سعود قد طلب مقابلة مستعجلة معه تظاهر بأن القصد منها البحث في الوسائل التي تمكنه من مهاجمة ابن الرشيد، إنما الذي قصد إليه في الحقيقة هو استجلاء موقف بريطانيا من الشريف حسين، وكانت علاقاته هو معها حينذاك باردة بسبب موقفه موقف الجمود من الترك. كما كان وضعه حرجاً بين مختلف الأعداء المحيطين به: عشائر العجمان الملتجئة إلى الكويت، وعدوه القريب ابن الرشيد، ومنافسه الخطير الحسين، وكان الصدام بينه وبين كل من هؤلاء متوقعاً في كل آونة[100]. وقد أطلع الأمير ابن سعود السير برسي كوكس، في أثناء المقابلة، على الكتاب الذي تلقاه من الشريف حسين، فأظهر استياءه عندما وقف على فحواه، وقال «لاتكترث به نحن ضامنون لك استقلالك، ونحن نتعهد بأن لا يعتدي عليك الشريف أو غيره، وأنت تعلم أن أية حركة على الشريف اليوم هي علينا، وفيها مساعدة لأعدائنا وأعدائك». وقد ألح عليه السير برسي كوكس بأن يقطع له وعداً جازماً بألاّ يكون بينه وبين الشريف أي صدام، فوعده بذلك ضمن شرطين: أولاً ألا يتدخل الشريف بشؤون نجد، وثانياً بألاّ يتكلم باسم العرب، ويدعو نفسه ملكهم فوعده بهما، ودعاه إلى حضور المؤتمر الذي سيعقد لأمراء العرب في الكويت قريباً فلبي دعوته[101].

مؤتمر الكويت

في خلال الفترة التي مرت بين نهاية مفاوضات الحسين ــ مكماهون وإعلان الثورة، تلك الفترة التي دامت أربعة أشهر، كانت الحكومة البريطانية تعاني مصاعب حربية كثيرة: فشلها في معركة سلمان باك في العراق، واضطرارها إلى التراجع إلى «كوت الإمارة» حيث حوصرت قواتها مدة طويلة، وفشلها في اقتحام المضائق، فخشيت أن تطول مدة الحرب وتتوالى انكساراتها أمام الترك، الأمر الذي دفعها إلى حث الشريف على الإسراع بإعلان الثورة، وقد أظهر الشريف بعض التردد في بادىء الأمر، خشية من خذلان أمراء العرب لثورته، ولا سيما الأمير ابن سعود، فطمأنته إلى أن هؤلاء لا يتأخرون عن تأييده، وانها تضمن له حياد ابن سعود تجاهه. وعلى هذا الأساس قررت بعد أن أعلن الشريف ثورته ــ عقد مؤتمر يضم أمراء العرب، لتثق من حسن نواياهم نحوها، وتحثهم على شد أزر الشريف وتأييد ثورته، فوجه السير برسي كوكس، في نهاية عام ١٩١٦، دعوة إلى ابن

---

(١٠٠) عبد اللّه فيلبي، المصدر السابق، ص٣١٩ ــ ٣٢٠.

(١٠١) حسين خلف الشيخ خزعل، المصدر السابق، ص٦٢.

سعود وإلى الشيخ خزعل أمير المحمرة العربي (عربستان)، وإلى الشيخ جابر الصباح أمير الكويت الجديد، وإلى ما ينوف عن مئة من رؤساء العشائر العربية، وضرب لهم موعداً في الكويت بتاريخ ٢٣/١١/١٩١٦، فانعقد المؤتمر في الوقت المعين[١٠٢]. وافتتحه السير برسي كوكس بكلمة أظهر فيها حسن نوايا حكومته تجاه العرب، ورغبتها في استعادتهم لمجدهم الغابر، وحرصها على جمع كلمتهم ليكونوا كتلة قوية تستطيع صد أي اعتداء خارجي يقع على بلادهم. ثم وجه خطابه إلى الأمير ابن سعود مستحثاً إياه على مساعدة الحلفاء. ثم تطرق إلى موضوع الخلافة الإسلامية ووجوب انتقالها إلى العرب، آخذاً المجاملة سبيلاً إلى غرضه، فعرض عليه منصب الخلافة التي يستحسن جلالة ملك بريطانيا اسنادها إليه، ويساعده في تحقيقها فأجاب أمير نجد على خطاب برسي كوكس بكلمة أيّد فيها نظرية الاتحاد العربي، ثم أشار إلى عداوته الصريحة للأتراك، وعزمه على مطاردتهم ولو بقي وحده، لأنه لم ينس ما نال أسلافه على يدهم من شناعة القتل والتمثيل، وما تعانيه الأمة العربية من دأبهم على تفكيك عُرى وحدتها وعلى إضعافها، وعاهد الحكومة البريطانية الساعية إلى لم شعث الأمة العربية وتقوية أمرائها «بألاّ يأتيها ضرر منه، ما دامت المعاهدة التي بينه وبينها مرعية الجانب» وألاّ ينضم إلى أي حلف عربي ضدها، مؤكداً أن العرب لا يجتمعون عليها بسوء، إذا لم يكن هو معهم، مبيناً رغبته بأن يجتمع أمر العرب على مساعدة الحلفاء. ثم تطرق إلى موضوع الخلافة قائلاً بأن «لا ذوق له بها»، وأنه لا يرى أجدر بها من الشريف حسين. وقد تلاه الشيخ خزعل بالكلام مؤيداً فكرة إقامة الوحدة العربية، واستعداد العرب لمعاونة الدولة البريطانية. ولم يزد الشيخ جابر الصباح على قوله «إننا عرب فإذا ما اجتمعت كلمة العرب على شيء فإننا له من الطائعين». وانتهت جلسة المؤتمر بتقليد كل من الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ جابر وسام نجمة الهند[١٠٣]. وكانت النتيجة العملية لهذا المؤتمر، والاتصالات أن عقدت، بعد وقت قليل، اتفاقية جديدة بين ابن سعود والإنكليز تقاضى الأول بموجبها منحة شهرية مقدارها خمسة آلاف جنيه بالإضافة إلى أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية وكمية كافية من الذخيرة من أجل الاحتفاظ بقوة قوامها أربعة آلاف رجل تظل مستنفرة لشل حركة ابن الرشيد بصورة دائمة، ومهاجمة عاصمته لمنعه من مهاجمة الشريف حسين[١٠٤].

(١٠٢) المصدر السابق، ص٣٢ ــ ٣٣.

(١٠٣) المصدر السابق، ص١٠٥ ــ ١٠٧.

(١٠٤) عبد الله فيلبي، المصدر السابق، ص٣٢٠.

ولم يبرح السير برسي كوكس عائداً إلى البصرة إلا بعد أن دعا ابن سعود لزيارتها. وقد تمت هذه الزيارة بالفعل، حيث كلفت السلطات البريطانية ضيفها أن يكتب كتاباً إلى عجيمي السعدون، رئيس عشائر المنتفك، الذي كان يساعد الأتراك في مقاومة الزحف البريطاني على العراق، يناشده فيه بأن يكرس جهوده وجهود أتباعه من أجل حرية العرب والمسلمين وتحريرهم من نير الأتراك، فتلقى من عجيمي باشا جواباً سلبياً مبيناً فيه أن موقفه موقف من يسعى لمرضاة الله بالجهاد ضد الكافرين أعداء الله، وإعلاء اسم العرب بحماية أرضهم من أن يدنسها هؤلاء الكافرون، ولم ينس أن يوجه اللوم إلى ابن سعود لعدم موافقته له في رأيه، وكان له أمل كبير بتدينه وحميته العربية، وختم كتابه بقوله «وإذ كانت الحكومة التركية تذب عن حوزة الإسلام فهي عضيدي وعضيد قبائلي، وأنا حقا حاكم مطلق بأمر اللهوأمر الحكومة، وإني مقتنع ومعتقد بأني سائر في الطريق السوي الذي يرضي الله والعرب سيراً مستمراً لا يثنيني عنه شيء...»(١٠٥). وقد أبلغ الشريف حسين نتيجة مؤتمر الكويت فاستحسنه وقوي عزمه به وطلب من الحكومة البريطانية إبلاغ الأمراء شكره وتهانيه، وتبودلت الرسائل الودية بين أمراء العرب وبينه، كما أبرق الحسين إلى أمير نجد بواسطة برسي كوكس يشكره فيها على ما دار في المؤتمر، ويحثه على الاتحاد وجمع الكلمة لوحدة العرب، ويوصيه بمراعاة جيرانه من أمراء شبه الجزيرة والاحسان إليهم وعلى الأخص أمير الكويت. وما إن بلغ الأخير (أمير الكويت) مضمون البرقية بواسطة الإنكليز حتى بادر إلى إجابة السير برسي كوكس ببالغ شكره لبرقية الحسين، منوها بما للشريف من قصد ونوايا هي «خير وصلاح لكافة الأمة العربية والأمة الإسلامية وتقويتها وعلو قدرها» وإن الواجب يقضي على كل من فيه حمية للعرب والاسلام أن يؤيد مسعاه لتقوية الرابطة الشريفة التي هو في صددها(١٠٦).

غير أن الزوبعة التي ثارت، بين الشريف وابن سعود، لم تكد تسكن فترة من الزمن حتى عادت إلى الهبوب من جديد. ذلك أن الشريف كان متشبعاً بفكرة ملكيته على العرب لا يثنيه عنها شيء. وقد امتلأت نفسه آمالاً بأن جميع هذه العقد ستحل بعد انتهاء الحرب لصالحه(١٠٧). وهكذا لم يتوانَ في العمل على نشر نفوذه على حدود نجد المجاورة لحدود منطقته، وبخاصة في واحتي تُربَة والخُرْما، اللتين استمرتا مثار خلاف بين الزعيمين. كان الحسين يعتبرهما تابعتين للحجاز، وأن سكانهما من رعاياه وعليهم أن يظهروا له الولاء والخضوع، بينما كان هؤلاء، الذين اعتنقوا المذهب

(١٠٥) حسين خلف الشيخ خزعل، المصدر السابق، ص١٠٧ـ١٠٨.

(١٠٦) المصدر السابق، ص١٠٩ ـ ١١٢.

(١٠٧) حافظ وهبه، المصدر السابق، ص١٦٦.

الوهابي من قديم، يظهرون الولاء لابن سعود الذي يكاتبهم ويبعث إليهم من يثقفهم بتعاليم المذهب الوهابي. فأخذ الحسين يرسل الحملة تلو الأخرى منذ عام ١٩١٧ لتأديبهم واخضاعهم لحكمه، فيضطرون للدفاع عن أنفسهم والاستنجاد بابن سعود، في وقت كان الإنكليز يطالبون هذا الأمير بشن الحرب على ابن الرشيد، بغية اشغاله وصرفه عن محاولة عرقلة الثورة العربية لحساب الترك. وكان الجواب الطبيعي الذي يتلقونه منه «كيف أستطيع ذلك والشريف يعتدي على رعيتي؟». فكان على الإنكليز أن يقنعوا الشريف بارجاء حل هذه القضية إلى ما بعد الحرب(١٠٨). فدخلوا معه ومع ابن سعود في مفاوضات للتوفيق بينهما، تحاشيا لما يسببه اقتتالهما من عرقلة العمليات الحربية التي هم في صددها في الشرق العربي، وذلك كجزء من خطة عامة اتبعوها.

كان مخطط الإنكليز الحربي في بلاد العرب مرتكزاً على محورين: الأول محور فلسطين الذي اعتبروا قوات الشريف حسين جناحه الأيمن، ومعلوم ان جناحه الأيسر هو جيش الجنرال اللنبي. والمحور الثاني هو جبهة العراق وقد اعتبروا عشائر المحمرة وإيران جناحها الأيمن، وقوات ابن سعود جناحها الأيسر. وأما قلبها المؤلف من الحملة الإنكليزية ــ الهندية فكان يستند على مؤازرة أمراء الخليج العربي(١٠٩). وكان عليهم أن يوفقوا بين مختلف أجنحة هذين المحورين، لأن كل تنافر بينها يفسد عليهم الخطة الحربية التي التزموها، والتي ترمي إلى أحكام نطاق الحصار وتشديده على العدو من الجهات العربية كلها. وقد وجب عليهم ــ للوصول إلى هذه الغاية ــ أن يجعلوا كل أمير من أمراء العرب، الذين يشكلون أجنحة المحورين المذكورين، يستخدم ما لديه من قوى القتال، ويضيفوا ما يمكنهم أن يضيفوه إليها من قواهم. لهذه الغاية أمدوا الشريف بالأسلحة والذخائر والمال، واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فشجعوا فيه بذلك روح الطموح، فأفسدوا على نفسهم إمكانية التوفيق بين مختلف الأجنحة التي اعتمدوا عليها، لأنهم أخلوا التوازن بينها فما لبثوا أن واجهوا مشكلة وجب عليهم أن يبادروا إلى حلها(١١٠). ولم يكن الشريف ليساعدهم على ذلك. فبينما أرسل الإنكليز إلى نجد من يحمل ابن سعود على مقاتلة ابن الرشيد، أرسلوا إلى بغداد من يتصل بالسير برسي كوكس ويبحث معه الوضع العام، فاقترح هذا الاتصال بالرياض، وبذل الجهد لإصلاح ما بين الزعيمين المتخاصمين (ابن سعود والحسين). وبعد مخابرات بين بغداد والقاهرة تقرر إرسال بعثة صغيرة إلى

(١٠٨) الدكتور محمد عبد الله ماضي، المصدر السابق، ص١٤٥ ــ ١٤٦.

(١٠٩) محمد طاهر العمري، المصدر السابق، ص٦٠.

(١١٠) أمين الريحاني، نجد الحديث، ص٢٣٧.

الرياض، يأتي فريق من أعضائها من مصر بطريق الحجاز، وفريق آخر يأتي من العراق إلى الرياض رأساً[111]. لكن الحسين لم يسهل لأعضاء البعثة القادمين من مصر — وبينهم المستر هوغارث — سفرهم إلى نجد، مدعياً أن الأحوال المضطربة في الصحراء لا تساعد على ذلك، لكنه في الحقيقة كان يخشى أن ترجح كفة منافسه ابن سعود، وأن يكون اتفاق الإنكليز مع أمير الرياض مضراً بمصالحه، أو مخلاً باتفاقه معهم، لذلك لم يكن يقبل بأي اتفاق بينهم وبين غيره من امراء الجزيرة إلا إذا تم بواسطته[112]، طبقاً لمخطط دولته الكبرى كما مر معنا. غير أن بعثة المستر برسي كوكس المرسلة من العراق، التي كان من أفرادها المستر فلبي، وصلت إلى الرياض وفاوضت ابن سعود في أمر محاربة ابن الرشيد، وأمر الصلح بينه وبين الحسين، ثم تابع أفرادها سفرهم إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين بعد أن شملها ابن سعود بعنايته، فوصلت دون أي حادث يذكر. لكن محادثاتها مع الشريف لم تسفر عن شيء إيجابي إذ رفض الوفاق مع أمير نجد، وثابر على التدخل في واحتي تُرَبَة والخُرْما، فعادت البعثة إلى الرياض ووجهت جهودها إلى حمل ابن سعود على مهاجمة ابن الرشيد، فأثمرت ثمرتها حين تغلغل عاهل نجد في قلب شمّر، ودمر بعض مراكز عدوه الأمامية، بعد أن استمال قبائل شمر، الذين أبوا الاستجابة إلى دعوة ابن الرشيد إياهم للقتال مع الترك ضد الشريف حسين. وظهر أمام حائل نفسها ثم عاد إلى بريدة حيث أعلمته البعثة أن بريطانيا لم يعد يهمها مصير ابن الرشيد، لأن تركيا قد خرجت من الحرب بهدنة عقدتها مع الحلفاء[113].

صدى الثورة لدى الإنكليز والفرنسيين

من الطبيعي أن تقابل الثورة العربية من قبل الإنكليز والحلفاء بارتياح تام، فما إن نشبت حتى أخذت صحف لندن تشيد بها، وتصف نبأ وقوعها بأنه مدهش، وأنه سيكون له أعظم الوقع في العالم الإسلامي، وتكيل المديح والثناء للشريف حسين، وتتوقع انهيار الحكم التركي في بلاد العرب، وتربط بينها وبين حوادث كربلاء والنجف ضد الأتراك[114]، قبل عام مضى. ثم أخذت إنكلترا تنظم علاقتها بها وكانت قد أحدثت «المكتب العربي» في القاهرة (شباط ١٩١٦) ليقوم بمهمة تتبع الحركات السياسية وجميع المعلومات المتعلقة بالبلاد العربية، والاهتمام بشؤونها، بما يساعد

---

(١١١) عبد الله فيلبي، ص٣٢١ — ٣٢٢.
(١١٢) أمين الريحاني، نجد الحديث، ص٢٣٧ — ٢٣٨.
(١١٣) عبد الله فيلبي، المصدر السابق، ص٣٢٠ — ٣٢٣؛ أمين الريحاني، «نجد الحديث»، ص٢٤٢.
(١١٤) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢٠٨ — ٢٠٩.

على تكييف علاقات بريطانيا بالقضية العربية [115] . وقد اختير موظفوه من الإخصائيين الذين يعرفون هذه البلاد ولغة أهلها معرفة تامة ، وكانوا يعملون برئاسة الجنرال كلايتون ، ومنهم لورنس ، الذي كان لا يزال برتبة نقيب في الجيش الإنكليزي [116] . فأخذ المكتب ، الذي رُبط مباشرة بوزارة الخارجية البريطانية ـــ وقد تولي السير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر ، ثم من بعده خلفه السير ريجنالد ونجت ، مهمة توجيه سياسته العامة وفقاً للخطة التي رسمتها وزارة الخارجية الإنكليزية ـــ في الإشراف على علاقة بريطانيا مع الثورة العربية من الوجهة السياسية . وأما تموين الثورة بالمعدات والذخائر والتجهيزات الحربية فقد عُـهد بها إلى الجنرال مكسويل ، القائد الأعلى لجيش الاحتلال في مصر ، الذي خلفه الجنرال «أرشيبالد موري A. Murray» ، ثم الجنرال اللنبي ، وكان تابعاً لوزارة الحربية . وكانت بعض القطعات الإنكليزية التي أرسلت إلى العقبة لمساعدة الثورة تابعة لقوات السردار حاكم السودان ، وهو في بادئ الأمر السير ريجنالد ونجت ، ثم خلفه في نهاية ١٩١٦ السير «لي ستاك» ، وكان تابعاً لوزارة الحرب أيضاً ويقيم في الخرطوم [117] ، وقد اعتبر قائداً عاماً للعمليات الحربية في الحجاز . غير أن ذلك لم يكن يعني أن من حقه السيطرة على قوات الشريف ، بل أن يقدم للثورة المساعدات البريطانية سواء في مجال الرأي أو صرف المؤن [118] ، فأرسل إلى جدة العقيد ولسن ، وهو أحد أعضاء الإدارة السياسية في السودان ، ليكون معتمداً بريطانياً لدى الشريف ، يسدي له الإرشادات اللازمة ، ويكون وسيطاً بينه وبين السلطات البريطانية في السودان ومصر [119] . كما عهد إلى الأميرال «ويميس Wemyss» ، قائد قوات البحرية البريطانية المقيم في الإسماعيلية ، بمهمة التعاون بواسطة قواته البحرية مع الثورة في عملياتها الحربية ضد الترك . ولا يغرب عن البال أن الحلفاء بصورة عامة ، والإنكليز بصورة خاصة ، قد رحبوا بالثورة لغايتين : أولاهما سياسية ليظهروا لمسلمي مستعمراتهم أن عمل الترك لا يتفق مع المصلحة الإسلامية الكبرى ، وأن الأتراك بتحالفهم مع ألمانيا إنما يخدمون مصالح هذه الدولة أكثر من خدمتهم للمصلحة الإسلامية ، وثانيتهما حربية لإضعاف الترك والألمان وإشغال جيوشهم وحملهم على إرسال ٤٠ ـــ ٥٠ ألف جندي إلى ساحة حرب جديدة غير البلقان وغير الميدان الغربي [120] . لذلك

---

(١١٥) R. ALDINGTON, Ibid. p. 114.

(١١٦) مسز ستورث أرسكين ، المصدر السابق ، ص٧١ .

(١١٧) R. ALDINGTON; Ibid. pp. 110-111.

(١١٨) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣١٠ .

(١١٩) حسين خلف الشيخ خزعل ، المصدر السابق ، ص٥٦ .

(١٢٠) مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص١٠ .

فإنهم وقفوا موقف التحفظ من كل ما كانوا يعتقدون أنه خارج عن هذه الأهداف، أو يعرقل خطتهم التي رسموها للثورة. فقد مر معنا كيف أوكل إلى عزيز المصري القيام بشؤون العمليات الحربية، وبتنظيم الجيش العربي، وكان بما أوكل إليه جديراً، إذ وفق إلى جمع كلمة الضباط حوله، ووضع أساساً صالحاً لنظام جيش قوي، غير أنه لم يكن راضياً عن تسليح الجيش والعقبات التي كانت تقام في سبيل تعزيزه. ولم يكد يمضي على قدومه فترة وجيزة حتى اصطدم مع الإنكليز، ذلك أنه قد ألح على الحسين في أن يطالب هؤلاء بإرسال المدافع التي غنموها من الترك في جبهة سيناء، مبيناً أن بين رجاله من المدفعيين المختصين من يحسنون استعمالها. ولما شعر بمماطلة الإنكليز لم يكتم ضجره، مصرحاً لأصدقائه بأنه يلوح له أن الإنكليز يريدون القضاء على العرب والترك معاً بحيث يُفني بعضُهم بعضاً، فلا هم يرسلون للعرب القوى والمعدات ليضربوا بها الترك ضربة قاضية، ويحتلوا المدينة المنورة، ولا هم يتركونهم لشأنهم فيقضي الترك عليهم قضاء مبرماً[١٢١].

وقيل إنه جمع ضباطه يوماً وأسرَّ إليهم قوله: إن العرب لا يحاربون رغبة بالحرب أو كرهاً بالترك وحباً بالإنكليز، بل لتحرير بلادهم وتأمين استقلالها، ذلك الذي لا يستطاع تأمينه بالقوات التي لدى الثورة، وأن دخول سورية لا يكون بجيش عديم القوة والنظام، وأن من الواجب العمل على تشكيل جيش قوي منظم يستطاع به حفظ الأمن والنظام في البلاد العربية التي يحتلها. فنُقل حديثه إلى الإنكليز مشوهاً (يعتقد عزيز أن نوري السعيد هو الذي نقله)، فدسوا عليه لدى الشريف حسين بانه صرح أن لا خير يُرجى من أشراف مكة، ولا من ثورتهم ما داموا مسيطرين عليها، وأنه يستطيع طرد الترك من سورية في أسابيع إذا تخلت إنكلترا عن الأشراف، وحل هو وأصدقاؤه محلهم في إدارة الثورة، فنجحت الدسيسة في حمل الحسين على الاستغناء عن خدماته[١٢٢].

وقد يكون بدر من عزيز ــ بسبب عدم مرونته السياسية وعدم معرفته فن المداراة ــ بعض تصرفات لم ترق للشريف حسين، ذلك أنه أخذ يجهر بآراء سياسية معينة تتفق مع ما يؤمن به من وجوب بقاء العرب مرتبطين مع الترك بالرباط الفدرالي، وأنه يجب أن تؤلف من قسم من جيش الحجاز مفارز هجانة ترسل إلى سورية بقيادته لإيقاد الثورة فيها، وإرغام الترك على الصلح ضمن شروط تؤمن الروابط الفدرالية بين الأمتين العربية ــ والتركية، ويكون الألمان كفلاء عليهم[١٢٣]. ولما

(١٢١) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢١٩.

(١٢٢) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٩٠ ــ ٩١.

(١٢٣) فائز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، ص٢٣٨ ــ ٢٣٩.

كانت هذه الأفكار مخالفة لأهداف الحسين وحلفائه، فقد أرسل عزيزاً إلى مصر بمهمة، وهناك أبلغته السلطات الإنكليزية وجوب عدم عودته إلى الحجاز، ووجوب مغادرته مصر منفياً إلى سويسرة وإسبانيا، فاختار الثانية على الأولى(١٢٤)، فخلفه في منصب وزير الحربية الضابط المصري الشاب النقيب محمود بك القيسوني(١٢٥). كما استعان الملك حسين ــ في تنظيم الجيش العربي ــ بالضابط العراقي جعفر العسكري، وكان قد جُرح وأُسر في شباط ١٩١٦، من قبل القوات الإنكليزية في الجبهة الليبية، التي كان السيد أحمد الشريف السنوسي قد فتحها، في أواخر ١٩١٥، ضد الإنكليز في مصر تحت ضغط الأتراك والألمان، الذين هبطوا البلاد عام ١٩١٥ لإثارة برقة، وكان القصد من حملة السنوسي إرغام بريطانية على القتال في حدود مصر الغربية، ومن ثم شغلها عن الحملة التركية على قناة السويس(١٢٦)، ووضع الإنكليز بين فكي كلابة. وكان من مقتضى التشكيلات المخصوصة ــ التي مر ذكرها ــ أن ترسل بعثة عثمانية إلى ليبيا، كي تقنع السيد أحمد الشريف بمحاربة الإنكليز، وكان من أعضائها نوري بك أخو أنور باشا، وعدد من الضباط الأتراك، بالإضافة إلى جعفر العسكري. وقد أُرسل هذا الأخير إلى برقة، بطريق مصر، حيث اجتازها متخفياً بينما أُرسل الأولون بواسطة غواصة أبحرت من ميناء «بولا»، التي اتخذها الألمان قاعدة بحرية لهم في الأدرياتيك، فانزلت نوري وجماعته في الطرف الغربي من خليج السلوم، فاتصلوا بالسيد أحمد الشريف السنوسي الذي لم يكن موافقاً لهذه الفكرة في بادىء الأمر. لكنه اضطر إلى الموافقة عندما ابتدروه بضغط أدبي مزدوج منهم ومن المصريين، الذين كانوا ينتظرون تحريرهم من نير الإنكليز. وخوفاً من أن ينظر العالم الإسلامي إليه بأنه ممالىء للإنكليز والإيطاليين وافق على قيام نوري بالحملة دون أن يتحمل نتائج فشلها. وقد اشترك في الحملة الضابط المصري طلعت حرب، الذي فر من المعسكرات الإنكليزية في مصر هو وبضعة ضباط آخرين، ولفيف من مرؤوسيه والتحق بقوات السنوسي. لكن الحملة آلت إلى الفشل بعد أن أزعجت الإنكليز وشغلتهم بضعة أشهر(١٢٧). وقد امتدت الحرب من تشرين الثاني إلى آذار ١٩١٦، وأسفرت عن تنازل أحمد

---

(١٢٤) أسعد داغر، مذكراتي على هامش القضية العربية، ص٩١.

(١٢٥) COLONEL BREMOND, Ibid. p. 127.

(١٢٦) الدكتور نقولا زيادة، ليبيا من الاحتلال الإيطالي إلى الاستقلال، ص٨٦؛ محب الدين الخطيب، «جعفر العسكري»، ص٢٣ ــ ٢٤.

(١٢٧) محب الدين الخطيب، المصدر السابق، ص٩؛ الدكتور أحمد فؤاد شكري، المصدر السابق، ص١٦٢ ــ ١٧٧.

الشريف ـــ اعترافاً منه بفشله وقلة رويته ـــ إلى السيد محمد إدريس المهدي عن القيادة السياسية والعسكرية مع احتفاظه بالزعامة الدينية(١٢٨) .

لقد فاتح الإنكليز جعفرا ـــ وقد وصفه لورنس الذي اتصل به في القاهرة بانه « قوة عظيمة » لإنكلترا ـــ بوجوب التحاقه بثورة الشريف ، فأظهر التمنع في بادىء الأمر ، وكان قد سجن في قلعة محمد علي بالقاهرة ، وحاول الفرار من إحدى النوافذ بأن تدلى بحبل مجدول من قماش ملاءة ، لكنه سقط فانصدع رسغ قدمه(١٢٩) ، ونقل إلى مستشفى المعادي حيث زاره عدد من شبان العرب ، ومن جملتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، الذي أخذ يقنعه بالإلتحاق بثورة الشريف . ولما رأى تمنعه أعلمه بنبأ جرائم أحمد جمال باشا في سورية ، وشنقه أحرار العرب ومنهم صديقه الضابط سليم الجزائري ، فانقلب فجأة إلى شخص آخر يكره الترك ، وأقسم بشرفه العسكري لينتقمن لأخوانه الشهداء . وقد بر بيمينه فكان بعد قليل من كبار قادة الثورة ، واستلم منصباً قيادياً في الجيش الشمالي بمعية الأمير فيصل(١٣٠) . ويظهر أن الشريف حسين لم يكن مرتاحاً لقدومه ، وقد علل لورنس ذلك بقوله عن الحسين إنه « كان شيخاً حريصاً يكره العراقيين والسوريين ، ويعتقد أن الحجاز هو الذي يجب أن يحرر دمشق ، فرفض خدمات جعفر ، ولم يكن أمام فيصل إلا أن يستخدمه متحملاً تبعة ذلك وحده » ، لأنه سمع كثيراً عنه وتوسم فيه خيراً لينظم جيشه(١٣١) ، والواقع أن الشريف بدأ يرتاب في نيات الإنكليز ، فخشي أن يكون من وراء استقدامهم لجعفر غاية ما في نفسهم .

كانت الفائدة المرجوة من ثورة الشريف بالنسبة لبريطانيا والحلفاء سياسية أكثر منها حربية ، ومن هنا نشأت بعض التعقيدات . فقد تهاونوا في بادىء الأمر في امدادها بالمعدات والذخائر . قال لورنس في كتابه « الثورة في الصحراء » ص٨٢ « وقد وعدت القاهرة بالذهب والبنادق والبغال والرشاشات والمدافع . إلا أنه لم يصل إلينا مدفع واحد قط . وكان هذا الحرمان عذابنا الأبدي » . وفضلاً عن ذلك فان الإنكليز والفرنسيين كانوا يرون ان في تقوية الثورة ، بما يخرجها عن نطاقها الحجازي ، خطراً على مصالحهم الاستعمارية . كان اللنبي يحذر لورنس من أن نسف القطارات يزيد

(١٢٨) الدكتور نقولا زيادة ، المصدر السابق ، ص٨٧ .

(١٢٩) لورنس ، الثورة في الصحراء ، ص٨٢ .

(١٣٠) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، من مقال له في مجلة اليقظة العربية الحاضرة ، ص١٩ ؛ مسز ستورث أرسكين المصدر السابق ، ص٧٢ ـــ ٧٣ .

(١٣١) لورنس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ج٢ ، ص٩٤ .

ويضخم في أطماع فيصل، كما كانت لندن ترى في الاستيلاء على المدينة المنورة خطراً كبيراً من شأنه أن يزيد في نمو قوة القضية العربية فتهدد بذلك مصالح الحلفاء. لذلك لم يكن من رأى السير ريجنالد ونجت الاستيلاء عليها إلا بعد التقاء الجيش الإنكليزي الزاحف من مصر بالجيش الإنكليزي المتقدم في العراق[١٣٢]. وقد شاطر كل من جورج لويد (اللورد فيما بعد، وهو أيضاً من زملاء لورنس في المكتب العربي) والكولونيل بريمون رأي ريجنالد ونجت في هذا الأمر خوفاً من ازدياد قوة حركة الجامعة العربية، ومن انفساح المجال واسعاً أمام قوات الشريف للسير سيراً مسرعاً لاقتحام أبواب دمشق. وهذا ما دفع الحلفاء إلى رسم الخطة اللازمة لعرقلة اندفاعها القوي، وذلك بعدم تزويد العرب إلا بنجدات ضعيفة تكاد تكفي لتجميد حركة فخري باشا في المدينة ــ مع منع وصول النجدات إليه بتخريب خطوط السكة الحديدية ــ ولا تطلق أيدي العرب شمالاً[١٣٣]. وبينما وجه لورنس سهام نقده اللاذع للكولونيل بريمون على ما لمسه منه من سوء النية التي يضمرها للثورة العربية من هذه الناحية(*)، نراه يعلل ــ من جهته ــ الأمر تعليلاً غريباً دون أن ينحرف عن الخط الجوهري للفكرة نفسها، إذ يقول إنه من العبث الاستيلاء على المدينة حيث الترك في موقع حصين وموقف مكين، ومع ذلك لو اقتحمناها أفليس من المُكْلِف جداً تأمين الطعام ــ في مصر ــ لحاميتها الكثيرة العدد؟[١٣٤].

إلى هذا الوقت كان الحسين لا يزال يثق بحلفائه، لأنه كان يعتمد على فضيلة العدل عند الناس، وعلى الأخلاق وشرف المعاملة أكثر من اعتماده على العهود والعقود المكتوبة، في حين كانت الدول ــ معظم الدول ــ بعيدة عن هذه العوامل الأخلاقية، ولا تبحث إلا عن منافعها. صحيح أن

---

(١٣٢) R. ALDINGTON, Ibid. pp. 112, 129, 159.

(١٣٣) R. ALDINGTON, Ibid. p. 142; COL. BREMOND, Ibid. p. 96 ; مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص ٣٠.

(*) قال لورنس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» (ج٢، ص٣٣) إنه ذكر لبريمون ضرورة احتلال المدينة ليساعد ذلك في تقدم الثورة العربية، فعارضه الكولونيل أعنف معارضة قائلا بأنه ليس من الحكمة أن يترك للعرب احتلالها، وأن الحركة العربية قد آتت كل ثمارها عند إعلان الثورة في مكة، وأنه يجب أن تترك الآن الأعمال العسكرية ضد الأتراك للإنكليز. والفرنسيين وحدهم، وانه يريد أن ينزل الحلفاء جيشاً في رابغ ليكون الشريف موضع ريبة عند العرب فتخمد بذلك حماسة القبائل للثورة فيضطر الشريف إلى الاعتماد على الجيوش الأجنبية، ويصبح في حماية الحلفاء، حتى إذا اندحر الترك في الحرب فصلت الدول المنتصرة «المدينة» عن السلطنة التركية، ومنحتها إلى الشريف مع السيادة الشرعية على الحجاز مكافأة له على مساعدته واخلاصه.

(١٣٤) LAWRENCE, Ibid. p. 229.

إنكلترا قد ساعدت الثورة بالعتاد والمال بما تقارب قيمته عشرة ملايين جنيه ذهباً، وأرسلت الكولونيل لورنس(*) ليساعدها في التوجيه السياسي والمشورة، ويقوم بوظيفة ضابط ارتباط بين الإنكليز وبينها، فجاء إلى الحجاز يبحث عن الزعيم «النبي» الذي يستطيع أن يقود أمة العرب إلى المجد، كما قال في مذكراته(١٣٥)، فوجد في الأمير فيصل ضالته المنشودة «هذا هو الرجل الذي جئت جزيرة العرب أبحث عنه، الزعيم الذي يقود ثورة العرب إلى أوج النصر»(١٣٦)، وأصبح مستشاره المفضل الذي يثق به كل الثقة، إذ أصبح ــ كما أدعى ــ الدماغ المفكر والموجه للثورة، وقد منحه العرب من عواطف الحب ما جعله يتمتع بفيض من الاحترام في أوساط الثورة عامة. إلا أن الرجال البريطانيين، الذين كانت في أيديهم مقاليد السياسة العليا للحركة العربية، مثل السير هنري مكماهون، والسير مارك سايكس، والجنرالان كلايتون واللنبي، والكوماندور هو غارث، والسير رونالد ستورس، قد أخذوا في توجيه القضية العربية اتجاهاً يتواءم مع مصالح دولتهم، إذ كانت فكرتهم الأساسية هي إقامة دولة عربية تابعة لهم، تأتمر بأمرهم وتحقق غاياتهم الاستعمارية، فإذا ما ساعدوا العرب فبمقدار لا يستطيع هؤلاء به أن يشكلوا تهديداً لمصالح بريطانيا، أو أن يكون لهم من القوة والاستقلال التام ما من شأنه أن يضعف مركز بريطانيا في عدن، والأمارات المحمية حولها، وفي حضرموت وعمان والكويت وخليج العرب والعراق. كانت إنكلترا تلمح لهم بالوعود الجذابة والمغرية ما دامت بحاجة إلى معونتهم في قتالها لتركيا، ولكنها تخلت عنهم عندما انتهت مهمتهم هذه، وأخذت تحقق أطماعها في بلادهم بعد الحرب(١٣٧). بل حتى في أثناء استفادتها من معونتهم لم تكن لتبرهن عن صفاء نية وإخلاص تجاههم. قال لورنس «مما لا شك فيه أننا نقاتل من أجل انتصار نحرزه بصفتنا حلفاء.

(*) حينما نشبت الحرب العالمية كان لورنس يتم، في إنكلترا، تقريره عن مسح أرض سيناء (كما تقدم)، وما إن أنهى تقريره حتى عرض خدماته على السلطات العسكرية، فعين في القسم الجغرافي التابع للقيادة العليا. وفي كانون الأول نقل إلى مصر حيث شغل منصب ضابط خرائط بإدارة الاستعلامات، وكلف بالإضافة إلى وظيفته بالعمل في الاستعلامات العامة بوصفه ضابطاً في القيادة العامة. ولما دخلت تركيا الحرب ــ وكان يفكر ملياً في قضية العرب الذين أعجب بهم من خلال دراساته التاريخية للحروب الصليبية (نال إجازته في التاريخ بعد أن قدم أطروحة عن أثر الحروب الصليبية في فن العمارة الحربي الأوروبي في القرون الوسطى) وربما خطرت في ذهنه ثورة العرب على الترك ــ ظل يعمل حتى عين في المكتب العربي بالقاهرة (ونستن تشرشل، لورنس بطل الجزيرة، ص١٨؛ ARMITAGE, Ibid. p. 93).

(١٣٥) لورنس، الثورة في الصحراء، ص١١؛ ونستن تشرشل، لورنس بطل الجزيرة، ص٢٠.

(١٣٦) لورنس، الثورة في الصحراء، ص٣٣.

(١٣٧) الدكتور نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٦٢؛ مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص١٣.

ولطالما أن الإنكليز هم الذين يوجهون الأمور، فسيكون على العرب أن يدفعوا الثمن مضطرين، ويصبحوا ضحية على مذبح مصالح الحلفاء...»[١٣٨]. وإذا عدنا إلى تاريخ بدء المفاوضات العربية الإنكليزية يتضح لنا تردد السير هنري مكماهون في مباشرة الاتصال بالعرب حينما تلقى أمراً بذلك من لندن. إذ كتب إلى حكومته ينذرها بأن تأييد القضية العربية عمل محفوف بأعظم الأخطار لأن حرية العرب قد تنمو في أحد الأيام فتصبح الغول الذي افترس صانعه في رواية فرانكشتاين[١٣٩].

أما موقف فرنسا، فالبرغم من أنها أعربت عن صداقتها للثورة، وأرسلت وفداً من خيرة رجال المسلمين في المغرب العربي، وعلى رأسه السي قدور بن غبريط، يعربون للشريف عن ميل الحكومة الفرنسية، والمسلمين الذين تحت حكمها، للعرب وحكومتهم الجديدة[١٤٠]، فإنها لم تستطع أن تقف إزاءها موقفاً واضحاً. كانت مصالحها أكثر تعقيداً من مصالح حليفتها إنكلترا. صحيح أنها قدمت بعض المساعدات في بادىء الأمر لقهر العدو المشترك، وللدلالة على حسن نيتها نحو إنكلترا، لكن هذه المساعدات بقيت محدودة بداعي أن معظم قواها كانت مجندة في الجبهة الغربية. ولم تكن هذه إلا حجة ظاهرية، بينما العامل الأساسي لم يكن سوى اعتقاد بعض الموجهين الفرنسيين أن المشاركة العلنية القوية، وإرسال العون الكبير للثورة خطر ما بعده خطر على المصالح الفرنسية من الوجهة السياسية، لاعتقادهم بأن تشجيع فرنسا تأسيس مملكة عربية مستقلة قد يشجع العرب في شمالي إفريقية على المطالبة بفوائد مماثلة. لذلك لجأت إلى أنصاف الحلول بإرسالها بعثة الكولونيل «بريمون» ليكون على اتصال دائم بالشريف، والسهر على المصالح الفرنسية، ومراقبة حركات الشريف حسين، والحد من اندفاع ثورته من جهة، ومن جهة ثانية مراقبة تصرفات الإنكليز، لا سيما في شخص الكولونيل لورنس، الذي كان همه تحويل الدفع الثوري العربي نحو المنفعة البريطانية، والحد من تغلغل النفوذ الفرنسي، وإذا أمكن محوه بالمرة بالنسبة لبلاد الشام. إن من يقرأ كتاب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة» ويقارنه بكتاب «الحجاز في الحرب العالمية» الذي كتبه الكولونيل بريمون، يلحظ شدة التنافس الإنكليزي ــ الفرنسي على النفوذ خلال مرحلة الثورة.

كان العون الفرنسي للشريف قليلاً بوجه عام، فلم يزد حتى كانون الثاني ١٩١٨ على ١٧ ضابطاً و ٣٥٦ جندياً، و ١٠ مدافع و ٦ رشاشات و ٤٧ بندقية رشاشة. وهذا ما أضعف نفوذ

---

(١٣٨) LAWRENCE, Ibid. p. 482.

(١٣٩) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص١٩٦.

(١٤٠) أسعد داغر، ثورة العرب، ص٢١٣.

فرنسا في نظر العرب ، فأخذت إنكلترا في استغلال تقاعس حليفتها في تنمية نفوذها ، ولم يكن ذلك ليخفى على الكولونيل بريمون ، فبادر إلى حث دولته كي تزيد من عونها للثورة ، وذهب خصوصاً من أجل ذلك إلى باريس . كما طالب جورج بيكو في (١٩١٧/١١/١٤) بإرسال ٢٠ ألف مقاتل فرنسي ، لكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح لأن فرنسا لم تكن تريد إضعاف جبهة الغرب الأساسية . قال كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسي لبريمون عندما طلب النجدة وعرض عليه مخطط العمليات الحربية ضد تركيا «إن الحرب ستُربح في فرنسا وفي فرنسا وحدها» . فقفل بريمون عائداً ، وقرر أن تكون خدمته لبلاده منحصرة في الحيلولة دون توسع الحركة العربية وتحديد مدى نجاحها . وهذا ما ترك المجال للكولونيل لورنس كي يحارب النفوذ الفرنسي لمصلحة النفوذ الإنكليزي في بلاد العرب ، بإثارته عاطفة سوء الظن لدى العرب حيال نيات فرنسا السرية(١٤١) . وقد زاد في سوء ظن العرب بنيات الفرنسيين ان البعثة العربية ـــ الإسلامية برئاسة السي قدور بن غبريط لم توح بالثقة التامة للشريف حسين . كان هدفها النفوذ إلى نيات الشريف وأولاده السرية ، وتقديم التقارير إلى الحكومة الفرنسية . حتى إن السي قدور بن غبريط لم يتورع عن أن يعرض على الشريف وجهة النظر الفرنسية «الاعتراف باستقلال جزيرة العرب مع الاحتفاظ بحقوق فرنسا في سورية لا في سبيل استعبادها بل في سبيل تسهيل تطورها»(١٤٢) .

وأخيراً فإن من الأمور التي زعزعت ثقة الشريف بحلفائه الفرنسيين والإنكليز قدوم وفد فرنسي ، برئاسة المسيو جورج بيكو ، للترويج لمصالح فرنسا في سورية والدعاية لها . وقد خطب المسيو بيكو في فندق شبرد بالقاهرة ، أمام طائفة من اللبنانيين ، منوها أنه قد حان الأوان للنظر في مستقبل سورية ولبنان ، وأن الحلفاء قد اختاروا فرنسا وصية على لبنان ، وأن نظام الحكم في سورية الداخلية سيكون استشارياً ، وأن الدول الحليفة متفقة على تحديد مهمته في سورية ، وأن صفته الرسمية ولقبه قد حدد بأن يكون «مفوضاً سامياً» فيها ، وأن فرنسا وحلفاءها لا يقصدون فتح البلاد بل تحريرها . وقد صحب الوفد الفرنسي وفد آخر إنكليزي برئاسة السير مارك سايكس ، جاء بإيعاز من الخارجية الإنكليزية ، بناء على اقتراح السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني في مصر(١٤٣) ، لمقابلة الشريف حسين في جدة ، على أثر ما بدر من مخاوفه وطلبه الإيضاح اللازم عن أهداف تلك البعثة ، وجرت المقابلة في ١٩ و ١٩١٧/٥/٢٠ . وقد صرح الحسين فيما بعد أن مادار فيها يتعلق بإقناع

(١٤١) الدكتور نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص٦٣ ـــ ٦٤ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص٦٤ .

(١٤٣) محمد طاهر العمري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٠٥ ـــ ١٠٩ .

العرب بوجوب الاعتراف بمنطقة نفوذ لفرنسا في لبنان ، وأنه قد أجاب الوفد بعدم إمكانه التساهل فيما يمس السيادة العربية ، بل إن جل ما يستطيعه أن يحاول إقناع زعماء الحركة العربية بتسوية تشبه ما تم في موضوع العراق مع بريطانيا ، أي الاشتراك بين فرنسا والعرب في إدارة لبنان لمدة محدودة من السنوات ، لقاء مساعدة مالية من فرنسا ، على ألاّ يسمح لهذه بترويج مصالحها في لبنان إلا إذا كانت ضمن إطار السيادة العربية(١٤٤) . وعلى كل حال لم يُطلع أعضاء الوفد الشريف حسين على اتفاقيات سايكس ــ بيكو ، اللهم إلا الإفضاء بتلميحات عامة عن التفاهم والتضامن الإنكليزي ــ الفرنسي . وسيعلم الشريف بأمر هذه الاتفاقيات بعد ستة أشهر تقريباً أي في كانون الأول ١٩١٧ كما سيأتي بيانه في الفصل القادم .

الاستيلاء على العقبة وأهميته

إذا كان استيلاء فيصل على الوجه قد خطا بالثورة العربية خطوتها الفاصلة في إرغام فخري باشا على أن يقبع في المدينة ، ولا يجسر على الخروج منها لاسترداد مكة ، بعد أن غادر كل من الأمير علي والأمير عبد الله موقعيهما في رابغ ووادي العيس ليقتربا أكثر فأكثر منها ويحاصراها حصاراً شديداً ، مما جعل الترك يفكرون في إخلائها ، فإن الاستيلاء على العقبة ــ وقد سهله احتلال الوجه ــ يعتبر نقطة تحول هامة في الثورة العربية ، إذ خرجت من نطاقها الحجازي لتتخذ لها هدفاً أساسياً هو الاستيلاء على سورية . هذا فضلاً عن أن اقتحام العقبة ــ ذات الموقع الهام والتي أمرت لجنة الحرب في لندن بالاستيلاء عليها بغية تهديد مواصلات الأتراك ، والحيلولة دون محاولة الأعداء جعلها قاعدة للغواصات يستطاع منها زرع الألغام في البحر الأحمر ــ كان من المفيد للثورة بأنها سيطرت على أحد المنافذ الهامة في هذا البحر(١٤٥) ، ذلك الذي يعتبر بداية لدخول العرب في الحرب فعلاً ، لأن جيش فيصل أصبح يعمل جنباً لجنب مع قوات الإنكليز الزاحفة من مصر(١٤٦) .

قبل أن يحاول فيصل احتلال العقبة رأى أن يرسل بعثة إلى سورية تدعو أهلها إلى مؤازرته ، فاختار الشريف ناصر بن الحسين الملقب بـ « أبي سيف » وهو من أبناء عمومته ، رئيساً لها ، ورافقها كل من نسيب البكري ولورنس وعودة أبي تايه عميد عشيرة تايهة وحرس مؤلف من ٣٥

---

(١٤٤) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٥٨ .

(١٤٥) R. ALDINGTON, Ibid. p. 119.

(١٤٦) مسز ستورث أرسكين ، المصدر السابق ، ص٧٩ .

فارساً[147]، فتفرق أفرادها في وجهات مختلفة: عودة إلى قبيلته يجمع أفرادها، ونسيب إلى جبل الدروز يستفز زعماءه لمؤازرة الثورة، ولورنس إلى جهات دمشق مروراً بمختلف القبائل العربية حتى وصل إلى بعلبك، حيث نسف جسراً صغيراً على الخط الحديدي المتصل برياق، ثم إلى مقربة من دمشق (القابون)، وأرسل في طلب رضا باشا الركابي، الذي كان يعاون الثورة في السر، والذي ما إن سمع بأن من يطلبه قادم من لدن الأمير فيصل حتى خف إلى لقائه، بالرغم من خطورة عمله ــ بصفته قائداً عربياً في الجيش التركي، وكان يتولى حينذاك قيادة موقع دمشق ــ واستلم منه رسالة من الأمير يقول فيها إنه مصمم على التقدم من سورية على مراحل أولها العقبة، وأنه يرغب أن يقوم زعماء العرب في دمشق بتشجيع الفرق العربية في الجيش التركي على الفرار والانضمام إلى قواته ــ دونما حاجة إلى ثورة عامة ــ وقد تم الإجتماع بين لورنس والركابي في ١٩١٧/٦/١٣، عاد لورنس بعده إلى معسكر فيصل في الكاف، ماراً ببضعة شيوخ منهم الزعيم الدرزي حسين الأطرش، ونوري الشعلان شيخ مشايخ الروله، فبلغهم الرسالة نفسها واختبر مدى استجابتهم لها. وكان عودة من جهته قد جمع /٥٠٠/ من رجال عشيرته، فحصل الهجوم بهم على العقبة مبتدئاً «بأبي الأسل» التي هزمت حاميتها المؤلفة من ٦٠٠ جندي وضابط لم يبق واحد منهم إلا قتل أو أسر. ثم جرى اقتحام أربعة مراكز تركية بينها وبين العقبة التي جرى الاستيلاء عليها في ١٩١٧/٧/٦، وقد بلغ عدد قتلى هذه العملية ٦٠٠ من الترك بالإضافة إلى ٧٠٠ أسير بينهم ٤٢ ضابطاً[148].

بعد احتلال العقبة نشطت العمليات الحربية نشاطاً ملحوظاً بالنسبة للإنكليز. ذلك أن العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجنرال أرشيبالد موري، سلف الجنرال اللنبي، قد اتسمت بالبطء والعجز، ولو أنها قد تمكنت من ربيع عام ١٩١٦ حتى صيفه من رد الهجوم الثاني الذي شنه الترك والألمان على قناة السويس، ذلك الهجوم الذي كان الأتراك يستعدون له منذ فشل حملتهم الأولى عليها، والذي دفع الترك إلى سرعة القيام به الغرور الذي تملكهم بعد استردادهم لكوت الإمارة. غير أنهم في هذه المرة قد قاموا بسلسلة من الاستعدادات كانوا أهملوها في الحملة الأولى، فقد انصب نشاط الألمان بإشراف المهندس مسنر باشا الألماني على إنجاز شبكة الخطوط الحديدية العسكرية الفلسطينية، فوصلوا نابلس بطولكرم واللد وبدؤوا باستخدام خط اللد ــ بئر السبع اعتباراً من

(١٤٧) سليمان موسى، عودة أبو تايه فاتح العقبة، من مقال في مجلة العربي، عدد ٤٩، كانون أول ١٩٦٢.
(١٤٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٢١ ــ ٣٢٣؛ سليمان موسى المصدر السابق.

٣٠/١٠/١٩١٥ ، وقد تفرع منه في أيار ١٩١٦ خط يمتد حتى حفير العوجة في صحراء سيناء ، فأصبحت بئر السبع مركز تجمع هام للمؤن والمهام العسكرية ، وزودت بمحطة كهرباء وتفرعت منها عدة طرق للسيارات باتجاه القناة . كما حفرت الآبار وبنيت خزانات المياه ومددت أنابيبها إلى مسافات كبيرة في صحراء سيناء ، وتقرر استئناف حملة القناة الثانية في ربيع ١٩١٦ . وكان الهدف في هذه المرة متواضعاً ، إذ استبعد الأتراك اجتياز القناة إلى مصر للاكتفاء باحتلال موقع حصين في مواجهة القنطرة يستطيعون منه أن يجعلوا القناة هدفاً لمدفعية شديدة . وبلغ عدد أفراد الحملة الجديدة ١٦ ألف رجل بقيادة الجنرال فون كريس كريسنستاين ، يدعمها سرب من الطائرات(١٤٩) ، على أن يدعمها جيش آخر كبير أخذ الألمان يشكلونه في البلقان ، بقيادة الماريشال ماكنزن قاهر الروس والصرب . وقد بنى الترك وحلفاؤهم عليه أملاً عريضاً وبعيداً أشبه بالوهم : أن يخترق آسيا الصغرى وسورية ، ويستولي على مصر والعراق وإيران ، ثم يسير إلى الهند داعياً شعوب هذه الممالك إلى طرد الإنكليز والاستقلال(١٥٠) . لكن الفشل في هذه المرة أيضاً كان حليف الترك ، ذلك أن فون كريس قد بدأ هجومه في ٢٣/٤/١٩١٦ على القوات الإنكليزية ، واستمرت مناوشاته مع طلائعهم حتى ٤ آب ، إذ نشبت معركة حامية الوطيس حول القنطرة لم يمض عليها يومان حتى تبعثرت القوات التركية ، وارتدت إلى العريش وتابع الإنكليز اللحاق بفلولها ، وكانت الأساطيل الحربية تدعم هجومهم البري(١٥١) .

غير أن حركات الجنرال أرشيبالد موري قد اتسمت بالبطء الشديد ، وكان عليه أن يمهد السبيل للزحف على فلسطين بإقامة سكة حديدية تمتد إلى مسافة /٣٠٠/ كيلومتر في صحراء سيناء ، وأنابيب تنقل مياه النيل بعد تصفيتها إلى خزانات أقيمت في الجبهة ، يصلها منها يومياً ما يقارب مليون ونصف من الغالونات ، وقد حشد الإنكليز للقيام بهذا العمل ما يقارب /٧٠/ ألفاً من الفلاحين المصريين نظموهم في ما سمي بـ « الفيلق المصري للعمل Egyptian Labor Corps » وأخذوهم بنظام شديد ، وفي ظروف قاسية ، فأتموا العمل على أكمل وجه(١٥٢) . ولم تصل السكة إلى حدود فلسطين إلا في كانون ثاني ١٩١٧ ، وكان الجنرال الإنكليزي قد قضي نصف عام تقريباً يدفع

---

(١٤٩) LAMMENS, Ibid. II, pp. 222-224.

(١٥٠) ED. DRIAULT, Ibid. pp. 428-429.

(١٥١) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 28; GENERAL DUFFOUR, Ibid. II, p. 373 مذكرات جمال باشا، ص٢٩٣ .

(١٥٢) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 30; LYAUTEY, Ibid. p. 121; COL. LAMOUCHE, Ibid. p. 366.

الترك أمامه حتى استطاع، في بداية العام المذكور، الوصول إلى هذه النقطة، وتوج أعماله الحربية البطيئة بحملتين شنهما على غزة في آذار ونيسان ١٩١٧، باءتا بالإخفاق والفشل المريع فكان نصيبه العزل[١٥٣] واستُبدل به الجنرال اللنبي، الذي صادف تعيينه الفترة التي سبقت احتلال الجيش العربي للعقبة، فكان هذا النصر العربي خير معين للتقدم الإنكليزي الذي اتسم بعد ذلك بالسرعة.

لقد استظهر الجيش الإنكليزي بالقوات العربية فكان على الإنكليز أن يزيدوا من كميات الأسلحة والذخائر والمعدات التي يقدمونها للعرب، وهم إن ضنوا عليهم بقطع المدفعية إلا أنهم لم يبخلوا عليهم بالبنادق والذخيرة، وأخذت الحرب ــ علاوة على قتال الترك ــ مظهر التخريب الذي كان الهدف منه تعطيل سكة حديد الحجاز، باستعمال المفرقعات والألغام ونسف القضبان والقطارات لعرقلة وصول امدادات العدو إلى المدينة المنورة ومختلف الجبهات الأمامية، كما عملت قوات فيصل على أسر قوافل الأتراك التي تنقل المؤن إلى ابن الرشيد. وقد تلقى العرب من الإنكليز لهذه الغاية مساعدات فنية قام بها فريق من الإخصائيين البريطانيين[١٥٤] منهم ــ إلى جانب الكولونيل لورنس الذي أخذ على عاتقه توجيه حركاتهم ــ العقيد «نيو كمب NEW COMB» وكان الوفاق يسود علاقات المستشارين الإنكليز بالأمير فيصل، كلهم يشيدون بجرأته وبسالته ولباقته ودماثة خلقه، هذا فضلاً عن الصداقة القوية التي نشأت بين الأمير وبين العقيد لورنس صاحب الفضل الأوفر في حمل المسؤولين الإنكليز في القاهرة على الاهتمام بالقضية العربية والحرب في الحجاز، بفضل ماتوصل إليه من اكتساب ثقة كبارهم، بعد أن كان هؤلاء قليلي الثقة بمردود حرب الحجاز[١٥٥]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد عمل فيصل على تعبئة قوى العرب منذ أن كان في الوجه وواصل هذا العمل بعد جعله العقبة ثم معان ثم الأزرق قاعدة حركاته العسكرية، مستنداً في ذلك على كميات الذهب الكبيرة التي وضعتها بريطانيا تحت تصرفه، وإلى نفوذه ونسبه وحكمته ولباقته وقوة اقناعه وشدة اخلاصه للقضية العربية، وحدة ذكائه ومرونته الخارقة[١٥٦]. فأوفد رسلاً إلى مختلف القبائل العربية، فتقاطرت هذه عليه ومنها: بنو عطية وجهينة وعتيبة وبليس وعنزة وبنو صخر والروله وعلى رأسها الشيخ نوري الشعلان الذي فتح أمام الجيش العربي معابر وادي السرحان. كما

(١٥٣) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٢٤.

(١٥٤) الدكتور جلال يحيى، المصدر السابق، ص١٨٣ ــ ١٨٤.

(١٥٥) مسز ستورث أرسكين، المصدر السابق، ص٨٥ ــ ٨٦.

(١٥٦) ساطع الحصري، صفحات من الماضي القريب، ص١١.

أفسح غيره من رؤساء القبائل الطريق لمرور القوات العربية ـ وكانت التقاليد تقضي بأن يؤخذ رضى القبائل التي يجب أن تمر هذه القوات في أراضيها[١٥٧] ـ وكان من وراء نوري الشعلان وابنه نواف جميع القبائل التي تأتمر بأمرهما . كما كان من القبائل التي انضمت للثورة قبيلة شرارة والقبائل الساكنة بين العقبة ومعان . قال لورنس « وأصبحت مسالك الوجه تعج بالرسل والوفود والاتباع وكبار المشايخ راكبين على خيولهم ، قادمين إلى مقر فيصل ليقسموا يمين الولاء والأمانة لقضيته »[١٥٨] . ولكن بانضمام الشيخ « عودة أبو تايه » عميد بني تايهه من قبائل الحويطات في شمال الجزيرة العربية (حول بلدة معان وفي أرض الشراة) ، مع قبائله ومن يواليها ، تعززت الثورة وأصبح الجيش العربي يتابع خطواته بثبات . وقد بذل الفارس المغوار « عودة » نفسه بطولة رائعة في احتلاله العقبة . إن الثورة أتاحت له أن « يرتفع بأعماله من مستوى الفارس البدوي إلى مستوى البطل القومي »[١٥٩] .

كان فيصل يقدم القرآن الكريم لاتباعه الجدد فيقسمون عليه بأن يسيروا حينما يسير ويقفوا إذا وقف ، وأن لا يدينوا للترك بطاعة ، وأن يحسنوا معاملة كل عربي معاملة الصديق المحب سواء كان سورياً أم عراقياً أم حجازياً ، وأن يجعلوا القضية العربية والاستقلال فوق كل اعتبار أو نفع مادي وأن يؤثروها على حياتهم وأهلهم . وهو فيما عدا ذلك قد وفق في إزالة الخصومات السابقة بين القبائل ، واضعاً نصب عينيه فكرة لا ثاني لها وهي : وحدة العرب وتوحيد كلمتهم لمحاربة الترك إلى النهاية . قال لورنس « ... فأينما سار كان كأنه ماء يخمد نار الضغائن ، وكأنه محكمة استئناف عليا لكل بلاد العرب ، حكمها مبرم لا نقض له »[١٦٠] . وقد وفق إلى ذلك بما أوتي من قسطاس الحكمة والعدل « وبتفهمه وتمثله للقضايا المتنوعة بسرعة كبيرة ، ونفاذه إلى دقائق الأمور وخفاياها بصورة تثير الإعجاب »[١٦١] ، كما جاء في قول للأستاذ الكبير ساطع الحصري . وبما تميز به من معرفة بعادات القبائل وأحوالها ، قد اكتسب من النفوذ على سائر القبائل المنتشرة من المدينة إلى دمشق ، ما جعل أفرادها وزعماءها يعتبرونه السلطة التي تسمو سلطة القبيلة . « وباهليته ـ كما قال لورنس ـ تحولت

---

(١٥٧) مسز ستورث أرسكين ، المصدر السابق ، ص٨٧ .

(١٥٨) لورنس ، الثورة في الصحراء ، ص٨٨ ـ ٩٣ .

(١٥٩) سليمان موسي ، عودة أبو تاي فاتح العقبة ، من مقال في مجلة العربي ، العدد ٤٩ ، كانون أول ١٩٦٢ .

(١٦٠) لورنس ، أعمدة الحكمة السبعة ، ج٢ ، ص١١٠ ، الثورة في الصحراء ، ص٩٢ ـ ٩٣ .

(١٦١) ساطع الحصري ، صفحات من الماضي القريب ، ص١٢ .

الحركة العربية إلى حركة شعبية حقيقية لها غرض واحد مشترك، بعد أن اجتثّ جذور الضغائن والخصومات من نفوس القبائل ... »[١٦٢].

على أن الجدير بالذكر أن قسماً من القبائل العربية قد والت الأتراك مثل عشيرة « زبيدة » التي كان يرئسها الشيخ محسن بن مبيرك (مبارك) وعرب « جهينة » وعشائر البيلي، ولم يكن عدد أفرادها قليلاً إذ بلغ عدد خيام « زبيدة » ١٥٠٠ وعدد أفرادها ١٢ ألف نسمة، وقس على ذلك القبيلتان الأخريان. كما كانت بعض القبائل تقبض المال من الإنكليز لمؤازرة الثورة، بينما قسم من أفرادها يحاربهم مأجوراً بأموال الترك والألمان، كعشيرة حرب التي كان أميرها محسن بن منصور في جانب الشريف[١٦٣]. على أن الأمير نواف بن نوري الشعلان، الذي كان على اتصال بالترك والعرب، قد اتفق مع جمال باشا على أن يأتيه بالأمير فيصل حياً أو ميتاً لقاء ٢٠ ألف ليرة ذهبية، بالإضافة إلى امارة الجوف، وقد قبض قسماً من هذا المبلغ سلفاً، لكنه جاء إلى فيصل واعلمه بذلك ونال منه مكافأة أخرى[١٦٤]. وغني عن القول انه لولا الذهب الإنكليزي لما كان العربان يميلون إلى الثورة هذا الميل. فقد كان القسم الأعظم منهم ينظرون إليها نظرة تجارية. أما إعادة ملك العرب ومجدهم وتجديد شباب الأمة العربية فهي أشياء لا يفهمونها. إلا أن ذلك لا يعني أن نذهب مع الكاتب أمين الريحاني في تقسيمه الفضل في نجاح الثورة إلى نسب مئوية خصص ٧٠ في المئة منها « للخيّال الإنكليزي » والثلاثين الباقية لبقية العوامل، فليس بوسع أحد أن يوزع النسب في أمر كهذا دون أن يخطىء. وحتى الريحاني نفسه يعود فيقول بان لورنس قد استنفر القبائل بالمال وقوة الحب والاقناع لمحاربة الترك. « لكن هذا كان نصف العمل بسبب العادات والثأرات القديمة بينها، فكيف يحاربون ويثبتون في القتال؟ » ويضيف قائلاً « وها هنا استوجب النصف الثاني من العمل. فلولا فيصل — والفضل كل الفضل لفيصل في التغلب على أحقاد مشايخ القبائل وفي تأليف القلوب — لخسرت إنكلترا ذهبها ولذهبت كل مساعي لورنس أدراج الرياح »[١٦٥].

---

(١٦٢) لورنس، الثورة في الصحراء، ص٩٣.

(١٦٣) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٣٢.

(١٦٤) G. STITT, Ibid. p. 180.

(١٦٥) أمين الريحاني، فيصل الأول، ص٢٥.

الفصل الرابع

حرب العراق وسورية وفلسطين
المراحل النهائية للعلاقات العربية ــ التركية

التطورات السياسية والعسكرية في العراق

بعد قيام الثورة العربية في الجبهة الغربية من البلاد العربية، وشروع الحملة الإنكليزية في الاستيلاء على العراق في الجبهة الشرقية منها، أصبح الموقف العام بين الترك والعرب رهناً بالنتائج الحربية التي سيسفر عنها الصراع الدائر. ولا بد لي هنا من ملاحظة هامة هي أن موقف كل من العرب والإنكليز كان مختلفاً في كل من الجبهتين عنه في الأخرى. ذلك أن الإنكليز في الجبهة العراقية لم يكونوا يعيرون رغبات السكان وآمالهم في الاستقلال، وتقرير مصيرهم بأنفسهم أي وزن، بينما هم قد ارتبطوا مع الحسين بالاتفاقيات المعروفة. أما العرب ففي حال كونهم قد انضموا في الجبهة الحجازية ــ السورية إلى جهة الحلفاء، نراهم في العراق قد وقفوا من الإنكليز موقفاً عدائياً في بادىء الأمر، وتناسوا ما قاسوه ويقاسونه من صلف الترك وعجرفتهم وغمطهم حقوق العرب. ولو كان الترك قد بادلوا العرب إخلاصاً بإخلاص، ولم يلجؤوا إلى الوحشية في معاملتهم لبقي العرب إلى جانبهم حتى النهاية.

رأت الحكومة الإنكليزية أن ترسل كتيبة من كتائبها في الهند إلى الخليج العربي، حتى قبل دخول تركيا في الحرب، لاحتلال منطقة عبادان عند مصب الفرات، ذلك أنها عندما تأكدت في نهاية ايلول ١٩١٤ ان تركيا على وشك الانضمام إلى الأعداء، وجدت أن من الضروري أن تتخذ

التدابير السريعة للمحافظة على آبار البترول فيها[1]، ولتفهم الأتراك بأنها جادة في الأمر، ولتفهم العرب بأنها مستعدة لمؤازرتهم حقيقة، قاصدة بذلك أن تحدث أثراً معنوياً ملائماً لدى شيوخ امارات الخليج العربي. غير أن الأهم من ذلك هو السبب السياسي الذي شغل بال الإنكليز: أي خشيتهم من تعاون عربي ـ تركي يؤدي إلى إعلان الجهاد، ومهاجمة مصر وقناة السويس، وخوفهم على الهند من أن يمتد أثر الجهاد إليها ـ عن طريق إيران وأفغانستان ـ فيمتزج بالاستياء المنتشر فيها، فيسري سريان النار في الهشيم. يضاف إلى ذلك خوف بريطانيا من أن يتزعزع نفوذها في الخليج العربي[2]. وغني عن القول ـ كما بينت فيما سبق من فصول ـ ان غاية إنكلترا كانت احتلال العراق وفرض سيطرتها الاستعمارية عليه، وقد وجدت في الحرب فرصة لتحقيق أطماعها، وفكر موظفوها السياسيون في المنطقة بهذا الأمر حتى قبل نشوب الحرب في أوروبا بأكثر من عام واحد. فقد أبرق المقيم البريطاني في الخليج إلى حكومة الهند في ١٩١٣/٦/٢٣ قائلاً «نظراً لاحتمال تجزئة تركيا، وما نجده من مساع تمهيدية لايجاد مناطق نفوذ أجنبية، فإنه على ما يظهر لا بد للحكومة البريطانية من أن تحتفظ بما أحرزته حتى الآن من أرجحية في بلاد ما بين النهرين، منطقتها الطبيعية في الدولة العثمانية». إنما كان ثمة اختلاف في وجهات نظر مختلف الجهات البريطانية، فريق منهم يرى أن لا حاجة لاحتلال العراق بالقوة لأن باستطاعة إنكلترا أن تستولي عليه ـ بعد انتصارها في الحرب ـ بصورة سياسية، هذا بالإضافة إلى أن أهمية العراق ثانوية بالنسبة إلى الجبهة الغربية، وأن إرسال أية قوة إليه من الهند يضعف الدفاع عن الهند نفسها[3]، في حين أن نجاح الحملة غير مضمون لأن الأتراك ـ كما قال لويد جورج ـ كانوا يدركون أهمية النتائج التي ستترتب على الهزائم التي قد تلحق بهم في هذه المنطقة. لذلك فانهم سوف لا يتوانون عن بذل أقصى الجهد لتفادي الكارثة المحتملة، وارتأى لويد جورج توجيه حملة العراق إلى الغرب والحاقها بالجيش الذي سيهاجم الدردنيل[4]. وفريق آخر ـ وكان ممثلوه على اتصال أوثق بالهند وعلى معرفة أوسع بالخليج، كالسير برسي كوكس المقيم البريطاني السابق فيه (بمسقط) والجنرال بارو السكرتير العسكري لوزير الهند ـ قد رأوا عكس ذلك، فانتصرت أخيراً وجهة نظرهم وأعدت أولى حملات الإنكليز على العراق (وكانت عبارة عن لواء من المشاة «اللواء ١٦ التابع للفرقة ٦» بقيادة أمير اللواء «ديلامين»، أي

---

(١) LLOYD GEORGE, Mémoires De Guerre, II, p. 260.

(٢) فيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص٣ ـ ٤؛ متى عقراوي، العراق الحديث، ص٢٩.

(٣) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ص٨ ـ ٩.

(٤) LLOYD GEORGE, Ibid. II, p. 259.

ما سمي بالحملة (D) وهو الحرف الأول من اسم القائد المذكور)، تلك التي اتجهت إلى البحرين ورابطت فيها فترة ثم سارت شمالاً (أوائل تشرين أول ١٩١٤). وفي ١١/٦، أي في اليوم التالي لإعلان إنكلترا الحرب على تركيا، أبحرت باقي قوات الفرقة السادسة بقيادة الفريق الأول السير «آرثر باريت» من بومباي وانضمت إلى اللواء ١٦، فاكتمل ملاك الفرقة (١٥ ألفاً) فوصلت إلى العراق في ١١/١٤، ونزلت إلى البر[٥] قرب شط العرب واستولت على الفاو — وكان يرافقها السير برسي كوكس بوصفه رئيساً للحكام السياسيين — وأصدرت بياناً يُطَمْئِن السكان بأن الحكومة البريطانية لا تخاصم العرب المقيمين على ضفتي الشط، وعليهم أن لا يخشوا تعرض الجند لهم ولأموالهم إذا وقفوا موقفاً ودياً لا يؤازرون فيه الترك، أو يحملون السلاح علناً[٦].

استولت الحملة بعد الفاو على مدينة البصرة في ١١/٢٢ بدون مقاومة، وكان لاحتلالها — وهي ميناء العراق الوحيد — شأن عظيم في تشجيع الإنكليز على الاستمرار في تقدمهم شمالاً. ثم تتالت بعد ذلك النجدات التي عززت قوتها، فاستولت في شهر كانون الأول على مدينة القرنة حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات، بعد معركة كبيرة، ففرضت سيطرتها على طول شط العرب. وفي ١ نيسان ١٩١٥ جُعل من قوات الحملة فيلقاً تاماً عين لقيادته الجنرال «نكسون NIXON»، وصدرت إليه الأوامر باحتلال جميع أراضي ولاية البصرة، فشرع في تقدمه وخاض معركة حامية الوطيس في الشعيبة في ٤/١٤ صد فيها هجوماً شنه عليه سليمان عسكري بقوة قوامها ٢٠ ألف مقاتل من عرب وكرد غير نظاميين، ومن جنود أتراك، فتراجعت قوات الترك إلى الناصرية يحمل قائدها سليمان العسكري من عار الهزيمة ما دفع به إلى الانتحار، بعد أن خسر الترك قريباً من ستة آلاف قتيل وجريح وأسير، مقابل ألف من الإنكليز[٧]. ولما طلب الجنرال نكسون نجدات جديدة للتقدم نحو بغداد رُفض طلبه، وصدرت إليه تحذيرات مفادها عدم توسيع الجبهة توسيعاً كبيراً «إن مواقعنا الاستراتيجية الآن متينة، ولا نستطيع المجازفة بتوسيعها توسيعاً يصل إلى حد المبالغة. ففي العراق يجب أن يكون الشعار هو الحذر»[٨]. ذلك أن حكومة الهند لم تكن مستعدة في ذلك الوقت لتؤيد مثل هذا الهدف البعيد. وبعد أن تم احتلال العمارة في ٦/٣٠ ثم الناصرية في ٧/٢٥ إثر

---

(٥) الفريق تشارلس طونزند، محاربتي في العراق، ص٤١.

(٦) عبد الرحمن البزاز، المصدر السابق، ص٨ — ٩، الزعيم الركن شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤ — ١٩١٨، ص١٦ — ١٨.

(٧) الفريق تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص٤٩؛ شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص٣٠.

(٨) LLOYD GEORGES, Ibid. II, p. 261.

معارك دامية تحقق للحملة السيطرة على المثلث الواقع بين البصرة والعمارة والناصرية ، فانتهت بذلك أول مرحلة من مراحل حملة العراق ، بعد أن أصبحت ولاية البصرة كلها تحت السيطرة البريطانية ، وبدأ البريطانيون بعد أن رسخت أقدامهم فيها بنشاط واسع ، إذ عينوا حاكماً سياسياً عليها ، وأخذوا في إدخال النظم الجديدة إلى إدارتها ، والتوغل في حياة أهلها . وبينما رأى فريق من الساسة البريطانيين لزوم الاكتفاء بهذا القسط من التقدم في أراضي العراق ، معتبرين أن الحملة قد حققت أهدافها بعد الإطمئنان على سلامة نفط عبادان ، وطرد الأتراك إلى الشمال ، وتطويق الخليج وإبعاد العدو عن جميع أطرافه ، والاستيثاق من دوام ولاء مشايخ الخليج للتاج البريطاني ، عارض فريق آخر منهم هذا الرأي وارتأى وجوب الزحف على بغداد ، فاستطاع أن يتغلب على تمنع حكومة لندن ، وأن يحملها على تغيير رأيها ، خاصة وأن الانتصار السريع قد دفع إلى المغامرة والاستزادة من الانتصارات ، فاستقر الرأي على احتلال بغداد ، وضم ولايتها مع ولاية البصرة إلى الإدارة الهندية مباشرة . وقد لخص اللورد هاردنج نائب الملك في الهند فوائد التقدم الجديد بقوله إنه سيُحدث أثراً عظيماً في الشرق الأدنى ، وخاصة في إيران وأفغانستان وعلى حدود الهند ، ويكون بمثابة التعويض عن إخفاق حملة الدردنيل ، ويثير شعوراً جلياً في البلاد العربية[9]

حصار كوت الإمارة

وقد أغرى البريطانيين سهولة الاستيلاء على العمارة — وقد تم بفضل مدرعتين صغيرتين و ٤٠ جندياً فقط تمكنوا لوحدهم من أسر ألف من جنود الحامية التركية وضباطها في ٦/٣ — على مواصلة التقدم[10] لاحتلال كوت الإمارة (وتقع على الدجلة بين بغداد شمالاً والعمارة جنوباً) ، إذ كان قائد الحملة — بعد كل نصر يحرزه — يلح على رؤسائه بالسماح له في التقدم نحو بغداد[11] ، فتَمَّ له احتلالها في ٩/٣٠ ، فازداد الفريق طونزند — الذي ولي قيادة الفرقة السادسة خلفا للفريق باريث ، والذي تولى هذا الزحف — غرورا ، وطلب من القائد العام للجيوش الهندية إمداده بالقوات اللازمة ، فأَمَدَّ فرقته بألف جندي للمضي في تقدمه[12] ، مما شجعه على السير بمحاذاة الدجلة نحو

(٩) عبد الرحمن البزاز ، المصدر السابق ، ص١١ — ١٢ .

(١٠) تشارلس طونزند ، المصدر السابق ، ص٩٤ — ٩٥ ، شكري محمود نديم ، المصدر السابق ، ص٣٧ .

(١١) متى عقراوي ، المصدر السابق ، ص٣٠ .

(١٢) تشارلس طونزند ، المصدر السابق ، ص١٢١ .

بغداد دون اتخاذ الاحتياطات اللازمة، ودون دراسة للوضع العسكري دراسة دقيقة حذرة، مبرهناً بذلك عن تسرع غير حكيم[١٣]، حتى وصل إلى سلمان باك (المدائن)، حيث وقعت معركة كبيرة هزمت فيها القوات البريطانية شر هزيمة، فاضطرت إلى التراجع أمام جيش متفوق أمدته الحكومة العثمانية بعدد كبير من النجدات، بحيث انسحب طونزند بجيشه إلى مدينة كوت الإمارة، فحوصر فيها وراح ينتظر الجيوش البريطانية علها تستطيع إنجاده وفك الحصار عنه. غير أن البريطانيين لم يستطيعوا القيام بأي عمل ناجح لإنقاذه، سواء عن عجز لقلة ورود الإمدادات، أو لازدياد أخطار الفيضانات في النهر الذي كان يطوق المدينة من ثلاث جهات[١٤]، أو لأن القيادة العثمانية قد أسندت إلى قائد ألماني ماهر «فون درغولج VON DER GOLTZ» يعاونه قائد تركي كفؤ (نور الدين بك)، فاستطاعا أن يشددا الحصار على الإنكليز من ١٩١٥/١٢/١٧ إلى ١٩١٦/٤/٢٩، حتى فتكت المجاعة بالإنكليز المحصورين، حيث فقدت الأطعمة وصار الجنود يقتاتون بالحشائش المسلوقة ولحم الخيول، حتى أتوا عليها كلها، وبدأت الأمراض تفتك بهم بفعل المجاعة وسوء التغذية، وذهب ضحيتها كثير من الضباط والجنود[١٥] فاضطروا إلى التسليم بعد حصار دام ١٤٣ يوماً، وبلغ عدد الأسرى من الضباط والجنود (١٣٣٠٠)، كما بلغت خسائر الإنكليز في سبيل انقاذهم (٢٣) ألف جندي، وكان لهذه الكارثة أثرها الأليم في نفوس الإنكليز، مما دفع حكومتهم إلى إرسال لجنة للتحقيق وتحديد مسؤولية هذا الإخفاق، وقد اعتبر جهل السير جون دكن القائد العام مسؤولاً عنها[١٦]. أما نتائجها السياسية فكانت عظيمة إذا أحدثت دوياً هائلاً في جميع أنحاء الشرق، خشي الإنكليز عواقبه الوخيمة، وذلك أن إيران قد تحركت فيها عوامل الثورة بتأثير الدسائس التركية ــ الألمانية، وظهرت على مسلمي الهند آثار التجاوب مع هذا الانتصار اللامع، الذي أحرزته السلطنة فوجب على إنكلترا مضاعفة جهودها لإطفاء اللهب قبل اتساع نطاقه[١٧].

ملاحظات على جبهة العراق

١ ــ قام الإنكليز بحملتهم على العراق باستعداد غير كاف، شرعوا في الهجوم بلواء مختلط

---

(١٣) E. DRIAUIT, Ibid. p. 428؛ فيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص٣٦.
(١٤) ED. MOUSLEY, Ibid. pp. 112-124؛ آرمستونغ، توركيا ناصل دوغدي، ص٧.
(١٥) ED. MOUSLY. Ibid. pp. 152-153; COD. LAMOUCHE, Ibid. p. 366.
(١٦) شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص١٠١؛ عبد الرحمن البزاز، المصدر السابق، ص١٢ ــ ١٣.
(١٧) ED. DRIAULT, Ibid. p. 428.

واحد من ٤٥٠٠ جندي، عُزز بعد عشرة أيام بلواء آخر، ولم تأت النجدات العالية في حينها، كما لم تُرسل المدفعية والمعدات الثقيلة إلا بعد فشل الهجوم على بغداد. كانت الحملة جزءاً من جيش الهند، تتبع في قيادتها هيئة أركان «سِملا SIMLA». وقد برهن منظموها عن غباوة مذهلة وإهمال مشين، إذ لم تؤخذ بنظر الاعتبار طبيعة أرض العراق اللحقية المسطحة، التي تغمرها المياه طوال الفصول الممطرة، وقلة طرقها الصالحة للسير، ووجوب التفكير بتأمين وسائط النقل النهرية الملائمة لوضع الأنهر العراقية، ذلك الذي لم يفعله المسؤولون عن الحملة(١٨). فضلاً عن أن هؤلاء لم يُعدوا عدتهم لمقتضيات مناخ العراق، الذي يُعتبر تطرفه بين شدة الحرارة صيفاً (١٣٤ درجة فرنهايت = ٥٦ سنتغراد) وقساوة البرودة شتاء (رياح باردة وعواطف ثلجية) تجربة شاقة بالنسبة للأجانب، فلم يجهزوا الحملة بالملابس والحرامات والخيام والقبعات الإقليمية، وبالكفاية من الأدوية ووسائل المعالجة ــ حتى الضرورية لمعالجة الجرحى، مبالغةً في الشح والتقتير ــ فانعدمت التدابير الصحية وانتشرت أمراض الطاعون والجدري، والملاريا والهيضة والتيفوس بين الجنود، نظراً لرداءة الوسائل الوقائية وجهل السكان، يضاف إلى ذلك كله الإصابات بالرَّعن الناتجة عن ضربة الشمس(١٩). وهذا ما دعا الحكومة البريطانية إلى فك ارتباط الحملة بحكومة الهند، واضطلاع حكومة لندن بإدارتها اعتباراً من تموز ١٩١٦ لإعطاء حد للفوضى التي كانت سائدة فيها، وتشكلت لجنة تحقيق ألقت المسؤولية على نائب الملك في الهند، وعلى القائد الأعلى لجيش الهند، وجرى تزويد الحملة بما يلزمها للمثابرة في أداء مهمتها فتغيرت حالتها تغيراً تاماً(٢٠).

٢ ــ لم يكن الأتراك أقل تقصيراً من الإنكليز، فقد ارتكبوا من الأخطاء ما جعل العراق يفلت من أيديهم ويصبح لقمة سائغة للإنكليز، ذلك أن المسؤولين في الآستانة قد قطروا دولتهم وراء المصلحة الألمانية الصرف، دون أن يلتفوا إلى مصالح السلطنة الأساسية في الدفاع عن المناطق العربية، التي تعرضت للهجوم الإنكليزي، سواء في سورية أو العراق، فاستجابوا لرغبة حليفتهم وأرسلوا قوات كبيرة إلى الجبهة الروسية لتجميدها ومنع روسيا من إرسال قوات من القفقاس تهدد بها ألمانيا والنمسا في الجبهة الشرقية الأوروبية(٢١). فكان عليهم ــ والحالة هذه ــ أن يجردوا العراق من

(١٨) LLOYD GEORGE, Ibid. II, p. 264.

(١٩) شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص١٥.

(٢٠) LLOYD GEORGE, Ibid. II, pp. 264, 280.

(٢١) ED. DRIAULT, Ibid. p. 428.

القوات النظامية التي تضمن حمايته ضد أي غزو أجنبي (أرسلوا الفرق ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ إلى الجبهة الروسية) ، معتبرين أن فرقة واحدة (الفرقة ٣٨) وعدة طوابير من الدرك المحلي، التي شرعوا في تجنيدها ، بالإضافة إلى قوات العشائر وحرس الحدود (أي مجموع ١٧ ألف بندقية و ٤٤ مدفعاً و ٣ رشاشات قديمة الطراز) كافية للدفاع عن مساحة من الأرض تزيد على /٤٦٠/ ألف كيلو متر مربع[٢٢] ، مع كونها غير نظامية وناقصة التدريب والعدة والعدد. ولم توضع أية خطة لضمان ثباتها في الحرب ، فضلاً عن نقص تدابير التعبئة ، وارتفاع نسبة الفرار من صفوف الجيش إلى درجة عالية جداً[٢٣] ، وبينما يفسر الأتراك هذا الإهمال بكونه استجابة لرغبة الألمان ، يفسره العرب بأنه استجابة للنزعة الطورانية التي برزت بوضوح وجلاء في تصرفات الترك في أثناء الحرب أكثر منها قبل نشوبها ، فقد أخذوا يفكرون بأبناء عنصرهم القاطنين في روسيا وإيران وغيرهما من بلاد الشرق ، ويعملون على إنقاذهم ودمجهم في حظيرة السلطنة ، فتراهم يحشدون الجيوش الجرارة في جبهة القفقاس للهجوم بدلاً من الدفاع ، بينما أهملوا الجبهات العربية وجردوها من الجند[٢٤](*) . والرأيان لهما وجاهتهما ، وفي اعتقادي أن لهما نصيباً كبيراً من الصحة ، وأن الأتراك قد فكروا في الهدفين معاً .

وهناك أخطاء أخرى ارتكبها الترك ، ذلك أن القيادة العامة التركية لم تكن على معرفة تامة بأحوال العراق وطبيعة أراضيه ، ولم تتوفر لديها من خرائطه سوى واحدة بمقياس $\frac{١}{١،٥٠٠،٠٠٠}$ وقد قدرت إمكانات القطر وقواته الجاهزة بأضعاف قدرتها الحقيقية ، ولم تدرس قضية الدفاع عنه ، ولم تعد أي تحصينات أو أسلحة دفاعية فيه ، ولم تجر أية مناورات أو زيارات من قبل هيئة الأركان في جنوبيه ، ولم تعد سوى سفينة حربية واحدة مع عدد قليل جداً من سفن النقل ، مما أدى إلى سهولة

---

(٢٢) محمد أمين ، بغداد وصوك حادثة ضياعي ، ص٣٣ — ٣٤ .

(٢٣) شكري محمود نديم ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٢٤) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص١٣٣ .

(*) يقول الجنرال علي فؤاد في مذكراته (كيف غزونا مصر) ، ص٥٨ — ٥٩ ، بأن الخطة الحربية العثمانية كانت من صنع الجنرال الألماني «فون كريس» ووضعه : «لقد سارت فرقة بغداد الـ ١٢ التي هي من الفيلق ١٣ إلى «وان» مشياً على الأقدام ، وتوجهت فرقة الموصل الـ ١٣ إلى حلب ثم إلى حماه ، وبرح الفيلق الـ ٦ حلب إلى الآستانة ، وذهب الفيلق ١٠ من سواس إلى ممسون ليهدد بالنزول في أوديسا .. وعلى هذه الخطة سُحب الجيش من العراق . وحُرم جيش أرزروم من قاعدته المكينة في سيواس ، وهلكت الفرقة ١٣ في سيواس لأنها لم تألف اقليمها . ولكن أعيد بعد ذلك قسم من الفيلق ١٢ إلى العراق ، وسيق الفيلق ١٠ إلى أرزروم وأرسلت الفرقتان ٨ و ١٠ من الآستانة وأزمير إلى سورية ، بدلاً من الفيلق ٦ الذي جُرد من حلب وأرسل إلى الآستانة . وهذه الخطة القويمة التي يوحي بها العقل ، ويأمر بإتباعها بادئ الرأي لم تنفذ إلا والبلاء محدق بالبلاد .

التوغل البريطاني بالرغم من ضعف إمكانات الجيش المهاجم[٢٥]، ولم تفطن القيادة العليا التركية إلى تقصيرها إلا بعد فوات الأوان، حينما استُقدمت ست فرق من جبهتي الأناضول والقفقاس لما تحسن موقف الأتراك فيهما، وأصبح إرسال التقويات إلى العراق أمراً ممكناً. وبذلك استطاع الترك إحكام الحصار على كوت الإمارة واستردادها. غير أنهم ما كادوا يُصلحون خطأهم هذا حتى وقعوا في خطأ آخر. ذلك أنهم في وقت كان عليهم أن يستثمروا انتصارهم في كوت الإمارة لتقوية جبهتهم في العراق، ومنع كل تقدم مقبل من قبل القوات البريطانية، وإذا أمكن لطردها من العراق، أخذهم الغرور ففتحوا جبهة جديدة في إيران[٢٦]، بأمر من أنور باشا، الذي قَدم إلى بغداد في أيار ١٩١٦، وأصدر أوامره إلى الفيلق ١٣ بالإضافة إلى لواء من الخيالة بالحركة من جبهة الكوت إلى جبهة خانقين (التي احتلها الروس في أثناء سقوط كوت الإمارة) لقتال القوات الروسية[*]، وعدم الاكتفاء بطردها بل التقدم إلى الأفغان ثم الهند لاحتلالهما[٢٧]، وكان للألمان تأثير كبير في حمله على اتخاذ هذا القرار، الذي لقي اعتراضاً من خليل باشا قائد الجيش السادس[**]، ومن على إحسان باشا (سابيس)، آمر الفيلق ١٧، اللذين رآيا في هذه الخطوة خيالاً جامحاً يصعب تحقيقه، ومخالفة خطيرة لمبدأ حشد الجيوش[٢٨]. وعلى كل حال سار الفيلق ١٣ إلى إيران وصد الهجوم الروسي، وثابر على تقدمه في المنطقة الإيرانية إلى أن اقترب الإنكليز من بغداد، فصدرت إليه الأوامر بالإرتداد لمشاركة الجيش العثماني مهمة الدفاع عنها فوصل متأخراً[٢٩].

٣ ــ عندما بدأت الثورة العربية لم يشأ كل من الأتراك والبريطانيين أن يذيعوا خبرها بين

---

(٢٥) محمد أمين، المصدر السابق، ص٣٤؛ شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص١٩.

(٢٦) COL. LAMOUCHE, Ibid. p. 366.

(*) كانت القوات الروسية قد احتلت شمالي إيران بينما احتلت القوات الإنكليزية جنوبيها دون رضى السكان، وذلك بناء على مقتضيات الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط، فلجأت ألمانيا إلى إرسال الماريشال فون درغولج VON DER GOLTZ إلى العراق ليتسلم قيادة الجيوش العثمانية المرابطة فيها، ويعمل على مواجهة الخطر الإنكليزي في جنوبي العراق، وخطر الروس في الشرق، والعمل على طردهم من إيران وإلحاقها بالسلطنة العثمانية. وعندما توفي درغولج ١٩١٦/٨/٦ بالتيفوس، بعد استرداد كوت الإمارة، عُين خليل باشا عم أنور باشا قائداً للجيش السادس بدلاً منه، وكان لوفاة الماريشال أثر عميق على تأخر الموقف الحربي في العراق. (Y. H. BAYUR, Ibid. III, p. 129).

(٢٧) يمان فون ساندرس تركيا دو بسن سنة، ص١٢٥، شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص١١١.

(**) الجيش السادس هو الجيش الذي أصبح يرابط في العراق، مقره العاصمة بغداد وقائده خليل باشا هو عم أنور باشا.

(٢٨) محمد أمين، المصدر السابق، ص٣٥ ــ ٣٦.

(٢٩) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٤٧.

العراقيين . وإذا كان الترك قد خشوا أن يمتد أثرها على سكان القطر العراقي ، فإن الإنكليز قد فعلوا ذلك مكراً بالقضية العربية ويقيناً منهم بأن موارد قوتهم الخاصة تكفي لاحتلال العراق[٣٠] . وفضلاً عن ذلك فإن سلطات الهند الانكليزية قد استهجنت ثورة الحسين ، إذ كانت بنظر نائب الملك « مفاجأة غير سارة » وأن إخفاقها كما قال « قد يكون أقل ضرراً (للإنكليز) ، في الهند وفي أفغانستان ، من تدخلهم وتأييدها عسكرياً » . فقد كانت سلطات « سيملا » تخشى أن يعدها كثير من المسلمين ، في الهند وعلى حدودها ، دسيسة إنكليزية وتدخلاً مسيحياً في شؤون الدين الإسلامي ، كما تخشى استفحال القضية العربية ، وترغب في عدم اتخاذ العرب حلفاء قد يعقّدون أمام الإنكليز قضية التسوية النهائية للوضع السياسي في العراق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن سلطات الهند لم تكن تؤيد سياسة عربية ليست هي التي توجهها ، لأنها هي التي كانت تضطلع ولوحدها ــ منذ أجيال بعلاقات بريطانيا العظمى بالعرب[٣١] . وهذا هو الذي جعل سطلات الهند تتوجس من طالب النقيب ، وترفض مقترحاته للعمل يداً واحدة ضد الترك ، وسوقه إلى الهند في نفي اختياري . كما توجست من الضباط العراقيين في الجيش التركي مثل نوري السعيد ، وعبد الله الدملوجي ، وغيرهما ، الذين عرضوا خدماتهم للعمل في الثورة العربية ، فقوبلت عروضهم بالشك والريبة في بادىء الأمر ، حتى اضطر الدملوجي للذهاب إلى الرياض والدخول في خدمة أميرها . لقد حرصت هذه السلطات على ألاّ يكون لثورة الحسين أثرها الكبير في إذكاء الشعور القومي ، فلم تسمح بنشر أخبارها بين القبائل ، بغية تشجيعها على القيام في وجه الترك إلا بمقدار لا يتسرب إليها منها إلا النذر اليسير ــ وخاصة بعد الاستيلاء على بغداد ــ وفقاً للسياسة التي كان الجنرال مود ، القائد العام الجديد ، والسير برسي كوكس وسكرتيرته المس « جرترودبل » وسائر الموظفين السياسيين ينتهجونها في ترسيخ أقدام السيطرة البريطانية المباشرة ، وليس في خلق الشعور القومي العربي الذي قد يصطدم بالسياسة البريطانية . ومع ذلك فقد كان عرب العراق على اتصال بالتيار القومي الذي انطلق هادراً من مكة ، واندفع نحو الشمال وذلك بواسطة الكتب والجرائد والنشرات[٣٢] ، ومنها كتاب « ثورة العرب » ، الذي كلف أحد أعضاء الجمعيات العربية ــ أسعد داغر ــ بوضعه ونشره مغفلاً من الإسم ، ووزع على نطاق واسع في جميع أنحاء البلاد العربية ، فتسربت نسخ منه إلى العراق ، شأنه شأن جريدة القبلة في مكة ، وجريدتي المقطم والكواكب في مصر ، وكانت تحمل

(٣٠) تحسين العسكري ، المصدر السابق ، ص١٤٦ ، ١٥٧ ــ ١٥٨ .

(٣١) فيليب آيرلاند ، المصدر السابق ، ص٦٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص١٨٣ ، ١٨٤ .

حملات شعواء على الاتحاديين وتبث، بالمقالات المسهبة التي تكتبها عن الحركة العربية، الأفكار الداعية لمؤازرتها، معلقة آمالا واسعة على نجاحها. وكانت هذه الجرائد كثيرة الانتشار في القطر العراقي، فأحدثت أثراً عميقاً في نفوس العراقيين، وأثارت فيهم كوامن الشعور القومي، ودفعت ضباطهم الذين وقعوا في أسر القوات الإنكليزية للالتحاق بقوات الثورة، كما كان لها أثر كبير في تطور الاتجاه العام في نفوس الشعب العراقي، وانقلابه من مؤيد للأتراك إلى مناهض لحكمهم[٣٣].

٤ ــ لم يكن الرأي العام العربي في العراق متبلوراً حينما فاجأته الحرب، فاذهله دخول السلطنة فيها. ولم يستطع زعماؤه تبين الخطة التي يجب سلوكها ــ بعد غياب طالب النقيب لولب الحركة الوطنية، وبعد سقوط البصرة بما فيها من رفاق طالب، ومالهم من تأثير على النفوس ــ خاصة وأن محادثات الشريف حسين كانت تجري طي الكتمان، وان كبار الضباط العراقيين، من أعضاء حزب العهد، كانوا في سورية يخططون سراً مع أخوانهم السوريين ومع الشريف حسين دون علم من أخوانهم في العراق، أو أنهم كانوا مشتتين في مختلف جبهات الحرب[٣٤]. لذلك كله نشاهد تميّع الموقف العربي في العراق في سنوات الحرب الأولى، سواء في ذلك موقف «العهديين» من ضباط ومدنيين، وان بدر من فريق منهم بعض محاولات التكتل والاتصال ببعض زعماء الامارات العربية حول الخليج العربي، يدعونهم إلى تعزيز القومية العربية وحماية مصالحها، وذلك قبل انضمام تركيا إلى صفوف المتحاربين، لكنها لم تكن سوى محاولات عقيمة[٣٥]، أو موقف القبائل العربية التي كان لها شأن ما في التطورات العسكرية والسياسية معاً. هذا ملخص للوضع ولا بد من بعض التفصيل:

أولاً: موقف القبائل العربية

لقد لعبت العشائر دوراً في الحرب من حيث كونها عنصراً أقلق الفريقين المتحاربين على السواء. إذ كان دأبها استغلال الموقف لصالحها، والاستيلاء على الأسلاب من أسلحة ومهمات، وقد حاول الطرفان استمالة زعمائها بشتى الوسائل، فلم يُجْدِهما ذلك فتيلاً، إذ كان النجاح محدوداً، وظلت غاية القبائل المصلحة الذاتية[٣٦]، أو التكيّف بحسب رجحان الكفة. فإلى ما قبل

(٣٣) محمد المهدي البصير، المصدر السابق، ص٧٤ ــ ٧٥.

(٣٤) فرنان وليه، المصدر السابق، ص٦٤.

(٣٥) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص٤٢ ــ ٤٤.

(٣٦) شكري محمود نديم، المصدر السابق، ص١٥؛ فيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص٦٨.

معركة الشعيبة كان قسم كبير من العشائر في جانب الأتراك ، بالرغم من ضغينة زعمائها عليهم ، لكن سوء تصرف الأتراك من جهة ، واندحار قواتهم من جهة ثانية قد دفعا بمعظم القبائل إلى تحديد موقفها منهم .

كانت بعض القبائل ، بقيادة الأمير مبدرآل فرعون ، الذي اجتمعت إليه عشائر لواء الديوانية ، ومن أبرزها عشائر آل فتلة ، قد ثار على الترك في عام ١٩١٣ ، ودامت ثورته أربعة أشهر تقريباً ، ثم قُضي عليها بعوامل الخيانة من أحلافه ، فألقى العثمانيون القبض عليه مع عدد آخر من زعماء العشائر الذين ظلوا رهن الاعتقال حتى نشوب الحرب العالمية الأولى وسقوط البصرة . فرأت السلطات التركية أن تطلق سراحهم وترسلهم إلى البصرة لمؤازرة الجيش العثماني في مقاومة الإنكليز . وكان ذلك نتيجة لمساعي علماء النجف الأشرف وغيرهم من الزعماء الدينيين ، فصدعوا بأمر العلماء ، وجمعوا أتباعهم وخاضوا المعارك في الشعيبة[٣٧] ، يدفعهم إلى ذلك أمران : أولاً إخلاصهم للرابطة الإسلامية ووجوب مقاومة أعدائها المغيرين ، وثانياً مشاهدتهم بأن علماءهم الروحانيين الذين تجب طاعتهم — وقد أصدروا فتاوى الجهاد بوجوب نصر المسلم على غير المسلم — قد سبقوهم بأنفسهم إلى مقدمة صفوف المجاهدين من العشائر ، بعد أن استغلت الحكومة العثمانية بعدهم عن كل مايمت إلى السياسة بصلة ، فاستنجدت بهم على أساس دعم الإسلام وحفظ كيانه . وكان على رؤساء العشائر أن يطيعوا العلماء بالرغم من أنهم يعرفون جيداً «السياسة العثمانية تجاههم مبدءاً وعنصراً . لأنهم لم يجرؤوا أمام إرادة العلماء أن يفتحوا باب النقض والإبرام»[٣٨] . فتشكلت جبهتان حربيتان من المجاهدين وعلى رأسهما العلماء ورؤساء العشائر وقليل من جنود الترك ، أولاهما : جبهة الشعيبة في الجنوب الغربي من الفرات ، وكان قائد المجاهدين فيها العلامة السيد محمد سعيد حبوبي ، وثانيتهما : الجبهة الشرقية جنوبي نهر الدجلة ، وكان قائد المجاهدين فيها العلامة السيد علي الداماد . وقد برهن أفراد القبائل في المعارك ، التي خاضوها ضد القوات الإنكليزية ، عن عدم جدوى العدد الكبير من المقاتلين ، إذا كان ينقصهم التنظيم والاستعداد الفني ، والعُدَدُ الحديثة . فبالرغم من الشجاعة الفردية التي أظهرها المجاهدون ، لم تكن القبائل قادرة على مجابهة القوات الإنكليزية المنظمة ، إذ تراجعت بغير انتظام وأحدثت ارتباكاً في جبهة الترك فعمت البلبلة في صفوف القوات العثمانية المهلهلة . وسرعان ما اغتنم الإنكليز الفرصة فقاموا بهجوم عام تراجع العرب

(٣٧) محمد المهدي البصير ، المصدر السابق ، ص٤٧ .

(٣٨) فريق المزهر آل فرعون ، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية ، ص٣٣ — ٣٨ .

على أثره. وفي أثناء تراجعها فتكت القبائل بالجيوش العثمانية المرابطة في «هور الحمار»، وأعملت فيها سلباً ونهباً، مما ترك أثراً سيئاً لدى الترك، وحملهم على عدم العودة إلى طلب المساعدة منها[٣٩].

وبعد أن رابطت القبائل فترة في الناصرية والسماوة تفرقت وذهبت كل قبيلة وكل زعيم إلى موطنه، باستثناء عجيمي باشا السعدون الذي بقي، مع قبيلته «المنتفك»، مرابطاً مع الجيش التركي في منطقته إلى النهاية[٤٠]. ولم يقتصر أثر هذه الهزائم، الشديد الوقع على نفوس الترك، على انتحار القائد التركي سليمان عسكري، بل إن قائد الجبهة الثانية محمد باشا الداغستاني قد توفي فجأة من شدة تأثره بنتائجها الوخيمة. وكان من أسباب الفشل — إلى جانب عدم التنظيم — نقص المؤن حتى الضروري منها، كالخبز والذخائر الحربية. ومما لوحظ على الترك في أثناء هذه المعارك عدم تقديرهم لمساعدة العلماء والزعماء العرب حتى في أيام الشدة واحتياجهم إلى عطف العرب، ذلك أنهم قد اعتادوا معاملتهم بالقسوة والسخرية اللاذعة. قال أحد قادة الأتراك للمجاهدين دون خجل، وهم في غمرة القتال «إننا لو فتحنا الشعيبة والبصرة يبقى علينا واجب ثان وهو فتح العراق، وخاصة منه الفرات أولاً وعشائر شط دجلة ثانياً لأنهم خونة». فنهض إليه الشيخ بدر الرميض رئيس بني مالك وأجابه «أنتم الخونة للإسلام ... وتحزبكم ضد العرب مصداق لقولي .. وأنتم بعد هذا أولى بالحرب والقتال ممن نحارب، ولولا فتوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقاتل فيها»[٤١].

ثورة النجف وكربلاء والحلة: لم يمض شهر واحد على هزيمة الشعيبة، وانسحاب العلماء وزعماء العشائر وأفرادها إلى مناطقهم — بعد أن نهبوا المعسكرات التركية في طريقهم — حتى وجهت الحكومة العثمانية حملة انتقامية مؤلفة من ألف جندي، بين راكب وراجل، بقيادة الضابط التركي «عزت بك» إلى النجف لاعتقال الهاربين من الجندية، فاشترك مع قائمقام النجف — وكان رجلاً فظ الطباع سيء الإدارة خرق الرأي — وضغطا على النجفيين بالضرائب الباهظة، ونكلا برجالهم وشرادهم — دون داع من جريمة — ومسا منهم الكرامات، ثم انطلق جند الأتراك يعيثون في الأرض فسادا يسلبون ويفتكون دون رادع من ضمير، فانقطعت آخر الصلات الودية بين الأتراك والنجفيين، وأدى الأمر إلى الجفاء والنفور، فهاجم الجنود الهاربون في فجر ٨ رجب ١٣٣٣

---

(٣٩) فريق المزهر فرعون، المصدر السابق، ص٣٨؛ رسائل الأهالي، المصدر السابق، ص٣١٩؛ الفريق تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص٥٥ — ٥٧.

(٤٠) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص٦٧.

(٤١) فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٣٨ — ٣٩.

(منتصف أيار ١٩١٥) الحامية العثمانية ، وقاتلوا رجالها قتالاً شديداً بعد أن انضم إليهم أهل البلدة . وبعد نضال دام ثلاث ليال أذعنت لهم الحامية واستسلم جنودها ، فاستولى الثوار على أسلحتهم ومعداتهم ، وطردوهم من البلدة مع قائمقامها ، حتى لم يبق تركي في المدينة ، واحتلوا دار الحكومة ، وألف زعماء أحياء البلدة الأربعة حكومة وطنية دامت سنتين ونيف ، سارت سيراً مرضياً دلت على مقدرة العرب في حكم أنفسهم بأنفسهم ، إلى أن استتب الأمر للإنكليز فقضوا عليها بالعنف[٤٢] . ثم قرر الزعماء إرسال وفد منهم إلى مدينة كربلاء لتهييج الرأي العام فيها فاستجاب هؤلاء إلى النداء ، وهاجمت قبائل بني حسن الحامية التركية في منتصف شعبان (أواخر حزيران ١٩١٥) ، واقتتلوا مع الترك قتالاً عنيفاً وحرروا البلدة منهم ، واستولوا على دار الحكومة وطردوا الموظفين الترك ، وتشكلت إدارة عربية بإشراف أسرة آل كمونة أضطلعت بأعباء الحكم[٤٣] . ولم يقف الهياج عند هاتين المدينتين ، إذ سرت العدوى إلى مدينة الحلة التي بلغ استياؤها من ثقل الضرائب والتكاليف الحربية وإساءة تنفيذ قانون الخدمة الإجبارية حداً جعلها تضرم نيران الثورة ، في منتصف شوال (أواخر آب ١٩١٥) ، إثر محاولة رجال الدرك اعتقال بعض أفراد الشعب[٤٤] ، فاصطدموا بمعارضة عنيفة من المواطنين ، الذين رفضوا تسليمهم ، وتطور الأمر إلى قتال عنيف بين الطرفين ، تمكنت جماهير الشعب في نهايته من احتلال دار الحكومة بعد مقتل ستة أفراد من الدرك و ١٣ من الأهالي .

سكتت الحكومة التركية على هذه الأعمال ريثما ينتهي حصارها لكوت الإمارة ، وما إن سقطت هذه في أيدي قواتها حتى أزمعت على الانتقام من أهالي الحلة وتصفية حسابها معهم ، فشكلت حملة أطلقت عليها اسم « جيش الانتقام » مؤلفة من عدة أفواج بقيادة « عاكف بك » وصلت إلى القرب من كربلاء ، واتصلت بزعيمها الشيخ محمد علي كمونة ، طالبة منه السماح بالدخول إليها ، فرفض قائلاً إنه إذا كان قصد الحملة إقرار الأمن فإن الشعب يهتم بإقراره ، وأما إذا كان الغرض شيئاً آخر فالشعب مستعد للقتال ، فصرف القائد النظر عن دخول كربلاء ، وقرر الاتصال بأهل الحلة ومفاوضتهم للاستسلام ، بعد أن رأى منهم التحفز والاستعداد للدفاع عن مدينتهم . ولم يتورع عن اللجوء إلى الحيلة محاولاً إقناعهم بوجوب فتح مدينتهم لجيشه ، الذي لا يريد إلا قضاء فترة استراحة فيها ، ليجتازها بعدئذ إلى منطقة أخرى . وبعد أخذ ورد اتفق الطرفان على إعطاء الجيش

(٤٢) جعفر الشيخ باقر آل محبوبة ، ماضي النجف وحاضرها ، ص٢٤٦ ــ ٢٤٧ .

(٤٣) SIR ARNOLD WILSON, Ibid. I, p. 72.

(٤٤) فريق المزهر آل فرعون ، المصدر السابق ، ص٤٢ .

حرية المرور، بعد أن أخذ القائد التركي نسخة من القرآن، وكتب في آخر صفحة من صفحاته عهداً بتأمين الحليين على أرواحهم وأموالهم، مشهداً الله أن ليس في نيته إيذاء أحد منهم بشر، وأنه يريد المرور فقط. وقد توسط بذلك الشيخ محمد علي القزويني، الذي هدد بمغادرة البلاد فيما إذا رفض الشعب طلبه، فصدع السكان بالأمر، وجرى الاتفاق على أن يخرج رؤساء أحياء الحلة ليرافقوا القائد التركي في الدخول، فخرج ما يقارب من /٥٠٠/ فارس منهم لاستقباله (١٧ محرم ١٣٣٤، ١٩١٦/١١/١٥)، كما خرج معهم الرجال والنساء. وما اكتمل جمع الناس حتى بادر الجند إلى تطويقهم واعتقلوهم، ودخلوا المدينة(٤٥)، وبدؤوا يفتكون بالسكان فتكاً فظيعاً، إذ قتلوا عدداً كبيراً منهم، نساء ورجالاً وأطفالاً، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، واستباحوا كل شيء في البلدة، وهتكوا ستر بعض المخدرات من العوائل الشريفة، وحمل القائد معه بعضهن وأبقاهن بضعة أيام في مخيمه، ثم نقل بعضهن إلى المناطق التركية، وأعاد بعضهن الآخر(٤٦)، فلم يقو معظمهن على الحياة بعد أن سُلب عفافهن، فألقين بأنفسهن في النهر وغرقن(٤٧). ولم يكتف عاكف بك بذلك بل أمر بتدمير أربعة أحياء من المدينة بقنابل المدافع، ولم يُبقِ بيتاً من بيوت الأشراف إلا وهدمه، وعلق خمسة عشر من وجهاء المدينة وشرفائها على أعواد المشانق، ثم جمع شبان المدينة ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ ـــ ٤٥ سنة وأمر بسوقهم جميعاً إلى الجندية.

في الحقيقة بلغت فظائع الترك في العراق، في أثناء الحرب، درجة لا تقل عن فظائعهم في دمشق، فقد شردوا الضباط العرب في مختلف الجبهات المحاربة في الأناضول، ولم يسندوا إلى من بقي منهم إلا مناصب ثانوية لا تمكنهم من إظهار شعورهم الوطني، وسجنوا أو أخرجوا من البلاد جميع المثقفين من العرب، وجميع الوجوه والأعيان الذين يشكون بأنهم يحملون أفكار قومية، وفرضوا الضرائب المرهقة، وعطلوا الصحف إلا التي كرست أعمدتها لتمجيد الاتحاديين وأعمالهم، وكموا الأفواه وخنقوا الحريات، وعاملوا بوحشية كل من يعترض على سياستهم أو ينتقدها(٤٨)، فنصبوا المشانق في «باب الأعظمية» ببغداد وقد راح ضحيتها عشرات العراقيين وأغلبهم من أصحاب الصحف المحلية الحرة، وجرى التنكيل بسكان بغداد والموصل وغيرهما من المدن العراقية سجناً ونفياً

(٤٥) CORRESPONDENCE D'ORIENT, 10/3/917, pp. 148-149 (عن جريدة الأوقات البصرية بقلم مراسلها الهارب من الحلة)؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج٢، قسم ٢، ص٢٧.

(٤٦) فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٤٣.

(٤٧) خير الله خير الله، المصدر السابق، ص٨٨.

(٤٨) فيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص١٨٣.

وإعداماً ، ولم ترحم السلطات الحاكمة النساء المخدرات والبنات والأطفال والشيوخ وعجائز النساء ، بل أبعدتهم إلى الأناضول دون شفقة أو رحمة مع الرجال ، ومعظمهم من كبار العائلات ووجهاء البلاد ، مثل آل الألوسي والسويدي وثنيان والحيدري والكاظمي وغيرهم ، كما نصبوا المشانق في كوت الإمارة بعد استردادها من الإنكليز ، وأعدموا زعماء المدينة بتهمة التعاون مع العدو(٤٩) . هذا عدا عن القتل غيلة دون حكم أو محاكمة ، فقد قتلوا بهذه الطريقة ثابت السويدي ، الذي كان يشغل وظيفة قائمقام في مناطق الأرمن ، فامتعض من أعمال الإبادة التي سلكها الاتحاديون بحق الشعب الأرمني ، فألقي القبض عليه واغتيل من قبل حراسه في أثناء سوقه مخفوراً من بلدة إلى أخرى(٥٠) . كما ألقوا القبض على المناضل العربي عبد الله صائب ، الذي هرب من مظالم الإنكليز وسياسة العسف التي أتبعوها في البصرة ، والتجأ إلى بغداد ، فلقي المصير نفسه غيلة بيد الاتحاديين ، الذين قتلوه رمياً بالرصاص في أثناء سوقه معهم حينما هربوا من بغداد أمام الجيش الإنكليزي المهاجم للمدينة وألقوا بجثته في النهر(٥١) .

صدى فاجعة الحلة : وعندما وصلت أخبار الكوارث التي أوقعها الأتراك بأهالي الحلة إلى زعماء عشائر العراق اهتزت مشاعرهم لها ، بالإضافة إلى ما اتصل بهم من فظائع الأتراك في بغداد ، فأخذتهم الحماسة القومية إذ جمع الشيخ مبدر الفرعون ، رئيس عشائر الفتلة ، جميع الرؤساء والأعيان في مدينة النجف ، وألقى فيهم خطبة قوية ندد فيها بالفظائع التي ارتكبها الترك في مختلف المناطق ، من قتل للنفوس وهتك للأعراض المصونة ، وحرضهم على غسل عارها قائلاً « والله لبطن الأرض خير لكم من ظهرها إن ركنتم لهذه الأفاعيل الهمجية » . وحذرهم من أن الدولة تريد محو العرب ، ودعا إلى الاتحاد والتعاضد ومكافحة الظلم والتحرر من الاسترقاق . فما إن سمع الزعماء هذه الخطبة حتى سرت فيهم كلماتها سريان الكهرباء ، فقامت عشائر الفرات ورفعت علم الثورة ، وساهمت مع الإنكليز في طرد الأتراك من المنطقة(٥٢) ، وكان مبدر الفرعون ــ وهو أول من انتسب من رؤساء العشائر إلى النادي الأدبي في بغداد عام ١٩١٢ ــ قد تداول مع عدد من ضباط حزب العهد العراقيين وزعماء العشائر في القضية العربية في حالتها الراهنة ، وكان هؤلاء الضباط مترددين في

---

(٤٩) فائز الغصين ، المظالم في سورية والعراق والحجاز ، ص٨٥ ــ ٨٦ .

(٥٠) تحسين العسكري ، المصدر السابق ، ص٣٢ .

(٥١) مذكرات سليمان فيضي ، ص٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٥٢) فريق المزهر آل فرعون ، المصدر السابق ، ص٤٤ ــ ٤٦ .

القيام بعمل حاسم خشية الوقوع في براثن الاستعمار الإنكليزي. ولا بد من بحث هذه الناحية بشيء من التفصيل، بعد أن رأينا موقف العشائر.

ثانياً: موقف الضباط «العهديين»

بقي ضباط العرب «العهديون» منذ الهجوم البريطاني على العراق في حالة ترقب ـــ واتجاههم من حيث السياسة التركية نحو العرب معروف ـــ ولكنهم لا يستطيعون القيام بأي عمل متهور، ولا يأمنون غدر البريطانيين ولا يثقون بهم، خاصة وأنه لم يصدر عن هؤلاء من الضمانات الصريحة ما يطمئن نفوس العرب في العراق، لا بل إن السلطات البريطانية كانت تتخذ من التدابير والقيود ما ينفرهم منها، كالاستيلاء على المساكن دون أن يُدفع بدل إيجارها، وعلى الأغذية والمؤن ووسائل النقل النهرية لمصلحة الجيش. بل كان بين الأوامر التي كانت تفرض عليهم ما يحتم على سائقي العربات وأصحاب الزوارق أن يفضلوا في جميع الحالات الضباط البريطانيين والنساء الأوروبيات، وحظر بيع الأطعمة في الأسواق إلا بعد أن تكون حاجات الجيش قد سُدت منها، وسحب العمال من أعمالهم والفلاحين من حقولهم ومن بين أسرهم ليستخدموا في الأشغال العسكرية. باختصار كانت حاجات السكان، منذ البداية إلى النهاية، تعتبر شيئاً ثانوياً بالنسبة لحاجات القوة المحتلة، مما برهن على أن البيانات التي أصدرها الإنكليز، عند نزولهم في الفاو، بأن الحملة البريطانية جاءت لتتعاون مع العرب لتحريرهم من ربقة الترك الغاصبين، كانت كاذبة رائدها المكر والدجل(٥٣)، فوقف أحرار العرب من مدنيين وعسكريين في حيرة من أمرهم. وإذا استثنينا لجوء بعضهم إلى الهرب بشكل فردي من صفوف الجيش العثماني، والالتحاق بالجيش الإنكليزي، «لا خيانة بل خدمة للقومية العربية»، كما فعل مولود مخلص، وعلي جودة الأيوبي، وعبد الله الدليمي وغيرهم إثر وقعة الشعيبة(٥٤)، فان الفكرة العامة التي سادت أوساطهم إنما هي أنهم يفضلون أن تبقى بلادهم موحدة تحت حكم تركي ضعيف، على أن يروها مجزأة إلى مناطق نفوذ تتحكم فيها عدة دول أوروبية(٥٥).

ومع ذلك لم يكد ضباط «العهد» ـــ ولم يكن بوسع غيرهم أن يتصدى لنصرة القضية العربية بسبب الضغط الشديد الذي عاناه المدنيون من السلطات الاتحادية ـــ يشاهدون الهزائم

---

(٥٣) فيليب آيرلاند، المصدر السابق، ص٤٤ ـــ ٤٥.

(٥٤) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص٧٩.

(٥٥) G. STITT, Ibid. p. 155؛ لورنس، المصدر السابق، ج١، ص٣٣.

الملاحقة التي مني بها العثمانيون، حتى بدؤوا يتشاورون فيما بينهم سراً، يتزعمهم العقيد تحسين العسكري، ومنهم المقدمون: صادق الشيخلي، توفيق الحموي، صادق الجندي الشامي، والضباط: تحسين علي، يوسف العزاوي، رشدي القبطان، عبد الرحمن الأعظمي، إسماعيل نامق، يوسف حنظل، موفق الكامل، عيسى الوتري، وتوفيق وهبي، وكثيرون غيرهم. وقد عقدوا مؤتمراً (تموز ١٩١٥) بحثوا فيه وضع العراق، واحتمال مصيره إلى الاحتلال الإنكليزي، بسبب سوء تصرف الاتحاديين بمقدرات البلاد، وقرروا الدخول في مفاوضات مع الإنكليز على أساس منح العراق الاستقلال، تمهيداً لاستقلال بقية البلاد العربية، على أن يعلن جيش منطقة المنتفك (جنوب العراق) انفصاله عن الجيش العثماني، ويبقى بسلاحه مرابطاً في الفرات الأسفل، ليكون نواة جيش المستقبل. ورتبوا خطة القيام بالحركة واعتقال ضابط الترك وكل من تحتمل عرقلته لها. وجرى الاتصال بالزعيم العشائري عجيمي باشا السعدون الذي أيد الفكرة وأبدى استعداده لمؤازرتها وكُلف بمفاوضة الإنكليز. لكن القائد الإنكليزي الذي اتصل به لم يقبل بمفاوضة العرب مدعياً ان ذلك ليس من صلاحيته، غير أنه حاول إغراء عجيمي باشا بمئتي ألف روبية ــ عربوناً لصداقته ــ على أن يترك الجانب التركي، فامتعض عجيمي باشا من هذا العرض، وصمم على متابعة قتال الإنكليز[٥٦]. كما ثابر الضباط العراقيون على التزام الجانب العثماني، إنما اتجهت أنظارهم شطر الترك يطالبونهم بتحقيق آمالهم القومية، فعقدوا، من أجل ذلك، اجتماعاً ضم بعض الضباط ممن ذُكِرَتْ أسماؤهم سابقاً، بالإضافة إلى الشيخ مبدر الفرعون والسيد علوان وأربعة آخرين من الزعماء الدينيين، وتداولوا في الأمر، وجرى النقاش حول موضوعين: استقلال العراق أو الحصول على حقوقه المقتضاة، فاستقر الرأي بالإجماع على الشطر الثاني، لأنه أخف وطأة من الأول. لكن الخلاف ثار حول وقت المطالبة به. قال فريق بوجوب الاستمرار في محاربة الإنكليز، والتريث حتى اندحارهم النهائي وعندها تجري مطالبة الترك بتحقيق المطالب، وقال آخر بأنه إذا لم تجر مطالبة الأتراك بتحقيقها، في حالة ضعفهم الآن، فلا سبيل إلى الحصول منهم على شيء بعد انجلاء الغمة وخروجهم منتصرين من الحرب. ففاز الرأي الثاني بأرجحية الأصوات، وجرى تنظيم المطالب في مذكرة تقدم بها الشيخ مبدر الفرعون ــ وكان من أنصار الرأي الأول ولكنه نزل عند رأي الأكثرية ــ إلى القائد عاكف بك قائد منطقة الفرات وملخصها «إن رابطة الدين والتاريخ تجمع بين الشعبين العربي والتركي، ومع رغبة العرب الشديدة بعدم بتر هذه الرابطة خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إضعاف الطرفين، إلا أنهم يذكّرون أخوانهم الترك بحقوقهم المهملة، التي لا يطالبون إلا بالشيء

(٥٦) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص٧٩ ــ ٨١، ٨٦ ــ ٨٨.

القليل منها : أن تكون اللغة الرسمية للمحاكم والمعارف وجميع المعاملات الرسمية في العراق هي اللغة العربية ، كما تكون لغة التدريب العسكري ، وأن لا يرسل الجيش العراقي إلى خارج العراق ، ما دام العراق في حاجة إليه ، وأن يكون الموظفون في العراق من العراقيين ، وأن تحصر واردات العراق بالعراق وحده ، تصرف في ما هو بحاجة إليه من العمران والإصلاحات الحيوية التي هو في أمس الحاجة إليها »[٥٧] . وقد وقّع المذكرة بعض رؤساء العشائر والعلماء وسُلمت إلى عاكف بك فرفعها إلى القائد العام نور الدين بك المرابط في ميدان الكوت . وما إن استلمها هذا حتى تميز من الغيظ ، وأخذ يرمي موقعيها بقوارس الكلم وأجابهم عليها بكتاب عنيف اللهجة . وكان لهذا الجواب ــ بالإضافة إلى فظائع الترك في بغداد وما أعقب ذلك من حوادث الحلة الوحشية ــ أثرها في هياج الشيخ مبدر الفرعون ، وقيامه خطيباً في بني قومه ونهوضه في منطقة الفرات الوسطى ومناوأة الترك . كما فكر الضباط العراقيون ، بعد فشل مفاوضاتهم مع الإنكليز والترك ، في أضرام ثورة مستقلة عن هؤلاء وهؤلاء في إحدى الجزر الواقعة بين المعسكرين المتحاربين والمأهولة بكثير من العشائر ، والتي كانت ذات موقع ممتاز فلم تتهيأ لها أسباب النجاح لعدم وجود المال[٥٨] . والملاحظ أن كل محاولات الضباط العراقيين التي سبقت الاشارة إليها لم تظهر عليها مسحة العمل الجدي للثورة ، وقد اختلقوا لتصرفاتهم ــ بلسان الضابط الذي أدعى تزعمهم (تحسين العسكري) صاحب المصدر الذي أورد هذه المعلومات ــ مختلف الاعذار . ولا بد لي من إضافة أنه قد يكون في ماسرده تحسين العسكري ــ بالتفصيل في مذكراته ــ بعض المبالغة عن دوره ودور زملائه في الأعمال التي نسبها لنفسه ولهم . كما لا بد لي من ملاحظة أن هذه المسألة تحتاج إلى مزيد من التعمق في البحث .

احتلال بغداد : انصرف الإنكليز ، بعد كارثة كوت الإمارة ، إلى خلق جيشهم في العراق خلقاً جديداً . فبعد سلسلة من التغييرات القيادية عينوا الجنرال « ستانلي مود S. MAUDE » قائداً عاماً للحملة ، وقد جيء به من جبهة الدردنيل إثر الانسحاب منها ، مع الفرقة ١٣ التي كان قائداً لها[٥٩] ، وخولوه مطلق الصلاحية في اتخاذ ما يراه مناسباً لاقرار النظام في صفوف الجيش وإزالة الأثر الذي تركته الكارثة[٦٠] ، ومدوه بقوات جديدة ومعدات وفيرة ــ بعد أن تولت سلطات لندن أمور الحملة ــ وراحوا يستعدون لاسترجاع كوت الامارة ثم الاستيلاء على بغداد ، يسابقون في ذلك

---

(٥٧) تحسين العسكري ، المصدر السابق ، ص٧٩ ــ ٨١ ، ٨٦ ــ ٨٨ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص١١٥ ــ ١١٦ .

(٥٩) SIR ARNOLD WILSON, Ibid. I, pp. 120, 187.

(٦٠) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص١٤٤ .

الروس الذين بدا خطر استيلائهم على هذه المدينة ماثلاًأمام نواظر الحكومة البريطانية بزحفهم إليها من الشرق والشمال ، لأن الاسراع في احتلال المنطقة الواقعة بين البصرة وبغداد يهم الإنكليز ، من الوجهة السياسية ، لكي يحصلوا على حصتهم من الممتلكات العثمانية تنفيذاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو[٦١] . لهذه الأسباب سمحت حكومة لندن للجنرال مود بالتقدم نحو بغداد ، فزحف إليها بجيش يفوق أربعة أمثال جيش الترك ، بينما لم يوجه أنور إلى العراق ، عندما أُنذر بتقدم خطر الإنكليز ، سوى الفرقة ١٤ ، لأنه كان يعتقد ، هو ومشاوروه الألمان ، بانه ليس ثمة من خطر محقق على بغداد ، ولم يصغ إلى النصائح التي أُعطيت إليه من الماريشال هندنبرغ والجنرال لودندورف ، بإرسال إمدادات هامة إلى العراق . وكان الاهمال الذي ارتكبه مما لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه الحرب[٦٢] . وهكذا تمكن الجنرال مود من احتلال كوت الإمارة من جديد في ١٩١٧/١/٢٤ ، ثم بغداد في ١٩١٧/٣/١١ ، بعد أن أخلاها الترك في اليوم السابق ، وكانت الهزائم المتلاحقة التي مني بها الأتراك في الأشهر الثلاثة السابقة كافية لتحطيم معنويات الجيش التركي الذي صار يتراجع بسرعة ، وبدون مقاومة تذكر[٦٣] .

لم يكد الجنرال مود يدخل بغداد حتى أذاع منشوراً موقعاً منه على السكان (١٩١٧/٣/١٩) قال فيه إن غاية الحلفاء من الحرب في العراق هي دحر العدو وإخراجه منها ، وأن البريطانيين لم يدخلوها قاهرين وأعداء فاتحين بل محررين !! وبعد أن أسهب في ذكر مظالم الترك في العراق منذ هولاكو ، إذ خُربت قصورها وذوت حدائقها وفني رجالها وساءت حالتها ، قال إن أمنية جلالة مليكه والحلفاء أن يعود العراقيون كما كانوا في السابق : أراضيهم خصبة والعالم يتغذى بألبان آداب أجدادهم وعلومهم وصناعاتهم ، حينما كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا ، وأن بريطانيا التي لم تستطع السكوت عما كان يحدث في العراق من مظالم الألمان والترك لن تتسامح ـ قياماً بواجب مصلحة الشعوب البريطانية ومصلحة حلفائها ـ في أن يرتكبوا ما ارتكبوه مرة ثانية في بغداد . كما تضمن المنشور وعداً بحماية السكان من الظلم والغزو وبضمان حرية التجارة ، وبأن الحكومة البريطانية لن تفرض عليهم أنظمة أجنبية ، بل إن أمنيتها الوحيدة أن تحقق ما تطمع إليه نفوس فلاسفتهم وكتابهم ، وأن يسعدوا ويتمتعوا بالغنى المادي والأدبي ، بفضل أنظمة توافق قوانينهم

(٦١) عبد الرحمن البزاز ، المصدر السابق ، ص١٣ ـ ١٤ .

(٦٢) ليمان فون ساندرس ، المصدر السابق ، ص١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦٣) مجلة الحرب العالمية الأولى ، مجلد ٣ ، ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

المقدسة وأطماعهم القومية، وأن تسمو الأمة العربية مرة أخرى وتستعيد عظمتها ومجدها، وأن تعمل لإدراك هذه الأمنية متحدة متفقة. وختم البيان بقوله «وأنا مأمور بأن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم الطاعنين في السن، وممثليكم إلى الاشتراك في إدارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلي بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش، كما تنضمون إلى ذوي رحمكم شرقاً وجنوباً وغرباً في تحقيق أطماعكم القومية»(٦٤).

إن هذا البيان قد أعد في لندن من قبل السير مارك سايكس(٦٥)، وبالرغم من أنه لم يتضمن من الوعود الصريحة ما من شأنه أن يرضي الأماني القومية لعرب العراق، شأنه في ذلك كشأن جميع الوعود الإنكليزية الغامضة المبهمة المطاطة: حماية، إنماءالقوى الأدبية والاقتصادية والعلمية والفكرية في ظل أنظمة تتفق مع قوانين العرب المقدسة وأطماعهم القومية، تحرير من الظلم، المشاركة في إدارة المصالح الملكية، ولكن دون ذكر أي كلمة عن تكوين دولة عربية مستقلة موحدة صراحة، أقول بالرغم من كل ذلك، ومن كونه ليس أكثر من مخدر لمنع الشعب العراقي من إبداء أية مقاومة للجيش البريطاني، فقد قوبل بالتهجم من قبل الجنرال مود نفسه، ولم يسعه إلا أن يحتج عليه إلى حكومته في لندن، بعد أن نفذ إرادتها في إذاعته، ولم يكن مرد ذلك إلا لاختلاف وجهتي نظر لندن والهند بالنسبة للقضية العربية في العراق. فمن سياسة وزارة الخارجية في لندن استمالة عرب العراق والاستفادة من إمكاناتهم الحربية، وإيهامهم بأن إنكلترا تعمل في مصلحة العرب. كانت هذه السياسة ــ كما اقترحها مارك سايكس ــ موجهة نحو جميع العرب «سواء أكانوا حلفاء مستقلين كابن سعود والشريف حسين، أو كانوا سكان محميات، أو مناطق نفوذ، أو حكومات تابعة». ومن أقواله «يجب أن نبدو بأننا نعمل في صالح العرب، وأننا متى كنا في أرض عربية سوف نعزز اللغة العربية، ونؤازر العنصر العربي(*)، كما أننا سنحمي العرب أو نؤيدهم ضد الاعتداء

---

(٦٤) جريدة الأيام، الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، ص٣٠٩.

(٦٥) فرنان وليه، المصدر السابق، ص٦٥.

(*) كانت آراء لورنس أكثر وضوحاً من حيث السياسة العربية، إذ كان يعتقد أن عمله في الثورة العربية ليس إلا ليعيد إلى العالم قوة ضائعة هي قوة العرب. وقد كتب رسالة إلى اللورد كورزن قال «إن طموحي هو أن يكون العرب أول دولة تدخل الدومينيون ــ لا أن تكون آخر مستعمرة ــ والعرب يقاومونك إذا حاولت أن تسيّرهم، ولكن يمكننا أن نقودهم حيث نشاء دون استعمال القوة إذا نحن سرنا معهم جنباً لجنب، وبذلك يمكننا أن نجذب الشرق الأوسط بأكمله». (فرنان وليه، المصدر السابق، ص٦٦). لكنه قال في مذكراته عن استغلال العرب شيئاً مناقضاً «ولقد طالت عليّ مرارة الحياة بين أبناء الصحراء كالمنفي الشريد، وكنت أسائل نفسي، ألا يمكن أن أستغل حبهم للحرية واستفزهم إلى المثل العليا وآخذها عُدّةً تساعدني لأجل انتصار إنكلترا؟» (لورنس، الثورة في الصحراء، ص٣٦٩).

الخارجي ... » . غير أن سياسة الهند ، وكان الجنرال مود متفقاً تمام الاتفاق معها ومع زملائه الضباط الموجودين في العراق ، كانت من الرأي القائل إن البيان لم يصدر في الوقت المناسب ، وإن سياسة لندن تجاه العرب سوف تثير اضطراباً وتشويشاً في أفكار عرب العراق ، بالنسبة لنيات إنكلترا في المستقبل ، بإيقاظها ــ في غير الوقت المناسب ــ آمالهم وأطماعهم ، بينما يجب أن تبقى سلطة الجيش البريطاني في الأراضي المحتلة سائدة وغير منازع فيها[٦٦] . كما كان اعتقاد سلطات الهند وممثليها في العراق بأن مساعدة العرب العسكرية ليست ذات قيمة ، كقوة محاربة ، إذا لم يجر تنظيمهم عسكرياً ، وإلحاقهم بحملة عامة كجزء منها ، وبغير ذلك لا يكون لهم أي أثر فعال في مقاتلة جيش نظامي . وهذا ما يفسر مقابلة سلطات العراق البريطانية للكولونيل لورنس بازدراء حينما قدم إليها ، موفداً من المكتب العربي بالقاهرة ، بمهام عديدة منها العمل على إثارة ثورة عراقية شبيهة بثورة الحسين ، وإقناع سلطات العراق بوجوب تنسيق سياسة الإنكليز في « سملا » ولندن وتوحيدها بالنسبة للقضية العربية ، فعاد بخفي حنين[*] .

أثر سقوط بغداد

أولاً : على الضباط العرب العراقيين : من الطبيعي أن يكون لسقوط بغداد أثره الكبير في نفوس الضباط العراقيين ، لأن معظمهم من أهاليها ، ولم تزل أسرهم وأقرباؤهم وأموالهم فيها وأكثرهم من أعضاء جمعية العهد . وكان فريق منهم قد أُلحقوا ــ تأديباً لهم بسبب ميولهم القومية ــ بالفيلق ١٣ الذي أُرسل لحرب الروس في إيران ، فلما عاد هؤلاء اجتمعوا ، بعد سقوط بغداد ، مع رفاقهم لاتخاذ الخطة التي يجب اتباعها بعد التطورات الجديدة : هل يلتحقون بالجيش العثماني في العراق

ولعله كان أوضح حينما قال « وبما أن الإنكليز هم من الشركاء الأصليين ، فمن المحتم علينا عندما تضيق بنا الحيل ، أن نُضحي بالعرب من أجلهم ... » . (المصدر السابق ، ص٢٣٢) .

(٦٦) فيليب آيرلاند ، المصدر السابق ، ص٦٥ ــ ٦٦ .

(*) راجع الفصل الأول من الباب الثاني عن مقابلته للمحامي سليمان فيضي . أما مهمات لورنس الأخرى فكانت : الاتصال بقائد قوات الترك المحاصرة لكوت الإمارة ، وإقناعه في تخفيف وطأة الحصار ولو بمبلغ كبير من المال . وتعليم السلطات الإنكليزية في العراق كيفية تنظيم الخرائط الجغرافية بوساطة الطيران . وتطمين سلطات العراق بأن التعهدات المعطاة للشريف حسين ليس فيها ما يتضمن الإعتراف به خليفة للمسلمين ، ذلك لأن الهنود من قوات الحملة العراقية قد جزعوا من هذه الفكرة ، لقناعتهم بأن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين الشرعي (GRAVES, Ibid. p. 61; R. ALDINGTON, Ibid. pp. 116-117) .

والانسحاب معه، أو يتخلفون عنه ويذهبون إلى بغداد ومنها إلى العشائر، حيث يُعدون العدة لإضرام ثورة على الإنكليز تُرغمهم على تحقيق مطالب حزبهم، فأسفر اجتماعهم عن قرار جماعي بعدم الالتحاق بالعثمانيين، بل الذهاب إلى بغداد، على أن يسلكوا أحد طريقين: أن يقوم الضباط الذين ينجون من أسر الإنكليز بما يلزم لإحداث الثورة مع القبائل، أما الذين يؤخذون أسرى فسوف يلتحقون بالشريف حسين في الحجاز. ولما نفذ أحدهم هذا القرار والتحق بالإنكليز لم يُلحقه هؤلاء فوراً بثورة الحسين. فاعتقد الضباط العرب أن ذلك عن سوء نية من حكومة الهند، فقرروا إلغاء القرار السابق والبقاء في الجيش العثماني، والعمل على إضرام ثورة على الإنكليز في المناطق التي يحتلونها. وجرى اتصال محدود مع بعض العشائر التي قامت ببعض الغارات على الإنكليز دون كبير جدوى، بعد أن اتصل الضباط بقيادة الفيلق التركي ــ إيهاماً منهم له بأن الحركة هي لمصلحة العثمانيين ــ إلا أن هذه القيادة بدأت ترتاب في حركات الضباط واجتماعاتهم المتوالية، التي نُمي خبرها إليها بواسطة المتجسسين من ضباط الترك والعرب غير العهديين، فأحالت بعضهم إلى المحاكم العرفية. وبالرغم من ثبوت براءتهم فإن الشك والارتياب بقي رائد القيادة، فبعثرت الضباط العراقيين، فريقاً إلى جهات الأناضول وآخر إلى سورية، حيث أخذ على بعضهم الاتصال مع العاملين في القضية العربية، مثل سامي السراج، رستم حيدر وأحمد مريود. وأخذ بعض الضباط يفكرون بالهرب والالتحاق بثورة الشريف، وفعلاً فر من العراقيين صبيح نجيب، ونوري فتاح، وثابت عبد النور(٦٧)، ومن السوريين الدكتور أحمد قدري وأخوه تحسين، ورفيق التميمي، وسليم عبد الرحمن، ورستم حيدر، ومحمود المغربي، وخليل السكاكيني، وسعيد الباني، وعبد اللطيف العسلي، ولطفي العسلي، ولفيف من أهالي حوران، وذلك في أواسط حزيران ١٩١٨، وكلهم مسلحون بما في ذلك مرافقوهم من الخدم والأتباع. وقد حمل الضابط الطبيب أحمد قدري معه بعض الأسرار العسكرية التي استقاها من بعض الضباط العرب في القيادات التركية المختلفة، بناء على طلب الأمير فيصل الذي كان على اتصال دائم معه بالمراسلة(٦٨).

ثانياً: أثر سقوط بغداد على الترك: جزعت الحكومة التركية جزعاً كبيراً من سقوط بغداد، وشعرت بفداحة الخطب، فبادر أنور إلى مجلس المبعوثان وألقى خطبة بين فيها أن الإنسحاب من بغداد كان بناء على خطة مدروسة تقضي بأن يتراجع الجيش التركي بانتظام، وأن الجبهة التركية

---

(٦٧) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص١٣٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣ ــ ١٦٥، ١٧٥.

(٦٨) مذكرات الدكتور أحمد قدري، ص٦٤ ــ ٦٥؛ رفعت العسلي، كفاح سورية، ص٥١.

هناك قوية، وأن هذا التراجع لا يعد هزيمة ولا يعتبر الوضع خطراً. ولم يكن تصرف أنور هذا إلا ليسكن من روع أعضاء مجلس المبعوثان(٦٩)، الذين حرص على أن يوحي إليهم بأن الحرب في الشرق ليست هي التي تقرر المصير، إنما الحرب في الجبهة الغربية هي كل شيء، فإذا ما انتصر الألمان على الحلفاء هناك، فإنهم كفيلون بأن يعيدوا للدولة العثمانية كل ما خسرته من أراض(٧٠).

كما كان لسقوط بغداد أثر كبير على الأفكار العامة في السلطنة العثمانية وخاصة بين الأتراك، ذلك أن الاستياء من سياسة أنور وطغمته قد وصل إلى حد الانفجار، لوضعهم مقدرات البلاد تحت رحمة الألمان، الذين لم يبرهنوا عن إخلاص تجاه حليفتهم، ولم ينجدوها بما يحول دون سقوط مدنها تباعاً بيد الإنكليز الظافرين. لذلك بدأت المؤامرات تحاك ضد الألمان وضد أنور باشا، الذي دب الهلع إلى قلبه، خوفاً من مصير كمصير سلفه محمود شوكت باشا، فكانت سيارته المعروفة لدى كل الناس تسير في الشوارع بأقصى سرعتها وتتبعها عن كثب سيارة أخرى تقل مرافقين مدججين بالأسلحة(٧١). إن من بين المؤامرات، التي حاولت القضاء على الثلاثي الدكتاتوري وحكومتهم، مؤامرة قام بها المقدم يعقوب جميل (وهو من أجرأ ضباط الاتحاديين وصاحب الفضل في رفع أنور باشا إلى سدة الوزارة) ولم يكن الدافع وطنياً صرفاً، بل تغلبت عليه المسحة الشخصية بسبب حرمان الضابط المذكور من الترقيات التي رأى أنها من حقه، مستغلاً موجة الاستياء من أنور وزعماء الحكم، ويظهر أنه كان يرمي إلى زحزحتهم لمصلحة أمير اللواء مصطفى كمال باشا، في وقت كان هذا ــ بالرغم من سخطه العظيم على الوضع ــ بعيداً عن تخطيطها. وقد تمت الاستعدادات ــ وكانت ضعيفة ــ لتنفيذ المؤامرة في الباب العالي، عندما وَشى بمدبريها شريكٌ لهم أقعده الخوف عن الإقدام عليها، فقُدم يعقوب جميل وشركاؤه إلى الديوان العرفي، وحُكم على بعضهم ــ وفي مقدمتهم يعقوب جميل ــ بالإعدام(٧٢).

في هذه الظروف حدثت كارثة بغداد، وقد سبقها ضياع مدينة أرضروم في الأناضول بيد الروس، وقد استطاعت الحكومة كتم خبرها عن الشعب. إلا أن سقوط بغداد وقد قرع الآذان قرعاً ــ رغم محاولة إخفاء نبئه ــ لم يبق خافياً على الشعب التركي، الذي أدرك أن الآمال التي كان

---

(٦٩) Y.H. BAYUR, Ibid. III, pp.111. 115.

(٧٠) ساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية، ص٢٤٢.

(٧١) DAGOBERT VON MIKUSCH, Ibid. pp. 149-150.

(٧٢) G. VARDAR, Ibid. pp. 307, 329, 348, 375-378.

يبنيها على قادته ذهبت أدراج الرياح، فأصبح كمن استفاق من حلم مروع بدد تفاؤله وأحاله إلى شؤم. وعمت الأوساط الشعبية رغبة جامحة بوجوب تبديل الزعيم المسيطر، وبدأ اسم أمير اللواء مصطفى كمال يبرز لأول مرة نوعاً ما على الصعيد الرسمي. وقد سعى هذا فيما بعد، هو بالذات، لدى السلطان الجديد محمد وحيد الدين ــ عندما تردت الحالة في سورية، وكادت الجبهة التركية فيها أن تنهار ــ للحلول محل أنور في وزارة الحربية، إلا أن دكتاتورية أنور كانت أقوى من أن تفسح المجال لنجاح مثل هذه المساعي(٧٣).

لم يكن بوسع أنور ــ وقد بينت فيما سبق إهماله تحصين بغداد ــ إلا المكابرة حينما بلغه أن الترك بدؤوا يتراجعون بسرعة لقلة استعدادهم وضعف جنودهم، وأن عمه خليل باشا أصبح يفكر في إخلاء بغداد، فرفض الموافقة على الانسحاب، وأمر بالصمود مهما كلف الأمر. لكن أمره لم ينفذ، وأخليت المدينة ليدخلها الجنرال مود ظافراً، ثم يتقدم إلى الشمال ليمنع اتصال الفيلق ١٨ المنسحب منها مع الفيلق ١٣ القادم من خانقين، فاشتبك مع الفيلق ١٣ بين جبال حمرين وديالي، ولم تنفع حركات الفيلق ١٨ في التخفيف عن زميله، فتمكن الإنكليز من احتلال الفلوجة، ثم سامراء في ٢٤/٤ وثابروا على تقدمهم السريع(٧٤).

تشكيل مجموعة جيوش الصاعقة: أمام هذا الخطر الماحق الذي كان يهدد باحتلال العراق بأجمعه، وأمام الحقيقة الماثلة للعيان بأن الجيش السادس أصبح في حالة الانحلال بل العدم(٧٥)، تفتق ذهن أنور باشا وحلفائه الألمان ــ الذين بادر إلى الاستنجاد بهم إثر سقوط بغداد طالباً منهم تشكيل مجموعة من الجيوش تكون هيئة أركانها من الألمان، ترسل إلى تركيا بالإضافة إلى وحدات ألمانية لنجدة الجيوش العثمانية(٧٦) ــ عن فكرة تشكيل «مجموعة جيوش الصاعقة» (يلديرم)، أُلّفت بموجب الإرادة السنية السلطانية المؤرخة في ٢/٧/١٩١٧ من الجيش السابع، الذي استُقدم إلى سورية، بعد أن عُين أمير اللواء مصطفى كمال باشا لقيادته نقلاً من قيادة الجيش الثاني في الجبهة الروسية، ومن الجيش السادس (العراق)، يضاف إليهما بعض الفرق التركية والفيلق الألماني

---

(٧٣) DAGOBOBERT VON MIKUSCH, Ibid. pp. 15.-151.

(٧٤) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٤٧ ــ ١٤٨

(٧٥) Y. H. BAYIIR: Ibid, III, p.115

(٧٦) Ibid. p.367.

الآسيوي[٧٧]، وتكون مهمة هذه المجموعة استرداد مدينة بغداد. وقد أسندت قيادتها للجنرال فون فالكنهاين الذي استُقدم من جبهة رومانيا، بناء على طلب أنور باشا ــ عندما انتهت العمليات الحربية فيها ــ وأُعطي رتبة مشير وخُصص لتكوين هذه الجيوش خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية قدمتها ألمانيا، مما تبرعت به النساء الألمانيات، اللواتي قدمن حليهن للحكومة لصرف ثمنها على وحدات جيوش الصاعقة، وسُجلت دينا على الحكومة العثمانية[٧٨]. أما هيئة أركان المجموعة فقد شكلت من أكثرية ساحقة من الضباط الألمان (٦٥ ضابطاً)، ومن أقلية من الضباط الأتراك (تسعة فقط، واحد منهم من القادة والبقية من صغار الضباط). وكانت كل المعاملات في مقر المجموعة تجري باللغة الألمانية، فإذا وردت إليه بعض التقارير بالتركية سرعان ما تترجم إلى الألمانية، فكان مفهوماً بذلك أن المقر كان ألمانياً صرفاً[٧٩] ولم يكن تعيين الضباط الأتراك فيه إلا من قبيل إنقاذ المظاهر، بل كانوا يقضون أوقاتهم فيه بدون عمل، ولم يخصص لمعظمهم لا غرفة ولا منضدة[*].

لم يكن الخطر الماثل في العراق وحده هو السبب الوحيد في تشكيل مجموعة جيوش الصاعقة، بل هنالك أسباب أخرى تعود إلى الوضع في سورية من الوجهتين الحربية والسياسية، ذلك أن جبهة فلسطين أخذت في الانهيار، بعد احتلال القدس، فمن جهة عم البؤس والشقاء أرجاء القطر السوري بفعل المجاعة والأوبئة، وعسف السلطات التركية، حتى أخذت الحالة تنذر بقرب حدوث انفجار، ومن جهة أخرى أخذت قوات الأمير فيصل تتقدم بخطا سريعة نحو سورية بعد احتلال العقبة، وكلما ازدادت توغلا كثر عدد الملتحقين بها من شيوخ العشائر، ومن ضباط الجيش العثماني وجنوده العرب ومن الأهالي. كما كان أهل سورية يظهرون التعاون مع قوات فيصل، ويزودونها بالتقارير السرية التي ترد إليه تباعاً من المناطق السورية، التي لا تزال تحت الاحتلال التركي، دون رشوة ولا استجداء، مما أغناه عن إيجاد دائرة استعلامات[٨٠]. وهذا ما جعل جمال باشا يتفجر غيظاً بحيث لم يكتم شعوره عندما خاطب سميه جمال باشا المرسيني (الصغير) بقوله «أرأيت السكون المخيم فوق سماء سورية؟ إن منظر البؤس الذي تراه يخيفني كثيراً، ولهذا أمرت منذ أيام

---

(٧٧) راجع ليمان فون ساندرس: المصدر السابق، وفيه تفصيلات وافية عن تشكيلاتها، ص١٦٣.

(٧٨) حسين حسني أمير: يلدريم، ص٦٤.

(٧٩) حسين حسني أمير: المصدر السابق، ص١٣ ــ ١٤.

(*) كان العقيد حسين حسني أمير، صاحب المذكرات التي اعتمدت عليها هنا، معاوناً لرئيس أركان حرب هذه المجموعة.

(٨٠) لورنس: الثورة في الصحراء، ص٢٣١.

مشدداً في استجلاء حقيقة النفسية التي عليها أبناء البلاد ، ويلوح لي أن الموقف خطير جداً ، وأن العاصفة تكاد تثور » . وأردف قوله هذا بتذمره من القيادة العامة لأنها لا تريد أن تساعده على تهدئة الحالة ، فقد أرسل كتباً عدة يشكو بها من قرب اندلاع ثورة السوريين ، بعد أن اتخذت تشكيلاتهم شكلاً منظماً ، وأصبح رجالها على اتصال تام مع الأعداء ، مما يُخشى معه أن يُقطع على الجيش العثماني ، في جبهة فلسطين ، خط الرجعة في حال قيام الثورة في سورية . ولذلك طلب إبعاد الضباط العرب الباقين في القطعات العثمانية العاملة في منطقة الجيش الرابع ، لأنه قد رسخ في مخيلاتهم أن السلطنة العثمانية أصبحت سفينة على وشك الغرق ، ولم يبق أمامهم إلا تحطيمها والنجاة منها قبل أن تغرق ويغرقون معها . ولذا فإنهم أخذوا منذ حين يعملون على الفرار من الجيش العثماني ، لتشكيل دولة إمبراطورية عربية ، واقترح نقل الفرقة ٢٦ العربية من درعا إلى الرملة أو يافا ، لأنه قليل الثقة بها ، ولا يريد إبقاءها بمواجهة جيش فيصل ، وإحلال فرقة تركية مكانها ، كما طالب بإبعاد الفرقتين ٢٧ و ٤٨ لأن فيهما أكثرية عربية وأن يُستبدل بمرتباتهما أكثرية تركية . ولم يكن جواب القيادة العامة مرضياً إذ أفهمته بأن مخاوفه في غير محلها ، وأنه ليس في الإمكان إجابة طلبه في إرسال نجدات للجيش الرابع في الوقت الحاضر[٨١] ، ذلك أنه لم يكن لدى القيادة العامة التركية قوات احتياطية ــ مع كثرة المطالبة بالإمدادات من جميع الجبهات ــ لأن القيادة تصرفت بها في بداية الحرب بصورة غير حكيمة ، إذ أرسلت قوات كبيرة من العثمانيين إلى الجبهات الأوروبية ، بناء على طلب الحليفة ألمانيا ، ولم تفكر بوجوب تقديم مسألة الدفاع عن أراضي السلطنة على غيرها من الواجبات[٨٢] .

غير أن القيادة العامة كانت مدركة ، تمام الإدراك ، أن موقف قواتها في الولايات الشرقية (جبهة قفقاسيا) ، وفي البلاد العربية أصبح مزعزعاً ، ولذلك قررت عقد مؤتمر من كبار القادة ، اجتمع في ٢٤/٦/١٩١٧ في فندق بارون بحلب . وقد حضره أحمد جمال باشا ، وأحمد عزت باشا ، قائد جبهة القفقاس ، ومصطفى كمال باشا ، قائد الجيش الثاني (الجبهة الروسية) ، وخليل باشا ، قائد الجيش السادس (العراق) ، والفريق فون برونزارت باشا ، رئيس هيئة أركان الحرب العامة ، ومحمود كامل باشا ، مستشار وزارة الحربية ، وغير هؤلاء بضعة من كبار ضباط هيئة أركان الحرب العامة الألمان[٨٣] . وقد دار النقاش فيه حول الخطة الناجعة لصيانة الحدود والدفاع عن البلاد . واصطدمت

---

(٨١) جمال باشا الصغير : المصدر السابق ، ص٦ ــ ٩ .

(٨٢) Y.H. BAYUR: III, p.117

(٨٣) مذكرات أحمد جمال باشا ، ص٣١٣ .

آراء خليل باشا وأحمد باشا حول الاستفادة من الجيش السابع، الذي وصل حديثاً إلى حلب. إذ اقترح الأول إرساله إلى جبهة العراق لاسترداد بغداد، فاعترض جمال باشا على هذا الرأي، وطلب بأن تحشد في حلب قوات كبيرة لتستطيع التحرك ــ كلما اقتضى الأمر ذلك ــ إلى جميع الجهات فور تعرضها للهجوم: أي إلى القفقاس، الدجلة والفرات، الساحل اللبناني... لأن الأعداء إذا عرفوا أنه يوجد في حلب، وهي عقدة مواصلات متوسطة، مثل تلك الجيوش على أهبة الاستعداد للحركة إلى كل مكان، يعدلون عن الهجوم، ولا يجسرون على إنزال جيوش لاحتلال آدنه كما كان متوقعاً. باختصار لقد بين أن حملة بغداد محفوفة بالأخطار[٨٤]. وبينما أيد أحمد عزت باشا رأي أحمد جمال باشا، كان أنور من رأي خليل باشا واقترح أن يرسل فيلق من الجيش الثاني إلى رياق لأن الروس ــ بعد ثورتهم الأولى في آذار ١٩١٧ ــ أصبحوا في حالة لا تمكنهم من القيام بحركات حربية جديدة ضد الترك. فاعترض أحمد عزت باشا ودامت المناقشة يومين متواصلين دون الوصول إلى نتيجة بحيث ترك أنور حلب عائداً إلى الآستانة[٨٥].

لم تكن الغاية من عقد هذا المؤتمر النظر في الأمور الحربية المتردية فقط، بل أيضاً تسليم القيادة العليا في البلاد العربية إلى هيئات ألمانية. ذلك أن ألمانيا، التي كانت تطمع في استعمار البلاد العربية، رأت أن سياسة جمال باشا في سورية قد جعلت الشعب العربي ينفر من الترك والألمان معا ويميل إلى الحلفاء، فإذا ما استمر الحال على ما هو عليه فإن أقل تراجع يقوم به الترك في سورية يفسح المجال لثورة عارمة فيها، وهذا أمر يكرهه الألمان لسببين أولهما: أنهم يفقدون الأمل في استعمار سورية، والثاني: أن احتلال سورية والبلاد العربية معناه احتلال تركيا، وبالتالي ترجيح فوز الحلفاء على ألمانيا. ولذا فإن الإمبراطور الألماني أوعز إلى رئيس وزرائه بالعمل على وضع حد لسياسة جمال باشا الخرقة، وتجهيز حملة جديدة تكون تابعة بكل قواها إلى القيادة الألمانية[٨٦]. وفي ١٩١٧/٦/٣٠ عُقد اجتماع في الصدارة العظمى حضره سعيد حليم باشا وأنور باشا وطلعت بك وخليل بك منتشه، تذاكروا في الأمر وقرروا إلغاء الجيش الرابع، وتأليف جيش جديد يتولى إدارة العمليات العسكرية في جميع البلاد العربية. وقدم إليهم أنور باشا لائحة وضعتها القيادة الألمانية وسلمتها إليه لعرضها على زملائه وتتضمن تأليف «مجموعة جيوش الصاعقة» كما مر معنا، فأقرت

---

(٨٤) مذكرات أحمد جمال باشا، ص٣١٤.

(٨٥) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص١٠ ــ ١١.

(٨٦) المصدر السابق، ص١١ ــ ١٢.

وصدر المرسوم الشاهاني بها . وقد تم تنظيم هذه المجموعة في وقت كان جمال يرسل برقية تلو أخرى لإمداده بالقوات كما مر معنا ، وهو يجهل أن أنور باشا ـ بالتنظيمات الجديدة التي استحدثها وحلفاؤه ـ يريد القضاء على سيادته . وقد كُتم أمرها عنه لا في سبيل النكاية به فحسب ، بل خوفاً من أن يعمد ـ إذا علم بها ـ إلى سلخ البلاد العربية عن السلطنة وإعلان نفسه حاكماً مستقلاً عليها ، إذ كانت هذه الفكرة متمكنة منه كما عرفنا في أحد الفصول السابقة[٨٧] .

لم يوضع قرار إلغاء الجيش الرابع موضع التنفيذ فوراً ، بل ظل الأمر قيد التحفظ فترة أخرى من الزمن ، نشب خلالها خلاف شديد ، بين القيادة الألمانية لجيوش الصاعقة وبعض كبار قادة الجيش العثماني في سورية ، ذلك أن مهام جيوش الصاعقة التي أُحدثت لاسترداد بغداد قد تحولت إلى جبهة فلسطين . فعندما درس المشير فالكنهاين الموقف ، بعد إيجاد هذا التشكيل ، قرر السير نحو بغداد على أن يمهد الجيش السابع للعمليات الرئيسية بالتحرك من حلب باتجاه وادي الفرات . لكن المشير بعد أن اجتمع إلى قادة الجيوش ، وأمعن النظر في الموقف أدرك صعوبة الحركة ، خاصة من حيث إبقاء الجيش السابع على خط الفرات[٨٨] ، ومن حيث أن الضباط الألمان الذين يشكلون هيئة أركان مجموعة جيوش الصاعقة يجهلون طبيعة الأراضي التركية ، أو يعرفون شيئاً قليلاً عنها . ولم يقلل من أهمية هذه الصعوبة كون بعض الضباط الأتراك أعضاء في هذه الهيئة . وقد جرت مناقشات بين فون فالكنهاين وأنور باشا بشأن نقل نشاط جيوش الصاعقة إلى فلسطين[٨٩] . عرض الأول بمذكرة أن توجيه حملة إلى العراق غير ممكن إذا لم تؤمن سلامة جبهة فلسطين ، التي ساءت الأمور الحربية فيها بشكل خطير كاد يؤدي بها إلى الانهيار التام ، وأنه يجب أن توجه إليها ـ لمواجهة الهجوم الإنكليزي الكاسح ـ ثلاث فرق تؤخذ من جيوش الصاعقة ومن الفيلق الآسيوي الألماني ، الذي استُقدم من أوروبا ، فجاء الجواب من وكيل القائد العام (أنور باشا) بالرفض ، منبهاً إياه إلى أن هذا الطلب ليس من الصواب في شيء ، معلقاً أهمية كبرى على استرداد بغداد ، وطرد الإنكليز من العراق ، ومن ثم الارتداد إلى جبهة سيناء وطرد الإنكليز منها . لكن فالكنهاين لم يتحول عن طلبه ، ورد عليه بمذكرة أخرى أشار فيها إلى العلاقة الوثيقة بين الجبهتين (سيناء والعراق) ، وإلى كون التخطيط الإنكليزي في

---

(٨٧) المصدر السابق ، ص١٢ .

(٨٨) شكري محمود نديم ، المصدر السابق ، ص١٥٢ .

(٨٩) ليمان فون ساندرس ، المصدر السابق ، ص١٦٥ .

الجبهتين يجرى على تناسق وتفاهم تام بين قيادتيهما، وألح على خطورة الموقف في سيناء، مصراً على طلبه السابق(٩٠).

وصدف في الوقت نفسه قدوم جمال باشا إلى الآستانة، وكان قد أبرق إلى أنور باشا يستأذنه الحضور إلى العاصمة لمناقشة طلباته المتكررة في تحقيق مطالبه التي أشرت إليها سابقاً. ذلك أنه قد راب جمالاً إهمال وكيل القائد العام الإجابة عن هذه المطالب، لا سيما وقد تحرج الموقف بشكل جعله يفكر بالاستقالة أو ينال ما طلبه. فإن حالة البلاد قد تردت إلى ما يشبه الفوضى بتأثير المجاعة، وضرب مثلاً على ذلك بأن عشرين ألف جندي دخلوا المستشفيات بتأثير الجوع، وأصبح الجيش الرابع غير قادر على تدارك المواد الغذائية. فإذا استمر الأمر على ما هو فسوف يضطر الجنود ـــ عرباً كانوا أم تركاً ـــ إلى الفرار بشكل جماعي، كما أنذره بذلك الجنرال فون كريس ببرقية قال فيها إن العدو يستعد لهجوم عام شامل، وأن حركة الفرار من الجيش العثماني إلى الجيش العربي مستمرة على نطاق واسع، استجابة للمناشير التي تُلقى على مختلف أنحاء الجبهة داعية الجنود العرب إلى القيام بهذا العمل الوطني(٩١).

لذلك عُقد في ١٩١٧/٨/١٧ مجلس حربي في العاصمة ضم كلاً من أنور باشا وجمال باشا وفالكنهاين، بسط خلاله كل من القائدين الألماني والتركي الموقف بتفاصيله لأنور باشا، واتفقت الآراء على وجوب العدول عن مهاجمة بغداد، ولكنها اختلفت في تفاصيل الخطة الواجب اتباعها في جبهة فلسطين، إذ بينما طلب جمال باشا تزويده بمبلغ نصف مليون ليرة عثمانية ذهب، وسرعة إرسال الجيوش إلى فلسطين، لمنع العدو من التقدم إلى داخل بلاد الشام، أي اتخاذ خطة الدفاع لعدم استطاعة الجبهة التركية مهما قويت من القيام بحركة هجوم(٩٢)، كان طلبُ فالكنهاين إرسال ثلاث فرق جديدة من الجيش الرابع، مع الفيلق الألماني، إلى جبهة فلسطين لمساعدة جيش الجنرال فون كريس، والقيام بحركة هجوم على العدو وحمله على التراجع. وعندما أصر كل من القائدين على رأيه، وقف أنور في هذه المرة بجانب رأي جمال باشا، فاغتاظ فون فالكنهاين وهدد بالاستقالة طالما لم يؤخذ برأيه، مبيناً عدم استعداده لتنفيذ خطة لا يؤمن بجدواها. ولم يكن إصرار فالكنهاين مرتكزاً على الوهم، بل على تقارير سرية تلقاها فون كريس، عن جبهة العدو، بأنه استقدم قوات جديدة

---

(٩٠) حسين حسني أمير، المصدر السابق، ص٥٤ ـــ ٥٥.

(٩١) جمال باشا (الصغير) المصدر السابق، ص١٦ ـــ ٢٠.

(٩٢) مذكرات جمال باشا، ص٣٢٠ ـــ ٣٢١.

ويستعد لهجوم عام وحاسم . على أن أنور باشا الذي لم يكن يستطيع مجابهة غضب الإمبراطور الألماني ــ وقد هدد المشير فالكنهاين باللجوء إليه شاكياً وكيل القائد العام ــ أخذ بالتداول مع زميله طلعت باشا ، واستقر رأيهما على إرسال فالكنهاين إلى جبهة فلسطين لدراسة حالتها عن كثب(٩٣) . وفي الوقت نفسه وصلت إلى أحمد جمال باشا دعوة من إمبراطور ألمانيا لزيارة الميدان الغربي ، قال جمال باشا عنها في مذكراته بأنه لم يعرف حينذاك سبباً لإرسالها في ذلك الوقت بالذات(٩٤) . وبينما هو في ألمانيا تلقى من أنور باشا برقية تقول إنه ، بعد محادثات طويلة مع فون فالكنهاين ، قرر الشروع في الهجوم ضد الإنكليز ، بكل ثقل جيوش الصاعقة ، وإرسال فون فالكنهاين إلى جبهة فلسطين لاتخاذ ما يراه ضرورياً لتنفيذ الخطة المرسومة ، وأنه يجب أن يتولى المشير قيادة الجيش في تلك الجبهة ، فكانت هذه البرقية ضربة شديدة له حملته على الإبراق إلى أنور يقول : إن فالكنهاين هو صاحب فكرة الهجوم على « فردان » التي كانت شراً مستطيراً على ألمانيا ، فهجومه في جبهة فلسطين مؤداه الشر المستطير على تركيا(٩٥) .

ذهب فالكنهاين إلى الجبهة واجتمع إلى الضباط الألمان والأتراك ، وتفقدوا الجبهة سوية ثم عقدوا مؤتمراً في ٩/١٤ في مقر قيادة الجبهة دام يومين ، ثم عاد إلى حلب وقدم تقريره المؤرخ في ٩/٢٠ . وقد جاء فيه ما يصور حالة البلاد تصويراً حقيقياً ، قال فيه : إن الحرب الحاضرة أوجدت في نفوس الأمة يأساً شديداً من الموقف السياسي الحاضر ، يزيد في إذكائه شعور السكان الوطني . فالسوريون العرب يتطلعون بشغف إلى حركات العدو ، ويرون في فوزها فوزاً لهم ، لأن لهم أخواناً يحاربون إلى جانبه ، وهم يرون في السلطتين المدنية والعسكرية قوة مستبدة تقتل شعورهم الوطني ، وتدفعهم إلى الموت . لذلك فإنهم يلازمون بيوتهم مُعرضين عن الحكومة ، ويزيد في حقدهم عليها أن رجالها ، الذين لا هم لهم إلا إشباع بطونهم ، ينكّلون بهم ، وأن ارتكاب الرشوة قائم على قدم وساق ، فالعدل أصبح مفقوداً ، والنفور يتزايد بين الشعب والحكومة . وقد بين التقرير بأن السلطة عاجزة عن إصلاح الموقف لأسباب منها :

١ ــ ضعف أجهزة الأمن التي أصبحت ــ بدلاً من حرصها على تطبيق القانون ومطاردة الأشقياء والمجرمين ــ عوناً للمجرمين وحرباً على القانون .

---

(٩٣) جمال باشا (الصغير) ، المصدر السابق ، ص١٧ ــ ٢١ .

(٩٤) مذكرات أحمد جمال باشا ، ص٣٢٦ .

(٩٥) المصدر السابق ، ص٣٢٧ ــ ٣٢٨ .

٢ ــ ان ضآلة الرواتب التي يتقاضاها الموظفون، والتي لا تكاد تكفي معيشتهم ليومين، دفعت بهم إلى ارتكاب الرشوة ومشاركة المحتكرين ضد الأمة، وسوء استعمال الوظيفة، وتبرئة القاتل، وتجريم البريء. يضاف إلى ذلك ان المجاعة، التي أصبحت تفتك بالسكان فتكاً ذريعاً، مع وقوف دولاب العمل واستحكام الأزمة الاقتصادية، مما يساعد على انتشار الفوضى، وعلى إقامة هوة سحيقة بين الأمة والحكومة، وترك الشعب غير راض عن الحكم الحاضر ورجال الحكم معاً. وأنه إذا ظلت الحكومة سائرة على خطتها هذه، وطالت الحرب العالمية، وذلك ما هو ملحوظ، فإن انحلال السلطنة العثمانية حادث مقدّر وانقراضها لا مناص منه.

ثم تطرق التقرير إلى حالة الدول المتفقة مع ألمانيا قائلاً إنها أصبحت في حالة يأس يحول بينها وبين الاستمرار في القتال، وأن كلا من هذه الدول أصبحت تترقب المعونة من ألمانيا، فإذا عجزت هذه عن مدها بها عمدت إلى الاستسلام عاجلاً، لا سيما الدولة العثمانية التي تضاءلت قواتها حتى لم يبق منها غير واحد من خمسة مما كانت عليه في ابتداء الحرب(*). والبلاد غير قادرة على سد النقص الواقع في الرجال، ومعظم الأفراد الباقين غير قادرين على حمل السلاح ومقاومة العدو المجهز تجهيزاً كاملاً. ثم استطرد بأن الحرب لا بد واضعة أوزارها في الجبهة الغربية عاجلاً أو آجلاً، وأن العدو قد حول أنظاره إلى الشرق لاحتلاله، حتى إذا تم له ذلك اضطر ألمانيا للاستسلام. وبديهي أن الآستانة هي معقد آماله، لأنها حلقة اتصال هامة بين الشرق والغرب. فمن الواجب الحيلولة دون هجومه عليها، وأن من الخطأ التفكير في استرداد بغداد، وما احتله العدو في جبهة قفقاسيا التي يجب تجميدها ببعض المفارز، خاصة وأن روسيا، بعد ثورتها، لا تفكر بمتابعة العمل الذي بدأت به الحكومة القيصرية. وأما الجبهة العراقية فيُعتقد أن الإنكليز قد بلغوا هدفهم النهائي فيها باحتلال بغداد، وليس ثمة من أسباب تهيب بهم إلى التوسع أكثر من ذلك، وأن لا خوف إلا على جبهتي سيناء والحجاز حيث لم يصل الأعداء إلى أهدافهم النهائية بعد، بل يقومون باستعدادات هامة لتحقيقها. لذلك لا بد من العمل لصيانة هاتين الجبهتين بالطرق التالية: أولاً تقوية الحكومة الإدارية، وثانياً تأمين معيشة الأهالي. ويمكن تحقيقهما بتشكيل فرقة جديدة من الدرك، وزيادة عدد

(*) دخلت تركيا الحرب بقوات عددها /٦٢٠/ ألفا ثم بلغ ما عبأته في أثناء الحرب قرابة ٤ ملايين حرصت بأن تُوجِد منهم تحت السلاح، في مختلف الجبهات بصورة دائمة، ٥ر١ مليون، وقد قدر الأتراك خسارتهم من الجند في أثناء الحرب بمليون ونصف بين قتيل ومفقود.

(T.T.T. CEMIYETI REISI TEVFIK BEY Tarih, III, p. 151.

رجال الشرطة، وتنظيم أمور القضاء لصيانة حقوق الشعب، والحيلولة دون استمرار الرشوة، وتأسيس تعاونيات استهلاكية (كوبيراتيف) في المدن السورية لتأمين معيشة الأهالي. فمتى تم ذلك سنحت الفرصة للتخفيف من حقد السكان على السلطة الحاكمة، واستمالتهم إلى تأييدها. وختم كلامه قائلاً «وإلا فمن العبث الاعتماد على قواتنا مهما تعاظمت، إذا كان الشعب نافراً منا ومن إدارتنا».

أما من الناحية العسكرية فقد عاد عن رأيه الأول في اتخاذ خطة الهجوم، وارتأى أن تكون الخطة مرتكزة على قاعدة دفاعية لا هجومية، نظراً للحاجة الماسة إلى فترة استعداد لا تقل عن ثلاثة أشهر. واقترح لذلك ما يلي: أولاً إرسال قوات الجيش السابع الموجودة في حلب إلى فلسطين، ووضعها تحت تصرف الجنرال فون كريس، ثانياً: تحقيق المطالب التي سبق إيرادها في التقرير، ثالثاً: إجراء بعض التبدلات في مراكز قوات الجيش، وعلى الأخص استدعاء قائد الجيش السابع مصطفى كمال باشا إلى الآستانة؛ لأن حركاته تعرقل مساعي القواد الألمان. رابعاً: إلغاء الجيش الرابع[٩٦].

لا شك بأن المشير فون فالكنهاين كان يرمي إلى غاية أبعد مما تظهر في تقريره، وإن كان تصويره للحالة واقعياً. كانت تلك الغاية، في الواقع، هي السيطرة الألمانية على البلاد العربية. وقد نم عنها ما سلكه إثر تسلمه قيادة جيوش الصاعقة، ذلك أنه أخذ يدرس إمكان الاستفادة من العربان والعشائر العربية على أطراف الدجلة والفرات، ووجوب الإتصال بهم بواسطة ضباط ارتباط يُرسَلون إليهم لإقناعهم بالاشتراك في العمليات الحربية ضد الإنكليز، أو على الأقل ضمان وقوفهم على الحياد، وقد قر رأيه، بالإتفاق مع معاون رئيس هيئة أركان حربه الضابط التركي حسين حسني أمير، أن يشكل في المقر العام لمجموعة جيوش الصاعقة ما أطلق عليه اسم «مكتب الشؤون العربية» (عرب شعبه سي) تحت إدارة النقيب أركان حرب «جناق قلعه لي توفيق أفندي»، وتحت إشراف العقيد حسين حسني أمير. كان من رأي المشير — وقد عرف مبلغ الخلف بين العرب والترك — أن يضطلع الضباط الألمان بمهمة ضباط الارتباط مع العرب، باعتبار أنهم عنصر محايد بين الأمتين، مستعينين بالذهب الألماني ليجذبوا العرب إلى جانبهم ويكسبوا مودتهم.

وقد بُدىء بالعمل الدؤوب في المقر العام لمجموعة جيوش الصاعقة في سبيل جمع المعلومات، واستنباط المزيد منها من ملفات وزارتي الداخلية والخارجية، والاستعانة بالإخصائيين في هذه

---

(٩٦) Y. H. BAYUR, Ibid. III, p. 400؛ جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص٢٦ — ٣٢.

الناحية. وعين في معية توفيق أفندي وتحت إمرته ضابط احتياط ألماني برتبة نقيب يسمى «أندره شاينبرغ ANDRE SCHAYENBERG» بدأ يعمل عضواً في المكتب، وكان ممن اشتغلوا سنين طويلة في التفتيش عن الآثار القديمة في العراق، وله تآليف فيها، ومعرفة وثيقة بالعراق. ولم تمض فترة من الزمن حتى بدأ هذا الضابط بالتجاوز على حقوق رئيسه التركي وصلاحياته، وأخذ يرسل الأوراق بتوقيعه، ويتصل مباشرة بالمشير ورئيس أركان حربه الألماني، ويحل المشاكل رأساً معهما. وهكذا رويداً رويداً إلى أن انتهى الأمر برئاسة الأركان الألمانية إلى الاستقلال تماماً بشؤون المكتب، وحجبها عن الضابطين التركيين فيه، تبعاً لخطة رسمت بعناية. وكان «أندره» يرسل الضباط الألمان من حلب، بعد أن انتقل مكتبه إليها، ومن دير الزور لكي يتصلوا رأساً برؤساء العشائر العربية ويكوّنوا ارتباطات مباشرة معهم[٩٧]. وقد بذل الألمان أموالاً طائلة في هذه السبيل، فنتج عن ذلك زيادة تعلق عرب العشائر بالألمان، وكثر وقوف العرب من سواد الناس على باب مكتب الضابط الألماني «أندره»، كما اجتمع رسل الألمان ببعض رجالات العرب في دمشق، وأغروهم بالعمل يداً واحدة مقابل تعهد منهم بإعطاء سورية استقلالها التام، تحت حماية ألمانيا، وإشرافها على أمورها الخارجية. لكن المحاولة ظلت عقيمة. كما خشيت القيادة العامة التركية العواقب فأصرت على أن يُستبدَل بالضابط الألماني «أندره» قائد تركي هو عزيز بك. لكن هذا لم يُصب نجاحاً، فظلت أمور العرب بيد النقيب «أندره»[٩٨].

كما أن تقرير فون فالكنهاين ذاته لم يُغفل ما ينم عن رغبة الألمان الاستعمارية، عندما ألح على إعطاء حد للمجاعة، ليبرهن للعرب أن الألمان أنقذوهم من المجاعة حينما استلموا القيادة، بينما جوّعهم الأتراك عندما كانت بأيديهم. غير أنه سرعان ما ظهر التناقض في سلوكهم، وذلك عندما استلم المشير مبلغاً كبيراً من المال اشترى به ٢٥ ألف طن من القمح لإطعام الجيوش العثمانية في جبهة فلسطين ولكنه، عملا بالأوامر التي تلقاها من القيادة العليا الألمانية، أخذ في شحنها إلى موطنه لإطعام الجيش الألماني[٩٩]. وفي التقرير ما ينم عن غرض آخر هو أن يكون الألمان سادة الجيش في البلاد. لكن المشير رأى أمامه منافسين قويين هما مصطفى كمال باشا، وأحمد جمال باشا، فأشار بإرسال الثاني بمهمة إلى ألمانيا، وبإبعاد الأول باستدعائه إلى الآستانة. وطفق يُصدر الأوامر إلى هذين

---

(٩٧) حسين حسني أمير، المصدر السابق، ص١٧ ــ ١٩.

(٩٨) تحسين العسكري، المصدر السابق، ص١٦٩ ــ ١٧٠؛ جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص١٣، ٣٧.

(٩٩) جمال باشا (الصغير)، المرجع نفسه، ص١٠٦

القائدين، دون أن تُعطى له الصلاحية من وكيل القائد العام، كما طلب من رئيس هيئة أركان الجيش الرابع شراء الحبوب من مناطق حوران وجبل الدروز، بعد أن أرسل إليه مئة ألف ليرة ذهبية. وما إن عاد أحمد جمال باشا من برلين حتى أتته برقية من الجنرال فون كريس يهنئه بسلامة العودة، ويرجوه في الوقت نفسه بعدم الاعتراض على الخطة العسكرية التي اتفق عليها مع المشير فون فالكنهاين. فلم يعبأ بها جمال، لا تأييداً لرأي مصطفى كمال باشا ـــ الذي اصطدم بدوره مع المشير لأن هذا يريد أن يُلحق الجيش السابع بجبهة سيناء، ويربطه بقيادة الجنرال فون كريس، لكي يرغم قائده مصطفى كمال على الاستقالة، بعد أن يرى أن رتبته قد أُنزلت من قائد جيش إلى قائد فيلق ـــ بل نكاية بالمشير الذي ينازعه السيادة على البلاد العربية، ويريد أن يجمع قوات جيوش الصاعقة في فلسطين، بالإضافة إلى الجيش الرابع، ويكون هو القائد الأعلى عليها، بينما لا يريد أحمد جمال أن يتخلى عن مركز يشغله إلى قائد أجنبي. أما مصطفى كمال باشا، فحينما علم بتقرير فون فالكنهاين، بادر إلى توجيه كتاب، إلى وكيل القائد العام، يعترض فيه بشدة على ما جاء في التقرير، متهماً كاتبه بأنه إنما يسير وفقاً لخطة رسمها الألمان في نزع السيطرة من القادة الأتراك، ووضعها بيد قادتهم، والعمل على اقتطاع هذه البلاد عن جسم الدولة العثمانية، وضمها إلى مستعمرات الإمبراطورية الألمانية. ثم ندد بالسياسة التي يتبعها المسؤولون في الآستانة بالسير وراء مصالح الألمان غافلين عن دسائسهم، ووصفها بأنها سياسة ضعف شديد، بل مؤامرة مدبرة من بعض هؤلاء للقضاء على السلطنة. ثم هدد بأنه، في حالة نزع سلطته عن الجيش السابع، سوف لا يقف موقف المتفرج الشامت ببلاده ـــ وهو يراها تسير في طريق الهلاك نتيجة للسياسة التي يرسمها الألمان ـــ بل سيُقدم على خوض المعارك الحربية بنفسه، ويدير أصغر جيش يجده أمامه غير متقيد بأوامر أحد في قيادته، فإما أن يهلك وإياه في ساحة القتال، حفاظاً على استقلال البلاد أو يقوده إلى النصر، ويكون الفضل في انتصاره له وحده. وختم كتابه بالتنبيه إلى أن للألمان غاية سياسية خطيرة يريدون تنفيذها، بواسطة المشير فون فالكنهاين، وهي استعمار سورية والعراق وباقي الولايات العربية، فإذا قدر لهم إجلاء الحلفاء عنها، أرسلوا إليها جيشاً فاحتلها، وقالوا لرجال السلطنة إن سورية لنا دافعنا عنها بدمائنا، فاذهبوا وفتشوا لكم عن بلاد غيرها[١٠٠].

تسلم أنور تقرير فالكنهاين واعتراض مصطفى كمال باشا عليه، وتأخر في الرد على كتاب

(١٠٠) Y.H. BAYUR, Ibid. III, p. 398 ; جمال باشا (الصغير)، ص٣١ـــ٣٧، ٤٤٠؛ حسين حسني أمير، المصدر السابق، ص٨٣ـــ٨٤.

الأخير . أما فالكنهاين فقد أغضبه موقف جمال باشا في تجاهل أوامره ، فأرسل برقية ، إلى رئاسة أركان حرب الجيش الألماني في برلين ، ضمّنها العراقيل التي يضعها قادة الترك أمامه ، وطلب إما حمل الحكومة التركية على القول بفكرته أو دعوته إلى برلين . عندئذ تلقى أنور برقية من برلين تهدده بالعواقب الوخيمة ، وبسحب الضباط والجنود الألمان من تركيا ، وقطع المساعدات عنها ، فيما إذا استمرت مخالفة القادة الأتراك للاتفاق المعقود بين الدولتين القاضي بوجوب الاستعانة برأي قواد ألمانيا العسكريين . فلم ير أنور باشا بدا من إيجاد حل للموقف ، وكان حلاً وسطاً في الظاهر ، ومتفقاً مع رغبة حليفته في الباطن[١٠١] . فقد أصدر القرار التالي (١/١٠/١٩١٧) :

أولاً : يلغى الجيش الرابع ، ثانياً : يتولى ناظر البحرية الفريق أحمد جمال باشا قيادة قوات سورية وفلسطين والحجاز واليمن تحت اسم القائد العام لقوات سورية وبلاد العرب الغربية ، ويكون مقره دمشق . ثالثاً : ينقل الجيش السابع ، التابع لمجموعة جيوش الصاعقة ، إلى جبهة سيناء على أن يبقى ، والقطعات التابعة الآن لجيش سيناء ، خاضعاً لقيادة مجموعة قوات الصاعقة . رابعاً : تقوم مجموعة جيوش الصاعقة (وقد أصبحت مؤلفة من الجيوش ٦ ، ٧ ، ٨ بقيادة فون فالكنهاين) بالحركات العسكرية في جبهة سيناء ولواء القدس بصورة مستقلة ، إنما ينبغي عليها أن تُعلم بها القيادة العامة لقوات سورية وبلاد العرب الغربية[١٠٢] .

كان هذا القرار ضربة قاضية على نفوذ كل من مصطفى كمال باشا وأحمد جمال باشا ، ذلك أن الأول ، وإن حُفظت حقوقه كقائد جيش ، وأصبح مساوياً للجنرال فون كريس ظاهراً ، إلا أنه وضع في الحقيقة تحت تصرفه وتحت إمرة المشير فون فالكنهاين ، فأغضبه هذا الأمر ، لا سيما أنه كان يكره الألمان بشدة ، فتبادل البرقيات مع أنور باشا مستفسراً معترضاً ، وعندما حاول أنور أن يهدىء من روعه ، ويقنعه بأن الألمان سيسيرون جنباً لجنب مع الترك لإعلاء كلمة الأمة ، ردَّ مصطفى كمال عليه بأنه لا يستطيع أن يرى البلاد تتقهقر في سبيل تنفيذ إرادة الألمان ، الذين لا يحسنون خطة العمل الحربي في هذه الجبهة ، وطالب بأن يكون جيشه في خط القتال مع الجيش الثامن الذي يقوده الجنرال فون كريس ، لا منزوياً في جهات نابلس ، بعيداً عن ذلك الخط .

ولما تلقى جواباً من أنور بأن الجبهة لا تتسع لجيشين قدّم استقالته فقبلها وكيل القائد العام ،

---

(١٠١) جمال باشا (الصغير) المصدر السابق ، ص٣٩ــ ٤٠ .

(١٠٢) ليمان فون ساندرس ، المصدر السابق ، ص١٦٩ .

وعين بدلاً منه أمير اللواء فوزي باشا (جقمق)[103]. أما الثاني فلم يكن تعيينه قائداً لقوات سورية وبلاد العرب الغربية إلا إسمياً أيضاً، لأن نشاطه قد جُمد في الواقع، ولم يعد له ذلك النفوذ الواسع والسيطرة على الجيش، وأصبحت المعارك الحربية تجري في معزل عنه. وكل ما هنالك أن خبرها يُنقل إليه رسمياً، دون أن يكون له صفة التوجيه. إنما أُسندت إليه مهمة الإشراف على حراسة الشاطىء السوري شمالي يافا، وقيادة الكتائب التي تقوم بالأعمال الحربية في شرق الأردن، واقتصرت أعماله المدنية على الاهتمام بتأمين المؤن لمجموعة جيوش الصاعقة وجنود الجبهة الفلسطينية. إنما لم يكن لفون فالكنهاين ــ مبدئياً ــ أن يتدخل في الشؤون المدنية سواء في سورية أو فلسطين، بل بقيت إدارة البلاد الملكية منوطة بجمال باشا[104]. غير أن المشير لم يتورع عن التدخل في الشؤون المدنية التي هي من صميم اختصاص جمال باشا، وصار يصدر أوامره إلى الولاة والموظفين، ووصل به الأمر إلى تحقير الموظفين وحتى الضباط الأتراك، بحيث قلب إدارة سورية رأساً على عقب.

وقد وصف جمال باشا قدوم فالكنهاين إلى سورية بأنه بلاء نازل على البلاد من عند الله، ونوه بأنه قد ضيق عليه دائرة حركاته، وأثّر تأثيراً سيئاً على نفوذه الذي وطده في سورية طيلة ثلاث سنوات، بما يكاد يقضي عليه تماماً، وأن وجوده في سورية سيكون شؤماً ما بعده شؤم عليها، وأنه بالاشتراك مع مصطفى كمال باشا قد خَبِرا خطط المشير من مذاكراته الفنية معهما، فوجدا أنها من النحالة والسقم بحيث تقضي على كل أمل بإنقاذ الجبهة، وأنه قد حدّث بذلك وكيل القائد العام عندما أتى إلى سورية للاطلاع على حالتها عن كثب، وشكا إليه تدخله في أمور خارجة عن اختصاصه، قائلاً له إنه ما بقي فون فالكنهاين في سورية فإنه لا سبيل إلى بقائه هو فيها، فإما هو أو المشير، لأن الأمور لا تسير سيرها الطبيعي إلا إذا كان ثمة مسؤول واحد وقائد واحد فقط. ثم بسط له الموقف الحربي قائلاً إنه بعد سقوط جبهة غزة ــ بئر السبع قد وحّد الأعداء جبهتهم بحيث انضمت جبهة معان العربية إلى جبهة فلسطين الإنكليزية، وأنه من الواجب توحيد الجبهة التركية تجاهها، بحيث يجب أن تنضم جبهة شرقي الأردن إلى غربيها، فإذا ما سُلمت قيادة جبهته (شرقي الأردن) إلى المشير فان رتبته ــ بعد خدمة ثلاث سنوات في سورية ــ ستنزل إلى مفتش منزل (مفتش للذخيرة والأرزاق)، فهل يرى أن ذلك يليق به؟ واقترح عليه ــ في حالة سحب المشير فالكنهاين من الجبهة، بسبب أخطائه الحربية وتسببه في سقوط القدس بإهماله الدفاع عنها ــ أن يأتي

(١٠٣) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص٤١ ــ ٤٢.

(١٠٤) مذكرات أحمد جمال باشا، ص٣٣٠ ــ ٣٣١.

بأمير اللواء مصطفى كمال باشا ، ويسلمه قيادة جيوش جبهة سيناء ، وهو من جهته يتنازل عن قيادة جبهة شرقي الأردن إلى أمير اللواء جمال باشا المرسيني (الصغير) ، ليضطلع هو (أي جمال باشا) بالقيادة العامة على الجبهتين المذكورتين . وإذا كان ذلك غير ممكن فإنه يرى أن تُتخذ التدابير اللازمة لانسحابه بهدوء وصمت دون ضجيج ، مستتراً بدعوى القيام بمهمة في الآستانة ، ومن هناك يقدم استقالته . فبين له أنور بعض المحاذير في إحداث هذه التغييرات ، الأمر الذي حمله على الانسحاب من سورية والتفرغ لوزارة البحرية . وقد اعترف في مذكراته بأنه قد أحس بالألم والحزن ، عند تركه الأراضي السورية ، إلى درجة انه أخذ بالبكاء والنحيب مدة أكثر من ساعتين ، عندما بدأ القطار يتحرك به من دمشق إلى الآستانة في ١٢/١٢/١٩١٧[١٠٥] (... huzün ve elem tesiriyle trende iki saatten fazla hüngür hüngür ağlayarak 12 kânünevvel 1917 de şamden Istanbula hareket ettim).

السير نحو دمشق : باحتلال العقبة تنتهي المرحلة الأولى من مراحل الثورة العربية (حرب الحجاز) ، وتبتدىء مرحلة ثانية تستحق أن نطلق عليها اسم «تحرير سورية» ، وهو هدف أخذ الأمير فيصل ــ بصفته عضواً من أعضاء الجمعيات العربية الطليعية ــ على نفسه عبء النضال في سبيل تحقيقه . وفي هذه المرحلة أعاد فيصل إلى الحجاز المحاربين من القبائل العربية الحجازية، وأصبح اعتماده مقتصراً على جيشه النظامي المؤلف بأغلبيته العظمى من السوريين والعراقيين[١٠٦] ، والفلسطينيين ضباطاً ورتباء ، ومن السوريين والفلسطينيين جنوداً ، يؤازرهم في ذلك أفراد القبائل السورية والفلسطينية التي سبق وأشرنا إلى استمالته لزعمائها . كما ألحق الحلفاء ، بجيش الأمير فيصل ، ما أطلقوا عليه اسم «الفرقة العربية La Légion Arabe» وكان عدد أفرادها ينوف على /٦٠٠/ محارب ، وقد شكلوها من جنود وضباط من العرب أخذوا يدربونهم في الإسماعيلية ، بعد أن قاموا بدعاية واسعة بين الأسرى من هؤلاء ، وبين الجاليات العربية في مختلف المهاجر العالمية ، بواسطة رسل خواص من العرب ، فتطوع عدد من أفراد هذه الجاليات والتحقوا بها[١٠٧] . ويظهر أن الحلفاء أرادوا من هذه الفرقة أن تخدم مصلحتهم بدليل أن فريقا من الجنود والضباط العرب ، الذين أُسروا من قبل الحلفاء ، ونُقلوا من معتقلاتهم إلى الإسماعيلية ، قد تمردوا في أثناء مرورهم في البحر الأحمر ، وطلبوا

(١٠٥) CEMAL PAŞA, Hatiralar, pp. 209-215.

(١٠٦) ARMITAGE, Ibid. pp. 101, 139 ; سليمان موسى ، المصدر السابق ، ص٣٠ .

(١٠٧) E. JUNG, Ibid. II, p. 26 ; مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص٤٤ .

إنزالهم في إحدى موانىء الحجاز للالتحاق بالثورة العربية رأساً ، وعدم إتمام سيرهم إلى الإسماعيلية . ولم يتمكن الضباط الإنكليز من تهدئة أعصابهم إلا بكل صعوبة(١٠٨) . وبابتداء هذه المرحلة اعتُبر الجيش العربي الفيصلي جزءاً من الحملة الإنكليزية العامة على فلسطين وسورية ، وأصبح الجيشان موحدين وتابعين لقيادة واحدة ، وذلك بموافقة الحسين وفيصل على ذلك ، فقام الجنرال اللنبي بالمواءمة بين عملياته الحربية وعمليات الجيش العربي ، بعد أن رأى في اقتحام العقبة سنداً قوياً له يسهّل له التقدم نحو فلسطين ، وكان إلى وقت ما يشك في جدوى الثورة العربية ، ويرتاب في مرماها(١٠٩) .

وقد مُنح فيصل رتبة فريق قائد جيش (قائد الجيش الشمالي) ، وهي نفس الرتبة التي يحملها الجنرال اللنبي نفسه(١١٠) ـــ حينذاك ـــ وقد تم بين القائدين اتفاق يقضي بأن يكون لأي من الفريقين ، العربي أو الإنكليزي ، يسبق زميله إلى احتلال منطقة ما ، الحق في الاحتفاظ بها وإدارة شؤونها إلى أن يبت مؤتمر الصلح ، في نهاية الحرب ، في مصيرها . ويظهر ان إنكلترا قد اضمرت ، بهذا الترتيب ، تنفيذ اتفاقية سايكس ـــ بيكو ، لأن الجنرال اللنبي قد راعى هذا الاتفاق بحذافيره . فقد تحاشى أحياناً دخول المناطق المخصصة لحلف الدول العربية (المناطق الداخلية) وتركها للجيش العربي . قال « هوبير يانغ HUBERT YOUNG » من وزارة الخارجية الإنكليزية ، حينما أطلع على التصريح البريطاني لزعماء العرب السبعة في مصر وكان فيه ما يشير إلى هذا الاتفاق « حينئذ فهمت بوضوح السبب الذي جعل العرب يبذلون جهوداً فوق طاقة البشر كي يسابقوا الخيالة البريطانيين في جريهم نحو درعا ودمشق وحلب ، كما فهمت أيضاً ، ولأول مرة ، السبب الذي من أجله سئلت مراراً ، وبعد سقوط دمشق ، من الذي احتل المدينة بالفعل لأول مرة : البريطانيون أم الأمير فيصل ؟ »(١١١) .

لم يكن لدى الجيش العربي أكثر من ٨ مدافع حينما كُلف العقيد لورنس ، من قبل الجنرال اللنبي ، بإبلاغ الأمير فيصل وجوب السير من العقبة إلى الطفيلة (جنوب البحر الميت) ، ليكون

---

(١٠٨) مؤرخ الثورة العربية ، المصدر السابق ، ص٤٤ ـــ ٤٥ .

(١٠٩) R. ALDINGTON, Ibid. p. 159 ; مسز ستورث أرسكين ، المصدر السابق ، ص٨٧ .

(١١٠) R. ALDINGTON, Ibid. p. 170.

(١١١) Ibid. pp. 190. 191 ; محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج٣ ، ص١٥٤ ؛ كريم خليل ثابت ، المصدر السابق ، ص٦٧ .

الجناح الأيمن للجيش الإنكليزي وليحمي مؤخرته ، ذلك أن الجنرال اللنبي كان في صدد التقدم في فلسطين إلى حذاء عمان ومنها إلى سورية . لكن وجود قسم كبير من خط الحجاز ، وقوات الترك المرابطة في المدينة المنورة ومختلف المحطات الواقعة على الخط الحديدي ، وعددها لا يقل عن عشرين ألفاً من ورائه ، يجعله غير قادر على التقدم دون حماية مؤخرته من هجوم مفاجيء . فمن الوجهة النظرية كان باستطاعة فخري باشا أن يتحرك من المدينة المنورة ، ويعيد تنظيم مخافر خط الحجاز ، والتجمع في معان لشن هجوم عليه ، أو على الأقل إرسال بعثة تخريبية تهدد مواصلاته ، لذلك رأى من الضروري تصفية قوات الترك التي تشرف على خط الحجاز قبل أن يشرع بحركة ما ، وفي الوقت نفسه جرى الإيعاز لجيشي الأميرين علي وعبد الله بتشديد هجماتهما على المدينة المنورة في كانون أول ١٩١٧ لكنهما لم يصلا إلى نتيجة ما(١١٢) . وفضلاً عن ذلك فقد رأى الجنرال الإنكليزي أنه من المفيد أن تُعطى أهمية أعظم لتخريب الخط الحجازي . فكلف بذلك الخبير الممتاز العقيد « داوني COL. DAWNAY » وزوده بما يلزم من المعدات الفنية الناجعة ، وبسَرِية من الجند بينهم مساعدون خبراء ، فقام بالمهمة الموكلة إليه خير قيام : هاجم المحطات المجاورة لمعان وأسر ٣٠٠ جندي تقريباً . وبعد سقوط معان قاد سريته نحو الجنوب ، وتوصل إلى تخريب كامل للسكة الحديدية حتى هذه المدينة ، بالإضافة إلى تدمير سبع محطات ، وقد بقيت آثار هذا التدمير حتى نهاية الحرب ولا تزال حتى الآن ، وكانت السبب في عجز الأتراك عن إعادة الاتصال بالمدينة(١١٣) .

أصبحت العقبة قاعدة انطلاق الجيش العربي بعد أن انتقل إليها الأمير فيصل مع هيئة أركان حربه ، التي التحق بها عدد من الضباط الإنكليز الجدد ومنهم العقيد « جويس JOYCE » مشاوراً حربياً للأمير ، يعاونه في ذلك الرائد « ماينار MAJOR MAYNARD » والنقيب « هورنبي CAP.HORNBY » من سلاح الهندسة ، مشرفاً فنياً على عمليات التخريب ، والرائد « مارشال MARSHALL » والنقيب « رامسي RAMSAY » ، ضابطين مكلفين بالاشراف الصحي . كما كان من جملتهم الرائد « سكوت SCOTT » والنقيب « غوزلت GOZLETT » والملازم « وودز WOODS »(١١٤) . وشرع فيصل في العمل فوراً إذ كان يترتب على جيشه القيام بعمليتين حربيتين ، أولاهما شن غارات متواصلة على السكة الحديدية ، وتخريب الطرق والجسور والقناطر ، ونسف

(١١٢) R. ALDINGTON, Ibid. p. 175.

(١١٣) Ibid. pp. 186-187.

(١١٤) Ibid. p. 185.

القطارات المحملة بالجنود والمؤن بقصد عرقلة مواصلات الأعداء في حركة متناسقة مع سرية العقيد «داوني». والثانية توجيه الحملات المتعاقبة على محطات العدو المشرفة على الخط الحجازي واحتلال حامياتها. وقد قام الجيش العربي بأعمال باهرة في هذه السبيل. كما كان يترتب على الأمير فيصل القيام بعملين سياسيين: أولهما توسيع دائرة تحالفه مع شيوخ القبائل، واقناعهم بالتخلي عن مساعدة الأتراك، واستمالة عرب سورية إلى صفوف الحلفاء بنشر دعاية مؤداها أن قضية الحلفاء وقضية الاستقلال العربي أصبحتا شيئاً واحداً، وان انتصار الحلفاء هو الذي سيؤمن الحرية للشعوب العربية. وقد أثمرت هذه الدعوة بصورة خاصة في اجتذاب قبائل منطقة بئر السبع، التي انضمت إلى الثورة بعد أن كانت تقاتل في صفوف الأتراك، مما اضطر هؤلاء إلى إخلاء العريش فاحتلتها فرقة الخيالة البريطانية على الأثر. والثاني هو إرسال الرسل إلى المناطق السورية للاتصال بالزعماء السياسيين، وكبار الضباط العرب القوميين، والعمل على تشجيع الضباط والجنود العرب، الذين يخدمون في الجيش العثماني، على ترك قطعاتهم والالتحاق بالثورة العربية، تساعدهم على نشر هذه الدعايات الطائراتُ التي كانت تمطر المناطق السورية بالمنشورات الداعية إلى ذلك(١١٥). وكان لهذه الدعاية أثرها الكبير على الجنود العرب، الذين كانت أعداد كبيرة منهم تنسحب، في إبان احتدام المعارك، من صفوف الجيش التركي، لتلتحق بقطعات الجيش الإنكليزي الزاحف، أو يذهبون إلى العقبة حيث ينضوون تحت الراية العربية، كما اختفى قسم عظيم منهم في الأرياف والقرى(١١٦). كما أخذ الشبان السوريون يتقاطرون للالتحاق بالثورة بالرغم من التضييق الشديد الذي لقوه من السلطات التركية، التي عمدت إلى إعدام كل من يقبض عليه وهو يحاول السفر إلى مراكز الثورة، وكل من كانت له صلة برجالها، ناهيك عن انتقامها من أتْبَاع المستجيبين لهذه الدعوة، ومن أهلهم وأقربائهم(١١٧).

سحابة شك وتنقشع: بينما كانت القوات العربية تعمل، جنباً لجنب مع الجيش الإنكليزي، قامت الثورة البلشفية في روسيا (آذار ١٩١٧)، وعقدت هذه صلحاً منفرداً مع الدول الوسطى، ونشرت الوثائق السرية المتضمنة اتفاقات الحكومة القيصرية مع الحلفاء في اقتسام الممتلكات العثمانية، فاطلع عليها الترك وكانت فرصة ذهبية اغتنمها جمال باشا لمواجهة العرب بخيانة

---

(١١٥) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٢٥ — ٣٢٨.

(١١٦) المصدر السابق، ص٣٢٨.

(١١٧) الأمير مصطفى الشهابي، الاستعمار، ج٢، ص٨٢.

حلفائهم الإنكليز والفرنسيين، باتفاقهم على اقتسام بلادهم، فبادر إلى توجيه رسالة منه إلى الأمير فيصل تحمل تاريخ ١٩١٧/١١/٢٦ (أي قبل مغادرته سورية نهائياً بأسبوعين)، وقد كتبت بأسلوب يستهوي قارئها، وبصيغة نداء موجه من مسلم جدّي التفكير إلى أخيه المسلم، يذكره بأن من واجب من يعنيهم مجد الإسلام أن يوقفوا جميع طاقاتهم، بل حياتهم إذا لزم الأمر من أجله، وجلب نظره إلى أن الإنكليز قد ضللوه وأباه بالوعود الكاذبة التي منوهما بها عن استقلال العرب، بينما كانت غايتهم هي اقتسام البلاد العربية، وإحكام السيطرة عليها، وختمها بدعوة فيصل ــ وله الأمان ــ إلى دمشق لافتتاح المفاوضات في سبيل عودة العرب إلى الحظيرة العثمانية. وأُرفقت الرسالة بمجمل الشروط التي يقبل الترك بها، على أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً، تتحقق به أماني العرب القومية ضمن الإمبراطورية العثمانية، مع التأكيد بأنه إذا حدث وأسفرت المفاوضات عن اتفاق فإن شرعية شروطها لا تكون مضمونة بتصديق السلطان وحده، بل بضمان مماثل من الحكومة الألمانية أيضاً. وختم رسالته بدعوة زعماء العرب إلى الاستفاقة من غفلتهم على الخديعة التي وقعوا في حبائلها، ونبذ التعاون مع الحلفاء.

ولم يترك جمال باشا هذه الفرصة تمر دون أن يستغلها أقصى استغلال في سبيل الدعاية له وإثارة الرأي العام العربي على الثورة، إذ أُقيمت بأمر منه مأدبة رسمية دعي إليها أعيان العرب في بيروت ١٩١٧/١٢/٤ وكان هو ضيف الشرف فيها، فألقى خطبة أعلن فيها على الملأ الشروط التي بعث بها إلى الشريف، وقدم لسامعيه وصفاً لما سببته الثورة العربية من ضرر لا لوحدة الإسلام فحسب، بل للقضية العربية التي أعلن زعماء الثورة أنهم يسعون لخدمتها. وقد فضح في خطبته هذه المعاهدة السرية العربية ــ الإنكليزية، على أساس استقلال العرب تحت رعاية الدول الأوروبية، مبيناً أن ذلك لم يكن إلا خديعة من الإنكليز لإثارة الثورة العربية، وقع الشريف في شباكها ليسلّم البلاد لأعداء الإسلام، بعد أن أخل بوحدة الإسلام وبشرفه، وأن الإنكليز لم يجتازوا ترعة السويس إلا بعد أن اطمأنوا إلى قيام ثورة الشريف. وختم خطابه بأن نبه سامعيه إلى أن الشريف، إذا كان مسلماً حقيقياً وكان جامعاً لمزايا العرب، قلب للإنكليز ظهر المجن، وآل راجعاً إلى خليفة الإسلام والمسلمين[١١٨]. وأردف عمله هذا بحركة رمى من ورائها إلى خلق البلبلة في صفوف الجيش العربي والشعب العربي في الحجاز، وذلك بإبلاغ نصوص اتفاقية سايكس ــ بيكو إلى فخري باشا في المدينة المنورة، كما نشرت جريدة الشرق الرسمية في دمشق، وجميع الصحف السورية، خطابه

(١١٨) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٥٨ ــ ٣٦١؛ مجلة اليقظة العربية الحاضرة، عدد ١١، ص١٠ ــ ١١.

وأُرسلت نسخ منها إلى المدينة المنورة ، ومنها تسربت إلى مكة . وفي أحد الأيام سقطت قنبلة ألقتها إحدى الطائرات العدوة في المعسكر العربي للجيش الشمالي ، ولم تكن هذه القنبلة من المتفجرات بل من المنشورات والجرائد الحاوية على نصوص الإتفاقية ، اكن تأثيرها كان أشد من القنابل(١١٩) على العرب لما فيها من غدر بهم . على أن لورنس يقول بأنه لم يكتم أمر وجود هذه الاتفاقية عن فيصل ، فيما سبق ذلك من زمن ، بل كان يعمل على إقناعه بأن أفضل وسيلة لتلافي خطرها على القضية العربية هو أن يُسدي للإنكليز مزيداً من العون المجدي(*) ، بحيث يمنعهم الحياء !! — بعد الحرب — من أن يغدروا بحليف من أجل تنفيذ الاتفاقية ، وبألاّ يعتمد على الوعود بل على جهوده فقط(١٢٠) . وقد صرح الأمير فيصل للمسز ستورت ارسكين ، بأن ما جاء في الاتفاقية من نصوص أحدث تأثيراً سيئاً للغاية في وسط الجيش ، وأنه قد أبرق إلى والده يقول « إننا نرفض متابعة الحرب مع الحلفاء لأن غرضنا هو استقلال البلاد العربية لا تمزيقها ، وقيام دول أجنبية مقام الترك فيها » فأبرق الملك حسين بالأمر إلى الحكومة البريطانية ، وفي الوقت نفسه كتب إلى نجله يقول إن الوصول إلى هذه الأغراض (أي أهداف الأمة العربية) أصبح معلقاً بشرفه وشرف عائلته ، وأنه يعتبر نجله خائناً إذا ترك قتال الترك(١٢١) .

لم تكن هذه العروض بطلب الصلح المنفرد أول عروض قدمها جمال باشا لفيصل بل سبقتها محاولات مماثلة ، قال لورنس بأن فيصلاً كان على اتصال مع بعض العناصر التركية من زمن بعيد ،

---

(١١٩) مسز ستورث أرسكين : المصدر السابق ، ص٩٥ .

(*) إن من يطالع كلاً من الكتابين « أعمدة الحكمة السبعة » وملخصه « ثورة في الصحراء » ، اللذين وضعهما لورنس عن الثورة العربية يلمس العجب العجاب من تبجح يوحي للقارىء بأنه هو لولب الثورة وفارسها الأوحد ، ومن تناقض الأقوال والكذب والتلفيق ومن التلاعب ما يوحي بأنه الرجل الثعلب الذكي ، الذي عرف كيف يكسب حب العرب ممن رافقهم ، وثقة الأمير فيصل ثقة عمياء باخلاصه ، بينما هو في الواقع جاسوس بل عميل إنكليزي ماهر . وهذا شيء غير مستغرب من إنكليزي وجد مجالاً ممهداً سهلاً مأموناً لبلوغ غايته الشريرة في خدمة دولته الاستعمارية ، وفي استغلال منصبه كضابط ارتباط ليتمادى في جاسوسيته وعمالته . ولكن أن يكون عميلاً صهيونياً عريقاً مأجوراً مخلصاً في خدمة الصهيونية ، فهذا هو المستغرب من ثقة فيصل بإخلاصه ثقة عمياء جرته إلى مزالق سياسية خطيرة في خدمة الأغراض الصهيونية في أثناء الثورة ، وبعد انتهاء الحرب ، حيث أتاحت له الظروف أن يكون مستشار الأمير وترجمانه في مؤتمر الصلح ، وغير ذلك من أمور لا تستطيع هذه العجالة أن توفيها حقها من البحث ، بل تحتاج إلى تحقيق علمي مستقل .

(١٢٠) LAWRENCE: Ibid. p. 691.

(١٢١) مسز ستورث أرسكين : المصدر السابق ، ص٩٩ — ١٠٠ .

وكان جمال باشا هو البادىء ، لأن الثورة صدمته صدمة قوية مرغت جبينه بالوحل ، ويريد أن يتلافى الأمر بإصلاح ما يمكن إصلاحه مع العرب ، بعد أن شعر بحرج الموقف الحربي على الجبهة العربية ، فأرسل عدة رسائل إلى الأمير فيصل بهذا المعنى ، لكن الأمير أرسل ما تلقاه منها إلى مكة ومصر يطلع والده والإنكليز عليها . وكان الجواب الذي أُعطي للترك بايعاز من لندن ومكة أن لغة الحرب هي التي تتكلم في الوقت الراهن ، وأن قوة السلاح هي الحكم بين الطرفين .

كان الهم الشاغل لفيصل ، في الأشهر الأولى من عام ١٩١٨ ، هو الاستيلاء على دمشق ، وكان متفقاً على ذلك مع لورنس مهما كان الموقف الحربي الإنكليزي في الرملة أو درعا ، حيث وجه الجنرال اللنبي سهم هدفه الحربي . فلما شعر الجنرال الإنكليزي بهذه الرغبة أرسل إلى فيصل العقيد « داوني » من لدنه رسولا ينصحه بالتريث والتزام الحكمة . وأن لا يحاول القيام بعمليات جريئة ، لأن الهجوم الإنكليزي ليس أكثر من مغامرة فإذا فشل يصبح العرب ـ إذا احتاجوا إلى نجدة ما ـ في حالة سيئة على ضفة الأردن الشرقية . فما كان من الأمير فيصل إلا أن أجابه والبسمة الهادئة تعلو شفتيه بأنه سيحاول الاستيلاء على دمشق في الخريف ولو أطبقت السماء على الأرض ، فإذا لم يكن باستطاعة الإنكليز أن ينهضوا بأمر القتال في جبهتهم فإن عليه أن يعمل على انقاذ شعبه في سورية ، وليس أمامه لتحقيق هذا الهدف إلا أن يعقد صلحاً منفرداً مع تركيا .

لكن اعتقاده ، بأن الاتفاق مع جمال باشا مستحيل نظراً لجرائمه الوحشية التي ارتكبها في دمشق ، قد حمله على الاتجاه بجهوده إلى تفتيت الوحدة الوطنية في تركيا ، بالاتصال مع العناصر المعادية للألمان في القيادات العليا للجيش التركي ، وعلى رأس هذه العناصر اللواء مصطفى كمال باشا . وقد سارت المفاوضات بصورة مشجعة في بادىء الأمر ، إذ عرض الأتراك استعدادهم للموافقة على استقلال الحجاز الداخلي ، ثم وافقوا ـ في مرحلة ثانية ـ على معاملة سورية ، وفي مرحلة ثالثة على معاملة العراق بالمستوى نفسه ، وحتى على منح الحسين تاج الحجاز ، لكنهم لم يكتموا مخاوفهم من أن الأسرة الهاشمية في مكة هي من الطموح بحيث لا ترضى إلا بحكم يمتد ظله على جميع المسلمين . وقد ظهر في النتيجة أن الطرفين لم يكونا يستهدفان سوى إحداث الانقسام في الجبهة المقابلة . وهذا ما جعل الأتراك يستغلون اتفاقية سايكس ـ بيكو لفصل العرب عن الحلفاء[١٢٢] .

---

(١٢٢) LAWRENCE Ibid. pp. 689-691.

تلقى الحسين اتفاقية سايكس ــ بيكو بامتعاض ما بعده امتعاض ــ لا شك في ذلك ــ لكنه لم يكن لديه ذرة ثقة بالترك، كي يميل إلى الاستجابة لعروضهم في الصلح، لذلك بادر إلى إجابة الأمير فيصل، الذي أطلعه على عرض جمال باشا الجديد، بأن يرسل إليه رداً مختصراً جافاً يبلغه فيه رفضه الاتصال بالترك. ثم أخذ رسالة جمال باشا الموجهة إلى نجله، وأردفها بما بلغه من مواد اتفاقية سايكس ــ بيكو ثم أرسلها إلى المعتمد البريطاني في مصر، وطلب إيضاحاً عنها. ولما أحال المعتمد البريطاني القضية إلى وزارة خارجيته عمدت هذه إلى المغالطة والتضليل، فأجابت الحسين ببرقية أردفتها بمذكرة رسمية، توخت منهما أن توحي للحسين بأن ما وافاه به جمال إن هو إلا مثال جديد على الدسائس التركية[١٢٣]. فقد ذكرت البرقية أن البولشفيك لم يجدوا في مصنفات وزارة الخارجية الروسية معاهدة معقودة، بل محادثات مؤقتة بين إنكلترا وفرنسا وروسيا جرت في أوائل الحرب، وقبل الثورة العربية، لإزالة كل ما من شأنه أن يعرقل قتالهم للترك، وأن جمال باشا، جهلا منه أو خبثا ــ قد شوه صورة التفاهم الأصلية، وتغافل عما نصت عليه من مراعاة موافقة السكان ذوي العلاقة وحماية مصالحهم، وأنه قد تجاهل بأن ما وقع بعد ذلك، من قيام الثورة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسيا، قد أوجد موقفاً جديداً مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه قبل ذلك[١٢٤]. أما مذكرة وزارة الخارجية الإنكليزية التي حملت تاريخ ١٩١٨/٢/٨، والتي تلقاها الحسين بنصها العربي، بتوقيع الكولونيل «باست» نائب المعتمد البريطاني في جدة، فقد استفتحت بالثناء على إخلاص الملك لحلفائه، بإطلاعهم على عروض جمال باشا المقدمة إليه، وعلى حكمته وسداد رأيه برفضه هذه العروض، ثم أردفت بتصوير حركة جمال بأنها خدعة تركية يراد بها إحداث الشقاق بين العرب والحلفاء، واختتمت بالتأكيد أن إنكلترا ستقف ــ وفقاً لعهدها السابق ــ إلى جانب العرب في نضالهم من أجل التحرر، وستساعدهم في الحصول على حريتهم[١٢٥]. غير أن الشريف حسين لم يفطن إلى ما يمكن أن تنطوي عليه البرقية والمذكرة من خداع وغش وكذب، بل تقبلهما على ظاهرهما شأنه كشأن الرجل الشريف المطمئن على إخلاص الحليف للحليف[١٢٦].

ومع ذلك لم تمض أنباء الغدر البريطاني الذي تجلى باتفاقية سايكس ــ بيكو وتصريح بلفور

---

(١٢٣) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٦٢.

(١٢٤) مجلة اليقظة العربية الحاضرة، العدد ١١، ص١٠ ــ ١١.

(١٢٥) حافظ وهبة، المصدر السابق، ص٣٢٩؛ الفريق نوري السعيد، استقلال العرب، ص٤٤.

(١٢٦) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٦٤.

دون أن تخلف وراءها موجة من الاستياء العام لدى العرب وزعمائهم، إذ تنادى، في ربيع ١٩١٨، سبعة من زعماء العرب المقيمين في القاهرة وهم: رفيق العظم، الشيخ كامل القصاب، مختار الصلح، عبد الرحمن الشهبندر، خالد الحكيم، فوزي البكري وحسن حماده ــ وقد أخذتهم المخاوف والريب وشكوا في صدق الحلفاء ــ فقدموا مذكرة مشتركة إلى وزارة الخارجية البريطانية، بواسطة المكتب العربي في القاهرة، بدؤوها بالاستفسار عما إذا كان بإمكانهم أن يؤكدوا لقومهم العرب أن غاية بريطانيا مساعدة العرب على الاستقلال التام في بلادهم ــ وتشمل شبه جزيرة العرب والعراق وسورية وقسم من ولاية الموصل ــ وهل من سياسة إنكلترا تأليف حكومة عربية لامركزية تشبه حكومة الولايات المتحدة أو غيرها من الحكومات الحليفة. وتعهدوا بصفتهم ممثلي مختلف الجمعيات العربية بأن يقوموا بالخدمات اللازمة التي يُكَلَّفون بها من جانب حلفائهم، وتعود منفعتها على الطرفين، فيما إذا صدر تصريح إيجابي حول ما استفسروا عنه. ثم لفتوا النظر إلى أن السوريين ــ مع تمنيهم بأن تكون بلادهم جزءا من المملكة العربية الحليفة ــ يميلون إلى تطبيق قانون اللامركزية، بحيث تقسم إلى ولايات تحكم نفسها بنفسها حكماً إدارياً فقط(*)، كما يرغبون في تطبيق هذا القانون على سائر الولايات العربية في حالة استقلالها. وبينوا اعتماد العرب على بريطانيا وثقتهم بها، وأنهم يمدون يد الصداقة إليها، وإلى شعبها ويأملون أن تكون نصيرتهم، وأظهروا قلقهم من أن بريطانيا صرحت بحفظ سلامة الولايات التركية الآهلة بالعنصر التركي، وعدم المساس باستقلالها، بينما هي قد أغفلت باقي العناصر العثمانية، مما جعل الأمة العربية في يأس شديد من سلامة حياتها السياسية. وختموا مذكرتهم منوهين بإمكان جمع العرب على مبادىء أساسية، تقوم عليها حكومات البلاد العربية المتحدة، وتأمين الوفاق فيما بينها، مظهرين استعدادهم لكل مساعدة تتطلبها المصلحة العامة في هذا الشأن، ومذكرين أن الثورة العربية، وإن ظهرت من الحجاز، فإن سورية أساسها، ولها اليد الطولى في الحركة الفكرية التي أنتجتها، آملين أن لا تذهب جهودهم هدراً(١٢٧). . .

قدم الزعماء السبعة مذكرتهم مغفلة من التواقيع، حرصاً على أن تظل هوياتهم مكتومة، بسبب ما جاء في مذكرتهم من مقارنة بين الحجاز والأقطار العربية الشمالية، وفيها انتقاص من القطر

(*) ان ما دفعهم إلى إظهار مخاوفهم من الخطة المركزية للدولة العربية العتيدة ما صرح به بعض المقربين من الحسين من أنه إذا انتصر على الأتراك في البلاد العربية فسوف يقيم حكومات في تلك البلاد، ويجعلها مسؤولة حياله في مكة (أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣٧٩).

(١٢٧) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج٢، ص٣٨ــ٤٠.

الحجازي مما يثير الحسين عليهم ، وصمموا على الإعلان فيما بعد عن المذكرة والجواب الذي سيعطى عليها في آن واحد . وقد جاء جواب وزارة الخارجية البريطانية ١٩١٨/٦/١٦ بأن حكومة جلالته قد نظرت بعين العطف والتقدير إلى المذكرة ، وأنها تنظر إلى البلاد العربية ضمن الاعتبارات التالية :

١ ـــ الأراضي التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب .
٢ ـــ أراضٍ تحررت من السيطرة التركية بعمل العرب أنفسهم في أثناء الحرب .
٣ ـــ أراضٍ كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحتلها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة .
٤ ـــ أراض لا تزال تحت السيطرة التركية .

ففيما يتعلق بالزمرتين الأوليين وكانت تنطبق على (الامارات العربية المستقلة ـــ وولاية الحجاز حتى العقبة) تعترف بريطانية بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية .

وفيما يتعلق بالأراضي التي تحتلها قوات الحلفاء (وكانت هذه عند إذاعة التصريح تشمل أكثر أنحاء العراق مع بغداد والنصف الجنوبي من فلسطين مع القدس ويافا) ترغب حكومة جلالته في أن تكون حكومة هذه الأقاليم ـــ وفقاً للتصريحات الصادرة عن القواد العامين ، عند الاستيلاء على بغداد والقدس ـــ قائمة على رضا المحكومين . وهذه السياسة والتصريحات ستظل مؤيدة من حكومة جلالته .

وأما فيما يتعلق بالأراضي المذكورة في القسم الرابع (الأجزاء غير المحررة من العراق وسورية حتى ذلك التاريخ) فإن من رغبة حكومة جلالته أن تفوز الشعوب المظلومة في هذه الأراضي بالحرية والاستقلال . ولا تزال حكومة جلالته تعمل على تحقيق هذه الغاية[١٢٨] .

لم يكن إصدار هذه الوثيقة ـــ التي سميت باسم « العهد البريطاني للسوريين السبعة » ـــ عن عبث ، فقد وجب على بريطانيا والحلفاء أن يحولوا دون أي تقارب بين العرب والترك ، فقد تزعزعت ثقة العرب بحلفائهم بعد بلوغهم خبر اتفاقية سايكس ـــ بيكو ووعد بلفور ، وبات الحلفاء يخشون من أن يؤدي قلق العرب والشريف حسين إلى التحول عن قضية الحلفاء ، خاصة وأن الترك بدؤوا في سياسة الملاينة مع السوريين ، وأخذوا يطلقون سراح زعمائهم الموقوفين ، ويعيدون المنفيين منهم إلى

---

(١٢٨) HUREWITZ Ibid. II, pp. 28-29 ; الفريق نوري السعيد ، المصدر السابق ، ص٤٦ .

ديارهم ـــ يساعدهم في الدعاية لاستمالة العرب حلفاؤهم الألمان ـــ لذلك رؤي من الضروري تهدئة نفوس زعمائهم . وقد كان للتصريح أثره في نفوس العرب ، إذ بدد من أذهانهم كل ما أذيع عن نبأ اتفاقية سايكس ـــ بيكو وتصريح بلفور ، خاصة وأنه جاء بعدهما ، فضلاً عن كونه قد أعطي علنا ، وزاد بحماستهم ، وحفزهم على الإشتراك في الهجوم النهائي على الترك ، وزاد يقينهم بانتصار مبادىء ويلسون الأربعة عشر ، التي صدرت قبل شهور قليلة ، ونص بعضها على حق الشعوب في تقرير مصيرها(١٢٩) ، وخاصة عندما جاءهم بعد بضعة أسابيع نبأ خطاب ألقاه الرئيس الأمريكي ١٩١٨/٧/٤ نوه فيه بما يتفق مع التصريح البريطاني للزعماء العرب السبعة من أن تسوية ما بعد الحرب ستكون مبنية على قبول الشعوب التي تعنيها التسوية مباشرة قبولاً طوعياً لها(١٣٠) .

---

(١٢٩) أحمد طربين ، التنازع الدولي حول أقطار آسيا العربية ، ص٦٦ ـــ ٦٧ .

(١٣٠) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٨٢ .

الفصل الخامس

الإنفصال والانهيار العثماني

ملاحظات على الجبهة السورية : لا بد لي ، قبل المضي في معالجة النهاية التي آل إليها الحكم التركي في بلاد الشام ، من إبداء بعض الملاحظات على الجبهة السورية ـــ الفلسطينية .

أولاً أن قوات الإنكليز الزاحفة إلى فلسطين وسورية كانت مزودة بالمصفحات والدبابات والآليات من كل الأنواع ، تسندها أسراب كثيرة من الطائرات ، بالإضافة إلى مدفعية الأسطول على الساحل ، كما كانت الإمدادات الحربية تصلها باستمرار . ولم يكن هنالك من مجال للمقايسة بين ما يتمتع به الجندي الإنكليزي والعربي من معنويات قوية ، وأحوال معيشية مرفهة ، وبين حالة الجندي العثماني من هذه النواحي . إذ كانت القوات العثمانية مفتقرة إلى كل شيء ، بالإضافة إلى أن الجندي العثماني لم يكن ينال القوت الكافي ، فأضناه الحرمان ، وأنهكت المجاعة قواه ، إذ لم يكن الفرد ينال من الخبز أكثر من مئة غرام يومياً ، وهو من الرداءة بحيث تعافه النفس ، علاوة على رداءة اللباس والتجهيزات ، بحيث لم يبق على جسم الجندي من الثياب سوى أسمال بالية ، فضلاً عن كونه محروماً من المياه الصالحة للشرب . وقد أهلكت حمى الزحار عشر عدد الجند تقريباً(١) . وفوق ذلك كله فهو لا يكاد يخرج من المعركة منهوك القوى حتى يلاقي مشقات أعظم : يحمل أثقاله على ظهره ، ويسير في الصحراء المحرقة فيقضي عليه التعب إذا أخطأه الرصاص .

ثانياً إن سوء المعاملة التي كان يلقاها الجنود العرب ، والارتياب في إخلاصهم ، كان يدفعهم

(١) WILLY SPERCO, Ibid. p. 41.

فعلاً إلى ترك صفوف الجيش العثماني ، والإلتحاق بالجيش العربي بصورة فردية أو جماعية . ومن أمثلة سوء المعاملة أن المشير فالكنهاين خرج مرة للتفيش في الجبهة ، وصادف أن فريقاً منهم كانوا مكلفين بمساعدة الحيوانات الهزيلة في جر المدافع إلى قمة هضبة . فلما وصل إلى القرب منهم كانوا قد توقفوا عن العمل بسبب التعب الشديد الذي أصابهم ، لكنه ـ دون أن يتأكد من سبب توقفهم ـ أمر باعتقال ضابطهم وكان سورياً برتبة ملازم أول مع عشرة جنود من العرب ، أحالهم جميعاً إلى ديوان الحرب العرفي بتهمة التوقف عن سوء نية ، والتعمد في تأخير جر المدافع ، فحكم عليهم بالإعدام ونُفذ الحكم فوراً . ومنها أيضاً ارتياب كل من الجنرال الألماني فون كريس وأحمد جمال باشا بالفرقة ٢٧ العربية ، التي كانا يتهمان أفرادها بأنهم خونة ، ولا يحسنون القتال ، وكان ادعاؤهما كاذباً نقضه بوضوح تقرير أمير الألاى (العقيد) عصمت بك (اينونو رئيس الوزارة التركية فيما بعد) قائلاً بأنه يفتخر بهذه الفرقة العربية ، وأن من الحيف إلصاق تلك التهم الشنعاء بها ، لأنها فرقة باسلة ومضطهدة معاً ، بحيث إن الطعام لا يقدم إليها بالصورة التي يقدم لبقية الفرق ، وإن أفرادها بقوا ثلاثة أيام لم يتناول الواحد منهم أكثر من /١٥٠/ غراماً من الخبز خلالها دون أي شيء آخر . ومن أمثلة فرار العرب أن مفرزة من الكشافة مؤلفة من ١٥٠ جندياً ، أكثرهم من العرب ، أرسلت بمهمة إلى الجبهة فلم تعد ، وقد تبين أنها ما إن التقت بالعدو عند غزة حتى رفعت علماً أبيض ، وسلمت نفسها إليه مع أسلحتها دون أن تطلق رصاصة واحدة[٢] . وقد حدثت حوادث مشابهة كثيرة وفي بعض المواقع كان الجنود العرب ما يكادون يشعرون ببدء المعركة حتى يتركوا صفوفهم ويلتحقوا بالعدو مع أسلحتهم[٣] .

معارك التحرير الأخيرة : اتسمت معارك ١٩١٨ بزحف قوات الجنرال اللنبي وفيصل دون أن تلقى مقاومة تذكر لأن الجيوش العثمانية قد انهارت مادياً ومعنوياً ، وأصبحت أجساماً هزيلة بلا روح بل أشبه شيء بالاشباح[٤] . فبعد أن تم تحرير القدس وحتى نهاية ١٩١٧ أصبحت فلسطين في يد القوات الإنكليزية . وقد ساعدها على اتمام هذه المهمة انها كانت تحارب في أرض صديقة ، بينما ازداد نفور العرب من الأتراك ازدياداً جعل هؤلاء يشعرون بأنهم يقاتلون وسط شعب شديد الكراهية والعداوة لهم ، لايني لحظة عن عرقلة أعمالهم الحربية بقطع أسلاك التلغراف ، وقلع أعمدتها والفتك بمن

---

(٢) جمال باشا (الصغير) المصدر السابق، ص٦٠ ، ٦٦ ، ٧٥ .

(٣) المصدر السابق، ص٨٢ .

(٤) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 37.

يُستَفردَ من رجالهم بعد سلبه واهانته(٥)، بالإضافة إلى أن كثيرين من العرب كانوا يتطوعون لتزويد القيادة الإنكليزية والعربية بالمعلومات الهامة عن تحركات الأعداء، وعن أخبارهم وعدد قواتهم، كما أنشأت هذه القيادة مكتباً للتطوع قدم له بعض الشباب من وجهاء فلسطين، كالسيد أمين الحسيني (مفتي فلسطين فيما بعد)، مساعدات قيمة بدفع الشبان العرب للتطوع فيه.

بعد أن احتل الجنرال اللنبي غزة ويافا ٦ ــ ١٩١٧/١١/٧ ــ وكان الفضل في تسهيل اقتحامها لاستيلاء العرب على العقبة ــ تابع سيره إلى القدس فاستولى عليها في ١٩١٧/١٢/١١، واعتُبِرَ ذلك نهاية للحروب الصليبية، بينما كانت القوات العربية جادة في تخريب ونسف خطوط السكة الحديدية، وسائرة في تقدمها في خط مواز لخط الجنرال اللنبي. أما الأتراك فإنهم إزاء هذه الحركات أخذوا يعززون الجبهة الفلسطينية، وكانوا قد عينوا محمد جمال باشا، قائد قلاع إزمير(*)، قائداً عاماً لجبهة معان (حزيران ١٩١٧). ولما اتصل بأحمد جمال باشا نبأ إن العرب قد احتلوا غاب العيس في وادي موسى، وكان الترك في أشد الحاجة إلى مايقطعونه من أحراجه وقوداً للقطارات، أوعز إليه بأن يستعيد هذا المكان مهما كلف الأمر، فاستطاع بما لديه من قوى كبيرة تؤازرها ثلاث طائرات من إجلاء القوات العربية. لكن القائد العربي مولود مخلص لم يلبث أن استجمع قواه بسرعة وجهز حملة من /٤٠٠/ جندي نظامي ٢٢ ــ ١٩١٧/١١/٢٣ هاجم بها الترك على حين غرة في وادي موسى، وكان هؤلاء يعتقدون أن العرب لا يملكون القوة المعنوية لإعادة الكرة فوراً، فاستعاد وادي موسى، بعد أن نكل بالترك تنكيلاً هائلاً وكبدهم (٤٠٠) قتيل وجريح، بالإضافة إلى (٥٠٠) أسير مقابل (٤٠) فقيداً من العرب(٦) وواصل القائد مولود مخلص مطاردة الأتراك حتى ردهم إلى خطوطهم الدفاعية حول معان في أول كانون ثاني ١٩١٨.

كما هاجم الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر ونوري السعيد، وبمساعدة عرب بني صخر، محطة جرف الدراويش، واستولى عليها، ثم على الشوبك فالطفيلة، وأسر حاميتها، وكان فيها عدد كبير من الجنود والضباط(٧). فكان لهذا الانتصار وقعه السيء على نفس المشير فالكنهاين، مما جعله يقرر إرسال حملة تأديبية مؤلفة من قوة كبيرة بقيادة العقيد حامد فخري، الذي أوكل إليه ضرب

---

(٥) ليمان فون ساندرس، المصدر السابق، ص٢٧٧ ــ ٢٧٨.

(*) وهو غير أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع، وغير جمال باشا (الصغير) قائد الفيلق الثامن.

(٦) مؤرخ الثورة العربية، المصدر السابق، ص٤٦.

(٧) الأمير مصطفى الشهابي، الاستعمار، ج٢، ص٧٣.

الجيش العربي بشدة، وقد تقدمته مفرزة من الخيالة وأخرى من المدفعية الرشاشة وبطارية قوية، فالتقت حملته بقوة عربية على رأسها الأمير زيد بين الكرك والطفيلة، ولم تشعر إلا وهي مطوقة من قبل العرب. فوقعت بين الجانبين معركة دامت أربع ساعات، وأسفرت عن هزيمة الترك هزيمة شنيعة[٨]، ولم ينج من حملتهم المؤلفة من ٩٠٠ جندي سوى ٥٠ تلقفهم العربان في أثناء هربهم نحو الخط الحجازي وفتكوا بهم. وقد اشترك لورنس في هذه المعارك ومُنح على أثرها وسام الحرب الممتاز، ورفع لرتبة عقيد. كما قام خلالها الشيخ عودة أبو تايه بأعمال بطولية خارقة[٩]. وكان من نتيجتها أن دب الهلع إلى قلب المشير الألماني، وراحت فرائصه ترتعد خوفاً من الجيش العربي. فعقد مع أمير اللواء جمال باشا (الصغير) مجلساً حربياً قرر فيه أن يسند إليه قيادة قوات سورية وغربي بلاد العرب ــ خلفاً للقائد علي فؤاد بك، الذي كان قد ولي هذا المنصب خلفاً لأحمد جمال باشا بعد مغادرته سورية ــ شرط أن يتولى عَمليات تأديب العرب في هذه المنطقة[١٠]. غير أن القيادة الألمانية ــ التي راعها انتصار العرب، في معركتي الطفيلة والكرك، على المشير فون فالكنهاين بحيث ضاعت الآمال التي كانت تعلقها عليه في توطيد النفوذ الألماني في البلاد السورية، واستمالة العرب إلى ألمانيا فتوالى فشله في هذا المجال ــ أصدرت أمراً بتاريخ ١٩١٨/٢/٢٠ بعزله وتعيين المشير ليمان فون ساندرس مكانه. وكان قد سبق ذلك خلاف بين أنور باشا وبينه بشأن الفشل الذي لحق بالجبهة العثمانية، ذلك الذي حاول المشير فالكنهاين أن يتنصل منه، ويلقي مسؤوليته على أحمد جمال باشا، وعلى الجنرال فون كريس ــ حتى استطاع إقناع المسؤولين بعزلهما[*] ــ منوها بأن الفشل الذي حل بالجبهة لم يكن سوى نتيجة لحالة الفوضى السائدة في سورية، وعدم وجود الغذاء الكافي «حتى إن بعض القوات كانت تمكث يومين، وأحياناً ثلاثة أيام في الجبهة تحارب وتسهر دون أن تجد لقمة خبز تقتات بها»، ولعدم سعي الترك لاستمالة أبناء المنطقة، ولرفض أولي الأمر طلبه في إطلاق يده في مفاوضة بعض زعماء العشائر العربية الذين عرضوا عليه الاتفاق. وقد ضمن المشير برقيته التي

---

(٨) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص١٢٨ ــ ١٢٩.

(٩) الأمير مصطفى الشهابي، الاستعمار، ج٢، ص٧٣.

(١٠) جمال باشا (الصغير)، المصدر السابق، ص١٣٠.

(*) جاء في تقرير قدمه قائد الفيلق الثالث عصمت بك (اينونو فيما بعد) في ١٩١٧/١١/١ أن الجنرال فون كريس بدلاً من أن يعمد إلى خطة الدفاع عن موقع بئر السبع بقوات جديدة أصدر الأوامر بوجوب الدفاع عنه بقواته الجاهزة إلى أن يهلك آخر جندي منهم، وبذلك أكسب عدوه فرصة اقتناص قوات الترك الضعيفة، مفرزة تلو مفرزة، حتى ضعف الأمل في الفوز وفر عدد كبير من الجند الذين، لما تأكدوا ضعف الحال، لاذوا بأسلحتهم فراراً إلى العدو (جمال باشا الصغير، المصدر السابق، ص٧٩).

أرسلها في هذا المعنى إلى أنور باشا رفضه تحمل أية مسؤولية ، وإلا فانه يطلب قبول استقالته والسماح له بالعودة إلى ألمانيا .

غير أن أنور باشا ــ بدلاً من أن يرد على برقيته ــ شكاه إلى رئاسة أركان حرب القوات الألمانية بلهجة توخى منها أن يظهره رَجلاً لا قيمة له كقائد عام للقوات العثمانية . لكن القيادة العليا الألمانية بعثت إلى المشير ببرقية تدعوه فيها إلى الصبر والعمل حتى النهاية في سبيل « خدمة أمته الألمانية التي تعلق أهمية كبرى على المحافظة على منطقة فلسطين وسورية ، لأنه إذا سقطت هذه المنطقة ضاعت على ألمانيا فائدة كبرى تؤملها من تحويل عَدد كبير من قوات الحلفاء إلى البلاد العثمانية » . ثم أخذت الحالة تسوء ، وخطورة الموقف الحربي تتفاقم في تطور سريع بدأ معه كل من الجيش السابع والثامن في الإضمحلال إلى أن أصبحا بحالة لا يستفاد منهما ، وضاع الأمل بتاتاً في قدرة الجيش الثامن ، فاعتُبر المشير فون فالكنهاين السبب في انحدار الحالة الحربية إلى هذا الدرك ، بما برهن عنه من جهل في إدارة العمليات الحربية ، ومن تصرف في توزيع القوى والوحدات على الجبهة بشكل خاطىء ، غير مراع في ذلك القوانين العسكرية ، وكان من أخطر ما أخذه عليه الأتراك أنه كان يُصدر أوامره باللغة الألمانية ، فتمر على التراجمة ، الذين كان العدو قد اشترى معظمهم بالمال ، فتصل أسرار القادة إلى العدو قبل وصولها إلى قادة الجيش أحياناً ، وانه كان يهتم بحبك الدسائس والمؤمرات على خصميه أحمد جمال باشا ومصطفى كمال باشا ، ويهتم مع مكتب الشؤون العربية باصطناع الوسائل التي تخوله السيطرة على عربان بادية الشام والعراق لتوطيد قدم الألمان في هذه البلاد ، أكثر من اهتمامه بشؤون الجبهة[11] .

وفي ربيع ١٩١٨ رسم الجنرال اللنبي خطة هجوم إنكليزي على الصلت ، وعربي على معان يجريان في آن واحد . لكن الإنكليز أخفقوا في بلوغ هدفهم ، كما عجز الجيش العربي عن اقتحام حامية معان التركية التي كان عدد أفرادها كبيراً . ومع ذلك أثبتت معارك معان ، وهي أشد معارك وقعت بين العرب والترك ، أن جيش العرب النظامي صالح للقتال وحده ، دون ما حاجة إلى دعم من المحاربين الإنكليز . ثم هاجم الجيش العربي محطة الجرذان شمالي معان ، فاحتلها ثم استردها الترك ، وجرى تداولها بين الترك والعرب ثلاث مرات . ولئن عجز العرب عن احتلال معان إلا أنهم حصروا

(١١) جمال باشا (الصغير) ، المصدر السابق ، ص٧٤ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ .

الجيش التركي فيها بضعة أشهر ، وخربوا الخط الحديدي شماليها وجنوبيها ، ومنعوا القوات التركية من بلوغها ، واجتازوها في تقدمهم نحو الشمال ، وأشغلوا الترك عن متابعة الإنكليز في غور الأردن[١٢] .

أما الجيش الإنكليزي فقد قذفت قواته المتقدمة نحو نهر الشريعة الفيلق العشرين التركي إلى ما وراء النهر ، فأتاحت لخيالتها دخول مدينة أريحا الواقعة على مسافة /٢٠/ كيلومتراً شمال شرقي القدس ١٩١٨/٢/٢١ بعد أن أخليت من القوات التركية ، ثم زحفت على السلط فدخلتها في ٣/٢٦ وكان ذلك نهاية ما سمي بمعارك الأردن الأولى ، وقد ترتب على هيئة أركان حرب القوات العثمانية أن تنقل مقرها من العفولة إلى دمشق . وفي ٤/٣٠ ــ ٥/٤ ابتدأت معركة الأردن الثانية[١٣] . وقبلها في ٣/٢٦ إلى ٣/٣١ حاول الإنكليز ، بالاتفاق مع جيش الأمير فيصل ، الهجوم على عمان فلم تنجح الخطة التي وضعت لاحتلالها . وقد تميزت الفترة التي تلت هذه العمليات الحربية بمحاولة القيادة التركية ــ الألمانية ــ (وقد نُقل مقر هيئة أركان جيوش الصاعقة بعد استلام المشير ليمان فون ساندرس قيادتها العامة ، من دمشق إلى الناصرة على الجبهة) ــ بعث النشاط في قواتها ، فأرسلت النجدات ونشط مكتب الشؤون العربية ــ بواسطة الرسل الكثيرين والذهب الوفير ــ في القيام بدعاية واسعة لنشر التنافر بين اتباع فيصل . كما قامت القيادة التركية ــ بتأييد علني من الألمان ــ في تقديم عروض صلح منفرد مع العرب[١٤] .

مفاوضات الصلح المنفرد : استدعى جمال باشا (الصغير) الأمير سعيداً الجزائري من دمشق إلى مقر قيادته في شرق الأردن في أواخر تموز ١٩١٨ ، وشرح له موقف الجيوش العثمانية المتخاذل ، وقوة الأمير فيصل وجيشه العربي ، واستفز حميته الدينية للعمل على وجوب حقن دماء المسلمين ، مبيناً له أن المراسلات التي جرت سابقاً بين الأتراك والأمير فيصل للصلح المنفرد كانت عقيمة ، وأنه متفائل خيراً فيما إذا توسط هو لدى الأمير فيصل لعقد الصلح بين الأمتين العربية والتركية ، فرضي الأمير سعيد بذلك وبعث برسالة خاصة إلى الأمير فيصل ، فأتاه الجواب منه بأنه لولا اتهامه بقلة الوفاء لما رأى لزوماً للرد ، خاصة وأنه قد خبر الأتراك وقلة وفائهم ، وأنه متأكد بأنهم إنما يريدون المماطلة لاكتساب الفرص ليس إلا . لكنه أبدى استعداده لمقابلته فيما إذا قدم إلى المعسكر العربي ، بشرط أن يكون الأتراك قد أعطوه ما يشعر بصفاء نيتهم من الوثائق « مطأطئين للحق وقابلين

(١٢) الأمير مصطفى الشهابي ، الاستعمار ، ج٢ ، ص٧٤ .

(١٣) ISMAIL HAMI DANIŞMEND, Ibid. p. 445.

(١٤) أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص٣٣٢ .

بما يطلبه العرب ويستقتلون من أجله »، وضرب له موعداً ومكاناً يجيء إليه ليتصل به، قائلاً « أما إذا كانوا قد أجبروك على المجيء وما بيدك ما يطمئن به قلبك فأنت بمحلك والعرب وشأنهم »[١٥].

لكن الأمير سعيد حينما جاء وتقابل مع الأمير فيصل لم يُحمَّل سوى رسالة مختصرة جداً من جمال باشا ليس فيها سوى إفصاحه عن رغبته الشديدة في إطفاء الفتنة، ورجائه بأن تكلل مهمة الوسيط بالنجاح. وبنتيجة اتصاله مع الأمير فيصل استلم منه رسالة موجهة إلى جمال باشا يذكّره فيها بأن الرسائل الكثيرة التي تلقاها سابقاً من الترك بشأن الصلح كانت عقيمة، ولم تكن سوى مضيعة للوقت ليس فيها ما يدل على الروح الإسلامية الصحيحة. ثم ذكّره بوضع الدولة العام وحالة الإنهيار العسكري التي تتردى فيها، وأن العرب لا يطلبون شيئاً من الترك ...، « إلا أن يعيشوا أحراراً وعلى وفاق تام واتحاد معهم »، وأن للعرب مطلباً صريحاً وواضحاً لا يحيدون عنه « أن يكون حالهم معكم كحال بافاريا مع ألمانيا » (أي الاتحاد الفدرالي) وأن القبول بأقل من ذلك ليس إلا جناية على الأمتين، وأن قبوله يربط بين الأمتين برباط متين « فلا يتجدد بعد ذلك الزمن الذي يعودون فيه إلى دواوين الحرب العرفية وإلى أحكام الإعدام والشنق والفتاوى المزيفة ... الخ ». وأنهى كتابه بالاستعداد للتفاوض على هذا الأساس[١٦].

فعاد الأمير سعيد إلى جمال باشا، واستطاع إقناعه بوجوب إعلان الترك بأنفسهم استقلال البلاد العربية، ليكون لهم « يد بيضاء على الأهالي »، وتبقى علاقاتهم مع العرب بعد الحرب ودية. فعقد جمال باشا اجتماعاً مع هيئة أركان حربه، وعرض عليهم الفكرة فوافقوا عليها إلا واحداً، وكتب بذلك إلى العاصمة[١٧]. لكن أنور وزمرته أهملوا النظر في الاقتراح، إلى أن انهار حكم الاتحاديين، واستلم الصدارة العظمى الفريق أحمد عزت باشا، وكان من جملة ما قام به من أعمال أن أدلى، في مجلس المبعوثان، بتصريح قال فيه « إن من أهداف حكومتنا إحلال المساواة والعدالة والشعور بالمسؤولية، وإشراك جميع عناصر الأمة العثمانية في مسؤولية الحكم. وأما فيما يتعلق بالولايات العربية، فإننا سنحاول ايجاد حل لمعضلتها بشكل نؤمن لها استقلالاً ذاتياً يتفق وأهدافها القومية، شريطة المحافظة على ارتباطها بالخلافة الإسلامية، وبالسلطنة العثمانية[١٨] ». وقد جاء هذا التصريح

---

(١٥) أنور الرفاعي، جهاد نصف قرن لسمو الأمير سعيد الجزائري، ص٩١، عن صورة الرسالة الزنكوغرافية.

(١٦) أنور الرفاعي، المصدر السابق، ص٩١، عن صورة الرسالة الزنكوغرافية.

(١٧) المصدر السابق، ص٩٤.

(١٨) P. LYAUTEY, Ibid. p. 130.

بعد فوات الأوان، إذ لم تمض بعضة أيام حتى عقدت حكومته صلحاً منفرداً على التخلي نهائياً عن الولايات العربية. ومن الجدير بالذكر أن المشير ليمان فون ساندرس قد ألمح في مذكراته (خمس سنوات في تركيا) إلى مفاوضات فيصل ـ جمال (الصغير) بقوله إن الأمير فيصل قد أبدى استعداده للإنضمام، مع قواته، إلى جبهة الأردن التركية إذا أعطته الحكومة التركية ضمانة رسمية بتأليف مملكة عربية، منوِّها بأن حملة كبرى إنكليزية ستهاجم الترك بمحاذاة الساحل، فإذا ما أُعطي الضمانة التي يطلبها، وانضم إلى تركيا يستطيع أن يُحبط هجوم هذه الحملة، وأن المشير قد ألح على أنور باشا بأن يعطي فيصلاً هذه الضمانة، لكن أنور وجمالاً (الكبير) قد تجاهلا هذا العرض. ويبدي ليمان فون ساندرس رأيه بان تجاهلهما ناشيء عن عدم ثقتهما بعرض فيصل، واعتبارهما إياه مجرد حيلة يراد بها وقوع مراكز الترك في الأردن بيد العرب، بينما يقوم الإنكليز بهجومهم الحقيقي على الساحل أو بين البحر والأردن[19]. والظاهر أن أنور باشا لم يكن ـ في الأساس ـ يريد مفاوضة العرب، كي يضعوا حداً لثورتهم، لاعتقاده بأن مفاوضة من سماهم بـ «العصاة» تجعلهم يعتقدون أن الترك باتوا يخشون النتيجة، وأن كل محاولة لمفاوضتهم تُضعف مركز الحكومة، وتجعلها عديمة القيمة، خاصة إذا باشر الترك الاتصال بالثوار، ورفض هؤلاء مفاوضتهم. عندئذ لا تكون الحكومة قد خضدت شوكتهم بل تكون قد زجت نفسها، علاوة على ذلك، في ثورة داخلية[20]. ولا بد لي من التنويه هنا بما جاء في مذكرات الدكتور أحمد قدري عن أن الأمير فيصل قد يكون فكّر في مفاوضة الأتراك، وتوحيد العمل معهم فيما إذا ضمنوا للعرب الشروط نفسها التي قطعها لهم الإنكليز في استقلال بلادهم(*).

استمرت، إذن، الحركات الحربية، واستعد الجنرال اللنبي لهجوم حاسم وشامل، شرع به في

---

(١٩) ليمان فون ساندرس، المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٢٠) جمال باشا (الصغير) المصدر السابق، ص١١٧.

(*) يقول الدكتور أحمد قدري في مذكراته (ص٦٩) «ربما يكون فيصل قد فكر في مفاوضة الأتراك، وتوحيد العمل معهم فيما إذا ضمنوا للعرب بالاتفاق مع حلفائهم الألمان الشروط التي قطعها لهم الإنكليز في استقلال بلادهم، فيبقى العرب والترك حلفاء متفقين على الدوام. والملاحظ أن ما دفعه إلى هذا السلوك ما أذيع من غدر الحلفاء بالعرب، وما أحدثته هذه الأنباء من تذمر بين أعوان فيصل، ولو أن فيصلاً نفسه لم يكن على ثقة من أن الاتحاديين سيخلصون لعهودهم. ولكن المرجح أنه قصد من محاولته هذه القيام بمناورة سياسية يعزز فيها موقف والده، ويؤثر على أعصاب الإنكليز كي يدفعهم إلى اعطاء تأكيدات أكثر صراحة، تؤكد للعرب العهود المعطاة لهم باستقلال بلادهم ضمن الحدود التي حددتها لهم مذكرة الشريف الأولى للسير هنري مكماهون؛ وفي الوقت نفسه يُرضي المتذمرين من أعوانه».

٩/١٩، وجعل هدفه المباشر مدينة نابلس، حتى إذا تم له اقتحامها اندفع، هو والأمير فيصل، إلى الأمام للاستيلاء على دمشق وإنهاء الحرب في الشرق. وفي هذه الأثناء قامت المناطق الجنوبية من سورية بحركات ثورية، وأخذت تضرب القوات العثمانية من الوراء متجاوبة في ذلك مع قوات الأمير فيصل المتقدمة نحو دمشق. وكان الأمير فيصل قد أفصح للأمير سعيد الجزائري أنه، في حالة رفض الترك للشروط التي اقترحها للصلح معهم، يجب على السوريين أن يعلنوا الثورة لكي يسهّلوا على الجيش العربي مهمة سبق القوات الأخرى الإنكليزية والفرنسية ــ بناء على اتفاقه مع الجنرال اللنبي، بأن من يسبق الآخر لاحتلال منطقة ما يثابر على احتلالها[٢١] حتى مؤتمر الصلح[*] ــ كما كان الأمير فيصل، من جهة أخرى، يرسل البعوث والرسل إلى سورية فتتغلغل في قلب البلاد وتذيع المناشير باسم الملك حسين بدعوة الجنود العرب للإنضمام إلى الجيش العربي الزاحف. وقد وصل كثيرون منهم إلى جبل العرب وحوران، حيث اتصلوا برؤساء العشائر وزعمائهم الذين اجتمعوا، وبحثوا الموقف، ثم طلبوا من القيادة التركية ــ بناء على قرار اتخذوه ــ بأن تسحب قواتها الموجودة في درعا، خشية أن يعجزوا في المستقبل عن حماية القوات التركية المتراجعة من اعتداءات الأهالي. فما كان من القيادة إلا أن لاطفتهم ــ بدلاً من تأديبهم ــ وأقامت لهم الولائم بقصد استمالتهم، ثم تعزز موقف القيادة بقدوم /٥٠٠/ خيال درزي أعلنوا ولاءهم للقوات التركية[٢٢]، ذلك أن جبل العرب قد انقسم زعماء الطائفة الدرزية فيه إلى قسمين: قسم يؤيد الدولة العثمانية ويرئسه الأمير سليم الأطرش (زعيم الجبل آنذاك)، وقسم آخر بجانب الثورة العربية ويتزعمه الأمير سلطان باشا الأطرش (قائد الجيش الدرزي)[**] الذي كان يعقد الاجتماعات السرية مع آخرين من الزعماء مثل فضل اللّه باشا

---

(٢١) أنور الرفاعي: المصدر السابق، ص٩٣.

(*) حول هذه النقطة لا بدّ من إدراك غدر الإنكليز بالحق العربي من حيث الهدف من اتفاق اللنبي ــ فيصل، وبالتالي ترتيب الزحف بحيث يتبع الأول خط فلسطين واتباع الثاني خط الأردن ــ دمشق (في حين كانت القوات الفرنسية تحتل لبنان من جهة البحر والبر). كما لا بد من وجود احتمالين لا ثالث لهما: أولاً إما أن يكون فيصل على علم باتفاقية سايكس ــ بيكو ووعد بلفور، ويكون قد ارتكب خزياً كبيراً بحق أمته العربية، علماً بأن الاتفاق على هذه الخطة قد حصل قبل إذاعة الترك للاتفاقية والوعد المذكورين وثانياً أن يكون قد غرر بفيصل دون أن يكون على علم بالاتفاقية والوعد، وأن يكون لمستشاره العميل الصهيوني دور كبير في اقناعه والتغرير به، وهو الاحتمال الأقوى. وغني عن القول أن هذه الخطة هي التنفيذ الفعلي لاتفاقية سايكس بيكو، وللهدف الصهيوني في اغتصاب فلسطين في حين كان الوعد قيد التحضير.

(٢٢) جمال باشا (الصغير): المصدر السابق، ص١٣٧، ١٣٩ ــ ١٤٠.

(**) كان الأمير سليم يصف سلطان باشا في مراسلاته بلقب قائد الجيش الدرزي، وسلطان باشا يصف الأمير سليم بلقب قائد الجيش التركي.

هنيدي، وحمد بك عامر، وغيرهم من أركان الجبل، وفتح أبواب منزله ليكون ملجأً لمئات الهاربين من ظلم الطاغية جمال باشا، إثر مشانق ٦ أيار ١٩١٦. وكان لسلطان باشا اتصالات وعلاقات وثيقة بالأمير فيصل منذ أن كان مقيماً في دار آل البكري في القابون قبل الثورة العربية، وجهود في تحضير هذه الثورة(٢٣).

ولما اقتربت الجيوش العربية من الحدود الأردنية أرسل الأمير فيصل نسيبا البكري إلى الجبل يحمل نسخاً من منشور مؤرخ في ١٩١٨/٣/٢٨ بتوقيعه، يدعو فيه سكان الجبل وحوران إلى إسداء التسهيلات المقتضية للثورة، بغية طرد الترك «أعداء الوطن أولاد جنكيزخان الذين إذا لم نتحد على طردهم من ديارنا، ونخلص البقية الباقية من أبناء قومنا من أيديهم، فإنهم لا يبقون منا فرداً». وقد حصل إثر وصول البكري إلى الجبل، واتصاله بسلطان باشا، نقاش بين الأمير سليم وسلطان باشا. وقد حاول الأول نصح الثاني بالتزام الهدوء وعدم مناوأة الترك، فتلقى رداً قاسياً من الثاني. وبعد شهرين عاد نسيب البكري إلى الجبل مرة أخرى، ومعه الشريف ناصر، حاملاً منشوراً آخر من الأمير فيصل موجهاً إلى أهل الشمال حضريين وبدويين بأن يكونوا مع مندوبيه يداً واحدة على الأعداء لتخليص البلاد من ربقة استعمارهم وجورهم(٢٤). وظلت عبارات التهديد والوعيد يتبادلها الزعيمان الدرزيان في مراسلاتهما، بينما كان سلطان باشا يذيع المناشير على أهل الجبل وخاصة منهم أهل القريّة وأم الرمان وحوط وعَنز والمغير وبكة يدعوهم إلى إعلان الثورة على الترك، فلبى طلبه كثير من الزعماء، أمثال حمد بك البربور، ونسيب بك نصار، وأسعد بك مرشد، وحسين باشا الأطرش وغيرهم. وقد طلب منهم أن يوافوه إلى بصرى الشام، إذ رفع علم الثورة على داره وأرسل ٣٠٠ فارس مع نسيب البكري ليشتركوا في الحرب مع الأمير فيصل، وانضم إليهم فريق من الحورانيين لا سيما آل مقداد. وقد رد على كتاب ابن عمه الأمير سليم بأنه أعلن الحرب المقدسة على جيوش الترك «الجائعة» ونصحه بالعودة «إلى جادة الصواب» في كتاب موقع منه ومؤرخ في ١٩ ذي الحجة ١٣٣٦ ـــ ايلول ١٩١٨(٢٥).

لقد ساعدت هذه الحركات العربية الداخلية في انهيار الجبهة التركية، فاستطاعت قوات الإنكليز احتلال نابلس في ٩/١٩. كما ساعدت الفرنسيين والإيطاليين في إنزال جيوش في مختلف

---

(٢٣) حنا أبي راشد: المصدر السابق، ص٨٤ ـــ ٨٥؛ كريم خليل ثابت: المصدر السابق، ص٦٣.

(٢٤) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٢٣٥ ـــ ٢٣٦.

(٢٥) حنا أبي راشد، ص٩٠ ـــ ٩٢؛ كريم خليل ثابت، المصدر السابق، ص٦٣ ـــ ٦٧.

الشواطىء اللبنانية . وقد اضطرت القوات التركية ، التي أنهكها التعب والجوع وانهارت معنوياتها ، وشُلّت مقاومتها إلى التراجع . وفي ثاني يوم انتهاء معركة نابلس ٩/٢٠ تعرض مقر هيئة أركان حرب القوات العثمانية في الناصرة ــ على حين غفلة منه ــ إلى خطر عظيم حينما قام الإنكليز بهجوم مفاجىء عليه عند بزوغ الفجر ، ولم يستطع المشير ليمان فون ساندرس النجاة بنفسه ــ وهو في ثياب النوم ــ هو ومن معه من المرؤوسين إلا بأعجوبة . وبسقوط الناصرة في ٩/٢١ سقط بيد الحلفاء ١٨ ألف أسير و ١٢٢ مدفعاً تركياً . وفي اليوم نفسه سقطت بيسان مركز ناحية جنين ، كما أخليت حيفا فاستولى عليها الإنكليز ، وعلى عكا في ٩/٢٣ ، وعلى طبريا في ٩/٢٤ .

بانتهاء هذه الحروب تعتبر معارك بلاد الشام قد انتهت ، لأن جيشي الجنرال اللنبي والأمير فيصل أصبحا في وضع يستطيعان معه أن يدخلا بقية المدن السورية دون مقاومة ، بسبب انعدام مقاومة الترك انعداماً تاماً . وبعد أن سقطت القنيطرة ودرعا وبصرى الشام أصبحت دمشق هي الهدف الأخير . وقد دخلها الشريف ناصر في ١ تشرين أول ١٩١٨ ، برفق الخيالة العربية ، تتبعها خيالة الجيش الإنكليزي ، وكانت هيئة أركان حرب الجيش العثماني ــ حينما التجأت إليها في اليومين السابقين إثر هربها من الناصرة ــ قد وجدتها في حالة العصيان ، إذ كان سكانها يمطرون الجند العثماني في الشوارع برصاص بنادقهم من فوق الأسطحة ، ومن أبواب البيوت ونوافذها ، ومن كل جهة . فاضطرت الجنود العثمانية أن تخليها مدافعة عن نفسها بما يشبه حرب الشوارع[٢٦] . عندئذ نهض الأمير سعيد الجزائري وأخوه الأمير عبد القادر واستلموا ، بما كان لديهم من الاتباع المسلحين ، زمام الأمن في المدينة ، وشكلوا حكومة مؤقتة باسم الشريف حسين إلى أن دخلها الجيش العربي . وفي ١٠/٢ سقطت رياق ، وفي ١٠/٣ بعلبك وفي ١٠/٦ أخليت حمص ، وانسحب الجيش العثماني منها إلى حلب . وفي اليوم نفسه دخل الأسطول الفرنسي ميناء بيروت ، وأنزل فيها جنوده كما دخلتها بعد يومين الفرقة السابعة الإنكليزية ــ الهندية . وفي ١٠/٢٧ سقطت حلب بعد أن أخلتها القوات التركية قبل يومين ، لعدم وجود قوات عثمانية تستطيع الدفاع عنها[٢٧] ، ذلك أنه لم يكن في مقابل الجيش العربي الذي هاجمها ، أكثر من /٢٠/ ألف جندي بقيادة أمير اللواء مصطفى كمال باشا ، الذي كان قد أعيد إلى جبهة فلسطين ، بعد تعيين صديقه المشير ليمان فون ساندرس للقيادة العامة فيها[٢٨] .

---

(٢٦) ISM. H. DANIŞMEND, Ibid. p. 448-449 ; ليمان فان ساندرس ، المصدر السابق ، ص٢٨٨ .

(٢٧) ISMAIL HAMI DANIŞMEND, Ibid. p. 449.

(٢٨) الفريق تشارلس طونزند ، المصدر السابق ، ص٥٦٣ .

دخل الأمير فيصل دمشق ثاني يوم احتلالها من قبل الشريف ناصر أي في ١٩١٨/١٠/٢ إذ ترجل من سيارته وامتطى صهوة جواد عربي، يحيط به موكب حافل مؤلف من /١٥٠٠/ فارس، اخترق البلدة من الجنوب إلى الشمال، يحف به أعيان دمشق وعلماؤها وخواص أهلها، الذين خفوا لاستقباله ورافقوه في دخوله المدينة. وقد رفعت الأعلام العربية ذات الألوان الأربعة وازينت بأحلى مباهجها. فاجتمع الأهالي وتقاطروا إليها كالسيل، وأخذوا يطلقون الأهازيج، وينثرون الورود والرياحين على موكبه، حتى بلغ مستقره فيها. ثم عكف على تأسيس الحكومة العربية وتنظيم شؤونها[٢٩]. وعلى الأثر بدأ يرسل البرقيات إلى مختلف المدن السورية يعلمها بما تم، وأخذت هذه المدن بإقامة الزينات ورفع الراية العربية بحماسة كبيرة، وكذلك المدن اللبنانية التي عمتها موجة من الفرح. فأرسل فيصل شكري باشا الأيوبي حاكما على بيروت وجبل لبنان، مما أثار غضب الفرنسيين، فبادروا إلى تقديم احتجاج للماريشال اللنبي، الذي عقد معهم اتفاق ٣٠ ايلول لتنظيم إدارة بلاد الشام تنظيماً مؤقتاً، وحصر السلطات العليا السياسية والعسكرية بالماريشال اللنبي، على أن يلحق به مستشار سياسي فرنسي لاستشارته في أمور المنطقة الزرقاء والمنطقة (آ) مع إعطائه صلاحيات إدارية تؤمن لفرنسا نفوذها في سورية وفقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو، واضطر فيصل إلى سحب ممثله من لبنان، ولم ينفع معه الاحتجاج الذي قدمه إلى الماريشال اللنبي[٣٠].

•

سقوط الدكتاتورية الاتحادية ومصير الطغاة

بعد أن انجلى الموقف في أوائل تشرين الأول على الشكل الذي سبق عرضه، لم يبق أمام الصدر الأعظم طلعت باشا[*] من مجال للاستمرار في الحكم، خاصة وأن الموقف الداخلي في ألمانيا نفسها قد بدأ يسوء منذ أوائل عام ١٩١٨، إذ قامت الأحزاب المعارضة للحرب مستغلة حالة المجاعة التي انتشرت في أوساط الشعب الألماني المختلفة حتى وصل الأمر إلى المطالبة باستقالة الإمبراطور غليوم نفسه، وبدأت منذ ربيع ١٩١٨ إمارات الجزع الخطرة[٣١]، والانحطاط المعنوي على الجيوش الألمانية التي توالت انكساراتها في الجبهة الغربية، بعد أن دخلت الولايات المتحدة الحرب ضدها، وأرسلت جيوشها إلى أوروبا لمؤازرة حليفتيها فرنسا وإنكلترا. وبدأت المظاهرات العنيفة

---

(٢٩) محي الدين السفرجلاني، المصدر السابق، ص٥٢ ـ ٥٣.

(٣٠) E. KEDOURIE, Ibid. p. 131.

(*) جرى اسناد الصدارة العظمى إليه على أثر استقالة الصدر الأعظم سعيد حليم باشا.

(٣١) راجع في هذا المجال مذكرات هندنبرغ، ج٢، الصحائف الأخيرة منه ٤٠٠ وما بعد.

تجتاح شوارع المدن الألمانية يثيرها الاشتراكيون ضد الحكومة، واتجهت الميول العامة إلى إنهاء الحرب بأي شكل[٣٢]. وأما في آسيا الصغرى ومناطق الأناضول الداخلية فقد سادت الفوضى من أعمال الفارين من الجيش، وكانوا من الكثرة بحيث اضطرب حبل الأمن وعجزت الحكومة عن توطيد النظام. ذلك أن هؤلاء كانوا يهاجمون المدن والقرى ومحطات السكك الحديدية، ويمعنون فيها سلباً ونهباً وإحراقاً، ولم تسلم حتى دوائر الحكومة من شرورهم إذ يجردون خزائنها من الأموال، ويحرقون أثاثها وأوراقها وسجلاتها، ويهاجمون الجنود الألمان فيجردونهم من ثيابهم ويتركونهم عراة، ويضربون ضباطهم ضرباً مبرحاً. وحتى في سورية ولبنان كان الفارون من الجندية يلوذون بشعاب الجبال، ثم ينقضون منها على محطات السكة الحديدية، ويشعلون فيها الحرائق. وكان رجال العصابات في الأناضول يتوعدون الصدر الأعظم طلعت باشا وينذرونه بعقد الصلح وإلا زحفوا على الآستانة ونهبوها[٣٣]. كما كان الخلاف قد استشرى بين طلعت باشا وأنور باشا، الذي ما إن يمر يوم بعد يوم إلا وكان سخط الشعب يتزايد عليه ويتفاقم خطره، الأمر الذي أرغم طلعت على تقديم استقالة حكومته في ٨/١٠ فقبلت في ١٣/١٠، وكلف سفير الدولة في لندن «توفيق باشا» بتشكيلها. ولما رفض إدخال أي عضو ينتمي إلى جمعية الاتحاد والترقي فيها ــ وكان السلطان محمد وحيد الدين (محمد السادس)، الذي تولى العرش في تموز من السنة نفسها بعد وفاة السلطان محمد رشاد (محمد الخامس)، قد اشترط ادخال عضوين من هذه الجمعية في الوزارة الجديدة ــ كُلف الفريق أحمد عزت باشا، أحد وزراء الحربية السابقين بتأليفها، فأدخل فيها عضوين من الجمعية إحدهما جاويد بك (من الدونمة) وزير المالية الأسبق، والثاني فتحي بك سكرتير الجمعية العام. وأما باقي الوزراء فكانوا ممن يعطفون على الجمعية. وقد جاء في سبب استقالة طلعت باشا أن تركيا دخلت حرباً عامة كانت السبب في انهيار السلطنة، وذلك في جانب دول الوسط التي أصبح انكسارها في الحرب الدائرة بحكم المحقق، وبما أن اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي قد أعطت رأيها، قبل يوم واحد بوجوب سحب الثقة من الوزارة، لذلك رأى الصدر الأعظم عدم إمكان استمراره في الحكم[٣٤].

وما إن استلمت الوزارة الجديدة دفة الحكم حتى بدأت بمفاوضات الصلح مع الحلفاء، لأنها أصبحت غير قادرة على متابعة القتال، خاصة بعد أن عقدت حليفتها بلغاريا صلحاً منفرداً

---

(٣٢) مجلة الحرب العظمى، ج٤٦، ٧ ــ ٨.

(٣٣) الفريق تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص٥٦٣؛ LAMMENS, Ibid. II, p. 225.

(٣٤) I.H. DANIŞMEND, Ibid. pp. 448, 450.

قبل بضعة أيام(*)، فباشرت الاتصال مع السلطات الإنكليزية المحاربة، بواسطة الجنرال طاونزند، الذي أُسر في كوت الإمارة، ولم يزل محتجزاً في جزيرة بيوك آطه في بحر مرمرة[٣٥]. وبعد مفاوضات قصيرة وُقعت، في ١٠/٣٠، معاهدة لوقف القتال اعتباراً من ١٠/٣١، على ظهر الباخرة الحربية «سوبرب SUPERB»، في خليج مودروس بجزيرة ليمنوس، من قبل الفيس أميرال كالثروب، القائد الأعلى للقوات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط، باسم ملك بريطانيا وبموافقة حلفائها، ومن قبل رؤوف بك وزير الحربية التركي، ورشاد حكمت بك وكيل وزارة الخارجية[٣٦]. وأما الثلاثي الدكتاتوري ومعظم زعماء جمعية الاتحاد والترقي فقد أخذوا بالفرار واحد بعد آخر من الآستانة. كان أولهم في الفرار إسماعيل حقي باشا رئيس لوازم الجيش، ثم بدري بك والي حلب، وعزمي بك والي بيروت ١٠/٣١ ثم أنور باشا، وطلعت باشا، وجمال باشا ١١/٣. وقد تنكر كل من أنور وجمال في بزة ضابط ألماني، ورافقهم الدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر، وقد هرب جميعهم في باخرة ألمانية، وسهلت الوزارة الجديدة لهم هذه السبيل. أما الصدر الأعظم السابق سعيد حليم باشا، فقد أُلقي القبض عليه وأُحيل إلى محكمة عرفية ونُفي من قبل الإنكليز إلى جزيرة مالطة. وقد لقي هؤلاء، عدا الدكتور ناظم، حتفهم قتلا بعد هربهم، ذلك أن طلعت باشا قد صُرع في ١٩٢١/٣/١٥ برصاص شاب أرمني، في أحد شوارع برلين، انتقاماً منه لمجازر الأرمن التي اعتبره مسؤولاً عنها، كما صرع في ١٩٢١/١٢/٦ سعيد حليم باشا برصاص شاب أرمني آخر في روما، ولقي أحمد جمال باشا المصير نفسه في ١٩٢٢/٧/٢١ في مدينة تفليس، على يد شاب أرمني أيضاً، وكان في طريقه إلى أفغانستان حيث دعي لتنظيم الجيش لدى حكومتها. أما أنور باشا فإنه، بعد أن فر إلى ألمانيا، اتجه إلى روسيا حيث اعتنق المذهب الشيوعي، فأُوفِد إلى بخارى للعمل على استمالة شعب التركستان إلى المذهب، لكنه ما إن استقر هناك فترة حتى راودته أحلام الاستقلال بالبلاد، وإعلان نفسه أميراً عليها، فاشتبك مع الجيش الروسي الأحمر في معركة وقع فيها قتيلا في ١٩٢٢/٨/٤[٣٧]. هكذا انتهت المأساة التي أرادها أبطال الحرب، فدارت عليهم وعلى مملكتهم الدوائر.

(*) كانت بلغاريا قد دخلت الحرب إلى جانب دول الوسط في ١٩١٥/١٠/١٤.

(٣٥) الفريق تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص٥٦٥ ــ ٥٦٩.

(٣٦) WILLY SPERCO, Ibid. p. 42.

(٣٧) I.H. DANIŞMEND, Ibid. pp. 451, 452, 466, 467.

مما لا شك فيه أن قيمة الثورة، بالنسبة للقضية العربية، كانت كبيرة وفائدتها جزيلة، لأنها خطّت أولى سطور الكيان العربي، مستقلا عن الحكم التركي الجائر، الذي لم يدع أي مُنْفَرَجٍ للعواطف القومية. وهي بهذا الوصف ـــ وإن كان عدم التحرز والحيطة في أثناء عقد المعاهدات مع الحلفاء قد أعطى المجال لاستغلال القضية العربية فيما بعد ـــ قد خطت خطوة أولى متدرجة نحو استقلال البلاد العربية، وتحقيق طموحها القومي. فلولا قيام الثورة لما وجدت جيوش الحلفاء، التي احتلت سورية بعد الحرب، تلك المقاومة التي لقيتها من حكومة فيصل المنظمة ومن الشعب العربي، ولَمَا اصطدمت بفكرة الحرية والاستقلال التي رسّختها الثورة في نفوس العرب[٣٨]. وهذه أكبر حجة يمكن أن تساق جواباً عن أقوال بعض من تخرص، من أنصار الرابطة العثمانية ـــ الإسلامة حينذاك، بأن الثورة هي التي أتت بالاحتلال الأجنبي لبلاد العرب[٣٩]، ذلك أن هذا الاحتلال كان لا بد واقعاً ـــ في حالة انتصار الحلفاء ـــ سواء أقامت الثورة أم لم تقم، وذلك وفقاً لاتفاقيات تقسيم الممتلكات العثمانية التي عقدتها الدول العظمى فيما بينها عند ابتداء الحرب. فإذا كان ثمة شيء حد من أطماع هذه الدول، فما هو إلا العهود التي تمت بين الحسين وإنكلترا، وبالتالي قيام الثورة واحتلال جيشها لبلاد الشام من العقبة حتى سهول كيليكيا.

هذا بالنسبة للقضية العربية، وأما بالنسبة للحلفاء فإنها قد خدمتهم خدمة كبيرة لم يَسَع اللورد سيسيل، وزير الحصار البريطاني ـــ وقد تحدث عنها بعد سنة من قيامها في مجلس العموم ـــ إلا الاعتراف بالأعمال الباهرة التي قامت بها. فقد نوه بالمدن الحجازية العديدة التي استولى عليها جيش الشريف، وبتطهيرها شواطىء البحر الأحمر، على مسافة ٨٠٠ ميل، من الأتراك وعرقلتها مواصلات الترك، ومحاصرتها المدينة المنورة وكونها قد حصرت وأَسَرت وأشغلت أربعين ألف جندي تركي في الحجاز، بالإضافة إلى ثلاث فرق تركية في العسير واليمن، وقطعت الصلة بينها وبين قواعدها الأصلية في الشمال، وغنمت أكثر من مئة مدفع، ولم يكن قد مضى شهر واحد فقط على

---

(٣٨) ساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية، ص٢٤٣ ـــ ٢٤٤.

(٣٩) يقول أسعد داغر ـــ وهو من أعضاء إحدى الجمعيات السرية آنذاك ـــ «... فلما اضطررنا للدفاع عن أنفسنا ضد الترك لم نجد أمامنا غير السير مع الحلفاء ونحن عالمون بما لهم من مطامع في بلادنا. ولكن الخطر العظيم الذي كان يهددنا به الترك، وهو خطر الابادة والفناء، لم يترك لنا مجالاً للتفكير أو الاختيار، فلم يكن هناك شران، بل كان موت محقق من جهة إذا لم نثر على الترك وجهاد شاق طويل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى...» أسعد داغر مذكراتي على هامش القضية العربية» القاهرة، بلا تاريخ ص٥.

نشوبها[40]. صحيح أن الثورة العربية لم تكن هي العامل الحاسم في تقرير مصير الحرب العامة، بين المعسكرين المتحاربين، لأن ذلك المصير قد قررته حروب الجبهة الغربية في أوروبا، لكنها مع ذلك أدت للحلفاء معونة كبيرة، لأنه لولا الجيش العربي، الذي وقف موقف العداء من الترك في جبهة تمتد إلى ألف كيلومتر، لما تم للجيش الإنكليزي أن يُحرز ما أحرزه من نصر بالسرعة التي تم فيها تقدمه، وبدون كبير عناء. فلولا الجيش العربي لكان باستطاعة القوات التركية، المرابطة في المدينة المنورة وعددها لا يقل عن ١٤ ألف مقاتل، وفي القطرانة وعددها يقارب ١٠ آلاف، وفي معان وعددها ٨ آلاف، وفي تبوك وعددها ٤ آلاف، وفي العُلا وعددها ٣ آلاف، أن تقف أمام زحف الجنرال اللنبي آمنة مطمئنة من ناحية العرب، وأن تمنع تقدمه[41]. باختصار قد أقفلت الثورة طريق الألمان والترك إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، ووقفت أمام توسعهم نحو الجنوب، وشكلت مع قوة ابن سعود في نجد حزاماً يمتد من العقبة حتى الخليج العربي، فحفظت للحلفاء سلامة مواصلاتهم بين الجبهتين الحربيتين المفتوحتين في بلاد العرب[42]. قال الكاتب الإنكليزي فرنان وليه «إن العرب قد أسروا ٣٥ ألف أسير تركي، وحرروا من الأراضي ما يقارب ٢٥٠ ألف كيلومتر مربع، فغيروا بذلك مجرى التاريخ في الشرق»[43]. وإذا كان في هذا القول بعض المبالغة من حيث العدد، إلا أنه ولا شك متفق مع الحقيقة بصورة عامة، قال الكاتب بينواميشان «.. وبمقدار ما كانت هجمات الخيالة العرب، على الجناح الأيسر من قوات الترك، قوية وفتاكة بمقدار ما كان تقدم جيوش الجنرال اللنبي سهلاً»[44].

ولئن أنكر بعض الكتاب الاستعماريين ـــ وخاصة منهم الفرنسيين ـــ هذه الحقائق، ونسبوا أهم الانتصارات، التي أحرزها جيش الأمير فيصل، للشرزمة القليلة من الجنود الفرنسيين مع ضباطهم[45]، وغمطوا أبطالاً مثل الشيخ عودة أبي تايه، والشريف ناصر، والشريف شاكر، ومولود مخلص، وراسم سردست، وغيرهم من مغاوير العرب، حقهم في البطولات التي برهنوا عنها، فإن الكتّاب الألمان والأتراك بصورة عامة لم ينكروها، بل أنصفوا الثورة العربية، ونطقت تآليفهم

(٤٠) حافظ وهبة، المصدر السابق، ص١٨٦ ـــ ١٨٧.
(٤١) مجلة الحرب العالمية الأولى، مجلد ٣، ص١٧٦ ـــ ١٧٧.
(٤٢) أنطونيوس، المصدر السابق، ص٣١٣ ـــ ٣١٤.
(٤٣) فرنان وليه، المصدر السابق، ص٦٥.
(٤٤) BENOIST MECHIN, Ibid. p. 203.
(٤٥) G. GAUTHEROT, Ibid. p. 105; COMTE DE GONTAUT-BIRON, Ibid. pp. 44-45.

ومذكرات رجالهم — بالرغم من تحاملها على العرب أحياناً — بالأعمال الباهرة التي قامت بها القوات العربية، وما تكبدت على يدها قواتهم، وما جرت عليهم الثورة من نتائج سياسية وخيمة. ذلك أن الثورة قد شجعت بقية أمراء العرب كي يحذوا حذو الشريف في شق عصا الطاعة على الترك، وهيأت ملجأ للناقمين على الترك يأوون إليه ويشتركون في محاربتهم. هذا عدا الفوائد المعنوية في إحباط مخطط الترك والألمان في إحلال الحرب المقدسة (الجهاد) مكانتها اللائقة في نفوس المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي[٤٦]. ومما لا شك فيه أن الحرب في الشرق، وإن لم تكن العنصر الحاسم في تقرير المصير النهائي، إلا أن انتصار الحلفاء فيها، ذلك الذي لولا مساعدة العرب لما تم بالسرعة التي تـمّ بها، قد قصّر مدة الحرب عدة أشهر باعتراف الجنرال طونزند، الذي كان له الفضل في عقد الهدنة مع الترك قال «والذي فشلتُ في القيام به في ميدان القتال، أنجزته وأنا رهين الأسر، فقد أقنعت الترك بالتسليم، وبذلك قصرت مدة الحرب في ساحة القتال الأوروبية عدة أشهر، فنجم عن ذلك حقن دماء الألوف وتوفير الملايين من المال»، وأضاف إنه لما بلغ النمسا خبر تسليم تركيا سلّمَتْ فوراً على أثر ذلك ١١/٢ وتلتها ألمانيا ١١/٩ في التسليم[٤٧]. «وعلى رأيي أن الترك لولا أن انحلت أربعة من جيوشهم في الجبهة العربية هي الجيش الرابع والسادس والسابع والثامن لما سلّموا بهذه السرعة».

---

(٤٦) ج. ف. لودر، المصدر السابق، ص٢٣.

(٤٧) تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص١٠.

الخاتمـــة

وأخيراً قد انتهت الحرب على غير ما أرادها تجار الحرب، فإذا بتلك الأحلام العريضة التي بنوها على إحراز النصر فيها تضمحل وتتبخر، بل تذوب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس، وإذا بالبساط الاستعماري الذي دار في خلد حلفاء تجار الحرب، زعماء الألمان، أن بوسعهم أن يفرشوه على ربوع الشرق يصبح من نسج الخيال، ليفسح المجال لاستعمار أو مؤامرة استعمار آخر أُتقن تدبيرها، وإذا بالإمبراطورية الطورانية، التي حلم رجال تركيا الفتاة بجمع أشتاتها وتوطيد بنيانها تصبح وهماً محالاً، وإذا بالسوط الاستعماري، الذي كان الاتحاديون يعدونه لجلد الشعوب العربية وغير العربية من سكان السلطنة، بعد الانتصار، يرتد إلى جسومهم، بعد الهزيمة والخذلان، فتصبح بلادهم وعاصمة بلادهم موطئاً لأقدام المحتلين، وفي رؤوسهم تدور حميا الاستعمار والاستذلال. وقد كلف الشعبَ التركيَ دفعُ البلاء النازل بوطنه كثيراً من النصب والعرق والدماء، فوق ما ابتُلي من ويلات الحرب، ومن الحرمان والجوع فالهلاك، ومن اليتم، وثكل الأمهات، وترمل الزوجات، شأنه في ذلك كشأن الشعوب العربية، التي لم تقاس من هذه الويلات أقل مما قاسى.

كل ذلك دفعه الشعبان العربي والتركي معاً ثمناً لغطرسة حفنة الدكتاتورين المتسلطين المتجبرين المتهورين المهووسين بحب المجد والعظمة، من حكام تركيا الفتاة، تشدقوا بأنهم إنما يبنون وطناً، ويشيدون صرح أمة، ويبعثون قومية من الإندثار. فماذا كان حصادهم في ذلك؟ كانت الدولة العثمانية ترزح تحت دين بلغ ثلاثين مليوناً، من الليرات الذهبية العثمانية، عندما ترك عبد الحميد السلطنة بيدهم يتصرفون في مقدراتها، فارتفعت هذه الديون، بسوء سياستهم، إلى أربعمئة

مليون من الليرات الذهبية[1]، حتى قبيل انتهاء حكمهم بعام واحد. لقد ترك لهم السلطان عبد الحميد الدولة ممتدة من أشقودرة شمالاً ــ غرباً إلى حدود فارس والخليج العربي وعدن والسويس، بالإضافة إلى الأراضي الليبية والبوسنة والهرسك وألبانيا، فلم يحافظوا على هذه المملكة المترامية الأطراف، التي كان يقطنها ما ينوف عن ثلاثين مليوناً من البشر، فانفرط عقدها بين أيديهم، وكادت بلادهم التركية الصرف ــ ولم يبق فيها غير عشرة ملايين من النفوس ــ تفقد حريتها واستقلالها. لقد خلعوا السلطان عبد الحميد لاستبداده، ولانحداره بالسلطنة إلى درك الخراب، لكنهم لم يتجنبوا ممارسة الاستبداد، بل زادوا في وطأته، ولم ينقذوا الدولة من الخراب، بل أعطوا ــ بخطل رأيهم وسياستهم، وبإدارتهم الخرقاء ــ عبد الحميد، حتى قبل أن تتردى أحوال السلطنة إلى ما تردت إليه من بؤس عند نهاية الحرب، فرصةً كي يتهمهم ويتفاخر عليهم ــ في مذكراته ــ ويقارن بين أحوال الدولة في عهده، وما أوصلوها إليه في هذا المجال[2]. لقد دخلوا الحرب بنزوة فائرة وطَفرة فردية ماكرة، فكلفوا بذلك الأمة التركية والأمة العربية ملايين القتلى والموتى في الحرب، وبتأثير المجاعة والطواعين. ويكفي دليلاً على هذا القول أن جيش أنور باشا الذي ساقه إلى جبهة القوقاس لمحاربة الروس ــ وكان مؤلفاً بأكثريته الساحقة من العرب ــ لم يرجع منه سوى عشرة آلاف من تسعين ألفاً، ومعظمُ العائدين أصبحوا من مشوهي الحرب[3]. هذا عدا عن ضياع ثروات الناس، وانتشار الفقر والبؤس بينهم، ونضوب موارد البلاد الحيوية، وانحطاط الزراعة والصناعة والتجارة، وانهيار اقتصاد الدولة ورزوحها تحت ديون ثقيلة فُرضت عليها لسد نفقات الحرب، علاوة على ديونها الباهظة سالفة الذكر، والتي لم تكن مضطرة لعقدها لولا دخولها حرباً لا ناقة لها فيها ولا جمل، حرباً دخلتها انسياقاً وراء الأهواء والنزوات العرقية، ووراء المصلحة الألمانية، إرضاءً لها بوصفها حليفة استعمارية[4]، بل بالأحرى انسياقاً خلف أهواء رجل فرد وضع نفسه رهن مصالح هذه الحليفة، ورزح تحت نير عبوديتها مادياً ومعنوياً بملء إرادته واختياره. وكي يستطيع المضي في اعوجاجه انغمس حتى أذنيه في وحل دكتاتورية متشبعة بمزيد من الغطرسة والصلف، ناهيك عن ايغاله ــ لستر سياسته الخرقاء ــ في هدر الكرامات وتصامّه عن استباحة الأعراض المصونة وفساد الأخلاق وتلويث السمعات والعبث بالمقدسات.

---

(١) تشارلس طونزند، المصدر السابق، ص٥٥٤.

(٢) ABDULHAMID'IN HATIRA DEFTERI, p. 108.

(٣) DAGOBERT VON MIKUSCH, Ibid. p. 140.

(٤) دكتور رضا نور، المصدر السابق، ص١٨٧ ــ ١٨٩.

أنا لا أقول مع الكاتب «ميشيل باياريس» بأن تركيا لم يحكمها سوى سلطان جائر أو وزير سفاك[٥]، إذ لا تخلو أمة من الأمم من حكام عادلين وآخرين جائرين. وقد يكون لرأيه، بأن الأتراك ــ ويقصد بذلك العثمانيين ولا شك ــ قد عرفوا سياسة الفتح وقصروا في إدارة السياسة، نصيب كبير من الصحة[٦]، وخاصة في أدوار السلطنة الأولى. ولكني معه في الرأي، دونما جدل، بأن الاتحاديين كان رائدهم العنف، وليس إلا العنف، لحل جميع المشاكل، وهذا ما جلب على رأسهم مصاعب الدنيا بأجمعها. وقد اعترف أحمد جمال باشا (الطاغية) نفسه ــ ولكن بعد فوات الأوان ــ عند مغادرته لسورية نهائياً، بتقصير الاتحاديين في عدم إفساح المجال لحرية المعارضة كي تعينهم على تقويم اعوجاجات الحكم، وأن هذا هو أس البلاء الذي أصابهم[٧]، ولكن ليت هذا البلاء قد اقتصر عليهم ولم يشمل غيرهم من أبناء السلطنة.

وإذا وجب علي أن أختم كتابي بشاهد عن قيمة الاتحاديين فلا أسوقه إلا نقلا عن أقلام الترك أنفسهم، وبلسان صحيفة من صحفهم، فقد وصفتهم جريدة علمدار بقولها «إن في هذا البلد داءً هو أخطر وأروع وأفتك من الطواعين، فإذا أردنا أن نُنقذ أبناء هذا الوطن، من هلاك محقق، فما علينا إلا أن نبادر إلى القضاء عليه. إن هذا الداء، هذا السُّحاف الفتاك ليس هو إلا الاتحاديين وجمعيتهم. إن الواجب يقضي بتشكيل لجنة يكون عليها أن تحارب الاتحاديين أكثر من أن تحارب السل الساري»[٨]. حقا، إذا أمعن الإنسان النظر في مآسي الحرب في الشرق ــ تلك التي كان الاتحاديون السبب في زج هذه البلاد في أتونها بفعل المتسلطين منهم على مقدراتها ــ أفيستطيع بعدها أن يتصور: هل كان بقدرة الطواعين ــ مهما بلغ خطرها ــ أن تغني من البشر بمثل ما تَسبّب الاتحاديون في إفنائه منهم[٩]؟.

أما العرب فما الذي حصدوه من هذه الحرب التي سيقوا إليها بغير إرادتهم ــ اللهم إلا الحفاظ على كرامتهم القومية وكيانهم الوطني ــ وما الذي خسروه؟ ــ في الواقع كان ثمة خسارة وكان ثمة ربح: لقد خسروا ملايين من أبنائهم وبينهم شبان في ميعة الصبا، سواء في الحرب أو بالطواعين أو

---

(٥) M. PAILLARES, Le Kemalisme Devant Les Alliées, p. 18.

(٦) Ibid. p. 21.

(٧) Ibid. p. 30.

(٨) A.B. KURAN, Inkilab Tarihimiz Ve Ittihat Ve Terakki, pp. 287-288.

(٩) M. PAILLARES, Ibid. p. 30.

المجاعة ، كان بإمكانهم أن يكونوا ذخراً للوطن ، كما قدموا إلى أعواد المشانق أبطالاً أشداء ــ صدقوا الله والوطن وعدهم بأن يجعلوا هاماتهم دعامة للاستقلال والحرية ــ ربما كان باستطاعتهم أن يرتفعوا بالأمة ــ لو ظلوا على قيد الحياة ــ إلى أرقى مدارج الأزدهار والمجد ، وقد لا يجود الزمان دائماً بمثلهم ذكاء وألمعية . ولكن الذي يحوه هو الحفاظ على لغتهم وقوميتهم من الاندثار والانصهار في بوتقة الترك .

صحيح أنهم وقعوا في براثن الأطماع الاستعمارية التي فاجأهم بها حلفاؤهم من دول الغرب ــ بعد انتهاء الحرب ــ ولكن الأمثولة التي ضربها مناضلوهم ، في تلك الفترة من حكم الترك ، قد شجعتهم على مواصلة النضال بعزيمة أمضى وحجة أقوى . إذ أصبحوا يحاربون دولاً أوروبية غريبة عن قوميتهم وعن لغتهم ، وفوق ذلك هي غريبة عن دينهم ، ولا تربطهم بها أية رابطة عاطفية أو تاريخية أو تقليدية ــ مثلما كان شأنهم مع الترك ــ ولا يستطيع أحد من مواطنيهم ــ بأية حجة من الحجج ــ أن يماريهم في محاربتها ، لا بل إن الاتجاه العام أصبح منصباً نحو محاربتها وإجلائها ، والويل لمن يتقاعس عن ذلك ، وإلا فالوصمة التي يُرمى بها هي الخيانة والمروق والعقوق بالأمة وبالوطن .

مصـــادر البحـــث

المصادر العربية والمعربة

أبو راشد ، حنا جبل الدروز ، القاهرة ، ١٩٢٥ .

الادهمي ، عبد السلام نضال القومية العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ .

أرسلان ، الأمير شكيب تعليق على تاريخ ابن خلدون ، مصر ، ١٩٣٦ .

أرسكين ، مسز ستورث فيصل ملك العراق ، ترجمة عمر أبو النصر ، بيروت ، ١٩٣٤ .

أرمسترونغ ، الكبتين هـ . س الذئب الأغبر مصطفى كمال ، ترجمة دار الهلال ، من سلسلة كتب الهلال القاهرة ، ١٩٥٢ .

الأعظمي ، أحمد عزة القضية العربية ، الجزء الخامس ، بغداد ، ١٩٣٤ .

أنطونيوس ، جورج يقظة العرب ـــ ترجمة علي حيدر الركابي ، دمشق ، ١٩٤٦ .

أنطونيوس ، جورج يقظة العرب ـــ ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد ، وإحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٢ .

آيرلاند ، فيليب ويلارد العراق دراسة في تطوره السياسي ، ترجمة جعفر خياط ، بيروت ، ١٩٤٩ .

الأيام ، جريدة الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ، دمشق ، بلا تاريخ .

باتريك ، ماري ملز سلاطين بني عثمان الخمسة ، ترجمة حنا غصن ورفاقه ، بيروت ، ١٩٣٣ .

بروكلمن ، كارل تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٤ ، ٥ ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي ، بيروت ، ١٩٥٠ .

البزاز، عبد الرحمن العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، القاهرة، ١٩٥٤، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية.
البكاسيني، لطف الله نصر نبذة من وقائع الحرب الكونية، بيروت، ١٩٢٢.
البصير، محمد المهدي تاريخ القضية العراقية، بغداد، ١٩٢٣.
بيهم، محمد جميل قوافل العروبة ومواكبها، ج ٢، بيروت، ١٩٥٠.
بيهم، محمد جميل العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، بيروت، ١٩٥٧.
بيريبي، جان جاك الخليج العربي، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز، بيروت، ١٩٥٩.
بيريبي، جان جاك جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز، بيروت، ١٩٦٠.
بيشون، جان ضابط فرنسي برتبة مقدم بواعث الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد عزة دروزة، بيروت، ١٩٤٦.
تشايلدرز، أرسكين الحقيقة عن العالم العربي، ترجمة خيري حماد، بيروت، ١٩٦٠.
تشرتشل، ونستون لورنس بطل الجزيرة، ترجمة محمد بدران وأحمد حلمي علي، القاهرة، بلا تاريخ.
تلحوق، وديع دولة إسرائيل، دمشق، ١٩٥٠.
ثابت، كريم خليل الدروز والثورة السورية وسلطان باشا الأطرش، القاهرة، بلا تاريخ.
جبري، شفيق محاضرات عن محمد كرد علي، القاهرة، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٧.
جمال باشا، أحمد مذكرات، ترجمة، علي أحمد شكري، القاهرة، ١٩٢٣.
جمال باشا، (الصغير) كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب، ترجمة فؤاد ميداني، بيروت، ١٩٣٢.
جمعه، محمد لطفي حياة الشرق، دوله وشعوبه ...، مصر، ١٩٣٢.
الجندي، أنور رواد القومية العربية، لم يذكر مكان وتاريخ الطبع.
الجندي، أدهم شهداء الحرب العالية الأولى، دمشق، ١٩٦٠.
الجيش الرابع إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها في ديوان حرب عالية، استنبول، ١٩١٧.
حاطوم، دكتور نور الدين العرب والدولة العثمانية وأوروبا في الحرب العالية الأولى، محاضرات (على الستانسل) ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ١٩٦١ — ١٩٦٢.

حبشي ، إميل يوسف جهاد لبنان واستشهاده ، بيروت ، ١٩٢٠ .
حتي ، فيليب لبنان في التاريخ ، ترجمة أنيس فريحة ، بيروت ، ١٩٥٩ .
حداد ، جورج ، وحنا خباز فارس الخوري ، حياته وعصره ، بيروت ، ١٩٥٢ .
حسن ، قاسم العرب والمشكلة اليهودية ، بغداد ، ١٩٤٦ .
حسين ، الدكتور ، م. محمد الاتجاهات الموعية في الأدب العربي الحديث ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
حسين ، عبد الله المسألة اليهودية بين الأمم العربية والأجنبية ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
الحفناوي ، مصطفى ابن سعود (عن وليمز وارمسترونغ بتصرف) ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
الحصري ، ساطع يوم ميسلون ، بيروت ، ١٩٤٥ .
الحصري ، ساطع نشوء الفكرة القومية ، بيروت ، ١٩٥٦ .
الحصري ، ساطع صفحات من الماضي القريب ، بيروت ، ١٩٤٨ .
خزعل ، حسين خلف الشيخ تاريخ الكويت السياسي ، بيروت ، ١٩٦٢ .
الخطيب ، محب الدين جعفر باشا العسكري ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
خويري ، القس بولس الرحلة السورية في الحرب العمومية ، مصر ، ١٩٢١ .
خير الله ، خير الله معضلة الشرق ، ترجمة عارف النكدي ، بيروت ، ١٩١٩ .
داغر ، أسعد ثورة العرب ، القاهرة ، ١٩١٦ .
داغر ، أسعد مذكراتي على هامش القضية العربية ، دار القاهرة للطباعة ، القاهرة بدون تاريخ .
دروزة ، محمد عزة حول الحركة العربية الحديثة ، الجزء الأول والثاني ، صيدا ، ١٩٥٠ ، الجزء الثالث ، صيدا ، ١٩٥١ .
الدهان ، دكتور سامي محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٨ .
الرافعي ، عبد الرحمن بطل الكفاح الشهيد محمد فريد ، من كتب الهلال ، القاهرة ، يناير ١٩٥٧ .
الرافعي عبد الرحمن ثورة ١٩١٩ ، تاريخ مصر القومي ، القاهرة ، ١٨٤٦ .
رسائل (جريدة) الأهالي على طريق الهند ـــ بغداد ١٩٣٥ .
الرشيد ، عبد العزيز تاريخ الكويت ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٣٦ .
رفعت بك ، محمد قضية فلسطين من سلسلة اقرأ ، القاهرة ، اغسطس ، ١٩٤٧ .
ره نوفن ، بيير تاريخ القرن العشرين ، ترجمة الدكتور نور الدين حاطوم ، دمشق ، ١٩٦٠ .

رؤوف بك ، أحمد كيف دخلت تركيا الحرب ، ترجمة فؤاد الميداني ، بيروت ، ١٩٣٢ .
الريحاني ، أمين نجد الحديث وملحقاته ، بيروت ، ١٩٥٤ .
الريحاني ، أمين فيصل الأول ملك العراق ، بيروت ، ١٩٣٤ .
الريحاني ، أمين ملوك العرب ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٢٥ .
الرفاعي ، أنور جهاد نصف قرن للأمير سعيد الجزائري ، دمشق ، ١٩٥١ .
الزاوي ، الطاهر أحمد جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ، مصر ، ١٩٥٠ .
زعيتر ، أكرم القضية الفلسطينية ، مصر ، ١٩٥٥ .
زيادة ، الدكتور نقولا ليبيا من الاحتلال الإيطالي إلى الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية .
ستودارد ، لوثروب حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣) .
ستيفه ، فردريك حقيقة الحرب العظمى ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي ، القاهرة بلا تاريخ .
سعيد ، أمين الثورة العربية الكبرى ، ج ١ ، ٢ ، القاهرة ، لم يذكر تاريخ الطبع .
سعيد ، أمين ثورات العرب في القرن العشرين ، مطابع دار الهلال بالقاهرة ، بدون تاريخ .
سعيد ، أمين الدولة العربية المتحدة ، الجزء الثالث ، مصر ، ١٩٣٨ .
السعيد ، نوري استقلال العرب ، بغداد ، ١٩٤٣ .
السفرجلاني ، محي الدين فاجعة ميسلون ، دمشق ، ١٩٣٧ .
شريف ، دكتور بديع ورفاقه دراسات في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
شفيق باشا ، الحاج أحمد مذكراتي في نصف قرن ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
شكري ، دكتور محمد فؤاد السنوسية دين ودولة ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
الشهابي ، مصطفى محاضرات عن القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية .
الشهابي ، مصطفى محاضرات في الاستعمار ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية .
صدقة ، نجيب قضية فلسطين ، بيروت ، ١٩٤٦ .
طربين ، دكتور أحمد الوحدة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، من مطبوعات معهد الدراسات العالية .

طربين، دكتور أحمد التنافس الاستعماري حول أقطار الشرق الأوسط، محاضرات (علي الستانسل) ألقيت في معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ـــ ١٩٥٨ .
طربين، دكتور أحمد القضية الفلسطينية، القاهرة، ١٩٥٩، من مطبوعات معهد الدراسات العربية.
طونزند، الفريق تشارلس محاربتي في العراق، أو خواطر طونزند، ترجمة عبد المسيح وزير، بغداد، ١٩٢٣ .
عبد اللّٰهبن الحسين، الملك مذكراتي، القدس، ١٩٤٥ .
عبدو، دكتور ابراهيم إنسان الجزيرة (ابن سعود)، القاهرة، ١٩٥٤ .
عبد الحسين، محمد محنة العرب، بغداد، ١٩٣٦ .
العسكري، تحسين مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى وعن الثورة العراقية ج ١، بغداد، ١٩٣٦ .
العسلي، رفعت كفاح سورية، دمشق، ١٩٣٧ .
عزيز بك سورية ولبنان في الحرب العالمية، ترجمة فؤاد الميداني، بيروت، ١٩٣٣ .
العقاد، دكتور صلاح الدين الاستعمار في الخليج الفارسي، القاهرة، ١٩٥٦ .
عقراوي، متي العراق الحديث، بغداد، ١٩٣٦ .
علوش، ناجي الثوري العربي المعاصر، بيروت، ١٩٦٠ .
العمري، محمد طاهر تاريخ مقدرات العراق السياسية، ج ١، ٢، بغداد، ١٩٢٥ .
غانم، جورج رامح الدرة الغانمية في الحرب الكونية، نيويورك، ١٩٢٢ .
غربال، محمد شفيق العوامل التاريخية، في بناء الأمة العربية، محاضرات (علي الستانسل) ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة، ١٩٥٧ ـــ ١٩٥٨ .
غرايبي عبد الكريم مقدمة تاريخ العرب الحديث (١٥٠٠ ـــ ١٩١٨)، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠ .
الغصين، فائز مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق، ١٩٣٩ .
الغصين، فائز المظالم في سورية، دمشق، ١٩١٩ .
فرنو، ف، و يقظة العالم الإسلامي، ترجمة بهيج شعبان، ج ١، بيروت، ١٩٥٦ .
فرعون، فريق المزهر آل الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، بغداد، ١٩٥٢ .
فؤاد، علي (الجنرال التركي) كيف غزونا مصر، ترجمة الدكتور نجيب الأرمنازي، بيروت، ١٩٦٢ .

فيضي ، سليمان مذكرات (في غمرة النضال) ، بغداد ، ١٩٥٢ .
فيلبي ، عبد الله تاريخ نجد .. ترجمة عمر الديراوي ، بيروت ، بدون تاريخ .
قاضي ، الأب كيريللوس أربعون عاماً في حوران وجبل الدروز ، لبنان ، بلا تاريخ .
قدري الدكتور أحمد مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، دمشق ، ١٩٥٦ .
كرد علي ، محمد خطط الشام ، ج ٣ ، دمشق ، ١٩٢٥ .
كرد علي ، محمد الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية ، بيروت ، ١٩١٦ .
كيرك ، جورج موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الاسكندري ، القاهرة ، ١٩٥٧ من مجموعة الألف كتاب .
كيللر ، الجنرال العرب والاستعمار ، ترجمة دار مكتبة الحياة — بيروت ، بلا تاريخ .
اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني المؤتمر العربي الأول ، القاهرة ، ١٩١٣ .
لودر ، ج د ي ف القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق ، ترجمة نزيه المؤيد العظم ، دمشق ، ١٩٢٥ .
لورنس ، ت ، أي أعمدة الحكمة السبعة ، ترجمة الدكتور محمد سليم النعيمي ، ج ١ ، ٢ ، بغداد ، ١٩٤٧ .
لورنس ، ت أي الثورة في الصحراء ، ترجمة الدكتور رشيد كرم ، ١٩٥٠ .
ماضي ، دكتور محمد عبد الله النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
محبوبة ، جعفر الشيخ باقر آل ماضي النجف ، وحاضرها ، صيدا ، ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤) .
المختار ، صلاح الدين تاريخ المملكة العربية السعودية ، بيروت ، بدون تاريخ .
مزهر ، دكتور يوسف تاريخ لبنان العام ، الجزء الثاني ، بيروت بدون تاريخ .
المقتطف ، والمقطم من كتاب تاريخ الحرب العظمى للمستر ولسن ، مصر ، بدون تاريخ .
الملوحي ، رشدي الزعيم الرئيس شكري القوتلي ، دمشق ، ١٩٤٣ .
موريل ، أ . د حقيقة الحرب العالمية ، ترجمة علي أحمد شكري ، القاهرة ، ١٩٢٢ .
مؤرخ الثورة العربية الملك فيصل الأول ، بيروت ، بدون تاريخ .
مورغنتو ، هنري أسرار الحرب الكبرى في تركيا ، ترجمة ، فؤاد حنا صروف ، ج ١ ، لبنان ١٩٢١ .
النجار ، حسين فوزي السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
نديم ، الزعيم الركن شكري محمود حرب العراق ، ١٩١٤ — ١٩١٨ ، بغداد ، ١٩٦٢ .

نصيف ، حسين بن محمد ماضي الحجاز وحاضره ، الجزء الأول ، لم يذكر مكان الطبع ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠).
نهرو ، البانديت لمحات من تاريخ العالم ، نقله إلى العربية لجنة من الأساتذة الجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٧.
هتلر ، الهر أدولف كفاحي ، ترجمة لويس الحاج ج ١ ، هتلر واليهود ، ج ٣ ، هتلر والأجناس بيروت ، ١٩٥٢.
هندنبرغ ، الماريشال مذكرات ، ترجمة منصفان ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ج ١ ، ٢ .
وليه ، فرناند الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط ، ترجمة نجدة هاجر وطارق شهاب ، بيروت ، ١٩٦٠.
وهبه ، حافظ جزيرة العرب في القرن العشرين ، القاهرة ، ١٩٥٦.
يحيى ، دكتور جلال الثورة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩.
يزبك ، يوسف إبراهيم مؤتمر الشهداء ، بيروت ، ١٩٥٥.
يمين ، الخوري أنطون لبنان في الحرب ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩١٩ ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٢٠.

المجلات العربية والتركية

مجلة الحرب العظمى بعناية عمر أبو النصر — بيروت ، دون تاريخ.
مجلة الحرب العالمية الأولى بعناية عمر أبو النصر — إصدار جديد — بيروت ، دون تاريخ.
مجلة المنار بعناية رشيد رضا ، القاهرة ، من ١٩١٦ إلى ١٩١٨.
مجلة العربي بعناية وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ، العدد ٤٩ (كانون أول ١٩٦٢).
مجلة الرائد العربي بعناية أحمد محمد الغانم في الكويت ، العدد ٢١ (تموز ١٩٦٢).
مجلة الأسبوع العربي بعناية جورج أبو عضل في بيروت ، ١٧٩ (تشرين ثاني ١٩٦٢).
مجلة اليقظة العربية في القرن العشرين بعناية عمر أبو النصر ، بيروت ، العدد ١١ ، بدون تاريخ.
مجلة تورك يوردي بعناية يوسف آقجوره ، الآستانة (آذار ١٩١٥ — آب ١٩١٥).
مجلة إسلام مجموعه سي بعناية حليم ثابت ، الآستانة ، مجلد ٣ (١٣٣٣ هـ ١٩١٤).

المجـلات الفرنسيـة

CORRESPONDANCE D'ORIENT, Directeur GEORGES SAMNE. Paris, Mars 1917, Sept, 1917 etc.

REVUE DU MONDE MUSULMAN, MISSION DU MAROC, Nov. 1908.....

المصـادر باللغة التركيـة القديمة والجديدة

وثائـق قرارات مجلس المبعوثـان التركـي ــ دستـور ، ترتـيب ثاني ، مجلـد ٦ ، ٩ ، ١٠ (١٩١٤ــ١٩١٨).

ــ أديب ، خالدة ــ يكي (يني) توران (توران الجديدة) ، استنبول ، ١٩٢٤ .

أرمسترونغ ، هارون ــ توركيه ناصيل دوغدي (كيـف بعـثت تركيـا) ، ترجمة عمـر رضا عن الإنكليزية ، استنبول ١٩٢٨ .

،ردنجي أوردو ــ عاليه ديوان حرب عرفيسنده رؤيت أولنان مسئلة سياسية حقنده إيضاحات ، استنبول ١٩١٦ .

أمير ، حسين حسني ــ ييلديرم (جيش الصاعقة) ، استنبول ، ١٩٢١ .

أمين ، محمـد ــ بغدا وصوك حادثة ضياعـي (كيـف فقـمدت بغـداد) ، استنبـول ، ١٩٢٢ــ١٩٢٥ .

ساندرس ، المشير ليمان فون ــ توركيه ده بش سنة (خمس سنوات في تركيا) ، ترجمة لجنة التاريخ العسكري التركية للترجمة ، استنبول ، ١٩٢١ .

سيماوي ، لطفي ــ سلطان محمد رشاد خانك وخلفتك سراينده كورد كلرم (مشاهداتي في بلاط السلطان محمد رشاد وخلفه) ، استنبول ، ١٩٢٤ .

عرفي ، صفوت ــ ضيا كوك ألب ومفكوره (ضيا كوك الب والعقائدية) ، استنبول ، ١٩٢٣ .

نور ، دكتور رضا ــ توركيا تاريخي ، استنبول ، ١٩٢٤ .

ABDULHAMID'IN - Hatira Defteri, Istanbul. 1960. مذكرات السلطان عبد الحميد

ATILHAN, CEVAT RIFAT, Yahudiler Nasıl Dunyayı Istila Ediorler, Istanbul, 1962.

BAYUR, YUSUF HIKMET- Turk Inkilabi Tarihi, 1914-1918 Genel Savaşi, I, II, III, Ankara, 1953, 1955, 1957.

CEMAL PAŞA- Hatiraler, Istanbul, 1959. مذكرات جمال باشا

DANIŞMEND, ISMAIL HAMI- Izahlı Osmanli Tarihi Kronologısı, Istanbul, 1961.

ETRUTK, HUSAMETTIN- IKi Devrin Perde Arkasi, Istanbul, 1957.

FORD, Henri: Beynilimifel yahudi, Ankara اليهودية العالمية : ترجمها عن الإنكليزية
1961 – (SERDENGECTI)

KARA BEKIR Kazim: Cihan Harbinde Neden Girdik, Nasil Girdik, Nasil Idare Ettik, Istanbul 1938.

KURAN, Ah. Bedevi: Osmanli Imparatorlugunda Ve Turkiye Cümhuriyetinde. Inkilap Hareketleri, Istanbul 1959.

KURAN, AHMET BEDEVT- Inkilab Tarihimiz Ve Jön Turkler, Istanbul, 1945.

KURAN, AHMET BEDEVI- Inkilab Tarihimmz Ve Ittihat Ve Terakki, Istanbul, 1948.

SABIS, ALI IHSAN- Hatiralerim, I, Istanbul, 1943, II, Ankara, 1951

T. T. T. CEMIYETI REISI TEVFIK BEY- توفيق بك رئيس جمعية تدقيق التاريخ التركي ــ
Tarih, III, Istanbul, 1933. تاريخ ، جزء ثالث

VARDAR, GALIB- Ittihat Ve Terakki Icinde Dönenler, Istanbul, 1960.

المصـــادر الأجنبيـــة

AULENEAU, J.- La Turquie Et La Guerre, Paris, 1915.

ANTONIUS, GEORGE - The Arab Awekening, London, 1945.

ALDINGTON, RICHARD - Lawrence L'Imposteur, Traduit de l'Anglais Par GILLEBERTE MARCHEFAY ET COMPAGNONS, Paris, 1954.

ARMSTRONG, CAPITAINE- Le Maitre D'Arabie Ibn Séoud, Traduit de l'Anglais Par G. ET P. F. CAILLE, Paris, 1935.

ARMITAGE, - Lawrence D'Arabie, Le Désert Et Les Etoiles, Traduit Par S. M. GUILLEMIN, Paris, 1957.

ATALA, - La Syrie, Les Aspects Actuels De La Question Syrienne Paris, 1919.

BREMOND, COLONEL ED. - Le Hedjaz Dans La Guerre Mondiale, Paris, 1931.

CHURCHILL, WINSTON - La Crise Mondiale 1914-1915, Traduit de l'Anglais Par EDMOND DELAGE, Paris, 1925.

DUFFOUR, GENERAL- Histoire De La Guerre Mondiale, I, II, IV, Paris, 1936.

DRIAULT, EDOUARD - La Question D'Orient, Paris, 1921.

EMIN, AHMET, - Turkey And The War, U. S. A. 1930.

EDIB, HALIDE— Conflict of East And West IN Turkey, Lahore; 1935.

ERZBERGER, M.- Souvenirs De Guerre, Paris, 1921.

FERID BEY, MOHAMMED- Etude Sur La Crise Ottomane Actuelle (1914-1915), Genève, 1915.

FERID BEY, MOHAMMED- Les Intrigues Anglaises Contre L'Islam, Lausanne, 1917.

GRAVES, ROBERT- Lawrence Et Les Arabes, Traduit de l'Anglais Par JEANNE ROUSSEL, Paris, 1933.

GAULIS, Mme BERTHES GEORGE- La Question Arabe, Paris, 1930.

GONTAUT- BIRON, COMTE R.DE- Comment La France S'est Installée En Syrie, Paris, 1923.

GAUTHEROT, GUSTAVE- La France En Syrie Et En Cilicie, Paris, 1920.

HUREWITZ, J/C. - Diplomacy In The Near And The Middle East, Documentary Records, U. S.A. 1956.

HAROLD, JACOB- Kings of Arabia, London, 1923.

JUNG, EUGENE- La Révolte Arabe, I, Paris, 1924, II, Paris, 1925.

KAYSER, JACQUES- L'Europe Et La Turquie Nouvelle, Paris, 1922.

LYAUTEY, PIERRE-Le Drame Oriental et le Rôle de la France, Paris, 1923.

LAPRADELLE ET COMPAGNONS-Doc; Diplom. Russes, Constantinoples et les Détroits, I, II, Traduits de l'édition Soviétique par G. GOUSSEL et COMPAGNONS, Paris, 1930.

LLOYD GEORGE, DAVID- Mémoires De Guerre, I, II, Paris, 1934, 1935-Traduit.

MECHIN, BENOIST-Ibn Séoud, de l'anglais par Ch. Bonnefon, La Naissance d'Un Royaume, Paris, 1955.

MIKUSCH, DAGOBERT VON-Moustafa KAMAL Between Europe and Asia, translated from the allemand by JOHN LINTON, London, 1931.

MOUSLEY, CAPIT. EDWARD-Le Siège de Kut-El-Amara, traduit de l'Anglais par le colonel GEORGE CROS, Paris, 1934.

MOUSSALLI, NEBIB-Le Sionisme et la Palestine, Genève, 1919.

MOUTRAN, NADRA-La Syrie de Demain, Paris, 1916.

PICHON, JEAN-Le Partage du Proche-Orient, Paris, 1938.

PICHON, JEAN-Les Origines Orientales de la Guerre Mondiale, Paris, 1937.

PINON: l'Europe et l'Empire Ottoman, Paris, 1917.

POINCARE, REYMOND-Au Service de la France, VII, Paris, 1946.

PAILLARES, MICHEL-Le Kémalisme Devant les Alliés, Paris, 1922.

4ème ARMÉE (Ottom.)-La Vérité sur la Question Syrienne, Stanbul, 1916.

RENOUVIN, PIERRE-La Crise Européenne et la Grande Guerre, Paris, 1939.

ROSSI, ETTORE-Documenti Sull-Origine Egli Swilippi Dela Questions Araba, Roma, 1944.

SPERCO, WILLY-Moustapha Kémal Ataturk, Paris, 1958.

STITT, GEORGE-The Prince of Arabia, the Emir Ali Haidar, London, 1948.

SAMNE, Dr. GEORGES-La Syrie, Paris, 1920.

SEIGNOBOSE, CAPIT-Turcs et Turquie, Paris, 1920.

WILSON, SIR ARNOLD-Loyalties Mésopotamia, Oxford, 1936.

المحتـــوى

المقـدمة ٩
نبذة عن نقد المصادر ١٣

البــاب الأول

العوامـل الداخليـة لانفصـال العرب عـن التـرك

تمهيـد

العلاقات العربية ـــ التركية قبل الحرب وأثرها في الانفصال ٢٥

الفصـــل الأول

دخول تركيا في الحرب وأثره في الانفصال ٣٩
دخول تركيا في الحرب ٤٠
دخول الطرادين «غوبن» و «برسلاو» ٥١
رياح الحرب ٥٤
حادثة البحر الأسود ٥٩
الجهاد وأثره في العالم العربي والإسلامي ٦٧

الفصـــل الـثـانـي

حملة قناة السويس وأثرها في الانفصال.................................. ٩١
سير الحملة ١٠٣
الإنكليز والحملة ١٠٧
الهجوم ١٠٨

الفصـــل الـثـالـث

إجراءات الحرب العسكرية والانهيار الاقتصادي وأثرها في الانفصال ١١٣
قانون التكاليف الحربية ١١٣
الدعوة إلى الخدمة العسكرية ١١٨
الحالة الاقتصادية ١٢٠
الاحتكار ١٢٣
المجاعة وضحاياها ١٢٨
ضحايا الأوبئة ١٣٥
عدد الموتى ١٣٦

الفصل الرابع

نضال العرب الأحرار وإرهاب الطاغية أحمد جمال وأثرهما في الانفصال ١٤١
نضال العرب الأحرار ١٤١
سياسة جمال باشا المتقلبة ١٥٢
سياسة الارهاب ١٦١
جمال باشا ١٦٥
سوق الوشايات وانتزاع الاعترافات بالقوة ١٧٨
قوافل المجد ١٨٤
بطولة الشهداء ١٩٨

الفصل الخامس

علاقة الشريف حسين بالترك وأثرها في الإنفصال ٢٠٧

الباب الثاني

عوامل الانفصال الخارجية وثورة الشريف حسين

الفصل الأول

المفاوضات الإنكليزية ــ العربية وأثرها في الانفصال ٢٤٣
قيمة وعود بريطانيا للشريف ٢٨٥

الفصل الثاني

اتفاقيات الحلفاء لتقسيم الممتلكات العثمانية وتصريح بلفور ٢٨٩
الاتفاقات الفرنسية ــ الروسية ــ الانكليزية ٢٩٢

القضية الفلسطينية وتصريح بلفور ٣١٣
الحركة الصهيونية ٣٢١
اليهود والحرب العالمية الأولى ٣٢٩
تحليل التصريح ٣٤٠

الفصل الثالث

الثورة العربية ٣٤٧
تنظيم الدولة العربية ٣٥٥
تنظيم الجيش ٣٥٧
صدى الثورة لدى الأتراك ٣٦١
صدى الثورة لدى الألمان ٣٦٦
صدى الثورة لدى العرب ٣٦٧
أثر الثورة في أمارات شبه الجزيرة العربية ٣٧٣
مؤتمر الكويت ٣٧٨
صدى الثورة لدى الانكليز والفرنسيين ٣٨٢
الاستيلاء على العقبة وأهميته ٣٩١

الفصل الرابع

حرب العراق وسورية وفلسطين ــ المراحل النهائية للعلاقات العربية ــ التركية ٣٩٧
التطورات السياسية والعسكرية في العراق ٣٩٧
حصار كوت الامارة ٤٠٠
ملاحظات على جبهة العراق ٤٠١

الفصل الخامس

الإنفصال والانهيار العثماني ٤٤٥
سقوط الدكتاتورية الاتحادية ومصير الطغاة ٤٥٦
قيمة المؤازرة العربية للحلفاء وفائدة الثورة ٤٥٩
الخاتمة ٤٦٣
مصادر البحث ٤٦٧